سلسلة شروحات ومؤلفات معالي الشيخ صالح الفوزان (٣٩)

شرح قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة

لشيخ الإسلام
تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية
أجزل الله له المثوبة والمغفرة

الشرح
لفضيلة الشيخ العلامة
الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه
د. سلمان جابر عثمان المجلهم السويلم
غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الجزء الأول

التراث الذهبي
الرياض

مكتبة الإمام الذهبي
الكويت

التوسل والوسيلة

شرح
قاعدة جليلة
في التوسل والوسيلة

الجزء الأول

ⓒ مؤسسة التراث الذهبي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
المجلهم، سلمان جابر بن عثمان
قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، / سلمان بن جابر عثمان
المجلهم،- الرياض، ١٤٤١ هـ
٢ مج.
ردمك: ١-٢-٩١٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
ردمك: ٨-٣-٩١٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)
١- التوسل ٢- العقيدة الاسلامية - دفع مطاعن أ. العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٤١/٢٧٣٨

رقم الإيداع: ١٤٤١/٢٧٣٨
ردمك: ١-٢-٩١٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
ردمك: ٨-٣-٩١٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

الطبعة الأولى
(١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م)

مكتبة الإمام الذهبي للنشر والتوزيع

* الفرع الرئيسي: حولي - شارع المثنى - مجمع البدري
ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦ فاكس: ٢٢٦١٢٠٠٤
* فرع حولي: حولي - شارع الحسن البصري ت ٢٢٦١٥٠٤٦
* فرع المصاحف: حولي - مجمع البدري ت ٢٢٦٢٩٠٧٨
* فرع الفحيحيل: البرج الأخضر - شارع الدبوس ت ٢٥٤٥٦٠٦٩ - ٩٥٥٥٨٦٠٧
* فرع الجهراء: الناصر مول - ت ٩٥٥٥٨٦٠٨
* فرع الرياض: المملكة العربية السعودية - التراث الذهبي: ٠٠٩٦٦ ٥٥٧٧٦٥١٣٨
ص. ب: ١٠٧٥٠ الرمز البريدي ٣٢٠١١ الكويت
الساخن: ت: ٠٠٩٦٥ ٩٤٤٠٥٥٥٩
E-mail: z.zahby74@yahoo.com imamzahby

شرح
قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة

لشيخ الإسلام

تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية

أجزل الله له المثوبة والمغفرة

الشرح

لفضيلة الشيخ العلامة

الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه

د. سلمان جابر عثمان المجلهم السويلم

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الجزء الأول

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه، وبعد:

فقد أذنت لابننا وتلميذنا فضيلة الشيخ الدكتور سلمان بن جابر بن عثمان المجلهم، بطباعة: **شرح قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لابن تيمية رحمه الله.**

رجاء أن ينفع الله به، ويكتب لي وله الأجر.

وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه.

كتبه: د. صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء واللجنة الدائمة

في ٢١/٣/١٤٤٠هـ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ النَّاشِرِ

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله محمد الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فهذا شرح شيخنا العلامة صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور/ صالح ابن فوزان الفوزان -رفع الله مقامه في الدنيا والآخرة- على رسالة قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، لشيخ الإسلام الإمام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني الدمشقي رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه الثواب الكبير والفوز العظيم على ما قدم من مؤلفات نافعة، ورسائل ماتعة.

وقد قام فضيلته بشرحه يوم السبت الموافق: ٢١/ ١١/ ١٤٢٦هـ، وانتهى منه -حفظه الله- يوم السبت الموافق: ٢٢/ ٥/ ١٤٢٩هـ.

ومن هذه المؤلفات الطيبة في موضوع خطير، وهو التوسل إلى الله تعالى التي ضل فيها كثير من الخلق بسبب الجهل، واتباع الهوى، والانحراف في القول والعمل عن الذي دلت عليه نصوص الوحيين الشريفين: كتاب الله جَلَّوَعَلَا وسنة رسوله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع معارضة فهم السلف الصالح، والابتعاد عن طريقة الصحابة والتابعين، وعدم سلوك سبيل المؤمنين.

وقد كان الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحد الأئمة الأعلام، الذين بثوا عقيدة السلف الصالح ودافعوا عنها، وألَّف في ذلك التآليف عظيمة النفع، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ شديد النصرة لطريقة السلف الصالح التي معتمدها كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (مع أني في عمري إلى ساعتي هذه لم أدع أحدًا قط في أصول الدين إلى مذهب حنبلي وغير حنبلي، ولا انتصرت لذلك، ولا أذكره في كلامي، ولا أذكر إلا ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها)[١].

وقد قال العلامة كمال الدين بن الزملكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفي سنة ٧٢٧هـ عن الإمام أحمد بن تيمية: (كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحدًا لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يُعرف أنه ناظر أحدًا فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم سواء أكان من علوم الشرع أم غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه، وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين)[٢].

وقال أيضًا فيه: (اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها)[٣].

وقال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلًا العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد)[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٩).

(٢) انظر: العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص٢٣)، والرد الوافر (ص٥٧، ٥٨)، والشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية (ص٢٩).

(٣) انظر: العقود الدرية (ص٢٤)، والرد الوافر (ص٥٨)، والشهادة الزكية (ص٤٨).

(٤) انظر: الرد الوافر (ص٥٩)، والشهادة الزكية (ص٢٩).

وقد وضع ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ قاعدة شرعية جليلة في التوسل والوسيلة، وبيَّن معتقد أهل السنة والجماعة في التوسل، وكشف عن الانحراف الواقع في قضايا التوسل ومسائله، ولقد أوضح رَحِمَهُ ٱللَّهُ إيضاحًا شافيًا حينما عقد فصلًا في معاني التوسل والوسيلة، وناقش مباحثها المتعلقة بأصل التوحيد الذي لا يقبل الله دينًا غيره.

والوسيلة في لغة العرب هي: القربة، والمنزلة والدرجة، من توسلت إليه أي تقربت، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة:٣٥]، وقال سبحانه: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ [الإسراء:٥٧]، فابتغاء الوسيلة الى الله إنما يكون لمن توسل الى الله بالإيمان بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتِّباعه الاتِّباع الحسن، والتوسل بدعاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشفاعته ينفع مع الإيمان به، وأما بدون الإيمان به فالكفار والمنافقون لا تغني عنهم شفاعة الشافعين في الآخرة.

ومصطلح التوسل فيه إجمال واشتباه يجب أن تعرف معانيه، ويُعطى كل ذي حق حقه، فيُعرف ما ورد به الكتاب والسنة، وما كان يتكلم به الصحابة ويفعلونه رضوان الله عليهم، ثم يُعرف ما أحدثه المحدثون.

فالتوسل المشروع هو الذي أمر الله بابتغائه من الواجبات والمستحبات، وما ليس بواجب ولا مستحب لا يدخل فيه، سواء كان محرمًا أو مكروهًا أو مباحًا، وجماع الوسيلة الشرعية هو: التوسل باتِّباع ما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتوسل المشروع ما كان بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى، أو التوسل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بعمل صالح، أو التوسل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بدعاء الرجل

الصالح، كما جاءت بذلك نصوص الوحي من كلام الله جَلَّ وَعَلَا وكلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد أفاض شيخنا العلامة صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور صالح الفوزان -أثابه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- في شرحه وتعليقه على ما قرره شيخ الاسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية في قاعدته النافعة الرائعة في التوسل والوسيلة، فازداد الخير خيرًا، وكانت بركة فوق بركة من العلم النافع المبارك الذي اتصل بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة الصحيحة، فجزى الله خيرًا الإمام أبو العباس بن تيمية على رسالته مع شيخنا العلامة صالح الفوزان على شرحه نصحًا للمسلمين في كل مكان وزمان في أرجاء المعمورة بفضل الله العظيم الكريم وحده جل شأنه.

وقد طبع الكتاب على نفقة الشيخ أبي عبدالرحمن: مساعد بن علي الشايجي، والشيخ أبي وائل: محمد بن أحمد الفرحان وزوجته الكريمة، غفر الله لهم، وتقبل منهم، وجزاهم خير الجزاء في الدنيا والآخرة.

ومما يشار إليه أن طباعة هذا الكتاب، وريعه والعائد من بيعه، وكل ما بذل فيه هو وقف لله تعالى، وهو مشروع وقفي من أموال وقفية، تقبل الله من الجميع، والله أعلم وأعظم وأحكم وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

د. سلمان جابر عثمان المجلهم السويلم

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلامِ -قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ-:

الحَمْدُ للهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى، وَدِينِ الحَقِّ؛ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا، أَرْسَلَهُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا، فَهَدَى بِهِ مِنَ الضَّلالَةِ، وَبَصَّرَ بِهِ مِنَ الْعَمَى، وَأَرْشَدَ بِهِ مِنَ الْغَيِّ، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَعَبَدَ رَبَّهُ حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

فَفَرْقُ بَيْنَ الحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْهُدَى وَالضَّلالِ، وَالرَّشَادِ وَالْغَيِّ، وَطَرِيقِ أَهْلِ الجَنَّةِ وَطَرِيقِ أَهْلِ النَّارِ، وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ.

الشَّرْح

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

بدأ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الرسالة العظيمة: «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» بهذه الخطبة العظيمة التي بدأها بخطبة الحاجة الواردة عن

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)]، ثم ذكر بعثة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما قام به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أعباء الرسالة، وأداء الأمانة التي كلَّفه الله بها، فما من حلال إلا بيَّنه، وما من حرام إلا بيَّنه بأمر ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خصوصًا في أمر العقيدة والعبادة، وما يتبعهما من الأحكام، فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بلَّغ البلاغ المبين؛ امتثالًا لأمر ربه في قوله تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى:٤٨]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، فبلغ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أنزله الله إليه، ولم يكتم منه شيئًا، حتى أكمل الله به الدين، وأتم به النعمة، ورضي لأمته الإسلام دينًا.

والإسلام هو الذي جاء به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، فهو شامل لكل ما تحتاجه البشرية في عقيدتها، وعبادتها، وأخلاقها، ومعاملاتها، كامل؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣].

ومن خصائصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن الله بعثه إلى الناس كافة، بل بعثه إلى الثقلين: الجن والإنس بشيرًا ونذيرًا. وكان النبي قبله يُبعث إلى قومه خاصة[(٢)]، وربما يتعاصر نبيان في وقت واحد، وكل نبي منهما له أمة يبعثه

---

(١) خطبة الحاجة التي كان يقولها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين يدي حاجته، أخرجها مسلم مختصرة من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٨٦٧)، ومن حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (٨٦٨)، ووردت مطولة ومختصرة من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند أبي داود (١٠٩٧)، والترمذي (١١٠٥)، والنسائي (١٤٠٤)، وابن ماجه (١٨٩٢)، وأحمد (١/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ شرح لها في جزء لطيف.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفيه: «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»، وفي رواية للبخاري (٤٣٨): «**إِلَى النَّاسِ كَافَّةً**».

الله فيها، فلما بعث الله محمدًا صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أمر جميع الناس من أصحاب الملل -كاليهودية، والنصرانية، والأميين الذين ليس لهم ملة شرعية- باتِّباع هذا الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وذلك بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وبقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨]، وبقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، فهذا من خصائصه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. فمن لم يتَّبعه ويؤمن به فهو كافر، ولو كان يزعم أنه على دين اليهود والنصارى، فإن دينهم قد انتهى، ونُسخ بالإسلام الذي جاء به محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والعمل إنما هو بالناسخ، ولا يجوز العمل بالمنسوخ، والله جَلَّوَعَلَا يشرع لخلقه ما يشاء؛ لأنه المشرع، ونحن علينا الامتثال، أما من يقول: لا نتبع إلا فلانًا. فهذا أمر لا يجوز، بل عليه أن يتبع أمر الله؛ لأن الله أمرنا باتِّباع هذا الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فيجب على الناس كافة طاعته واتِّباعه ممن يريد النجاة.

وأما من عاند وكابر، فإنه قد بلغته الرسالة، وقامت عليه الحجة، وحسابه على الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا أضاف إلى كفره بالرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نشر الكفر، ومقاومة الإسلام، وصد الناس عن دين الله، فإنه يُقاتل بالسيف؛ لذلك شرع الله الجهاد في سبيله؛ لأجل قمع المشركين والكفار، وكف كفرهم أن ينتشر؛ ولأجل منعهم عن صد الناس عن دين الله عَزَّوَجَلَّ.

وكذلك الجن يجب عليهم اتِّباع هذا الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقد ذكر الله ذلك في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف:٢٩]؛ لأن القرآن يعنيهم، وهم مطالبون به، فاستمعوا،

﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾؛ كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤]، فالجن استمعوا للقرآن وأنصتوا، ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾، وانتهى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التلاوة ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾، وهكذا يجب على من علم الحق أن يبلغ به قومه وأهل بلده، ولا يكتفي بنفسه، بل يبلغه، فالجن لما سمعوه وتحملوه ذهبوا إلى قومهم منذرين؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾ [التوبة:١٢٢]، لأمرين:

أولًا: يتفقهون.

ثانيًا: ينذرون بعدما يتفقهون.

فلا يكفي التفقه دون إنذار، ولا يكفي الإنذار دون تفقه، بل لابد من الأمرين: أن يتفقه أولًا، ثم ينذر، ويدعو إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف:٢٩، ٣٠]، وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لما سبقه من الكتب ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾، أي: آمنوا برسوله، فهم قد أمروا قومهم أن يجيبوا الدعوة، ويؤمنوا بالرسول محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ من أجل أن يغفر الله لهم، وينجيهم من عذاب أليم ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣٠، ٣١].

فدل على أنه لا مغفرة ولا نجاة من العذاب الأليم إلا بإجابة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأحقاف:٣٢]، لا يعجز الله عَزَّوَجَلَّ، بل الله يأخذه، إما أن يسلط عليه المؤمنين، وإما أن ينزل به عقوبة من عنده؛ لأنه بلغته الحجة، وانقطعت معذرته، فلم يبق إلا العقاب إما عاجلًا، وإما آجلًا.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ استمعوا إلى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن:٢]، فهذا فيه أن الرسول مبعوث إلى الجن، والإنس.

ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بُعث واجه عالمًا يموج بالكفر والشرك والفتن والجهل، فقام بالدعوة إلى الله، وصبر على ما ناله من الأذى، ولم ييأس ولم يقنط، بل صبر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى نصره الله ونصر دينه، ففتح الله به (آذَانًا صُمًّا) لا تسمع الحق في الأول، (وَقُلُوبًا غُلْفًا) مغلفة لا يصل إليها الحق، وهذا قبل بعثة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (وَأَعْيُنًا عُمْيًا) ليس معنى (عُمْيًا) أنها لاتبصر، لكنه عمى عن الحق، فلا تبصر الحق؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩]، فليسوا بعميان لا يرون الطريق، لكن لايبصرون بأعينهم الحق، ولا ينتفعون بها، فهدى الله به من الضلالة التي كان عليها أهل الجاهلية، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وبصر به من العمى.

فالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واجه أهل الأرض كلهم من كتابيين، وأميين، وجن، وإنس، وقام بأعباء الرسالة حتى أظهر الله هذا الدين؛ كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [الفتح:٢٨]، و﴿ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ هو: العلم النافع، ﴿ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ هو: العمل الصالح(١)، فالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعث بالاثنين: بالعلم النافع، وبالعمل الصالح، فلا ينفع علم دون عمل، ولا ينفع عمل دون علم، بل لابد من الاثنين؛ لأن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعث بهما: بالهدى، ودين الحق.

ثم إن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ قبل أن يدخل في الموضوع ذكر أنه لا طريق إلى الله ولا إلى مرضاته ونيل جنته إلا باتباع هذا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:٣١-٣٢]، والذي يحب الله يتبع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي هذا رد على الصوفية الذين يزعمون أنهم يحبون الله، ويعبدونه بالمحبة -كما يقولون- لكنهم لا يتبعون الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما يتبعون أذواقهم، ومواجدهم، ومشائخهم، ويدَّعون إنهم يأخذون عن الله مباشرة، وأنهم ليسوا بحاجة إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنهم عرفوا الله ووصلوا إليه، فليسوا بحاجة إلى الرسل، ولهذا قال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾، فعلامة محبة الله اتِّباع رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن ادعى أنه يحب الله ولا يتبع الرسول، فهو كاذب ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٠٣).

فلا طريق إلى الله إلا بهذا الدين الذي جاء به محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليس لأحد أن يعبد الله بغير ما جاء به هذا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن زعم أنه يتقرب إلى الله، وأنه حسن النية، وحسن القصد، فالطريق مسدود في وجهه؛ لأنه أتى من غير طريق، ومن أتى من غير طريق، فإنه يضيع ويهلك، فلا طريق إلى الله إلا طريق هذا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يجوز تقليد الناس وما هم عليه، وتقليد الكبار والعلماء والرؤساء إذا خالفوا أمر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذلك يقولون يوم القيامة وهم في النار: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب:٦٧].

وهكذا كل من اتَّبع غير الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد بعثته، فإنه قد ضل السبيل، وإن كان يزعم أنه يتقرب إلى الله، وأنه يحب الله، وأنه يقصد الخير؛ لأنه ترك الطريق الصحيح، فهو يمشي مع غير الطريق، مع طريق الضلال، فلا طريق إلى الله إلا من طريق الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك بامتثال سنته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وترك البدع، والمحدثات، والأذواق، والمواجيد التي يدعيها أهل الضلال ... إلى آخر ما يقولون. هذا كله لا يؤدي إلى نتيجة إلا نتيجة سيئة، فالله جَلَّ وَعَلَا حصر الوصول إليه باتِّباع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي أرسله إلى الناس كافة، وليس هو رسول إلى العرب خاصة، وإنما هو إلى العرب والعجم وسائر الإنس والجن[1]، بشيرًا ونذيرًا إلى العالمين، رسالته عالمية، كتابه القرآن عالمي، يسع الناس كلهم، ويسع الأزمان والأمكنة كلها إلى أن تقوم الساعة، فهو دين كامل شامل باق محفوظ بحفظ الله عَزَّ وَجَلَّ من التحريف، والتبديل، والتغيير إلى أن تقوم الساعة، فهذا من رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ بعباده المؤمنين، ومن إقامة الحجة على المعاندين.

(١) كما في حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، تقدم تخريجه (ص١٠).

فَالحَلالُ مَا حَلَّلَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَالحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَالدِّينُ مَا شَرَعَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ. وَقَدْ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى الثَّقَلَيْنِ الجِنِّ وَالْإِنْسِ، فَعَلَى كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ، وَيَتَّبِعَهُ فِي بَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَمُتَابَعَتُهُ هُوَ سَبِيلُ اللهِ وَهُوَ دِينُ اللهِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللهِ، وَهُوَ طَاعَةُ اللهِ، وَهُوَ طَرِيقُ أَوْلِيَاءِ اللهِ، وَهُوَ الْوَسِيلَةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا عِبَادَهُ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة:٣٥]، فَابْتِغَاءُ الْوَسِيلَةِ إِلَى اللهِ إِنَّمَا يَكُونُ لِمَنْ تَوَسَّلَ إِلَى اللهِ بِالْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ وَاتِّبَاعِهِ.

الشَّرْح

دخل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الموضوع، فإذا كان لا يمكن الوصول إلى الله وإلى جنته إلا باتِّباع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه لا يسع إنسيًّا ولا جنيًّا من أهل الأرض إلا أن يتبعه، فمن لم يتبعه فهو في النار، فإذًا: الوسيلة التي توصل إلى الله هي اتِّباع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والوسيلة لغة: السبب الذي يوصل إلى المقصود. والتوسل: التقرب، من وسل إلى الشيء إذا قرب منه(١).

فالذي يُقرب من الله هو اتِّباع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الوسيلة، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة:٣٥]، فالوسيلة هي اتِّباع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعبادة

(١) انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/ ١٨٤١)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٨٥)، ومشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢/ ٢٩٥).

الله وحده لا شريك له، واتِّباع سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيجمع الأمرين: البراءة من الشرك، والبراءة من البدع، فالبراءة من الشرك بعبادة الله وحده لا شريك له، والبراءة من البدع باتباع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذه هي الوسيلة الصحيحة.

أما من يزعم أن الوسيلة أن تجعل بينك وبين الله شخصًا يتوسط لك عند الله، فهذا دين لم يشرعه الله عَزَّوَجَلَّ، والله ما أمرنا أن نتخذ وسائط بيننا وبينه، فبأي كتاب، أو بأي سنة أن الله أو الرسول أمرا أن نتخذ أشخاصًا يتوسطون بيننا وبين الله؟!

إنما الواسطة بين الله وبين عباده الرسل عليهم الصلاة والسلام، يبلغون رسالات ربهم، أما الواسطة التي يتخذها المشركون بأن يجعلوا أشخاصًا أحياءً أو أمواتًا يتوسلون بهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويزعمون أنهم يقربونهم إلى الله زلفى، فهذا باطل، ردَّه الله في القرآن، قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨]، اتخذوهم وسطاء يتوسطون ويشفعون لهم عند الله، ﴿ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، فسمى هذا شركًا، وهم يزعمون أنه عمل صالح، وقال تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ أي: من دون الله، ﴿أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٢].

يقولون: نحن نعلم أنهم لا يضرون، ولا ينفعون، ولا يخلقون، ولا يرزقون، وأن هذا كله بيد الله. يعترفون بتوحيد الربوبية، لكن يقولون:

هؤلاء صالحون لهم مكانة عند الله، ونحن نتوسط بهم. فهل أغلق الله جَلَّوَعَلَا الباب بينك وبينه، ولن يسمع حاجتك حتى تتخذ واسطة تُبلغ مثل ما يُتخذ عند الملوك؟!

الله جَلَّوَعَلَا فتح بابه بالليل والنهار، ادع الله في أي مكان، وأي زمان، وأي لحظة، ارفع يديك إلى الله وادعه، فالله قريب مجيب، ولا تقل بواسطة فلان، ولا بجاه فلان، فإن هذا دين لم يشرعه الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذه المسألة هي التي بنى الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الكتاب عليها، وهي بيان الوسيلة الصحيحة، والوسيلة الباطلة.

والوسيلة الصحيحة: هي الأعمال الصالحة.

والوسيلة الباطلة: هي اتخاذ الأشخاص وسائط بين الناس وبين الله في قضاء حوائجهم ورفع حوائجهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وأما احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥]، وأن الوسيلة هي الأشخاص، فهذا تفسير باطل لا تجدونه في كتب التفسير.

وكذلك قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ [الإسراء:٥٧]، وأن الوسيلة هي العمل الصالح، فعيسى وعزير كانا يدعوهما اليهود والنصارى، والله أخبر أن عيسى وعزيرًا يدعون الله، ويحتاجون إلى الله عَزَّوَجَلَّ يرجون رحمته، ويخافون عذابه، فهم بشر لا يملكون شيئًا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾، أي: يدعوهم المشركون، وهم: عزير، وعيسى، ومريم، والملائكة، يدعونهم من دون الله، ﴿وَيَقُولُونَ

هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨]، فأخبر الله أن هؤلاء عباد، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ ﴾ [الأعراف:١٩٤].

بل إن من العجب أن الإنسان الحي القادر يدعو الميت الهامد من دون الله، ويزعم أنه يقربه إلى الله زلفى، الميت الذي انتهى عمله، ولا يستطيع الزيادة من العمل، ولا التوبة من الذنوب، ولا التصرف، يأتي هذا الحي يدعوه من دون الله، ويستشفع به إلى الله، كحال عُباد القبور عند القبور والأضرحة، يطوفون بها، ويذبحون لها، وينذرون لها، ويقولون: هؤلاء رجال صالحون، ونحن نتوسط بهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ. وهذا هو نفس قول المشركين الأولين ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨]، لكن سبحان الله! يقرؤون القرآن ولايتأملونه، وإنما يأخذون دينهم عن العوائد، أو الأشخاص، وأهل الضلال الذين ليسوا على حق، يقلدونهم، فهم لا يأخذون دينهم عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما يأخذونه عن عاداتهم، وتقاليدهم، وما وجدوا عليه آباءهم، وما أملته عليهم شياطين الإنس والجن، ويُعْرضون عن كتاب الله وسنة رسوله، ولايتأملون، ربما الواحد منهم يحفظ القرآن بالقراءات العشر، ويحفظ السنة ودواوينها عن ظهر قلب، لكن يدعو غير الله، يحمل العلم ولا يعمل به، ولاينتفع به ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا ﴾ [الجمعة:٥]، والعياذ بالله.

هذه حالة يُرثى لها في كثير من العالم الإسلامي اليوم، فلا تجد بلدًا من البلدان إلا وفيه الأضرحة، والقباب، والطائفون، والعاكفون، والذين يذبحون وينذرون لهذه الأضرحة، فهذا من العجائب أن القرآن والسنة معنا

ولكن لا يُلتفت إلى ما فيهما، وإذا دعاهم أحد إلى الله وبيَّن لهم، جعلوه من الخوارج، وقالوا: هذا ينكر كرامات الأولياء، ويبغض الصالحين، ويبغض الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ويشنعون على دعاة الحق، هذا يريد رياسة، يريد منصبًا، يريد مالًا، يريد الظهور، كما قيل للأنبياء من قبل، فهذه مصيبة، والذي يحمل رايتها هو الشيطان لعنه الله، وخلفاؤه من شياطين الإنس والجن يحملون راية التضليل، والدعوة إلى الشرك، ومحاربة التوحيد، ومحاربة ما جاء في الكتاب والسنة، ويقولون: مشايخنا أعلم بالكتاب والسنة، فلو كان هذا باطلًا ما أقروه، فهم أعلم منا بالكتاب والسنة. هكذا يقولون، وهذه حجة داحضة.

والواجب على الذي يريد النجاة لنفسه أن يتبع الحق، ولو خالف ما عليه شيخه، أو رئيسه، أو قبيلته، أو بلده، يطلب الحق، ولو عاداه الناس، ولو ضايقوه، فليصبر على هذا؛ لأن هذا شيء حصل للأنبياء، وللدعاة، والمجددين، فلم يثنهم ذلك عن المضي في سبيل الدعوة.

لكن هذا يحتاج إلى علم قبل، فيتعلم الإنسان قبل أن يباشر الدعوة، يتعلم حتى يواجه الشبهات، ويواجه الاعتراضات لإبطالها، أما إذا كان ليس عنده علم، فسينهزم لأول مرة، فيجب التسلح بالعلم حتى يدحض الإنسان هذه الحجج، ويقيم الحجج الصحيحة، ويوضحها للناس، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

قوله: (فَالحَلَالُ مَا حَلَّلَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ).

ليس لأحد أن يحلل أو يحرم من عنده، فمن فعل ذلك فقد جعل نفسه شريكًا لله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ

مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى:٢١]، فالذي يحلل ويحرم من غير دليل قد اتخذ نفسه شريكًا لله؛ كما قال تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١].

وقد كان عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على دين النصرانية قبل أن يسلم، وكان أبوه وأهل طيءٍ على دين النصرانية، فلما جاء إلى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعلن إسلامه سمع هذه الآية، قال: «يَا رَسُولَ اللهِ، إنا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ». ففهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن العبادة هي الركوع والسجود لهم، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ ما أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ ما حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟»**، قال: بَلَى، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فَتِلْكَ عِبادَتُهُمْ»**(١).

هذا نوع من العبادة، فالذي يطيع مخلوقًا في التحليل والتحريم غير الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد اتخذه مشرعًا كالله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله: (وَالدِّينُ مَا شَرَعَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ). لا ما شرعه الأشياخ، ومشايخ الطرق، وأهل الضلال؛ لأن الدين هو ما شرعه الله ورسوله، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥) بدون «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»، والطبري في تفسيره (١٠/ ١١٤)، والطبراني في الكبير واللفظ له (٢١٨)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٦).

مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الشورى:١٣]، فليس لأحد أن يشرع دينًا من عنده، ومن جاء ببدعة فقد شرع دينًا من عنده، ومن حرم حلالًا أو أحل حرامًا فقد شرع دينًا من عنده، فالدين ما شرعه الله عَزَّوَجَلَّ، فهو الذي يشرع لعباده، والرسول مبلغ عن الله، أما تشريعات الناس في العبادات، أو المعاملات، أو الأخلاق، والآداب، فهي مردودة كلها، إلا ما وافق الدليل من الكتاب والسنة.

قوله: (وَقَدْ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى الثَّقَلَيْنِ الجِنِّ وَالْإِنْسِ). أرسله الله جَلَّوَعَلَا إلى الثقلين بشيرًا ونذيرًا، لابد من اعتقاد هذا، وأن رسالته عامة، والذي يعترف أنه رسول، ويؤمن أنه رسول، لكنه يقول: إن رسالته إلى العرب فقط، أو إلى قومه فقط، فهو كافر؛ لأنه مكذب لله ولرسوله، فلابد من الإيمان، والاعتراف، والإقرار بأنه رسول الله إلى الناس كافة، وأنه لايسع أحدًا إلا اتباعه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما الآن فيوجد من يقول: إن اليهود على حق، والنصارى على حق، والإسلام على حق من باب المجاملة، وإلا فهم لا يرون أن الإسلام على حق، لكن يقولون: هو دين من عرض الأديان، ولا يعترفون أنه ناسخ، ولايعترفون أن الرسول رسالته عامة. وما هذا إلا كفر بالله عَزَّوَجَلَّ، وجحود لرسالة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (فَعَلَى كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ). فليس لأحد أن يقول: أنا لاأحتاج إلى اتِّباع الرسول؛ لأنني أعرف وعندي علم، أو أنا وصلت إلى الله ولست بحاجة إلى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقد ذكر الإمام المجدد محمد بن

عبد الوهاب(١) رَحِمَهُ اللَّهُ في «نواقض الإسلام»(٢) أن من زعم أن أحدًا يسعه الخروج عن شريعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن له أن يعبد الله على الطريقة التي يراها، أو الطريقة السابقة، فإنه يكون مرتدًا عن دين الإسلام.

قوله: (وَيَتَّبِعَهُ فِي بَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ). لا ينفع الاتباع في الظاهر، ويكون الكفر في الباطن، فهذه حال المنافقين، قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١] يقولونه بألسنتهم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾، أي: في نفوسهم وقرارة قلوبهم كاذبون، لكن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله -عَزَّوَجَلَّ، أما الله جَلَّ وَعَلَا فإنه يطلع على الظاهر والباطن، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يطلع إلا على الظاهر، فيقبل إسلامهم، ويقبل شهادتهم بناءً على ظاهرهم.

قوله: (وَالْإِيمَانُ بِهِ وَمُتَابَعَتُهُ). الإيمان والتصديق برسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتِّباعه، فلا يكفي التصديق، وإلا فيوجد من يصدق أنه رسول الله، لكنه لا يتبعه، وهذا كافر، وهو كحال أبي طالب لما اعترف للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) هو: الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي، من بني تميم، ولد سنة خمس عشرة ومائة وألف بالعيينة، نشأ على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وكتب السلف عامة، وارتحل في طلب العلم، فأخذ عن علماء مكة والمدينة والأحساء والبصرة، وبدأ دعوته من حريملاء، ثم العيينة، ثم الدرعية، فشرح الله صدر أمير الدرعية محمد بن سعود لنصرته، فانتشرت دعوته لتشمل نجد وغيرها، توفي سنة ست ومائتين وألف. انظر: عنوان المجد في تاريخ نجد (١/ ٣١وما بعدها)، وعلماء نجد خلال ثمانية قرون (١/ ١٢٥-١٦٨).

(٢) انظر: العقيدة الصحيحة وما يضادها، ونواقض الإسلام (ص٣٩).

أنه حق، لكنه خاف إن اتبعه أن يصير مسبة لقومه ولدين عبدالمطلب، فمنعته الحمية الجاهلية لدين أبيه من أن يتبع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١).

فلا يكفي الاعتراف بالقلب دون اتباع، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا۟ النُّورَ الَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف:١٥٧]، ويقول عن المشركين: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]، ويقول عن اليهود والنصارى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦]، فالاعتراف بالقلب دون اتباعٍ ونطق باللسان لا ينفع.

قوله: (هُوَ سَبِيلُ اللهِ). أي: هو صراط الله، وطريقه الموصل إليه، والسبيل، والطريق، والوسيلة.

قوله: (وَهُوَ دِينُ اللهِ وَهُوَ عِبَادَةُ اللهِ وَهُوَ طَاعَةُ اللهِ). فالذي يعبد الله، ويصلي، ويصوم، ويجتهد، ولكن على غير طريقة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا لا يعبد الله، وإنما يعبد الشيطان، ويعبد هواه.

---

(١) كما في حديث المسيب بن حزن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: «**أَيْ عَمِّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. أخرجه البخاري (٣٨٨٤)، ومسلم (٢٤).

وفي رواية لمسلم (٢٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَمِّهِ: «**قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، قَالَ: لَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ، يَقُولُونَ: إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الْجَزَعُ لَأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ.

قوله: (وَهُوَ طَرِيقُ أَوْلِيَاءِ اللهِ). هو الطريق الوحيد طريق أولياء الله الذين يحبهم، ويحبونه.

قوله: (وَهُوَ الْوَسِيلَةُ). هذا محل الشاهد.

قوله: (وَهُوَ الْوَسِيلَةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا عِبَادَهُ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة:٣٥]). قال المشركون من القبوريين: الوسيلة أن تجعل بينك وبين الله واسطة من الخلق. وقال أهل العلم الراسخون فيه: الوسيلة أن تعبد الله وحده لا شريك له. هذه هي الوسيلة التي أمر الله بها.

قوله: (فَابْتِغَاءُ الْوَسِيلَةِ إِلَى اللهِ إِنَّمَا يَكُونُ لِمَنْ تَوَسَّلَ إِلَى اللهِ بِالْإِيمَانِ بِمُحَمَّد وَاتِّبَاعِهِ). الوسيلة إلى الله هي الإيمان بمحمد ﷺ واتِّباعه، وليست الوسيلة بالأشخاص الذين تجعلهم واسطة بينك وبين الله، سواء كانوا أحياءً، أو أمواتًا، فليسوا وسائل إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وَهَذَا التَّوَسُّلُ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَطَاعَتِهِ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ بَاطِنًا وَظَاهِرًا فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَبَعْدَ مَوْتِهِ، فِي مَشْهَدِهِ وَمَغِيبِهِ، لَا يُسْقِطُ التَّوَسُّلَ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِطَاعَتِهِ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الخَلْقِ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ بَعْدَ قِيَامِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَلَا بِعُذْرٍ مِنَ الْأَعْذَارِ.

وَلَا طَرِيقَ إِلَى كَرَامَةِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، وَالنَّجَاةِ مِنْ هَوَانِهِ وَعَذَابِهِ إِلَّا التَّوَسُّلُ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِطَاعَتِهِ.

الشَّرْح

قوله: (وَهَذَا التَّوَسُّلُ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَطَاعَتِهِ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ بَاطِنًا وَظَاهِرًا فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَبَعْدَ مَوْتِهِ). هذه هي الوسيلة الموصلة إلى الله، وهي طاعة الله جَلَّ وَعَلَا، وطاعة رسوله ﷺ في حياته وبعد موته، فلا وسيلة إلى الله إلا بطاعته، وطاعة رسوله إلى أن تقوم الساعة، أما من زعم أن هناك وسيلة توصل إلى الله بغير ذلك، فإنه كاذب، ومخادع لنفسه ولغيره.

قوله: (فِي مَشْهَدِهِ وَمَغِيبِهِ). أي: في جميع أحواله، فالإنسان يتقي الله حيثما كان، ويكون متعلقًا بالله عَزَّ وَجَلَّ في كل مكان، ولا يخص هذا بحال دون حال، أو مكان دون مكان، بل يكون هذا طريقه إلى الله في كل مكان، وفي كل زمان، وفي كل حال من الأحوال.

قوله: (لَا يُسْقِطُ التَّوَسُّلَ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِطَاعَتِهِ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الخَلْقِ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ). وفي هذا ردٌّ على الصوفية الذين يقولون: إن الإنسان إذا وصل

إلى الله فليس بحاجة إلى الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويسقط عنه متابعته؛ لأنه انتهت حاجته إلى الرسول. هذا الذي تقوله الصوفية، ولذلك إذا قيل لهم: هذا يخالف قول الرسول. قالوا: الرسول إنما هو للعوام، أما نحن فخواص، وقد صلنا إلى الله، فلسنا بحاجة إلى الرسول. ومنهم من يرى أنه من خاصة الخاصة، وهذا كله من تزيين الشيطان وتلاعبه بهم.

قوله: (**بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَلَا بِعُذْرٍ مِنْ الْأَعْذَارِ**). بلوغ الحجة: إذا بلغه القرآن والسنة قامت عليه الحجة، بشرط أن يكون عربيًّا يفهم القرآن ويفهم المعنى، وليس بلازم أن يفهم بالفعل، بل أن يكون عنده استعداد للفهم إذا أراد، أما إذا لم يكن عنده استعداد للفهم كالأعجمي الذي لا يعرف اللسان العربي، فهذا لابد أن يُبيَّن ويُفسر له، ويُترجم له بلغته، أما العربي الذي يسمع القرآن وهو بلسان عربي مبين، ويسمع الأحاديث وهي بلسان عربي مبين، فهذا بمجرد أن تبلغه تقوم عليه الحجة؛ لأنه كان بوسعه أن يسأل عن معناها، أما الذي ما قامت عليه الحجة كمن لم يبلغه القرآن، ومن لم تبلغه السنة بأن كان منقطعًا عن العالم ويعيش في معزل من الأرض، ولم يبلغه شيء، ولم يصل إليه شيء، فهذا من أصحاب الفترة، وهذا أمره إلى الله عَزَّوَجَلَّ. أو كان ممن بلغه القرآن والسنة، ولكنه أعجمي، فهذا لابد أن يُترجم له المعنى؛ حتى تقوم عليه الحجة، فأنت لمَّا تسمع كلامًا أعجميًا، هل تفهم منه شيئًا؟ لا تفهم منه شيئًا؛ لأنه بغير لغتك، فلابد من الترجمة.

قوله: (**وَلَا طَرِيقَ إِلَى كَرَامَةِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ وَالنَّجَاةِ مِنْ هَوَانِهِ وَعَذَابِهِ إِلَّا التَّوَسُّلُ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِطَاعَتِهِ**). هذه هي الوسيلة الصحيحة: الإيمان بالله

وطاعته، هذا باختصار الوسيلة التي توصل إلى الله، وليست الوسيلة ما اخترعه المشركون والقبوريون من أن تجعل بينك وبين الله واسطة من الأموات، أو الأحياء، أو الصالحين، أو الملائكة، أو الأنبياء، فلا يوجد بين الله وبين عباده واسطة في رفع حوائجهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فهو سبحانه يسمع ويرى ويعلم حوائج خلقه، فليس بحاجة إلى أن تجعل بينك وبينه واسطة، لو تهمس في نفسك سيسمعك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]، يعلم ما في نفسك، وما في صدرك، وما في قلبك، وليس هو بحاجة إلى أن تجعل بينك وبينه واسطة تبلغ إليه حاجتك، كما يقوله هؤلاء.

وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَفِيعُ الخَلَائِقِ، صَاحِبُ المَقَامِ المَحْمُودِ الَّذِي يَغْبِطُهُ بِهِ الْأَوَّلُونَ والآخَرُونَ، فَهُوَ أَعْظَمُ الشُّفَعَاءِ قَدْرًا، وَأَعْلَاهُمْ جَاهًا عِنْدَ اللهِ.

الشَّرح

قوله: (وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **شَفِيعُ الخَلَائِقِ)**. هذا بلا شك، والشفاعة حق بالمعنى الصحيح، الشفاعة التي تُطلب من الله، ويكون المشفوع فيه غير مشرك، وغير كافر، يكون من أهل الإيمان، فتُقبل الشفاعة بشرطين:

الشرط الأول: أن تكون الشفاعة بإذن الله، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وليس مثل الرؤساء والملوك حين يشفع عندهم الناس والشفعاء دون إذنهم، بل قد لا يرضون بهذا، لكن يضطرون إلى قبول الشفاعة؛ لأجل مداراة الناس، ورعاية مصالحهم، فالله جَلَّ وَعَلَا ليس كذلك، وليس بحاجة إلى أن تتخذ وسائط تبلغه حاجتك، فهو يعلمها، ويسمعك ويبصر حالتك، فلابد من إذن الله للشافع أن يشفع، لا كالمخلوق يُشفع عنده دون إذن.

الشرط الثاني: أن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد الذين عندهم ذنوب وسيئات، ويستحقون العذاب، فيشفع لهم الشافع عند الله، ويتوسط لهم؛ لتخليصهم من العذاب بدعائه، يدعو الله عَزَّ وَجَلَّ أن يخلص فلانًا، وأن ينقذ فلانًا من العذاب، والشفاعة هنا معناها الدعاء، فيدعو الله عَزَّ وَجَلَّ أن يخلص فلانًا من العذاب، أما الكافر، فالله جَلَّ وَعَلَا يقول في الكفار:

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨]، وقال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨].

قوله: (**صَاحِبُ المَقَامِ المَحْمُودِ**). هذه الشفاعة العامة التي تكون لجميع الناس مسلمين وكفار، وهي الشفاعة في أهل الموقف أن يخلصهم الله من كرب الموقف وهوله وشدته، فيطلب من الله أن يأذن لعباده بالانصراف من الموقف إلى الحساب، وإلى ما بعده، فيأذن الله لهم بعدما يدعوه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويخر ساجدًا بين يديه، ولا يشفع حتى يُقال له: «**ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**»[(١)].

هذه الشفاعة العظمى خاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي المقام المحمود ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]، يحمده الأولون والآخرون على توسطه لهم عند الله بالدعاء أن يخلصهم من كرب الموقف، والرسول حي في ذاك الوقت، وطلب الدعاء من الحي أمر مشروع، أما طلب الشفاعة من الميت، أو الدعاء من الميت، فهذا أمر ممنوع؛ لأن الميت ليس له عمل، فقد انقطع عمله، ولا يقدر أن يعمل شيئًا لا دعاء، ولا غير دعاء.

قوله: (**الَّذِي يَغْبِطُهُ بِهِ الْأَوَّلُونَ والآخَرُونَ**). حينما يشفع، ويقبل الله شفاعته في أهل الموقف.

---

(١) حديث الشفاعة في أهل الموقف أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (فَهُوَ أَعْظَمُ الشُّفَعَاءِ قَدْرًا). الشفعاء كثيرون، يأذن الله عَزَّوَجَلَّ لخلق كثيرين بالشفاعة، فالرسل يشفعون، والصالحون(١)، والأفراط(٢) -وهم الصغار الذين ماتوا قبل البلوغ(٣)، وغيرهم، فالشفعاء كثيرون، لكن الشفاعة الخاصة هذه لا يشاركه فيها أحد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي الشفاعة في أهل الموقف، أما الشفاعة في أهل الذنوب من الموحدين، فيشاركه فيها غيره.

قوله: (وَأَعْلَاهُمْ جَاهًا عِنْدَ اللهِ). لاشك أن له جاهًا عند الله عَزَّوَجَلَّ، لكن لا يُسأل بجاهه، فلا يُقال: أسألك بجاه الرسول، أو بجاه محمد؛ لأن هذه بدعة، وإلا فالرسول له جاه، وكان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عند الله وجيهًا، قال تعالى: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ [آل عمران:٤٥]، وكان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

---

(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه مسلم (١٨٣) أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**شَفَعَتْ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**».

(٢) **الأفراط**: هم الأولاد الصغار الذين ماتوا قبل آبائهم. انظر لسان العرب (٧/ ٣٦٦) مادة (فرط).

(٣) كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الذي أخرجه الترمذي (١٠٦٢)، وأحمد في المسند (١/ ٣٣٤)، وأبو يعلى (٥/ ١٣٨)، والطبراني في الكبير (١٢٨٨٠)، والبيهقي في الكبرى (٤/ ٦٨) أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ مَاتَ لَهُ فَرَطَانِ مِنْ أُمَّتِي أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ**»، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَمَنْ مَاتَ لَهُ فَرَطٌ؟ قَالَ: «**وَمَنْ مَاتَ له فَرَطٌ يا مُوَفَّقَةُ**»، قالَتْ: فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فَرَطٌ؟ قَالَ: «**فَأَنَا فَرَطُ أُمَّتِي لَمْ يُصَابُوا بِمِثْلِي**».

وأخرج النسائي في المجتبى (٤/ ٢٢)، وأحمد في المسند (٣/ ٤٣٦)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٦)، وابن حبان في صحيحه (٧/ ٢٠٩)، والطبراني في الكبير (٥٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٤١) من حديث معاوية بن قرة عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِرَجُلٍ مَاتَ لَهُ وَلَدٌ: «**أَمَا يَسُرُّكَ أَلَا تَأْتِي بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ يَنْتَظِرُكَ**». فَقَالَ رَجُلٌ: أَلَهُ خَاصَّةٌ أَوْ لِكُلِّنَا؟ قال: «**بَلْ لِكُلِّكُمْ**».

وجيهًا أيضًا، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ﴾ أي: موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب:٦٩]، فإذا كان موسى وعيسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ وجيهين عند الله، فمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم منهما، فله جاه عند الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن لا نسأل الله بجاهه؛ لأن هذا الشيء لم يرد، إنما نسأل الله باتِّباعه؛ لأن اتِّباعه طاعة وعبادة، فنتوسل لله بالطاعة والعبادة له، ومنها اتِّباع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٥٣]، فاتِّباع الرسول عمل صالح يتوسل به إلى الله عَزَّوَجَلَّ، أما التوسل إلى الله بنفس جاه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا شيء لم يرد، وإن كان الرسول له جاه عظيم عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى عَنْ مُوسَى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩]، وَقَالَ عَنْ المَسِيحِ: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ [آل عمران:٤٥]، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْظَمُ جَاهًا مِنْ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، لَكِنْ شَفَاعَتُهُ وَدُعَاؤُهُ إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِهِ مَنْ شَفَعَ لَهُ الرَّسُولُ، وَدَعَا لَهُ، فَمَنْ دَعَا لَهُ الرَّسُولُ وَشَفَعَ لَهُ تَوَسَّلَ إِلَى اللهِ بِشَفَاعَتِهِ وَدُعَائِهِ، كَمَا كَانَ أَصْحَابُهُ يَتَوَسَّلُونَ إِلَى اللهِ بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ، وَكَمَا يَتَوَسَّلُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

الشَّرْح

فإذا كان موسى والمسيح عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لهما جاه عند الله، فمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم جاهًا؛ لأنه أفضل الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، لكن كون لهم جاه لايُبيح السؤال بجاههم؛ لأن هذا شيء لم يرد بدليل.

قوله: (لَكِنْ شَفَاعَتُهُ وَدُعَاؤُهُ إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِهِ مَنْ شَفَعَ لَهُ الرَّسُولُ وَدَعَا لَهُ).

شفاعة الرسول حق، ودعاء الرسول حق، وليس من توسل بجاه الرسول أو بحق الرسول؛ لأن هذا شيء لم يرد، إنما من دعا له الرسول، أو شفع له عند الله، فالله يقبل شفاعته.

قوله: (كَمَا كَانَ أَصْحَابُهُ يَتَوَسَّلُونَ إِلَى اللهِ بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ). كانوا يطلبون من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو الله لهم[1]، وهو مجاب الدعوة

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هِيَ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ**»، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ =

صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا شيء مشروع لا بأس به من الرسول ومن غيره، فيجوز أن تأتي إلى رجل صالح، وتقول: يا أخي اسأل الله لي أن يقضي حاجتي، ادع الله لي. هذا لا بأس به بشرط أن يكون هذا الذي تطلب منه الدعاء حيًّا وحاضرًا يسمعك.

قوله: (**وَكَمَا يَتَوَسَّلُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى اللهِ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا**». هذا في الآخرة؛ لأن الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حي في الآخرة، فيتقدمون إليه، ويطلبون منه الشفاعة، أما وهو ميت صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا أحد يطلب منه شيئًا، لا عند قبره، ولا غيره.

=الأَسَدِيُّ، يَرْفَعُ نَمِرَةً عَلَيْهِ، قَالَ: ادْعُ اللهَ لِي يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ**». أخرجه البخاري (٥٨١١)، ومسلم (٢١٦).

وحديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ أُمِّ سُلَيْمٍ، أَنَّهَا قَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللهِ، خَادِمُكَ أَنَسٌ، ادْعُ اللهَ لَهُ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ**». أخرجه البخاري (٦٣٣٤)، ومسلم (٢٤٨٠).

وحديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «مَرِضْتُ، فَعَادَنِي النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ لَا يَرُدَّنِي عَلَى عَقِبِي، قَالَ: «**لَعَلَّ اللهَ يَرْفَعُكَ وَيَنْفَعُ بِكَ نَاسًا**». أخرجه البخاري (٢٧٤٤).

وَلَفْظُ «التَّوَسُّلِ» فِي عُرْفِ الصَّحَابَةِ كَانُوا يَسْتَعْلِمُونَهُ فِي هَذَا المَعْنَى، وَالتَّوَسُّلُ بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ يَنْفَعُ مَعَ الْإِيمَانِ بِهِ، وَأَمَّا بِدُونِ الْإِيمَانِ بِهِ، فَالْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ فِي الْآخِرَةِ.

الشَّرح

قوله: (وَلَفْظُ «التَّوَسُّلِ» فِي عُرْفِ الصَّحَابَةِ كَانُوا يَسْتَعْلِمُونَهُ فِي هَذَا المَعْنَى). هذا لفظ التوسل، وهو التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالأعمال الصالحة، هذا الذي تُفسَّر به الوسيلة، ومن يُراجع التفاسير يجد هذا مدونًا بها؛ كتفسير ابن جرير، وابن كثير، وأئمة أهل التفسير(١).

قوله: (وَالتَّوَسُّلُ بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ يَنْفَعُ مَعَ الْإِيمَانِ بِهِ، وَأَمَّا بِدُونِ الْإِيمَانِ بِهِ فَالْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ فِي الْآخِرَةِ). لا شفاعة الأنبياء، ولا غيرهم، ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨]، الشفاعة إنما تنفع لأهل الإيمان، وهذا شرط من شروط الشفاعة، ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨].

وقد سبق أن التوسل، وهو طلب القرب من الله جَلَّوَعَلَا ينقسم إلى قسمين:

الأول: قسم جائز.

الثاني: قسم ممنوع.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٢٩٠)، وتفسير ابن عطية (٣/ ٤٦٥)، وتفسير القرطبي (٦/ ١٥٩)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٨٢).

والقسم الجائز أنواع:

النوع الأول: أن يتوسل إلى الله جَلَّوَعَلَا بطاعته، فالوسيلة المقربة إلى الله هي طاعته جَلَّوَعَلَا بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وهذا من قِبل العبد نفسه، هو بنفسه يعمل هذا الشيء فيما بينه وبين الله، ولا يحتاج إلى الآخرين، بل يعمل ما يقربه إلى الله جَلَّوَعَلَا، وهذا لاشك أنه من التوسل المشروع، وهو المقرب إلى الله، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة:٣٥]، أي: بطاعته، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فهذا فيه استغناء العبد عن الناس، وإنما هو بنفسه يجعل بينه وبين الله وسيلة بالعبادة، والطاعة، هذا هو الأصل.

النوع الثاني: أن يطلب من غيره أن يدعو الله له، وكان الأصل أنه هو الذي يدعو الله، والله قريب مجيب، ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ [غافر:٦٠]، فالله جَلَّوَعَلَا قريب مجيب، تدعوه أنت بنفسك، والدعاء في حد ذاته عبادة عظيمة(١)، بل هو أعظم أنواع العبادة، فكونك تدعو الله هذا هو الأصل، وفيه استغناء عن الناس، والله وعدك أن يستجيب لك، فلاشك أن الله يستجيب للداعي إذا خلا من الموانع، واستوفى شروط الإجابة، فإن لم يستجب له، فلابد أن هناك أسبابًا من قِبل العبد حالت بينه وبين قبول الدعاء، فعليه أن يُصلح نفسه، لكن إذا احتاج إلى دعاء الصالحين الأحياء

(١) كما في حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ**». أخرجه الترمذي (٣٣٧١)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٩٣). وحديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الدُّعَاءُ هو الْعِبَادَةُ**». أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي(٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (٤/ ٢٧١).

الحاضرين، فلا مانع من ذلك، وهذا من باب الجواز، وإن كان الأفضل تركه، لكن إذا طلبت من عبدٍ صالح حاضر أن يدعو الله لك، فهذا أمر جائز، وهو من التوسل بدعاء الصالحين، وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يطلبون من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو الله لهم، فيدعو لهم، يطلبون منه أن يدعو لهم بالغيث، فيدعو، ويستسقي، فيغيثهم الله، يطلبون منه أن يستغفر لهم، فيستغفر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم(١).

كذلك من غير الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهل الدين والصلاح تطلب من عبد صالح حاضر على قيد الحياة أن يدعو الله لك، فهذا أمر جائز، وقد فعله عمر الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما احتاج الناس إلى المطر طلب من العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يدعو الله لهم؛ لفضل العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقرابته من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدعا الله لهم(٢)، أما الميت، فلا يُطلب منه دعاء، ولا غيره، ولهذا عدل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته إلى العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يطلب من الرسول

---

(١) كما في حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «أَصَابَتِ النَّاسَ سَنَةٌ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ قَامَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلَكَ المَالُ، وَجَاعَ العِيَالُ، فَادْعُ اللهَ لَنَا، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَمَا نَرَى فِي السَّمَاءِ قَزَعَةً، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا وَضَعَهَا حَتَّى ثَارَ السَّحَابُ أَمْثَالَ الجِبَالِ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ المَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...» الحديث. أخرجه البخاري (٩٣٣)، ومسلم (٨٩٧).

(٢) كما في حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»، قَالَ: فَيُسْقَوْنَ. أخرجه البخاري (١٠١٠).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته أن يدعو، مع أنه أفضل من العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأفضل الخلق، لكن الميت لا يُطلب منه شيء؛ لأن أعماله قد انتهت.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ...**»[(١)]. قدمها في حياته، فتستمر بعد موته، لا أن الميت يُنشئ شيئًا بعد موته، فالميت لا يقوم بشيء بعد موته؛ لأن العمل انتهى، لا الدعاء ولا غيره، لا من الرسول ولا من غيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلو كان طلب الدعاء من الميت جائزًا لفعله عمر والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لكن لما علموا أن هذا لا يجوز عدلوا عن الميت الفاضل وهو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الحي المفضول وهو العباس بن عبد المطلب.

كذلك معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الشام لما أجدبوا طلب من يزيد بن الأسود الجرشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)] أن يدعو لهم، وكان رجلاً صالحًا، فدعا لهم[(٣)]، كما فعل

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) هو: يزيد بن الأسود أبو الأسود الجرشي، من سادة التابعين بالشام، أدرك الجاهلية وأسلم في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. انظر: الطبقات الكبرى (٧/ ٤٤٤)، والثقات (٥/ ٥٣٢)، والاستيعاب (٤/ ١٥٧٠)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ١٣٦).

(٣) أخرجه ابن سعد في طبقاته (٧/ ٤٤٤)، واللالكائي في كرامات الأولياء (من شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) (٩/ ٢١٥) عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ الْخَبَائِرِيِّ: «أَنَّ السَّمَاءَ قَحَطَتْ، فَخَرَجَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَأَهْلُ دِمَشْقَ يَسْتَسْقُونَ، فَلَمَّا قَعَدَ مُعَاوِيَةُ عَلَى الْمِنْبَرِ، قَالَ: أَيْنَ يَزِيدُ بْنُ الْأَسْوَدِ الْجُرَشِيُّ؟ فَنَادَاهُ النَّاسُ، فَأَقْبَلَ يَتَخَطَّى النَّاسَ، فَأَمَرَهُ مُعَاوِيَةُ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَقَعَدَ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَشْفِعُ إِلَيْكَ بِخَيْرِنَا وَأَفْضَلِنَا، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَشْفِعُ إِلَيْكَ بِيَزِيدَ بْنِ الْأَسْوَدِ الْجُرَشِيِّ، يَا يَزِيدُ، ارْفَعْ يَدَيْكَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَرَفَعَ النَّاسُ أَيْدِيَهُمْ، فَمَا كَانَ أَوْشَكَ أَنْ ثَارَتْ سَحَابَةٌ فِي الْغَرْبِ كَأَنَّهَا تُرْسٌ، وَهَبَّ لَهَا رِيحٌ فَسَقَتْنَا حَتَّى كَادَ النَّاسُ أَنْ لَا يَبْلُغُوا مَنَازِلَهُمْ». =

عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فطلب الدعاء من الحي الحاضر لا بأس به، لكن الاستغناء عنه، وكون الإنسان يدعو بنفسه أفضل.

وهذا الدعاء هو نوع من الشفاعة، فدعاء المسلمين لإخوانهم، ودعاؤهم في صلاة الجنازة للأموات هذه شفاعة من الأحياء للأموات، وهي أن المسلم يدعو للأموات، ويستغفر لهم، ويترحم عليهم، ويصلي على جنائزهم، هذا من الشفاعة في الدنيا، وحتى للأحياء إذا دعا المسلم لأخيه الحي هذا نوع من الشفاعة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله أَذِن بهذا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠]، فالله أذن أن تدعو لإخوانك الأحياء والأموات، وهذا نوع من الشفاعة الجائزة.

قوله: (فَالْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ فِي الْآخِرَةِ).

طلب الدعاء من الحي، أو الشفاعة في حال الحياة، وفي يوم القيامة إنما تجوز للمؤمنين الذين عندهم أصل الإيمان، أما الكافر فلا تنفعه شفاعة الشافعين، ولا الاستغفار كما سيأتي. والله جَلَّ وَعَلَا قال لنبيه في المنافقين:

= وأخرج نحوه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ١٣٦) عَنِ ابْنِ أَبِي حَمَلَةَ قَالَ: «أَصَابَ النَّاسَ قَحْطٌ بِدِمَشْقَ، وَعَلَى النَّاسِ الضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ، فَخَرَجَ يَسْتَسْقِي، فَقَالَ: أَيْنَ يَزِيدُ بْنُ الْأَسْوَدِ الْجُرَشِيُّ؟ فَلَمْ يُجِبْهُ، فَقَالَ: أَيْنَ يَزِيدُ بْنُ الْأَسْوَدِ؟ فَلَمْ يُجِبْهُ، فَقَالَ: أَيْنَ يَزِيدُ بْنُ الْأَسْوَدِ الْجُرَشِيُّ؟، فَقَالَ: عَزَمْتُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ يَسْمَعُ صَوْتِي إِلَّا قَامَ، فَقَامَ يَزِيدُ بْنُ الْأَسْوَدِ، فَثَنَى جَانِبَيِ الْبُرْنُسِ عَلَى عَاتِقِهِ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّ عِبَادَكَ قَدْ تَقَرَّبُوا بِي إِلَيْكَ فَاسْقِهِمْ»، قَالَ: فَمَا انْصَرَفُوا إِلَّا وَهُمْ يَخُوضُونَ الْأَوْدِيَةَ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّهُ قَدْ شَهَرَنِي فَأَرِحْنِي»، قَالَ: فَمَا أَتَى عَلَيْهِ جُمُعَةٌ حَتَّى مَاتَ».

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة:٨٠]، وقال سبحانه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون:٦]، فالكافر لا يُدعى له بالمغفرة لا حيًّا ولا ميتًا، ولكن يُدعى للكافر الحي بالهداية للإسلام، أما أن يُستغفر له فلا يجوز.

هذه قاعدة عظيمة، (فَالْكُفَّارُ) الأصليون، (وَالْمُنَافِقُونَ) الذين أظهروا الإسلام، وبقوا على الكفر في الباطن لا تنفعهم الشفاعة، (لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ فِي الْآخِرَةِ)، قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨]، ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨].

وَلِهَذَا نُهِيَ عَنْ الِاسْتِغْفَارِ لِعَمِّهِ، وَأَبِيهِ، وَغَيْرِهِمَا مِنْ الْكُفَّارِ، وَنُهِيَ عَنْ الِاسْتِغْفَارِ لِلْمُنَافِقِينَ، وَقِيلَ لَهُ: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [المنافقون:٦]، وَلَكِنَّ الْكُفَّارَ يَتَفَاضَلُونَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَتَفَاضَلُ أَهْلُ الْإِيمَانِ فِي الْإِيمَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:٣٧].

فَإِذَا كَانَ فِي الْكُفَّارِ مَنْ خَفَّ كُفْرُهُ بِسَبَبِ نُصْرَتِهِ وَمَعُونَتِهِ، فَإِنَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتُهُ فِي تَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَنْهُ لَا فِي إِسْقَاطِ الْعَذَابِ بِالْكُلِّيَّةِ؛ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنَّهُ قَالَ: قُلْت يَا رَسُولَ اللهِ، فَهَلْ نَفَعْت أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَك؟ قَالَ: «نَعَمْ هُوَ فِي ضِحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»(١).

وَفِي لَفْظٍ: إِنَّ أَبَا طَالِبٍ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَنْصُرُك وَيَغْضَبُ لَك، فَهَلْ نَفَعَهُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَجَدْته فِي غَمَرَاتٍ مِنْ نَارٍ فَأَخْرَجْته إِلَى ضِحْضَاحٍ»(٢).

وَفِيهِ: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ، فَقَالَ: «لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ فِي ضِحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ»(٣).

وَقَالَ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٣، ٦٢٠٨)، ومسلم (٢٠٩).
(٢) أخرجه مسلم (٢٠٩).
(٣) أخرجه البخاري (٣٨٨٥)، ومسلم (٢١٠).
(٤) أخرجه البخاري (٦٥٦٢)، ومسلم (٢١٣) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشَّرْح

قوله: (وَلِهَذَا نُهِيَ). نُهي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الاستغفار لعمه أبي طالب الذي أحسن إليه، وآواه، وحماه، ونصره، ووقف معه، لكن لما لم يؤمن، وأبى أن يدخل في الدين، فإن الله نهاه أن يستغفر له؛ لأنه مشرك، وذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نزل الموت بأبي طالب، وكان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيًّا معه؛ لأنه أحسن إليه، ودافع عنه، أحب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يموت على الإسلام؛ من أجل أن يدعو، ويستغفر له، فأبى الرجل أن يموت على الإسلام، وآثر أن يبقى على دين المشركين؛ حمية وأنفة، لما قال له الرسول: «**قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**». قالوا له: «أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِالْمُطَّلِبِ؟»؛ لأنهم فهموا أن «لا إله إلا الله» تبطل عبادة الأصنام، فلو قالها أبو طالب، ومات عليها لصار مسلمًا، ويعتبرون هذا عيبًا على آبائه وأجداده، فأخذته الحمية -والعياذ بالله- وقال: «هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِالْمُطَّلِبِ»، ولفظ أنفاسه عند هذا، فصار من أهل النار، فاهتم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حرصه على عمه، وشفقته عليه مقابل ما قام به من الحماية، والنصرة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**»(١). فأنزل الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣]، وقال في أبي طالب خاصة: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦]، فعند ذلك امتنع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الاستغفار لأبي طالب،

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٤).

فدل على أنه لا يُستغفر للمشرك ولا للكافر إذا مات على شركه وكفره، فإنه لايُدعى له، ولا يُترحم عليه، ولا يُستغفر له.

قوله: (**وَلِهَذَا نُهِيَ عَنْ الِاسْتِغْفَارِ لِعَمِّهِ وَأَبِيهِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ الْكُفَّارِ**). ثبت في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زار قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، فقال: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي**»(١)، فمنعه أن يستغفر لها؛ لأنه لا يجوز الاستغفار للمشرك ولو كان من الوالدين أو الأقارب، فإذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنع من الاستغفار لعمه، ولأمه، وأبيه، وأقرب الناس إليه، فهذا دليل على أن الكفار لا يُستغفر لهم، ولايُترحم عليهم، ولا يُدعى لهم بعد موتهم.

قوله: (**وَنُهِيَ عَنْ الِاسْتِغْفَارِ لِلْمُنَافِقِينَ وَقِيلَ لَهُ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾** [المنافقون:٦]). لأنهم ليسوا مسلمين، النفاق الأكبر كفر يخرج من الملة، فلا يُستغفر للمنافق النفاق الأكبر الاعتقادي، أما المنافق النفاق العملي من المسلمين، فهذا يُستغفر له، فإذا وقع في صفة من صفات المنافقين، فهذا نفاق عملي، وهو نفاق أصغر، فيُستغفر له، كما لو كذب في الحديث، أو أخلف الوعد، أو خان الأمانة.

قوله: (**وَلَكِنَّ الْكُفَّارَ يَتَفَاضَلُونَ فِي الْكُفْرِ**). أي: يزيد بعضهم على بعض في الكفر، فالكفر ليس على حد سواء، فكفر أبي طالب أخف من كفر غيره من الوثنيين، وكفر أصحاب النسيء أشد من كفر غيرهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:٣٧].

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والنَّسِيءُ: هو تغيير مواقيت العبادة، كميقات الحج، وأشهر الحج[(١)].

وكان المشركون يتلاعبون بها، وكذلك الأشهر الحرم التي حرَّم الله فيها القتال كانوا يتلاعبون بها، فيقدمون ويؤخرون تغييرًا لدين الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا أشد ما يكون من الكفر، وهو تغيير شرائع الله عَزَّوَجَلَّ، فالكفر يتفاوت كما أن الإيمان يتفاوت، وبعض المؤمنين أكمل إيمانًا من غيرهم.

قوله: (كَمَا يَتَفَاضَلُ أَهْلُ الْإِيمَانِ فِي الْإِيمَانِ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:٣٧]). فالإيمان يزيد وينقص، كما هي عقيدة أهل السنة والجماعة، خلافًا للمرجئة[(٢)] الذين يقولون: الإيمان شيء واحد لا يزيد ولاينقص. وهذا باطل، بل الإيمان يزيد وينقص بنص القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ**»[(٣)]. فهذا دليل على أنه ينقص حتى يبلغ مثقال حبة من خردل، فالإيمان يتفاضل في قلوب الناس، وليس الناس على حد سواء في الإيمان.

وقوله: (قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾). هذا دليل على أن الكفر يشتد ويزيد.

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٩٣)، وتفسير الطبري (١٤/ ٢٤٥)، وتفسير ابن عطية (٢/ ١٤٦)، وتفسير القرطبي (٨/ ١٣٦)، وتفسير ابن كثير (٤/ ١٥١).

(٢) **المرجئة:** قيل من الإرجاء أي: من التأخير لأنهم أخروا العمل عن مسمى الإيمان، وقيل من الرجاء لأنهم يقولون لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وهم فرق شتى. انظر: مقالات الإسلاميين (ص١٣٢)، والفرق بين الفِرق (ص١٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (فَإِذَا كَانَ فِي الْكُفَّارِ مَنْ خَفَّ كُفْرُهُ بِسَبَبِ نُصْرَتِهِ وَمَعُونَتِهِ). هذا خاص بأبي طالب، فهو أخف الكفار كفرًا؛ بسبب أنه ناصر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووقف معه المواقف الجيدة، ولم يتجرأ المشركون على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى مات أبو طالب، فهو أخف من غيره في الكفر، ولذلك يُخفف عنه العذاب بشفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شفع له حتى خُفف عنه العذاب، ولم يشفع له في إخراجه من النار؛ لأن الكافر لا يخرج من النار، لا بشفاعةٍ ولا بغيرها، بل هو خالد مخلد فيها. فهذه الشفاعة في الكافر خاصة بأبي طالب، وخاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (فَإِنَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتُهُ فِي تَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَنْهُ لَا فِي إِسْقَاطِ الْعَذَابِ بِالْكُلِّيَّةِ). لأن الكافر الذي مات على الكفر يُخلد في العذاب، ويُخلد في النار، لكن قد يُخفف عنه العذاب بسبب عمل عمله من أعمال الخير، كما فعل أبو طالب مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**». دليل على أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شفع لأبي طالب في تخفيف العذاب عنه حتى صار في ضحضاح من نار، ولم يكن في غمرات جهنم، ولولا شفاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لصار في غمرات النار، وفي قعرها -والعياذ بالله.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هو فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ**». فهو أخف أهل النار عذابًا، لكنه من شدة الألم يرى أنه أشد أهل النار عذابًا، فكيف بالذي في غمرات النار -والعياذ بالله- إذا كان هذا

أخفهم يغلي دماغه من شدة العذاب الذي في رجليه، وفي نعليه، فكيف بالذي تغمره النار من جميع جوانبه -والعياذ بالله-؟!

هذه المسألة، وهي قبول الشفاعة فيه خاصة بأبي طالب، وخاصة بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يجوز لمسلم أن يشفع لكافر، ويقول: اللهم خفف عنه العذاب. لأنه لم يرد أن الصحابة كانوا يدعون لأقاربهم ومن أحسن إليهم من الكفار بتخفيف العذاب عنهم، فدل على أن هذا خاص بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَكَذَلِكَ يَنْفَعُ دُعَاؤُهُ لَهُمْ بِأَلا يُعَجَّلَ عَلَيْهِمْ الْعَذَابُ فِي الدُّنْيَا، كَمَا كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْكِي نَبِيًّا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ، وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»[1]. وَرُوِيَ أَنَّهُ دَعَا بِذَلِكَ أَن اغْفِرْ لَهُمْ فَلَا تُعَجِّلْ عَلَيْهِمْ الْعَذَابَ فِي الدُّنْيَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر:٤٥].

وَأَيْضًا: فَقَدْ يَدْعُو لِبَعْضِ الْكُفَّارِ بِأَنْ يَهْدِيَهُ اللهُ، أَوْ يَرْزُقَهُ، فَيَهْدِيَهُ، أَوْ يَرْزُقَهُ كَمَا دَعَا لِأُمِّ أَبِي هُرَيْرَةَ حَتَّى هَدَاهَا اللهُ[2]. وَكَمَا دَعَا لِدَوْس فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ»[3]. فَهَدَاهُمْ اللهُ. وَكَمَا رَوَى أَبو دَاوُد أَنَّهُ اسْتَسْقَى لِبَعْضِ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَسْتَسْقِيَ لَهُمْ فَاسْتَسْقَى لَهُمْ[4]. وَكَانَ ذَلِكَ إِحْسَانًا مِنْهُ إِلَيْهِمْ يَتَأَلَّفُ بِهِ قُلُوبَهُمْ كَمَا كَانَ يَتَأَلَّفُهُمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٩١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٣٧)، ومسلم (٢٥٢٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) لم أقف عليه في سنن أبي داود، والحديث أخرجه البخاري (٤٨٢١)، ومسلم (٢٧٩٨) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «إِنَّ قُرَيْشًا لَمَّا اسْتَعْصَوْا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا عَلَيْهِمْ بِسِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ، فَأَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَجَهْدٌ حَتَّى أَكَلُوا العِظَامَ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الجَهْدِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان:١٠-١١]. قَالَ: فَأُتِيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، اسْتَسْقِ اللهَ لِمُضَرَ، فَإِنَّهَا قَدْ هَلَكَتْ، قَالَ: «لِمُضَرَ؟ إِنَّكَ لَجَرِيءٌ»، فَاسْتَسْقَى لَهُمْ فَسُقُوا».

الشَّرح

قوله: (وَكَذَلِكَ يَنْفَعُ دُعَاؤُهُ لَهُمْ بِأَلا يُعَجَّلَ عَلَيْهِمْ الْعَذَابُ فِي الدُّنْيَا).

كما دعا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمشركين أن يرفع الله عنهم القحط والجدب الذي أضر بهم، فرفعه الله عنهم، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فلا يفعل الرسول هذا في الكفار.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**». هذا في واقعة أحد لما شجوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأسالوا دمه، فجعل يمسح الدم، ويحكي قصة نبي من الأنبياء قبله أنهم آذوه فقال: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي**». هذا فيما سبق، فالرسول لم يستغفر للمشركين في أحد، وإنما حكى قصة نبي من السابقين، وهذا في شرع من قبلنا، أما في شرعنا فلا يجوز الاستغفار للمشركين، فلا يُحتج بهذا أنه يجوز الاستغفار للمشركين، هذا من ناحية.

ثانيًا: أن هذا في الدنيا وليس في الآخرة، فلا يُستغفر للمشركين في الآخرة، أو يُدعى لهم في الآخرة، وإنما هذا في الدنيا أن يرزقهم الله، ويخفف عنهم الجدب، ويرفع عنهم البلاء في الدنيا، فأمور الدنيا غير أمور الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾. أي بأفعالهم وكفرهم، ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: يؤجل عذابهم إلى أجل محدد في علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا دليل على أن العذاب قد يؤجل عن الكفار في الدنيا، ولذلك أسباب، منها: أن النبي يدعو بتأجيله عنهم.

قوله: (فَقَدْ يَدْعُو لِبَعْضِ الْكُفَّارِ بِأَنْ يَهْدِيَهُ اللهُ أَوْ يَرْزُقَهُ، فَيَهْدِيَهُ أَوْ يَرْزُقَهُ).

لاشك أن هذا مطلوب أن تدعو للكافر أن يهديه الله للإسلام أو يرزقه، لعل الله أن يستجيب لك.

قوله: (كَمَا دَعَا لِأُمِّ أَبِي هُرَيْرَةَ حَتَّى هَدَاهَا اللهُ، وَكَمَا دَعَا لِدَوْس، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ»، فَهَدَاهُمْ اللهُ). أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قبيلة دوس، وكذلك أمه، وقد دعا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمه بالهداية، فهداها الله، وكذلك دعا لقبيلة دوس بالهداية، فهداهم الله، وجاؤوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبايعوه. فالدعاء للكفار بالهداية أمر مطلوب، وكذلك الدعاء لهم بالرزق، ورفع العذاب عنهم وتأجيله، هذا لا بأس به، أما الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة فلا يجوز.

قوله: (وَكَمَا رَوَى أَبُو دَاوُد أَنَّهُ اسْتَسْقَى لِبَعْضِ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَسْتَسْقِيَ لَهُمْ فَاسْتَسْقَى لَهُمْ). لما اشتد أذى المشركين بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دعا عليهم فقال: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ»[(١)]. فاستجاب الله له، فمنع عنهم القطر، وأمحلت أرضهم، وهلكت أموالهم، فجاؤوا إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعطفونه، ويطلبون منه أن يدعو الله لهم بالمطر والاستقساء، فأجابهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودعا لهم بالسقيا والمطر.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (وَكَانَ ذَلِكَ إِحْسَانًا مِنْهُ إِلَيْهِمْ يَتَأَلَّفُ بِهِ قُلُوبَهُمْ كَمَا كَانَ يَتَأَلَّفُهُمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ). هذه هي الحكمة أنه دعا لهم لا محبةً لهم، وإنما من باب بذل المعروف، وترغيبهم في الإسلام.

وقد كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتألف الكفار بالعطاء، والأموال، ويرغبهم في الإسلام، فتألف الكفار أمر مطلوب، بل إن المؤلفة قلوبهم لهم نصيب في الزكاة؛ لأن هذا من أنواع الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فمن أنواع الدعوة: الإحسان إليهم؛ لأن الإحسان يؤثر فيهم، أما أن تقابل الكافر بالغلظة، والشدة، والقسوة، وتطلب منه أنه يدخل في الإسلام، هذا مما ينفره عن الإسلام، لكن تقابله بالكلام بالحكمة، والموعظة، والجدال بالتي هي أحسن، والاستعطاف، لعله يتوب، وهذا من أعظم أنواع الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥]. ادعهم بالترغيب والتوبة، وبيِّن لهم محاسن هذا الدين، وماذا يكون لهم لو أسلموا، وحذرهم من الكفر وعواقبه، ولا تقابلهم بالقسوة، والشدة، والغلظة، إلا من يستحق في مسألة الجهاد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة:١٢٣]، فإذا وصل الأمر إلى الجهاد والقتال، فلا مواربة في الجهاد والقتال، إنما هذا قبل أن يصل إلى مرحلة الجهاد، ما دام الأمر في نطاق الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وَقَدْ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْظَمُ الخَلْقِ جَاهًا عِنْدَ اللهِ، لَا جَاهَ لِمَخْلُوقٍ عِنْدَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ جَاهِهِ، وَلَا شَفَاعَةَ أَعْظَمُ مِنْ شَفَاعَتِهِ، لَكِنَّ دُعَاءَ الْأَنْبِيَاءِ وَشَفَاعَتَهُمْ لَيْسَ بِمَنْزِلَةِ الْإِيمَانِ بِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِهِمْ وَطَاعَتَهُمْ يُوجِبُ سَعَادَةَ الْآخِرَةِ، وَالنَّجَاةَ مِنَ الْعَذَابِ مُطْلَقًا وَعَامًّا، فَكُلُّ مَنْ مَاتَ مُؤْمِنًا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، مُطِيعًا للهِ وَرَسُولِهِ، كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ قَطْعًا، وَمَنْ مَاتَ كَافِرًا بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ قَطْعًا.

الشَّرْح

قوله: (وَقَدْ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْظَمُ الخَلْقِ جَاهًا عِنْدَ اللهِ).

الله جَلَّ وَعَلَا ذكر أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان وجيهًا، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب:٦٩]، أي: له وجاهة وقرب من الله جَلَّ وَعَلَا، وقال في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ -أيضًا-: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران:٤٥]، فإذا كان هذا في موسى وعيسى، وكذلك غيرهم من الأنبياء لهم جاه عند الله، فالرسول أعظم جاهًا عند الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنه إمام المرسلين، وخاتم النبيين، وأفضل الخلائق أجمعين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو أعظم جاهًا عند الله جَلَّ وَعَلَا، ولكن لا يجوز السؤال بجاه أحد -لا نبي ولا غيره- لأنه أمر مبتدع، فلا تقل: اللهم اغفر لي بجاه نبيك، أو بجاه موسى عندك، أو بجاه عيسى، أو بجاه عبادك الصالحين. لا يجوز ذلك؛ لأنه وسيلة من وسائل الشرك، فيسأل

أولًا بجاهه، ثم يترقى إلى أن يسأل بالشخص، ثم يترقى الأمر إلى أن يعبد الشخص ويتقرب إليه من دون الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك كما فعل المشركون الذين يدعون ويتعبدون للأصنام، والملائكة، والصالحين ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، ويقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]. فالسؤال بالجاه من وسائل الشرك، وهو بدعة لم يرد به دليل، مع أن الجاه موجود للرسول، وموجود لموسى وعيسى، ولغيرهم من الأنبياء، ومع هذا لم يشرع الله لنا السؤال بجاه أحد من خلقه.

قوله: (**أَعْظَمُ الخَلْقِ جَاهًا عِنْدَ اللهِ**). فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم الخلق قدرًا عند الله، وهو إمام المرسلين، وأفضل المرسلين، خاتم النبيين، بُعث إلى الناس كافة، وكان الرسل من قبله يبعثون إلى أقوامهم خاصة[١]، وأعطي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الخصائص ما لا يشاركه فيها غيره من الأنبياء، فهو أعظم جاهًا عند الله، ومع هذا لم يُشرع لنا أن نسأل الله بجاهه، فدل على أن السؤال بالجاه بدعة، ووسيلة من وسائل الشرك، وليس هذا من اتخاذ الوسيلة، ولا يدخل في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾.

قوله: (**لَا جَاهَ لِمَخْلُوقٍ عِنْدَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ جَاهِهِ، وَلَا شَفَاعَةَ أَعْظَمُ مِنْ شَفَاعَتِهِ**). والشفاعة حق -كما سيأتي- وأعظم الشافعين هو نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٠).

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ وَالدُّعَاءُ، فَانْتِفَاعُ الْعِبَادِ بِهِ مَوْقُوفٌ عَلَى شُرُوطٍ، وَلَهُ مَوَانِعُ، فَالشَّفَاعَةُ لِلْكُفَّارِ بِالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمْ مَعَ مَوْتِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ لَا تَنْفَعُهُمْ، وَلَوْ كَانَ الشَّفِيعُ أَعْظَمَ الشُّفَعَاءِ جَاهًا، فَلَا شَفِيعَ أَعْظَمُ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ الْخَلِيلُ إِبْرَاهِيمُ، وَقَدْ دَعَا الْخَلِيلُ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم:٤١]. وَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَادَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِأَبِي طَالِبٍ اقْتِدَاءً بِإِبْرَاهِيمَ، وَأَرَادَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِبَعْضِ أَقَارِبِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣]، ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ عُذْرَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة:١١٤- ١١٥].

الشَّرح

قوله: (وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ وَالدُّعَاءُ فَانْتِفَاعُ الْعِبَادِ بِهِ مَوْقُوفٌ عَلَى شُرُوطٍ وَلَهُ مَوَانِعُ). الذي يقرب إلى الله جَلَّ وَعَلَا هو الإيمان بالرسل واتِّباعهم، وليس الذي يقرب إلى الله جَلَّ وَعَلَا دعاء الرسل أنفسهم، أو الاستغاثة بهم بعد موتهم، أو الذبح والنذر لهم، فهذا شرك، وهذا فعل الجاهلية، قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨] يصرفون لهم العبادة، ويقولون: هؤلاء شفعاء، ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، اعترفوا أنهم يعبدونهم، فقالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ﴾، وليس المقصود من التقرب إلى الأنبياء أننا نتقرب إليهم بالعبادة، ونصرف العبادة لهم، وإنما المقصود أننا نتَّبعهم، فمن أراد أن ينتفع بالأنبياء وبشفاعتهم، فليؤمن بهم ويطيعهم، وأما من اتخذهم آلهة يعبدهم من دون الله، ويزعم أنهم يشفعون له، كما كان المشركون، فهذا من الباطل، وهذا هو الذي قاتل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فعله من المشركين.

قوله: (**فَالشَّفَاعَةُ لِلْكُفَّارِ بِالنَّجَاةِ مِنْ النَّارِ وَالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ مَعَ مَوْتِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ لَا تَنْفَعُهُمْ**). الشفاعة للكفار والاستغفار لهم بعد موتهم لا يجوز من أحد، حتى ولو من أفضل الخلق محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو غيره من النبيين الصالحين، بل الواجب على المسلم أن يتبرأ منهم ومن دينهم، هذا أمر معلوم، ولا تنفعهم شفاعة الشفعاء يوم القيامة إذا ماتوا على الكفر، ولا ينفعهم الاستغفار والدعاء لهم؛ لأنه مردود عند الله عَزَّ وَجَلَّ. فهذا أمر يجب التفطن له، وهذا هو المقصود من اتخاذ الأنبياء وسائط بين العبد وبين ربه، فاتخاذهم وسائط يكون في تبليغ الرسالة، واتخاذهم وسائط في دعاء الله لنا والاستغفار لنا لا بأس به في حال حياتهم، أما اتخاذهم وسائط بأن نتقرب إليهم بالعبادة، والذبح، والنذر، وغير ذلك؛ كما يفعله القبوريون، فهذا أمر باطل وحابط، ولاينفع أصحابه لا في الدنيا ولا في الآخرة.

قوله: (**وَلَوْ كَانَ الشَّفِيعُ أَعْظَمَ الشُّفَعَاءِ جَاهًا**). قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨]، هذا مطلق، حتى ولو كان الشافع هو أعظم الخلق

جاهًا عند الله، وهو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد قال الله جَلَّ وَعَلَا له: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة:٨٠]، مع أن المستغفر هو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنهم لم يكونوا على الإيمان، وقال في عمه أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:١١٣]. فلا يجوز للنبي أن يستغفر للمشركين، ولا أن يشفع لهم يوم القيامة، ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾، أي شافع لا تنفع شفاعته للكافر يوم القيامة.

وهؤلاء الذين يأتون إلى القبور، ويذبحون وينذرون لها، ويقولون: نحن نتوسط بأصحابها. هؤلاء أشركوا بالله الشرك الأكبر، فلا تنفعهم الشفاعة يوم القيامة، ولا يدخلون تحت الشفاعة يوم القيامة ما داموا على الشرك، وعبادة غير الله عَزَّوَجَلَّ. كيف تطلب من الرسول، أو من الرجل الصالح أن يشفع لك، وأنت مشرك تعبد غير الله؟ هذا لن يكون أبدًا، هذا محال، فإذا أردت أن تنفعك شفاعة الشافعين بإذن الله، فعليك بالتوحيد والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، حتى تنفعك شفاعة الشافعين.

أما من كان على الشرك الأكبر، فلا تنفعه شفاعة الشافعين، ولو تعب وسهر الليالي، ولو جاء من بعيد زائرًا للقبر، أو أقام عنده، أو ذبح، أو نذر، أو أنفق الأموال، كل هذا باطل وهباء منثور، ولا ينفعه عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: (فَلَا شَفِيعَ أَعْظَمُ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ثُمَّ الخَلِيلُ إِبْرَاهِيمُ).**

إذا كان الله منع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستغفر لعمه أبي طالب، ونهاه عن

ذلك بقوله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة:١١٣]، وإذا كان الله منع الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يستغفر لأبيه، مع أن الخليل هو أفضل الخلق بعد نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمنعه الله أن يستغفر لأبيه أقرب الناس إليه؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة:١١٤]، ولمَّا سمع بعض المسلمين هذه الآية -وكانوا يستغفرون لأقاربهم المشركين- ندموا وخافوا، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة:١١٥]، فإذا فعل الإنسان فعلًا عن جهل، ولم يبلغه نهي عن ذلك، فإنه يُعفى عنه.

لكن هؤلاء القبوريون بلغهم أن هذا لا ينفع، وأنه منهي عنه، وأنه حرام وشرك، ومع ذلك أبوا أن يمتثلوا، واستمروا على الضلال، فهؤلاء عصوا الله على بصيرة بعدما تبين لهم الحق، فلا يُقال: إن هؤلاء جهال، وفعلوا هذا عن جهل، فبعد بعثة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زال الجهل؛ لأن القرآن موجود، والسنة موجودة، والعلماء موجودون، وأصوات العلماء تتردد عليهم في الصباح والمساء في النهي عن ذلك، وإبلاغ هذا الدين، لكنهم لا يسمعون، واستمروا على ما هم عليه، فهؤلاء ليس لهم حجة، ولا يُقال: إنهم جُهال؛ لأنه زال جهلهم، وبلغتهم الحجة، فلا يُعذرون بهذا.

قوله: (وَقَدْ دَعَا الخَلِيلُ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم:٤١]).

لأنه وعد قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧]، وعد أباه فنفذ وعده، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة:١١٤]، فترك الاستغفار له، فلا يأتينا مغالط ويقول: القرآن فيه أن إبراهيم استغفر لأبيه، وهو مشرك. نقول: نعم، استغفر له، لكن الله لم يقره على ذلك.

قوله: (**وَقَدْ كَانَ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أَرَادَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِأَبِي طَالِبٍ اقْتِدَاءً بِإِبْرَاهِيمَ**). الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ همَّ أن يدعو لعمه بعد موته، فمنعه الله من ذلك، فقال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:١١٣].

قوله: (**ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ عُذْرَ إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ:** ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٤-١١٥]). وفي هذه الآية قطع للشبهة أن يحتج أحد باستغفار إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأبيه، أو يحتج أحد بأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ همَّ أن يدعو لعمه أبي طالب وهو مشرك، فنقول: الله لم يقر محمدًا ولا إبراهيم -عليهما الصلاة والسلام- على هذا الشيء، بل نهاهما عن ذلك، فانتهيا عنه، فلا حجة في ذلك لمغالط أو مكابر، والله ساقه مساق الإنكار، ولم يسقه مساق الإقرار؛ حتى يكون فيه حجة، فالقرآن ما ترك شيئًا إلا وبينه للناس، فرد على الشبهات والحجج الداحضة، ما ترك شيئًا يتعذر

الناس به إلا وبينه، ولكن أين الذي يرجع إلى القرآن بحرص وعقيدة طيبة، ويريد أن يستفيد من القرآن؟!

قلَّ من يفعل ذلك، وإنما كثير من الناس من يقرأ القرآن قراءة عابرة، يتغنى به ويجوده، ويحسن الصوت به، وأما أن يتأمله، ويعمل بما فيه، ويُتفقه فيه، فقليل من الناس من يفعل ذلك.

وَثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ لَهُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ. فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ أَنْتَ وَعَدْتَنِي أَلَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، وَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: انْظُرْ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ، فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُتَلَطِّخٍ[(١)]، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ»[(٢)]، فَهَذَا لَمَّا مَاتَ مُشْرِكًا لَمْ يَنْفَعْهُ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ مَعَ عِظَمِ جَاهِهِ وَقَدْرِهِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة:٤-٥]، فَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَتَأَسَّوْا بِإِبْرَاهِيمَ، وَمَنِ اتَّبَعَهُ، إِلَّا فِي قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾، فَإِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ.

---

(١) قال ابن حجر: «الذيخ -بكسر الذال المعجمة بعدها تحتانية ساكنة ثم خاء معجمة-: ذكر الضباع، وقيل: لا يُقال له ذيخ إلا إذا كان كثير الشعر ... وقوله: «متلطخ» قال بعض الشراح: أي في رجيع أو دم أو طين». انظر: فتح الباري (٨/ ٥٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشَّرح

قوله: (فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُتَلَطِّخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ). هذا مصير أبي إبراهيم يوم القيامة، وهذا موقف إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه إذا رآه في هذه الحالة رقَّ له، وطلب من ربه ألا يخزيه فيه؛ لأنه طلب من ربه في الدنيا ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء:٨٧]، فهو قال لربه: (يَا رَبِّ أَنْتَ وَعَدْتَنِي أَلَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، وَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟) أي خزي أشد من أن يرى أباه بهذه الصورة؟ فاستجاب الله له وغيَّر صورة أباه من آدمي ومسخه إلى صورة ذيخ مشوهة -والذيخ: هو ذكر الضباع- فعند ذلك يُلقى في النار.

قوله: (فَهَذَا لَمَّا مَاتَ مُشْرِكًا لَمْ يَنْفَعْهُ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ مَعَ عِظَمِ جَاهِهِ وَقَدْرِهِ). لم ينفعه استغفار إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع عظم جاه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عند الله عَزَّ وَجَلَّ، فدل على أن المشرك لا ينفعه استغفار ولا شفاعة، مهما كان المستغفر والشافع.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نهى المؤمنين أن يتخذوا عدوه وعدوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة؛ لأن الله أوجب بغض الكافرين، وبغض ما هم عليه؛ حتى لا يتأثر المسلم بدينهم، أو يعصي الله بمحبتهم، والله يبغضهم، فقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ﴾ أي: قدوة ﴿حَسَنَةٌ﴾، فالاقتداء إنما يكون بالشيء الحسن في الدين والدنيا، ولا يكون الاقتداء بالشيء السيئ، ولا يكون الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- إلا على شيء حسن، ﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ خليل الله، ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ من المؤمنين، ﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ﴾ صارحوهم بذلك. وانظر

إلى قوله: ﴿لِقَوۡمِهِمۡ﴾، فيبدؤون بقومهم وإن كانوا أقرب الناس إليهم، فكيف بغيرهم من الكفار والمشركين؟

فيتبرؤون من قومهم وأقاربهم إذا كانوا أعداءً لله، ولرسوله، ولدين الإسلام: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ﴾ والبراءة معناها: الانقطاع والبعد عن الكفار وما هم عليه في دينهم، ﴿وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فلا يكفي أن يتبرؤوا من الكفار دون أن يتبرؤوا من دينهم، ولا أن يتبرؤوا من دينهم دون أن يتبرؤوا منهم، فالبراءة من الكفار ودينهم؛ لأننا سمعنا من يقول الآن: نحن نتبرأ من دين الكفار، لكن لا نتبرأ من الكفار. وهذا خلاف ملة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإن ملة إبراهيم التي أمرنا باتباعها: البراءة من الكفار، ومن دينهم، ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ثم أكدوا ذلك بقولهم: ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾، أي: اعتقدنا بطلان ما أنتم عليه، وذلك من باب التأكيد.

وهذا هو الواجب على المسلم أن يكفر بالطاغوت، ويؤمن بالله، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فقدم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله؛ لأن الإيمان بالله لا يكفي مع عدم الكفر بالطاغوت، وهذا هو معنى «لا إله إلا الله» فإن معنى «لا إله» كفر بالطاغوت، و«إلا الله» إيمانٌ بالله جَلَّ وَعَلَا، فكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» مكونة من شيئين:

الأول: البراءة من الشرك، وأهله.

الثاني: التزام عبادة الله وحده لا شريك له.

ثم أكدوا زيادة، فقالوا: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ﴾ بدا: ظهر، فلابد من إظهار العدواة لهم، وألا نتملقهم، أو نقول: أنتم على دين، ونحن على دين، والأديان تتعايش. هذا معناه اعتراف بدين الكفار، وتمييع لدين الإسلام، وأن دين الإسلام ينسجم مع الكفر، وهذا شيء مستحيل، فالضدان لا يجتمعان أبدًا، نعم، نحن نتبرأ من دينهم، لكن لا نجبرهم على الدخول في الإسلام إجبارًا، إنما يدخلون فيه طواعية وعن اقتناع، والله تعالى يقول: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فلا نجبرهم، ولا يمكن أن يُجبر الإنسان على دين، ولو التزم به في الظاهر لن يلتزم به في الباطن إذا أجبر عليه، لكن إذا دخله عن اقتناع التزم به في الظاهر والباطن، ففرق بين أن نجبرهم على ديننا، وأن نعترف بدينهم، ونعايشه مع ديننا، ونقول: كلها أديان، والإنسان حر في ديانته، بمعنى أننا نصوب ما هو عليه.

بل نقول: ما هو عليه خطأ وضلال وكفر، ولا يتساوى مع الحق أبدًا، فهم على باطل، ونحن على الحق، ولا يمكن أن يُسوى هذا بهذا، وأن يُقال: كلها أديان، والتقارب بين الأديان أمر مطلوب. فلا تقارب بين حق وباطل، وبين هدى وضلال، وبين كفر وإيمان.

أما أن نتعاهد معهم، أو نأخذ منهم الجزية، ونتركهم على ما هم عليه، فليس هذا اعترافًا بدينهم، ولا إقرارًا لهم عليه، وإنما هذا لأجل إذلالهم، وإظهار الإسلام عليهم، وأن يكون الإسلام هو المهيمن والمسيطر عليهم، أما أن نجعل الأديان على حد سواء، فيُقال: كلها أديان. فليس هناك دين إلا دين الإسلام، وما عداه باطل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ

ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

والإسلام: إفراد الله جَلَّ وَعَلَا بالعبادة التي شرعها على ألسنة رسله، وبعد بعثة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صار الإسلام هو ما جاء به محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانتهت ديانات الرسل التي قبله، وصار دين محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الدين الباقي، فلم تبقَ أديان مع دين محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي: أديان صحيحة، أما أنها تبقى موجودة، نعم هي موجودة، ولكنها باطلة غير صحيحة، والواجب على المسلم أن يعتقد بطلانها، وأن دين الحق هو دين الإسلام وحده، ولا نجامل في هذا، والذي يسوي بين الحق والباطل والكفر والإيمان، وينادي بالتآخي بين أصحاب الديانات، وأنهم إخواننا، هذا كفر بالله عَزَّ وَجَلَّ، والله أمرنا بالبراءة منهم ومن دينهم.

أما كوننا نتعامل معهم، أو نتعاهد معهم، فهذا ليس اعترافًا بدينهم، ولااعترافًا بأن دينهم حق، وإنما هو إذلال لهم، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩]، مع الصغار والذلة، فلا يُجعل الإسلام مع غيره من الأديان على حد سواء، ويُقال: كلها أديان حق، وكلها صحيحة؛ لأن هذا من الباطل، وهو دعوة إلى تمييع الإسلام مع غيره من الأديان، ولايكون للإسلام ميزة أبدًا.

قال تعالى: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ﴾ والبغضاء في القلب، وهي عدم المحبة لهم؛ لأن الله يبغضهم، ونحن نبغض من يبغضه الله، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨].

فهذه آية عظيمة في الولاء والبراء، وهو الذي يحاول دعاة الضلال الآن القضاء عليه، ويعتبرونه من الإرهاب، ويعتبرونه من التشدد، وما أشبه ذلك من مقالاتهم الباطلة، والواجب على المسلم أن يعرف الحق، ويأخذ به، ويترك ما يُحاك حوله من الجهالات والضلالات، وليست هذه العداوة وهذه البراءة مؤقتة، بل قالوا: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾، هذه البراءة تدوم وتبقى إلى أن يسلموا، فما داموا لم يسلموا، فالعداوة والبراءة باقية حتى يؤمنوا بالله وحده، ولا يشركوا في عبادته غيره من الأصنام والمعبودات؛ لأنه لا يجتمع الإيمان بالله مع الإيمان بغيره.

فهذه الآية من جملة الآيات القرآنية في الولاء والبراء، الولاء لأولياء الله، والبراءة من أعداء الله، ولا يعني ذلك أننا نظلمهم، أو نجور عليهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟﴾ [المائدة:٨]، فالعدل واجب مع المسلم والكافر وجميع الخلق، فلا نظلم الكفار، ولا نعتدي على حقوقهم، وليس معنى ذلك أننا لا نتعامل معهم في المباحات من بيع وشراء وتبادل مصالح، وليس معنى ذلك أننا لا نتعاهد معهم إذا اقتضت المصلحة، وليس معنى ذلك أننا لا نؤمنهم ونجلبهم إلى بلادنا من أجل أعمال يقيمون بها لمصلحة المسلمين إذا كان المسلمون لا يحسنونها، فلا مانع من أن يُستجلب الخبراء منهم، ولا مانع من أن يُفتح بيننا وبينهم السفارات، إنما الحربيون هم الذين لا نسمح أن يفتحوا سفارة عندنا، أما المعاهدون فنسمح أن يُفتح لهم سفارة، ويكون بيننا وبينهم مراسلات في المصالح المشتركة، وكل هذا ليس من الولاء والبراء، بل هو من المصالح التي لابد منها.

فالولاء والـبراء ليس معناه أن المسلمين يقطعون الكفار نهائيًّا، ولا يكون بينهم صلة أبدًا، إنما هو في أمور الدين، أما في أمور الدنيا فلا نقاطعهم، إلا إذا كانوا حربيين ليس بيننا وبينهم عهد، أما إذا كانوا معاهدين، أو ذميين، أو مستأمنين، فنحن نتبادل معهم المصالح التي فيها خير لنا ومنفعة للمسلمين.

فيجب أن يُفهم هذا؛ لأن الناس في هذا على طرفي نقيض بين من يتشدد في الولاء والبراء حتى يحرم التعامل مع الكفار، ويعتبره من الموالاة، وهذا غلط، أو يتساهل في الولاء والبراء ويقول: الناس سواء، وإخوة في الإنسانية. والحق هو الوسط الذي جاء به القرآن والسنة.

ثم لما أمر بالاقتداء بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ استثنى شيئًا حصل من إبراهيم، فلانقتدي به فيه، وهو أنه قال لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾، وقال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء:٨٦]، فهذا لم يقره الله عليه، ولا نقتدي به في ذلك، وهو عَلَيْهِ السَّلَامُ تراجع عن هذا، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة:١١٤]، فلا يُقال: نستغفر للكافر والمشرك؛ لأن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ استغفر لأبيه. لأن هذا شيء منسوخ ومنهي عنه، واستثناه الله بقوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فهذا لا يمكن أن يُقال، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ تراجع عنه.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، إذا كان إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يملك لإبيه من الله شيئًا، فكيف بغيره؟ وهذا يبطل التوسل البدعي الذي هو موضوع هذه الرسالة، وهو التوسل بالشخص أو بجاهه،

كأن يُقال: أسألك بفلان، أو بجاه فلان، أو يعتمد على قرابته من الأنبياء والصالحين، وأنهم ينفعون بموجب القرابة، وهذا سيأتي أنه لا ينفع، فمجرد القرابة لا تنفع حتى مع أقرب الناس إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وسيأتي أن نبينا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأقرب الناس إليه: «**لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»(١).

فلا يعتمد الإنسان على قرابته من النبي أو الولي، وأنه سيُغفر له بموجب ذلك، ويترك العمل ويترك التوبة، كما يظنه الجهال والمخرفون.

ثم توجه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى الله بالدعاء ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾، أي: فوضنا أمورنا إليك لا إلى غيرك ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ رجعنا إليك بالتوبة والاستغفار وطلب الحاجات، ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: المنتهى يوم القيامة، والجزاء على الأعمال، فإلى الله المصير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيُجازي كل عامل بعمله.

ثم قال: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: لا تطمع بنا الكفار؛ حيث إنهم يفتتنون، ويزيد شرهم على المسلمين، ويزيد كفرهم وطغيانهم، هذا دعاء بأن الله لا يمكن الكفار من المسلمين؛ لأنهم لو تمكنوا صار ذلك فتنة لهم، وزيادة في الكفر والطغيان، ثم قال: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾، طلب من الله المغفرة، فدل على أن العبد بحاجة إلى المغفرة، ولو كان من أتقى الناس، فهذا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من أتقى الناس بعد نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع ذلك لم يزكِ نفسه، بل طلب من الله المغفرة، فهذا فيه دليل على حاجة الإنسان للاستغفار، وألا يعجب بعمله، أو يظن أنه غني عن الاستغفار، أو يظن أنه ما فعل شيئًا يحتاج إلى الاستغفار، وأنه أكمل العبادة، بل الإنسان مقصر مهما كان.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٠٢)، ومسلم (٩٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ختم الآية باسمين من أسماء الله، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ القوي، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأمور في مواضعها، والحكيم هو الذي يتقن الأشياء، فالحكيم له معنيان: الذي يضع الأمور في مواضعها، والذي يتقن الأشياء ويحكمها، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا توسل بأسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فدل على جواز التوسل بأسماء الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

ولماذا قال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ولم يقل: إنك أنت الغفور الرحيم؟ لأنه قال: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ لأن الله قادر على أن يسلط الكفار على المسلمين، وهذا يرجع إلى عزة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقدرته، ولذلك ختم بهذا الاسم العظيم.

قوله: (فَإِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ). لأن أبا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مشركًا، والله لم يقبل فيه شفاعة خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فدل على أن المشرك لا تنفعه الشفاعة.

وَكَذَلِكَ سَيِّدُ الشُّفَعَاءِ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اسْتَأْذَنْت رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْته أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي»[1].

الشَّرْح

فهذا نبينا محمد ﷺ، أفضل من إبراهيم عليه السلام، وخاتم الأنبياء والمرسلين، ومع ذلك لا يملك لأقرب الناس إليه شيئًا، فإبراهيم عليه السلام لم يملك لأبيه -وهو أقرب الناس إليه- شيئًا، ولما دعا له الله نهاه عن ذلك، وكذلك نبينا محمد ﷺ مع أنه أفضل الخلق، وسيد الرسل ﷺ قال لأقرب الناس إليه: **«لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا»**[2].

فمجرد القرابة من الرسول دون إيمان ودون عمل صالح لا تنفع، ولو كانت تنفع لنفعت أبا لهب عم الرسول ﷺ، ولنفعت -أيضًا- أبا طالب الذي سبقت قصته ومواقفه مع الرسول ﷺ، لكن لمَّا لم يؤمن به، ومات على الكفر، لم يقبل الله فيه شفاعة محمد ﷺ.

فالذين يعتمدون على القرابة، وأنهم من بيت الرسول، ويظنون أنهم مهما عملوا فإنهم لا يؤاخذون، وأن الله سيدخلهم الجنة، فهذا من الغرور، والقرابة من الرسول إذا كان معها عمل صالح، ففيها خير وفضل، لكن إذا كانت دون عمل، ودون إيمان، فلا تنفع صاحبها، كما لم تنفع أبا طالب

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص٦٦).

وأبا لهب، بل لم تنفع أم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما سيأتي في الحديث، ولم تنفع والد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: **«يَا رَسُولَ اللهِ، أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: «فِي النَّارِ»، فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ، فَقَالَ: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ»**[1].

فالذين يطنطنون بالقرابة ويدعون أنهم من بيت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويعتمدون عليها، ولا يعملون الأعمال الصالحة، ولا يتركون الشرك، هؤلاء مغرورون في هذا الشيء، والاعتماد على مجرد القرابة لا ينفع، بل لابد معها من العمل الصالح حتى ينفع الله بها.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«اسْتَأْذَنْت رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْته أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي»**. هذا الحديث فيه أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استأذن ربه أن يزور أمه، وفيه دليل على أن الإنسان لا يفعل شيئًا من أمور الدين إلا بدليل، فهذا رسول الله لم يزر أمه حتى استأذن ربه، فلا يقدم الإنسان على عبادة إلا بعد أن يأذن الله جَلَّ وَعَلَا بها بتشريعه، ووحيه، وإنزاله، فيُرجع في العبادات إلى الكتاب والسنة، فهذا فيه دليل على أن زيارة قبر الكافر جائزة إذا كانت لأجل الاعتبار والاتعاظ، أما إذا كانت لأجل الدعاء له، فلا تجوز؛ لأن الكافر لايُدعى له، ولا يُستغفر له، ولو كان أقرب الناس، فهذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يأذن الله له أن يستغفر لأمه التي هي أقرب الناس إليه، وعند ذلك بكى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكاءً شديدًا، وهذا يدل على شفقته

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورحمته، وبره، وإحسانه، لكن الله منعه من أن يستغفر لأمه؛ لأنها مشركة، كما منع إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يستغفر لأبيه؛ لأنه مشرك.

فالمشرك لا يُستغفر له، وإن كان من أقرب الناس إلى المسلم؛ لأن القرابة لا تنفع مع عدم الإيمان والعمل الصالح.

وَفِي رِوَايَةٍ: «أن َ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَارَ قَبْرَ أُمِّهِ فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ ثُمَّ قَالَ: **اسْتَأْذَنْت رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي، فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْته فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا، فَأَذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ، فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ**»[١].

الشَّرْح

أين يقع قبر أم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ الله أعلم، ولكن يُقال: إنه بالأبواء موضع بين مكة والمدينة؛ لأنها توفيت وهي راجعة من المدينة في زيارة لأخوالها من بني النجار، فماتت في الطريق، ودُفنت هناك، أما تحديد مكان قبرها، فلايُعرف، وليس لنا مصلحة في متابعته وتحديده.

والآن أهل الخرافة يحرصون على مكان يظنون أنه محل قبر أم الرسول، ويحاولون أن يزوروه، ويتبركوا به، وينثروا عليه الأطياب، ويحاولون أن يبنوا عليه، ويعبدوا له الطريق، ولكن -الحمد الله- ولاة الأمور وفقهم الله، وقاموا في وجوههم، ومنعوهم من ذلك، إلا من باب المسارقة، والخفية، ولكن الله جَلَّ وَعَلَا سيحمي دينه، ويحمي عبادته وتوحيده من عبث هؤلاء، فأم الرسول ماتت كافرة، وهذا فيه دليل على أن والدي الرسول ماتا كافرين، ولا غرابة في ذلك، فوالد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مات كافرًا، وابن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مات كافرًا، فلا غرابة في ذلك أن يكون والد الرسول كافرًا، أو يكون ابنه كافرًا، والذين يقولون: إن والدي الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ أسلما. نقول: كيف أسلما، وهو ما بُعث إلا بعد موتهما بمدة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فأبوه مات وهو حمل في بطن

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٣).

أمه، وأمه ماتت بعدما ولدته، ولم يُبعث إلا على رأس الأربعين ﷺ، فكيف يُقال: إن والديه أسلما؟ يقولون: إنهما بُعثا له. وهل أحد يُبعث قبل يوم القيامة؟ ليس هناك بعث، ولا أحد يرجع إلى الدنيا أبدًا، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [يس:٣١] لا يمكن أن يرجع أحد، لا والد الرسول ولا غيره إلى أن يُبعث يوم القيامة، فهذا من الخرافات والكذب الذي ما أنزل الله به من سلطان.

فدل هذا على أن الرسول ﷺ لا يملك لأقرب الناس إليه شيئًا إذا لم يكن ذلك بسبب إيمانه، وتوحيده، ولا يعتمد على مجرد القرابة.

وبالمناسبة الرسول ﷺ لم يكرر الزيارة لقبر أمه حتى يتعلق هؤلاء بالزيارة الآن، ولا ثبت عنه أنه زارها غير المرة هذه، ولا ثبت عن أصحابه أنهم كانوا يزورونها، فلا دليل على زيارتها والتردد عليها، وإنما هؤلاء يتعلقون بالأوهام والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

وقوله: «فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ». لمَّا كان الناس حديثي عهد بكفر كان النبي ﷺ ينهى عن زيارة القبور؛ سدًّا للذريعة؛ لأنهم كانوا في الجاهلية يعبدون الأموات، والأولياء، والصالحين، فلما استقر التوحيد في قلوبهم، وعرفوا التوحيد والشرك، أذن لهم في زيارة القبور الزيارة الشرعية، قال ﷺ: **«إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا»**. هذا نسخ للنهي، **«فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُم الْآخِرَةَ»**[1].

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (١/ ١٤٥) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأخرجه بنحوه أبو داود (٣٢٣٥)، والترمذي (١٠٥٤)، والنسائي (٤٤٢٩) من حديث بريدة رضي الله عنه. وأصله في مسلم (٢٠٣) مختصرًا.

فالمقصود من زيارة القبور الزيارة الشرعية شيئان:

الأول: الاعتبار وتذكر بالآخرة ، فإذا رأيت الأموات تحت التراب، وأنهم كانوا في الأمس يمشون على وجه الأرض، ويأكلون، ويشربون، ويصولون، ويجولون، والآن صاروا تحت التراب، تذكر أنك في أقرب وقت ستكون معهم تحت التراب، تذكر الموت، وتذكر الآخرة، هذا يلين القلب، وفيه موعظة للمسلم.

الثاني: نفع الميت بالدعاء، والاستغفار له، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا زار القبور أو مر بها يدعو لأصحابها ويقول: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَلَاحِقُونَ، أَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ**»(١).

أما إن كان القصد من الزيارة دعاء الميت، وطلب الحوائج منه، فهذه زيارة شركية بدعية. فالمقصود من الزيارة الدعاء للميت لا دعاؤه؛ لأنه بحاجة إلى الدعاء، ولا يُدعى؛ لأن الدعاء لا يكون إلا لله، والميت لا يملك شيئًا، ولاتطلب منه حاجة؛ لأنه ميت، فهذا هو الفرق بين الزيارة الشرعية والزيارة البدعية الشركية.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَزُورُوا الْقُبُورَ**». يُستثنى منه النساء، فلا يجوز لهن زيارة القبور؛ لحديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الذي في السنن: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ»(٢)، واللعن

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٥) من حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، والنسائي (٢٠٤٣)، وأحمد (١/ ٢٢٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لايكون إلا على كبيرة من كبائر الذنوب، فدل على أن زيارة النساء للقبور كبيرة من كبائر الذنوب، وأن التي تزور القبور ملعونة بنص الحديث، فلا يجوز للمرأة أن تزور القبور، وإنما هذا خاص بالرجال، وأما كون عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زارت قبر أخيها(١)، وأن أم عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: «نُهِينَا عَنِ اتِّبَاعِ الجَنَائِزِ، وَلَمْ يُعْزَمْ عَلَيْنَا»(٢). فهذا اجتهاد من صحابيات، والاجتهاد إذا خالف النص لايُعمل به، فالرسول يلعن زوارات القبور، فلا نخالف هذا ونقول: عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فعلت، أو أم عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت؛ لأن هذا اجتهاد، والمجتهد يخطئ ويصيب، فإذا خالف الاجتهاد الدليل، فلا يُعمل به.

(١) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه (٣/ ٥٧٠)، والبيهقي في معرفة السنن والآثار (٥/ ٣١٠).

(٢) أخرجه مسلم (٩٣٨)، وعلقه البخاري جازمًا به قبل حديث رقم (٧٣٧٦).

وَثَبَتَ عَنْ أَنَسٍ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: «فِي النَّارِ»، فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ، فَقَالَ: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاك فِي النَّارِ».

الشَّرْح

هذا رجل سأل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَيْنَ أَبِي؟» وأبوه كان مشركًا، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فِي النَّارِ**»؛ لأن المشرك في النار، وما كان ينبغي لهذا الرجل أن يسأل، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة:١٠١]، فلما سأل أجابه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن حق السائل أن يُجاب لاسيما في مسائل العلم، قال له: «**فِي النَّارِ**» معناه: أنه لا يجوز لك أن تستغفر له، ولا أن تدعو له؛ لأنه كافر، ويجب عليك أن تتبرأ منه.

قوله: (فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ). أي: فلما ولى أدركت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرحمة بهذا السائل، وأنه حصل له استياء حين عرف أن أباه في النار، فأراد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحسن خلقه أن يجبر خاطر هذا الرجل، فدعاه، فقال: «**إِنَّ أَبِي**» أي: أبو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الله بن عبدالمطلب، «**وَأَبَاك فِي النَّارِ**». فأبو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النار؛ لأنه مات على الشرك، فهذا مما طيب به خاطر هذا الرجل، إذا كان والد الرسول في النار، فكيف بغيره؟

فمن مات على الشرك فهو في النار ولو كان والدًا للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقوله: «**إِنَّ أَبِي وَأَبَاك فِي النَّارِ**». مع قوله: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي**» يدل على أن أبوي الرسول ماتا كافرين، وأن من قال: إنهما أسلما قول باطل لا دليل عليه.

وَثَبَتَ أَيْضًا فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤] دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشًا، فَاجْتَمَعُوا، فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ: «يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَك مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا»(١).

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللهِ؛ فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْك مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ لَا أُغْنِي عَنْك مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْت لَا أُغْنِي عَنْك مِنَ اللهِ شَيْئًا»(٢).

وَعَنْ عَائِشَةَ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٤).
(٢) أخرجه مسلم (٢٠٦).
(٣) أخرجه مسلم (٢٠٥).

الشَّرح

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بعثه الله بالرسالة صار يدعو الناس سرًّا، ويسلم الرجل والرجلان، وكانوا مختفين من أذى قريش، ثم أمره الله أن يصدع بالدعوة في السنة الرابعة من الهجرة، وأنزل إليه هذه الآية: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر:٩٤-٩٥]، فعند ذلك جهر بالدعوة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن كانت سرية، وأسلم عمه حمزة وكان من أقوى الرجال، وأسلم رجل قوي آخر وهو عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فصار الرجلان ردءًا للمسلمين مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾، والله جعل له من عمه وعمر بن الخطاب قوة حماه به من أذى المشركين، فصدع بالدعوة.

ولما أمره بأن يصدع بالدعوة على العموم خص أقاربه وعشيرته، فقال: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾، فأولًا أنذر الناس كلهم، ثم أنذر أقاربه، وهذا دليل على أن الذي يدعو إلى الله يبدأ بأقاربه أولًا وأهل بيته، ما يذهب للناس وأهل بيته على خطئهم، والجيران على خطئهم، وحتى بلده أيضًا، فيبدأ ببلده، ويدعو إلى الله في بلده، فإذا أصلح بلده يذهب إلى البلاد الأخرى، هذا هو منهج الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

فلما أنزل الله عليه هذه الآية صعد على الصفا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونادى بأعلى صوته، فاجتمع إليه أهل مكة، وأعمامه، ومن حوله، فقال: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النارِ، فَإِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**». ثم أخذ يخصص

إلى أن وصل إلى بنته، وإلى عمته وعمه، «**يَا عَبَّاسَ عَمَّ رَسُولِ اللهِ، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النارِ**». فهذا مع ما سبق من قصة إبراهيم دليل على أن مجرد القرابة لا تنفع صاحبها حتى يؤمن بالله عَزَّوَجَلَّ، فهذا الرسول لا يملك شيئًا. وهذا فيه رد على الذين يتعلقون على الرسول، ويظنون أنه يعطيهم ما يريدون، ويغفر ذنوبهم، ويمحو سيئاتهم، وأنه ... وأنه، ويغالون في حق الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويستيغثون به، ويظنون أن الرسول هو الذي ينقذهم؛ كما يقول قائلهم(١):

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَنْ لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ	**سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الحَادِثِ الْعَمَمِ**
إِنْ لَمْ تَكُنْ فِي مِيعَادِي آخِذًا	**بِيَدِي وَإِلَّا قُلْ يَا زَلَّةِ الْقَدَمِ**
فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتَهَا	**وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ**

فقوله: (**يَا أَكْرَمَ الخَلْقِ مَنْ لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ**) أي: ما له أحد يلوذ به (**عِنْدَ حُلُولِ الحَادِثِ الْعَمَمِ**) أي: يوم القيامة ليس له ملاذ إلا الرسول، والله ليس له وجود عند هذا القائل، تعالى الله عن ذلك، فالعياذ واللياذ لله عَزَّوَجَلَّ عبادة.

وقوله: (**آخِذًا بِيَدِي**) فيه أن الرسول يأخذ بيده، وينقذه من النار، والرسول لا ينقذ أحدًا من النار، قال الله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ [الزمر:١٩]، الرسول لا يملك هذا، (**وَإِلَّا قُلْ يَا زَلَّةِ الْقَدَمِ**).

ثم زاد في الغلو وقال: (**فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتَهَا**)، أي: أن الدنيا والآخرة من جود الرسول، وليست من الله جَلَّوَعَلَا، وهذا أبشع الغلو والعياذ بالله.

---

(١) الأبيات من قصيدة البردة للبوصيري محمد بن سعيد بن حماد. انظر: البردة شرحًا وإعرابًا (ص٢٠٠، ٢٠٧).

قوله: (وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ)، ما كُتب في اللوح المحفوظ، وخطه القلم الذي قال الله له: «اكْتُبْ»[(١)]، فهو من علم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الله ما له وجود في شعر هذا الطاغية -نسأل الله العافية- فهذا من الغلو في حق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا كان يقول: «لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا» وهذا الشاعر يطلب من الرسول كل هذه الأمور، فهذا من المعاندة والمشاقة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا يتعلق به كثير من القبوريين، والمبتدعة، والخرافيين، ويقولون: هذا من محبة الرسول، وكذبوا في هذا، فإن محبة الرسول تقتضي اتباعه، وطاعته، وقد نهى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه الأمور، فالذي يحبه يتجنب هذه الأمور؛ لأن الرسول لا يرضى أن تقول له: مَنْ لي من ألوذ به سواك؟ ولا يرضى أن تقول: إن الدنيا والآخرة كلها ملكك. ولا يرضى أن تقول له: إنك تعلم كل شيء حتى ما في اللوح المحفوظ.

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قال له رجل: ما شاء الله وشئت. قال: «أَجَعَلْتَنِي لِلهِ عَدْلًا؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[(٢)].

وفي الحديث عن حُذَيْفَةَ بن الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنَّ رَجُلًا من الْمُسْلِمِينَ رَأَى فِي النَّوْمِ أَنَّهُ لَقِيَ رَجُلًا من أَهْلِ الْكِتَابِ، فقال: نِعْمَ الْقَوْمُ أَنْتُمْ لَوْلَا أَنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: ما شَاءَ الله وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. وَذَكَرَ ذلك لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

---

(١) حديث: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ»، أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٣٣١٩)، وأحمد (٥/ ٣١٧) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٤٥)، وابن أبي شيبة (٦/ ٦٤)، والطبراني في الكبير (١٣٠٠٥) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فقال: «**أَمَا والله إن كنت لأَعْرِفُهَا لَكُمْ، قُولُوا ما شَاءَ الله ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ**»(١).

هذا حماية للتوحيد من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهل يرضى أن تُقال فيه هذه الأبيات، أو مثلها، أو ما هو أشد منها؟!

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا**» أي: صلة القرابة، وفي قوله: «**سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا**» شبه الرحم بالنار الحارة، وشبه الصلة بالذي يطفئ النار بالماء، فدل على أن القريب يوصل ولو كان كافرًا، ولذلك أمر الله ببر الوالدين الكافرين، قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥]، فيوصل الرحم ولو كان كافرًا، فإن هذا من الحقوق التي بين الناس، فأنت توصله بموجب الرحم، ولكنك لا تحبه، وهذه من المسائل التي تُستثنى، ولا تدخل في الموالاة.

قوله: (وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ...») الحديث.

أولًا: دعا قريشًا القبيلة كلها، ثم دعا بني عبدالمطلب، ثم دعا بني هاشم الذين هم أقرب إليه، ثم دعا من هو أقرب: عمه، وعمته، وبنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خاطبهم بقوله: «**لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»، فكيف بالذين يتعلقون بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويظنون أنه يغفر السيئات، ويقضي الحاجات، وهو ميت، وأنه يُستغاث به، ويقدر على أن يجيب من دعاه إلى غير ذلك، ممن أضلهم شياطين الجن والإنس به؟

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٩٣)، وأبو داود (٤٩٨٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٤٥)، وابن ماجه (٢١١٨) واللفظ له.

والتعلق على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما هو باتباعه، وطاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا بطلب الحوائج منه بعد موته.

ولما أجدب المسلمون في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكانت سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الاستسقاء عند الجدب، أرادوا أن يستسقوا، فلم يذهبوا للرسول في قبره ليطلبوا منه أن يدعو لهم بالسقيا كما كانوا يطلبون منه وهو حي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما طلب عمر من العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن يدعو لهم بالسقيا[1]. فطلب الدعاء من المفضول وهو العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وترك الفاضل وهو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الرسول ميت لا يقدر على الدعاء، والعباس حي حاضر يقدر على الدعاء.

فهذا واضح من السنة، ومن هدي الخلفاء الراشدين أن الرسول لا يُطلب منه شيء بعد موته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يُتعلق عليه بشيء من الأمور، وإنما الأمور كلها بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا اشتد أذى المشركين للمسلمين قنط يدعو عليهم، فأنزل الله عليه: ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فالأمر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والرسول لا يملك أن يعطي من دعاه أو استغاثه وهو ميت، حتى في حال حياته كره كلمة نستغيث بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولما كان هناك منافق يؤذي المسلمين، قالوا: قوموا بنا نستغيث برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا المنافق، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ**

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٧).

عَزَّوَجَلَّ»[(١)]. مع أنه قادر على أن يغيثهم، ولكنه كره هذا اللفظ، وأراد أن يسد هذه الوسيلة حتى لايُستغاث به بعد موته؛ لأن الاستغاثة من أنواع العبادة، ولكن الحي يُستغاث به فيما يقدر عليه، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥]، وذلك فيما يقدر عليه، أما ما لا يقدر عليه فلا يُستغاث فيه بأحد إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ**»، أي: اسألوني مما أملك وهو مالي، أما ما لا يملكه من المغفرة، والرزق، وشفاء المرضى، فهذا بيد الله جَلَّ وَعَلَا، ولا يُطلب من الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا غيره.

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ مسندًا، وقد ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٥٩) وعزاه إلى الطبراني في معجمه، وقال: «ورجاله رجال الصحيح، غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث».
وأخرجه أحمد (٥/ ٣١٧)، وابن سعد في طبقاته (١/ ٣٨٧) بغير هذا السياق، عن عُبَادَةَ ابن الصَّامِتِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «خَرَجَ عَلَيْنَا رسول اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال أبو بَكْرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قُومُوا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا المُنَافِقِ، فقال رسول اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يُقَامُ لِي، إنما يُقَامُ للهِ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطِيبًا ذَاتَ يَوْمٍ، فَذَكَرَ الْغُلُولَ، فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَك شَيْئًا قَدْ أَبَلَغْتُك. لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَك شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُك. لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَك شَيْئًا قَدْ أَبَلَغْتُك. لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفُقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَك شَيْئًا قَدْ أَبَلَغْتُك. لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَك شَيْئًا قَدْ أَبَلَغْتُك»(١). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

وَزَادَ مُسْلِمٌ: «لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَك شَيْئًا قَدْ أَبَلَغْتُك».

وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «وَلا يَأْتِي أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِشَاةٍ يَحْمِلُهَا عَلَى رَقَبَتِهِ لَهَا يُعَارٌ فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَك شَيْئًا قَدْ بَلَّغْت. وَلا يَأْتِي أَحَدُكُمْ بِبَعِيرٍ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ لَهُ رُغَاءٌ فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَك شَيْئًا قَدْ بَلَّغْتُ»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١).
(٢) أخرجه البخاري (١٤٠٢).

الشَّرْح

لا يزال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضوع الشفاعة، وفي هذا الحديث برواياته تحريم الغلول، وأنه كبيرة من كبائر الذنوب، وأن من غلَّ شيئًا يأتي به يوم القيامة يحمله على رقبته، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران:١٦١].

والغلول هو: أن يأخذ من المال العام ما لم يؤذن له فيه من قبل ولي الأمر(١)، سواء كان ذلك في المغانم في القتال، أو أن يأخذ من الغنيمة قبل أن تُقسم، أو كان ذلك في الزكاة، فإذا جمع الزكاة، فإنه يأخذ منها شيئًا، ولا يعطيها لمستحقيها، أو كان ذلك من بيت المال العام لمصالح المسلمين، فإن كل هذا يعتبر من الغلول، حتى الهدايا التي تُهدى للعمال على جباية الزكاة تعتبر من الغلول، فليس للجابي إلا ما يعطيه الإمام، أما أن يأخذ من المزكين، ومن الناس، فهذه كبيرة من كبائر الذنوب، وقد قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**هَدَايَا العُمَّالِ غُلُولٌ**»(٢).

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٣٨٠): (وَهُوَ الخِيَانَةُ فِي المَغْنَم، والسَّرِقَة مِنَ الغَنِيمة قَبْلَ القِسْمة. يُقَالُ: غَلَّ فِي المَغْنم يَغُلُّ غُلُولًا فَهُوَ غَالٌّ. وكلُّ مَن خَانَ فِي شَيْءٍ خِفْيَةً فَقَدْ غَلَّ. وسُمِّيت غُلُولًا لِأَنَّ الأَيْدِي فِيهَا مَغْلُولَة، أَيْ: مَمْنوعة مَجْعُول فِيهَا غُلٌّ، وَهُوَ الحَدِيدة الَّتِي تَجْمَع يَد الأَسِيرِ إِلَى عُنُقه). انظر أيضًا: مشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢/ ١٣٤)، وتحرير ألفاظ التنبيه (ص١١٧).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٤) من حديث أبي حميد الساعدي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. قال ابن حجر في فتح الباري (٥/ ٢٢١): (وفي إسناده إسماعيل بن عياش، وروايته عن غير أهل المدينة ضعيفة، وهذا منها، وقيل: إنه رواه بالمعنى من قصة ابن اللتبية).

واستعمل ﷺ رجلًا يُقال له ابن اللُّتْبِيَّةِ عاملًا على الزكاة، وذهب الرجل في مهمته، ثم جاء بالأموال، فقال: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي. فغضب النبي ﷺ غضبًا شديدًا، ثم خطب فقال: «**مَا بَالُ عَامِلٍ أَبْعَثُهُ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ، أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ، حَتَّى يَنْظُرَ أَيُهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا؟**»(١). فدل هذا على أن الموظفين الذين يقومون بالأعمال من قِبل ولي الأمر لا يجوز لهم أن يقبلوا الهدايا؛ لأن هذا فيه آفتان عظيمتان: الغلول، والرِشوة.

فيجب على العامل -وليس ذلك خاصًّا بالعامل على الزكاة، بل كل موظف فهو عامل- أن يقوم بالعمل على الوجه المطلوب، ولا يحوج المراجعين إلى أن يدفعوا له شيئًا من أجل أن ينجز أعمالهم، أو أن يتمالأ مع المراجعين من أجل أن يعطيهم حق غيرهم، ويحيف معهم حتى يعطوه شيئًا، وهذا يتناول -أيضًا- القضاة وكل مَنِ استُعْمِلَ على عملٍ من أعمال المسلمين، فالواجب عليه أن يؤديه بأمانة، وأن يقتصر على الراتب الذي يُعطى له مقابل عمله، أو يقتصر على ما يعطيه له ولي الأمر مقابل عمله، هذه هي الأمانة.

وقد تساهل كثير من أهل الأطماع ممن قل إيمانهم في أمر الرِشوة، وتساهلوا في الغلول، وصاروا يتسابقون إلى أخذ أموال الناس، ويعتبرون الوظائف فرصة لأخذ أموال الناس لأجل إنجاز أعمالهم، أو إعطائهم شيئًا لايستحقونه، فيعتبرون الوظيفة مغنمًا يستغلونه في ابتزاز أموال الناس، وهؤلاء على خطر عظيم، فمع أنه كبيرة من كبائر الذنوب، فإنه يُفضح يوم

(١) أخرجه البخاري (٧١٧٤)، ومسلم (١٨٣٢) من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

القيامة والعياذ بالله، فيأتي بما غل فضيحة له، ومشقة عليه، فقد يحمل الأشياء الثقيلة والعياذ بالله، قد يُحمل بعير، وهل أحد يستطيع أن يحمل بعيرًا، أو يحمل بقرة، أو يحمل شاة؟! وقد يحمل دراهم كثيرة بالملايين يحملها على رقبته، وقد يحمل الأراضي التي أُعطيت له رِشوة، أو هدية، أو ما أشبه ذلك، يأتي يوم القيامة وهو يحملها فضيحة له، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ [آل عمران:١٦١].

والشاهد من الحديث: أنه يستغيث بالرسول ﷺ لينقذه من هذا الموقف يوم القيامة، والرسول ﷺ يقول له: «**لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ**»، أي: بلغتك في الدنيا أن هذا أمر محرم، وأن هذا أمر لا يجوز، فعصيتني وخالفت أمري، وارتكبت ما نهيت عنه، فالآن أنا لا أملك لك من الله شيئًا؛ كما قال لأقاربه في الحديث السابق: «**لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»، وقال تعالى: ﴿**قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا**﴾ [الجن:٢١]، وإنما الرسول ﷺ مُبَلغ عن الله، وقد بلغ البلاغ المبين، فلا عذر لمن يأتي يوم القيامة ويطلب من الرسول ﷺ أن يغيثه ولا مغيث.

والاستغاثة: طلب النجدة عند الخطر(١). قال تعالى: ﴿فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥]، فالاستغاثة أخص من الاستعانة، الاستعانة تكون في الأمور العادية، ولكن الاستغاثة أخص ما تكون إلا في الضرورات.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (٨/ ١٥٩)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٣٩٢)، ولسان العرب (٢/ ١٧٤).

والاستغاثة على قسمين:

الأول: استغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه، فلا بأس بها، قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾.

الثاني: الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، فهذه شرك أكبر يُخرج من الملة، كالاستغاثة بالأموات، أو بالأحياء فيما لا يقدرون عليه، فالميت لا يقدر على شيء أصلًا، وأما الحي فقد يقدر على بعض الأشياء، ولا يقدر على أشياء أخرى مما هي من اختصاص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيُستغاث به فيما يقدر عليه في الدنيا وفي الآخرة، فإذا بُعث الناس وصاروا أحياء حاضرين يُستغاث به فيما يقدر عليه، مثل ما يحصل من أهل الموقف يوم القيامة، حيث يأتون إلى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويطلبون منه أن يتوسط عند الله أن يخلصهم من كرب الموقف وهوله وشدته.

فالاستغاثة بالحي القادر فيما يقدر عليه أمر جائز في الحياة الدنيا، وفي الحياة بعد الموت، أما الاستغاثة بالميت فلا تجوز؛ لأن الميت لا يقدر على شيء، وإن كانوا القبوريون يزعمون أن الأموات لهم تصرف في الكون؛ لما لهم من جاه عند الله بزعمهم، فيلجأون إلى قبورهم، ويستغيثون بهم، ويطلبون منهم الحوائج، وهذا شرك أكبر يُخرج من الملة؛ لأنه نوع من أنواع العبادة، ولا تجوز العبادة إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا**». هذا هو محل الشاهد أن الرسول لا يملك لهم شيئًا، وقد بلغهم، فليس لهم عذر، ولا يملك أن

يخلصهم من هذا الموقف، فهذا لا يقدر عليه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وفي هذا رد على الذي يقول(١):

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَن لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ ... سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمَمِ

الرسول لا يملك لنفسه شيئًا فضلًا عن غيره، وإنما الذي يملك الأمور هو الله جَلَّوَعَلَا، بيده مقاليد السموات والأرض، فلماذا ينسى العبد ربه الذي يملك كل شيء، ويلجأ إلى المخلوق؟ إلا أن هذا من ضعف الإيمان، أو عدم الإيمان في الإنسان.

وأيضًا: هذه التي أخذتها في الدنيا من الزكاة، أو من المراجعين، أو من المتخاصمين، هي حقوق للناس، وحقوق الناس لا تقبل الشفاعة، فلابد أن يسمحوا بها هم يوم القيامة، وفي يوم القيامة يكون الناس في كرب وشدة، وكلٌّ في حاجة إلى من ينقذه، فلا يسمح أحد عن أحد يوم القيامة، بل كل يطالب بحقه؛ ولهذا قال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ**» أي: في الدنيا «**قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ**»(٢). إن كان له حسنات أُخذ من حسناته وأعطيت للمظلومين، وإن فنيت حسناته أو لم يكن عنده حسنات أُخذ من سيئات المظلومين وطُرحت عليه، ثم يُطرح في النار.

(١) البيت من قصيدة البردة للبوصيري محمد بن سعيد بن حماد. راجع (ص٧٩).
(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ولو يتذكر هؤلاء الذين يبتزون أموال الناس بحكم مسؤولياتهم ووظائفهم هذا الموقف لتركوا هذا الأمر الفظيع، وتخلصوا منه اليوم، ومن كان عنده شيء منه فليتخلص منه اليوم، ويرده على صاحبه، أو يطلب منه المسامحة قبل أن يتورط بالموت، ثم لا يستطيع حين ذاك التخلص.

فهذا أمر له أهميته، وقد تساهل فيه الناس، وكثر من يسأل عن القائمين على توظيف الناس، وقد شاع بينهم أنهم لا يوظفون أحدًا حتى يدفع لهم مبلغًا من المال، فيبيعون الوظائف على الناس، أو يسهلون النقل من مكان إلى مكان، مقابل مبلغ من المال، وهذه رِشوة صريحة وغلول والعياذ بالله.

فيجب على المسلم أن يتقي الله عَزَّوَجَلَّ، وألا يدخل هذه المداخل التي يتورط بها يوم القيامة، قبل أن لا يستطيع التخلص منها، فأشرف الخلق وسيد الشفعاء محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يتبرأ منه، ويقول: «**لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا**».

وفي هذا ردٌّ على الذين يغلون في حق النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وينزلونه منزلة الرب، وأنه يملك الأشياء، وأن المخلوقات ما خُلقت إلا من أجله، وأن الدنيا وضرتها وهي الآخرة من جوده صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ كما يقول صاحب البردة(١):

فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتَهَا وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ

فجعل الرسول يملك الدنيا والآخرة، إذًا: ما بقي لله شيء، صارت الدنيا والآخرة ملكًا لمحمد، وأيضًا: يعلم الغيب، وما في اللوح، والقلم، وهذا لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

---

(١) البيت من قصيدة البردة للبوصيري محمد بن سعيد بن حماد. راجع (ص٧٩).

وهذا من الغلو -والعياذ بالله- الذي أفضى به إلى الشرك الأكبر المخرج من الملة، فالرسول بشر لا يملك شيئًا، إنما يملك البلاغ، قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى:٤٨]، وأن يؤدي ما عليه من البلاغ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما أن يُتخذ إلهًا مع الله، أو أن الله يُنسى، ويُجعل الرسول هو الذي يتصرف، ويُطلب منه المغفرة، ويُطلب منه الحوائج وهو ميت صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا هو الغلو الذي أوقع النصارى بأن قالوا: المسيح ابن الله، أو ثالث ثلاثة، أو هو الله والعياذ بالله.

ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تُطْرُونِي**» أي: لا تزيدوا في مدحي «**كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ**»(٢).
فلا يجوز الغلو في المخلوق ولو كان أفضل الخلق وهو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا أن يُطلب منه ما لا يُطلب إلا من الله جَلَّ وَعَلَا.

فيا ليت هؤلاء القطعان من الناس الذين يلجأون إلى القبور، ويصرفون لها أنواعًا من العبادة، يُعلَّمون هذا الأمر، ويُبلغون بهذا الأمر، ويناصحون، لعل الله أن يمنَّ على من يشاء منهم بالتوبة؛ لأنه قد يكون منهم من هو جاهل مغرر به، ومن هو مقلد لشيخه، فهؤلاء يتحملهم صنفان:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٧٠)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص٣٣٢) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأول: العلماء الذين لم يبينوا لهم.

الثاني: الذين أغروهم بهذا الشيء ودعوهم إليه، ولن ينفعوهم يوم القيامة.

وَقَوْلُهُ هُنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا أَمْلِكُ لك مِنْ اللهِ شَيْئًا كَقَوْلِ إبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ**: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [الممتحنة:٤].

الشَّرْح

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن قبله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجميع الأنبياء والمرسلين، وجميع عباد الله الصالحين، حينما يشفعون عند الله يشفعون بالشروط المذكورة في القرآن، وهي: الإذن من الله، وأن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد. وهم جميعًا حينما يشفعون لا يملكون من الله شيئًا، وإنما هذا إلى الله جَلَّ وَعَلَا، إن شاء قبل شفاعتهم، وإن شاء لم يقبل.

فالذي يشفع ما هو إلا سبب كسائر الأسباب، وأما أن يحصل المقصود فهذا بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يُعتمد على المخلوق في تحصيل المراد وتحقيق المطلوب، وإنما يُعتمد على الله جَلَّ وَعَلَا. فإذا قال قائل: أنتم تقولون: هذا من الأسباب، وأنا أدعو الميت من باب الأسباب. نقول له: اتخاذ الأموات شفعاء ليس سببًا مشروعًا، بل هو سبب باطل، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤]، فدعاء الميت وطلب الشفاعة منه ليس سببًا من الأسباب، بل هو ممنوع شرعًا.

وَأَمَّا شَفَاعَتُهُ وَدُعَاؤُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ فَهِيَ نَافِعَةٌ فِي الدُّنْيَا وَالدِّينِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَذَلِكَ شَفَاعَتُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زِيَادَةِ الثَّوَابِ وَرَفْعِ الدَّرَجَاتِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْبِدْعَةِ يُنْكِرُهَا.

الشَّرْح

قوله: «**وَأَمَّا شَفَاعَتُهُ وَدُعَاؤُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ فَهِيَ نَافِعَةٌ**». الذي يملكه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الدعاء والشفاعة المشروعة بالشروط، هذا هو الذي ملَّكه الله إياه، وهي سبب من الأسباب، أما تحصيل النتيجة، فهي بيد الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف:٨٦]، هذا دليل على أن الشفاعة لا تنفع إلا أهل التوحيد الذين شهدوا بالحق، وقالوا: «لا إله إلا الله»، وهم يعلمون معناها، ويعملون بمقتضاها، فالمشرك والكافر والملحد لا تُقبل فيهم الشفاعة بتاتًا، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾، وقال: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر:٤٣-٤٤]، ولا تكون الشفاعة إلا بإذنه، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فقول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾، ثم قال: ﴿ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة:٤]، دليل على أن الاستغفار مجرد سبب قد ينفع وقد لا ينفع، وقد بيَّن الله أن استغفار إبراهيم لأبيه إنما كان قبل أن يعلم

إبراهيم أن أباه عدو لله، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة:١١٤]، واستثنى الله -كما سبق- أن نقتدي بإبراهيم في ذلك، وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ أي: فلا تتخذوه قدوة في ذلك، ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾، فلا يجوز الاستغفار للكافر الذي مات على الكفر، ولا المشرك الذي مات على الشرك الأكبر، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣].

قوله: (نَافِعَةٌ فِي الدُّنْيَا وَالدِّينِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ). لكنها لا تنفع مجردة دون إذن الله، بل لابد من إذن الله جَلَّوَعَلَا.

قوله: (وَكَذَلِكَ شَفَاعَتُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زِيَادَةِ الثَّوَابِ). الشفاعة المشروعة التي تتوافر فيها الشروط:

الأول: إذن الله للشافع أن يشفع.

الثاني: رضى الله عن المشفوع فيه.

والشفاعة أنواع، منها أنواع خاصة بالرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومنها أنواع مشتركة بينه وبين غيره، فالأنواع الخاصة بالرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

أولًا: الشفاعة العظمى، وهي المقام المحمود، هذا خاص به صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويتميز به عن الخلق يوم القيامة.

ثانيًا: الشفاعة فيمن دخل الجنة في رفع درجاتهم، أو شفاعة لهم في زيادة ثواب أعمالهم، وهذه خاصة بالرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

أما الشفاعة الأولى -وهي المقام المحمود- فهذه لا ينكرها أحد من أهل القبلة، وأما شفاعته في رفعة درجات بعض أهل الجنة إلى درجات أعلى منها، أو شفاعته في الزيادة في ثوابهم، فهذه جمهور المسلمين يثبتونها، يقول الشيخ: (**وَقَدْ قِيلَ إِنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْبِدْعَةِ يُنْكِرُهَا**)، ففيها خلاف ضعيف.

وَأَمَّا شَفَاعَتُهُ لِأَهْلِ الذُّنُوبِ مِنْ أُمَّتِهِ فَمُتَّفَقٌ عَلَيْهَا بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَائِرِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ.

الشَّرْح

الشفاعة التي يشترك فيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيره هي الشفاعة في أهل الكبائر من المؤمنين من الموحدين، فهو يشفع، والأنبياء يشفعون، والأولياء والصالحون يشفعون، والأفراط -وهم أطفال المسلمين الذين ماتوا قبل بلوغهم- يشفعون، فهي شفاعة مشتركة.

وهذه الشفاعة الخلاف فيها مشهور بين أهل السنة والمبتدعة من الخوارج[1]، والمعتزلة[2] الذين ينكرون الشفاعة في أهل الكبائر، مع أن الأحاديث فيها متواترة، فهم ينكرونها ويقولون: من دخل النار لا يخرج منها،

---

(١) هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين جرى أمر المحكمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وفيهم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَحْقِرُ أحدكم صَلَاتَهُ مع صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مع صِيَامِهِمْ، يَمْرُقُونَ من الدِّينِ، كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ**». أخرجه البخاري (٢٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيًا، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان. انظر: مقالات الإسلاميين (ص٤، ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص٥٤)، والملل والنحل (١/ ١١٤).

(٢) هي إحدى الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة والجماعة، ورأس هذه الفرقة واصل بن عطاء الغزال، كان تلميذًا في مجلس الحسن البصري، فأظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين وأن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر، فطرده الحسن من مجلسه، وانضم إليه عمرو ابن عبيد، واعتزلا مجلس الحسن، فسموا بالمعتزلة لذلك، ويلقبون بالقدرية لإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم وإنكارهم القدر فيها. =

ويقولون: إن مرتكب الكبيرة التي دون الشرك كافر، فيكفرون بالكبائر التي دون الشرك، وبناءً على ذلك، فلا شفاعة فيه والعياذ بالله، ولاشك أن هذا ضلال مبين وإنكار لما تواترت النصوص بإثباته.

والخوارج: جمع خارجي، والمراد بهم الذين خرجوا على ولاة الأمور، خرجوا على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقتلوه، وخرجوا على علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقتلوه، وخرجوا بعد ذلك، ولا يزالون يخرجون على ولاة الأمور.

وهم يكفرون بالكبائر التي دون الشرك، ويقتلون المسلمين بناءً على مذهبهم الباطل أن المسلمين كفار، كما هو مشاهد من أفعال الخوارج، ومن تتلمذ عليهم، أو تأثر بهم، أو قرأ كتبهم، ولا تظنوا أن الخوارج انقطعوا، فهم لا ينقطعون، ويخرجون في مختلف الأزمان بين كل فترة وأخرى، فهو مذهب باطل، وأول من قام بذلك ذو الخويصرة التميمي الذي جاء إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يقسم الغنائم في حنين، فقال: يا محمد اعدل فإنك لم تعدل. فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟ قَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ**»، **فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي فِيهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعْهُ، فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ**

= وقد افترقت المعتزلة إلى فرق شتى يجمعهم القول بنفي الصفات، والقول بخلق القرآن، وأن العبد يخلق فعل نفسه، ولهم أصول خمسة جعلوها بمنزلة أركان الإيمان عند أهل السنة، وهي: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإنما أرادوا بهذه المسميات معاني باطلة.

انظر: الملل والنحل (١/ ٣٠-٣٢)، والفرق بين الفرق (ص١٨، ٩٣، ٩٤)، والبدء والتاريخ (٥/ ١٤٢)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٤٦٤)، ووفيات الأعيان (٦/ ٨). وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص٧٩١-٧٩٢).

صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[(١)]. وفي رواية: «إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا» أي: على شكله «قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ»[(٢)].

وفي رواية أخرى: «سَيَخْرُجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، أَحْدَاثُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(٣)]. مع كونهم من أكثر الناس صيامًا، وصلاة، وعبادة، وتلاوة للقرآن، لكن الغلو -والعياذ بالله- أفسد عليهم أعمالهم؛ لأنهم كانوا على جهل، ولا يقبلون العلم، فنُصحوا وبُيِّن لهم، لكن لم يقبلوا، ولا يزالون على هذا النمط، لايقبلون توجيهًا، ولا يقبلون العلم، ويظنون أن الناس لايفهمون، وأن الفهم خاص بهم هم ومن يقلدونه، وهذا من كيد الشيطان -والعياذ بالله- سول لهم وأملى لهم، فهم لا يزالون في كل وقت يعتزلون العلماء، ويتخذون من رؤسائهم، وقرائهم، ومن يدعي العلم مفتيًا ومنظرًا لهم، وينحازون عن المسلمين، ويصبحون ضررًا على المسلمين، وخطرًا على المسلمين في كل زمان ومكان، كفى الله شرهم، ونبه شباب المسلمين إلى خطرهم، ووفقهم للابتعاد عن خططهم وبرامجهم؛ لأنهم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه البخاري (٦٩٣٠)، ومسلم (١٠٦٦) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يتصيدون شباب المسلمين، ويلقون في آذانهم هذا المذهب الخبيث، وأن الناس ليسوا على شيء، وأن العلماء مداهنون، وأنهم علماء سلاطين، وأنهم لا يفهمون الأمور، ويلقون في أذهان الشباب هذه الأمور، فالشاب بحكم أن عنده قوة عقلية، فإنه يقبل هذه الأفكار؛ ولذلك يحرصون على الشباب بصفة خاصة، ويحرصون -أيضًا- على الجهال من البادية، وغيرهم بصفة خاصة؛ لأنهم هم الذين يقبلون البذر السيئ؛ لأنهم تربة قابلة لما يُلقى فيها من خير أو شر، وكذلك الشاب لا يزال تربة قابلة، إذا ألقيت فيه بذورًا طيبة أنتج نتاجًا طيبًا، وإن ألقيت فيه بذورًا خبيثة أنتجت نتاجًا خبيثًا؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»(١).

فالواجب على شباب المسلمين أن يتنبهوا لهذا الأمر، وأن يعلموا أنهم مقصودون، وأن دعاة الضلال يتخطفونهم، ويغرونهم بأشياء: بالمال، بطلب الأجر، بالجنة، حتى الجنة يظنون أنها ملك لهم، يقول: إن كنت تريد الجنة تعال معنا وأنت في الجنة، وهذا ظاهر من مذهبهم والعياذ بالله. فالواجب الحذر، والتحذير من هؤلاء، وهذا يوجب على الشباب أن يقبلوا على طلب العلم على العلماء المعروفين بالعلم والرسوخ في الدين، فيأخذوا العلم عنهم، ولا يأخذوه عن كل من هب ودب، وتحمس، وأظهر الغيرة للإسلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يُقبل منه هذا وهو غير معروف من أين جاء، وأين تعلم، وعلى من تتلمذ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لابد من هذه الأمور خصوصًا في هذا الزمان؛ لأنه التبس الحق بالباطل الآن، ودعاة الضلال صار لهم إمكانات لم تكن موجودة من قبل، وتصل إلى الشباب بسرعة من وسائل خاصة بهم، فالخطر شديد الآن على شباب المسلمين، فعليهم جميعًا أن يتنبهوا لهذا الأمر؛ لئلا يقعوا فريسة لهؤلاء دعاة الضلال، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فهم ينكرون الشفاعة، هذا من مذهبهم الباطل بناءً على أن مرتكب الكبيرة كافر، والكافر لا تنفع فيه الشفاعة، ويقولون: إن من دخل النار لايخرج منها. من قال: إن من دخل النار لا يخرج منها؟ بل يخرج منها بشفاعة الشافعين، وبكرم الله وعفوه سبحانه، ما دام أنه عنده أصل التوحيد، وأنه ليس بكافر، فهو وإن عُذب في النار فلا يُخلد فيها، ولكنهم استدلوا بآيات سيذكرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثم يرد عليها.

قوله: (وَسَائِرِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ). أبو حنيفة(١) ومالك(٢) والشافعي(٣) ....

(١) هو: فقيه أهل العراق أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى التيمي الكوفي، ولد سنة ثمانين، ورأى أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحدَّث عن عطاء، ونافع، وعبد الرحمن بن هرمز، وخلق كثير، وعنه وكيع، ويزيد بن هارون، وسعد بن الصلت، وغيرهم. انظر: تاريخ بغداد (١٣/ ٣٢٣)، وسير أعلام النبلاء (٦/ ٣٩٠)، وتذكرة الحفاظ (١/ ١٦٨).

(٢) هو: إمام دار الهجرة مالك بن أنس بن مالك بن عامر بن أبي عامر أبو عبد الله المدني، ولد سنة أربع وتسعين، حدث عن نافع، والمقبري، ونعيم المجمر، والزهري، وخلق كثير، وعنه أمم لا يكادون يحصون منهم ابن المبارك، والقطان، وابن مهدي، توفي سنة تسع وسبعين ومائة. انظر: الثقات (٧/ ٤٥٩)، وتذكرة الحفاظ (١/ ٢٠٧).

(٣) هو: أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان الشافعي، كان مولده بغزة سنة خمسين ومائة، وتوفي بمصر سنة أربع ومائتين، حدث عن عمه، وابن الماجشون، =

وأحمد(١)، هؤلاء الأئمة الأربعة، وسائر أئمة المسلمين من غير الأربعة، كالأوزاعي(٢)، وسفيان الثوري(٣)، وسفيان بن عيينة(٤)، وأئمة كثيرون، لكن الذين اشتهروا وبقيت مذاهبهم الفقهية هم هؤلاء الأربعة رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

=والإمام مالك، وخلقٌ، وعنه أحمد، والحميدي، والبويطى، وأبو ثور، والربيع، وأمم سواهم. انظر: تاريخ بغداد (٢/ ٥٦)، وتذكرة الحفاظ (١/ ٣٦١).

(١) هو: إمام المحدثين ، والناصر للدين، والمناضل عن السنة، والصابر في المحنة، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الذهلي الشيباني المروزي ثم البغدادي، ولد ببغداد سنة أربع وستين ومائة، وتوفي سنة إحدى وأربعين ومائتين. انظر: سيرة الإمام أحمد بن حنبل لأبي الفضل صالح بن أحمد بن حنبل (ص٢٩ وما بعدها)، وتاريخ دمشق (٥/ ٢٥٢)، وسير أعلام النبلاء (١١/ ١٧٨).

(٢) هو: عبدالرحمن بن عمرو بن يحمد أبو عمرو الأوزاعي، كان يسكن بمحلة الأوزاع بدمشق، وكان مولده في حياة الصحابة، حدث عن عطاء بن أبي رباح، ومكحول، وقتادة، والزهري، وخلق كثير من التابعين وغيرهم، وعنه ابن شهاب الزهري، ويحيى بن أبي كثير، وهما من شيوخه، وشعبة، والثوري، وخلق كثير، توفي سنة سبع وخمسين ومائة. انظر: تاريخ دمشق (٣٥/ ١٤٧)، وسير أعلام النبلاء (٧/ ١٠٧).

(٣) هو: سفيان بن سعيد بن مسروق، أبو عبد الله الثوري، من أهل الكوفة، ولد سنة سبع وتسعين في خلافة سليمان بن عبد الملك، كان من كبار أئمة المسلمين، لا يُختلف في إمامته وأمانته وحفظه وعلمه وزهده، توفي بالبصرة وهو مستخف في شعبان سنة إحدى وستين ومائة في خلافة المهدي. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٣٧١)، وتاريخ بغداد (٩/ ١٢٥)، وسير أعلام النبلاء (٧/ ٢٢٩).

(٤) هو: سفيان بن عيينة أبو محمد الهلالي مولاهم الكوفي الأعور، أحد الأئمة الأعلام، يروي عن الزهري، وعمرو بن دينار، وأبان بن تغلب، وغيرهم، وعنه أحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، والزعفراني، وخلق، توفي سنة ثمان وتسعين ومائة. انظر: التاريخ الكبير (٤/ ٩٤)، والكاشف (١/ ٤٤٩).

وَأَنْكَرَهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ مِنَ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالزَّيْدِيَّةِ، وَقَالَ هَؤُلَاءِ: مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا لَا بِشَفَاعَةٍ وَلَا غَيْرِهَا. وَعِنْدَ هَؤُلَاءِ مَا ثَمَّ إِلَّا مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَلَا يَدْخُلُ النَّارَ، وَمَنْ يَدْخُلُ النَّارَ فَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجْتَمِعُ عِنْدَهُمْ فِي الشَّخْصِ الْوَاحِدِ ثَوَابٌ وَعِقَابٌ.

الشَّرح

قال: (**وَأَنْكَرَهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ**). البدع: جمع بدعة، وهي ما أُحدث في الدين مما ليس منه، فالمحدث يُسمى بدعة أو ابتداع؛ لأنه أُحدث بغير دليل يدل عليه من كتاب الله وسنة رسول الله، وقد قاله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنَا هذا ما لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[1]، وفي رواية: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيه أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[2]. وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فسيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ من بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[3]. وفي بعض ألفاظ الحديث: «**وَكُلُّ ضَلَالَةٍ في النَّارِ**»[4]. وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهُدَى**

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وذكره البخاري معلقًا في كتاب البيوع، باب النجش (٣/ ٦٩)، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ (٩/ ١٠٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (٤/ ١٢٦) من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه النسائي (١٥٧٨)، وابن خزيمة (٣/ ١٤٣)، من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأخرجه الطبراني في الكبير (٨٥٢١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

هُدَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**»[١]. هذه هي البدعة، فكل ما أُحدث في الدين مما ليس منه فهو ضلالة، وهي تختلف، منها ما هو كفر، ومنها ما هو كبيرة، ومنها ما هو ذنب ومعصية، فليست على حد سواء، لكن كلها ضلالة، فالذي يقول: إن البدع خمسة أقسام: منها شيء حسن، ومنها شيء غير حسن. هذا التقسيم من عنده، وهو مخالف لقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**».

وهذا موجود في بعض الكتب، وهو غلط، وإن قال به من قال ممن هو معتبر في العلم، فكلٌّ يخطئ ويصيب، فإذا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**» وهو يقول: بل هناك بدعة حسنة. فهذا رد على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهم يمثلون بأمثلة إذا رأيتها عرفت أنها ليست من البدع، وإنما هي من السنن أو تابعة للسنن، وليست بمحدثة في الدين، يقولون: مثل بناء المدارس. وقد جاء الإسلام بتعليم العلم، وهذه وسيلة من وسائل التعليم، والإسلام جاء بتعليم العلم النافع، ونشره بين الناس. قالوا: مثل نقط المصاحف، والتعشير. وهذا -أيضًا- من بيان القرآن، ومن تعليم القرآن، وهذا أمر مطلوب، فهذه ليست بدعة؛ لأنها تابعة للسنن، وتعليم القرآن مطلوب، وهذا النقط والشكل في القرآن نعم محدث، ولكنه تابع لتعليم القرآن، فهو وسيلة لتعليم القرآن.

---

(١) هذا جزء خطبة الحاجة التي كان يقولها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين يدي حاجته، تقدم تخريجها (ص١٠).

فكل شيء يذكرون أنه بدعة حسنة، تجد أنه ليس ببدعة، وإنما هو داخل في الدين، ووسيلة إلى تحقيق شيء جاء به الدين، فهو أمر مباح يُستعان به على إحياء السنة، فكيف يكون بدعة.

قالوا: إن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال في التراويح: «نِعْمَ الْبِدْعَةُ هذه»(١). وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يقصد أن التراويح محدثة؛ لأن الرسول فعلها بأصحابه ليالي، فهي ليست بدعة، وقد حث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قيام رمضان، وقال: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(٢). وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَامَ مَعَ الإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ**»(٣).

فليست التراويح بدعة، ولم يحدثها عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إنما الذي فعله عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه جمع الناس على إمام واحد، وكانوا متفرقين في الأول، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى بهم ليالي، ثم تأخر عنهم خشية أن تُفرض عليهم(٤)، فلما مات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انتهى التشريع، فلم يُخش أن يُفرض عليهم

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٥٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود (١٣٧٥)، والترمذي (٨٠٦) واللفظ له، والنسائي (١٣٦٤)، وابن ماجه (١٣٢٧)، وأحمد (٥/ ١٥٩) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ من جَوْفِ اللَّيْلِ، فَصَلَّى في المَسْجِدِ، فَصَلَّى رِجَالٌ بِصَلَاتِهِ، فَأَصْبَحَ الناس فَتَحَدَّثُوا، فَاجْتَمَعَ أَكْثَرُ منهم فَصَلَّوْا معه، فَأَصْبَحَ الناس فَتَحَدَّثُوا، فَكَثُرَ أَهْلُ المَسْجِدِ من اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ، فَخَرَجَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَلَّوْا بِصَلَاتِهِ، فلما كانت اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ عَجَزَ المَسْجِدُ عن أَهْلِهِ حتى خَرَجَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ، فلما قَضَى الْفَجْرَ أَقْبَلَ على الناس، فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قال: «**أَمَّا بَعْدُ: فإنه لم يَخْفَ عَلَيَّ مَكَانُكُمْ، لَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ فَتَعْجِزُوا عنها**». أخرجه البخاري (٩٢٤)، ومسلم (٧٦١).

شيء بعد وفاته صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فأحيا عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ما كان على عهد الرسول صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لأن المحظور انتهى.

أما قوله: «نِعْمَ الْبِدْعَةُ هذه» فالمراد البدعة اللغوية، لا البدعة الشرعية، فمثلًا: السيارات الآن هذه محدثة بدعة، والمباني الحديثة، والأسفلت، والطرقات، هذه كلها ما كانت موجودة من قبل، وهذه ليست من الدين، إنما هي من أمور الدنيا، فلا يُقال: إنها بدعة، بل هذه من المنافع التي أباحها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، كما أباح لنا الانتفاع بما خلق في هذا الكون من المنافع، لكن من قبل ما عثروا عليها، وعثر عليها العالم المتأخر، ألهمهم الله العثور عليها لحكمة يعلمها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهي ليست بدعة شرعية، وإنما بدعة لغوية.

فقول عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «نِعْمَ الْبِدْعَةُ هذه»، أي: جمعهم على إمام واحد؛ لأنه شيء ما اعتاده الناس بعد وفاة الرسول صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وبعض الناس استشكل هذا، فقال: إن كان هذا بدعة، فنعمت البدعة، مع أن هذا فليس ببدعة، إنما هو إحياء سنة، ويصدق عليه قوله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ سَنَّ في الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً**» أي: أحيا سنة، «**فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ من عَمِلَ بها بَعْدَهُ**»[1]. فهذا هو موجز ما يتعلق بالبدع، والمحدثات.

قوله: (وَالْمُعْتَزِلَةِ). المعتزلة: هم طائفة اعتزلوا أهل العلم من الصحابة والتابعين، وانفردوا في مجالس خاصة لهم[2]. وأول من فعل ذلك واصل

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) انظر: التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (ص٣٥)، والفرق بين الفرق (ص٩٤)، ومقالات الإسلاميين (١/ ١٣٠)، والملل والنحل (١/ ٤٣).

ابن عطاء الغزال[١]، الذي كان من تلاميذ الحسن البصري[٢]، إمام التابعين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

سُئل الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن مرتكب الكبيرة التي دون الشرك، فقال: «هو مؤمن ناقص الإيمان، وليس بكافر»، فقال واصل: أنا لا أقول مؤمنًا، ولاأقول كافرًا، أقول: هو في منزلة بين المنزلتين[٣].

فأحدثوا المنزلة بين المنزلتين، وهذه خاصة بالمعتزلة، وهي بدعة محدثة، فليس هناك منزلة بين المنزلتين، وليس هناك أحد ليس بمؤمن ولا كافر، الإنسان إما أن يكون مؤمنًا سواء كان كامل الإيمان أو ناقص الإيمان، وإما أن يكون كافرًا، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن:٢]، ولم يقل: ومنكم من هو لا كافر ولا مؤمن في منزلة بين

(١) هو: واصل بن عطاء أبو حذيفة المخزومي مولاهم، البصري الغزال، وقيل: ولاؤه لبني ضبة، مولده سنة ثمانين بالمدينة، وهو وعمرو بن عبيد رأسا الاعتزال، سمع من الحسن البصري و غيره، قال أبو الفتح الأزدي: «رجل سوء كافر». توفي سنة إحدى وثمانين ومائة. انظر: الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي (٣/ ١٨١)، وميزان الاعتدال (٧/ ١١٨)، ووفيات الأعيان (٦/ ٧).

(٢) هو: الحسن بن أبي الحسن البصري، الإمام أبو سعيد، مولى زيد بن ثابت، وقيل: مولى جميل بن صفحة، وقيل: غير ذلك. وأبوه يسار من سبي ميسان، أعتقته الربيع بنت النضر، ولد الحسن زمن عمر، وسمع عثمان، وروى عن عمران بن حصين، وأبي موسى، وابن عباس، وعنه ابن عون، ويونس، وأمم، كان كبير الشأن رفيع الذكر رأسًا في العلم والعمل، توفي سنة عشرة ومائة. انظر: الثقات (٤/ ١٢٢)، وتهذيب الكمال (٦/ ٩٥)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦٣).

(٣) انظر: الفرق بين الفرق (ص٩٨)، والملل والنحل (١/ ٤٨)، والأنساب للسمعاني (٥/ ٣٣٩).

المنزلتين، فهذه بدعة أحدثها المعتزلة، وجعلوها من أصولهم التي يقررونها، وهي باطلة.

والمعتزلة يشاركون الخوارج في إنكار الشفاعة في أهل الكبائر؛ لأنهم ليسوا مسلمين عندهم، وليسوا كفارًا، بل هم في المنزلة بين المنزلتين كما يقولون.

قال: (**وَالزَّيْدِيَّةِ**). الزيدية: هم طائفة من الشيعة الذين تشيعوا لأهل البيت، وينتسبون إلى زيد بن علي بن الحسين[1]، فسموا بالزيدية[2].

قوله: (**وَقَالَ هَؤُلَاءِ**). أي: هؤلاء الفرق الثلاث: الخوارج، والمعتزلة، والزيدية.

(**مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا لَا بِشَفَاعَةٍ وَلَا غَيْرِهَا**). وذلك من جهلهم أنكروا المتواتر.

قوله: (**وَعِنْدَ هَؤُلَاءِ مَا ثَمَّ إِلَّا مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ فَلَا يَدْخُلُ النَّارَ**). أما من يدخل الجنة، فلا يدخل النار، فهذا نعم، أما العكس، وهو قولهم: (**وَمَنْ**

---

(١) هو: زيد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي، يروي عن أبيه، وأبان بن عثمان بن عفان، وعبيد الله بن أبي رافع، وعروة بن الزبير، وغيرهم، وعنه ثابت بن أبي صفية الثمالي، وابن أخيه جعفر بن محمد الصادق، وابنه حسين بن زيد، وعبدالرحمن بن الحارث، وغيرهم، قتل سنة ثنتين وعشرين ومائة. انظر: الطبقات الكبرى (٥/ ٣٢٥)، والتاريخ الكبير (٣/ ٤٠٣)، وتهذيب الكمال (١٠/ ٩٥).

(٢) انظر: التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (ص٣٣)، والفرق بين الفرق (ص٢٢)، ومقالات الإسلاميين (١/ ٦٨)، والملل والنحل (١/ ١٥٤).

يَدْخُلُ النَّارَ فَلَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ)، فهذا باطل، وجحود لما تواتر في النصوص من إخراج أقوام من النار من أهل الإيمان أصحاب الكبائر.

قوله: (**وَلَا يَجْتَمِعُ عِنْدَهُمْ فِي الشَّخْصِ الْوَاحِدِ ثَوَابٌ وَعِقَابٌ**). وهذا باطل أيضًا، بل يجتمع في الشخص ثواب وعقاب، فيُثاب على الطاعة، ويُعاقب على المعصية، وهم يقولون: لا، إما أن يُثاب فقط، أو يُعاقب فقط. والنصوص دلت على أنه يجتمع في الشخص ثواب وعقاب، ويجتمع فيه طاعة ومعصية، ويجتمع فيه شرك أصغر مع الإيمان، إنما لا يجتمع الإيمان مع الشرك الأكبر أو الكفر الأكبر المخرج من الملة.

وهذا من جهلهم، وأنهم لم يتلقوا العلم عن العلماء، فليحذر المسلم أن يسلك هذا المسلك، وأن يتلقى علمه عن الأصاغر، أو المتعالمين، أو أهل الضلال الذين يظهرون النصيحة والمحبة، وهم يريدون أن يضلوا العباد عن سبيل الله.

وَأَمَّا الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَائِرُ الْأَئِمَّةِ كَالْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ، فَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ اللهَ يُخْرِجُ مِنَ النَّارِ قَوْمًا بَعْدَ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ اللهُ مَا شَاءَ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ، يُخْرِجُهُمْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيُخْرِجُ آخَرِينَ بِشَفَاعَةِ غَيْرِهِ، وَيُخْرِجُ قَوْمًا بِلَا شَفَاعَةٍ.

الشَّرْح

تواترت الأحاديث الصحيحة في إثبات الشفاعة في أهل الكبائر.

وينقسم المتواتر إلى قسمين[١]:

الأول: التواتر القطعي: وهو ما يرويه جماعة عن مثلهم من بداية السند إلى نهايته تُحيل العادة تواطؤهم على الكذب، ويفيد العلم اليقيني.

الثاني: المتواتر المعنوي: وهو أن ترد النصوص في شيء وتتكاثر فيه، وإن اختلف لفظها، لكن معناها متحد، وهو أقل درجة من المتواتر اللفظي.

فالمتواتر القطعي هو ما تواتر لفظه ومعناه، أما المتواتر المعنوي فهو ما اتفق معناه واختلفت طرقه وألفاظه.

قوله: (أَنَّ اللهَ يُخْرِجُ مِنْ النَّارِ قَوْمًا بَعْدَ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ اللهُ مَا شَاءَ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ).

يخرج الله أهل الإيمان من النار ما دام عندهم التوحيد ولم يشركوا بالله شيئًا، لكن عندهم كبائر، فهم يخرجون من النار ولا يُخلدون فيها، وهذا بإجماع أهل السنة والجماعة.

(١) انظر: نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر (ص٣٧)، والتقييد والإيضاح (ص٢٦٥)، واليواقيت والدرر (١/ ٢٣٢).

قال: (**يُخْرِجُهُمْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وَيُخْرِجُ آخَرِينَ بِشَفَاعَةِ غَيْرِهِ**).

فمنهم من يخرج بشفاعة الشافعين، فالله يأذن للشافعين في أن يشفعوا فيهم، ويقبل شفاعتهم.

قال: «**وَيُخْرِجُ قَوْمًا بِلَا شَفَاعَةٍ**». ومنهم من يخرجه الله دون شفاعة؛ بل بمنه وفضله؛ لأنه من أهل الإيمان، والتوحيد، فيخرجه بدون شفاعة.

وَاحْتَجَّ هَؤُلَاءِ الْمُنْكِرُونَ لِلشَّفَاعَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ [البقرة:٤٨]، وَبِقَوْلِهِ: ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ [البقرة:١٢٣]، وَبِقَوْلِهِ: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ [البقرة:٢٥٤]، وَبِقَوْلِهِ: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر:١٨]، وَبِقَوْلِهِ: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر:٤٨].

الشَّرْح

من الشُبه التي اعتمد عليها الخوارج، والمعتزلة، ومن نفى الشفاعة في أهل الكبائر، وإخراجهم من النار -كما سبق- أنهم أخذوا من هذه الآيات دليلًا لهم على نفي الشفاعة مطلقًا، وأن هذا اليوم لا تُقبل فيه شفاعة مطلقًا، وهم على العكس من القبوريين، والمتصوفة، والمشركين الذين يثبتون الشفاعة مطلقًا، أما أهل السنة والجماعة فإنهم يتوسطون، فلا يثبتون الشفاعة مطلقًا كما يثبتها المتصوفة، والقبورية، ولا ينفونها مطلقًا كما ينفيها الخوارج، والمعتزلة، ومن قال بقولهم، وإنما يفصلون، فيقولون: الشفاعة حق، ولكنها لا تُقبل إلا بشرطين:

الأول: إذن الله للشافع أن يشفع، قال تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

الثاني: رضى الله عن المشفوع فيه، بأن يكون من أهل التوحيد، ومن أهل الإيمان، لكن وقع في كبيرة دون الشرك استحق بها دخول النار، وقد

يُشفع فيه، فلا يدخلها، أو يُشفع فيه، فيخرج منها بعدما يدخلها؛ لأنه ممن رضي الله عنه، أي: رضي قوله، وهو أصل الإيمان والتوحيد عنده، وإنما وقع في كبيرة من كبائر الذنوب دون الشرك ودون الكفر، وهذا مقتضى ما جاءت به الأدلة، فلايثبتون الشفاعة مطلقًا، ولا ينفونها مطلقًا.

ومن الآيات التي استدل بها من ينفي الشفاعة:

قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٍ شَيۡـًٔا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٌ ﴾ أي: فدية، ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ [البقرة:١٢٣]، وهذه في المشركين والكفار، فالمشرك والكافر لا تُقبل فيه شفاعة؛ لأن الله لم يرضَ قوله ولا عمله، قال تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء:٢٨]، والله لم يرتضِ الكافر والمشرك، فهي واردة في نفي الشفاعة عن الكفار والمشركين، لاعن أهل الإيمان.

وكذلك قوله في الآية الأخرى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾، أي: الكفار؛ لأن السياق في الكفار، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ هؤلاء كفار ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر:٣٨-٤٨]، وهذا بالإجماع أن الكافر لا تُقبل فيه شفاعة يوم القيامة.

فالشفاعة المنفية هي في حق الكفار، وليست في حق المؤمنين؛ بدليل الآيات والأحاديث التي جاءت بإثبات الشفاعة في أهل الإيمان، ولا تُضرب

النصوص بعضها ببعض، فهم أخذوا أحاديث نفي الشفاعة، وتركوا أحاديث وآيات إثبات الشفاعة، أخذوا بطرف وتركوا الطرف الثاني، والحمد لله أهل السنة والجماعة عملوا بالأدلة كلها، فقيدوا المطلق، وردوا المطلق إلى المقيد، فلم يأخذوا المطلق على إطلاقه، وإنما قيدوه بالنصوص الأخرى، فنفي الشفاعة مطلقًا مقيد بأن ذلك في الكفار والمشركين، وليس ذلك في عصاة الموحدين، فلا متعلق لهم بهذه الآيات.

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ يوم القيامة ليس فيه بيع، فلن تشتري حسنات، ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ في الدنيا يصير لك خليل يساعدك، قد يعطيك من ماله، وقد يتوجه لك عند أحد، هذه الخُلة تنفع في الدنيا، أما في الآخرة فيتبرأ منك، حتى الوالد يتبرأ من ولده، والولد يتبرأ من والده، وكلٌّ مشغول بنفسه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ والسبب: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧]، كل واحد مشغول بنفسه، هل ينجو أو لا ينجو؟

فهذه الآية إنما هي في الكفار، والكفار يوم القيامة ليس لهم حيلة، لابد من دخولهم النار والخلود فيها، فليس هناك سبب ينجيهم منها؛ لأنهم لم يقدموا سبب النجاة في الدنيا، والآخرة ليس فيها أسباب، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ

ﭐلۡأَسۡبَابُ﴾ [البقرة:١٦٥-١٦٦]، فالأسباب إنما هي في الدنيا، أما الآخرة فليس فيها أسباب، ليس للعبد إلا عمله الذي قدمه في دنياه، خيرًا كان أو شرًا، فلا متعلق لهم -ولله الحمد- في هذه الآيات.

كذلك قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ﴾، أي: صديق، مثل قوله: ﴿وَلَا خُلَّةٞ﴾، أي: ليس لهم أخلاء يساعدونهم كما في الدنيا، ﴿وَلَا شَفِيعٖ﴾ ليس لهم شفيع يوم القيامة ﴿يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]، مثل قوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨]، أي: ليس لهم شفيع تُقبل شفاعته، والمراد بقوله هنا: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الكفار؛ كما في الآية التي قبلها: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

وَجَوَابُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ هَذَا يُرَادُ بِهِ شَيْئَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ الْمُشْرِكِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي نَعْتِهِمْ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر:٤٢-٤٨]. فَهَؤُلَاءِ نُفِيَ عَنْهُمْ نَفْعُ شَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا كُفَّارًا.

الشَّرْح

جواب أهل السنة على حجج المنكرين للشفاعة بشيئين:

- إما أنها واردة في المشركين، وهذا واضح.
- وإما أن تكون واردة في العموم للمشركين وغيرهم.

فيُقال: نعم، حتى المؤمن ما تنفعه الشفاعة إلا بشرطين:

الأول: إذن الله للشافع.

والثاني: رضاه عن المشفوع فيه.

قوله: (لَعَلَّهُ). ليست في جميع النسخ، والظاهر أنها ليس لها حاجة؛ لأن قوله: **(لَعَلَّهُ)** يضعف الجواب.

قوله: (أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ الْمُشْرِكِينَ). وهذا واضح، ذكروا هذه الجرائم والعياذ بالله:

أولها: قالوا: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾، فدل على أن الذي لا يصلي ويترك الصلاة متعمدًا كافر، حتى ولو لم يجحد وجوبها؛ لأنهم قالوا: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ

﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾، ما قالوا: لم نكن نجحد وجوب الصلاة، بل قالوا: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾، فمن ترك الصلاة متعمدًا كفر كفرًا أكبر يُخرج من الملة، ولا تنفعه الشفاعة يوم القيامة.

الثاني: قالوا: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ المراد به: منع الزكاة؛ لأن الزكاة ركن من أركان الإسلام.

الثالث: قالوا: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ أي: كانوا يجادلون بالباطل، ويشغلون أنفسهم بأشياء لم يكلفوا بالدخول فيها.

الرابع: وهو الطامة الكبرى قالوا: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، أي: يكذبون بالبعث والعياذ بالله، ومن أنكر البعث فقد كفر.

فكل واحد من هذه الأمور يقتضي الكفر، فكيف إذا اجتمعت؟ لذلك رتب على هذه الجرائم قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾، فلا تنفع الشفاعة هؤلاء، أما أنها تنفع المؤمنين بإذن الله، فهذا له أدلة أخرى.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ يُرَادُ بِذَلِكَ نَفْيُ الشَّفَاعَةِ الَّتِي يُثْبِتُهَا أَهْلُ الشِّرْكِ وَمَنْ شَابَهَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ لِلْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ مِنْ الْقَدْرِ أَنْ يَشْفَعُوا عِنْدَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، كَمَا يَشْفَعُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عِنْدَ بَعْضٍ، فَيَقْبَلُ الْمَشْفُوعُ إِلَيْهِ شَفَاعَةَ شَافِعٍ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ رَغْبَةً وَرَهْبَةً، وَكَمَا يُعَامِلُ الْمَخْلُوقُ الْمَخْلُوقَ بِالْمُعَاوَضَةِ.

فَالْمُشْرِكُونَ كَانُوا يَتَّخِذُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُصَوِّرُونَ تَمَاثِيلَهُمْ، فَيَسْتَشْفِعُونَ بِهَا وَيَقُولُونَ: هَؤُلَاءِ خَوَاصُّ اللهِ، فَنَحْنُ نَتَوَسَّلُ إِلَى اللهِ بِدُعَائِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ لِيَشْفَعُوا لَنَا، كَمَا يُتَوَسَّلُ إِلَى الْمُلُوكِ بِخَوَّاصِهِمْ لِكَوْنِهِمْ أَقْرَبَ إِلَى الْمُلُوكِ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَيَشْفَعُونَ عِنْدَ الْمُلُوكِ بِغَيْرِ إِذْنِ الْمُلُوكِ، وَقَدْ يَشْفَعُ أَحَدُهُمْ عِنْدَ الْمَلِكِ فِيمَا لَا يَخْتَارُهُ، فَيَحْتَاجُ إِلَى إِجَابَةِ شَفَاعَتِهِ رَغْبَةً وَرَهْبَةً.

الشَّرْح

قوله: (وَالثَّانِي:أَنَّهُ يُرَادُ بِذَلِكَ نَفْيُ الشَّفَاعَةِ). الجواب الثاني: أن هذه الآيات ردٌّ على من أطلق إثبات الشفاعة، وطلبها من الأصنام، والقبور، والأضرحة، والصور المصورة على صور الصالحين، يظنون أن هؤلاء المخلوقين يشفعون لهم عند الله، ويصرفون لهم الدعاء، والاستغاثة، والذبح، والنذر، فتجد عند القبور صناديق النذور، وتجد عندها مذابح الإبل، والبقر، والغنم يتقربون إليها بذلك، وتجد الأكف مرفوعة في دعائها من دون الله، والاستغاثة بالأموات، فالآيات على هذا الوجه تردُّ على هؤلاء.

وهؤلاء مثل السابقين من المشركين الذين ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨]، فإذا توسل بالميت وصرف له شيئًا من العبادة، فهذا شرك أكبر مخرج من الملة، أما إذا توسل به ولم يصرف له شيئًا من العبادة، فهذا يعتبر بدعة؛ لأن الله لم يشرع لنا التوسل بالأموات والتوسط بهم، ولكن إن أضاف إلى ذلك تقربًا إلى الأموات بالذبح والنذر والاستغاثة، كما هو حال القبوريين، فإن هذا شرك أكبر يخرج من الملة، وهو شرك أهل الجاهلية، قال تعالى: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ ﴾ اعترفوا أنهم يعبدونهم، ﴿ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣] هذه حجتهم، وإلا هم يعلمون أنهم لا يقدرون، ولا ينفعون، ولا يضرون، ولا يخلقون، ولا يرزقون، ولكن أرادوا التوسط لهم عند الله، والله لم يشرع لهم ذلك.

قوله: (الَّتِي يُثْبِتُهَا أَهْلُ الشِّرْكِ) أي: أهل الجاهلية، **(وَمَنْ شَابَهَهُمْ)**.

من المنتسبين إلى الإسلام اليوم، الذين اتخذوا القبور أوثانًا تُعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ بالذبح، والنذر، والدعاء، والاستغاثة، وغير ذلك، فتجدهم ينادون الأموات: يا علي، يا حسين، يا عبد القادر، يا شاذلي، يا فلان، يا علان، خصوصًا في الشدائد، يهتفون بالأموات وينسون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، عكس ما كان عليه المشركون الأولون في الجاهلية، كانوا يشركون في حال الرخاء، لكن في حال الشدة كانوا يخلصون الدعاء لله؛ لأنهم يعلمون أنه لا ينقذ من

الشدائد والكربات إلا الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧]، أما المشركون من المنتسبين للإسلام يزيد شركهم في الشدائد، فإذا وقعوا في شدة، أو تقاذفهم موج البحر، وهاج عليهم لا يقولون: يا الله، وإنما يقولون: يا فلان، يا علان، يا حسين، يا عبد القادر، ونحو ذلك، فيهتفون بأسماء الأموات والعياذ بالله، فصاروا أشد شركًا من الأولين، وهم يزعمون أنهم مسلمون.

قوله: (**مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ: مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**). مثل: النصارى الذين غلوا في المسيح، واتخذوه وأمه إلهين من دون الله، فهم أصل البلاء، وقلدهم في ذلك من قلدهم من هذه الأمة.

قوله: (**وَالْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ لِلْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ مِنْ الْقَدْرِ أَنْ يَشْفَعُوا عِنْدَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، كَمَا يَشْفَعُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عِنْدَ بَعْضٍ، فَيَقْبَلُ الْمَشْفُوعُ إِلَيْهِ شَفَاعَةَ شَافِعٍ**). قاسوا الشفاعة عند الله على الشفاعة عند الملوك والرؤساء، فقالوا: إذا كان الملوك والرؤساء يقبلون الشفاعة ولو لم يأذنوا، فالله جَلَّ وَعَلَا يقبلها من باب أولى. وهذا ردٌّ على الله جَلَّ وَعَلَا الذي يقول: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

وفي هذا -أيضًا- قياس للخالق على المخلوق، وهذا غاية التنقص لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن المخلوق مضطر إلى أن يقبل الشفاعة ولو لم يرضَ؛ لأنه يخاف إذا رد الشفعاء صاروا ضده، وهو محتاج إليهم؛ محتاج إلى الوزراء والأعوان،

فإذا ردَّ شفاعتهم قد ينقلبوا عليه؛ لذلك يقبل شفاعتهم ولو لم يرضَ، أما الله جَلَّوَعَلَا فهو الغني عن جميع خلقه، لا يحتاج إلى أحد.

ثم إن المخلوق -سواء كان سلطانًا أو رئيسًا أو كبيرًا- لا يعلم حوائج الناس، ولابد أن يُبلغ عنها، وتُرفع له حوائجهم، أما الله جَلَّوَعَلَا فهو يعلم حوائج خلقه، ولا يحتاج إلى من يبلغه ذلك.

قوله: (**لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ**)، أي: لحاجة المشفوع عنده إلى الشافع، (**رَغْبَةً**) في أن يخدمه، (**وَرَهْبَةً**) أن ينقلب عليه ويعاديه.

قوله: (**فَالْمُشْرِكُونَ كَانُوا يَتَّخِذُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُصَوِّرُونَ تَمَاثِيلَهُمْ، فَيَسْتَشْفِعُونَ بِهَا**). هذا رد عليهم أنهم قاسوا الخالق على المخلوق، فقالوا: يقبل الشفاعة ولو لم يرضَ، كما أن المخلوق يقبل الشفاعة ولو لم يأذن، ولو لم يرض.

قوله: (**وَيَقُولُونَ: هَؤُلَاءِ خَوَاصُّ اللهِ، فَنَحْنُ نَتَوَسَّلُ إِلَى اللهِ بِدُعَائِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ لِيَشْفَعُوا لَنَا**). مثل: خواص الملوك، فهم قاسوا الخالق على المخلوق تعالى الله عن ذلك. ثم هم مع هؤلاء المتوسل بهم من الملائكة، والصالحين، منهم من صور صور الصالحين -أي: نحت تماثيل على أشكالهم- وعلقها، ومنهم من رسم صورهم رسمًا، فصاروا يعبدون هذه الصور ويخضعون لها، ومنهم من يعبد قبور الصالحين، فما صوروا لكنهم يخضعون لها، ويتذللون للقبور، ويحترمونها، حتى إنهم يخلعون نعالهم إذا أقبلوا عليها تعظيمًا لها، ومنهم من يركع، ومنهم من يحبو تعظيمًا للميت، ومنهم من لو طلبت منه

اليمين بالله كاذبًا بادر وحلف، ولو طلبت منه اليمين بمن يعبده من القبور ارتعد واضطرب؛ لأنه يعظم الميت ويخاف منه أكثر مما يخاف الله عَزَّوَجَلَّ، لاسيما إذا كانوا قريبين من الأضرحة يكون عندهم خوف ورعب شديدين، ولا يخافون الله عَزَّوَجَلَّ، ويعظمون المشاهد، ولا يعظمون المساجد بيوت الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا من انتكاس الفطر، وخيبة العقول في هؤلاء المنكوسين.

ولا يزال هذا البلاء في بني آدم، إما بسبب الجهل، وإما بسبب دعاة الضلال الذين يزينون هذا للناس، ويحسنونه، ويرغبون فيه، ويصفون من أنكره بأنه ضال، وأنه خارجي، وأنه كذا وكذا ... إلى آخر ما يقولون في دعاة التوحيد، وما يصفونهم به من الألقاب، وهذا التنفير لا لشيء إلا لأنهم دعوهم إلى إخلاص العبادة لله وترك الشرك، مثل ما فعل المشركون مع الأنبياء لمَّا نهوهم عن الشرك تكلموا في حق الرسل والأنبياء؛ سبوهم، وشتموهم، وآذوهم، وهم رسل الله، فكيف لا يعملون هذا مع العلماء، والدعاة إلى الله عَزَّوَجَلَّ؟!

لا يُستغرب هذا، فأهل الشرك عندهم غيرة على أوثانهم، وأصنامهم، ومعبوداتهم، ولذلك يبذلون دماءهم، وأموالهم دونها؛ لأنها أشربت في قلوبهم، وتعلقت بها قلوبهم، فأحبوها حبًا شديدًا، وصار نزعها من قلوبهم صعبًا، فهم بين جاهل لم يُبين له فظن أن هذا خير، وما بين متعمد مضل يريد أن يصرف الناس عن دين الرسل، وعن دين الأنبياء إلى دين المشركين، فالخطر عظيم وشديد في هذه الفتنة العظيمة.

قوله: (**كَمَا يُتَوَسَّلُ إِلَى الْمُلُوكِ بِخَوَّاصِهِمْ لِكَوْنِهِمْ أَقْرَبَ إِلَى الْمُلُوكِ مِنْ غَيْرِهِمْ**). الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس قريبًا من الصالحين فقط، بل هو قريب من عباده كلهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦]، فلماذا لا تدعو الله مباشرة؟ لماذا لا ترفع يديك وتتضرع إليه، وهو قريب مجيب؟! فأنت لست بحاجة إلى أن يتوسط لك أحد حيًّا كان أو ميتًا عند الله، وقد أمرك الله جَلَّ وَعَلَا أن تدعوه مباشرة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، ولم يقل: ادعوني بواسطة فلان أو علان، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»(١).

فهو جَلَّ وَعَلَا قريب من عباده، ويعرض عليهم الدعاء والتوبة والاستغفار، والعباد يسألونه، ويعدهم بالإجابة والمغفرة، فليسوا بحاجة إلى أن يعقدوا أمورهم، وأن يجعلوا وسطاء بينهم وبين الله عَزَّوَجَلَّ، لكن هذا من إغراء شياطين الإنس والجن دعاة الضلال، هم الذين غرسوا فيهم هذه العقيدة الوثنية بغفلة أو تساهل وكسل من أهل العلم في القيام بالدعوة إلى الله جَلَّ وَعَلَا؛ حتى نمت هذه الأمور. وحين تُنكر على هؤلاء يقولون: هذا ينكر الدين، فصارت هي الدين، وصار التوحيد ليس بدين عندهم، ويعتبرونه تنقصًا للأولياء والصالحين بزعمهم، ويقولون: هذا لا يحب الرسول،

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ولا يحب الأولياء والصالحين، فهم يصفونه إما أنه تنقص، وإما أنه لا يحب هؤلاء الأنبياء، والصالحين، كذا يقولون، ولذلك يقولون: إن الوهابية لا يحبون الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنهم لا يدعونه من دون الله، فمحبة الرسول عندهم أن يُدعى من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (**فَيَشْفَعُونَ عِنْدَ المُلُوكِ بِغَيْرِ إِذْنِ المُلُوكِ، وَقَدْ يَشْفَعُ أَحَدُهُمْ عِنْدَ المَلِكِ فِيمَا لَا يَخْتَارُهُ، فَيَحْتَاجُ إِلَى إِجَابَةِ شَفَاعَتِهِ رَغْبَةً وَرَهْبَةً**). وهذا هو الفرق بين الخالق والمخلوق.

فَأَنْكَرَ اللهُ هَذِهِ الشَّفَاعَةَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، **وَقَالَ:** ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]، **وَقَالَ عَنْ الْمَلَائِكَةِ:** ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٨]، **وَقَالَ:** ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٢، ٢٣]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨].

الشرح

قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾: استفهام إنكار معناه النفي، أي: لا أحد، لا نبي، ولا رسول، ولا ملك من الملائكة، ولا صالح من الصالحين يشفع عند الله إلا بإذنه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾، ﴿وَكَم﴾ تأتي استفهامية، وتأتي خبرية

بمعنى كثير، وهي المرادة هنا ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾، أي: كثير من الملائكة ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قريبين من الله جَلَّوَعَلَا، ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ إلا بشرطين:

الأول: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ﴾، أي: يأذن الله للشافع أن يشفع.

والثاني: ﴿وَيَرۡضَىٰٓ﴾، أن يرضى عن المشفوع فيه بأن يكون من أهل الإيمان والتوحيد، ولكن عنده بعض المعاصي التي يستحق بها أن يُعذب، فيحتاج للشفاعة عند الله جَلَّوَعَلَا، ولعله أن يعفو عنه ويخرجه من النار.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ وصف للملائكة الكرام، فالمشركون ينسبون البنات إلى الله جَلَّوَعَلَا ويقولون: الملائكة بنات الله، والنصارى ينسبون الولد إلى الله ويقولون: المسيح ابن الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]، والله جَلَّوَعَلَا منزه عن الصاحبة -أي: الزوجة- والولد، قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞ﴾ [الأنعام:١٠١]، مع أنهم لا يرضون البنات لأنفسهم، وإذا بُشر أحدهم ببنت كرهها كراهية شديدة، وقد يدفنها حية تحت التراب حتى تموت، وهي المَوْؤُودَةُ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل:٥٨-٥٩]، أي: أيبقيها حية مع الذلة والهوان، أم يتخلص منها بأن يدفنها وهي حية في التراب حتى تموت.

فهم يكرهون البنات لأنفسهم ويجعلونها لله، فلم ينزهوا الله عما ينزهون أنفسهم عنه تعالى الله عن ذلك.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غنيٌّ عن الولد؛ لأن الولد جزء من الوالد، وشبيه بالوالد، والله جَلَّ وَعَلَا لا شبيه له، ولا مثيل له، وأيضًا الوالد بحاجة إلى الولد؛ ليخدمه ويقوم عليه، والله غني ليس بحاجة إلى أحد، غني عن خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾، ويُطلق الولد على الذكر والأنثى ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ هذا نفي وتنزيه لله أن يتخذ ولدًا، ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ بل الملائكة عباد، والعبد لا يكون ولدًا لله عَزَّوَجَلَّ، فالله غني عنه؛ لأنه لو كان ولدًا لله لصار إلهًا مثل الله؛ لأن الولد جزء من الوالد؛ كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًاۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ [الزخرف:١٥]؛ لأن الولد بضع من الوالد وقطعة منه، ومعنى هذا أنه يكون إلهًا مع الله تعالى الله عن ذلك، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا شريك له.

وقوله: ﴿ بَلْ عِبَادٌ ﴾ ينفي عنهم أن يكونوا أولادًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والنصارى يقول: ﴿ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٠] في حين أن المسيح عبد الله ورسوله، وليس ابنًا لله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا يقول المسيح يوم القيامة إذا سأله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ أي: ليس له حق في الألوهية، ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ فلست بحاجة إلى أن أخبرك؛ لأنك تعلم أني ما قلت هذا، وأنهم يكذبون ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا

فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة:١١٦-١١٧].

هذا الذي أمر به المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ كإخوانه من المرسلين، ما قال: أنا ابن الله، أو أنا شريك لله، أو ثالث ثلاثة، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾، أي: المسيح ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢]، لن يستنكفوا أن يكونوا عبادًا لله، ولا يدعون منزلة ليست لهم، والعبودية هي أجل المقامات، وكفى شرفًا للإنسان أن ينبذ عبادة الشيطان وعبادة الهوى، ويكون عبدًا لله على حق وعلى بصيرة. والعبودية تنقسم إلى قسمين:

الأول: عبودية خاصة، وهي عبودية الخضوع لله والعبادة لله.

الثاني: عبودية عامة، بمعنى أن كل الناس يملكهم لله جَلَّ وَعَلَا، فهو الذي خلقهم، وتجري عليهم أقداره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يصرفهم كيف يشاء، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

والعبودية الخاصة هي تشريف للعبد، ولهذا وصف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأجل وصف أنه عبد الله، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]، أي: محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالذين يغلون فيه، ويزعمون أنه ينفع ويضر من دون الله، وأنه يقضي حوائج الناس بعد موته، هذا من جنس ما يعتقده المشركون الأولون في معبوداتهم نسأل الله العافية، فهم يخرجون العبد عن العبودية، ويجعلونه إلهًا

مع الله عَزَّوَجَلَّ، إما بأنه يملك النفع والضر، ويعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، وإما بأنه ولد لله، وجزء من الله، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

قوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ من الله جَلَّوَعَلَا؛ لأن العبودية لله كرامة.

وقوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾، أي: لا يتقدمون على الله بالاقتراحات، أو أن الله يفعل كذا، أو يفعل كذا، بل إنهم مصغون لأمر الله جَلَّوَعَلَا، فما أمرهم به نفذوه، وما لم يأمر به توقفوا عنه.

قوله: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾، أي: إذا أصدر إليهم أمرًا بادروا إلى تنفيذه، وهذه العبودية لله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ علمه محيط بهم، لا يخفى عليه شيء، وأما الله جَلَّوَعَلَا فلا أحد يحيط به، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، والمسيح يقول: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١١٦].

قوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ هذا محل الشاهد، فمع ما أعطاهم الله من الكرامات والأوصاف التي ذكرها في هذه الآية لا يتقدمون بالشفاعة عند الله إلا بعد أن يأذن الله لهم ويرضى، وأفضل الشفعاء وسيد الشفعاء نبينا محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا طلبت منه الأمم يوم القيامة أن يدعو الله لهم بأن يريحهم من الموقف الذي طال وشق عليهم، لا يبادر ويطلب من الله أن يحاسب العباد، بل يخر ساجدًا بين يدي ربه حتى يُقال له: «**يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**»(١)، ما يشفع إلا بعد إذن الله له.

---

(١) حديث الشفاعة في أهل الموقف تقدم تخريجه (ص٣٠).

وقوله: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾، أي: خائفون من الله جَلَّوَعَلَا، فدل على أنهم عباد، ولا يصلحون أن يكونوا آلهة، أو يملكون من الأمر شيئًا.

قوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ هذه الآية قطعت عروق الشرك من أصله، وردت على المشركين، فقوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هذا أمر من باب التحدي، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذه واحدة، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ هذه الثانية ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ هذه الثالثة ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ هذه الرابعة، إذًا ما بقي مجال للمشركين؟

أولًا: لا يملكون شيئًا، والملك كله لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فكيف تطلب منهم شيئًا، وهم لا يملكون شيئًا، إلا من ملَّكه الله منهم؟ قال تعالى: ﴿ **قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ**﴾ [آل عمران:٢٦]، فالملك لله جَلَّوَعَلَا، ولا أحد يملك شيئًا، لا يملكون أقل شيء ولو مثقال ذرة، وهي الهباءة التي تطير في الهواء، وقيل: الذرة صغار النمل. فهم لا يملكون ما يزن ذرة من الكون؛ لأن الكون كله لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فكيف تطلبون منهم، وهم لا يملكون ولا مثقال ذرة؟ والعادة أنه لا يُطلب من الإنسان إلا شيء يملكه، فيأتي المحتاج عند الغني الذي عنده دراهم وأموال، وأنت محتاج، فيقول له: أعطني وتصدق عليَّ؛ لأنه يملك أن

يعطيه، أما أن يأتي عند فقير معدم، ويطلب منه، فلن يستطيع؛ لأنه ليس عنده شيء، وقد يكون أقل منه وأكثر حاجة منه، فلا تُطلب الحاجات إلا من الغني المالك لكل شيء وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الثانية: إذا لم يكن مالكًا، فربما يكون شريكًا للمالك، هذه -أيضًا- نفاها الله جَلَّ وَعَلَا بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: ما لهم في السموات والأرض شركة أبدًا؛ لأنها ملك لله جَلَّ وَعَلَا.

الثالثة: إذا لم يكن مالكًا للشيء المطلوب منه، ولا شريكًا فيه، فربما يكون معينًا للمالك، كأن يكون وزيرًا له يدبر معه الأمور ويساعده، والله ليس كذلك، لا يحتاج إلى أحد، قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، ليس له منهم من يعينه جَلَّ وَعَلَا؛ لأنه غني عن الأعوان والشركاء.

الرابعة: ما بقي إلا الشفاعة، فنفاها الله عَزَّ وَجَلَّ وقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، فصارت الشفاعة ملكًا لله، وليست للذي تطلبها منه، فينبغي أن تطلب من الله أن يشفع فيك الشفعاء؛ يشفع فيك رسوله، يشفع فيك ملائكته، يشفع فيك عباده الصالحين، ولا تطلب الشفاعة منهم مباشرة، قل: اللَّهُمَّ شفع فيَّ فلان، شفع فيَّ نبيك، شفع فيَّ ملائكتك، أما أن تقول: يا محمد، يا جبرائيل، يا كذا، فلا أحد منهم يشفع عند الله إلا بإذنه عَزَّ وَجَلَّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

إذًا ما بقي للمشركين مجال يتعلقون به، ولذلك يُقال: إن هذه الآية قطعت عروق الشرك من أصله، لكن أين الذي يتأمل ويتدبر القرآن؟!

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، هم يعلمون أنهم لا يضرون ولا ينفعون، ولكن يريدون منهم شيئًا واحدًا وهو الشفاعة، ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، أنتم الذين تجعلونهم شفعاء عند الله، وهذا محال، بل الله الذي يجعل الشفعاء ويأذن لهم؛ لأن الشفاعة ليست ملكًا لأحد، إنما هي ملك لله جَلَّ وَعَلَا، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٣-٤٤]، فلا تُطلب إلا منه، والشفيع لا يشفع عنده إلا بشرطين: الإذن والرضى.

قوله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الله لايعلم أن له شريكًا في السموات والأرض، وما لا يعلمه الله فهو باطل ومحال؛ لأن الله يعلم كل شيء، وقد أخبر أنه ليس له شريك في السموات ولا في الأرض، وأنتم تقولون: لا .. بل له شريك. فهل أنتم أعلم من الله؟!

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ التسبيح معناه التنزيه، نزه نفسه عن عقيدتهم الباطلة، ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ أي: ارتفع بذاته وقدره وقهره على عباده، ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سمى اتخاذهم الشفعاء عند الله دون إذنه ورضاه شركًا.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:٥١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [السجدة:٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف:٨٦].

الشَّرح

قوله: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ﴾ خطاب للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي: بالقرآن ﴿ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ يخافون من لقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ ﴾، أي: ليس لهم ولي يتولى أمورهم إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ عند الله، ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾، ويتركون ما هم عليه من الشرك والشبه الباطلة.

وقوله تعالى في سورة السجدة: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ فصَّل هذه الأيام في سورة فصلت، وقال: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت:٩-١٢]، هذه يومان مع أربع، فتكون ستة أيام، خلق الأرض في يومين، وتقدير الأقوات

والمنافع في يومين، وخلق السموات في يومين، صار المجموع ستة أيام بداية من يوم الأحد، ونهاية بيوم الجمعة، هذه الأيام الستة، أما يوم السبت، فلم يحصل فيه شيء.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، أي: علا وارتفع على العرش، والعرش: سقف المخلوقات، وسقف الجنة[(١)]، وهو أعلى شيء[(٢)]، وهو مخلوق عظيم، والله جَلَّ وَعَلَا مستو -أي: مرتفع- فوق عرشه، فوق مخلوقاته.

ثم قال: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ يتولاكم لو تخلى الله عنكم، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك:٢١]، وقال:

(١) كما في حديث الأطيط الذي أخرجه أبو داود (٤٧٢٦)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٢)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٢٨)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٥٦)، وابن عبد البر في التمهيد (٧/ ١٤١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦١)، وابن أبي شيبة في العرش (ص٥٧)، والآجُرِّيُّ في الشريعة (٣٠٧)، واللَّالَكائيُّ في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٤) من حديث جُبَيرِ بن مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَتَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، جُهِدَتِ الْأَنْفُسُ، وَضَاعَتِ الْعِيَالُ، وَنُهِكَتِ الْأَمْوَالُ، وَهَلَكَتْ الْأَنْعَامُ؛ فَاسْتَسْقِ اللهَ لَنَا؛ فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ، وَنَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ. قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟!** وَسَبَّحَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: **وَيْحَكَ! إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ؛ شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللهُ؟! إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَوَاتِهِ لَهَكَذَا.** وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ، **وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ**».

(٢) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -الذي أخرجه البخاري (٢٧٩٠)- وفيه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ**».

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك:٣٠]، إذا نشفت الأرض، وصارت قاحلة ليس فيها ماء أبدًا، ولا ينزل عليها مطر من السماء، فمن الذي يأتيكم بالماء؟ الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي بيده الأمور.

ومحل الشاهد من هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: ليس لكم غير الله، والشفاعة ملك لله، وهو سبحانه الذي يأذن بها، فلا تُطلب من غيره، بل تُطلب من الله، فالميت لا يُطلب منه شفاعة أصلًا، وأما الحي الحاضر فَتُطلب منه الشفاعة، ولا تنفع شفاعته إلا أن يأذن الله له ويرضى، كما يفعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المقام المحمود.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾، فالشفاعة منتفية عن المشرك والكافر، ولا تُقبل فيه شفاعة أبدًا ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: أهل التوحيد، فالشفاعة إنما تنفع أهل التوحيد، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمون معنى (لا إله إلا الله)، ويعملون بمقتضاها، فليس المراد من (لا إله إلا الله) التلفظ بحروفها من غير معرفة لمعناها. ثم -أيضًا- ليس القصد معرفة معناها فقط، بل لابد من العمل بمقتضاها وما تدل عليه.

فأهل التوحيد تُرجى لهم الشفاعة، ويقبل الله الشفاعة فيهم يوم القيامة إذا حصل منهم شيء يقتضي تعذيبهم، لكن لأن عندهم التوحيد والإيمان، يتفضل الله جَلَّ وَعَلَا على الشفعاء أن يشفعوا لهم. فالشفاعة فيها تكريم للشافع، وفيها نفع للمشفوع فيه، وهي راجعة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام:٩٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر:٤٣-٤٥].

الشَّرح

ساق المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية للرد على الذين يَدْعون من دون الله؛ من الموتى، والملائكة، والأولياء، والصالحين، والأنبياء، فهذه الآية ترد عليهم في أن الشفعاء يوم القيامة يتخلون عن الذين طلبوا منهم الشفاعة التي لم يأذن الله بها، حتى ولو كان هؤلاء الشفعاء ضللوهم في الدنيا، وأمروهم بأن يفعلوا هذا، فإنهم يتبرؤون منهم يوم القيامة، حتى الشيطان الذي أغوى هؤلاء يتبرأ منهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾ [إبراهيم:٢٢]، فيتبرؤون منهم وهم أحوج ما يكونون إليهم، فدل على بطلان هذه الشفاعة، وأنها لا تنفع أصحابها يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ ﴾ ليس معكم شيء ﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾، فالإنسان دخل الدنيا حين خرج من بطن أمه وليس معه شيء، ويخرج منها بالموت وليس معه منها شيء إلا العمل الصالح الذي عمله فيها، أو العمل السيئ، فهو الذي يخرج به من هذه الدنيا، أما الأموال، والممتلكات، وأما الشفعاء الذين تعلقوا بهم، فإنهم يتخلون عنهم، الأموال تكون لغيرهم، والشفعاء يتبرؤون منهم، فخسروا الدنيا والآخرة.

قال: ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ ﴾ أي: ما أعطيناكم في الدنيا من الأموال، ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾، فالله جَلَّ وَعَلَا نهى عن هذا الشيء، وحذرهم منه، ووضح للناس عاقبته وما تؤول إليه، فلم يبق لهم عذر ولا حجة، إلا المكابرة، أو اتباع الذين أضلوهم من غير علم؛ لأنهم تركوا الكتاب والسنة والحُجة الواضحة، وتركوا دعاة التوحيد، وأقبلوا على هذه الترهات والأباطيل، واتَّبعوا من لا يصلح للاقتداء، فإذا به يتبرأ منهم يوم القيامة.

فهذا واضح جدًّا في أن الشفاعة لا تُطلب -كما يزعمون- من الأموات، والأوثان، والأشجار، والأحجار، وإنما تُطلب من الله جَلَّ وَعَلَا، فهو سبحانه الذي يملك الشفاعة، وأما الذي لا يملك الشفاعة، فلا تُطلب منه؛ لأنه يُطلب منه ما لا يملك.

وقوله تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾، هذه الآية من سورة الزمر مثل آية سورة الأنعام، فالقرآن كله يصدق بعضه بعضًا، ويفسر بعضه بعضًا، ولا يتعارض أبدًا، فالمسار واحد في جميع الآيات، وكذلك أحاديث الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تتعارض ولا تتناقض أبدًا.

وقوله: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾ هذا استفهام إنكار، ﴿ أَمِ ﴾ بمعنى: بل، فيكون المعنى: بل اتخذوا من دون الله شفعاء من الأموات، والأضرحة، والقبور، والجن، والإنس، طلبوا منهم الشفاعة على أنهم يملكونها من دون الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا ﴾ لايملكون شيئًا إلا ما أعطاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا أحد يملك شيئًا إلا ما أعطاه الله؛ من العلم، من الدين، من المال، من الأولاد، وكذلك الشفاعة ليست ملكًا لهم، وإنما هي ملك لله، ولهذا قال: ﴿ قُل ﴾ أيها الرسول بل ﴿ لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾، وقوله: ﴿ شَيْـًٔا ﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم كل شيء إلا ما أعطاهم الله، ومن ذلك الشفاعة.

قال: ﴿ وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾؛ لأن هذه جمادات؛ أشجار، وأحجار، أو أموات فقدوا إدراكهم في الدنيا وصاروا موتى، قال تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ [فاطر:١٤]. فالأمر واضح في هذا جدًّا، لكن هؤلاء أعرضوا عن القرآن، واتبعوا القصص، والحكايات، والخرافات، والمنامات، ودعاة الضلال، والتقليد الأعمى، ولا يقرؤون القرآن إلا للتبرك، أو الرقية، أو

التأكل به في المحافل، أما للعمل والتدبر، فقليل من الناس من يقرأه قراءة تدبر وعمل واتباع.

فإذا كانوا لا يملكون شيئًا، فمن الذي يملك؟ قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ جميع الشفاعة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الذي يملكها، فلا تُطلب إلا منه، وهو يأذن بها إذا شاء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ثم عمم فقال: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلله جَلَّوَعَلَا الشفاعة، وله الممتلكات كلها ما نعلمه وما لا نعلمه، وهو سبحانه يملك من شاء من عباده تمليكًا مؤقتًا، ثم يؤول الملك إلى الله جَلَّوَعَلَا، يموت الإنسان ويترك خلفه الأموال والثروات، فتؤول إلى الله جَلَّوَعَلَا، وهو يعطيها لغيره من الورثة ومن يأتي بعده.

قال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيحاسبكم على تصرفاتكم، وعلى تقولكم على الله بغير علم، وعلى تفريطكم، لستم مهملين، لابد من أن تُحاسب يوم القيامة على جميع أعمالك، وتصرفاتك، وتُجازى عليها، فليست المسألة أنك في هذه الدنيا تعمل ما تشاء، وتتبع هواك ورغبتك، ثم تترك هملًا، بل لك موعد تحاسب فيه على ما قدمت في هذه الدنيا، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

قال في الآية الثانية: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ يُبيِّن سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنه مع هذا البيان الواضح، والحجج القاطعة على بطلان الشرك، فإنهم لا يتخلون

عنه؛ لأنهم يتعصبون لما هم عليه، وما عليه مشائخهم، وأهل بلدهم، رغم وضوح الحجة في بطلان ما هم عليه، فإذا ذُكر التوحيد وإخلاص العبادة لله، وترك عبادة ما سواه، ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لأنهم يكرهون التوحيد، وتنفر منه قلوبهم.

وسبحان الله! هذا واقع الآن، فإنك لو ذكرت التوحيد عند هؤلاء القبوريين، والخرافيين، والصوفيين، أو عند أصحاب التوجهات المخالفة، لو ذكرت عندهم المنهج الصحيح والطريقة السليمة، ودعوتهم إلى الرجوع إلى الحق، فإنهم ينفرون، ولا يقبلون هذا، بل إنهم يقابلونك بأسوأ الأقوال والاتهامات، وغير ذلك.

قال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: لا يؤمنون بالحساب والجزاء، وما حملهم على استمرارهم على الشرك والمكابرة إلا أنهم لا يؤمنون بأن هناك حسابًا وجزاءً وجنة ونارًا، غاب عنهم هذا بسبب الهوى، والتقليد الأعمى، والتعصب، تغيب الآخرة عن الإنسان المبتلى بالتعصب، وتحضر عند الذي يريد النجاة ويقبل الحق.

ولذلك فإن بعض الجماعات التي تدعو إلى الإسلام لو قلت لهم: بينوا للناس التوحيد وحذروهم من الشرك. قالوا: نحن لا ننفر الناس، نحن نجمعهم. أتجمعونهم على الباطل؟ ليس هذا بتجميع هذا تفريق، لا يجتمع الناس اجتماعًا صحيحًا إلا على عقيدة التوحيد، فهي التي تصفي القلوب، وتحصل بها المودة والإخوة بين المسلمين، أما أن يُترك كل واحد على عقيدة،

فلن يحصل اجتماع أبدًا، وإن اجتمعوا في الظاهر ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ [الحشر:١٤].

فالاجتماع الصحيح إنما يكون على التوحيد، والعقيدة الصحيحة، فإذا كنتم تدعون إلى الله حقيقة، فابدؤوا بالتوحيد، كما بدأ الأنبياء، وكما بدأ المصلحون، ابدؤوا بالعقيدة أولًا وقبل كل شيء، وهذا هو علامة الدعوة الصحيحة، أما الدعوة الفاشلة، والدعوة التي لا تجدي شيئًا ولا تسمن ولاتغني من جوع، فهي التي لا تهتم بالتوحيد ولا بالعقيدة، وتترك الناس على ما هم عليه من الشركيات، والبدعيات، والمخالفات، فهذه ليست دعوة؛ لأنها مخالفة لدعوة الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

ثم قال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾، فإذا مدحت معبوداتهم، وقلت: إنها تنفع وتضر، وأن لها سرًّا، وأن الشيخ الفلاني رُئي في المنام، وقال كذا، وأن.. وأن، وتجمع لهم حكايات وخرافات ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ يفرحون بهذا، ويصاحبونك، ويثنون عليك، ويصفونك بالعلم، فهم يفرحون بمن يؤيدهم على باطلهم، وهذه صفات أهل الباطل، أما أهل الحق فهم على العكس من ذلك، يفرحون بمن يدعو إلى الحق، ويتبرؤون ممن يدعو إلى الباطل.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه:١٠٨، ١٠٩]، وَقَالَ صَاحِبُ يس: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ [يس:٢٢-٢٥].

الشَّرْح

قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ هذا في يوم القيامة، إذا بعث الله الأولين والآخرين في صعيد واحد لا يغيب منهم أحد، ولا يتخلف منهم أحد، فحينئذٍ تخشع الأصوات للرحمن، ولا يحصل الكلام من هيبة الرحمن جَلَّجَلَالُهُ، ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ خفيًا فيما بينهم. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ يدل على جلالة الموقف وعظمة الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأن هذا اللغط الذي في الدنيا والخصومات، تضمحل وتزول في هذا الموقف، وكل مشغول بنفسه.

قال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ هذا محل الشاهد أن الشفاعة لا تكون إلا بعد أن يأذن الله للشافع ويرضى للمشفوع فيه، فالشفاعة لا تنفع إلا أهل الإيمان الذين عندهم شيء من الذنوب يستحقون به العذاب، إذا توافر هذان الشرطان:

الأول: إذن الله للشافع أن يشفع.

الثاني: رضاه عن المشفوع فيه، وهو لا يرضى إلا عن أهل التوحيد الذين عندهم خطايا وسيئات تستوجب العذاب، فهم تحت المشيئة إن شاء الله غفر لهم، وإن شاء عذبهم، وإن شاء قبل فيهم شفاعة الشافعين.

ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما قاله الرجل المؤمن في سورة ﴿يسٓ﴾، وسميت ﴿يسٓ﴾؛ لأن الله افتتح أولها بـ﴿يسٓ﴾ حروف مقطعة، مثل ﴿طه﴾، ﴿الٓمٓ﴾، ﴿الٓر﴾، ﴿الٓمٓصٓ﴾ حروف مقطعة، خلافًا للذين يقولون: إن ﴿يسٓ﴾ اسم الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واسمه طه أيضًا. وليس الأمر كذلك، فهذه ليست بأسماء، إنما هي حروف مقطعة.

قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس:١٣]، هذه القرية كانت في الشام وكانت على الشرك، فأرسل المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إليهم رسلًا يدعونهم إلى التوحيد، فقوله: ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ أي: رسل المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقيل: إنهم رسل من عند الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[(١)].

قال تعالى: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أرسل لهم اثنين يدعونهم إلى التوحيد، فكذبوهما، فعززهم الله، أي: قواهم برسول ثالث[(٢)]،

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٠/ ٥٠٠)، وتفسير القرطبي (١٥/ ١٤)، وتفسير ابن كثير (٦/ ٥٠٥).

(٢) أخرج ابن سعد في طبقاته (١/ ٥٣)، والطبري في تاريخه (١/ ٤٩٥) عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كان بين ميلاد عيسى والنبي خمسمائة وتسع وستون سنة، بعث في أولها ثلاثة أنبياء، وهو قوله: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾، والذي عزز به شمعون، وكان من الحواريين».

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ لدعوتكم إلى التوحيد وترك الشرك الذي أنتم عليه، ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ هذه حجة المشركين، يقولون: لا يمكن أن يرسل الله إلينا واحدًا مثلنا، لابد أن يرسل ملكًا من الملائكة، أما أن يكون واحدًا منًّا فليس له فضل علينا، نحن وهو سواء، هذه كلمة المشركين: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ فجحدوا الوحي والرسالة، ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ [يس:١٤، ١٥]، أي: تكذبون على الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

سبحان الله! يقولون: لا يمكن أن تكون الرسالة في البشر، ويجعلون الإلهية في الحجر! أين العقول؟ إذا كانت الرسالة عندهم لا تصلح للبشر، فكيف تكون الربوبية والألوهية في الحجر، والشجر، والقبور، والأموات؟! لكن صاحب الباطل لا ينظر إلى باطله، ولا ينظر إلى ما هو عليه.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، الهداية بيد الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، أما نحن فعلينا البلاغ، وهذا عام في الرسل، وغيرهم من الدعاة والمصلحين، أنهم لا يملكون هداية القلوب، وإنما هذا بيد الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ولكن هداية القلوب تحصل لمن قبل الخير وطلبه، فالله يوفقه جَلَّوَعَلَا، أما الذي يُعرض عن الخير، فإن الله يحرمه، وهو الذي حرم نفسه، فالله جَلَّوَعَلَا لا يضع الهداية إلا فيمن يستحقها ويحبها، ويحرم المعاند الذي لا يقبل الحق من الهداية عقوبة له.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾ هددوهم هذه المرة، أنتم ما أتيتمونا بخير من يوم أن رأيناكم والمصائب تأتينا، فهذه طريقة الكفار مع الرسل يتطيرون بهم، وهي أيضًا طريقة الفساق مع دعاة الحق، يقولون: هؤلاء بلاوي، وهؤلاء

عقدوا المجتمع، وهؤلاء سبب التأخر والرجعية، وهؤلاء وقفوا حجر عثرة أمام التقدم، فما أشبه الليلة بالبارحة، يقولون للرسل وأتباعهم هذه المقالة: إنكم أنتم السبب فيما أصابنا من القحط والجدب والمصائب. في حين أن السبب إنما هي أعمالهم، أما الرسل فلا يأتون إلا بالخير.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾ والتطير هو: التشاؤم[1]، ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ يرجمون الرسل، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ هذا تهديد، وكم لاقى الرسل والدعاة من أمثال هذه التهديدات؛ لأن ما عندهم حجة، فيلجؤون إلى القوة، وهذه عادة أهل الباطل، إذا لم يملكوا حجة، فإنهم يلجؤون إلى القوة والتهديد، انقطعت مناظرتهم، فلم يبق لهم إلا التهديد، قالت الرسل لهم: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾، أي: ما أصابكم ليس بسببنا، فنحن نأتي بالخير، وما أصابكم هو بسبب أعمالكم؛ من الكفر والشرك والمعاصي، فهي سبب ما يصيب الناس، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى:٣٠]، نعم هي من جهة القضاء والقدر هي من الله جَلَّ وَعَلَا، ولكن من جهة الجزاء هي بسببكم أنتم، الله قدرها عليكم عقوبة لكم بسبب أفعالكم، ولو أطعتمونا وقبلتم الحق لما أصابكم إلا الخير، قالوا: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ تقابلوننا بهذه المقابلة بسبب أننا ذكرناكم بالله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾.

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٥٢)، ومشارق الأنوار على صحاح الآثار (١/ ٣٢٤)، ولسان العرب (٤/ ٥١٠).

ثم في أثناء هذه المجادلة والمخاصمة والمحاورة بين الرسل وهؤلاء، جاء رجل صالح ألقى الله في قلبه الإيمان، ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ أي: يسرع؛ لأجل أن يصل إليهم بسرعة وينصحهم، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ من باب التعطف، ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ نصيحة لهم أن يتبعوا المرسلين، ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ هل جاؤوكم يريدون طمعًا في أموالكم أو دياركم؟ لا، ما حملهم على هذا إلا النصيحة فقط، فكيف تتهمونهم وهم ما طلبوا منكم مالًا، ولا طلبوا منكم ثناء ولا مدحًا، وإنما ينصحونكم فقط، ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ هم على هداية، وما داموا على هداية يجب أن تسيروا خلفهم؛ لأنهم يرشدونكم إلى طريق الهدى، أما الذي على ضلال، فلا يُتبع، وهذا ما أنتم عليه اتبعتم الضالين، وتركتم الناصحين الذين هم أشفق عليكم من أنفسكم.

ثم قال: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ هذا من إقامة الحجة عليهم، ما الذي يمنعني أن أقبل الحق، وأتبع الرسل؟ ليس لي عذر في هذا، ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أي: خلقني، هل الأصنام خلقتك، هل رزقتك، الأصنام أنت أكمل منها، هي إما جمادات حجارة، أو أشجار، وإما أموات، وإما أحياء ضعفاء لا يملكون لأنفسهم شيئًا، فكيف يملكونه لغيرهم؟ ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، فالعبادة لا تصلح إلا للخالق سبحانه، أما الذي لا يخلق، فلايستحق العبادة، وهذا استدلال بتوحيد الربوبية على وجوب توحيد الألوهية، وهو العبادة.

قال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم، ماذا كانت النتيجة؟ ختم الله له بالإيمان، ومات على التوحيد، ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ بعد موته، ولما رأى كرامة الله والنعيم، ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ سبحان الله! يتمنى لهم الخير حتى وهو ميت، ويتمنى لهم أن يعلموا ما علمه من الهداية، ومن المصير الطيب.

فماذا كان مصير هؤلاء؟ انظر لمصير الموحد، ومصير المشرك، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ هم أضعف من ذلك، وأقل من هذا ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ صيحة واحدة بصوت الملك تقطع قلوبهم في أجوافهم، فيموتون جميعًا عن آخرهم، ما هو بحاجة إلى أن يأتي بجنود، ودبابات، وملائكة، وقوات، هم أضعف من ذلك، إذا أراد الله شيئًا فالبشر أضعف ما يكونون، حتى الذين يملكون الدبابات، والطائرات، والمعدات تراهم أضعف عند الله من البعوضة إذا أراد الله لهم هلاكًا، ولا تغني عنهم قواتهم ولا معداتهم، هل القوة الجبارة أغنت عن الاتحاد السوفياتي شيئًا، لما أراد الله تدميرهم؟ دمرهم في لحظة، ولم تنفعهم قواتهم، ومن قبلهم قوم عاد، وثمود، وفرعون، والطواغيت الذين عندهم من الأبهة، والملك، والقوة، والقوات، ما أغنت عنهم شيئًا أبدًا ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ عن آخرهم، ما يتحملون أكثر من صيحة واحدة لضعفهم.

فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي أَثْبَتَهَا الْمُشْرِكُونَ لِلْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ حَتَّى صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ وَقَالُوا: اسْتِشْفَاعُنَا بِتَمَاثِيلِهِمْ اسْتِشْفَاعٌ بِهِمْ وَكَذَلِكَ قَصَدُوا قُبُورَهُمْ وَقَالُوا: نَحْنُ نَسْتَشْفِعُ بِهِمْ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ لِيَشْفَعُوا لَنَا إِلَى اللهِ وَصَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ فَعَبَدُوهُمْ كَذَلِكَ وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ أَبْطَلَهَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَذَمَّ الْمُشْرِكِينَ عَلَيْهَا وَكَفَّرَهُمْ بِهَا.

الشَّرْح

هذه الشفاعة التي أثبتوها للملائكة، والرسل، والأنبياء، والصالحين، هي الشفاعة المنفية التي نفاها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ ﴾ [النجم:٢٦]، وقال الله جَلَّ وَعَلَا في الملائكة: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨]؛ لأن الشفاعة ملك لله، وهو الذي يأذن بها للملائكة ولغيرهم، فهم زعموا وأثبتوا لهؤلاء الشفاعة المنفية التي هي من غير إذن الله، أو التي هي للمشركين الذين لا تنفعهم شفاعة الشافعين.

قوله: (**حَتَّى صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ**). ولما كان النبي، أو الولي، أو الرسول ميت ليس بماثل أمامهم، ماذا عملوا؟ صوروا صورته، يقولون: صورته تنوب عنه، فإذا رأيت صورته كأنه حاضر عندك، ولهذا جاء تحريم الصور والتماثيل؛ لأنها سبب في هلاك أمم كقوم نوح لما صوروا الصالحين، ونصبوا صورهم على المجالس، أتاهم الشيطان بعد مضي مدة، وبعد انقراض العلماء، فزين لهم عبادة هذه الصور، فعبدوها من دون الله. وقوم إبراهيم كانت فتنتهم

بالتماثيل، ينحتون التماثيل من الحجارة، ويبنونها من الطين، ثم يعبدونها، فهم يصنعونها ويعبدونها، سبحان الله! قال تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٥، ٩٦]، المنحوت أضعف من الناحت، فكيف تعبد شيئًا أنت الذي تنحته بيدك؟!

فهؤلاء صوروا صورهم، ونصبوها على مجالسهم، ولما طال بهم الزمن عبدوهم من دون الله، ولهذا جاء النهي الشديد عن التصوير، وتعليق الصور؛ لأنها تؤول إلى العبادة، فصور المعظمين من العلماء، والملوك، والرؤساء، والصالحين لا يجوز تصويرها للذكريات، وتعليقها في الميادين، أو البيوت، أو على الجدران؛ لأن هذا يؤول إلى عبادتها، يأتي ناس جهال يزين لهم الشيطان أن هذه الصور ما عُلقت إلا لأن فيها سرًّا وبركة، فيزين لهم عبادتها، والشرع جاء بسد الوسائل التي تفضي إلى الشرك.

والآن يقولون: إن الناس على التوحيد، ولن يعبدونها.

سبحان الله! ليس النظر إلى الوقت الحاضر فقط، بل النظر إلى المستقبل، والشيطان حاضر دائمًا، فإذا مات العلماء، ومات هذا الجيل الموحد الذي عرف التوحيد، سيأتي جيل جاهل يزين لهم الشيطان عبادة هذه الصور وهذه التماثيل، كما وقع لقوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقوم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هم كذلك عبدوا التماثيل؛ لأنهم صوروها على صور الغائبين؛ صور الكواكب، صور النجوم، صور المعظمين عندهم، وقالوا: هي حاضرة أمامنا تمثل لنا الغائب. فعبدوها من دون الله، وهي التي

بعث الله خليله إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بإنكارها وتكسيرها وإزالتها، وحصل عليه ما حصل من الابتلاء والامتحان، وصبر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وفي بني إسرائيل خرج بهم موسى يريد فتح بيت المقدس، وتخليصه من الكفار؛ لأن بيت المقدس للمسلمين، وليس للكفار في كل زمان، وكان المسلمون في ذاك الوقت هم بنو إسرائيل، فتخاذلوا وجبنوا عن ملاقاة العماليق، فعاقبهم الله بالتيه أربعين سنة في الأرض والعياذ بالله، وفي أثناء ذلك واعد الله جَلَّ وَعَلَا موسى؛ لأجل أن يعطيه ألواح التوراة مكتوبة، وتلقاها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكلمه ربه، واختار معه سبعين رجلًا من خيرة بني إسرائيل، فلما ذهبوا قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥]، لا يريدون أن يصدقوا موسى ويؤمنوا به حتى يروا الله بعيونهم، وهذا من تعنتهم، فأهلكم الله عن آخرهم بصاعقة بسبب مقالتهم هذه، ثم إن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ دعا ربه أن يحييهم ويرجعهم معه؛ لئلا يقول بنو إسرائيل: إنه ذهب بهم لقتلهم، فأحياهم الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ أحياهم الله ورجعوا.

وهؤلاء الذين ذهبوا مع موسى كانوا خيرة بني إسرائيل، أما الذين بقوا مع هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ فتنهم السامري، وهو رجل فيهم، وكان معهم ذهب استعاروه من آل فرعون لمناسبات عندهم، ثم إن موسى خرج بهم فارًّا من فرعون ومعهم هذا الحلي، ماذا يصنعون به؟ ضاقت حيلتهم به؛ لأنه عارية، وكيف يوصلونه إلى أهله؟ فجاءهم هذا الطاغية وقال لهم: أعطوني إياه.

فأخذه وصاغ منه عجلًا جسدًا تمثالًا من الذهب، وجعله مجوفًا، فجعل الهواء يدخل من جانب، ويخرج من جانب، ويصير له خوار كخوار العجل، فماذا قال الخبيث؟ قال: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه: ٨٨]، أي: نسي موسى فذهب إلى ربه وهو عندكم هنا، فعبدوه من دون الله، ولما رجع موسى إليهم أنكر عليهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأنكر على أخيه هارون، واعتذر هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم توجه موسى إلى السامري فعنفه ووبخه وقال له: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه:٩٧]، فكسر هذا الصنم وأحرقه ونسفه في البحر.

فلو كان هذا الصنم إلهًا حقًّا هل يقدر أحد أن يكسره ويرميه في اليم أمامهم؟ فهذا دليل على بطلان عبادة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا هو حاصل القصة مع التماثيل، وأنها سبب للشرك؛ لذلك شدد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوعيد على المصورين، وأمر بإتلاف الصور، وطمسها، وإخراجها من البيوت، قال: «**لَا تَدْخُلُ المَلَائِكَةُ بَيْتًا فيه كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ**»[(١)]، وقال لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ، وَلَا صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا**»[(٢)]. وثبت في الصحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «قَدِمَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ سَفَرٍ وَقَدْ سَتَرْتُ بِقِرَامٍ[(٣)] لِي عَلَى

(١) أخرجه البخاري (٣٢٢٥)، ومسلم (٢١٠٦) من حديث أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه مسلم (٩٦٩) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) **القرام - بكسر القاف وتخفيف الراء-:** هو ستر فيه رقم ونقش، وقيل: ثوب من صوف ملون يفرش في الهودج أو يغطى به. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٤٩)، ومشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢/ ١٧٩)، ولسان العرب (١٢/ ٤٧٤).

سَهْوَةٍ[(١)] لِي فِيهَا تَمَاثِيلُ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَتَكَهُ، وَقَالَ: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ الله**»، قَالَتْ: فَجَعَلْنَاهُ وِسَادَةً أَوْ وِسَادَتَيْنِ»[(٢)].

فالتصوير كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأنه وسيلة إلى الشرك، ولو على المدى البعيد، لاسيما صور المعظمين، وتعليقها على الجدران، ففيها أكبر المحظور؛ لأنها تؤول إلى الشرك والعياذ بالله، ويعتقد فيها الجهال وأهل الضلال أنها تنفع وتضر، كما حصل لقوم نوح، وكما حصل لبني إسرائيل مع العجل.

قوله: (حَتَّى صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ). أي: تماثيل الصالحين.

قوله: (وَقَالُوا: اسْتِشْفَاعُنَا بِتَمَاثِيلِهِمْ اسْتِشْفَاعٌ بِهِمْ). إن كانوا غائبين في أجسادهم فهذه صورهم باقية تمثلهم، ونتذكر بها شخصياتهم.

قوله: (وَكَذَلِكَ قَصَدُوا قُبُورَهُمْ، وَقَالُوا: نَحْنُ نَسْتَشْفِعُ بِهِمْ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ).

وفريق آخر لم يصوروا صورهم، وإنما ذهبوا إلى قبور الصالحين، وصاروا يبكون عندها، ويطلبون، ويرفعون أيديهم بالدعاء والاستغاثة، ويذبحون لها، وينذرون لها، ويطوفون بها، فعبدوها من دون الله عَزَّوَجَلَّ،

---

(١) **السهوة - بفتح السين وسكون الهاء-**: هي صفة من جانب البيت، وقيل: الكوة وقيل الرف. وقيل غير ذلك. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٤٣٠)، ومشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢/ ٢٢٩)، ولسان العرب (١٤/ ٤٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٢١٠٧).

وحجتهم يقولون: هؤلاء شفعاء، نحن ندري أنه ليس لنا ربٌّ إلا الله، وهو الذي يخلق، ويرزق، ويحيي، ويميت، والأمر بيده، نعلم هذا، ولكن هؤلاء صالحون، ونريد منهم الشفاعة.

وهل الشفاعة هكذا؟ الشفاعة لها ضوابط، وهذا شرك، ولم يكتفوا بطلب شفاعة من الميت، بل تجدهم يذبحون له، وينذرون له، ويطوفون بقبره، ويستغيثون به، وينادونه، ويقولون: نفعل ذلك ليشفعوا لنا إلى الله. سبحان الله! وهل الله جَلَّ وَعَلَا أغلق بابه حتى تتخذوا أحدًا يشفع لكم عنده مثل الملوك في الدنيا؟! هل الله لا يعلم حوائجكم ولا يقدر على قضائها إلا أن يعلمه أحدٌ بها؟! الله جَلَّ وَعَلَا أمركم بأن تدعوه مباشرة، تضرعوا إليه بالدعاء، وهو قريب مجيب يسمع دعاءكم، ويقدر على إجابتكم، وليس بحاجة إلى من يشفع عنده ويخبره، كما هو حال ملوك الدنيا.

قوله: (وَصَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ فَعَبَدُوهُمْ كَذَلِكَ). مثل: قوم نوح صوروا صور الصالحين، ولما بعث الله نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنكرها عليهم، قالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣]، هذه أسماء رجال صالحين ماتوا، وندموا عليهم، فصوروا تصاويرهم ليتذكروهم بعد موتهم، وجاءهم الشيطان فيما بعد، فزين لهم عبادتها، فعبدوها من دون الله، عند ذلك بعث الله إليهم عبده ورسوله نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأنكر عليهم ذلك، ولكنهم لجُّوا[1] في عتوهم، وقالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ لا تطيعوا

---

(١) **لج في الأمر**: تمادي فيه وأبى أن ينصرف عنه. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٢٣٣)، ومشارق الأنوار على صحاح الآثار (١/ ٣٥٥)، ولسان العرب (٢/ ٣٥٣).

نوحًا، ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، وهذه الفتنة إذا أشربت القلوب يصعب التخلص منها؛ كما قال في بني إسرائيل: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣]، نسأل الله العافية.

قوله: (وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ أَبْطَلَهَا اللهُ وَرَسُولُهُ). وهي: طلب الشفاعة من غير الله، وطلبها من الأموات، والأشجار، والأحجار، هذه أبطلها الله جَلَّ وَعَلَا، وأبطلها رسله.

قوله: (وَذَمَّ الْمُشْرِكِينَ عَلَيْهَا وَكَفَّرَهُمْ بِهَا). قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، هذه حجتهم، ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فسمى هذا شركًا، ونزَّه نفسه عنه، وهم يقولون: إنه طلب شفاعة فقط، وفي الآية الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣]، حكم عليهم بالكفر، والكذب، وهم يقولون: نتشفع بهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْ قَوْمِ نُوحٍ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ [نوح:٢٣، ٢٤].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ صَالِحُونَ كَانُوا فِي قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ فَعَبَدُوهُمْ(١).

وَهَذَا مَشْهُورٌ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ(٢) وَالحَدِيثِ وَغَيْرِهَا كَالْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ، وَهَذِهِ أَبْطَلَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَسَمَ مَادَّتَهَا وَسَدَّ ذَرِيعَتَهَا؛ حَتَّى لَعَنَ مَنْ اتَّخَذَ قُبُورَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مَسَاجِدَ يُصَلَّى فِيهَا(٣)، وَإِنْ كَانَ الْمُصَلِّي فِيهَا لَا يَسْتَشْفِعُ بِهِمْ، وَنَهَى عَنْ الصَّلَاةِ إِلَى الْقُبُورِ(٤)، وَأَرْسَلَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَأَمَرَهُ أَلَا يَدَعَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّاهُ وَلَا تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسَهُ وَمَحَاهُ، وَلَعَنَ الْمُصَوِّرِينَ(٥).

وَعَنْ أَبِي الهياج الأسدي(٦): قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: لَأَبْعَثُك عَلَى مَا

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٦٤٠)، وتفسير القرطبي (١٨/ ٣٠٨)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٢٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه مسلم (٩٧٢) من حديث أبي مرثد الغنوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولفظه: «**لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ، وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا**».

(٥) أخرجه البخاري (٥٣٤٧) من حديث أبي جحيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) هو: حيان بن حصين أبو الهياج الأسدي الكوفي، روى عن علي وعمار، وعنه ابناه جرير ومنصور وأبو وائل والشعبي، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال العجلي: تابعي ثقة، وقال ابن عبد البر: كان كاتب عمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. انظر: التاريخ الكبير (٣/ ٥٣)، والثقات (٤/ ١٧٠)، وتهذيب الكمال (٧/ ٤٧١).

بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَّا تَدعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْته، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْته**». **وَفِي لَفْظٍ**: «**وَلَا صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا**». [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ](١).

الشَّرح

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾، هؤلاء كما قال ابن عباس في صحيح البخاري: إنها أسماء رجال صالحين في قوم نوح ماتوا في سنة واحدة، فندموا عليهم، فجاء إبليس، وقال لهم: صوروا صورهم حتى تتذكروا عبادتهم، فصوروها، ونصبوها على مجالسهم، وكان العلماء موجودين، فلم يتمكن الشيطان أن يأمرهم بعبادتها، فلما مات العلماء ولم يبقَ إلا الجهال جاءهم الشيطان، وقال لهم:إن آباءكم ما نصبوها إلا لطلب البركة، وبها كانوا يسقون المطر. فقبلوا منه هذا الكلام من جهلهم، فعبدوها من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

فالشيطان نظره بعيد -لعنه الله- إذا ما قدر أن يضل هذا الجيل ينظر إلى الأجيال القادمة، فهو يؤسس الشر أولًا، ثم يتطور فيها بعد، فلا نغتر ونقول: نحن نعرف التوحيد، والحمد لله نشأنا عليه، وعندنا كتب وعلماء، فسيأتي ناس من بعدنا جهال، والعلماء يموتون، البقاء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يجد الشيطان من يقاومه، فحينئذٍ يتسلط على الناس.

قوله: (**وَهَذَا**) أي: كلام ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا (**مَشْهُورٌ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ**) أي: الصحيحة منها.

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٥١).

وقوله: (وَهَذِهِ أَبْطَلَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وَحَسَمَ مَادَّتَهَا وَسَدَّ ذَرِيعَتَهَا؛ حَتَّى لَعَنَ مَنْ اتَّخَذَ قُبُورَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مَسَاجِدَ يُصَلَّى فِيهَا)**. الله جَلَّ وَعَلَا بعث رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتوحيد، وبملة إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وملة الأنبياء جميعًا هي التوحيد، فمحا هذه الأصنام وكسرها، وكانت كثيرة في أرض الحجاز، فكان على الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا، وعلى الصفا والمروة إساف ونائلة، وهبل في مكة، وفي كل بيت من بيوت مكة صنم يعبده أهل ذلك البيت، وحول مكة اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى.

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد فتح مكة هدم هذه الأوثان، وطهر البيت العتيق منها؛ لأنه جاء بذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحذَّر منها غاية التحذير، ومن ذلك: أنه نهى عن الوسائل التي تفضي إلى الشرك، فأول وسيلة عملها إبليس مع قوم نوح هي تصوير الصور، ونصبها على المجالس، وإن كانوا لا يعبدونها في ذلك الوقت، ولكنها وسيلة للمستقبل، فنصب الصور على الجدران والميادين في وقتنا الحاضرِ من هذه الوسائل.

ونهى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة عند القبور، وإن كان المصلي يصلي لله، ولكن صلاته في هذا المكان وسيلة في المستقبل إلى الشرك بأن يعتقد في هذا القبر، وإذا رآه الجهال يصلي عنده ويتردد عليه، ظنُّوا أنه ينفع ويضر، فهذا وسيلة إلى الشرك، والرسول قطع هذه الوسيلة، فنهى عن الصلاة عند القبور واتخاذها مساجد، أي: مصليات.

قوله: (وَإِنْ كَانَ الْمُصَلِّي فِيهَا لَا يَسْتَشْفِعُ بِهِمْ). المصلي يصلي لله، ولايستشفع بالأموات، ولكن صلاته في هذا المكان وسيلة إلى الشرك بأن

يقتدي به غيره، فيقولون: إنه ما صلى في هذا المكان إلا لسرٍّ في هذا المكان؛ ولذلك سد الرسول ﷺ الوسائل التي تفضي إلى الشرك حتى ولو كانت في الظاهر وسائل طاعة ومباحة في حد ذاتها، ولكن إذا كانت تؤول إلى الشرك فهي محرمة، وكل شيء يفضي إلى الحرام فهو حرام؛ لأجل سد الطريق إلى المحظور.

وسد الوسائل قاعدة عظيمة في الشريعة الإسلامية، مثل لها الإمام ابن القيم[1] في كتابه «إغاثة اللهفان» و«إعلام الموقعين» بتسع وتسعين مثالاً، والآن نجد من ينادي ويقول: أنتم تسرفون في سد الذرائع، وسعوا للناس، ولا تضيقوا عليهم، والذرائع ما لها أصل، ولا تسدوا على الناس.

مثل هذا الكلام ردٌّ على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وفيه تخطئة للرسول ﷺ حينما نهى عن الصلاة عند القبور.

يقولون: لا .. هؤلاء لا يقصدون إلا خيرًا. والرسول ﷺ ما نظر إلى أنهم يقصدون أو لا يقصدون، وإنما نظر إلى المكان الذي يُصلى فيه وهو عند القبر؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك بالله في المستقبل.

قوله: (وَنَهَى عَنْ الصَّلَاةِ إِلَى الْقُبُورِ). نهى عن الصلاة عند القبور، ونهى عن الصلاة إلى القبور، أي: استقبال القبور في الصلاة؛ لأن هذه وسيلة إلى تعظيمها وعبادتها من دون الله.

---

(١) هو: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي، ثم الدمشقي، الفقيه الحنبلي، المفسر، النحوي، الأصولي، الشهير بابن قيم الجوزية، ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة، وسمع الحديث، وبرع في علوم شتى، لازم شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية إلى أن مات، فأخذ عنه علمًا جمًّا، توفي سنة إحدى وخمسين وسبعمائة. انظر: الدرر الكامنة (٥/ ١٣٧)، والمقصد الأرشد (٢/ ٣٨١)، وشذرات الذهب (٦/ ١٦٨).

قوله: (**وَأَرْسَلَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ**). الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث عليًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأوصاه -وهي وصية لكل مسلم، ولكل عالم، وولي أمر من المسلمين، وليست خاصة بعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- فقال:

(**أَلَا تَدَعَ قَبْرًا مُشْرِفًا**)، أي: مرتفعًا، (**إِلَّا سَوَّيْتَهُ**) أي: أزلت ارتفاعه، ولذلك كان قبر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقبور أصحابه قريبة من سطح الأرض، وليست مرتفعة، يُرفع القبر قدر شبر مسنم؛ من أجل أن يعرف الناس أنه قبر ولا يطؤون عليه، ولا يُزاد على شبر، فإن زاد فالزيادة تُزال؛ لأن الرسول أمر عليًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بتسوية القبور المرتفعة؛ وذلك سدًّا لذريعة الشرك؛ لأن الناس إذا رأوا هذا القبر مشرفًا مرتفعًا، قالوا: هذا قبر صالح من الصالحين أو نبي، وفيه سر من الأسرار، فأقبلوا عليه يطلبون منه الحوائج.

قال: (**وَلَا تَدَعَ صُورَةً إِلاَّ طَمَسْتَهَا**). ذلك أن الصورة وسيلة إلى الشرك كما سبق ووقع قوم نوح، فالرسول أراد سد هذه الطريقة، ونفذ علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هذا وبلغه للناس، وقال لصاحبه أبي الهياج الأسدي التابعي: أَلاَّ أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ**».

قال: (**وَلَعَنَ الْمُصَوِّرِينَ**). اللعن يدل على أنها كبيرة، فالمصور ملعون لسببين:

الأول: أنه يضاهي خلق الله عَزَّ وَجَلَّ، ويحاول أنه يخلق مع الله.

الثاني: أن الصور في المستقبل يُخشى منها تعلق القلوب بها، لاسيما إذا كانت صورًا لذوي الشأن من العلماء، والقادة، والرؤساء، والملوك، فهي أقرب إلى الفتنة والعياذ بالله.

قال: (**وَعَنْ أَبِي الهياج الأسدي: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: لَأَبْعَثُك عَلَى مَا بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ** صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ...). هذا ليس خاصًّا بعلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ولذلك أمر به أبا الهياج، وأبو الهياج بلَّغه للناس، فدل على أن هذه وصية لكل مسلم أن يقوم بهذا العمل، فإن كان محتسبًا له سلطة فله أن يزيله بيده، وإذا كان عالمًا وليس له سلطة فإنه ينكر بلسانه، ويُبين للناس أن هذا شرك أو وسيلة إلى الشرك، ولايزيله بيده حتى يكون له سلطة، أو وراءه سلطان يحميه، أما أن يذهب ويهدم القبور وليس له سلطة، وليس له ولي أمر يحميه، فهذا يحدث فتنة وشرًّا، وقد يُعاد بناؤها أحسن مما كانت من قبل، فلا يجوز أن نذهب للقبور، ونهدمها، ونكسرها؛ لما يترتب على ذلك من شرٍّ عظيم، كما حصل في العراق من وقت قريب، فهذا الذي فعل ذلك أشك أنه من المسلمين، وإنما هو من الكفار، وفعل هذا لأجل أن يوقع الفتنة بين العراقيين، وتشب الفتنة بينهم، وإن كان مسلمًا فهو جاهل، وليست الغيرة وإنكار المنكر بهذه الطريقة، إنما هذا لا يقوم به إلا ولاة الأمور والسلاطين، أما العالم فوظيفته البيان والدعوة فقط.

وقد كان الشيخ محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُٱللَّهُ يمر على قبر زيد بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في العيينة أو في عقرباء، والناس حوله يدعون، ويقول لهم: الله خير من زيد. ولا يزيد على هذا، فلما بايع الأمير، وصار الأمير معه وناصره، جاء وهدمه بيده، والأمير وجنوده واقفون يحمونه[1].

---

(١) انظر: الدرر السنية (١/ ٢١١).

فَصْلٌ

وَلَفْظُ التَّوَسُّلِ قَدْ يُرَادُ بِهِ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ، يُرَادُ بِهِ أَمْرَانِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِمَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ:

أَحَدُهُمَا: هُوَ أَصْلُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَهُوَ التَّوَسُّلُ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِطَاعَتِهِ.

وَالثَّانِي: دُعَاؤُهُ وَشَفَاعَتُهُ، وَهَذَا أَيْضًا نَافِعٌ يَتَوَسَّلُ بِهِ مَنْ دَعَا لَهُ وَشُفِّعَ فِيهِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ.

وَمَنْ أَنْكَرَ التَّوَسُّلَ بِهِ بِأَحَدِ هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ فَهُوَ كَافِرٌ مُرْتَدٌّ يُسْتَتَابُ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ مُرْتَدًّا.

وَلَكِنَّ التَّوَسُّلَ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِطَاعَتِهِ هُوَ أَصْلُ الدِّينِ، وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، فَمَنْ أَنْكَرَ هَذَا الْمَعْنَى فَكُفْرُهُ ظَاهِرٌ لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ.

الشَّرْح

قوله: (لَفْظُ التَّوَسُّلِ). وهو التقرب إلى الله جَلَّوَعَلَا، والوسيلة هي الشيء الذي يُقرب إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. والتوسل يُراد به ثلاثة أمور: أمران مشروعان، وأمر سيأتي بيانه غير مشروع:

الأول: هو التوسل إلى الله جَلَّوَعَلَا بتوحيده، وإخلاص العبادة له، ومنه التوسل بالأعمال الصالحة إلى الله جَلَّوَعَلَا، وهذا مجمع عليه بين المسلمين لا أحد يخالف فيه، ولا يقرب إلى الله جَلَّوَعَلَا إلا طاعة الله، وطاعة رسوله،

لا خلاف على هذا، ومن أنكره فهو كافر، من قال: يتوسل إلى الله بغير توحيده، وبغير عبادته، وأن عبادته لا تنفع، وأن توحيده لا ينفع، فهذا كافر بإجماع المسلمين؛ كما نادى ذو النون عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]؛ فتوسل إلى الله بتوحيده وإفراده بالعبادة.

الثاني: التوسل بطاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباعه، وهذا لا خلاف في مشروعيته، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣]، وقال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾ هو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣] إلى آخر الدعاء، فتوسلوا إلى الله بإيمانهم بهذا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما توسل الحواريون إلى الله باتباعهم لعيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، فهذا لا إنكار فيه، ومن ينكره فهو كافر، والذي يقول: إن اتِّباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والإيمان به لا ينفع، فهو كافر؛ لأنه مكذب لله، ولرسوله، ولإجماع المسلمين.

قوله: (**يُرَادُ بِهِ أَمْرَانِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِمَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ**). أي: محل إجماع.

قوله: (**أَحَدُهُمَا: هُوَ أَصْلُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَهُوَ التَّوَسُّلُ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِطَاعَتِهِ**). أي: الإيمان بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبطاعته.

قوله: (**وَالثَّانِي: دُعَاؤُهُ وَشَفَاعَتُهُ، وَهَذَا أَيْضًا نَافِعٌ**). التوسل بدعاء الرسول يكون في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد كان الصحابة يطلبون منه

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو لهم، وكذلك غير النبي من الصالحين، كأن تطلب من مؤمن حاضر عندك أن يدعو الله لك، فهذا مشروع بالإجماع.

وكذلك الخلق يوم القيامة يطلبون من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يشفع لهم، أي: يدعو الله لهم في فصل القضاء بينهم، فهذا لا إنكار فيه، أما طلب الدعاء من الميت فهذا هو محل الإنكار؛ لأن الميت لا يُطلب منه شيء، فلا يُطلب من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته الدعاء أو الاستغفار كما كان يُطلب في حياته، والله جَلَّ وَعَلَا أمره أن يستغفر للمؤمنين، وكان المؤمنون يطلبون منه أن يستغفر لهم، وذلك في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما بعد موته فهذا أمر مبتدع لم يكن يفعله الصحابة رضوان الله عليهم، وكانت تصيبهم الشدائد، وينحبس عنهم المطر وما كانوا يذهبون إلى قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقولون: يا رسول الله ادع الله لنا، كما كانوا في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بل إن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما استسقى بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يدعو(١)، ولم يذهب إلى قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويطلب منه الدعاء، مع أن الرسول أفضل من العباس، لكن العباس حي حاضر، أما الرسول فهو ميت، فلا يُطلب منه شيء بعد موته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك لا يُطلب من غيره من الأنبياء والصالحين، وسيأتي أيضًا من كلام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: (يَتَوَسَّلُ بِهِ مَنْ دَعَا لَهُ وَشُفِّعَ فِيهِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ). من دعا له الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو شفع فيه، أي: دعا له، والشفاعة والدعاء بمعنى واحد، فإنه ينفعه ذلك باتفاق المسلمين.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٧).

قوله: (وَمَنْ أَنْكَرَ التَّوَسُّلَ بِهِ بِأَحَدِ هَذَيْنِ المَعْنَيَيْنِ)، وهما:

- التوسل باتباعه، وطاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- والتوسل بدعائه وشفاعته في حياته.

قال: (فَهُوَ كَافِرٌ مُرْتَدٌّ يُسْتَتَابُ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ مُرْتَدًّا). من قال: إنه لا ينفع اتِّباع الرسول ولا طاعته، وأن دعاء الرسول لا يُستجاب، وشفاعته لا تنفع، فهو كافر؛ لأنه مكذب لله، ولرسوله، ولإجماع المسلمين.

وَأَمَّا دُعَاؤُهُ وَشَفَاعَتُهُ وَانْتِفَاعُ الْمُسْلِمِينَ بِذَلِكَ فَمَنْ أَنْكَرَهُ فَهُوَ أَيْضًا كَافِرٌ، لَكِنَّ هَذَا أَخْفَى مِنَ الْأَوَّلِ، فَمَنْ أَنْكَرَهُ عَنْ جَهْلٍ عُرِّفَ ذَلِكَ، فَإِنْ أَصَرَّ عَلَى إِنْكَارِهِ فَهُوَ مُرْتَدٌّ.

أَمَّا دُعَاؤُهُ وَشَفَاعَتُهُ فِي الدُّنْيَا فَلَمْ يُنْكِرْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ.

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ -وَهُمُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَائِرِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ- أَنَّ لَهُ شَفَاعَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَاصَّةً وَعَامَّةً، وَأَنَّهُ يُشَفَّعُ فِيمَنْ يَأْذَنُ اللهُ لَهُ أَنْ يُشَفَّعَ فِيهِ مِنْ أُمَّتِهِ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ. وَلَا يَنْتَفِعُ بِشَفَاعَتِهِ إِلَّا أَهْلُ التَّوْحِيدِ الْمُؤْمِنُونَ دُونَ أَهْلِ الشِّرْكِ، وَلَوْ كَانَ الْمُشْرِكُ مُحِبًّا لَهُ مُعَظِّمًا لَهُ لَمْ تُنْقِذْهُ شَفَاعَتُهُ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا يُنْجِيهِ مِنَ النَّارِ التَّوْحِيدُ وَالْإِيمَانُ بِهِ. وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ أَبُو طَالِبٍ وَغَيْرُهُ يُحِبُّونَهُ وَلَمْ يُقِرُّوا بِالتَّوْحِيدِ الَّذِي جَاءَ بِهِ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَتِهِ وَلَا بِغَيْرِهَا.

الشَّرْح

قوله: (وَأَمَّا دُعَاؤُهُ وَشَفَاعَتُهُ وَانْتِفَاعُ الْمُسْلِمِينَ بِذَلِكَ فَمَنْ أَنْكَرَهُ فَهُوَ أَيْضًا كَافِرٌ، لَكِنَّ هَذَا أَخْفَى مِنَ الْأَوَّلِ، فَمَنْ أَنْكَرَهُ عَنْ جَهْلٍ عُرِّفَ ذَلِكَ، فَإِنْ أَصَرَّ عَلَى إِنْكَارِهِ فَهُوَ مُرْتَدٌّ).

النوع الأول: وهو طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباعه، من أنكره وقال: إنه لاينفع، فهو كافر؛ لأنه أمر معلوم بالضرورة، وهو أنكر شيئًا معلومًا من الدين بالضرورة لا ينكره أحد، أما النوع الثاني: وهو التوسل بدعاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشفاعته في حياته، فهذا قد يخفى على الجهال، ولذلك من أنكره

لا يُبادر بتكفيره، بل يُبيَّن له، فإن أصرَّ وبقي على الإنكار، فحينئذٍ يكفر؛ لأنه قامت عليه الحجة.

قوله: (أَمَّا دُعَاؤُهُ وَشَفَاعَتُهُ فِي الدُّنْيَا فَلَمْ يُنْكِرْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ). ما أنكر أحد من المسلمين الذين يصلون إلى الكعبة أن دعاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشفاعته تنفع، وهذا إجماع من المسلمين، فالذي ينكره يكون مخالفًا للإجماع.

قوله: (وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ-وَهُمْ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَائِرِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ- أَنَّ لَهُ شَفَاعَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَاصَّةً وَعَامَّةً). شفاعته في الدنيا تكون دعاءه واستغفاره للمشفوع له، وأما شفاعته في الآخرة فثابتة، وهي أنواع: منها ما هو خاص به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنها ما هو مشترك بينه وبين غيره من الأنبياء، والمرسلين، والصالحين، والملائكة، فشفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الآخرة على قسمين: خاصة، ومشتركة

الخاصة: شفاعته العظمى، فيشفع في دخول أهل الجنة الجنة، أو يشفع في رفع درجات من دخل الجنة إلى درجة أعلى، هذا كله خاص به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما الشفاعة المشتركة: فهي شفاعته فيمن استحق دخول النار وهو من أهل الإيمان بسبب كبائر ارتكبها، فهذه الشفاعة ثابتة، وهي مشتركة بينه وبين غيره من الأنبياء، والمرسلين، والملائكة، والصالحين.

قوله: (وَأَنَّهُ يُشَفَّعُ فِيمَنْ يَأْذَنُ اللهُ لَهُ أَنْ يُشَفَّعَ فِيهِ مِنْ أُمَّتِهِ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ). كما سبق أن الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله جَلَّوَعَلَا، لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه، لا الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولا غيره.

قوله: (وَلَا يَنْتَفِعُ بِشَفَاعَتِهِ إِلَّا أَهْلُ التَّوْحِيدِ الْمُؤْمِنُونَ؛ دُونَ أَهْلِ الشِّرْكِ). الشفاعة سواء من الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أو من غيره لا تنفع إلا لأهل التوحيد الذين ارتكبوا كبيرة أو كبائر من الذنوب دون الشرك، أما أهل الشرك فما تنفع فيهم شفاعة لا الرسول، ولا غيره، ولا الملائكة، ولا أحد، قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]، وهذه الشفاعة في أهل الكفر هي النوع الثاني من الشفاعة المنفية في القرآن، وسبق النوع الأول، وهي الشفاعة بغير إذن الله جَلَّوَعَلَا.

قوله: (وَلَوْ كَانَ الْمُشْرِكُ مُحِبًّا لَهُ مُعَظِّمًا لَهُ لَمْ تُنْقِذْهُ شَفَاعَتُهُ مِنْ النَّارِ). حتى لو كان المشرك يحب الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما كان حال عمه أبي طالب، فإنه كان يحبه، ويحنو عليه، ويناصره، ولكنه أبى أن يسلم، فمات على الكفر، فما تنفعه شفاعة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الخروج من النار، وإنما نفعته في تخفيف العذاب عنه فقط، أما الخروج من النار، فالكافر لا يخرج منها أبدًا: ﴿وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧] لا بشفاعة، ولا بغيرها.

وفي هذا ردٌّ على الذين يدَّعون محبة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا يعملون بسنته، ويقولون: يكفينا أننا نحب الرسول، وأننا نقيم له المولد؛ لأن هذا دليل على تعظيم الرسول ومحبته. ويتركون الأعمال الصالحة، ويزعمون أن محبة الرسول تكفي، سبحان الله! هذا ما نفع أبا طالب، وما عملوا مع

الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مثلما عمل أبو طالب، ومع هذا ما نفعه حبه للرسول لما لم يتبعه، فإذا اجتمع مع محبة الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ اتباعه وطاعته، فنعم، أما إذا اقتصر على المحبة ولم يتبعه، فهذا لا تنفعه شفاعة الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والرسول لا يشفع فيه يوم القيامة، بل إنه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما أنزل الله عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، نادى في الناس، فاجتمع عليه قومه وأقاربه، فخصص وعمم في قريش، وفي بني هاشم، وفي عمه وعمته، وبنته، كلهم يقول لهم: «**اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»(١)، ولو كانوا من أقارب الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولو كانوا يحبون الرسول، لا تنفعهم شفاعته حتى يؤمنوا به ويتبعوه؛ ولهذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف:١٥٧]، لا يكفي أنهم آمنوا به وعزروه ونصروه، بل لابد من اتباعه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قوله: (**وَإِنَّمَا يُنْجِيهِ مِنْ النَّارِ التَّوْحِيدُ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ أَبُو طَالِبٍ وَغَيْرُهُ يُحِبُّونَهُ وَلَمْ يُقِرُّوا بِالتَّوْحِيدِ الَّذِي جَاءَ بِهِ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ النَّارِ بِشَفَاعَتِهِ وَلَا بِغَيْرِهَا**). فالكافر لا يخرج من النار، قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٦).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: قُلْت: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَسْعَدُ بِشَفَاعَتِك يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»(١).

وَعَنْهُ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْت دَعْوَتِي شَفَاعَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا»(٢).

وَفِي السُّنَنِ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَانِي آتٍ مِنْ عِنْدِ رَبِّي، فَخَيَّرَنِي بَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ وَبَيْنَ الشَّفَاعَةِ، فَاخْتَرْت الشَّفَاعَةَ، وَهِيَ لِمَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا»(٣).

وَفِي لَفْظٍ: قَالَ: «وَمَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا فَهُوَ فِي شَفَاعَتِي»(٤).

الشَّرح

هذه الأحاديث تدل على أنه لن ينال شفاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة إلا أهل التوحيد، «**مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**» بهذا الشرط، فلا يكفي أن يقول «**لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ**»، بل لابد أن يكون ذلك «**خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**»، يقولها ظاهرًا بلسانه وباطنًا بقلبه، أما من يقولها ظاهرًا بلسانه فقط

(١) أخرجه البخاري (٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٤) مختصرًا، ومسلم (١٩٩) واللفظ له.

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٢٣)، والترمذي (٢٤٤١)، وابن حبان (١٦/ ١٨٥)، والحاكم (١/ ١٣٧).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لا تنفعه، أو قالها رياءً وسمعة لا تنفعه، إنما تنفع من قالها مؤمنًا بها عاملًا بمقتضاها ظاهرًا وباطنًا، فليس القصد مجرد التلفظ بـ«لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ»، بل لابد مع التلفظ من الإخلاص الذي تقتضيه، ومقتضاها أن يفرد الله بالعبادة، ولا يعبد معه سواه.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**»، أي: لو كان عنده ذنوب دون الشرك، فإن الشفاعة تنفعه بإذن الله بشروطها؛ لأنه من أهل التوحيد، فدل على أن الشفاعة لا تنفع إلا أهل التوحيد، ولا تنفع المشركين.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ...**». الأحاديث كلها تخرج من مشكاة واحدة، ففي هذا الحديث يخبر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله أعطى لكل نبي دعوة مستجابة، فالأنبياء تعجلوا هذه الدعوة في الدنيا، ودعوا الله بها، أما نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه اختبأها شفاعة لأمته يوم القيامة، أي: يدعو الله لهم يوم القيامة بالنجاة من النار لمن كان منهم مستحقًّا لدخول النار، وهذا من شفقته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمته ورحمته بهم، فهو كالحديث الذي قبله يدل على أن الشفاعة لا تنفع إلا أهل التوحيد، ولا تنفع المشركين.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَتَانِي آتٍ مِنْ عِنْدِ رَبِّي فَخَيَّرَنِي بَيْنَ أَنْ يُدْخِلَ نِصْفَ أُمَّتِي الْجَنَّةَ وَبَيْنَ الشَّفَاعَةِ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ**»، خيَّره الله جَلَّ وَعَلَا أن يحد له حدًّا من أمته يخرجهم من النار، أو يعطيه الشفاعة من غير حدٍّ، فاختار صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشفاعة؛ لأنها من غير تحديد، وهو يحب الخير لأمته.

وَهَذَا الْأَصْلُ وَهُوَ التَّوْحِيدُ هُوَ أَصْلُ الدِّينِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ الْأَوَّلِينَ والآخرين دِينًا غَيْرَهُ، وَبِهِ أَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف:٤٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [النحل:٣٦]، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَنْ كُلٍّ مِنْ الرُّسُلِ أَنَّهُ افْتَتَحَ دَعْوَتَهُ بِأَنْ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هود:٥٠].

الشَّرح

التوحيد هو أصل الدين؛ لأنه تُبنى عليه بقية الأعمال، فلا يصح عمل إلا مع التوحيد، فالمشرك لا يُقبل منه عمل مهما عمل، فلابد من التوحيد.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩] الإسلام هو التوحيد، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

والإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، وهو دين جميع الرسل، كلهم جاءوا بالتوحيد، قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٧٢]، ولما قال الله عَزَّوَجَلَّ لإبراهيم: ﴿أَسْلِمْ﴾ قال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة:١٣١]،

وقال هو وإسماعيل عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ [البقرة:١٢٨]، وقال موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٨٤]، فالإسلام هو التوحيد، وهو دين جميع الرسل.

قوله: (وَبِهِ) أي: بالتوحيد (أَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ).

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل:٢].

قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ ﴾ يا محمد ﴿ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف:٤٥]، أبدًا كل الرسل جاءوا بنفي هذا والنهي عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥]، هذا هو التوحيد، وهو دين جميع الرسل.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] هذا هو التوحيد؛ عبادة الله وترك عبادة ما سواه، والله أرسل جميع الرسل بهذا، وقد ذكر الله جَلَّوَعَلَا أن كل رسول كان يقول لقومه أول ما يبدأ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، كما قال نوح، وهود، وصالح، وشعيب، كما في سورة الأعراف وغيرها.

وَفِي المُسْنَدِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «بُعِثْت بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»(١).

وَالْمُشْرِكُونَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ الَّذِينَ أَخْبَرَ الْقُرْآنُ بِشِرْكِهِمْ، وَاسْتَحَلَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَسَبَى حَرِيمَهُمْ، وَأَوْجَبَ لَهُمْ النَّارَ، كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّ اللهَ وَحْدَهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ.

الشَّرح

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ**» أي: بالجهاد في سبيل الله، «**حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ**»؛ لأن هذا هو الذي خلق الله الخلق من أجله، فإذا عبدوا غيره استحقوا أن يُقاتلوا؛ حتى يكون الدين كله لله، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩]، هذا هو المقصود من الجهاد؛ حتى يُعبد الله وحده، فلا يجوز للمسلمين أن يتركوا المشركين يعبدون غير الله، ويدعون إلى الشرك، وينشرون الكفر، وهم يقدرون على جهادهم.

وتعطيل الجهاد عند الاستطاعة والمقدرة لا يجوز للمسلمين؛ ذلك أن الغرض من الجهاد في سبيل الله هو أن يُعبد الله وحده، وليس الغرض الطمع

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٤/ ٢١٢)، وابن عبد البر في التمهيد (١١/ ٧٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤١٧)، وعلقه البخاري غير جازم به، قبل حديث رقم (٢٩١٤).

في الأموال أو الممالك أو العلو في الأرض، بل الغرض أسمى من هذا وأعلى، وهو تخليص الناس من الشرك إلى التوحيد، من عبودية غير الله إلى عبودية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، من الظلمات إلى النور، من النار إلى الجنة، هذه هي الغاية من الجهاد في سبيل الله، وهو لمصلحة البشرية، ليس من أجل إلحاق الضرر بهم، أو الترفع عليهم، فهم يُقاتلون لمصلحتهم.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي**». المراد به المغانم، فالله أباح الغنائم لهذه الأمة، وهذا من خصائصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِنَبِيٍّ قَبْلِي**»(١)، وقد كان الأنبياء من قبل إذا استولوا على الغنائم يجمعونها، وتنزل نار فتحرقها، أما هذه الأمة، فإن الله أباح لها الغنائم، قال تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال:٦٩]؛ لأجل أن يستعينوا بها على طاعة الله، ولأجل أن يضعفوا الكفار والمشركين.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**». قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، وقال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]، فالعزة والرفعة هي في اتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذلة والصغار على من خالف أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قد يكون ذلًّا وصغارًا عامًّا، وقد يكون نوع ذل وصغار بسبب المعاصي، فكل من خالف أمر الرسول فإنه في ذل وصغار كثيرًا كان أو قليلًا، قد يكون هذا الذل والصغار متناهيًا، وقد يكون دون ذلك بحسب المعصية،

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٦١) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالمعاصي كلها ذل وصغار من الشرك وما دونه، وإن كان بعض من يرتكب هذه الأشياء يظن أنها رفعة، وأنها تقدم وحضارة، فإنها ذلة وصغار، وإن تراءى له أنها حضارة، وأنها مجاراة للشعوب، ومجاراة للعالم.

هذه قاعدة ذكرها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي لا تتخلف أبدًا، فكل عاصٍ ذليل بحسب معصيته، قد يكون ذله تامًّا وقد يكون دون ذلك، وكل مطيع متق عزيز، هذا شيء جعله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك نجد أهل المعاصي منكسرين غالبًا؛ لأن الذلة عليهم، ونجد أهل الطاعات في عزة ورفعة وكرامة.

ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**». هذا فيه تحريم التشبه بالكفار؛ لأن التشبه بهم في الظاهر يدل على محبتهم في الباطن؛ لأنه لو كان يبغضهم ما تشبه بهم، فالتشبه بالكفار حرام لا يجوز، ولماذا يتشبه مَنْ مَنَّ الله عليه بالإسلام بالكافر الذليل، وهو من أهل التوحيد، وهذا مشرك؟!

هذا من الانتكاس، فلا يكون المسلم تابعًا للكفار، وإنما يعتز بدينه وبشخصيته الإسلامية في أي مكان كان، ليس إذا ذهب إلى بلاد الكفر يجاريهم ويوافقهم، بل يعتز بدينه في أي مكان، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ**»[1]، فهو مسلم في أي مكان يجب أن يعتز بإسلامه، وإذا اعتز بإسلامه جعل الله له الهيبة حتى عند الكفار، وإذا وافقهم وجاراهم جعل الله عليه الذلة، حتى وإن أظهروا له التقدير والاحترام، فإنه ذليل عندهم.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣)، والترمذي (١٩٨٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٤٥) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: «وَالْمُشْرِكُونَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ الَّذِينَ أَخْبَرَ الْقُرْآنُ بِشِرْكِهِمْ وَاسْتَحَلَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَسَبَى حَرِيمَهُمْ وَأَوْجَبَ لَهُمْ النَّارَ كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّ اللهَ وَحْدَهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ». لمَّا ذكر أن الأصل الذي يُبنى عليه الدين والملة هو التوحيد أراد أن يُبيِّن ما هو التوحيد؛ لأن بعض الناس يفهم أن التوحيد هو أن تقر بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر، وأن الشرك أن تعتقد أن أحدًا يخلق مع الله، ويرزق مع الله، أو يحيي ويميت، أو يدبر الكون، هذا الشرك عندهم وهو باطل؛ لأن القرآن يدل على بطلانه، فالمشركون الذين بُعث فيهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقاتلهم، واستحل دماءهم وأموالهم، وسبى نساءهم، يقرون بتوحيد الربوبية، وهذا صريح في القرآن، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس:٣١]، ما قالوا: آلهتنا تشارك الله في ذلك، بل اعترفوا وقالوا: الله هو الذي يخلق ويرزق. إذًا لماذا يعبدونهم؟!

فالوا: شفعاء عند الله، قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨]، وقالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣]، هذا قصدهم، والله لم يعذرهم، والرسول قاتلهم، وتوحيد الربوبية موجود قبل بعثة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل إن جميع العالم يعترفون بتوحيد الربوبية، فلو كان يكفي فما الحاجة إلى بعثة الرسل؟ هذا موجود في الأمم، كلهم يعترفون أنه لا يخلق ولا يُحيي ولا يميت إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إنما التوحيد المطلوب هو إفراد الله

بالعبادة؛ ولذلك قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ**»، ولم يقل: حتى يقروا بتوحيد الربوبية، ولم يكتف بأن يُعبد الله ويعبد معه غيره، بل لابد أن يُعبد وحده، فمن عبد الله وعبد معه غيره، فهو مشرك، فلابد أن يقصر العبادة على الله جَلَّ وَعَلَا، وهذا هو المقصود من دعوة الرسل توحيد الألوهية، أما توحيد الربوبية، فالكفار معترفون به في صريح القرآن، والواقع، ولا أحد يجحده.

كَمَا قَالَ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان:٢٥]، وَقَالَ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:٦١]، وَقَالَ: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٨٤-٩١].

وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ جَعَلُوا مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى مُقِرِّينَ بِأَنَّ آلِهَتَهُمْ مَخْلُوقَةٌ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَهُمْ شُفَعَاءَ، وَيَتَقَرَّبُونَ بِعِبَادَتِهِمْ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:١-٣].

الشَّرح

كل هذه الآيات وأمثالها تدل عل أن المقصود بالتوحيد الذي دعت إليه الرسل هو توحيد العبادة، أي: توحيد الألوهية توحيد القصد، هذا الذي جاءت الرسل بالدعوة إليه، وجحده المشركون قديمًا وحديثًا، وهو موضع الخصومة بين المشركين، وبين المسلمين والأنبياء والصالحين، ولا يزال هذا إلى الآن، وإلى أن يشاء الله موضع الخصومة.

والله جَلَّوَعَلَا ألزمهم هذه الإلزامات، يسألهم فإذا أجابوا ألزمهم، فلماذا إذًا تعبدون معه غيره إذا كان الذي خلق السموات والأرض هو الله؟ إذا كان هو الذي يخلق فلماذا تعبدون معه من لا يخلق شيئًا؟ إذا كان الله هو الذي يرزق فلماذا تعبدون من لا يرزق، ولا يملك لكم من السموات والأرض شيئًا ولا يستطيعون؟ وإذا كان الله هو الذي يملك الضر والنفع، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلماذا تدعون معه من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا؟! لكن العقول تغيب، والجهل يغطي العقول، والتقليد الأعمى، كل هذا مما يسبب الانتكاس في الفكر، ولهذا قال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ هذا باعترافهم، أي: أنها لا تملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، لكن يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، وهل الله أمركم أن تعبدوهم حتى تقولوا: إنهم يشفعون لكم عند الله؟ هذا ما شرعه الله، بل أمر بعبادته وحده.

قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سماه شركًا، ونزه نفسه عنه، وهم يقولون: ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، وإن كانوا يزعمون أنه ليس بشرك، وإنما هو توسل إلى الله عَزَّوَجَلَّ ويقولون: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، وهذا توسل باطل.

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ الكتاب هو القرآن منزل من الله، وهو كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليس مخلوقًا كما تقول الجهمية(١)، بل هو تنزيل من الله جَلَّ وَعَلَا، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥].

قوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يغلبه شيء، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي يضع الأمور في مواضعها، والحكيم -أيضًا- بمعنى المحكم الذي يحكم الأشياء ويتقنها، قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:٣]، وقال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]، فالله جَلَّ وَعَلَا حكيم يضع الأمور في مواضعها اللائقة بها، ويحكم الأشياء ويتقنها، ليس في صنعته نقص سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

---

(١) **الجهمية**: أتباع الجهم بن صفوان أبو محرز الراسبي، مولاهم السمرقندي، الضال المبتدع، هلك في زمان صغار التابعين، وقد زرع شرًّا عظيمًا، رأس في التعطيل، زعم أن القرآن مخلوق، وذهب إلى القول بأن العبد لا قدرة له أصلًا، بل فعله كحركة المرتعش، أو كالريشة في مهب الريح، أو بمنزلة حركة أغصان الأشجار، فالعبد عندهم مجبور على فعله، وأن الجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما حتى لا يبقى موجود سوى الله تعالى، قتله سَلْمُ بن أحوز سنة ثمان وعشرين ومائة. انظر: الملل والنحل (١/ ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص١٩٩)، وميزان الاعتدال (٢/ ١٥٩).

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ كرر الإنزال، وهو القرآن، ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أنزل الكتاب لأجل أن يُعبد الله مخلصًا له الدين، ولا يُشرك معه غيره، هذا الذي نزل به القرآن.

ثم قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ أي: الخالص من الشرك، أما الدين الذي معه شرك، فإن الله لا يقبله؛ كما في الحديث القدسي أن الله جَلَّوَعَلَا قال: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[1]. وفي رواية: «**فَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ، وَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ**»[2]. فإذا كان الإنسان يعبد الله ولكنه يشرك معه غيره، فإن الله لا يقبله، والمشركون الذين بُعث إليهم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كانوا يعبدون الله، وكانوا يحجون، ويعتمرون، ويتصدقون، ويعملون أعمالًا من بقايا دين إبراهيم، ولكنهم كانوا يشركون بالله، فلم تنفعهم أعمالهم؛ لأن الشرك يحبط جميع الأعمال ويبطلها، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ فلا يقبل الله من الدين إلا ما توافر فيه شرطان:

الأول: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

الثاني: المتابعة للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ هذا هو الإخلاص ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾، أي: متبع للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، وابن حبان (٢/ ١٢٠)، والطبراني في الأوسط (٦/ ٣٣٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٥٣٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ثم ذكر الذين انحرفوا عن هذا، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ إذا سُئِلوا لماذا تعبدونهم، وأنتم تعترفون أنهم لا يخلقون ولا يرزقون؟ قالوا: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ نحن لا نصل إلى الله ونحن مذنبون، وهؤلاء صالحون لهم جاه عند الله، فيشفعون لنا عند الله، وجاءوا بالحصر وقالوا: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ﴾ أي: ما لهم قصد إلا التوسل بهم.

والله جَلَّوَعَلَا أنكر عليهم وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾، فحكم عليهم بالكذب والكفر، وهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا﴾.

وكَانُوا يقُولُونَ فِي تَلْبِيَتِهِمْ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَك إلَّا شَرِيكًا هُوَ لَك تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ(١).

وَقَالَ تعَالَى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٢٨-٣٢].

الشَّرح

هذه الآيات من سورة الروم، وكان المشركون عندهم بقايا من دين إبراهيم، ومنها الحج، فكانوا يحجون، ولكنهم كانوا يدخلون فيه الشرك، وذلك في التلبية، فيقولون: (**لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَك إلَّا شَرِيكًا هُوَ لَك تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ**).

قولهم: (**إلَّا شَرِيكًا...**) إلى آخره.

---

(١) أخرجه مسلم (١١٨٥) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

زيادة من عندهم، وتلبية التوحيد هي التي لبى بها رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«لَبَّيْكَ اللهُمَّ، لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ»**(١).

أما قولهم: (**إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ**) فهذه تلبية المشركين، وهي مثل قولهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، وقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

وقولهم: (**تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ**). أي: ليس له شيء، سبحان الله! إذا كان لايملك شيئًا، فكيف تتخذونه وتطلبون منه؟ من أين يعطيكم وهو فقير مثلكم أو أقل؟ فأنزل الله جَلَّوَعَلَا في رد هذه التلبية هذه الآيات من سورة الروم، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

هذا إبطال لمقالة المشركين الذين يقولون: إن الله له شريك من عباده يشاركه يملكه وما ملك. فهل يرضون هذا لأنفسهم؟ هل يرضون أن

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٢٨٤)، ومشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢/ ٨٢)، ولسان العرب (٩/ ٢٥٥).

يشاركهم عبيدهم في ملكهم؟ هل أحد يرضى أن يشاركه عبد مملوك في ملكه وبيتك وأمواله؟! لا أحد يرضى بهذا.

قوله: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ من الإرقاء ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ في أموالكم، أترضى أن عبدك يشاركك في مالك؟ فإن كنت لا ترضاه لنفسك، فكيف ترضاه لله وتقول: (إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَك تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ)؟ أتنزهون أنفسكم عن ذلك، ولا تنزهون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. فهذا إبطال لهذه الفرية من أصلها، كونهم لا يرضون هذا لأنفسهم، كما أنهم يثبتون البنات لله وهم يكرهون البنات لأنفسهم، قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النحل:٦٢]، وقال تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات:١٥٣، ١٥٤]، فإذا كنتم لا ترضون بالبنات فكيف تنسبونها إلى الله؟ أتنزهون أنفسكم ولا تنزهون الله جَلَّ وَعَلَا عن ذلك؟! فهذا من الرد عليهم وإفحامهم.

قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: كما يخاف بعضكم بعضًا؛ لأن الشركاء في المال يخاف بعضهم بعضًا، فهل السيد يخاف من عبده في ماله؟ لا يليق هذا أبدًا، ولكن يخاف من غيره، إذا كان غيره شريكًا له يخاف منه، أما عبده الذي يملكه فلا يخاف منه.

بَيَّنَ سُبْحَانَهُ بِالمَثَلِ الَّذِي ضَرَبَهُ لَهُمْ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُجْعَلَ مَمْلُوكُهُ شَرِيكَهُ، فَقَالَ: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾، يَخَافُ أَحَدُكُمْ مَمْلُوكَهُ كَمَا يَخَافُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ لَا يَرْضَى أَنْ يَكُونَ مَمْلُوكُهُ شَرِيكَهُ، فَكَيْفَ تَرْضَوْنَ لِي ما لا ترضونه لِأَنْفُسِكُمْ؟

وَهَذَا كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ: لَهُ بَنَاتٌ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل:٦٢]، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل:٥٨-٦٠].

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي: أنتم وعبيدكم سواء في المال، هل يرضى أحد بهذا؟!

قوله: (يَخَافُ أَحَدُكُمْ مَمْلُوكَهُ كَمَا يَخَافُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا). هذا كقول الله تعالى: ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: كما يخاف بعضكم بعضًا، فأطلق أنفسكم على غيركم؛ لأن الناس كنفس واحدة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ هم يكرهون البنات ويقولون: الملائكة بنات الله، ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ

تَحْكُمُونَ ﴾ [الصافات:١٥٣، ١٥٤]، أي: ينزهون أنفسهم عما لا ينزهون الله منه، وهذا غاية التنقص لله جَلَّ وَعَلَا.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ هذه حالتهم مع البنات، إذا قيل له: جاءتك بنت. ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ اسْوَدَّ وجهه ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ ﴾ لا يقدر أن يمشي مع الناس من الخجل ﴿ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾، ثم يفكر ماذا يصنع؟ ﴿ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ ﴾ أيبقيها حية مع الذلة والهوان، ﴿ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ أو يقتلها تحت التراب، وهي الموؤدة، ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ﴾، هذا مثل سوء لا يليق بالله جَلَّ وَعَلَا ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

فهذه حجج قواطع من القرآن الكريم ترد على المشركين.

وَالْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ وَصَفَهُمْ اللهُ وَرَسُولُهُ بِالشِّرْكِ أَصْلُهُمْ صِنْفَانِ: قَوْمُ نُوحٍ، وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ، فَقَوْمُ نُوحٍ كَانَ أَصْلُ شِرْكِهِمْ الْعُكُوفَ عَلَى قُبُورِ الصَّالِحِينَ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ عَبَدُوهُمْ، وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أَصْلُ شِرْكِهِمْ عِبَادَةَ الْكَوَاكِبِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَكُلٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ يَعْبُدُونَ الْجِنَّ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ قَدْ تُخَاطِبُهُمْ وَتُعِينُهُمْ عَلَى أَشْيَاءَ، وَقَدْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ، وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ، فَإِنَّ الْجِنَّ هُمْ الَّذِينَ يُعِينُونَهُمْ وَيَرْضَوْنَ بِشِرْكِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

الشَّرح

المشركون الأولــون في الأمم السابقة على صنفين كما قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الصنف الأول: وأولهم قوم نوح، وسبب شركهم الغلو في الأولياء والصالحين، وذلك لأمرين:

الأول: العكوف على قبورهم، والتردد عليها لطلب الحاجات.

الثاني: تصوير صورهم؛ حتى يتذكروهم.

وفي هذا دليل على تحريم الأمرين: فالتصوير وسيلة من وسائل الشرك، لاسيما صور المعظمين، كالعباد، والعلماء، والرؤساء، والملوك، فإن هذا أقرب إلى الغلو فيهم، وبالتالي يجر إلى عبادتهم.

وكذلك العكوف عند قبور الصالحين، والعكوف هو: اللبث عند الشيء[(١)]، فيحرم العكوف عند القبور؛ لأنه يؤدي إلى الظن أنها تنفع وتضر، وتمنح البركة، كما يفعله القبورية من ترددهم على قبور الصالحين، وجلوسهم عندها، والطواف بقبورهم، كل هذه مظاهر للشرك حذَّر منها جميعًا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الصنف الثاني: وهم قوم إبراهيم الخليل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فهم كانوا في أرض بابل من العراق، وملكهم النمرود الجبار، وكانوا يعبدون الكواكب ويصورونها في تماثيل على صور الكواكب، والكواكب منها ما هو على صور حيوانات، مثل: العقرب، والجدي، والثور، والحمل، فهي نجوم تجتمع، وتصير في مرآها وصورتها كأنها حيوان، فسموها بأسماء الحيوانات، فهم يصورنها تماثيل من أجل أن تُذكرهم وتربطهم بهذه الكواكب، فيعبدونها من دون الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا أنكر عليهم خليل الله، وقال لهم: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ وهذا استنكار ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٥٢، ٥٣]، هذه حجتهم، ليس لهم حجة إلا التقليد الأعمى، وهذه ليست بحجة.

فالتقليد على ضلال وخطأ لا يجوز، أما الاتباع على الهدى فهذا طيب، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (١/ ٢٠٩)، والصحاح (٤/ ١٤٠٦)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٢٨٤)، وتحرير ألفاظ التنبيه (١/ ١٣٠)، والمطلع على ألفاظ المقنع (١/ ١٩٤).

بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة:١٠٠]، هذا يُسمى اتباعًا ما يسمى تقليدًا، ويقول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف:٣٨]، فاتِّباع الأنبياء هدى وليس تقليدًا، أما اتِّباع الناس على الخطأ، فيُسمى بالتقليد الأعمى، وليس حجة ولا برهانًا، وإنما يلجأ إليه من لا يملك الحجة، فإذا كان فعل فلان، أو الجماعة الفلانية، أو الطائفة الفلانية، مخالفًا لما جاء في الكتاب والسنة، فليس بحجة.

فهذا أصل شرك هاتين الطائفتين من الأمم السابقة، كله يرجع إلى التعلق بغير الله عَزَّوَجَلَّ؛ من كواكب، أو أموات، أو حيوانات، أو أشجار، أو غير ذلك، فالغلو في المخلوقات يؤدي إلى عبادتها من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ ثُمَّ عَبَدُوهُمْ). ولما نهاهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣]، هذه أسماء الصالحين الذين غلوا فيهم وعبدوهم من دون الله، فهم يتواصون بألا يتركوهم، وألا يطيعوا رسول الله نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل يبقون على ما هم عليه، وهذه مصيبة.

ولما أنكر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه ما وجدوا حجة إلا أنهم قالوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٧٤]، فلما أغرقهم بالحجة وأفحمهم قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٦٨]، لجؤوا إلى القوة والتهديد، وهذا لا ينفع أبدًا، الحق لا يقاوم أبدًا، الحق يغلب ولا يُغلب أبدًا، فلذلك اندحر هؤلاء، ونصر الله رسله، وصارت العاقبة للمتقين.

قوله: (وَكُلٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ يَعْبُدُونَ الجِنَّ). في الحقيقة هؤلاء المشركون إنما يعبدون الشيطان الذي أمرهم بذلك، فعبادتهم لا تصل إلى الصالحين، ولا إلى الكواكب، ولا إلى المخلوقات، بل لا يسمعونها ولا يقدرون على الإجابة، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٢، ٢٣]، وفي الآية الأخرى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤]، فهم لم يعبدوا هذه المخلوقات على الحقيقة، وإن كانوا عبدوها في الصورة والظاهر، وإنما الحقيقة أنهم كانوا يعبدون الشياطين، فالذين يعبدون الرسل، أو الملائكة، أو الصالحين، لا يعبدونهم في الحقيقة، ولا تصل عبادتهم إليهم، وإنما هذه عبادة للشيطان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ أي: الشياطين ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤٠، ٤١]، فعبادة المشركين في الحقيقة عبادة للشيطان الذي يأمرهم بذلك.

وأما المخلوقات التي تُعبد فهي تنكر هذا، كالملائكة، والرسل، والأنبياء، والصالحين، ولا يقرونه، والحقيقة أن هذا أمر باطل، ولا تصل عبادتهم إلى ما ظنوا أنه ينفعهم ويضرهم، وإنما هذا تعلق بالشيطان الذي أمرهم بذلك، ولهذا يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي﴾ [يس:٦٠، ٦١].

فالشرك في الحقيقة إنما هو عبادة للشيطان، وليس المراد شيطان الجن فقط، بل حتى شياطين الإنس، ودعاة الضلال، فالذي يطيعهم في عبادة القبور والأضرحة يعبد شياطين الإنس الذين هم فرع عن شياطين الجن.

وَالمَلَائِكَةُ لَا تُعِينُهُمْ عَلَى الشِّرْكِ لَا فِي المَحْيَا وَلَا فِي المَمَاتِ، وَلَا يَرْضَوْنَ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ قَدْ تُعِينُهُمْ، وَتَتَصَوَّرُ لَهُمْ فِي صُوَرِ الْآدَمِيِّينَ، فَيَرَوْنَهُمْ بِأَعْيُنِهِمْ، وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: أَنَا إِبْرَاهِيمُ، أَنَا المَسِيحُ، أَنَا مُحَمَّدٌ، أَنَا الخَضِرُ، أَنَا أَبُو بَكْرٍ، أَنَا عُمَرُ، أَنَا عُثْمَانُ، أَنَا عَلِيٌّ، أَنَا الشَّيْخُ فُلَانٌ. وَقَدْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ: هَذَا هُوَ النَّبِيُّ فُلَانٌ، أَوْ هَذَا هُوَ الخَضِرُ، وَيَكُونُ أُولَئِكَ كُلُّهُمْ جِنًّا يَشْهَدُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ.

وَالجِنُّ كَالْإِنْسِ، فَمِنْهُمْ الْكَافِرُ، وَمِنْهُمْ الْفَاسِقُ، وَمِنْهُمْ الْعَاصِي، وَفِيهِمْ الْعَابِدُ الجَاهِلُ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُحِبُّ شَيْخًا فَيَتَزَيَّا فِي صُورَتِهِ وَيَقُولُ: أَنَا فُلَانٌ. وَيَكُونُ ذَلِكَ فِي بَرِّيَّةٍ وَمَكَانٍ قَفْرٍ، فَيُطْعِمُ ذَلِكَ الشَّخْصَ طَعَامًا، وَيَسْقِيهِ شَرَابًا، أَوْ يَدُلُّهُ عَلَى الطَّرِيقِ، أَوْ يُخْبِرُهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ الْوَاقِعَةِ الْغَائِبَةِ، فَيَظُنُّ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَنَّ نَفْسَ الشَّيْخِ المَيِّتِ أَوْ الحَيِّ فَعَلَ ذَلِكَ، وَقَدْ يَقُولُ: هَذَا سِرُّ الشَّيْخِ، وَهَذِهِ رَقِيقَتُهُ، وَهَذِهِ حَقِيقَتُهُ، أَوْ هَذَا مَلَكٌ جَاءَ عَلَى صُورَتِهِ. وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ جِنِّيًّا، فَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَا تُعِينُ عَلَى الشِّرْكِ وَالْإِفْكِ وَالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ.

الشَّرح

قوله: (وَالمَلَائِكَةُ لَا تُعِينُهُمْ عَلَى الشِّرْكِ لَا فِي المَحْيَا وَلَا فِي المَمَاتِ). قد يُفتن هؤلاء المشركون، فيتبدى لهم الشيطان، أو الشياطين في صور من يعبدونهم، في صورة الولي الفلاني، أو الرسول، أو غيره، ويأمرونهم، وينهونهم، وقد يقضون حوائجهم، وقد يطيرون بهم في الهواء؛ بحجة أن هذه كرامة الشيخ، أو كرامة الولي، وهم شياطين يتلاعبون ببني آدم، فليُتنبه لهذا وأن هؤلاء

الذين يتراءون عند القبور لعبدة القبور هم شياطين يظهرون في صور هؤلاء المدعوين؛ ليضلوهم، ويفتنوهم عن دينهم، وليس هذا من الحقائق، إنما هو من الكذب والتزييف من قبل الشياطين، فإن الميت لا يظهر أبدًا للدنيا، ولا يُرى في الدنيا، إنما هو في عالم الآخرة، ولا يرجع إلى الدنيا أبدًا لا الرسل ولا غيرهم.

قوله: (**وَيَكُونُ أُولَئِكَ كُلُّهُمْ جِنًّا يَشْهَدُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ**). هذه حقيقة مهمة جدًّا تبطل دعاوى هؤلاء المشركين الذين يقولون: نحن رأيناهم، وكلمناهم، وأعطونا كذا، وقضوا حوائجنا. فيُقال لهم: هؤلاء شياطين، وليسوا الذين تقصدونهم، لا الملائكة، ولا الرسل، ولا الصالحين، وذلك لأنهم أولًا: لايرضون بذلك، وثانيًا: لا يرجعون إلى الدنيا بعد موتهم، ولا يتصرفون تصرف الأحياء. فهذا من الكذب، وإنما هذه شياطين تتراءى لهم؛ لأجل أن تضلهم عن سبيل الله.

قوله: (**وَالجِنُّ كَالْإِنْسِ**). هم مكلفون بما كُلِّف به الإنس، ومأمورون بعبادة الله عَزَّوَجَلَّ، فمنهم من أطاع وآمن وصار صالحًا، ومنهم من عصى وصار كافرًا أو فاسقًا أو ضالًا؛ كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ **وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ** ﴾ [الجن:١١]، ﴿ **وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ** ﴾ [الجن:١٤]، فهم أصناف كالإنس تمامًا، فأما المؤمنون من الجن، فلا يمكن أن يغشوا إخوانهم من الإنس أبدًا، وإنما يأبون ذلك، وإنما الذين يغشون هم المردة من الجن، والكفرة، والفسقة.

قوله: (**فَمِنْهُمْ الْكَافِرُ**). وهو الخارج عن ديانات الأنبياء.

قال: (وَمِنْهُمْ الْفَاسِقُ). وهو المؤمن الذي عنده نقص في إيمانه بسبب معصية من المعاصي.

قال: (وَمِنْهُمْ الْعَاصِي). الذي دون الفاسق، كما هو الحال عند الإنس، فالإنس منهم الكافر، ومنهم الفاسق، ومنهم العاصي، والجن كذلك ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ وهم الجائرون الظالمون ﴿فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن:١١-١٥].

قوله: (وَفِيهِمْ الْعَابِدُ الجَاهِلُ). هو عابد مجتهد، ولكنه جاهل، والجهل آفة، فإذا كان يعبد الله على جهل، فهذه طريقة أهل الضلال من النصارى وغيرهم، وإنما يكون العابد على حق إذا كانت عبادته على علم وفقه.

قوله: (فَيَظُنُّ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَنَّ نَفْسَ الشَّيْخِ المَيِّتِ أَوْ الحَيِّ فَعَلَ ذَلِكَ). وهذه فتنة أيضًا، قد يكون الإنسي محتاجًا لأنه في برية، أو عطشانًا، أو جائعًا، أو ضال الطريق، فيستغل الجني هذه الحالة، فيتراءى له، ويقول: أنا الشيخ فلان، وهذا طعام وشراب؛ لأن الجن عندهم مقدرة ليست عند الإنس؛ يحضرون الأشياء البعيدة، ويطيرون في الهواء، فليسوا كالإنس، فقد يحضر لهم طعامًا وشرابًا، ويقول: أنا الشيخ الفلاني؛ لأجل أن يغرَّه، وهو ليس شيخًا، وإنما هو شيطان، أو يدله على الطريق، ويقول له: أنا الشيخ الفلاني؛ لأجل أن يفتنه، فهذا كذب وافتراء، ولا يغتر بهذه الأمور إلا الجاهل، أما المؤمن فلا يغتر بهذه الأمور.

قوله: (أَوْ يُخْبِرُهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ الْوَاقِعَةِ الْغَائِبَةِ). لأن الجني يطلع على ما لايطلع عليه الإنسي، فما اطلع عليه غيب بالنسبة للإنسي، ولكنه ليس غيبًا بالنسبة له، فهو اطلع عليه في مكان بعيد، والجني عنده قدرة أن يأتي بسرعة، ويطير في الهواء، فيأتي بأشياء لم يطلع عليها الإنسي، فيفتتن الإنسي به، ولايقول له: أنا جني، أو أنا شيطان، بل يقول له: أنا فلان، أنا الشيخ فلان؛ لأجل أن يغره ويخدعه بذلك؛ لأن أغش شيء لبني آدم هم الشياطين، وأنصح شيء لبني آدم هم الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

قوله: (فَيَظُنُّ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَنَّ نَفْسَ الشَّيْخِ المَيِّتِ أَوْ الحَيِّ فَعَلَ ذَلِكَ). يقول هذا الإنسي المسكين: أنا أدري أن الشيخ لا يخرج من القبر، ولا يأتي هنا، ولكن هذا سرُّ الشيخ، وهذه حال الشيخ، فيأتيه من هذا الباب، والشيخ ليس له حال، وليس له سرٌّ، وليس له طيفٌ، إنما هذا من الشياطين.

قوله: (وَقَدْ يَقُولُ: هَذَا سِرُّ الشَّيْخِ، وَهَذِهِ رَقِيقَتُهُ، وَهَذِهِ حَقِيقَتُهُ). هذه من مصطلحات الصوفية: الرقائق، والحقائق، والسرُّ، وهي كلها لا أصل لها.

قوله: (فَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَا تُعِينُ عَلَى الشِّرْكِ وَالْإِفْكِ وَالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ). هذا معلوم قطعًا أن الملائكة لا تعين على الشرك، ولا تدعو إلى الشرك، لايمكن أن يكون ملك من الملائكة يدعو إلى الشرك أبدًا، فإذا كان الذي أمر به هذا الهاتف أو هذا الخيال شركًا، فهذا قطعًا من الشياطين، وليس من الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء:٥٦-٥٧].

قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ السَّلَفِ: كَانَ أَقْوَامٌ يَدْعُونَ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ كَالْعُزَيْرِ وَالْمَسِيحِ، فَبَيَّنَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ عِبَادُ اللهِ، كَمَا أَنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَهُمْ عِبَادُ اللهِ، وَبَيَّنَ أَنَّهُمْ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ كَمَا يَفْعَلُ سَائِرُ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ[1].

الشرح

الله جَلَّ وَعَلَا تحدى المشركين بهذه الآية: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ هذا أمر تحد، ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ لا يملكون رفع المرض إذا أنزله الله، ولا يملكون نقله من شخص إلى شخص، أو تحويله من محل إلى محل، وإنما هذا بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولهذا قال الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء:٨٠]، فالذي أنزل المرض هو الذي يقدر على رفعه، ويقدر على نقله من شخص إلى شخص، أو من بلد إلى بلد، أو من عضو إلى عضو في جسم الإنسان، وهذا لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام:١٧].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ٤٧٤)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٢٨٠)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٨١).

فلا يُتعلق بغير الله، ويُقال: هذا يشفي من المرض، أو هذا ينقل المرض، هذا من الكذب والافتراء؛ لأن هذا لا يقدر عليه إلا الله جَلَّوَعَلَا، إنما العباد بيدهم أدوية وطب، فإن وافق فالحمد لله وهو سبب من الأسباب، وإن لم يوافق فالأمر بيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

فالتداوي والعلاج المباح لا بأس به، وهو سبب من الأسباب، أما التداوي بالحرام كالسحر والشرك بالله، والذبح لغير الله، فلا يجوز، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَـدَاوَوا وَلا تَـدَاوَوا بِحَرَامٍ**»(١). والشرك أعظم الحرام، فلا يتداوى الإنسان بالشرك، ولا بالخمر، ولا بالميتة، وجميع المحرمات ليست بدواء، إنما الدواء في الأشياء المباحة، وهذا ما يعثر عليه إلا بعض الناس، علمه من علمه، وجهله من جهله.

فقوله تعالى: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ أي: لا يملكون أن يجيبوهم، فدل على بطلان حجتهم.

ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ أولئك الذين يدعوهم هؤلاء المشركون من الملائكة، أو الأنبياء كالمسيح، وأمه مريم، وعزير عند اليهود، هؤلاء عباد لله جَلَّوَعَلَا، وإن كان اليهود والنصارى يدعونهم من دون الله، ويغلون في حقهم. قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [التوبة:٣٠]، فعزير، وعيسى، ومريم، والملائكة كلهم عباد لله، فكيف يُدْعَون

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٧٤)، والطبراني في الكبير (٦٤٩)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٥) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ويُعْبَدون وهم عباد؟ وأيضًا هم يَدْعُون الله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ أي: القرب منه سبحانه، فعزير، وعيسى، ومريم كلهم يتقربون إلى الله بالعبادة، ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء:٥٧]، فدل على أنهم عباد، ليس لهم من الأمر شيء، وأن عبادتهم باطلة؛ لأنهم لايملكون شيئًا.

والقرآن العظيم فيه الحجج الدامغة لرد الشرك وإبطاله، ولكن أين من يفهم؟ قال تعالى: ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ ﴾ [الأنبياء:١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾ [الإسراء:٨١].

والوسيلة ليس المراد بها ما يفهمه المشركون أنك تجعل بينك وبين الله واسطة من الخلق، إنما هي: الطاعة والعبادة، قال تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة:٣٥]، أي: الطاعة والقرب منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فالذي يقرب إلى الله هو العمل الصالح، وليس الأشخاص والوسائط.

وَالْمُشْرِكُونَ مِنْ هَؤُلَاءِ قَدْ يَقُولُونَ: إِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِهِمْ، أَيْ نَطْلُبُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ أَنْ يَشْفَعُوا، فَإِذَا أَتَيْنَا قَبْرَ أَحَدِهِمْ طَلَبْنَا مِنْهُ أَنْ يَشْفَعَ لَنَا، فَإِذَا صَوَّرْنَا تِمْثَالَهُ -وَالتَّمَاثِيلُ إِمَّا مُجَسَّدَةٌ وَإِمَّا تَمَاثِيلُ مُصَوَّرَةٌ كَمَا يُصَوِّرُهَا النَّصَارَى فِي كَنَائِسِهِمْ- قَالُوا: فَمَقْصُودُنَا بِهَذِهِ التَّمَاثِيلِ تَذَكُّرُ أَصْحَابِهَا وَسِيَرِهِمْ، وَنَحْنُ نُخَاطِبُ هَذِهِ التَّمَاثِيلَ وَمَقْصُودُنَا خِطَابُ أَصْحَابِهَا لِيَشْفَعُوا لَنَا إِلَى اللهِ. فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: يَا سَيِّدِي فُلَانٌ، أَوْ يَا سَيِّدِي جرجس أَوْ بِطَرْسِ، أَوْ يَا سِتِّي الْحَنُونَةُ مَرْيَمُ، أَوْ يَا سَيِّدِي الْخَلِيلُ أَوْ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، اشْفَعْ لِي إِلَى رَبِّك.

وَقَدْ يُخَاطِبُونَ الْمَيِّتَ عِنْدَ قَبْرِهِ: سَلْ لِي رَبَّك. أَوْ يُخَاطِبُونَ الْحَيَّ وَهُوَ غَائِبٌ كَمَا يُخَاطِبُونَهُ لَوْ كَانَ حَاضِرًا حَيًّا، وَيُنْشِدُونَ قَصَائِدَ يَقُولُ أَحَدُهُمْ فِيهَا: يَا سَيِّدِي فُلَانٌ أَنَا فِي حَسَبِك، أَنَا فِي جِوَارِك، اشْفَعْ لِي إِلَى اللهِ، سَلْ اللهَ لَنَا أَنْ يَنْصُرَنَا عَلَى عَدُوِّنَا، سَلْ اللهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنَّا هَذِهِ الشِّدَّةَ، أَشْكُو إِلَيْك كَذَا وَكَذَا، فَسَلْ اللهَ أَنْ يَكْشِفَ هَذِهِ الْكُرْبَةَ. أَوْ يَقُولُ أَحَدُهُمْ: سَلْ اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لِي.

الشَّرح

قوله: (قَدْ يَقُولُونَ: إِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِهِمْ). يقولون: نحن نعلم أنهم لا يملكون الضر والنفع، ولا يكشفون الضر، ولا يحولونه، لكنهم صالحون، ونحن مذنبون، ونريد من هؤلاء الصالحين أن يتوسطوا لنا عند الله ويشفعون لنا. وهل الله أمر بهذا؟ أين في القرآن أو السنة أن الله أمر بأن يُتخذ الوسائط من الخلق بينهم وبين الله؟ الله فتح بابه للسائلين، وقال:

«مَـنْ يَدْعُونِي فَأَسْـتَجِيبَ لَـهُ، مَنْ يَسْـأَلُنِي فَأُعْطِيَه، مَـنْ يَسْـتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»(١). ولم يقل: بواسطة فلان، أو بشفاعة فلان، الله جَلَّوَعَلَا قريب مجيب غني كريم علام الغيوب، لا يخفى عليه شيء، فليس بحاجة إلى وسائط، ولا دليل على ذلك من الكتاب، ولا من السنة، ولا من عمل السلف الصالح أن تتخذ وسائل من الخلق بين العباد، وبين الله عَزَّوَجَلَّ، لا بالجاه، ولا بالذات، ولا بعمل فلان، فعمل فلان له ليس لك، كيف تتوسل إلى الله بعمل غيرك؟ وصلاح غيرك لا يغنيك شيء، كلٌّ له عمله، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة:١٣٤]، فلا ينفع الإنسان إلا عمله، لاينفعه عمل غيره، ولا صلاح غيره أبدًا.

ثم من أين لكم الدليل على أن الله أمركم أن تتخذوا وسائط بينكم وبينه؟ بل لم يقتصر الأمر على هذا، وهو أن يسأل الله بجاه فلان، أو بحق فلان، أو بذات فلان، مع أن هذا منكر وبدعة، بل صرفوا لهم العبادة، فاتخذوا هؤلاء الوسائط معبودين من دون الله يتقربون إليهم، ويقولون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٢]، ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨]، وهذا شرك أكبر، فالتوسل بالشخص إن كان مجرد توسط به في قبول الدعاء دون أن تتقرب إليه بشيء من العبادة، فهو بدعة ووسيلة إلى الشرك، وإن كان مع هذا التوسط صرف عبادة لغير الله، فشرك أكبر يُخرج من الملة.

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٢٣).

قوله: (فَإِذَا أَتَيْنَا قَبْرَ أَحَدِهِمْ طَلَبْنَا مِنْهُ أَنْ يَشْفَعَ لَنَا). يقولون: نحن نعلم أنه لا ينفع ولا يضر، ولا يملك الأمور ويدبر الكون إلا الله، لكن نتخذ هؤلاء وسائط بيننا وبين الله. هل الله أمركم بهذا، أين الدليل؟

قوله: (فَإِذَا صَوَّرْنَا تِمْثَالَهُ). أيضًا: قد يؤول بهم الأمر إلى أشد من ذلك، إلى أنهم يصورون صورهم؛ ليتذكروا بها أحوالهم، وينصبونها على قبورهم، كما فعل النصارى، فإن إحدى أمهات المؤمنين ممن هاجرن إلى الحبشة رأت كنائس النصارى، وما فيها من الصور، فذكرت ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أُولَئِكَ قَوْمٌ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، أَوِ الْعَبْدُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ»**[(١)].

ولا يزال هذا في النصارى حتى اليوم، فإذا دخلت كنيسة لهم تشاهد الصليب ممدودًا على الجدران، ويزعمون أن هذه صورة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو مصلوب على الخشبة بعدما قُتل، ويرفعونه في كنائسهم، أو يصورون صورة المسيح أو صورة العذراء في كنائسهم، لا يزال هذا عندهم، ويقولون: نتذكر بذلك أحوالهم. وهذا هو الذي وقع لقوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالشيطان خطه واحد مع الأولين والآخرين والعياذ بالله.

وقد لا تكون الصورة تمثالًا، قد تكون رسمًا باليد، أو بالآلة الفوتوغرافية، وتُعلق من أجل التعظيم، والصورة المرسومة أو الملتقطة تُسمى تمثالًا، فليس التمثال خاصًّا بالمبني أو المنحوت، وهي ما تسمى بالصور المجسمة، بل هو

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

يعم الصورة ولو كانت على ورق أو لوحة؛ بدليل أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رأى نمرقة على الجدار فيها تماثيل -أي: صور مرسومة، وليس فيها تماثيل منحوتة مجسمة- تغير لونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبى أن يدخل حتى هُتك ذلك الستر(١). فدل على أن التمثال يُطلق على المجسم، وعلى غير المجسم، فكل الصور تُسمى تماثيل، فلا يُفرق بين المجسمة وغير المجسمة إلا إنسان ليس عنده علم، أو صاحب هوى، والفتنة حاصلة بالمرسوم أو المنحوت أو المبني.

قوله: (**يَا سَيِّدِي جرجس أَوْ بِطَرْسٍ**). هذا من أعلام النصارى.

قوله: (**أَوْ يَا سِتِّي الحَنُونَةُ**). يقصدون مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ.

قوله: (**أَوْ يَا سَيِّدِي الخَلِيلُ أَوْ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ**). أو غير ذلك من الأنبياء.

قوله: (**اشْفَعْ لِي إِلَى رَبِّك**). يهتفون بأسماء الأموات والغائبين في البحر والبر إذا وقعوا في شدة، ويقولون: نحن في حسبك، نحن تحت رحمتك، أنقذنا، فرِّج عنَّا، ولا يدعون الله عَزَّوَجَلَّ. وهذا ظاهر على شرك المتأخرين، الأولون كانوا يشركون في الرخاء، ويخلصون لله في حال الشدة، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥].

---

(١) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قَدِمَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ سَفَرٍ وَقَدْ سَتَرْتُ بِقِرَامٍ لِي عَلَى سَهْوَةٍ لِي فِيهَا تَمَاثِيلُ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هتكَهُ، وَقَالَ: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ الله**»، قَالَتْ: فَجَعَلْنَاهُ وِسَادَةً أَوْ وِسَادَتَيْنِ. تقدم تخريجه (ص١٥٢).

أما المتأخرون من المشركين المنتسبين لهذه الأمة، فإنهم كلما اشتدت الكربة بهم زاد شركهم، وزاد هتافهم بالأولياء والصالحين في البحار وغيرها، فيقول أحدهم: يا عبد القادر، يا حسين، يا علي، ولا يقول: يا الله أبدًا، ويأمر من حوله أن يهتفوا بأسماء الأولياء؛ ولهذا قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن شرك الأولين أخف من شرك المتأخرين؛ لأن الأولين يشركون في الرخاء، ويخلصون في الشدة، أما هؤلاء، فشركهم دائم في الرخاء، وفي الشدة؛ بل شركهم في الشدة أشد من شركهم في الرخاء»[(١)]. وهذا لعظيم الفتنة والعياذ بالله.

قوله: (وَقَدْ يُخَاطِبُونَ المَيِّتَ عِنْدَ قَبْرِهِ: سَلْ لِي رَبَّك). يأتون إلى القبور، إما أنهم يخاطبون الصورة المنصوبة أو التمثال، أو يأتون إلى القبر يخاطبون الميت، ويطلبون منه الشفاعة والدعاء وتفريج الكرب، والميت لا يُطلب منه شيء، وهو لا يسمع من ناداه، ولو سمع ما يستطيع الإجابة، قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤]، يجحدون أنهم ما عبدوهم، ولا رضوا أن يعبدوهم، وإنما هذا من الشيطان، وهم على حق في هذا، وأولئك على باطل، وليس لهم حجة.

فالحاصل: أن هذا صنيع المشركين، إما مع صور مجسمة أو مرسومة يخاطبونها، وإما قبور هامدة يذهبون عندها وينادونها ويعكفون عندها،

---

(١) انظر: كشف الشبهات (ص٣٣).

ولا يدعون الله في المساجد، بل المسجد الذي ليس فيه قبر لا يتجهون إليه، ولا يُسمى مسجدًا عندهم، وهذا من عظيم الفتنة والعياذ بالله.

قوله: (أَوْ يُخَاطِبُونَ الحَيَّ وَهُوَ غَائِبٌ). لا يجوز الهتاف بأسماء الأموات، ولا بأسماء الأحياء الغائبين؛ لأنهم لا يسمعون دعاءك، تقول: هذا رجل صالح، وهذا له سر. لا يسمعك؛ لأنه غائب، فلا يجوز دعوة الغائب، وإنما تدعو الحاضر، تقول: يا فلان ساعدني، يا فلان اسقني، أطعمني، يا فلان احمني من السبع، من كيد كذا، وهو حاضر ويقدر، ليس فيه مانع، قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥]، هذا جائز، أما غائب أو ميت، فلا يجوز؛ لأنه لا يقدر على ذلك، كيف يقدر يغيثك وبينك وبينه مسافات وأميال، ولا يسمعك؟!

قوله: (وَيُنْشِدُونَ قَصَائِدَ). بعضهم شعراء ينظمون قصائد رنانة في مدح الأولياء والاستغاثة بهم، مثل قول قائلهم(١):

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَنْ لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ ... سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمَمِ

هذا في البردة التي يرددونها في الموالد، ويخاطبون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها، وهي شرك أكبر مخرج من الملة والعياذ بالله.

وكذلك قصائد من هذا النوع كثيرة للمشركين عباد القبور، يشيدون فيها بالشرك وعمل الشرك؛ ليغروا بذلك السذج والعوام، وقد تكون هذه

---

(١) البيت من قصيدة البردة للبوصيري محمد بن سعيد بن حماد. راجع (ص٧٩).

القصائد من الشعر الجيد، والشعر المغري بقراءته، مثل: البردة، فيتأثر بها الإنسان الجاهل والغر[(١)]، وهذا من خداع الشيطان.

فِي زُخْـرُفِ الْـقَـوْلِ تَـزْيِـينٌ لِبَاطِلِهِ ... وَالْحَـقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرِ[(٢)]

لماذا لا تسأل الله؟ لماذا تدعو الميت وتقول له: أسأل الله أن يغفر لي؟ هذا من الانتكاس والعياذ بالله، أتذهب للميت العاجز الذي لن يقدر أن يعمل لنفسه شيئًا، فتطلب منه أن يستغفر لك، وأن يدعو لك؟! لماذا لا تستغفر الله أنت، وتدعو الله أنت مباشرة؟

---

(١) **الغر**: الذي لا يفطن للشر ويغفل عنه. انظر: تهذيب اللغة (٨/ ١٦)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٣٨٥)، ولسان العرب (١/ ٣٤٢).

(٢) أنشده ابن الخل، ولم يسم قائله. انظر: وفيات الأعيان (١/ ٣٣).

وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَأَوَّلُ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤]، وَيَقُولُونَ: إِذَا طَلَبْنَا مِنْهُ الِاسْتِغْفَارَ بَعْدَ مَوْتِهِ كُنَّا بِمَنْزِلَةِ الَّذِينَ طَلَبُوا الِاسْتِغْفَارَ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَيُخَالِفُونَ بِذَلِكَ إِجْمَاعَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَائِرَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يَطْلُبْ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ مَوْتِهِ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ، وَلَا سَأَلَهُ شَيْئًا، وَلَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ فِي كُتُبِهِمْ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ ذَلِكَ مَنْ ذَكَرَهُ مِنْ مُتَأَخِّرِي الْفُقَهَاءِ، وَحَكَوْا حِكَايَةً مَكْذُوبَةً عَلَى مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَيَأْتِي ذِكْرُهَا وَبَسْطُ الْكَلَامِ عَلَيْهَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

الشرح

ربما يستدلون بهذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، ويظنون أن هذه في حال وفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع أن الآية نزلت في قصة في حياة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي أن قومًا أرادوا التحاكم إلى الطاغوت، وترك التحاكم إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١)، فالله فضحهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠]، إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، لَمَّا حصلت منهم هذه الخطيئة تابوا إلى الله تاب الله عليهم،

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٥١٧)، وتفسير القرطبي (٥/ ٢٦٣)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٦).

﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالشرك والكفر والإساءة إلى النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ حيث تعدوه بتحكيم غيره، وهذا تنقص لقدر الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، واتهام له بأنه لاينصف ولا يعدل، ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ مما أشركوا، ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾؛ لأن الرسول مجاب الدعوة، ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، هذا في حياة الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لكن هؤلاء حوروا الآية إلى أنها تمتد إلى بعد وفاته صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فهل كان الصحابة يذهبون إلى قبر الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عندما تلم بهم الملمات، وعندما يستسقون، وعندما تحصل عليهم الشدائد، هل كانوا يذهبون إلى قبر الرسول، وما بينهم وبينه إلا أذرع؟

ما كانوا يفعلون هذا؛ لعلمهم أن هذا لا يجوز وغير مشروع، وإنما كانوا يتجهون إلى الله جَلَّوَعَلَا بالدعاء والتضرع حتى يفرِّج الله ما بهم، وإذا أرادوا طلب الدعاء يطلبونه من حي حاضر معهم، كما طلب عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من العباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عم الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يستسقي لهم، ولم يذهب إلى قبر الرسول، وما بينه وبينه إلا أمتار، وما قال: يا رسول الله ادع الله لنا، وقد كانوا يقولون ذلك للرسول في حياته إذا أجدبوا، ولكن لما مات عدلوا عن هذا للإحياء كالعباس عم الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقال: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»، فيسقون[(١)]، وهم أفقه الأمة، ولو كان الذهاب إلى قبر الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جائزًا بعد موته لفعله الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ في الشدائد.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٧).

فالآية إنما هي في حياة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿جَآءُوكَ﴾، ما قال: جاءوا إلى قبرك، فالخطاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو حي، طلبوا منه المسامحة عن الإساءة في حقه، وسامحهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعا لهم، واستغفر لهم؛ لأن هذا مشروع.

قوله: (**وَيَقُولُونَ: إِذَا طَلَبْنَا مِنْهُ الِاسْتِغْفَارَ بَعْدَ مَوْتِهِ كُنَّا بِمَنْزِلَةِ الَّذِينَ طَلَبُوا الِاسْتِغْفَارَ مِنْ الصَّحَابَةِ**). هذا قياس باطل، فطلب الدعاء والاستغفار من الميت ليس مثل طلب الدعاء والاستغفار من الحي؛ لأن الحي يقدر أن يدعو ويستغفر لمن طلب منه ذلك، أما الميت فلا يقدر على شيء من ذلك.

ثانيًا: الصحابة ما فعلوا ذلك مع قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم أعلم الأمة، فهل أنتم أدركتم شيئًا لم يدركه الصحابة، أو أن الصحابة كانوا يتنقصون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنتم تعظمونه وتذهبون إلى قبره؟!

قوله: (**وَيُخَالِفُونَ بِذَلِكَ إِجْمَاعَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَائِرَ الْمُسْلِمِينَ**). هذا هو الرد عليهم أن نقول: هذا شيء لم يفعله الصحابة، وأجمعوا على تركه، وإجماعهم حجة قاطعة.

قوله: (**وَلَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ فِي كُتُبِهِمْ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ ذَلِكَ مَنْ ذَكَرَهُ مِنْ مُتَأَخِّرِي الْفُقَهَاءِ**). ما فعل هذا بعد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أحد من الأئمة أو العلماء، ولا ذكره عنهم غيرهم، فكتبهم خالية من هذه الأمور، إنما يوجد هذا في كتب بعض المتأخرين من الفقهاء الذين لم يحققوا التوحيد، ولم يعتنوا به، وإنما يسجلون ما سمعوا وما رأوا دون تمحيص؛ من القصص،

والحكايات، والأشياء هذه، فالعبرة بما كان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، أما ما أحدثه المتأخرون أو ذكروه في كتبهم، فلا عبرة به.

قوله: (**وَحَكَوْا حِكَايَةً مَكْذُوبَةً عَلَى مَالِكٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **سَيَأْتِي ذِكْرُهَا وَبَسْطُ الْكَلَامِ عَلَيْهَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى**). ينسبون إلى مالك أنه سأله أبو جعفر المنصور: هل يستغاث بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: ولماذا لا تستغيث به وهو وسيلتك، ووسيلة آبائك وأجدادك.

وهذا كذب على مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، سيأتي تفنيد الشيخ له، وهذه القصة ليست موجودة في كلام مالك، لا في المدونة، ولا في كتب أصحابه الذين تحملوا العلم عنه وجالسوه، إنما يوجد شيء في كتب المتأخرين الذين يتصيدون القصص والحكايات التي تروج عليهم، أما كتب المالكية المعتبرة فليست فيها هذه القصة، وهذا سيأتي بسطه إن شاء الله.

فَهَذِهِ الْأَنْوَاعُ مِنْ خِطَابِ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ عِنْدَ قُبُورِهِمْ وَفِي مَغِيبِهِمْ، وَخِطَابِ تَمَاثِيلِهِمْ، هُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ الْمَوْجُودِ فِي الْمُشْرِكِينَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَفِي مُبْتَدِعَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ أَحْدَثُوا مِنَ الشِّرْكِ وَالْعِبَادَاتِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ تَعَالَى. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى:٢١].

فَإِنَّ دُعَاءَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ وَفِي مَغِيبِهِمْ، وَسُؤَالَهُمْ وَالِاسْتِغَاثَةَ بِهِمْ وَالِاسْتِشْفَاعَ بِهِمْ فِي هَذِهِ الْحَالِ، وَنَصْبَ تَمَاثِيلِهِمْ -بِمَعْنَى طَلَبِ الشَّفَاعَةِ مِنْهُمْ- هُوَ مِنَ الدِّينِ الَّذِي لَمْ يَشْرَعْهُ اللهُ، وَلَا ابْتَعَثَ بِهِ رَسُولًا، وَلَا أَنْزَلَ بِهِ كِتَابًا، وَلَيْسَ هُوَ وَاجِبًا وَلَا مُسْتَحَبًّا بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا فَعَلَهُ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا أَمَرَ بِهِ إِمَامٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ.

وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مِمَّنْ لَهُ عِبَادَةٌ وَزُهْدٌ، وَيَذْكُرُونَ فِيهِ حِكَايَاتٍ وَمَنَامَاتٍ، فَهَذَا كُلُّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ.

وَفِيهِمْ مَنْ يَنْظِمُ الْقَصَائِدَ فِي دُعَاءِ الْمَيِّتِ وَالِاسْتِشْفَاعِ بِهِ وَالِاسْتِغَاثَةِ، أَوْ يَذْكُرُ ذَلِكَ فِي ضِمْنِ مَدِيحِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، فَهَذَا كُلُّهُ لَيْسَ بِمَشْرُوعٍ وَلَا وَاجِبٍ وَلَا مُسْتَحَبٍّ بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ.

الشَّرح

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا أن طلب الشفاعة من الأموات أو الملائكة أو الغائبين شرك أكبر، سواء كان عند قبورهم أو عند تماثيلهم، أو كان في مغيبهم

ولو لم يكن عند قبره أو تمثاله، وإنما يهتف باسمه، ويطلب منه الشفاعة، أو يطلب منه أن يدعو الله له، وهو ميت أو غائب.

بينما بعض الكتاب -هداهم الله- نقل عن الشيخ أنه قال في الفتاوى: إن هذا ليس بشرك، وإنما هو بدعة؛ لأنه إنما توسل بهم إلى الله.

وهذا غلط على الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهو صرح هنا أن هذا شرك، ولم يقتصر على البدعة، فهذا واضح من كلامه، وينبغي التنبه لهذا؛ لئلا يغتر بكلام بعض المنتسبين إلى العلم من مرجئة العصر.

قوله: (بَعْدَ مَوْتِهِمْ عِنْدَ قُبُورِهِمْ). بعد موت الصالحين، أما الملائكة فلاتموت في الدنيا.

قوله: (وَفِي مَغِيبِهِمْ). بعد موتهم، أو وهم أحياء لكنهم غائبون، فكيف يسمعون من يناديهم؟

قوله: (هُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ). وهم يقولون: هذا بدعة، وشرك أصغر، وينسبون هذا إلى الشيخ. هل الشرك الأصغر أعظم أنواع الشرك؟ أعظم أنواع الشرك هو الشرك الأكبر، فينبغي التنبه لهذا، وألا يُنسب إلى الأئمة ما لم يقولوه، وألا يؤتى بكلام موهم مقطوع مبتور من كلام أحد الأئمة، ويُقطع أوله عن آخره، أو آخره عن أوله، ثم يُقال: هذا كلام فلان.

قوله: (فِي الْمُشْرِكِينَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ). المشركون على نوعين:

- مشركون من غير أهل الكتاب.

- ومشركون من أهل الكتاب، فليس كل أهل الكتاب مشركين، بل فيهم موحدون وصالحون، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ

بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [آل عمران:١٩٩]، وقال: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴾ [آل عمران:١١٢]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ [المائدة:٨٣]، ففيهم مؤمنون، لكن انحرف منهم من انحرف، وأشركوا بالله عن علم والعياذ بالله، وخالفوا ما في التوراة والإنجيل، ودعوة موسى وعيسى، ومَنْ بعد موسى من الأنبياء، فهؤلاء هم مشركو أهل الكتاب.

قوله: (وَفِي مُبْتَدِعَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ أَحْدَثُوا مِنْ الشِّرْكِ وَالْعِبَادَاتِ مَا لَمْ يَـأْذَنْ بِهِ اللهُ تَعَالَى). الأصل أن الإسلام دين التوحيد والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، وإنما المتأخرون من المنتسبين للإسلام من أحدث الشرك، وزعم أنه من الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ ﴾ استفهام إنكار، ﴿ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ الدين الذي يشرعه هو الله، وإذا كان كذلك فإنه سبحانه لم يشرع الشرك، لا بالأولياء، ولا بالصالحين، ولا بالملائكة، ولا بغيرهم، وإنما شرعه هؤلاء الذين يدعونهم من دون الله، ويقلدونهم من دعاة الضلال، فقوله: ﴿ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ يدل على أن الدين توقيفي، ولا يعتبر دينًا إلا ما شرعه الله عَزَّوَجَلَّ، وما لم يشرعه الله فهو بدعة، إما بدعة شرك كدعاء غير الله والاستغاثة بغير الله، وإما دون ذلك.

فالمشركون من هذه الأمة الذين يعبدون القبور والأضرحة، لا يطلبون أنها تخلق أو ترزق أو تحيي أو تميت، وإنما يطلبون منها الشفاعة فقط، وهذا

شرك بالله عَزَّوَجَلَّ لا يفعله إلا مشرك؛ لأن الميت لا يُطلب منه شيء ألبتة، لا دعاء، ولا شفاعة، ولا قضاء حاجة.

قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾، فهؤلاء اتخذوا مشرعين مع الله؛ حيث قالوا: إن هذا ليس بشرك، والله سماه شركًا، قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس:١٨].

فالذي يقول هذه المقالة شرع في الدين ما لم يأذن به الله، وقسم دعاء الأموات أو عبادة الأموات إلى ما يكون شركًا، وما لا يكون شركًا، وهذا تقسيم مبتدع، وتشريع دين جديد لم يأذن الله به.

قوله: (**فَإِنَّ دُعَاءَ المَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ وَفِي مَغِيبِهِمْ وَسُؤَالُهُمْ وَالِاسْتِغَاثَةَ بِهِمْ وَالِاسْتِشْفَاعَ بِهِمْ فِي هَذِهِ الحَالِ وَنَصْبَ تَمَاثِيلِهِمْ -بِمَعْنَى طَلَبِ الشَّفَاعَةِ مِنْهُمْ- هُوَ مِنْ الدِّينِ الَّذِي لَمْ يَشْرَعْهُ اللهُ**). كل هذه الأمور من الدين الذي لم يشرعه الله في جميع الكتب المنزلة، لم يشرع الله الشرك أبدًا، ولا أمر به، ولا بوسائله المفضية إليه، وإنما شرع التوحيد، وإخلاص العبادة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنها حق الله على عباده؛ كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»(١)، فهذا هو حق الله على العباد، وهذا هو أول الحقوق، قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠) من حديث معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

إِحۡسَٰنًا﴾ [النساء:٣٦]، إلى آخر الحقوق، أولها حق الله جَلَّوَعَلَا، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، فأول الحقوق حق الله وهو عبادته وحده لا شريك الله، أما عبادة غيره فليست عبادة لله، ولم يشرعها الله عَزَّوَجَلَّ، بل أرسل الرسل، وأنزل الكتب في إنكارها، وجهاد من دعا إليها وأمر بها.

قوله: (**وَلَا ابْتَعَثَ بِهِ رَسُولًا وَلَا أَنْزَلَ بِهِ كِتَابًا**). بل إن الله أرسل رسله ينهون عن الشرك، فكل رسول يقول لقومه: «يا قوم اعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئًا»، يأمرهم بعبادة الله، وينهاهم عن الشرك، فليس في دين الأنبياء كلهم أنهم أجازوا شيئًا من الشرك.

قوله: (**وَلَيْسَ هُوَ وَاجِبًا وَلَا مُسْتَحَبًّا بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ**). الدين إنما يكون واجبًا كالفرائض، أو يكون مستحبًّا كالنوافل، وما ليس بواجب ولا مستحب فليس من الدين، فإن تُقرب به إلى الله فهو بدعة وزيادة في الدين، وإن لم يُتقرب به إلى الله واتُّخذ من باب العادات فهو مباح؛ كالأكل، والشرب، واللباس، والمراكب، كلها تعد من المباحات؛ لأنها ليست من الدين، أما الدين فلا يدخل فيه إلا ما كان واجبًا أو مستحبًّا، ولم يقل أحد بوجوب الاستغاثة بالأموات، أو استحباب الاستغاثة بالأموات.

قوله: (**وَلَا فَعَلَهُ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ**). الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ كانوا إذا أجدبوا لا يذهبون إلى قبر الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإنما يستسقون، ويطلبون ممن عندهم من الصلحاء أن يدعو الله لهم بالغيث؛ كما كانوا يفعلون هذا مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حياته، فلما مات لم يذهبوا إليه،

فدل على أن الميت لا يُطلب منه شيء، وإن كان أفضل الناس، وهذا واضح، فالميت لا يُطلب منه شيء؛ لا شفاعة، ولا دعاء، ولا قضاء حاجة، ولا غير ذلك، ولا يُسأل مسائل العلم، وإذا أشكل عليك سؤال لا تسأل العالم الميت، أو النبي، بل تسأل أهل العلم من الأحياء.

قوله: (**وَلَا أَمَرَ بِهِ إِمَامٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ**). لم يأمر به إمام من أئمة المسلمين المقتدى بهم الذين هم أئمة حق، كالأئمة الأربعة، ومن كان معاصرًا لهم أو قبلهم، أو من جاء بعدهم ممن سار على أثرهم، فلا تجد إمامًا معتبرًا من أئمة المسلمين يسوغ الشرك أو يدعو إليه، إنما يدعو إليه علماء الضلال أو الجهال.

قوله: (**وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مِمَّنْ لَهُ عِبَادَةٌ وَزُهْدٌ**). العبادة والزهد لا تكفي، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خشي على أمته من العباد الجهال، وخشي عليهم من علماء الضلال، فهاتان الطائفتان هما أخطر على الأمة[(١)].

وكونه يفعله بعض الناس والمنتسبين للإسلام، وقد يكون من العباد والزهاد، فهذا ليس عبرة، إنما العبرة فعل أهل الحق والأئمة المستقيمين على التوحيد، هذا الذي يعتبر ويُقتدى به، أما أن يفعله عابد جاهل، أو ضال من

---

(١) كما في حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**». أخرجه البخاري (٧٣٠٧)، ومسلم (٢٦٧٣).

الضالين، فليس بعبرة، ولا يُحسب هذا على الإسلام، بل الإسلام منه بريءٌ ومنزه عنه.

قوله: (وَيَذْكُرُونَ فِيهِ حِكَايَاتٍ وَمَنَامَاتٍ). هذه طريقتهم، الذين يتعبدون إلى الله بالخرافات والشركيات ليس عندهم أدلة إلا أحاديث مكذوبة، أو حكايات يتناقلونها، يقولون: حدث عند القبر الفلاني كذا، أو رأينا في المكان الفلاني كذا، إما حكايات، وإما منامات ورؤى وأحلام، وإما أحاديث مكذوبة على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلها حجج واهية باطلة لا يُعتمد عليها.

فلا يُنظر إلى كونه زاهدًا أو عابدًا، ونقول: ما فعل هذا الفعل إلا لأنه جائز؛ لأنه تقي عابد زاهد. هذا ليس بدليل، إنما الدليل ما دل عليه الكتاب، والسنة، أو الإجماع، أما فعل فلان أو فلان، فليس دليلًا، ولا قال أحد: إن هذا دليل، هذا ناحية.

الناحية الثانية: قد يعتمدون على حكايات يرونها من أن فلان فعل كذا، وحصل له كذا، فلان ذهب إلى قبر فلان وطلب حاجته فقضيت، حكاية قد تكون واقعة وقد تكون غير واقعة، وإذا كانت واقعة فليست دليلًا؛ لأن هذا قد يكون صادف القضاء والقدر في قضاء حاجته، وليس سببه الميت، أو يكون هذا من باب الابتلاء والامتحان والفتنة والعياذ بالله، فحصول الحاجة ليس دليلًا، إنما الدليل من الكتاب، والسنة، أو من إجماع الأمة، أما الحكايات والمنامات والأحلام؛ أن فلانًا رُئي في المكان الفلاني، وأنه يقول كذا وكذا، فالرؤية لا يُبنى عليها حكم شرعي، إلا رؤيا الأنبياء

-عليهم الصلاة والسلام-؛ لأنها نوع من الوحي، أما رؤيا غيرهم فلا يُبنى عليها حكم.

الناحية الثالثة: أن الأحكام انتهت بوفاة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانتهى التشريع، قال تعالى قبل موت الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمدة يسيرة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فما توفي الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا بعد كمال الدين، فلا يأتي أحد بعده بزيادة، ويقول: هذه من الدين، هذه زيادة خير. والبدعة كلها شر، وليست خيرًا، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[1]. فالبدعة شر ليست خيرًا، والخير في الاتباع لا في الابتداع.

قوله: (فَهَذَا كُلُّهُ مِنْ الشَّيْطَانِ). كل هذه الحكايات، والمنامات، والأحاديث المكذوبة المنسوبة إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الشيطان، يأمرهم بها، ويسوغها لهم، ويروجها أعوان الشيطان من بني آدم من دعاة الضلال، فهناك شياطين من الجن وشياطين من الإنس ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]، يغرون الناس بذلك.

قوله: (وَفِيهِمْ مَنْ يَنْظِمُ الْقَصَائِدَ فِي دُعَاءِ الْمَيِّتِ وَالِاسْتِشْفَاعِ بِهِ وَالِاسْتِغَاثَةِ، أَوْ يَذْكُرُ ذَلِكَ فِي ضِمْنِ مَدِيحِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ). نظم القصائد في الاستغاثة بالأموات موجود في كتبهم ودواوينهم الشعرية؛ من أجل أن

---

(١) هذا جزء خطبة الحاجة التي كان يقولها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين يدي حاجته، تقدم تخريجها (ص١٠).

يغروا الناس بذلك، وتروج هذه القصائد وهذه الكتب بين الناس، بما فيها من غلو وشر وشرك وطوام، يتناقلونها كأنها وحي منزل والعياذ بالله، ويقرؤونها في مجالسهم وحفلاتهم. كالبوصيري في البردة، والهمزية، وغيره من الشعراء القبورية والمبتدعة، يمدحون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهم قصائد شركية يدعون فيها إلى الشرك، ويجبذونه بأثواب من الشعر الذي يكون فيه أسلوب جذاب، فإذا قرأها الجاهل اغتر بها، لاسيما إذا كانت من نظم فلان الذي يزعمون أنه عالم وإمام، وهذه مصائب والعياذ بالله، ونحن عندنا الكتاب والسنة والحمد لله، ما عندنا قصائد، أو مدائح، أو حكايات، أو غير ذلك.

قوله: (وَفِيهِمْ مَنْ يَنْظِمُ الْقَصَائِدَ فِي دُعَاءِ الْمَيِّتِ وَالِاسْتِشْفَاعِ بِهِ وَالِاسْتِغَاثَةِ). هذا موجود في قصائد عباد القبور، ومطبوع بأحسن شكل وأحسن تخريج؛ ليغروا به الناس.

قوله: (أَوْ يَذْكُرُ ذَلِكَ فِي ضِمْنِ مَدِيحِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ). ويقولون: هذا من مدح النبي، ومن مدح الصالح. نعم المدح في الشيء الواقع لا بأس، وأما المدح الزائد والغلو في المدح فلا يجوز، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»[(١)]. ولما كان هناك منافق يؤذي المسلمين، قالوا: قوموا بنا نستغيث برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا المنافق، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ** عَزَّ وَجَلَّ»[(٢)]. ولما جاءه وفد بني عامر وقالوا له: يا سَيِّدَنا

---

(١) تقدم تخريجه (ص٩١).

(٢) تقدم تخريجه (ص٨٣).

وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَيَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا. قال ﷺ: «**لا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ**»(١). فنهاهم عن هذا القول، وهذا من سد الذرائع، وإن كان ﷺ هو سيد ولد آدم(٢)، لكن إن كان ذكر هذا من باب الغلو والإطراء، فلا يجوز.

قوله: (**فَهَذَا كُلُّهُ لَيْسَ بِمَشْرُوعٍ وَلَا وَاجِبٍ وَلَا مُسْتَحَبٍّ بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ**). ما ليس بواجب ولا مستحب فليس من دين الله إطلاقًا؛ لأن دين الله إما واجب، وإما مستحب، وهذه ليست واجبة، ولا مستحبة، بل هي محرمة شديدة التحريم، فإن أشد المحرمات هو الشرك، وهو أعظم ما نهى الله عنه، كما أن أعظم الواجبات هو التوحيد، وهو أعظم ما أمر الله به.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٩١).

(٢) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». أخرجه مسلم (٢٢٧٨).

وَمَنْ تَعَبَّدَ بِعِبَادَةٍ لَيْسَتْ وَاجِبَةً وَلَا مُسْتَحَبَّةً، وَهُوَ يَعْتَقِدُهَا وَاجِبَةً أَوْ مُسْتَحَبَّةً، فَهُوَ ضَالٌّ مُبْتَدِعٌ بِدْعَةً سَيِّئَةً لَا بِدْعَةً حَسَنَةً بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الدِّينِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُعْبَدُ إِلَّا بِمَا هُوَ وَاجِبٌ أَوْ مُسْتَحَبٌّ.

وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَذْكُرُونَ فِي هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مِنْ الشِّرْكِ مَنَافِعَ وَمَصَالِحَ، وَيَحْتَجُّونَ عَلَيْهَا بِحُجَجٍ مِنْ جِهَةِ الرَّأْيِ أَوْ الذَّوْقِ، أَوْ مِنْ جِهَةِ التَّقْلِيدِ وَالْمَنَامَاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَجَوَابُ هَؤُلَاءِ مِنْ طَرِيقَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: الِاحْتِجَاجُ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ.

وَالثَّانِي: الْقِيَاسُ وَالذَّوْقُ وَالِاعْتِبَارُ بِبَيَانِ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ الْفَسَادِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَلِكَ رَاجِحٌ عَلَى مَا يُظَنُّ فِيهِ مِنْ الْمَصْلَحَةِ.

الشَّرْح

من عبد الله بشيء لم يشرعه الله ولا رسوله، فهو مبتدع ضال، وبدعته ضلالة، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[(١)]. وليس هناك بدعة في الدين حسنة أبدًا، الدين كامل قبل وفاة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس بحاجة إلى الزيادات، والاستحسانات، والقصص، والحكايات، هذا كله باطل، وليس من الدين، وإن كانوا يزعمون أن هذه بدعة حسنة، نقول: لا، الدين ليس فيه بدعة حسنة، وإنما البدع في الدين كلها سيئة، وكلها

---

(١) هذا جزء خطبة الحاجة التي كان يقولها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين يدي حاجته، تقدم تخريجها (ص١٠).

ضلالة؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»، فكل محدثة شر وليست خيرًا، فيجب إقفال هذا الباب نهائيًا؛ حتى يُصان الدين من العبث وإدخال ما ليس منه.

قوله: (فَهُوَ ضَالٌّ مُبْتَدِعٌ بِدْعَةً سَيِّئَةً لَا بِدْعَةً حَسَنَةً). هذا رد على الذين يقولون: إن هذه بدعة حسنة، ويقسمون البدع إلى خمسة أنواع: بدعة واجبة، وبدعة مستحبة، وبدعة حسنة، وبدعة...، وهذا كله غلط، البدع في غير الدين أمور الدنيا هذه من المباحات، مثل: المراكب الجديدة، والأسلحة الجديدة، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ** ﴾ [الأعراف:٣٢]، هذه من المباحات، وأما الدين فليس قابلًا للبدع أبدًا، وليس فيه بدعة حسنة، بل البدع في الدين كلها سيئة.

قوله: (بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الدِّينِ). هذا حكاية للإجماع، فالذي يقول: هناك بدعة حسنة مخالف لإجماع الأئمة.

قوله: (فَإِنَّ اللهَ لَا يُعْبَدُ إِلَّا بِمَا هُوَ وَاجِبٌ أَوْ مُسْتَحَبٌّ). الله جَلَّ وَعَلَا لا يُعبد إلا بما شرع من واجب أو مستحب، وما لم يشرعه الله وجوبًا أو استحبابًا، فإنه بدعة، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنَا هذا ما لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[(١)]، وفي رواية: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيه أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[(٢)]. أي: مردود عليه لا يُقبل منه.

(١) تقدم تخريجه (ص١٠٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٠٣).

قوله: (**وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَذْكُرُونَ فِي هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مِنْ الشِّرْكِ مَنَافِعَ وَمَصَالِحَ...**). أي: يكون لهم حجج على هذه البدع، إما حكايات تُروى عن فلان أو فلان، وإما منامات وأحلام، وإما أن فلانًا فعل كذا وحصل له مقصوده وقضيت له حاجته، وكل هذه ليست أدلة، بل هي باطلة لا يُبنى عليها أحكام شرعية. وكذلك يقولون: هذا فيه مصلحة. نقول: لا، البدعة في الدين ليس فيها مصلحة، ليس فيها إلا مضرة؛ لأن الدين كامل، ما أهمل شيئًا فيه مصلحة للناس، ولو كان هناك شيء من العبادات أو من أمور الدين فيه مصلحة ولم يذكره الشارع، لكان هذا نقصًا في الشرع وتكذيبًا لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، فلم يترك الله شيئًا فيه مصلحة في الدين إلا وبيَّنه وأكمله قبل وفاة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (**وَيَحْتَجُّونَ عَلَيْهَا بِحُجَجٍ مِنْ جِهَةِ الرَّأْيِ**). فيقولون: هذا اجتهاد فلان، وقول فلان. وهذه مصيبة الآن يرددونها، ويقولون: المسألة فيها خلاف، وفيها أقوال، أنتم تقولون: هذا بدعة، وهذا شرك، ويوجد من يقول إن هذا سنة، وهذا مشروع، فما دام هناك من يقول هذا، فلا حرج علينا. نقول: ليست العبرة بالأقوال ولا بالاختلاف، إنما العبرة بما قام عليه الدليل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النساء:٥٩]، وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فسيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا**»، أي: أقوالًا ومذاهب كثيرة، فما الحل؟ «**فَعَلَيْكم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ**

المَهْدِيِّينَ من بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[١].

الحمد لله عندنا الميزان، وهو الكتاب والسنة، نزن به الأقوال والخلافات، فنأخذ ما قام عليه الدليل من الكتاب والسنة، ونترك ما خالف الدليل، وإن قال به فلان أو علان، فإن كان متعمدًا فهو ضال مضل، وإن لم يكن متعمدًا فهو مجتهد مخطئ، ولا يجوز لنا أن نأخذ الخطأ ولو كان قائله من الأئمة؛ لأنه لم يتعمد، وإنما اجتهد وأخطأ، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ اثْنَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ»**[٢]. فهو مأجور في نفسه، لكن لا يجوز لنا نحن أن نأخذ الخطأ، ونقول: فلان مأجور. هو معذور، وأنت ليس لك عذر؛ لأنك تعرف أن هذا خطأ، فلا يجوز لك أنك تأخذه، وأيضًا: هذا إنما هو في مسائل الفقه القابلة للاجتهاد، أما مسائل العقيدة فتوقيفية مبنية على الكتاب والسنة، ليس فيها اجتهاد ولا اختلاف بين السلف وأتباعهم، إنما أتى الاختلاف بعد القرون المفضلة من المبتدعة والفرق الضالة، كالجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة، والصوفية، والقبورية إلى آخره، وهؤلاء لا عبرة بخلافهم ولا بأقوالهم.

قوله: (أَوْ الذَّوْقِ). والذوق من اصطلاحات الصوفية، أي: ما ساغ لهم عملوا به واعتبروه دينًا؛ لأن ذوقهم يدل على هذا، وهذا ليس عبرة، فالإنسان قد يستحسن الشرك، والبدع، والكفر، والاستحسان في الذوق

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم واللفظ له (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ليس دليلًا ما دام أنه مخالف للكتاب والسنة، فمثلًا: ما عليه الصوفية من العبادات والاصطلاحات الصوفية هذه كلها أذواق ومواجيد ليست مشروعة وليست دليلًا، وإن كانوا يستحسنونها.

قوله: (أَوْ مِنْ جِهَةِ التَّقْلِيدِ وَالْمَنَامَاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ). التقليد أصاب كثيرًا من الناس اليوم، يقولون: ما دام قال به فلان فنحن نتبعه، وهذا إذا صار يوافق هواهم، وإلا لو خالف هواهم ما اتبعوه، ولو كان القائل به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أرادوه؛ لأنهم يعرضون عما خالف هواهم، لكن إذا وافق هواهم -ولو كان أضعف الأقوال وأشذ الأقوال- قالوا: هذا صحيح، وفلان إمام، وفلان عالم جليل، كيف نترك كلامه؟! ذلك لأنه يوافق هواهم.

قوله: (وَجَوَابُ هَؤُلَاءِ مِنْ طَرِيقَيْنِ). لما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مستنداتهم واعتماداتهم في هذه الأمور، أراد أن يرد عليهم.

قوله: (أَحَدُهُمَا الِاحْتِجَاجُ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ). أحدهما: أنه لا حجة في هذه الأشياء، وإنما الحجة بالنص، والنص يشمل الكتاب والسنة، والثالث الإجماع، هذه أصول الأدلة المتفق عليها: الكتاب، والسنة، والإجماع.

قوله: «وَالثَّانِي الْقِيَاسُ وَالذَّوْقُ وَالِاعْتِبَارُ بِبَيَانِ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْفَسَادِ». أنتم تقولون: إن الذوق يدل على أنه جائز؛ لأننا نتلذذ به، ونطمئن إليه، نقول: هذا ليس بدليل؛ لأن هناك أكثر منكم يرونه مرًّا وطعمه قبيح وليس حلوًا، فإذا احتججنا بالذوق، لوجدنا كثيرين يرونه قبيحًا أو غير سائغ، فليس الذوق دليلًا، إنما الدليل هو النص أو الإجماع.

قوله: (**فَإِنَّ فَسَادَ ذَلِكَ رَاجِحٌ عَلَى مَا يُظَنُّ فِيهِ مِنْ المَصْلَحَةِ**). المصلحة لاتعتبر إلا في ما إذا كانت راجحة على المفسدة، أما إن كانت مرجوحة أو مساوية للمفسدة، فلا تعتبر، فالأقسام ثلاثة:

الأول: مصلحة راجحة.

الثاني: مفسدة راجحة.

الثالث: متساويتان.

فالمصلحة الراجحة يؤخذ بها، وتعتبر المفسدة مرجوحة، أما المفسدة الراجحة أو مساوية فلا يؤخذ بهما.

أَمَّا الْأَوَّلُ فَيُقَالُ: قَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ وَالتَّوَاتُرِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ وَبِإِجْمَاعِ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِوَاجِبٍ وَلَا مُسْتَحَبٍّ. وَعُلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ ﷺ بَلْ وَلَا أَحَدٌ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ شَرَعُوا لِلنَّاسِ أَنْ يَدْعُوا الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَلَا يَسْتَشْفِعُوا بِهِمْ، لَا بَعْدَ مَمَاتِهِمْ وَلَا فِي مَغِيبِهِمْ، فَلَا يَقُولُ أَحَدٌ: يَا مَلَائِكَةَ اللهِ اشْفَعُوا لِي عِنْدَ اللهِ، سَلُوا اللهَ لَنَا أَنْ يَنْصُرَنَا أَوْ يَرْزُقَنَا أَوْ يَهْدِيَنَا. وَكَذَلِكَ لَا يَقُولُ لِمَنْ مَاتَ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ: يَا نَبِيَّ اللهِ يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ لِي، سَلْ اللهَ لِي، اسْتَغْفِرْ اللهَ لِي، سَلْ اللهَ لِي أَنْ يَغْفِرَ لِي أَوْ يَهْدِيَنِي أَوْ يَنْصُرَنِي أَوْ يُعَافِيَنِي، وَلَا يَقُولُ: أَشْكُو إِلَيْك ذُنُوبِي، أَوْ نَقْصَ رِزْقِي، أَوْ تَسَلُّطَ الْعَدُوِّ عَلَيَّ، أَوْ أَشْكُو إِلَيْك فُلَانًا الَّذِي ظَلَمَنِي.

الشَّرح

قوله: (أَمَّا الْأَوَّلُ فَيُقَالُ: قَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ وَالتَّوَاتُرِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ).

هذا الذي تفعلونه أيها المبتدعة، يا من تعبدون القبور وتستغيثون بالأموات، هو بالإجماع ليس بواجب ولا مستحب. إذًا: هو خارج عن الدين؛ لأن الدين إما واجب أو مستحب، وهذا ليس بواجب ولا مستحب، فهو زيادة، والزيادة في الدين مردودة وبدعة.

قوله: (وَعُلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ ﷺ بَلْ وَلَا أَحَدٌ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ شَرَعُوا لِلنَّاسِ أَنْ يَدْعُوا الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ وَلَا يَسْتَشْفِعُوا بِهِمْ).

عُلم بالاضطرار، ومن الكتاب، والسنة، والإجماع أن الأنبياء لم يشرعوا دعاء غير الله، ولا الاستغاثة بالأموات والغائبين، وما كان كذلك فهو

باطل، والذي يقول: إن دعاء الأموات والصالحين والملائكة والأنبياء جائز، كلامه باطل؛ لأنه مخالف لإجماع الأنبياء، فالأنبياء كلهم يقولون: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، نفي وإثبات، مثل: «لا إله إلا الله»، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل:٢]، هذا الذي جاءت به الرسل، إخلاص العبادة لله، وترك عبادة ما سواه، وهذا هو الذي شرحه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: (لَا بَعْدَ مَمَاتِهِمْ وَلَا فِي مَغِيبِهِمْ). الميت لا يقدر على الإجابة، والغائب لا يسمعك، ولو سمعك لا يقدر على إجابتك وهو بعيد عنك، أما الحي الحاضر الذي يقدر على مساعدتك، فلا بأس أن تستنجد به إذا احتجت إليه، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَاللهِ في عَوْنِ الْعَبْدِ ما كان الْعَبْدُ في عَوْنِ أَخِيهِ**»(١). وقال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢]، فطلب العون من المخلوق إذا كان قادرًا على ما يُطلب منه، وهو حيٌّ حاضرٌ عند المحتاج فلابأس بذلك، أما الاستغاثة بالأموات، أو بالغائبين فهو أمر لا يجوز.

قوله: (فَلَا يَقُولُ أَحَدٌ: يَا مَلَائِكَةَ اللهِ اشْفَعُوا لِي عِنْدَ اللهِ، سَلُوا اللهَ لَنَا أَنْ يَنْصُرَنَا أَوْ يَرْزُقَنَا أَوْ يَهْدِيَنَا). لأن الملائكة غائبون لا يراهم، فكيف يستنجد بمن لا يراه؟

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٤٦)، والترمذي (٤/ ٣٤)، وابن ماجه (٢٢٥)، وابن حبان (٢/ ٢٩٢)، والحاكم (٤/ ٣٨٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (وَكَذَلِكَ لَا يَقُولُ لِمَنْ مَاتَ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ: يَا نَبِيَّ اللهِ...).
الميت لا يقدر على شيء، انتهى عمله، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ**»(١)، وأنتم تقولون: لا .. لم ينقطع عمله، ويقدر أن يغيث من يستغيث به، ويساعد من يحتاج إلى مساعدة، ويجيب من يسأله، وهذا كذب على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: (ادْعُ اللهَ لِي). وهذا -أيضًا- فيه رد على من سبق أن ذكرنا أنهم يقولون: إن طلب الشفاعة من الرسول، أو من أي ميت ليس بشرك، وإنما هو محرم وبدعة فقط، وهذا كلام باطل.

ومن العجيب والانتكاس أن تطلب من إنسان ميت قضاء حوائجك، ولا تطلبها من الله، والله قريب مجيب، وغني كريم، وأمرك أن تدعوه، ووعدك أن يستجيب لك، فلماذا تعدل عن الله، وتذهب إلى ميت؟! هذا من انتكاس الفطر والعياذ بالله، ومن تزيين شياطين الإنس والجن، يقولون: إنهم صالحون. نعم صالحون، لكن صلاحهم لأنفسهم، وأنت لا علاقة لك بصلاحهم، ليس لك إلا عملك، قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٣٤]، ليس لك علاقة بصلاحهم، ولا تسأل الله بأعمالهم، إنما تسال الله بعملك أنت، فلا تتوسل إلى الله بعمل غيرك وصلاح غيرك.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٨).

قوله: (**وَلَا يَقُولُ: أَشْكُو إِلَيْك ذُنُوبِي**). يشكون ذنوبهم إلى المخلوق، إلى الرسول، أو إلى غيره، فيأتون عند القبر، أو يكتبون للرسول، أو يؤلفون في مؤلفاتهم وقصائدهم يخاطبون الرسول، ويشكون إليه، وينتصرون به على الأعداء، ولا يرد ذكر الله على ألسنتهم والعياذ بالله، ولا يستغيثون بالله في الشدائد، وإنما يستغيثون بالمخلوقين.

قوله: (**أَوْ تَسَلَّطَ الْعَدُوِّ عَلَيَّ**). وهذا خلاف ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، كانوا إذا أصابت المسلمين مصائب من تسلط الأعداء، وغزو الجيوش المداهمة، يدعون الله عَزَّوَجَلَّ ويلجأون إليه، ولم يستنجدوا بالرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أبدًا، وما ذُكر عنهم أنهم استغاثوا بالرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعد موته، أو جاءوا عند قبره واستغاثوا به.

قوله: (**أَوْ أَشْكُو إِلَيْك فُلَانًا الَّذِي ظَلَمَنِي**). أتجعل الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يحكم بينك وبين فلان بعدما مات؟! اذهب إلى خلفائه الأحياء، وهم الحكام والقضاة، واشك إليهم الظالم، واطلب منهم إنصافك منه، أما الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فلا يملك لك شيئًا حتى تشكو إليه الظلمة، وتطلب منه الانتصار للمظلومين، من أصابته مظلمة يذهب إلى ولاة أمور المسلمين وعلمائهم وقضاتهم، ويطلب إنصافه من فلان، هذا هو الطريق الصحيح.

وَلَا يَقُولُ: أَنَا نَزِيلُك، أَنَا ضَيْفُك، أَنَا جَارُك، أَوْ أَنْتَ تُجِيرُ مَنْ يَسْتَجِيرُ، أَوْ أَنْتَ خَيْرُ مُعَاذٍ يُسْتَعَاذُ بِهِ. وَلَا يَكْتُبُ أَحَدٌ وَرَقَةً وَيُعَلِّقُهَا عِنْدَ الْقُبُورِ، وَلَا يَكْتُبُ أَحَدٌ مَحْضَرًا أَنَّهُ اسْتَجَارَ بِفُلَانٍ، وَيَذْهَبُ بِالْمَحْضَرِ إِلَى مَنْ يَعْمَلُ بِذَلِكَ الْمَحْضَرِ.

الشَّرح

قوله: **(وَلَا يَقُولُ: أَنَا نَزِيلُك، أَنَا ضَيْفُك)**. فلا يتوسل إلى الرسول ﷺ أنه بالقرب منه، وأنه ضيفه، أو في جواره أو رحابه، أو غير ذلك من الأباطيل والترهات، هذا كله لا يُجدي شيئًا، إنما الذي يُجدي اتِّباع الرسول ﷺ، سواء كنت في المدينة، أو في الأندلس، أو في أي مكان من مشارق الأرض ومغاربها، المقصود اتِّباع الرسول ﷺ، اتِّباع الكتاب والسنة، وأما القرب قبر الرسول ﷺ فلا يُجدي شيئًا، الصحابة كانوا قريبين من قبره ليس بينهم وبين قبره إلا أمتار، وتصيبهم الشدائد، وتعرض لهم المشكلات من الوقائع، وما كانوا يذهبون إلى القبر، ويقولون: نحن قريبون من قبر الرسول، إنما كانوا يدعون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويطلبون من الحي من صالح الأحياء أن يدعو لهم، وهذا شيء مشروع، وسيأتي هذا في كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

هذا الذي كان يعمله السلف عندما تشتد بهم الأمور، وما كانوا يتركون الجهاد، ويقولون: نحن في جناب الرسول ﷺ، ونحن عند قبر الولي الفلاني، فهو يدافع عنَّا، بل كانوا يجاهدون، يجهزون الجنود، ويعدون

العتاد والأسلحة. علافًا لما عليه القبوريون وأهل الضلال الذين يستغيثون بالأموات؛ حتى إن بعضهم يقول في بعض قبور الأولياء: أنا شاهدت المدافع تنطلق من قبره نحو العدو! هل هذا يقوله عاقل؟! حتى المجنون لا يقول مثل هذا الكلام، نسأل الله العفو والعافية. لكن هؤلاء ذهبت عقولهم، ويريدون أن يروجوا على العوام ويضلوهم عن سبيل الله عَزَّوَجَلَّ بمثل هذه الخرافات الضائعة، كل هذا خذلان من الله عَزَّوَجَلَّ، فمن أعرض عن الكتاب والسنة يُبتلى بمثل هذه الخرافات والترهات والأباطيل.

قوله: (أَوْ أَنْتَ خَيْرُ مُعَاذٍ يُسْتَعَاذُ بِهِ). هذا يقولونه في أشعارهم، يستعيذون بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويستنجدون به في أشعارهم بعد موته، ولايستعيذون أو يستغيثون بالله عَزَّوَجَلَّ، وهذا من الانتكاس والعياذ بالله، بل لا يرد ذكر الله على ألسنتهم في الهتافات والاستنجادات، ينسون الله عَزَّوَجَلَّ وتتعلق قلوبهم بغيره، ويظنون أنه يخلصهم من الشدائد. ومن أكاذيبهم أنهم يقولون عن الرفاعي(١): إنه لما جاء إلى قبر الرسول سلَّم عليه، فأخرج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده من القبر وصافحه! ما هذا الكذب والافتراء؟! الرسول ما أخرج يده لأبي بكر صدِّيق الأمة وخير الأمة، ولا أخرجها لعمر

---

(١) هو: أحمد بن علي بن أحمد بن يحيى أبو العباس الرفاعي، المغربي، ثم البطائحي، ولد سنة خمسمائة، قال عنه الذهبي: «تفقه قليلًا على مذهب الشافعي، وكان إليه المنتهى في التواضع والقناعة ولين الكلمة... ولكن أصحابه فيهم الجيد والرديء، وقد كثر الزغل فيهم، وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التتار العراق؛ من دخول النيران، وركوب السباع، واللعب بالحيات. وهذا ما عرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه، فنعوذ بالله من الشيطان». توفي سنة سنة ثمان وسبعين وخمسمائة. انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٦/ ٢٣)، ووفيات الأعيان (١/ ١٧١)، والعبر في خبر من غبر (٣/ ٧٥).

فاروق الأمة، ولا لعثمان ذي النورين، ولا لعلي، ولا لغيرهم من الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين-، أيترك خيار هذه الأمة ويخرجها للرفاعي؟! هذا من الكذب المفضوح والعياذ بالله.

لكن العجيب كيف يُكتب هذا ويسجل في الكتب، ويضحك عليه الناس والعقلاء، لكن أبى الله إلا أن يفضحهم، فسجلوه في كتبهم ومؤلفاتهم.

قوله: (وَلَا يَكْتُبُ أَحَدٌ وَرَقَةً وَيُعَلِّقُهَا عِنْدَ الْقُبُورِ). أو بعضهم يرسل ورقة إذا لم يذهب إلى المدينة مع الحجاج، ويقول: ضعوها في شبك القبر، ويكتب فيها: يا رسول الله إني في حاجة، وإني في كذا وفي كذا، ويطلب من الرسول، ولا يزال حتى الآن توجد رسائل مكتوبة تُلقى في شبك القبر.

وأيضًا: في عرفة -وهذا شيء شاهدناه وشاهده غيرنا- يأتون على الجبل، ويعلقون خرقًا أو أوراقًا في شجر الجبل، أو يكومون أتربة وحصى، ويقولون: هذه علامة على مجيئنا، ونحن أتينا لحاجات، وهذا كله من الخرافات، أما ذكر الله فليس له مكان في قلوبهم ولا على ألسنتهم والعياذ بالله، إنما يتعلقون بالجمادات والأموات والغائبين.

كيف ذلك وقد أتوا حاجين بيت الله الحرام؟ والحج مبني على التوحيد، وهم يقولون كما يقول الحجيج عند الإحرام: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لاشريك لك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»، يكررونها، ومع هذا يثبتون الشريك لله عَزَّوَجَلَّ في أعمالهم وتصرفاتهم، فأين العقول، فضلًا عن الدين، فضلًا عن العلم؟!

كل هذا غاب عنهم والعياذ بالله، ووراءهم من يؤزهم على هذا الشيء، بل ويذهب معهم، ويقودهم، ويطوفهم، ويسمونه المطوف، يطوف بهم على هذه الأشياء، ويزعمون أن هذا من الحج، ومن العمرة، ومن الزيارة؛ من أجل أن يأخذوا أموالهم، وما هذا إلا خيانة لهم، وكان الواجب عليهم إذا كانوا يخافون الله أن يقولوا: اجلسوا في المسجد الحرام، طوفوا بالبيت، ارفعوا أكفكم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفروا عليكم أموالكم من أجل أن تنفقوها في مصالحكم، لا تضيعوها في الشرك، لكن هؤلاء خونة، وهم الذين أهلكوا الناس بهذه الطريقة.

وقد يأتي بعضهم ويصعد جبل حراء، من الذي يصعد جبل حراء؟ يمكن كبير السن أو عجوز كبيرة تصعد جبل حراء، وتصل إلى الغار بزعمهم، ويأخذ يومًا وهو يصعد، وبعضهم يموت أثناء الطريق، وقد يكون الجبل ملتهبًا في الرمضاء، يقولون: تريد الجنة امش، ولا أعلم كيف تروج على عقولهم؟! وقد يسر الله لك أن تطوف سبعة أشواط بالبيت، وتصلي ركعتين، وتجلس في المسجد الحرام، وتتلو القرآن، وتصلي الفريضة، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَضْلُ الصَّلاةِ فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ عَلَى غَيْرِهِ مِائَةُ أَلْفِ صَلاةٍ**»[1]. ثم تترك هذا كله وتذهب لتصعد جبل حراء، وتأخذ يومًا كاملاً،

(١) أخرجه البزار في كشف الأستار (١/ ٢١٢) برقم (٤٢٢)، وابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٣٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٨٥) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٧): «رواه الطبراني في الكبير، ورجاله ثقات، وفي بعضهم كلام، وهو حديث حسن». ويشهد له حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هذا أَفْضَلُ من أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إلا المَسْجِدَ الحَرَامَ**». أخرجه البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٩٤).

وقد تموت قبل أن تنزل، وتنقطع وأنت آثم والعياذ بالله، لكن أين العقول التي تحضر عند هؤلاء؟ أظنهم يمشون بلا عقولهم.

كونك تجلس في المسجد الحرام في الأروقة عند المراوح والمكيفات والبرادات، تدعو الله وتصلي، أو تذهب لجبل النور؟! الله ما أمرك أن تذهب لجبل النور، ولا رسوله أمرك بذلك، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كان يذهب إلى جبل النور بعد البعثة، إنما كان يذهب إليه قبل البعثة؛ لأجل أن يخلو عن الناس؛ لأنه لا يوجد إلا مشركون، وأوثان، وأصنام، وهو كان يحب أن ينعزل عنهم، لكن لما أعزَّ الله الإسلام، وهُدِّمت الأصنام، وطهر البيت الحرام ومكة المشرفة ما كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذهب إلى غار حراء، ولا أحد من أصحابه ذهب إلى غار حراء، ولا إلى غار ثور، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما ذهب إلى غار ثور من باب التعبد، وإنما ذهب إليه من باب الحاجة؛ لأجل الاختفاء عن المشركين، وجبل ثور جنوب مكة، وطريق الهجرة من الشمال، ذهب جنوبًا لأجل أن يخدعهم ولا يعلمون أين ذهب، ولما فتح الله عليه مكة، وصارت بلد إسلام ما كان يذهب إلى غار ثور؛ لأنه أمر عادي وليس بأمر تعبدي، ومن الأخذ بالأسباب النافعة لا من باب التعبد.

قوله: **(وَلَا يَكْتُبُ أَحَدٌ مَحْضَرًا أَنَّهُ اسْتَجَارَ بِفُلَانٍ، وَيَذْهَبُ بِالْمَحْضَرِ إِلَى مَنْ يَعْمَلُ بِذَلِكَ الْمَحْضَرِ)**. بعضهم يأتي عند الولي -وهو في الحقيقة طاغوت، ولكن يسمي نفسه وليًّا- ويكتب محضرًا أني حضرت، وأشهد يا فلان وفلان أني حججت، أو أن فلانًا حجَّ في عام كذا وكذا، أو اعتمر في عام كذا وكذا، ويختم عليه هذا الطاغوت، ويصير محضرًا معه ومستندًا، فهل الله يجحد عباده

حتى تأخذ معك محضرًا أو صكًّا من هذا الطاغوت؟! لكن هذا من أجل التضليل، ومن أكل أموال الناس بالباطل، وهذا كان موجودًا عند النصارى الذين عبدوا المسيح وأمه، ووجد في هذه الأمة من يفعل هذا اقتداءً بهم والعياذ بالله، يكتب محضرًا وإثباتًا أنه حج أو اعتمر، أتثبت على الله عَزَّوَجَلَّ، وأنت ما يدريك أنه حج مقبول، أو عمرة مقبولة، هذا لا يحتاج إلى كتابة أو إثبات صك، أو توقيع وختم من الطاغوت، هذا بينك وبين الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد رأينا شيئًا من هذا؛ رأينا أناسًا معهم صكوك وقد وقع عليها بعض الطواغيت أنهم حجوا واعتمروا.

وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَفْعَلُهُ أَهْلُ الْبِدَعِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُسْلِمِينَ، كَمَا يَفْعَلُهُ النَّصَارَى فِي كَنَائِسِهِمْ، وَكَمَا يَفْعَلُهُ الْمُبْتَدِعُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ أَوْ فِي مَغِيبِهِمْ، فَهَذَا مِمَّا عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ وَبِالنَّقْلِ الْمُتَوَاتِرِ وَبِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَشْرَعْ هَذَا لِأُمَّتِهِ. وَكَذَلِكَ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَهُ لَمْ يَشْرَعُوا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، بَلْ أَهْلُ الْكِتَابِ لَيْسَ عِنْدَهُمْ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ نَقْلٌ بِذَلِكَ، كَمَا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمْ عَنْ نَبِيِّهِمْ نَقْلٌ بِذَلِكَ، وَلَا فَعَلَ هَذَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ نَبِيِّهِمْ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا اسْتَحَبَّ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ لَا الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ وَلَا غَيْرُهُمْ، وَلَا ذَكَرَ أَحَدٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ لَا فِي مَنَاسِكِ الْحَجِّ وَلَا غَيْرِهَا أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ قَبْرِهِ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ، أَوْ يَدْعُوَ لِأُمَّتِهِ، أَوْ يَشْكُوَ إِلَيْهِ مَا نَزَلَ بِأُمَّتِهِ مِنْ مَصَائِبِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ.

الشَّرْح

قوله: (**كَمَا يَفْعَلُهُ النَّصَارَى فِي كَنَائِسِهِمْ**). النصارى إذا أخطأوا أو أساءوا أو أذنبوا يذهبون إلى القساوسة يطلبون منهم المغفرة، فإذا غفروا لهم انتهت المشكلة، هذا شيء موجود في كنائسهم يسمونه التوبة، أي: لا تقبل توبتهم إلا عند هذا الطاغوت ، ولابد أن يعطيك إثباتًا أنك تائب. مع أن التوبة بابها مفتوح، لا تحتاج أن تذهب لأحد لكي تُقبل توبتك، ارفع يديك إلى الله في الليل أو النهار، وتب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، واستغفره في أي مكان، والله قريب مجيب يسمع ويرى ويعلم أحوال عباده، فلا تذهب إلى أحد لتطلب

منه التوبة والمغفرة، لا إلى قسيس، ولا إلى طاغوت يدَّعي أنه وليٌّ من أولياء الله، بل ارفع يديك وأنت في مكانك من برٍّ أو بحر أو أي مكان، وتب إلى الله عَزَّوَجَلَّ واستغفره في ليل أو نهار، فليس للتوبة وقت أو مكان محدد ولا شخص محدد.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤]، فهذه قضية خاصة في وقت الرسول، نزلت هذه الآية في أناس أساءوا إلى الرسول؛ حيث طلبوا التحاكم إلى غيره إلى كعب بن الأشرف، فبين الله لهم أنهم لو جاءوا وطلبوا من الرسول أن يسامحهم عن خطئهم في حقه وسامحهم لعفا الله عنهم(١). أما بعد موته فلا يُذهب إلى قبره، وليس هناك أحد من الصحابة ذهب يستغفر عند قبره أبدًا، ما فعل ذلك أحد من الصحابة ولا من السلف الصالح ولا من الأئمة، فدل على أن الآية لا عموم لها، وإنما هي في قضية خاصة في حياة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وانتهت.

قوله: (فَهَذَا مِمَّا عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ وَبِالنَّقْلِ الْمُتَوَاتِرِ وَبِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **لَمْ يَشْرَعْ هَذَا لِأُمَّتِهِ)**. أبدًا الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما شرع لنا أن نذهب إلى القبور، وندعو عندها ونستغفر عندها، بل نهى صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن الصلاة عند القبور، والدعاء عند القبور، ونهى عن تعظيم القبور بالبناء، أو بالكتابة، أو بالسرج، أو بالأطياب التي تُرش على القبور

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٥١٧)، وتفسير القرطبي (٥/ ٢٦٣)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٦).

من باب الدعاية لها، ونهى عن تجصيصها، وتلوينها بالألوان، كل هذا نهى عنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ سدًّا لوسائل الشرك.

والقبر يبقى كما دُفن عليه ترابه ونصائبه كما كانت قبور الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بل قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل الخلق بقي عليه ترابه ونصائبه كما دُفن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يوضع عليه أشياء.

قد يقول قائل: إن قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيته أو في المسجد؟

نقول: إن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُفن في بيته، وليس عقب ما دُفن بُني عليه، وإنما هو بناء قائم موجود، ومنزل مسكون دُفن فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حماية له من الغلو، فكيف يكون الحال لو أُبرز قبر الرسول، وصار في الخارج؟ ماذا يحصل عنده من الاقتتال والزحام؟

فمن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أنه صانه، استجابة لدعاء رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث قال: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»[(١)]. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا**»، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فَلَوْلَا ذَاكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»[(٢)].

---

(١) أخرجه مالك في الموطإ (١/ ١٧٢) برقم (٤١٤)، وابن عبد البر في التمهيد (٥/ ٤١) من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار مرفوعًا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخرجه عبد الرزاق (١/ ٤٠٦)، وابن أبي شيبة (٢/ ١٥٠)، وفيه: «وثنًا يُصلى إليه»، وليس فيه عطاء ابن يسار، وأخرجه أحمد (٢/ ٢٤٦) وليس فيه: «**يُعْبَد**»، والحميدي في مسنده (٢/ ٤٤٥)، والديلمي في الفردوس (١/ ٤٩٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

فَـأَجَـابَ رَبُّ الْـعَـالَمِـينَ دُعَـاءَهُ وَأَحَـاطَـهُ بِـثَـلَاثَـةِ الْجُـدْرَانِ
حَـتَّـى غَـدَتْ أَرْجَـاؤُهُ بِـدُعَـائِـهِ فِي عِـزَّةٍ وَحِمَـايَـةٍ وَصِـيَـانِ

قوله: (بَلْ أَهْلُ الْكِتَابِ لَيْسَ عِنْدَهُمْ عَنْ الْأَنْبِيَاءِ نَقْلٌ بِذَلِكَ). أهل الكتاب إنما عملوا هذا من اختراعهم وافترائهم على الأنبياء، ليس في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في غيرها من الكتب السابقة شيء من هذه الخرافات، والتعلق بالأموات والأضرحة.

قوله: (كَمَا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمْ عَنْ نَبِيِّهِمْ نَقْلٌ بِذَلِكَ، وَلَا فَعَلَ هَذَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ نَبِيِّهِمْ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ). ليس عند المسلمين نقل بأن القبر الفلاني، أو قبر الرسول، أو غيره، ينفع ويضر، وأنه يُعبد الله عنده، ويُدعا عنده، أو أن يُطلب من الرسول أو من غيره شيء بعد موته، هذا لا يوجد في الكتاب والسنة قطعًا، ولا يوجد في عمل الصحابة والتابعين لهم بإحسان، إنما يوجد في عمل المخرفين، وفي كتب المخرفين الذين ليس عندهم إلا أحاديث مكذوبة، أو قصص خيالية، أو رؤى وأحلام، أو غير ذلك من الترهات والأباطيل.

قوله: (وَلَا اسْتَحَبَّ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ لَا الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ وَلَا غَيْرُهُمْ، وَلَا ذَكَرَ أَحَدٌ مِنْ الْأَئِمَّةِ لَا فِي مَنَاسِكِ الْحَجِّ وَلَا غَيْرِهَا أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ قَبْرِهِ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ، أَوْ يَدْعُوَ لِأُمَّتِهِ، أَوْ يَشْكُوَ إِلَيْهِ مَا نَزَلَ بِأُمَّتِهِ مِنْ مَصَائِبِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ). نعم، ما ذكر ذلك أحد

---

(١) انظر: نونية ابن القيم (ص٢٥٢).

من الأئمة في مؤلفاته، **وقوله**: (أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ) ليس القصد منه كل مؤلف أو كاتب، وإنما الأئمة المعتبرون، كالأئمة الأربعة وغيرهم من الأئمة المعتبرين، لا يوجد في كتبهم شيء من هذا، إنما يوجد هذا في كتب المخرفين، وهذه ليست عبرة، فمن أراد أن يأتي بكلام من كلام الأئمة، فهذه كتبهم موجودة، فليأتي لنا بنقل عن أبي حنيفة، عن مالك، عن الشافعي، عن أحمد، عن الأوزاعي، عن الثوري، عن إسحاق بن راهويه(١)، عن يحيى بن معين(٢)، ولن يجد شيئًا، إنما هذا في كتب المخرفين، وليس في كتب أهل العلم والثقات، ومناسكهم التي كتبوها للحج والعمرة ليس فيها إلا وصف الحج والعمرة، وما يفعله الحاج والمعتمر على وفق السنة، ليس فيها شيء مخالف للسنة أبدًا.

الذي في كتب الأئمة هو أنك تزور القبر، وتسلم على الرسول ﷺ وصاحبيه، كغيره من القبور، هذا الذي ورد في كتب الأئمة سلام فقط، وهذا الذي فعله الصحابة إذا قدم أحدهم من سفر يسلم على الرسول ﷺ وصاحبيه، أما من كان مقيمًا في المدينة، فلا يتردد على القبر للسلام، فكيف للتبرك، أو للدعاء؟

---

(١) هو: أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد المروزي، ابن راهويه، يروي عن جرير، والدراوردي، ومعتمر، وعنه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وغيرهم، توفي سنة ثمان عشرة ومائتين. انظر: طبقات الحنابلة (١/ ١٠٩)، وتاريخ بغداد (١/ ٢٤٤).

(٢) هو: يحيى بن معين بن عون بن زياد بن بسطام أبو زكريا المري البغدادي، الحافظ إمام المحدثين، يروي عن عباد بن عباد، وهشيم، وعنه البخاري، ومسلم، وأبو داود، وغيرهم، توفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين. انظر: تهذيب الكمال (٣١/ ٥٤٣)، والكاشف (٢/ ٣٧٦).

يسلم أول ما يقدم وكفى؛ لأن التردد عليه يجعله وثنًا، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»[(١)]، وقد قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا**»[(٢)]، أي: تعتادون وتترددون عليه وتجلسون عنده، نهى عن ذلك؛ لأنه وسيلة إلى الشرك والغلو.

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٤٢)، وأحمد (٢/ ٣٦٧)، وأبو يعلى (١/ ٣٦١)، والطبراني في الأوسط (٨/ ٨١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٩١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَكَانَ أَصْحَابُهُ يُبْتَلَوْنَ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْبَلَاءِ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَتَارَةً بِالْجَدْبِ، وَتَارَةً بِنَقْصِ الرِّزْقِ، وَتَارَةً بِالْخَوْفِ وَقُوَّةِ الْعَدُوِّ، وَتَارَةً بِالذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَأْتِي إِلَى قَبْرِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا قَبْرِ الْخَلِيلِ، وَلَا قَبْرِ أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَيَقُولُ: نَشْكُو إِلَيْك جَدْبَ الزَّمَانِ أَوْ قُوَّةَ الْعَدُوِّ أَوْ كَثْرَةَ الذُّنُوبِ، وَلَا يَقُولُ: سَلْ اللهَ لَنَا أَوْ لِأُمَّتِك أَنْ يَرْزُقَهُمْ أَوْ يَنْصُرَهُمْ أَوْ يَغْفِرَ لَهُمْ؛ بَلْ هَذَا وَمَا يُشْبِهُهُ مِنَ الْبِدَعِ الْمُحْدَثَةِ الَّتِي لَمْ يَسْتَحِبَّهَا أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَيْسَتْ وَاجِبَةً وَلَا مُسْتَحَبَّةً بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ.

وَكُلُّ بِدْعَةٍ لَيْسَتْ وَاجِبَةً وَلَا مُسْتَحَبَّةً فَهِيَ بِدْعَةٌ سَيِّئَةٌ، وَهِيَ ضَلَالَةٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَنْ قَالَ فِي بَعْضِ الْبِدَعِ: إِنَّهَا بِدْعَةٌ حَسَنَةٌ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ إِذَا قَامَ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ أَنَّهَا مُسْتَحَبَّةٌ، فَأَمَّا مَا لَيْسَ بِمُسْتَحَبٍّ وَلَا وَاجِبٍ فَلَا يَقُولُ أَحَدٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إِنَّهَا مِنْ الْحَسَنَاتِ الَّتِي يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللهِ.

وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَى اللهِ بِمَا لَيْسَ مِنْ الْحَسَنَاتِ الْمَأْمُورِ بِهَا أَمْرَ إِيجَابٍ وَلَااسْتِحْبَابٍ فَهُوَ ضَالٌّ مُتَّبِعٌ لِلشَّيْطَانِ، وَسَبِيلُهُ مِنْ سَبِيلِ الشَّيْطَانِ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا، وَخَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ، وَهَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٣)، وصححه ابن حبان (١/ ١٨٠)، والحاكم (٢/ ٢٦١)، ووافقه الذهبي.

الشَّرح

قوله: (وَكَانَ أَصْحَابُهُ يُبْتَلَوْنَ بِأَنْوَاعٍ مِنْ الْبَلَاءِ بَعْدَ مَوْتِهِ). ما كان أشد على المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ من ردة العرب، وصاروا يهددون المسلمين في المدينة، ومع ذلك لم يذهب الصحابة رضي الله عنهم إلى قبر الرسول ﷺ، وإنما أبو بكر رضي الله عنه جهز الجيوش لقتال المرتدين، ولم يذهب إلى الرسول، يقول: يا رسول الله أنقذنا، يا رسول الله نحن في شدة من بعدك. ما فعل ذلك خليفة الرسول ﷺ، ولا إخوانه من الصحابة رضي الله عنهم في أحلك الأحوال وأشدها.

فهذا من جملة الأدلة التي يُرد بها على من يتعلقون بالأموات في قبورهم، ويطلبون منهم الشفاعة، أو النصر، أو إنزال المطر، أو غير ذلك، أن الصحابة رضي الله عنهم لم يأتوا إلى قبر الرسول ﷺ حينما يشتد بهم أمر من الأمور، بل كانوا يقومون بهذا الأمر في شأنهم، ويعدون العدة بما يستطيعون، ويستعينون بالله عز وجل على كشف شدتهم، وإذا احتاجوا إلى دعاء من الصالحين يطلبون من الأحياء الحاضرين أن يدعوا لهم، فطلب الدعاء من الإنسان الصالح حال حياته وحضوره لا بأس به، وهو من الأسباب المشروعة، وقد قال النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه لما أراد العمرة: «**يَا أَخِي أَشْرِكْنَا فِي صَالِحِ دُعَائِكَ، وَلَا تَنْسَنَا**»(١)، والله جل وعلا يقول لنبيه: ﴿**وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ**﴾ [محمد:١٩]، وقال تعالى: ﴿**رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ**

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥٩)، وأبو يعلى (٩/ ٤٠٥)، والبيهقي في الكبرى (٥/ ٤١٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠]، فالدعاء مطلوب من الإنسان الحي لنفسه، ولإخوانه الأحياء والأموات، يدعو لهم الله جَلَّ وَعَلَا، ولا يدعو الأموات أو الغائبين بحجة أنهم أهل صلاح، فإنهم لا يملكون من الأمر شيئًا، قال الله جَلَّ وَعَلَا لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ [الجن:٢١]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ [يونس:٤٩].

فهذا أصل عظيم يزيل هذه الشبهة التي يتعلق بها عباد القبور، ومن قبلهم المشركون مع من يدعون من دون الله بحجة أنهم شفعاء عند الله، وأنهم يقربون إلى الله زلفى، لكن هل هناك من يعقل من هؤلاء؟ وإنما يعتمدون على خرافات، وحكايات، ومنامات، وأحلام شيطانية كما سبق، أو أنهم يقولون: إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، وليس لهم حجة في ذلك، فهذا واضح من فعل الصحابة، وهم أعلم الأمة، ما كانوا يذهبون إلى قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد كانت تنزل بهم شدائد من انحباس المطر، وتسلط العدو، ومشكلات العلم، ومع ذلك لم يكونوا يسألون الرسول في قبره، إنما كانوا يرجعون إلى الكتاب والسنة، ولا يذهبون للقبر، فهذا أمر يجب معرفته، إذا كان هذا لا يجوز مع قبر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف بغيره من القبور؟

هذا أمر لا يجوز، ولا يُطلب إلا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وطلب قضاء الحوائج، والدعاء، والشفاعة من الأموات شرك؛ لأنهم لا يقدرون على ذلك، ولم يكن هذا من عمل الأنبياء وأتباعهم أن يذهبوا إلى القبور عند الشدائد والحوائج، إنما كانوا يدعون الله عَزَّ وَجَلَّ، ويتضرعون إليه، ويفعلون

ما شرعه الله لهم من صلاة الاستسقاء، والدعاء، وصلاة الكسوف، وغير ذلك، والله قريب مجيب.

قوله: (**وَلَا قَبْرِ الخَلِيلِ**). أما قبر الخليل -وهو إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ- فلم يثبت في موضعه شيء، ولا غيره من قبور الأنبياء، لا يُعرف من قبور الأنبياء إلا قبر نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما غيره فإنما هي توهمات وتوقعات لا أساس لها.

قوله: (**فَيَقُولُ: نَشْكُو إِلَيْك جَدْبَ الزَّمَانِ أَوْ قُوَّةَ الْعَدُوِّ أَوْ كَثْرَةَ الذُّنُوبِ**). نعم، ما كانوا يذهبون في هذه الأمور إلى قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إنما يذهبون إلى الله، قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الذاريات:٥٠، ٥١]، فالفرار إلى الله جَلَّ وَعَلَا وليس للأموات.

قوله: (**وَلَا يَقُولُ: سَلْ اللهَ لَنَا أَوْ لِأُمَّتِك أَنْ يَرْزُقَهُمْ أَوْ يَنْصُرَهُمْ أَوْ يَغْفِرَ لَهُمْ**). لم يخاطب أحد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الرسول بعد وفاته بهذا، يقول: اسأل الله لأمتك، ادع الله لأمتك، ما كانوا يقولون هذا، إنما كانوا إذا قدموا من سفر يأتي أحدهم ويسلم على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سلام القادم من سفر، «السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته»، ويسلمون على أبي بكر، وعمر(١)، وينصرفون، وما كانوا يترددون كلما دخلوا المسجد يذهبون

---

(١) كما في الأثر عن نَافِعٍ، قَالَ: «كَانَ ابْنُ عُمَرَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ أَتَى قَبْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَتَاهُ» أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٥٧٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٢٨)، والبيهقي في الكبرى (٥/ ٤٠٢).

يسلمون على الرسول وصاحبيه، إنما هذا عندما يقدم أحدهم من سفر؛ كما هو في حال الحياة.

قوله: (بَلْ هَذَا وَمَا يُشْبِهُهُ مِنَ الْبِدَعِ الْمُحْدَثَةِ الَّتِي لَمْ يَسْتَحِبَّهَا أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَيْسَتْ وَاجِبَةً وَلَا مُسْتَحَبَّةً بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ). والدين إما أن يكون واجبًا أو مستحبًّا، وليس هناك قسم ثالث أبدًا، وهذا الذي يفعلونه عند القبور ليس واجبًا ولا مستحبًّا، إذًا هو ليس من الدين، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيه أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(١)، إذًا يكون بدعة، وكل بدعة ضلالة.

قوله: (وَكُلُّ بِدْعَةٍ لَيْسَتْ وَاجِبَةً وَلَا مُسْتَحَبَّةً فَهِيَ بِدْعَةٌ سَيِّئَةٌ، وَهِيَ ضَلَالَةٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ). كل ما ليس واجبًا ولا مستحبًا، فهو بدعة، وكل بدعة ضلالة، وأما قول الفقهاء في مناسك الحج: إذا زار المدينة يُستحب أن يزور قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصاحبيه. الزيارة هذه للسلام، وليست لدعاء الرسول، أو طلب الشفاعة منه، ولذلك ذكروا ماذا يفعل، قالوا: يأتي ويسلم على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم يسلم على صاحبيه، ثم ينصرف. ما قالوا: إنه يطلب من الرسول، أو من أبي بكر، أو عمر قضاء حوائجهم، وهذا شيء موجود في كتب أهل العلم في صفة زيارة قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وزيارة غيره من القبور.

قوله: (فَإِنَّمَا ذَلِكَ إِذَا قَامَ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ أَنَّهَا مُسْتَحَبَّةٌ). إذا كانت مستحبة وعليها دليل فهي ليست بدعة، لكن تُسمى بدعة من ناحية اللغة فقط؛ لأنه

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٠٣).

شيء ما ألفه الناس، ولا علموا عنه، فيأتي واحد من العلماء، فيحيي هذه السنة ويُبينها، فهذا في عرف بعض الناس يسمونه بدعة باعتبار أنه ما سبق أن يعمل الناس به؛ لأنهم ما دروا عنه، فهذا إحياء سنة، وإن سُمِّي بدعة فهي بدعة لغوية؛ كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما جمع الناس في صلاة التراويح على إمام واحد: «نِعْمَ الْبِدْعَةُ هذه»(١).

وهي ليست بدعة شرعية، وإنما هي بدعة لغوية، وكانوا في الأول يصلون متفرقين، فهذا إحياء سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والرسول تخلف عنهم؛ خشية أن تُفرض عليهم، فلما توفي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُخشى أن تُفرض؛ لأن الفرائض انتهت بوفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فانتفى المحظور من جمعهم على إمام واحد.

فالذين يقسمون البدع إلى أقسام، هذا كله باطل، لا يوجد بدعة إلا بدعة سيئة في الدين، أما البدع في أمور الدنيا والمستجدات في أمور الدنيا، فهذه الأصل فيها الإباحة، وهي ليست عبادة، مثل: ركوب السيارات، واستعمال الجوالات، واستعمال مكبر الصوت، هذه من المباحات، وإن لم تكن موجودة من قبل.

قوله: (**فَهُوَ ضَالٌّ مُتَّبِعٌ لِلشَّيْطَانِ**). ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(٢)، كل بدعة

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٠٥).
(٢) تقدم تخريجه (ص١٠٣).

في الدين ضلالة، أين الذين يقولون: إن هناك بدعة حسنة؟ هذا مخالف لقول الرسول: «**كُل بِدْعَة**» هذا عام، أي: كل بدعة في الدين «ضلالة».

قوله: (وَسَبِيلُهُ مِنْ سَبِيلِ الشَّيْطَانِ). لأن البدع من الشيطان، الشيطان يدعو إلى البدع ليغير بها السنن، ولذلك تجد هؤلاء -كما يأتي في كلام الشيخ- يحرصون على البدعة ونشرها، ولا يحرصون على نشر السنة؛ لأن الشيطان يغريهم بنشر البدع، ويثبطهم عن نشر السنن، هذا شيء واضح في كثير من الذين يسارعون إلى البدع، ويبحثون عنها، ويسألون عنها، ويبادرون في فعلها، أما لو قيل لهم: هذا الأمر مستحب يتكاسلون عنه، ولا يحرصون عليه؛ لأن الشيطان يثبطهم عنه ويحرضهم على البدع؛ ولذلك تجد لهم نشاطًا في نشر البدع.

قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ...). أراد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُبين معنى الآية، وهي قوله تعالى في جملة الوصايا التي أوصى بها عباده: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، والصراط هو الطريق، وصراط الله مستقيم ليس فيه ميلان، إنما هو طريق معتدل واضح.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾، وهي الطرق الأخرى المخالفة لصراط الله، فدل على أن لله صراطًا، وللشياطين سبلًا يحاولون أن يصرفوا الناس إليها عن صراط الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا شيء معروف ومشاهد من دعاة الضلال، يريدون أن يحرفوا الناس عن الصراط المستقيم مهما كلفهم الأمر حتى ولو بالقتال؛ لأن الشيطان يحرضهم على هذا.

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد أن يوضح معنى هذه الآية، فخط خطًّا مستقيمًا، وخط عن جوانبه خطوطًا، وقال للخط المستقيم: «**هَذَا سَبِيلُ اللهِ**». وقال للخطوط التي على الجوانب: «**وَهَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ**»، سواءً من شياطين الإنس أو الجن «**يَدْعُو إِلَيْهِ**»؛ ليخرج الناس من صراط الله إلى السبل الكثيرة. انظر كيف أنه سبحانه وحَّد صراطه، فقال: ﴿صِرَٰطِي﴾، وأضافه إلى نفسه، وعدَّد السبل؛ لأن السبل التي يبتدعها الناس ليس لها حصر ولا نهاية، كلٌّ يبتكر له طريقة، وكلٌّ يبتكر له خطة يسير عليها، وينقطع معه جماعة من الناس، ويتقسم الناس إلى أحزاب وفئات، أما الذين يسيرون على الصراط المستقيم، فإنهم جماعة واحدة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]، وفي آخر سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٦]، هذا هو الذي قال الله عنه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾.

فالذي يريد النجاة يلزم الصراط المستقيم، ويترك السبل المنحرفة والمذاهب الباطلة، ويحذر من دعاة الضلال وما أكثرهم، ويصبر على الثبات على الصراط المستقيم؛ لأنه سيلاقي من هؤلاء مشقة وأذى؛ لأنه على حق، وهم على باطل، فلا يغرونه؛ لأنهم تارة يغرون بالطمع، وتارة يهددون بالعقوبات، لكن المؤمن يصبر، ولا يلتفت إليهم ما دام إنه على حق، فلا يهولنَّه ما يرغبون فيه أو يرهبون منه.

فَهَذَا أَصْلٌ جَامِعٌ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ أَنْ يَتَّبِعَهُ، وَلَا يُخَالِفَ السُّنَّةَ المَعْلُومَةَ، وَسَبِيلَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، بِاتِّبَاعِ مَنْ خَالَفَ السُّنَّةَ وَالْإِجْمَاعَ الْقَدِيمَ، لَا سِيَّمَا وَلَيْسَ مَعَهُ فِي بِدْعَتِهِ إِمَامٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا مُجْتَهِدٌ يُعْتَمَدُ عَلَى قَوْلِهِ فِي الدِّينِ، وَلَا مَنْ يُعْتَبَرُ قَوْلُهُ فِي مَسَائِلِ الْإِجْمَاعِ وَالنِّزَاعِ، فَلَا يَنْخَرِمُ الْإِجْمَاعُ بِمُخَالَفَتِهِ، وَلَا يَتَوَقَّفُ الْإِجْمَاعُ عَلَى مُوَافَقَتِهِ. وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ نَازَعَ فِي ذَلِكَ عَالِمٌ مُجْتَهِدٌ لَكَانَ مَخْصُومًا بِمَا عَلَيْهِ السُّنَّةُ الْمُتَوَاتِرَةُ وَبِاتِّفَاقِ الْأَئِمَّةِ قَبْلَهُ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْمُنَازِعُ لَيْسَ مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ وَلَا مَعَهُ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ، وَإِنَّمَا اتَّبَعَ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الدِّينِ بِلَا عِلْمٍ، وَيُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ.

الشَّرح

قوله: (فَهَذَا أَصْلٌ جَامِعٌ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ أَنْ يَتَّبِعَهُ).

الصراط المستقيم أصل جامع، وقد أضافه الله جَلَّ وَعَلَا إلى نفسه تارة، وأضافه إلى من يتبعه تارة أخرى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾، فأضافه إليهم؛ لأنهم ملازمون له ويسيرون عليه.

قوله: (وَلَا يُخَالِفَ السُّنَّةَ المَعْلُومَةَ وَسَبِيلَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ بِاتِّبَاعِ مَنْ خَالَفَ السُّنَّةَ وَالْإِجْمَاعَ الْقَدِيمَ).

إذا عرفت السنة تمسك بها، وإذا لم تعرفها فانظر ما عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن تبعهم، فسر معهم؛ لأنهم على صراط الله المستقيم،

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة:١٠٠].

قوله: (وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ نَازَعَ فِي ذَلِكَ عَالِمٌ مُجْتَهِدٌ لَكَانَ مَخْصُومًا بِمَا عَلَيْهِ السُّنَّةُ الْمُتَوَاتِرَةُ وَبِاتِّفَاقِ الْأَئِمَّةِ قَبْلَهُ). عليك بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين، الزم هذه الأصول الثلاثة، ولا تنظر إلى من خالفها؛ لأنه على ضلالة، ولا تتبعه، هذا هو الأصل الذي من سار عليه نجا وسلم، ومن أخطأه هلك.

وربما يحتج بعضهم فيقول: هذه المسألة فيها خلاف.

نقول: الخلاف يُرجع فيه إلى الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء:٥٩]، وقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:١٠]، يُرجع في الخلاف إلى الكتاب والسنة، فما وافق الكتاب والسنة فهو حق، وما خالفهما فهو باطل، وإن قال به من قال عن اجتهاد.

والذي يخالف الكتاب والسنة لا يخلو من أحد أمرين:

الأول: إما أن يكون مجتهدًا أخطأ في اجتهاده، ونحن لا نتبعه على خطأ، ولو كان من أهل الفضل والعلم، فهو ليس معصومًا، والإجماع تام بدونه -ولله الحمد- من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والتابعين، والقرون المفضلة، فلا عبرة بخلافه.

والثاني: إما أن يكون زنديقًا ضالًّا يريد أنه يصرف الناس عن الحق، فالأمر فيه واضح، ولا نعتبر بخلافه، والإجماع تام بدونه أيضًا.

قوله: (وَلَا مُجْتَهِدٌ يُعْتَمَدُ عَلَى قَوْلِهِ فِي الدِّينِ). أي: بعد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والتابعين، وأتباع التابعين، والقرون المفضلة، ارجع إلى ما عليه الأئمة الأربعة، والأئمة الذين جاءوا من بعدهم، وعلى أثرهم يسيرون، فكن على ما عليه أئمة الدين من الأئمة الأربعة وأتباعهم الذين اتبعوهم، وإلا فهناك من ينتسب إلى الأئمة الأربعة الآن وليس على عقيدتهم، إنما يتبعهم في الفقه فقط، وأما في العقيدة فيتبع الطرق الأخرى، إما أشاعرة(١)، أو ماتريدية(٢)، أو معتزلة، أو جهمية، فهؤلاء يتبعون الأئمة في الفروع ولا يتبعونهم في الأصول.

---

(١) نسبة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم الأشعري، ولد سنة ستين ومائتين، نشأ على مذهب المعتزلة، وتتلمذ على يد أبي علي الجبائي ثم ترك مذهبهم وتبرأ منه، وسلك طريقة ابن كلاب وانتشر مذهبه ثم رجع عنه إلى مذهب أهل الحديث وانتسب للإمام أحمد، وألف في مذهب أهل السنة والجماعة: الإبانة، والموجز، ورسائل الثغر، إلا أنه بقيت عليه بقايا من مذهب ابن كلاب، وتوفي ببغداد سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، قال الذهبي: ويقال بقي إلى سنة ثلاثين وثلاثمائة. اهـ.
انظر: تاريخ بغداد (١١/ ٣٤٦)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٨٤)، وسير أعلام النبلاء (١٥/ ٨٥)، وشذرات الذهب (٢/ ٣٠٣)، والبداية والنهاية (١١/ ١٨٧).

(٢) هم أصحاب محمد بن محمد بن محمود، أبي منصور الماتريدي، المتكلم، وماتريد قرية من قرى سمرقند، له كتاب التوحيد، وكتاب المقالات، وكتاب تأويلات القرآن، توفي سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة بسمرقند، ومن المسائل التي اشتهر الماتريدية بالخلاف فيها: مسألة الاستثناء في الإيمان، والاستثناء في الكفر، ومسألة القرآن هل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتكلم بمشيئته وقدرته أم القرآن لازم لذاته، وغير ذلك من مسائل الصفات. انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٤٣١-٤٣٤)، وفتح الباري (١٣/ ٤٥٥)، والجواهر المضية في طبقات الحنفية (٣/ ٣٦٠)، ومجموع الفتاوى (٧/ ٤٣١ - ٤٣٤)، ومنهاج السنة (٢/ ٣٦٢)، وانظر: رسالة الماتريدية للشيخ شمس الدين الأفغاني رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: (لَا سِيَّمَا وَلَيْسَ مَعَهُ فِي بِدْعَتِهِ ... وَلَا يَتَوَقَّفُ الْإِجْمَاعُ عَلَى مُوَافَقَتِهِ). هذا لا اعتبار له، لا إن وافق، ولا إن خالف، إن وافق فالإجماع تام بدونه، وإن خالف لم يضر الإجماع مخالفته.

قوله: (وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ نَازَعَ فِي ذَلِكَ عَالِمٌ مُجْتَهِدٌ لَكَانَ مَخْصُومًا بِمَا عَلَيْهِ السُّنَّةُ الْمُتَوَاتِرَةُ وَبِاتِّفَاقِ الْأَئِمَّةِ قَبْلَه). لو أن واحدًا من أهل العلم الفضلاء خالف مع أن مثل هذا غير موجود، فهم لا يخالفون في العقائد أبدًا، إنما يحصل الاختلاف في مسائل الفقه والنظر، أما العقائد فهي محل تسليم وتوقيف، لا يدخلها اجتهاد؛ لذلك لم يختلفوا فيها.

قوله: (فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْمُنَازِعُ لَيْسَ مِنْ الْمُجْتَهِدِينَ وَلَا مَعَهُ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ وَإِنَّمَا اتَّبَعَ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الدِّينِ بِلَا عِلْمٍ وَيُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ). قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الحج:٨، ٩].

حذرنا الله من مثل هذا، وفي هذا رد على الذين يقولون الآن: كل شيء فيه خلاف، لا تنكروا على الناس، وكل من أخذ بقول من الأقوال فهو على حق. سبحان الله! الحق لا يتعدد، الحق ما قام عليه الدليل، وما خالف الدليل فليس بحق، وهذا شيء واضح، والله لم يتعبدنا باتِّباع أقوال الناس، بل تعبدنا بالكتاب والسنة.

بَلْ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ كَوْنِهِ لَمْ يَشْرَعْ هَذَا فَلَيْسَ هُوَ وَاجِبًا وَلَا مُسْتَحَبًّا، فَإِنَّهُ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ وَحَرَّمَ مَا يُفْضِي إِلَيْهِ، كَمَا حَرَّمَ اتِّخَاذَ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مَسَاجِدَ، فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»(١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ قَبْلَ مَوْتِهِ: «لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ، وَلَكِنْ كَرِهَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا(٢).

وَاتِّخَاذُ الْمَكَانِ مَسْجِدًا هُوَ أَنْ يُتَّخَذَ لِلصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَغَيْرِهَا كَمَا تُبْنَى الْمَسَاجِدُ لِذَلِكَ، وَالْمَكَانُ الْمُتَّخَذُ مَسْجِدًا إِنَّمَا يُقْصَدُ فِيهِ عِبَادَةُ اللهِ وَدُعَاؤُهُ لَا دُعَاءُ الْمَخْلُوقِينَ. فَحَرَّمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُتَّخَذَ قُبُورُهُمْ مَسَاجِدَ بِقَصْدِ الصَّلَوَاتِ فِيهَا كَمَا تُقْصَدُ الْمَسَاجِدُ، وَإِنْ كَانَ الْقَاصِدُ لِذَلِكَ إِنَّمَا يَقْصِدُ عِبَادَةَ اللهِ وَحْدَهُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ ذَرِيعَةٌ إِلَى أَنْ يَقْصِدُوا الْمَسْجِدَ لِأَجْلِ صَاحِبِ الْقَبْرِ وَدُعَائِهِ وَالدُّعَاءِ بِهِ وَالدُّعَاءِ عِنْدَهُ.

الشَّرْح

قوله: (بَلْ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ كَوْنِهِ لَمْ يَشْرَعْ هَذَا فَلَيْسَ هُوَ وَاجِبًا وَلَا مُسْتَحَبًّا، فَإِنَّهُ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ). مع كون دعاء الصالحين الأموات،

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢).

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٣٩).

والاستنجاد والاستغاثة بهم ليس مستحبًا ولا واجبًا، وليس من الدين، مع ذلك فإن الله حرم هذا العمل، وحرم الوسائل التي تؤدي إليه.

قوله: (وَحَرَّمَ مَا يُفْضِي إِلَيْهِ كَمَا حَرَّمَ اتِّخَاذَ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مَسَاجِدَ). معناه: اتخاذها مصليات يُصلى عندها ظنًّا أن الصلاة عندها أفضل من الصلاة عند غيرها؛ لصلاحهم وإيمانهم، ولذلك افتتنوا بالقبور والعياذ بالله، وهذه سنة بني إسرائيل؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**».

المساجد مصليات، سواءً بُني عليها مسجد أو لم يُبن عليها، كل مكان صليت فيه فهو مسجد، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**»(٢). فالمسجد قد يُطلق ويُراد به المسجد المبني الذي له أبواب وله ساحات، وهذا لا يجوز بناؤه على قبر، وقد يُطلق ويُراد به اعتياد الصلاة عند قبور ليست مبنية، وإنما يذهب إليها ويُصلي عندها رجاء البركة، أو رجاء إجابة الدعوة.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**». حذَّر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من اتخاذ القبور مساجد في آخر حياته، وهو على فراش الموت، ومن كمال نصحه لأمته وهو في هذه الحالة يحذر الناس من

---

(١) أخرجه مالك في الموطإ (١/ ١٧٢) برقم (٤١٤)، وابن عبد البر في التمهيد (٥/ ٤١) من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار مرفوعًا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخرجه عبد الرزاق (١/ ٤٠٦)، وابن أبي شيبة (٢/ ١٥٠)، وليس فيه عطاء بن يسار.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الشرك باتخاذ القبور مساجد، وهذا فيه إشعار بألا يتخذوا قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسجدًا، كما كانت بنو إسرائيل تفعل هذا مع أنبيائها، فهو يحذر من هذا أن يُفعل عند قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يقول هذا قبل أن يموت بخمس ليال، أو وقت قريب، وهذا من كمال شفقته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى**». اللعن معناه: الطرد، والإبعاد من رحمة الله[(١)]، ثم ذكر السبب في لعنتهم، فقال: «**اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وصالحيهم مَسَاجِدَ**». فدل على أنه يجوز لعن اليهود والنصارى إذا ذُكر السبب للعنهم، وهو مثل اتخاذهم القبور مساجد، ودل على أن اتخاذ القبور مصليات كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأن اللعنة لا تكون إلا على شيء كبير، ومن ضوابط الكبائر: ما رُتِّب عليه لعنة.

لماذا، مع أن المصلي إنما يصلي لله؟ لكن صلاته عند القبر وسيلة من وسائل الشرك، فنُهي عن ذلك، وصار كبيرة يستحق عليها اللعنة.

إذًا من يتخذ القبور مساجد ملعون، وليس هذا خاصًّا باليهود والنصارى، بل كل من فعل فعلهم استحق اللعنة والعياذ بالله، وهو يظن أنه يتقرب إلى الله، ويريد الخير، ويحب الصالحين، وما أشبه ذلك من الشبهات الشيطانية، ويظن أنه مأجور.

قوله: (يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا). أي: ذكر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا وقصده تحذير الأمة أن تفعل مثل ما فعلت اليهود والنصارى.

ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا فَلا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ**»، وهذا نهي صريح، ثم قال: «**فإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**» أكد مرة ثانية.

---

(١) انظر: النهاية في غريب الأثر (٤/ ٢٥٥)، ومقاييس اللغة (٥٥/ ٢٥٣).

فهو أولًا: لعن من فعله، **وثانيًا**: نهى عن ذلك بقوله: «**لَا تَتَّخِذُوا**»، وثالثًا: قال: «**أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»، هذه تأكيدات أن هذا الأمر الذي تساهل فيه بعض الناس، ويقولون: إن هذا من محبة الصالحين، والذي لا يبني على القبور لا يحب الصالحين، ويتنقص الصالحين، وليس لهم قدر عنده، هكذا يقولون: أنتم تبغضون الصالحين، ولهذا لا تبنون على قبورهم، أو تهدمون البناء على قبورهم، فنقول: نحن ننفذ قول الرسول ﷺ: «**لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْته، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْته**»[(١)]. فلا يجوز أن نترك البناء على القبر ونحن نقدر على إزالته؛ لأن هذا وسيلة من وسائل الشرك، وبقاؤه وبناؤه غش للأمة، فيجب هدمه، لكن لا يقوم بهذا إلا أهل السلطة، والذين عندهم مقدرة على تنفيذ هدم القبور ممن عندهم سلطة، أما أفراد الناس، فيكتفون بالدعوة إلى الله، والنهي عن ذلك، والتحذير منه، ويرفعون الأمر إلى ولاة الأمور، ويراجعونهم لعلهم يهدمون هذه المشاهد الشركية، أما أن كل واحد يهدم، فقد تحصل فتنة وشر وقتل، وربما أنهم يتشجعون على بنائها، لكن إذا هدمها ولاة الأمور ما استطاع أحد أن يعارضهم؛ لأنه كما قال أمير المؤمنين عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الله يزع[(٢)] بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»[(٣)]؛ لأن السلطة لها مكانة.

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٥١).

(٢) **يزع**: أي يمنع ويكف ويردع، والمعنى: أن من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان أكثر ممن يكفه مخافة القرآن. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٨٠)، ومشارق الأنوار (٢/ ٢٨٤)، ولسان العرب (٨/ ٣٩٠).

(٣) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ١٠٧) من قول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ١٠) من قول عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (وَاتِّخَاذُ المَكَانِ مَسْجِدًا هُوَ أَنْ يُتَّخَذَ لِلصَّلَوَاتِ الخَمْسِ وَغَيْرِهَا).
أن يُصلى عنده نافلة أو فريضة، سواء كان مبنيًا عليه أو كان فضاءً.

وقوله: (وَغَيْرِهَا) أي: من النوافل، كصلاة الضحى، فإذا أراد حاجة يذهب يصلي ركعتين عند القبر، ويدعو الله عند القبر، وهذا من انتكاس الفطر والعياذ بالله.

فَنَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ اتِّخَاذِ هَذَا المَكَانِ لِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ؛ لِئَلَّا يُتَّخَذَ ذَرِيعَةً إِلَى الشِّرْكِ بِاللهِ. وَالفِعْلُ إِذَا كَانَ يُفْضِي إِلَى مَفْسَدَةٍ وَلَيْسَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ يُنْهَى عَنْهُ؛ كَمَا نَهَى عَنْ الصَّلَاةِ فِي الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ(١)؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ المَفْسَدَةِ الرَّاجِحَةِ، وَهُوَ التَّشَبُّهُ بِالْمُشْرِكِينَ الَّذِي يُفْضِي إِلَى الشِّرْكِ. وَلَيْسَ فِي قَصْدِ الصَّلَاةِ فِي تِلْكَ الْأَوْقَاتِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ لِإِمْكَانِ التَّطَوُّعِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَوْقَاتِ. وَلِهَذَا تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَوَاتِ الْأَسْبَابِ، فَسَوَّغَهَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ، وَهُوَ أَظْهَرُ قَوْلَيْ الْعُلَمَاءِ؛ لِأَنَّ النَّهْيَ إِذَا كَانَ لِسَدِّ الذَّرِيعَةِ أُبِيحَ لِلْمَصْلَحَةِ الرَّاجِحَةِ، وَفِعْلُ ذَوَاتِ الْأَسْبَابِ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ، وَيَفُوتُ إِذَا لَمْ يُفْعَلْ فِيهَا فَتَفُوتُ مَصْلَحَتُهَا، فَأُبِيحَتْ لِمَا فِيهَا مِنْ المَصْلَحَةِ الرَّاجِحَةِ؛ بِخِلَافِ مَا لَا سَبَبَ لَهُ فَإِنَّهُ يُمْكِنُ فِعْلُهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْوَقْتِ، فَلَا تَفُوتُ بِالنَّهْيِ عَنْهُ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ وَفِيهِ مَفْسَدَةٌ تُوجِبُ النَّهْيَ عَنْهُ.

الشَّرْح

قوله: (فَنَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ اتِّخَاذِ هَذَا المَكَانِ لِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ؛ لِئَلَّا يُتَّخَذَ ذَرِيعَةً إِلَى الشِّرْكِ بِاللهِ). ربما يقول بعضهم: أنا عندما أصلي عند القبر أصلي لله ، وعندما أدعو عند القبر أدعو الله، ولا أدعو القبر ولا أصلي للقبر، فلماذا تنكرون عليَّ؟

---

(١) كما في حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «ثَلَاثُ سَاعَاتٍ كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْهَانَا أَنْ نُصَلِّيَ فِيهِنَّ، أَوْ أَنْ نَقْبُرَ فِيهِنَّ مَوْتَانَا: حِينَ تَطْلُعُ الشَّمْسُ بَازِغَةً حَتَّى تَرْتَفِعَ، وَحِينَ يَقُومُ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ حَتَّى تَمِيلَ الشَّمْسُ، وَحِينَ تَضَيَّفُ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ حَتَّى تَغْرُبَ». أخرجه مسلم (٨٣١).

نقول له: لأن هذا وسيلة، أنت الآن تعبد الله، لكن تخصيص هذا المكان وسيلة إلى تعظيم القبر والغلو فيه، وفي النهاية يتحول الأمر إلى أن يُدعى من دون الله عَزَّوَجَلَّ، فهو وسيلة إلى الشرك، ومنعه من باب سد الوسائل المفضية إلى المحظور؛ لأنه بدعة ووسيلة إلى الشرك.

أما إذا كان يقصد القبر بالدعاء والصلاة، فهذا شرك أكبر، وهناك فرق بين الشرك ووسيلة الشرك، فإذا كان الذي يصلي عند القبر يرجو القبر، ويصلي للقبر، ويتقرب إلى القبر، وهذا هو الذي عليه عامة عباد القبور الآن؛ يذبحون لهم، وينذرون لهم، ويستغيثون بهم، فهذا شرك أكبر، أما إذا كان يتعلق بالله، ويعبد الله، لكن تخصيص هذا المكان منهي عنه؛ لأنه وسيلة للشرك، فالدعاء عند القبر، والصلاة عند القبر، والصدقة عند القبر، وأي عبادة عند القبر، منهي عنها؛ لأنها وسيلة إلى الشرك، وبدعة من البدع، وكل بدعة ضلالة.

قوله: (**دُعَائه**) هذا شرك أكبر، أما (**وَالدُّعَاءِ بِهِ**) أي: التوسل به في الدعاء، نسألك بجاه فلان، أو بحق فلان، هذا دعاء به، أو (**الدُّعَاءِ عِنْدَهُ**) في المكان، فهاتان وسيلتان من وسائل الشرك، أما دعاؤه فهذا شرك أكبر.

قوله: (**وَالْفِعْلُ إِذَا كَانَ يُفْضِي إِلَى مَفْسَدَةٍ**). إذا كانت المفسدة راجحة، فإنه يُنهى عنه سدًّا للذريعة؛ لذلك يُنهى عن النظر إلى النساء؛ لأنه وسيلة إلى الزنا، ويُنهى عن استماع الأغاني؛ لأنها تنبت الشهوة في القلب، لاسيما بأصوات النساء، فهي وسيلة، ويُنهى عن سفر المرأة وحدها؛ لأن هذا وسيلة لأن تضيع المرأة، ويُعبث بها، وتُستضعف أو تُهان، ويُنهى عن الخلوة بين

الرجل والمرأة؛ لأن هذا وسيلة إلى الزنا، ونُهي عن الاختلاط بين الرجال والنساء؛ لأن هذا وسيلة إلى الفتنة، كل هذه وسائل تؤدي إلى الوقوع في الحرام، فما كان وسيلة إلى الحرام فهو حرام، وذلك من باب سد الذرائع المفضية إلى المحظور، وأعظم المحظورات الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، فيحرم الدعاء عند القبور، أو الصلاة عند القبور، وإن كان الداعي لا يصلي إلا لله، ولا يدعو إلا الله، لكن إتيانه إلى هذا المكان، وتقصد هذا المكان وسيلة إلى الشرك، ولذلك منع منه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك تجد أن هؤلاء الجهال والقبوريين لا يذهبون إلى المساجد الخالية من القبور؛ لأنها ليست عندهم بشيء، ولا لها قيمة، إنما يذهبون إلى المساجد المبنية على القبور، التي عليها قباب وأضرحة وزخارف، بل يسافرون ويشدون الرحال إليها، لكن المساجد السنية الخالية من القبور ليس لها قيمة عندهم، ولا ينتبهون لها؛ لأن قلوبهم معلقة بالأموات والعياذ بالله، وليست معلقة بالله عَزَّوَجَلَّ. وإلا لو دعوت الله في بيت من بيوته، أو صليت في بيت من بيوت الله، أو دعوت الله في صحراء خالية، فإن الله قريب مجيب، ولا حاجة إلى أن تذهب إلى مكان معين لم يعينه الله ولا رسوله.

قوله: (كَمَا نَهَى عَنْ الصَّلَاةِ فِي الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ). لأنه يُفضى إلى مفسدة راجحة، والأوقات الثلاثة هي:

الوقت الأول: الصلاة عند بزوغ الشمس حتى ترتفع؛ لأن الكفار كانوا يعبدون الشمس في هذا الوقت، فإذا صليت فيه تشبهت بهم، وهذا وسيلة إلى الشرك، وربما يأتي جيل يُحيي سنة الجاهلية وعبادة الشمس، ويقول: كان

الناس يصلون إذا طلعت الشمس. فيظن أن هذا من أجل الشمس، فيحدث الشرك، فالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سد هذه الذريعة.

الوقت الثاني: عند قيامها وسط السماء على الرؤوس حتى تزول؛ لأن هذا وقت تُسعر فيه نار جهنم والعياذ بالله، فلا يصلي في هذا الوقت؛ لئلا يكون متشبهًا بمن يعبدون النار.

الوقت الثالث: عند شروع الشمس في الغروب حتى تغرب؛ لأنها إذا طلعت تطلع بين قرني شيطان، ويسجد لها الكفار؛ كما في الحديث، وإذا غربت تغرب بين قرني شيطان(١)، وعند ذلك يسجد لها الكفار، فنحن لا نتشبه بالكفار، وهذا سد لوسيلة الشرك؛ لئلا يأتي من يُحيي سنة الكفار، ويقول: أنا أدركت المسلمين يصلون في هذين الوقتين.

قوله: (وَلَيْسَ فِي قَصْدِ الصَّلَاةِ فِي تِلْكَ الْأَوْقَاتِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ). بل مضرته أشد وهي التشبه بالكفار، والصلاة -ولله الحمد- لها أوقات ليس فيها محظور، إذا أردت أن تصلي وتتنفل عندك الليل والنهار، والصلاة في الليل وجوف الليل أفضل، فلماذا تتحرى الصلاة في تلك الأوقات التي فيها تشبه بالمشركين؟ إن كان عندك رغبة في الخير عندك أوقات كثيرة.

قوله: (وَلِهَذَا تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَوَاتِ الْأَسْبَابِ). النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن صلاة النافلة من بعد صلاة العصر حتى تغرب الشمس، ونهى

---

(١) كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا تَحَيَّنُوا بِصَلَاتِكُمْ طُلُوعَ الشَّمْسِ وَلَا غُرُوبَهَا، فَإِنَّهَا تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ**». أخرجه البخاري (٣٢٧٣) واللفظ له، ومسلم (٨٢٩).

عن الصلاة بعد صلاة الفجر حتى ترتفع الشمس، ونهى عن الصلاة عند قيام الشمس في وسط السماء حتى تزول(١)، نهى عن صلاة النافلة في هذه الأوقات، فهل هذا النهي يعم ذوات الأسباب وغيرها؟ هذا احتمال، فذهب كثير من أهل العلم إلى أنه لا يُصلى في هذه الأوقات، لا ذوات الأسباب ولا غيرها؛ عملًا بعموم النهي عن الصلاة في هذه الأوقات.

ومن العلماء من ذهب إلى أن ذوات الأسباب تُفعل عند وجود أسبابها؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علقها بأسبابها، فقال: «**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَجْلِسَ**»(٢)، فعلق صلاة الركعتين بدخول المسجد لإرادة الجلوس فيه من غير أن يستثني في أي وقت، فقوله: «**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ**» عموم في أي وقت، «**فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ**»؛ لأن هذا معلق بالسبب وقد وجد. وقال في كسوف الشمس والقمر: «**فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ**» هذا عام في أي وقت، «**فَادْعُوا اللهَ وَكَبِّرُوا وَصَلُّوا**»(٣)، فتُصلى صلاة الكسوف في أي وقت. وكذلك إذا توضأت يُستحب أن تصلي ركعتين سنة الوضوء(٤) في أي وقت توضأت؛ لأن السبب هو الوضوء. فمن العلماء من رجَّح فعل

(١) كما في حديث عقبة بن نافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. تقدم تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٤)، ومسلم (٧١٤) من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه البخاري (١١٤٩)، ومسلم (٢٤٥٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِبِلَالٍ: «**يَا بِلَالُ، حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الإِسْلَامِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الجَنَّةِ**»، قَالَ: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي: أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طَهُورًا فِي سَاعَةِ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أُصَلِّيَ». فأقره الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك.

ذوات الأسباب في أوقات النهي وغيرها؛ عملًا بعموم الأوامر، ومن الناس من منع؛ لعموم أوقات النهي، فعارض العمومان، فبعضهم أخذ بعموم الأوقات ومنع، وبعضهم أخذ بعموم الأوامر فأباح الصلاة، أو أمر بالصلاة في هذه الأوقات، والمسألة متنازع فيها، وهذا استطراد من المؤلف لبيان مسألة ذوات الأسباب هل تُفعل وقت النهي أو لا.

قوله: (**بِخِلَافِ مَا لَا سَبَبَ لَهُ**). أي: خلاف النوافل المطلقة، فهذه لا تُفعل في أوقات النهي بالإجماع.

قوله: (**فَإِنَّهُ يُمْكِنُ فِعْلُهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْوَقْتِ، فَلَا تَفُوتُ بِالنَّهْيِ عَنْهُ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ، وَفِيهِ مَفْسَدَةٌ تُوجِبُ النَّهْيَ عَنْهُ**)؛ لأن النهي عارضه مصلحة راجحة في ذوات الأسباب؛ لأن سببها يزول، أما بقية النوافل المطلقة، فلم يعارضها مصلحة راجحة؛ لأنه يمكن فعلها في أي وقت.

فَإِذَا كَانَ نَهْيُهُ عَنْ الصَّلَاةِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ لِسَدِّ ذَرِيعَةِ الشِّرْكِ؛ لِئَلَّا يُفْضِيَ ذَلِكَ إِلَى السُّجُودِ لِلشَّمْسِ وَدُعَائِهَا وَسُؤَالِهَا -كَمَا يَفْعَلُهُ أَهْلُ دَعْوَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ الَّذِينَ يَدْعُونَهَا وَيَسْأَلُونَهَا- كَانَ مَعْلُومًا أَنَّ دَعْوَةَ الشَّمْسِ وَالسُّجُودَ لَهَا هُوَ مُحَرَّمٌ فِي نَفْسِهِ أَعْظَمُ تَحْرِيمًا مِنْ الصَّلَاةِ الَّتِي نَهَى عَنْهَا لِئَلَّا يُفْضِيَ إِلَى دُعَاءِ الْكَوَاكِبِ.

كَذَلِكَ لَمَّا نَهَى عَنْ اتِّخَاذِ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مَسَاجِدَ -فَنَهَى عَنْ قَصْدِهَا لِلصَّلَاةِ عِنْدَهَا؛ لِئَلَّا يُفْضِيَ ذَلِكَ إِلَى دُعَائِهِمْ وَالسُّجُودِ لَهُمْ- كَانَ دُعَاؤُهُمْ وَالسُّجُودُ لَهُمْ أَعْظَمَ تَحْرِيمًا مِنْ اتِّخَاذِ قُبُورِهِمْ مَسَاجِدَ.

وَلِهَذَا كَانَتْ زِيَارَةُ قُبُورِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى وَجْهَيْنِ: زِيَارَةٌ شَرْعِيَّةٌ، وَزِيَارَةٌ بِدْعِيَّةٌ. فَالزِّيَارَةُ الشَّرْعِيَّةُ: أَنْ يَكُونَ مَقْصُودُ الزَّائِرِ الدُّعَاءَ لِلْمَيِّتِ؛ كَمَا يُقْصَدُ بِالصَّلَاةِ عَلَى جِنَازَتِهِ الدُّعَاءُ لَهُ.

الشَّرْح

قوله: (لِئَلَّا يُفْضِيَ ذَلِكَ إِلَى السُّجُودِ لِلشَّمْسِ وَدُعَائِهَا وَسُؤَالِهَا). دعاء الكواكب ممنوع من أصله؛ لأنه شرك واضح، أما الصلاة التي فيها تشبه بعُباد الكواكب، وعُباد الشمس والقمر، فهي ممنوعة أيضًا، وذلك من باب سد الوسائل المفضية إلى المحظور.

قوله: (لَمَّا نَهَى عَنْ اتِّخَاذِ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مَسَاجِدَ). نهى عن الصلاة عند القبور أو اتخاذها مساجد، مع أن المصلي يقصد التقرب إلى الله،

ولا يدعو القبر، ولا يتقرب إليه، لكن فعله هذا وسيلة إلى الشرك، ولو على المدى البعيد، ويقتدي به الجهال، فيحصل المحظور، فلذلك نهى عنه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من باب سد الذرائع، وليس هناك مصلحة راجحة، بل هذا مضرة محضة ليس فيه مصلحة أصلًا؛ لأنه يمكن الدعاء والصلاة في غير هذا المكان.

قوله: (وَلِهَذَا كَانَتْ زِيَارَةُ قُبُورِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى وَجْهَيْنِ).

الوجه الأول: (زِيَارَةٌ شَرْعِيَّةٌ)، وهي إذا كان القصد منها الاتعاظ، والاعتبار، والدعاء للميت المسلم، والاستغفار له، وقد أمر بها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**زُورُوا الْقُبُورَ، فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ**»[(١)]. هذه العلة أنها تذكر الموت، والعلة الثانية أنك تدعو لأخيك الميت وتستغفر له، وهو بحاجة إلى الدعاء عند زيارتك لقبره والسلام عليه.

الوجه الثاني: (زِيَارَةٌ بِدْعِيَّةٌ)، وهي التي يُقصد منها الانتفاع من الميت، وليس نفع الميت، فتُزار القبور لأجل أن يُطلب من الميت الحوائج، أو يُستشفع به عند الله، أو يُطلب منه الدعاء، فهذه زيارة شركية بدعية محرمة.

قوله: (فَالزِّيَارَةُ الشَّرْعِيَّةُ: أَنْ يَكُونَ مَقْصُودُ الزَّائِرِ الدُّعَاءَ لِلْمَيِّتِ؛ كَمَا يُقْصَدُ بِالصَّلَاةِ عَلَى جِنَازَتِهِ الدُّعَاءُ لَهُ). إذا مات المسلم يُشرع أن يُصلى عليه صلاة الجنازة قبل دفنه؛ لأجل الدعاء له، والشفاعة له عند الله جَلَّ وَعَلَا بالدعاء، ثم بعد دفنه يُستحب الوقوف على قبره، والاستغفار له، وطلب التثبيت له،

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٣).

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُمْ، وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ، فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ**»[(١)].

إذا فرغوا من دفنه وقفوا عليه، ودعوا الله أن يغفر له ويثبته، والله جَلَّ وَعَلَا يقول في المنافقين: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ هذه صلاة الجنازة، ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة:٨٤]، هذا وقوف الدعاء بعد الدفن.

فنهى الله رسوله عن الأمرين في حق المنافق، فلا يصلي عليه، ولا يدعو له بعد الدفن، فدل على أن المسلم بالعكس يُصلى على جنازته، ويُدعى له بعد الدفن، وهذا لمصلحة الميت.

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٢١)، والحاكم (١/ ٣٧٠)، والبيهقي في الكبرى (٤/ ٥٦) من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَالْقِيَامُ عَلَى قَبْرِهِ مِنْ جِنْسِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي الْمُنَافِقِينَ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة:٨٤]، فَنَهَى نَبِيَّهُ عَنْ الصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ وَالْقِيَامِ عَلَى قُبُورِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ. فَلَمَّا نَهَى عَنْ هَذَا وَهَذَا لِأَجْلِ هَذِهِ الْعِلَّةِ وَهِيَ الْكُفْرُ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى انْتِفَاءِ هَذَا النَّهْيِ عِنْدَ انْتِفَاءِ هَذِهِ الْعِلَّةِ.

وَدَلَّ تَخْصِيصُهُمْ بِالنَّهْيِ عَلَى أَنَّ غَيْرَهُمْ يُصَلَّى عَلَيْهِ وَيُقَامُ عَلَى قَبْرِهِ؛ إِذْ لَوْ كَانَ هَذَا غَيْرَ مَشْرُوعٍ فِي حَقِّ أَحَدٍ لَمْ يُخَصُّوا بِالنَّهْيِ وَلَمْ يُعَلَّلْ ذَلِكَ بِكُفْرِهِمْ.

وَلِهَذَا كَانَتْ الصَّلَاةُ عَلَى الْمَوْتَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْقِيَامُ عَلَى قُبُورِهِمْ مِنْ السُّنَّةِ الْمُتَوَاتِرَةِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي عَلَى مَوْتَى الْمُسْلِمِينَ وَشَرَعَ ذَلِكَ لِأُمَّتِهِ، وَكَانَ إِذَا دُفِنَ الرَّجُلُ مَنْ أُمَّتِهِ يَقُومُ عَلَى قَبْرِهِ وَيَقُولُ: «سَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»[1]، رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ.

الشَّرْح

قوله: (فَنَهَى نَبِيَّهُ عَنْ الصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ وَالْقِيَامِ عَلَى قُبُورِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ). هذه العلة، فدل على أن المؤمن يُدعى له ويُصلى عليه، وقوله: (وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) هذا إخبار من المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ، وإلا فالآية ﴿ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة:٨٤]، والفاسق هنا معناه الكافر، فجاء المؤلف بالمعنى.

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

قوله: (دَلَّ ذَلِكَ عَلَى انْتِفَاءِ هَذَا النَّهْيِ عِنْدَ انْتِفَاءِ هَذِهِ الْعِلَّةِ). فالمؤمن يُفعل معه الأمران: يُصلى على جنازته، ويُدعى له بعد دفنه، ويُدعى له -أيضًا- عند زيارة قبره.

قوله: (إِذْ لَوْ كَانَ هَذَا غَيْرَ مَشْرُوعٍ فِي حَقِّ أَحَدٍ لَمْ يُخَصُّوا بِالنَّهْيِ). فلو كان الدعاء للميت ممنوعًا في الأصل، لم يُستثن أحد، لكن الله جَلَّ وَعَلَا إنما خص المنافقين؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله، فدل على أن المؤمن بالعكس يُدعى له ويُصلى عليه.

قوله: (وَلِهَذَا كَانَتْ الصَّلَاةُ عَلَى الْمَوْتَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ). أما الكفار والمنافقون، فلا يُصلى عليهم، ولا يُدعى لهم، هذا إذا عُلم نفاقهم، أما إذا لم يُعلم فنحن نبني على الظاهر، ونعاملهم بالظاهر، وهم بالظاهر مسلمون، فما لنا إلا الظاهر.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَلُوا الله لَهُ التَّثْبِيتَ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ**». أي: يسأله منكر ونكير، يأتيان إليه بعد دفنه مباشرة، أو قبل أن ينصرف الناس، أو عند انصراف الناس عنه بعد الدفن، فيقعدانه، وتُعاد روحه في جسده حياة برزخية ليست مثل الحياة الدنيا، وهذه من أمور الآخرة، «**يَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولَانِ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ...**»(١). وهذه أشد فتنة.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧)، وأبو داود (٤٧٥٣)، والنسائي (٢٠٠١)، وابن ماجه (١٥٤٩)، والحاكم (١/ ٣٧) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا، لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ**»، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الصَّحَابَةِ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ**»، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَقَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**»، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، قَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**»، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، قَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ**»، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ[1].

فعند الموت يُفتن الإنسان، وكذلك بعد دفنه يُفتن.

فقوله: «**فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ**»، هذا من معجزاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومما أطلعه الله عليه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٦) من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَكَانَ يَزُورُ قُبُورَ أَهْلِ الْبَقِيعِ وَالشُّهَدَاءِ بِأُحُدٍ[(١)]، وَيُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ إِذَا زَارُوا الْقُبُورَ أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَيَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَالْمُسْتَأْخِرِين، نَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ. اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُمْ، وَلَا تَفْتِنَّا بَعْدَهُمْ»[(٢)].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ إِلَى الْمَقْبَرَةِ فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ»[(٣)]. وَالْأَحَادِيثُ فِي ذَلِكَ صَحِيحَةٌ مَعْرُوفَةٌ.

فَهَذِهِ الزِّيَارَةُ لِقُبُورِ الْمُؤْمِنِينَ مَقْصُودُهَا الدُّعَاءُ لَهُمْ.

الشَّرْح

قوله: (وَكَانَ يَزُورُ قُبُورَ أَهْلِ الْبَقِيعِ وَالشُّهَدَاءِ بِأُحُدٍ). والبقيع: مقبرة المدينة شرقي المسجد النبوي، وهو مكان يُسمى بالبقيع يدفنون فيه الموتى، وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يزور أصحابه الذين استشهدوا في وقعة أحد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فيسلم عليهم ويدعو لهم.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ». أي: القبور؛ لأن القبر دار البرزخ، وهي دار مؤقتة.

(١) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أخرجه مسلم (٩٧٤).
(٢) أخرجه مسلم (٩٧٥) من حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه مسلم (٢٤٥).

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى بكم لَاحِقُونَ**». هل قوله: «**إِنْ شَاءَ اللهُ**» للاستثناء وليس للشك؛ لأن كلًّا يعلم أنه يموت، فلماذا يقول ذلك مع أن الموت معلوم؟ هذا -والله أعلم- إما أنه من باب التبرك بقول: «**إِنْ شَاءَ اللهُ**»، أو أنه فيه نفي تزكية النفس؛ لأنك لا تدري ما الذي تموت عليه، ولكن تقول: إن شاء الله يتوفاني على الإسلام ويلحقني بالصالحين، فهذا فيه عدم تزكية النفس.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَيَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَالْمُسْتَأْخِرِين**». مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]، فأنت تدعو للمسلمين السابقين المعاصرين، واللاحقين الذين يأتون من بعد إلى يوم القيامة؛ وهكذا المسلم لا يكون أنانيًّا ما عليه إلا من نفسه، بل يدعو لإخوانه المسلمين الأحياء والأموات.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ. اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُمْ وَلَا تَفْتِنَّا بَعْدَهُمْ**». هذا فيه إشراك الأحياء والأموات في الدعاء.

قوله: (وَالْأَحَادِيثُ فِي ذَلِكَ) أي: في زيارة القبور **(صَحِيحَةٌ مَعْرُوفَةٌ)**.

لا أحد ينكر زيارة القبور الزيارة الشرعية، إنما الإنكار على الزيارة البدعية أو الشركية.

قوله: (فَهَذِهِ الزِّيَارَةُ لِقُبُورِ الْمُؤْمِنِينَ مَقْصُودُهَا الدُّعَاءُ لَهُمْ). ليس المقصود دعاءهم، وطلب الحوائج منهم، فزيارة قبور المؤمنين لغرضين:

الأول: الاعتبار والاتعاظ، ولأنها تذكر بالآخرة.

الثاني: الدعاء للأموات والاستغفار لهم.

أما قبور المشركين والكفار فيجوز زيارتها لغرض واحد فقط، وهو الاعتبار، أما الدعاء، فلا يُدعى لهم ولا يُستغفر لهم، وهذا يأتي -إن شاء الله- في قوله: (وَهَذِهِ غَيْرُ الزِّيَارَةِ الْمُشْتَرَكَةِ الَّتِي تَجُوزُ فِي قُبُورِ الْكُفَّارِ).

وَهَذِهِ غَيْرُ الزِّيَارَةِ الْمُشْتَرَكَةِ الَّتِي تَجُوزُ فِي قُبُورِ الْكُفَّارِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَأَبِي دَاوُد وَالنَّسَائِي وَابْنِ مَاجَه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: أَتَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ، ثُمَّ قَالَ: «اسْتَأْذَنْت رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، فَاسْتَأْذَنْته أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمْ بِالْآخِرَةِ»[(١)].

فَهَذِهِ الزِّيَارَةُ الَّتِي تَنْفَعُ فِي تَذْكِيرِ الْمَوْتِ تُشْرَعُ وَلَوْ كَانَ الْمَقْبُورُ كَافِرًا، بِخِلَافِ الزِّيَارَةِ الَّتِي يُقْصَدُ بِهَا الدُّعَاءُ لِلْمَيِّتِ، فَتِلْكَ لَا تُشْرَعُ إلَّا فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا الزِّيَارَةُ الْبِدْعِيَّةُ فَهِيَ الَّتِي يُقْصَدُ بِهَا أَنْ يُطْلَبَ مِنْ الْمَيِّتِ الْحَوَائِجُ، أَوْ يُطْلَبَ مِنْهُ الدُّعَاءُ وَالشَّفَاعَةُ، أَوْ يُقْصَدُ الدُّعَاءُ عِنْدَ قَبْرِهِ؛ لِظَنِّ الْقَاصِدِ أَنَّ ذَلِكَ أجوب لِلدُّعَاءِ.

الشَّرح

تقدم أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قسَّم زيارة القبور إلى قسمين: زيارة شرعية، وزيارة بدعية شركية.

والزيارة الشرعية تنقسم -أيضًا- إلى قسمين:

الأول: زيارة يُقصد بها الدعاء للميت، والاستغفار له، والسلام عليه، فهذه شرعية، وفيها نفع للميت، وأجر للحي، لا أن الميت هو الذي ينفع الحي، أو يطلب منه الحي شيئًا، فهذا يأتي في الزيارة الشركية، وهذه خاصة بالمؤمنين هم الذين يُسلم عليهم، ويُدعى لهم، ويُستغفر لهم.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٣).

الثاني: التي يكون القصد منها الاعتبار والاتعاظ، ولكن لا يُدعى للميت، ومنها: زيارة قبور المشركين، فتُشرع زيارة قبور المشركين لأجل الاعتبار والاتعاظ، لا لأجل الدعاء للميت أو الاستغفار له؛ لأن المسلم لا يستغفر للمشرك، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ ﴾ [التوبة:١١٣، ١١٤]، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾، أي: هذا ليس فيه أسوة ولا قدوة ﴿لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة:٤]؛ لأن إبراهيم تبرأ من هذا، فعله في الأول، ثم لما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، فلا يُقتدى بإبراهيم في ذلك، ولا يُتخذ هذا حجة ويُقال: إن إبراهيم استغفر لأبيه، فقال: ﴿ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء:٨٦]؛ لأنه وعد أباه بذلك بقوله: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم:٤٧]، ثم نُهي عن ذلك فامتنع عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فهذا هو القصد من زيارة قبور الكفار: الاعتبار والاتعاظ بأمور الآخرة، فإذا رأيت القبور، وفيها من فيها من الناس، ومنهم العظماء، ومنهم الملوك، ومنهم الأغنياء، فإنك تعتبر وتتعظ، وتعلم أن مصيرك كمصيرهم في يوم قريب أو بعيد، فلابد أن تستعد لهذا الأمر قبل أن يحل بك.

والدليل على ذلك: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ استأذن ربه في أن يزور قبر أمه آمنة بنت وهب، وهي قد ماتت على الشرك، والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ صغير

قريب من الولادة، فأذن له في زيارتها، فدل على مشروعية زيارة المشرك الميت؛ لأجل الاعتبار والاتعاظ.

ثم استأذن ربه أن يستغفر لها، فلم يأذن له، فدل على أن المسلم لا يستغفر للمشرك حيًّا ولا ميتًا، ولمَّا مُنع أن يستغفر لأمه بكى وأبكى من حوله، ثم لم يزرها بعد ذلك.

فالذين يترددون الآن على ما يزعمون أنه قبر أم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأبواء، يعينون جبلًا معينًا، ويضعون عليه أحجارًا وعلامات، ويقولون: هذا قبر أم الرسول. أول شيء: لم يثبت أن هذا قبر أم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثانيًا: لو ثبت، فإن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ما كانوا يترددون على قبرها بعد ما منعه الله عَزَّ وَجَلَّ من الاستغفار لها، وهذا شيء معروف عنهم.

فالذين يترددون الآن، ويحاولون جعل القبر المزعوم أو الحصى المزعوم قبر آمنة، ويزورونه خفية بالليل، ويضعون عليه الطيب والألوان، هذا كله من إحياء سنة الجاهلية، وزرع لعبادة القبور في بلاد التوحيد، ولكن يأبى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يتم لهم ما أرادوا في بلاد التوحيد، ومنبع التوحيد، ومبعث الرسالة، أن تؤسس فيها قبور تُعبد من دون الله.

فهذا هو الدليل على مشروعية زيارة قبور المشركين؛ للاعتبار لاللاستغفار؛ لأن الله منع رسوله أن يستغفر لأمه؛ كما منع إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يستغفر لأبيه، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ

لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣].

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**زُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْآخِرَةَ**». دليل على أن المراد بزيارة القبور الشرعية الأمرين جميعًا، فقبر المؤمن يُزار لتذكر الآخرة، والدعاء والاستغفار له، وأما قبور المشركين فتُزار لأمر واحد فقط، وهو الاعتبار والاتعاظ.

قوله: (وَأَمَّا الزِّيَارَةُ الْبِدْعِيَّةُ: فَهِيَ الَّتِي يُقْصَدُ بِهَا أَنْ يُطْلَبَ مِنْ الْمَيِّتِ الْحَوَائِجُ). هذا النوع الثاني: وهي الزيارة الشركية البدعية، وهي التي يُقصد بها دعاء الميت، وطلب الحوائج منه، والتبرك بقبره، والاستغاثة به.

قوله: (أَوْ يُطْلَبَ مِنْهُ الدُّعَاءُ وَالشَّفَاعَةُ). هذه بدعية لأنها لم تُشرع، وشركية لأن فيها دعاء لغير الله.

قوله: (أَوْ يُقْصَدُ الدُّعَاءُ عِنْدَ قَبْرِهِ). هذه بدعية فقط وليست شركية؛ لأنه لا يدعو الميت، وإنما يظن أن الدعاء عند قبره يُستجاب.

قوله: (لِظَنِّ الْقَاصِدِ أَنَّ ذَلِكَ أَجْوَبُ لِلدُّعَاءِ). أي: أقرب للإجابة، فلايجوز زيارة القبور -ولو كانت قبور أولياء وصالحين ومؤمنين- من أجل التبرك بتربتهم، والاستغاثة بهم، وطلب الحوائج منهم، وطلب الشفاعة منهم، وغير ذلك؛ لأن طلب الحوائج منهم ودعاءهم من دون الله شرك أكبر، كما كانت الجاهلية تعمله عند القبور، وإن كان لا يدعو القبر وإنما يدعو

الله، ولكن يظن أنه إذا دعا عند القبر فإنه سبب لقبول الدعاء، فهذه زيارة بدعية، ووسيلة من وسائل الشرك.

فلا يجوز أن يُتحرى الدعاء عند القبور، وإن كان لا يدعو إلا الله، والذي يريد أن يدعو الله يدعوه في المساجد، أو في أي مكان بعيدًا عن القبور؛ لأن الدعاء عند القبور بدعة ووسيلة من وسائل الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

فَالزِّيَارَةُ عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ كُلِّهَا مُبْتَدَعَةٌ، لَمْ يَشْرَعْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا فَعَلَهَا الصَّحَابَةُ، لَا عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا عِنْدَ غَيْرِهِ، وَهِيَ مِنْ جِنْسِ الشِّرْكِ وَأَسْبَابِ الشِّرْكِ.

وَلَوْ قَصَدَ الصَّلَاةَ عِنْدَ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقْصِدَ دُعَاءَهُمْ وَالدُّعَاءَ عِنْدَهُمْ، مِثْلَ أَنْ يَتَّخِذَ قُبُورَهُمْ مَسَاجِدَ؛ لَكَانَ ذَلِكَ مُحَرَّمًا مَنْهِيًّا عَنْهُ، وَلَكَانَ صَاحِبُهُ مُتَعَرِّضًا لِغَضَبِ اللهِ وَلَعْنَتِهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(١).

وَقَالَ: «قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ». يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا(٢). وَقَالَ: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»(٣).

فَإِذَا كَانَ هَذَا مُحَرَّمًا، وَهُوَ سَبَبٌ لِسَخَطِ الرَّبِّ وَلَعْنَتِهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَقْصِدُ دُعَاءَ الْمَيِّتِ وَالدُّعَاءَ عِنْدَهُ وَبِهِ، وَاعْتَقَدَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ إِجَابَةِ الدَّعَوَاتِ وَنَيْلِ الطَّلَبَاتِ وَقَضَاءِ الْحَاجَاتِ؟ وَهَذَا كَانَ أَوَّلَ أَسْبَابِ الشِّرْكِ فِي قَوْمِ نُوحٍ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ فِي النَّاسِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشَرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ ظَهَرَ الشِّرْكُ بِسَبَبِ تَعْظِيمِ قُبُورِ صَالِحِيهِمْ(٤).

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٥٦).
(٢) أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١) من حديث عائشة وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.
(٣) تقدم تخريجه (ص٢٥٥).
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ٢٧٥)، والحاكم (٢/ ٤٨٠).

وَقَدْ اسْتَفَاضَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، وَفِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ[١] وَقِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣]: أَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا قَوْمًا صَالِحِينَ فِي قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ فَعَبَدُوهُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ثُمَّ صَارَتْ هَذِهِ الْأَوْثَانُ فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ[٢].

الشرح

قوله: (فَالزِّيَارَةُ عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ كُلِّهَا مُبْتَدَعَةٌ). الزيارة التي يُقصد منها دعاء الأموات أو الاستغاثة بهم، هي زيارة بدعية شركية، وأما الزيارة التي يُدعى فيها الله جَلَّ وَعَلَا عند القبر، فهي بدعية، وسواء في ذلك قبر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو قبر غيره، فإن القبور لا تُزار من أجل ذلك.

قوله: (مِثْلَ أَنْ يَتَّخِذَ قُبُورَهُمْ مَسَاجِدَ لَكَانَ ذَلِكَ مُحَرَّمًا مَنْهِيًّا عَنْهُ). لا تتخذ القبور مساجد للصلاة عندها، وإن كان المصلي لا يقصد بصلاته إلا الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأن صلاته عند القبر بدعة، ووسيلة من وسائل الشرك، فيتجنبها المسلم.

قوله: (وَلَكَانَ صَاحِبُهُ مُتَعَرِّضًا لِغَضَبِ اللهِ وَلَعْنَتِهِ). لأن الله لعن اليهود والنصارى؛ لأنهم «اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٦٤٠)، وتفسير القرطبي (١٨/ ٣٠٨)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٢٤٨).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٥٥).

«**لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»(١). أي: يصلون عندها رجاء قبول الدعاء. وفي الحديث الآخر: «**قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى**»، والمقاتلة معناها اللعنة.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ**». أخبرنا أن هذا من سنة الجاهلية، ومعلوم أننا منهيون عن سنة الجاهلية، ثم قال: «أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»، وهذا نهي صريح، ثم قال: «فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»، وهذا تأكيد للنهي.

قوله: (فَإِذَا كَانَ هَذَا مُحَرَّمًا وَهُوَ سَبَبٌ لِسَخَطِ الرَّبِّ وَلَعْنَتِهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَقْصِدُ دُعَاءَ المَيِّتِ وَالدُّعَاءَ عِنْدَهُ وَبِهِ). وهذا هو الغالب على أصحاب الأضرحة أنهم يهتفون بهم، وينادونهم، ويستنجدون بهم، ويبكون عند قبورهم، ويرفعون أيديهم إليهم بالدعاء، فهذا شرك أكبر، أما إذا كان يأتي إلى القبور لأجل أن يدعو الله جَلَّ وَعَلَا، فهذا بدعة؛ لأن هذا ليس موضع دعاء، وهو وسيلة إلى الشرك، كأن يقول: بحق فلان، أو بجاه فلان، فهذا دعاء إلى الله بالصالحين، فهو لا يدعوهم، ولا يطلب منهم قضاء حوائجه، ولكنه يدعو الله عند قبورهم، ظنًّا منه أن ذلك أقرب للإجابة، فلا يجوز دعاء الميت، ولا الدعاء به، وهذا من التوسل الممنوع، وهو بدعة ووسيلة من وسائل الشرك.

قوله: (وَاعْتَقَدَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ إِجَابَةِ الدَّعَوَاتِ وَنَيْلِ الطَّلَبَاتِ وَقَضَاءِ الحَاجَاتِ). وهذا زعم باطل؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا لم يجعل القبور محلًّا لأن

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٣٩).

تُدعى، أو يُستغاث بها، ولم يجعلها مكانًا للعبادة، ولم يجعلها وسيلة إليه، كل هذا من دين الجاهلية، وهذا هو الواقع في كثير من القبوريين اليوم، فمنهم من يعبدها من دون الله، وهذا شرك أكبر، ومنهم من يدعو بأصحابها، ويتوسل بهم، وهذا بدعة أيضًا، ومنهم من يدعو عندها رجاء الإجابة، وهذا بدعة ووسيلة من وسائل الشرك، إنما تُزار القبور للغرض الذي حدَّده النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أنها تُذكر بالآخرة، وإذا كانت قبور مؤمنين، فإن الزائر يدعو للأموات، ويستغفر لهم، ويسلم عليهم.

قوله: (وَهَذَا كَانَ أَوَّلَ أَسْبَابِ الشِّرْكِ فِي قَوْمِ نُوحٍ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ فِي النَّاسِ). الغلو في الصالحين بعد موتهم هو أول أسباب وقوع الشرك في قوم نوح؛ لأنهم كانوا في الأول على التوحيد على دين آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثم لَمَّا غلوا في الصالحين، وصوروهم بعد موتهم، وعكفوا على قبورهم وصورهم، يتبركون ويستغيثون بها، حدث الشرك في الأرض من هذا التاريخ، فأرسل الله نبيه نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ينكر هذا الشرك، ويدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فتبين لنا أن الغلو في الصالحين هو السبب لأول شرك وقع في الأرض، وأنه هو السبب الآن في الشرك الواقع من عُباد القبور.

قوله: (قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشَرَةُ قُرُونٍ). أي: ألف سنة بين آدم ونوح، **(كُلُّهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ)** كلهم على التوحيد، على دين آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح:٢٣]، هذه أسماء رجال صالحين في قوم نوح -كما قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا- ثم آل الأمر بهم إلى أن عبدوا قبورهم وصورهم.

قوله: (قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ثُمَّ صَارَتْ هَذِهِ الْأَوْثَانُ فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ).

هذه الأوثان التي اتخذها قوم نوح، ويزعمون أنها على صور الصالحين، جاء الطوفان الذي أهلك أهل الأرض إلا من نجا مع نوح في السفينة، وإلا فإن الله أغرق أهل الأرض كلهم لمَّا أصرُّوا على الشرك، وأبوا أن يستجيبوا لنوح، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله، فلم يستجيبوا له، عند ذلك دعا عليهم، فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٦، ٢٧].

وقد كان سبب دعائه عليهم أن الله جَلَّوَعَلَا أوحى إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود:٣٦]، فلما أيس من استجابتهم دعا عليهم؛ لئلا يفسدوا في الأرض، فاستجاب الله دعاءه، وأرسل عليهم الطوفان، وهو الماء الذي نبع من الأرض ونزل من السماء، وعلا على رؤوس الجبال، وأصبحت الأرض بحرًا واحدًا فيها أمواج، ولم ينج إلا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن معه في السفينة التي أمره الله بصناعتها، فغمر الطوفان ديار قوم نوح بما فيها من الأوثان، وصارت تحت التراب.

ولم يفطن لها الناس إلى أن جاء وقت عمرو بن لحي الخزاعي[(١)]، وكان ملكًا على الحجاز، وذهب إلى الشام للعلاج، ثم رآهم يعبدون الأصنام، فدخل ذلك في فكره، واستحسنه، وأراد أن يأمر أهل الحجاز بعبادة الأصنام

---

(١) هو: عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي، وهو أول من دعا العرب إلى عبادة الأوثان، كنيته أبو ثمامة، وهو جد «خزاعة» عند كثير من النسابين، ورئيسها عند بعضهم. انظر: الأصنام، لابن الكلبي (ص٨)، والسيرة النبوية، لابن هشام (١/ ٧٦)، واللباب في تهذيب الأنساب (١/ ٤٣٩)، والبداية والنهاية (٢/ ١٨٧).

مثل ما كان هذا في الشام، وهذا بسبب السفر إلى بلاد الشرك وبلاد الكفر، فجاء بأصنام معه من الشام، وأمر الناس بعبادتها، وجاءه الشيطان وقال له: «اذهب إلى جدة» أي: ساحل جدة؛ لأن الأصنام هذه كانت مدفونة في ساحل جدة، قال له الشيطان: (اذهب إلى جدة تجد فيها أصنامًا معدة، فأوردها تهامة ولاتهاب، ثم ادع العرب إلى عبادتها تجاب). فنبش الأصنام من الأرض، ووزعها على أحياء العرب، وألزم الناس بعبادتها والعياذ بالله[1].

فكان عمرو بن لحي أول من غير دين إبراهيم وإسماعيل -عليهما الصلاة والسلام-، والسبب في هذا هو البحث عن الأصنام تحت الأرض، وأن الشيطان هو الذي أرشده إلى هذا، وكذلك الشياطين لا تزال تحرض الناس على البحث عن الأصنام، والتنقيب عنها، ويقولون: هذه من الآثار.

وإذا كان الذين يبحثون عنها يقصدون من ناحية الحضارة والفن، ولكن هذا يؤول إلى عبادتها، كما حصل مع قوم نوح، فبعث هذه الأصنام، وجلبها، وجمعها وسيلة إلى عبادتها، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فهذا عمل لا يجوز.

قوله: (ثُمَّ صَارَتْ هَذِهِ الْأَوْثَانُ فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ). بسبب عمرو بن لحي الذي نبشها من الأرض، ووزعها على العرب، وألزمهم بعبادتها، إلى أن بعث الله نبيه محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ودعا الناس إلى التوحيد، وجاهدهم حتى نصره الله عليهم، وفتح الله على يده مكة، وكسر ما فيها وما حولها من الأصنام: اللات، والعزى، ومناة؛ فانتهت عبادتها.

---

(١) انظر: الأصنام، لابن الكلبي (ص٥٤).

وَقَدْ أَحْدَثَ قَوْمٌ مِنْ مَلَاحِدَةِ الْفَلَاسِفَةِ الدَّهْرِيَّةِ لِلشِّرْكِ شَيْئًا آخَرَ ذَكَرُوهُ فِي زِيَارَةِ الْقُبُورِ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ سِينَا(١)، وَمَنْ أَخَذَ عَنْهُ كَصَاحِبِ الْكُتُبِ الْمَضْنُونِ بِهَا(٢) وَغَيْرِهِ، ذَكَرُوا مَعْنَى الشَّفَاعَةِ عَلَى أَصْلِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَا يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَلَا أَنَّهُ يَعْلَمُ الْجُزْئِيَّاتِ وَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ عِبَادِهِ وَيُجِيبُ دُعَاءَهُمْ. فَشَفَاعَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ عَلَى أَصْلِهِمْ لَيْسَتْ كَمَا يَعْرِفُهُ أَهْلُ الْإِيمَانِ مِنْ أَنَّهَا دُعَاءٌ يَدْعُو بِهِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَيَسْتَجِيبُ اللهُ دُعَاءَهُ؛ كَمَا أَنَّ مَا يَكُونُ مِنْ إِنْزَالِ الْمَطَرِ بِاسْتِسْقَائِهِمْ لَيْسَ سَبَبُهُ عِنْدَهُمْ إِجَابَةَ دُعَائِهِمْ. بَلْ هُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْمُؤَثِّرَ فِي حَوَادِثِ الْعَالَمِ هُوَ قُوَى النَّفْسِ، أَوْ الْحَرَكَاتُ الْفَلَكِيَّةُ، أَوْ الْقُوَى الطَّبِيعِيَّةُ، فَيَقُولُونَ: إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَحَبَّ رَجُلًا صَالِحًا قَدْ مَاتَ -لَا سِيَّمَا إِنْ زَارَ قَبْرَهُ- فَإِنَّهُ يَحْصُلُ لِرُوحِهِ اتِّصَالٌ بِرُوحِ ذَلِكَ الْمَيِّتِ، فِيمَا يَفِيضُ عَلَى تِلْكَ الرُّوحِ الْمُفَارِقَةِ مِنْ الْعَقْلِ الْفَعَّالِ عِنْدَهُمْ أَوْ النَّفْسِ

---

(١) هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا البلخي ثم البخاري، صاحب التصانيف في الطب والفلسفة والمنطق، توفي سنة ثمان وعشرين وأربعمائة. قال الذهبي: «ما أعلمه روى شيئًا من العلم، ولو روى لما حلت الرواية عنه؛ لأنه فلسفي النحلة ضال». انظر: البداية والنهاية (١٢/ ٤٣)، وميزان الاعتدال (٢/ ٢٩٤)، ووفيات الأعيان (٢/ ١٥٧).

(٢) هو: محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي أبو حامد الغزالي، ولد سنة خمسين وأربعمائة، وتفقه على إمام الحرمين، وبرع في علوم كثيرة، وله مصنفات منتشرة في فنون متعددة، من أشهرها: إحياء علوم الدين، فيه غرائب، ومنكرات، وموضوعات. ومن الكتب التي تنسب إليه: كتاب «المضنون به على غير أهله» أو «المضنون الكبير»، وكتاب «المضنون الصغير، الموسوم بالأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية». توفي سنة خمس وخمسمائة. انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٦/ ١٩١)، وطبقات الشافعية (١/ ٢٩٣)، والعبر في خبر من غبر (٤/ ١٠).

الْفَلَكِيَّةِ يَفِيضُ عَلَى هَذِهِ الرُّوحِ الزَّائِرَةِ الْمُسْتَشْفِعَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمَ اللهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ وَقَدْ لَا تَعْلَمُ الرُّوحُ الْمُسْتَشْفَعُ بِهَا بِذَلِكَ. وَمَثَّلُوا ذَلِكَ بِالشَّمْسِ إِذَا قَابَلَهَا مِرْآةٌ فَإِنَّهُ يَفِيضُ عَلَى الْمِرْآةِ مِنْ شُعَاعِ الشَّمْسِ، ثُمَّ إِذَا قَابَلَ الْمِرْآةَ مِرْآةٌ أُخْرَى فَاضَ عَلَيْهَا مِنْ تِلْكَ الْمِرْآةِ، وَإِنْ قَابَلَ تِلْكَ الْمِرْآةَ حَائِطٌ أَوْ مَاءٌ فَاضَ عَلَيْهِ مِنْ شُعَاعِ تِلْكَ الْمِرْآةِ، فَهَكَذَا الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُمْ، وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ يَنْتَفِعُ الزَّائِرُ عِنْدَهُمْ.

وَفِي هَذَا الْقَوْلِ مِنْ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ مَا لَا يَخْفَى عَلَى مَنْ تَدَبَّرَهُ.

الشَّرْح

قوله: (وَقَدْ أَحْدَثَ قَوْمٌ مِنْ مَلَاحِدَةِ الْفَلَاسِفَةِ الدَّهْرِيَّةِ لِلشِّرْكِ شَيْئًا آخَرَ ذَكَرُوهُ فِي زِيَارَةِ الْقُبُورِ). الشرك المعروف في زيارة القبور هو دعاؤها والاستغاثة بها؛ بحجة أنهم رجال صالحون ومقربون إلى الله، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، هذا هو السبب المعروف.

لكن عند الفلاسفة -والفلاسفة جمع فيلسوف، وهو مدعي الحكمة والفلاسفة الغالب عليهم الإلحاد، ولا يتبعون الأنبياء، ومنبعهم وأكثرهم في اليونان- رأي آخر في سر عبادة القبور، فيقولون: إن زائر هذه القبور يفيض عليه من سر هذه القبور مما ينور قلبه؛ لأن هؤلاء نور، وإذا زارهم، فإنه يسري إليه نور من نور هؤلاء، وفيض يفيض عليه من نورهم، فهذا قول الفلاسفة المشركين.

قوله: (كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ سِينَا). ابن سينا مشهور بأنه طبيب، وهو فعلًا طبيب حاذق، وله كتب في الطب، ولكنه كان من ناحية الدين فيلسوفًا باطنيًّا من الإسماعيلية، أبوه يهودي، وهو دخل في الإسلام، ولكنه بقي على الفلسفة والباطنية والعياذ بالله، فهو باطني فيلسوف طبيب، وبعض الناس يعظمه ويقول: هذا من عظماء الإسلام، وهذا غلط، فهو ليس من عظماء الإسلام، بل هو ملحد والعياذ بالله، إنما ميزته أنه طبيب فقط، أما أن يُقال: إنه من عظماء الإسلام، ويُفتخر به، فهذا غلط، ولا يقوله إلا إنسان جاهل لا يعرف حقيقة ابن سينا.

وكتبه الآن الموجودة والمطبوعة كلها إلحاد، ككتاب «الإشارات»، وقد رد عليها شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى، وبيَّن ما عنده من الإلحاد والفلسفة، فلا يُحسب من علماء المسلمين، بل يُحسب من الأطباء.

قوله: (كَصَاحِبِ الْكُتُبِ المَضْنُونِ بِهَا وَغَـيْرِهِ). المضنون بها، أي: المبخول بها، من الضن وهو البخل، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير:٢٤]، قيل: بمتهم، وقيل: ببخيل، أي: الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كان يبخل في بيان الحق، والوحي الذي أُنزل عليه، بل يبلغه.

فهذه الكتب المضنون بها، أي: المبخول بها؛ لأنها كتب بزعمه نفيسة، فلا تُعطى إلا لأهلها، وهي كتب فلسفة وضلال، فهو سماها «المضنون بها»، إلا لمن عنده أهلية، وذلك لأنه يراها معظمة.

وهذه الكتب المضنون بها المشهور أنها للغزالي الذي يسمونه حجة الإسلام، والغزالي كان فقيهًا شافعيًا مبرزًا في الفقه، له مؤلفات في مذهب

الشافعية مشهورة ومعروفة، وهو أصولي من علماء الأصول المبرزين، وله مصنفات كـ«المستصفى» وغيره، وهو مسلم له في الفقه، ومسلم له في الأصول، أما العقيدة فقد تأثر بالفلاسفة، وتأثر بالصوفية، وكتابه «إحياء علوم الدين» مشحون بالتصوف والفلسفة، ويُقال: إن الكتب المضنون بها له أيضًا، وهي تشتمل على مذهب ابن سينا وفلسفته.

قوله: (**فَشَفَاعَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ عَلَى أَصْلِهِمْ لَيْسَتْ كَمَا يَعْرِفُهُ أَهْلُ الْإِيمَانِ**). الشفاعة عند أهل الإيمان هي الوساطة بأن يدعو الشافع الله للمشفوع له، هذه هي الشفاعة الشرعية، وهم يقولون: ليست الشفاعة كذلك، بل الشفاعة إنما هي فيض يفيض على زائر القبر، فإذا زار القبر فاض على قلبه شيء من صاحب القبر.

قوله: (**كَمَا أَنَّ مَا يَكُونُ مِنْ إِنْزَالِ الْمَطَرِ بِاسْتِسْقَائِهِمْ لَيْسَ سَبَبُهُ عِنْدَهُمْ إِجَابَةَ دُعَائِهِمْ. بَلْ هُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْمُؤَثِّرَ فِي حَوَادِثِ الْعَالَمِ هُوَ قُوَى النَّفْسِ أَوْ الْحَرَكَاتُ الْفَلَكِيَّةُ أَوْ الْقُوَى الطَّبِيعِيَّةُ**). يرون أن الذي يتصرف في الكون هو الأفلاك والكواكب، ونزول المطر إنما هو من حركة الكواكب والأفلاك والحوادث الأرضية، كما يقوله المنجمون، والتنجيم هو نسبة الحوادث الأرضية إلى الأحوال الفلكية، وهذا منحدر من مذهب الفلاسفة تمامًا، هم الذين يزعمون أن النجوم والأفلاك تؤثر في الحوادث التي تقع، وليست بأمر الله، ولا صادرة عن الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (**فَيَقُولُونَ: إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَحَبَّ رَجُلًا صَالِحًا قَدْ مَاتَ -لَا سِيَّمَا إِنْ زَارَ قَبْرَهُ- فَإِنَّهُ يَحْصُلُ لِرُوحِهِ اتِّصَالٌ بِرُوحِ ذَلِكَ الْمَيِّتِ**). هذا فائدة زيارة القبر

عندهم: إذا زار قبر رجل صالح، فإنه يفيض من فيض هذا الميت وروحه على روح هذا الزائر، فينتفع بهذا.

قوله: (**فِيمَا يَفِيضُ عَلَى تِلْكَ الرُّوحِ الْمُفَارِقَةِ مِنْ الْعَقْلِ الْفَعَّالِ عِنْدَهُمْ أَوْ النَّفْسِ الْفَلَكِيَّةِ**). والعقل الفعَّال عندهم هو الفلك أو القمر كما يسمونه.

قوله: (**يَفِيضُ عَلَى هَذِهِ الرُّوحِ الزَّائِرَةِ الْمُسْتَشْفِعَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمَ اللهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ وَقَدْ لَا تَعْلَمُ الرُّوحُ الْمُسْتَشْفَعُ بِهَا بِذَلِكَ**). فهو عندهم فيض لايشعر به لا الزائر ولا المزور؛ لأنه فيض طبيعي.

قوله: (**وَمَثَّلُوا ذَلِكَ بِالشَّمْسِ إذَا قَابَلَهَا مِرْآةٌ، فَإِنَّهُ يَفِيضُ عَلَى الْمِرْآةِ مِنْ شُعَاعِ الشَّمْسِ، ثُمَّ إذَا قَابَلَ الْمِرْآةَ مِرْآةٌ أُخْرَى فَاضَ عَلَيْهَا مِنْ تِلْكَ الْمِرْآةِ، وَإِنْ قَابَلَ تِلْكَ الْمِرْآةَ حَائِطٌ أَوْ مَاءٌ فَاضَ عَلَيْهِ مِنْ شُعَاعِ تِلْكَ الْمِرْآةِ**). هذه الفلسفة التي يعظمها الناس كلها تخاريف، ومن هذه الحكايات الباردة من هذا النوع، فيفيض على روح الحي من روح الميت، كما إذا قابلت المرآة الشمس، فإن الشمس تسطع في المرآة، وكذلك نفس الزائر يشبهونها بالمرآة، ونفس الميت يشبهونها بالشمس، وما ذلك إلا تخاريف، لكن العقول إذا انحطت فهذا نتاجها والعياذ بالله.

قوله: (**فَهَكَذَا الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُمْ، وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ يَنْتَفِعُ الزَّائِرُ عِنْدَهُمْ**). هذا هو الأساس عند الفلاسفة، ليس كما يقول القبوريون: إن الميت يشفع للحي وينفعه، ويتوسط له عند الله. إنما هو فيض الأرواح بعضها على بعض، فروح الميت تفيض على روح الحي، ويتأثر بها الزائر من حين تزور القبور؛

لأن الشعاع الذي في القبر ينعكس على قلبه، فيعود بصفاء القلب والسريرة كما يزعمون.

قوله: (وَفِي هَذَا الْقَوْلِ مِنْ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ مَا لَا يَخْفَى عَلَى مَنْ تَدَبَّرَهُ).

أولًا: أن هذا جحود لله عَزَّوَجَلَّ، وأن الذي يدبر الكون هو الأفلاك والنجوم والمخلوقات.

ثانيًا: فيه عبادة لغير الله، واعتقاد أن النفع والضر والخير والشر ليس بيد الله، وإنما هو من هذه الأفلاك، أو من هذه القبور، فهي التي تدبر الكون، وتتصرف فيه بفيضها وصفائها.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْأَوْثَانَ يَحْصُلُ عِنْدَهَا مِنْ الشَّيَاطِينِ وَخِطَابِهِمْ وَتَصَرُّفِهِمْ مَا هُوَ مِنْ أَسْبَابِ ضَلَالِ بَنِي آدَمَ، وَجَعْلِ الْقُبُورِ أَوْثَانًا هُوَ أَوَّلُ الشِّرْكِ، وَلِهَذَا يَحْصُلُ عِنْدَ الْقُبُورِ لِبَعْضِ النَّاسِ مِنْ خِطَابٍ يَسْمَعُهُ وَشَخْصٍ يَرَاهُ وَتَصَرُّفٍ عَجِيبٍ مَا يَظُنُّ أَنَّهُ مِنَ الْمَيِّتِ، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ، مِثْلَ أَنْ يَرَى الْقَبْرَ قَدْ انْشَقَّ وَخَرَجَ مِنْهُ الْمَيِّتُ وَكَلَّمَهُ وَعَانَقَهُ، وَهَذَا يُرَى عِنْدَ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَتَصَوَّرُ بِصُوَرِ الْإِنْسِ، وَيَدَّعِي أَحَدُهُمْ أَنَّهُ النَّبِيُّ فُلَانٌ أَوْ الشَّيْخُ فُلَانٌ، وَيَكُونُ كَاذِبًا فِي ذَلِكَ.

الشَّرْح

انتهى المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قول الفلاسفة، وبدأ يذكر ما يحصل للمبتدعة عند زيارتهم للقبور من المشاهدات، وقضاء الحاجات، وأن هذا كله من شياطين الجن؛ يتصورون للزائرين باسم الأموات، ويقولون لهم: نحن نقضي حوائجكم، نحن نرفع أمركم إلى الله .. إلى غير ذلك، وهم شياطين يريدون أن يضلوا بني آدم، فالأوثان التي تُعبد من دون الله تسكنها الشياطين، وربما إذا جاءها من يعبدها يظهر الشيطان له بصورة، ويزعم له أو يكذب عليه أن هذا هو الصنم الذي تعبده، وأنه يدبر أمرك، وأنه يعطيك ما تريد، والواقع أن هذا حجر ليس فيه شيء، لكن الذي ظهر له شيطان؛ كما حصل عند العزى لمَّا أرسل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خالد بن الوليد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إليها ليهدمها، فخرج خالد في ثلاثين فارسًا من أصحابه إلى العزى؛ حتى انتهى إليها فهدمها، ثم رجع، فقال له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَدَمْتَ؟»، قال: نعم يا رسول الله، قال:

«**هَلْ رَأَيْت شَيْئًا مَا؟**»، قال: لا، قال: «**فَإِنّك لَمْ تَهْدِمْهَا، فَارْجِعْ إلَيْهَا فَاهْدِمْهَا**»، فخرج خالد بن الوليد وهو متغيظ، فلما انتهى إليها جرَّد سيفه، فخرجت إليه امرأة سوداء عريانة ناشرة شعرها، فجعل السَّادن يصيح بها ويقول:

أَيَـا عُـزُّ شُـدِّي شَـدَّةً لا شَوًى لَهَا ... عَلَى خَالِدٍ أَلْقِي الْقِنَاعَ وَشَمِّرِي

أَيَا عُزُّ إِنْ لَمْ تَقْتُلِي الْيَوْمَ خَالِدًا ... فَبُوئِي بِإِثْمٍ عَاجِلٍ أَوْ تَنَصَّرِي

فأقبل خالد بن الوليد بالسيف إليها وهو يقول:

يَا عُزَّ كُفْرَانَكِ لَا سُبْحَانَكِ ... إِنِّي رَأَيْتُ اللهَ قَدْ أَهَانَكِ

فضربها بالسيف، فجزلها باثنتين، ثم رجع إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره، فقال: «**نَعَمْ، تِلْكَ العزَّى**» أي: شيطان «**وَقَدْ يَئِسَتْ أَنْ تُعْبَدَ بِبِلَادِكُمْ أَبَدًا**»[1]. فهذا دليل على أن الشيطان يظهر عند الصنم، كما حصل لخالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والقصة مشهورة.

قوله: (**وَجَعْلِ الْقُبُورِ أَوْثَانًا هُوَ أَوَّلُ الشِّرْكِ**). قد تظهر الشياطين عند القبور وعند الأصنام، وتقضي حوائج بني آدم؛ من أجل أن تضل بني آدم، ويظن الجهَّال أن هذا من تصرف القبور والصالحين وبركتهم، وهو في الحقيقة إنما هو عمل الشياطين، فالقبور لا تتصرف، ولا تعمل شيئًا، والميت قد انقطع عمله، ولا يخرج من قبره أبدًا إلا للبعث والنشور.

---

(١) أخرجه الواقدي في المغازي (٣/ ٨٧٣)، والأزرقي في أخبار مكة (١/ ١٢٢). وأخرجه بنحوه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٤)، وأبو يعلى الموصلي (٢/ ١٩٦)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٧٧)، وفيه: «أن العزى كانت على ثلاث سمرات، فقطع السمرات، وهدم البيت الذي كان عليها...».

قوله: (**وَلِهَذَا يَحْصُلُ عِنْدَ الْقُبُورِ لِبَعْضِ النَّاسِ مِنْ خِطَابٍ يَسْمَعُهُ وَشَخْصٍ يَرَاهُ وَتَصَرُّفٍ عَجِيبٍ مَا يَظُنُّ أَنَّهُ مِنْ الْمَيِّتِ**). يحصل عند القبر للذين يزورون القبور للدعاء والشرك أشياء تغريهم، منها: أنهم يسمعون أصواتًا من داخل القبور تناديهم وترحب بهم وتعدهم، ويظنون أن هذا صوت الميت، وهو في الحقيقة صوت شيطان يريد أن يغريهم، أو يظهر لهم بصورة الميت، ويستقبلهم، ويقضي حوائجهم التي طلبوها، فيظنوا أن هذا هو الميت خرج من قبره، وهو في الحقيقة شيطان؛ لأن الميت لا يخرج من قبره في الدنيا أبدًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس:٣١]، فلا أحد يرجع إلى الدنيا بعدما يموت، إلا إذا بُعث يوم القيامة. فيظهر لهم الشيطان تارة بالصوت، وتارة بالصورة؛ ليُغري هؤلاء الجهال وأصحاب الحاجات.

قوله: (**وَتَصَرُّفٍ عَجِيبٍ**). تُقضى حاجته بسرعة، ويُشفى مريضه، وتحمل زوجته إن كان يريدها أن تحمل، فيظن أن هذا من الميت، وهو من قضاء الله وقدره واستدراج له، قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٢]، وليس هذا من الميت.

قوله: (**مِثْلَ أَنْ يَرَى الْقَبْرَ قَدْ انْشَقَّ وَخَرَجَ مِنْهُ الْمَيِّتُ، وَهَذَا يُرَى عِنْدَ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ**). يُخيل إليه أن القبر انشق وهو لم ينشق، ولاخرج منه ميت، وقد يُخيل إليه أنه يعانقه ويقبله، وهو شيطان من شياطين الجن يخرج لبني آدم بهذه الصورة موهمًا إياهم أنه هو الميت أو الولي.

قوله: (فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَتَصَوَّرُ بِصُوَرِ الْإِنْسِ). الشيطان أعطاه الله قدرة على التصور والتشكل، فيتصور بصورة صاحب القبر، فإذا كان الزائر يعرف صاحب القبر يظهر له بصورته تمامًا، يقول: هذا فلان، وهو شيطان، فالشيطان يتصور أحيانًا بصورة إنسي، وأحيانًا يتصور بصورة حيوان؛ صورة كلب أو ثعبان.

قوله: (وَيَدَّعِي أَحَدُهُمْ أَنَّهُ النَّبِيُّ فُلَانٌ أَوْ الشَّيْخُ فُلَانٌ، وَيَكُونُ كَاذِبًا فِي ذَلِكَ). يدعي أنه النبي أو الولي، فيصدقه الزائر المسكين، ولا شك أنه كاذب؛ لأن الميت لا يخرج من قبره إلا للبعث.

وَفِي هَذَا الْبَابِ مِنَ الْوَقَائِعِ مَا يَضِيقُ هَذَا المَوْضِعُ عَنْ ذِكْرِهِ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَالجَاهِلُ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ الَّذِي رَآهُ قَدْ خَرَجَ مِنَ الْقَبْرِ وَعَانَقَهُ أَوْ كَلَّمَهُ هُوَ المَقْبُورُ أَوْ النَّبِيُّ أَوْ الصَّالِحُ وَغَيْرُهُمَا، وَالمُؤْمِنُ الْعَظِيمُ يَعْلَمُ أَنَّهُ شَيْطَانٌ، وَيَتَبَيَّنُ ذَلِكَ بِأُمُورٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ يَقْرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ بِصِدْقٍ، فَإِذَا قَرَأَهَا تَغَيَّبَ ذَلِكَ الشَّخْصُ، أَوْ سَاخَ فِي الْأَرْضِ، أَوْ احْتَجَبَ، وَلَوْ كَانَ رَجُلًا صَالِحًا أَوْ مَلِكًا أَوْ جِنِّيًّا مُؤْمِنًا لَمْ تَضُرَّهُ آيَةُ الْكُرْسِيِّ، وَإِنَّمَا تَضُرُّ الشَّيَاطِينَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، لَمَّا قَالَ لَهُ الجِنِّيُّ: اقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ إِذَا أَوَيْت إِلَى فِرَاشِك، فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ عَلَيْك مِنْ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُك شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَك وَهُوَ كَذُوبٌ»(١).

وَمِنْهَا أَنْ يَسْتَعِيذَ بِاللهِ مِنْ الشَّيَاطِينِ.

ومِنْهَا أَنْ يَسْتَعِيذَ بِالْعُوَذِ الشَّرْعِيَّةِ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ كَانَتْ تَعْرِضُ لِلْأَنْبِيَاءِ فِي حَيَاتِهِمْ، وَتُرِيدُ أَنْ تُؤْذِيَهُمْ وَتُفْسِدَ عِبَادَتَهُمْ، كَمَا جَاءَتْ الجِنُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِشُعْلَةٍ مِنْ النَّارِ تُرِيدُ أَنْ تُحْرِقَهُ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ بِالْعُوذَةِ المَعْرُوفَةِ الَّتِي تَضَمَّنَهَا الحَدِيثُ المَرْوِيُّ عَنْ أَبِي التَّيَّاحِ أَنَّهُ قَالَ: «سَأَلَ رَجُلٌ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ حبيش -وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ أَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ-: كَيْفَ صَنَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ كَادَتْهُ الشَّيَاطِينُ؟ قَالَ: تَحَدَّرَتْ عَلَيْهِ مِنْ الشِّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ، وَفِيهِمْ شَيْطَانٌ مَعَهُ شُعْلَةٌ مِنْ نَارٍ يُرِيدُ أَنْ يُحْرِقَ بِهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَرَعَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣١١).

قُلْ، قَالَ: «مَا أَقُولُ؟» قَالَ: قُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْ الْأَرْضِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ يَطْرُقُ، إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ. قَالَ: فَطَفِئَتْ نَارُهُمْ، وَهَزَمَهُمْ اللهُ عَزَّوَجَلَّ»(١).

الشرح

قوله: (وَفِي هَذَا الْبَابِ مِنْ الْوَقَائِعِ مَا يَضِيقُ هَذَا الْمَوْضِعُ عَنْ ذِكْرِهِ). وهذا كشف لشبهة خطيرة جدًّا لو أن الناس يعقلون؛ لعرفوا أن الذي يحصل عند القبور ليس له حقيقة، وإنما هو وهم من شياطين الجن، فلا يغتر به أحد، وستأتي قصة عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢).

قوله: (وَالْمُؤْمِنُ الْعَظِيمُ يَعْلَمُ أَنَّهُ شَيْطَانٌ). المؤمن الصادق لا يغتر بهذا، ويعرف أنه شيطان؛ لأن الميت لا يخرج من قبره إلا يوم القيامة.

قوله: (وَيَتَبَيَّنُ ذَلِكَ بِأُمُورٍ). إذا أردت أن تعرف أن هذا شيطان تأتي بأمور تطرد الشيطان عنك، فإذا طرد دل على أنه شيطان.

قوله: (أَنْ يَقْرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ بِصِدْقٍ، فَإِذَا قَرَأَهَا تَغَيَّبَ ذَلِكَ الشَّخْصُ، أَوْ سَاخَ فِي الْأَرْضِ، أَوْ احْتَجَبَ). فإذا قرأ آية الكرسي بصدق وإيمان، وليست

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٥١)، والبيهقي في الدعوات الكبير (٢/ ٣١٧).
(٢) ستأتي ترجمته في موضعها.

قراءة لفظية، فلن يرى الشيطان أبدًا؛ لأنه يفر من سورة البقرة، وآية الكرسي، حتى النائم إذا أراد ينام وقرأها لا يقربه شيطان حتى يصبح. فإذا قرأها على هذا الشخص الذي يقول: أنا فلان، وهو شيطان، فإنه يتغيب أو يغوص في الأرض، أو يختفي.

قوله: (وَلَوْ كَانَ رَجُلًا صَالِحًا أَوْ مَلِكًا أَوْ جِنِّيًّا مُؤْمِنًا لَمْ تَضُرَّهُ آيَةُ الْكُرْسِيِّ). فالمؤمن لا تطرده آية الكرسي، بل يفرح بها وبذكر الله عَزَّوَجَلَّ، فكونه يهرب حين قراءتها يدل على أنه شيطان، ولو كان هو الرجل الصالح أو النبي لسر بذلك وفرح. **وقوله: (جِنِّيًّا مُؤْمِنًا)**؛ لأن الجن فيهم مؤمن وكافر.

قوله: (كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ...). أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حارسًا على تمر الصدقة، فكان يأتيه شخص بالليل، ويأخذ من التمر يحثو منه، فإذا أمسكه أبو هريرة اعتذر منه وقال له: اتركني ولن أعود أبدًا، ويشتكي له الفقر وكثرة العيال، فيتركه، ثم في الليلة الثانية يعود، وكذلك في الليلة الثالثة، ثم لمَّا أمسك به في الليلة الأخيرة قال له: أنت وعدتني أنك لن تعود وقد عدت، لن أطلقك حتى أسلمك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. عند ذلك قال له: اتركني وأعلمك شيئًا ينفعك: إذا أويت إلى فراشك اقرأ آية الكرسي، فلا يقربك شيطان. فلما أخبر أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟**»، قال: لا، قال: «**ذَاكَ شَيْطَانٌ**»، فدل على أن آية الكرسي تطرد الشيطان.

قوله: (ومِنْهَا أَنْ يَسْتَعِيذَ بِاللهِ مِنْ الشَّيَاطِينِ). ومما يطرد الشياطين -أيضًا- الاستعاذة بالله جَلَّ وَعَلَا، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ أي: لُذْ بالله عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت:٣٦]، فالاستعاذة بالله تطرد الشيطان.

قوله: (ومِنْهَا أَنْ يَسْتَعِيذَ بِالْعُوَذِ الشَّرْعِيَّةِ). ومنها أن المسلم إذا عرض له الشيطان فإنه يستعيذ بالله منه، فإذا استعاذ بالله منه أعاذه الله عَزَّوَجَلَّ، وقد حصل هذا للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاءه الشيطان وهو يصلي يريد أن يشوش عليه صلاته، فاستعاذ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالله منه، وخنق الشيطان حتى أراد أن يمسكه ويربطه بسارية المسجد، إلا أنه ذكر أن سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ سخر الله له الشياطين، وأعطاه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فترك الشيطان يذهب[(١)].

قوله: (فَطَفِئَتْ نَارُهُمْ وَهَزَمَهُمْ اللهُ عَزَّوَجَلَّ) بهذا الذكر، فينبغي للمسلم أنه يتعلمه، فإذا أحس بشيء من الشيطان يأتي به، ولن يجده بعد ذلك.

---

(١) سيأتي نصه في كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الجِنِّ جَاءَ يَفْتِكُ بِي الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي، فَأَمْكَنَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ فذعته، فَأَرَدْت أَنْ آخُذَهُ فَأَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنَ المَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا فَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص:٣٥]، فَرَدَّهُ اللهُ تَعَالَى خَاسِئًا»(١).

وَعَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّي، فَأَتَاهُ الشَّيْطَانُ، فَأَخَذَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَرَعَهُ، فَخَنَقَهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَتَّى وَجَدْت بَرْدَ لِسَانِهِ عَلَى يَدِي، وَلَوْلَا دَعْوَةُ سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوثَقًا حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ»(٢). أَخْرَجَهُ النَّسَائِي، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو عَبْدِ اللهِ المقدسي(٣) فِي مُخْتَارِهِ، الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنْ صَحِيحِ الحَاكِمِ(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٢).

(٣) هو: محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن، ضياء الدين المقدسي الجماعيلي ثم الدمشقي الصالحي الحنبلي، صاحب التصانيف والرحلة الواسعة، واسم مختاره: «الأحاديث الجياد المختارة مما ليس في الصحيحين أو أحدهما»، مرتب على المسانيد على حروف المعجم. ولد سنة تسع وستين وخمسمائة بقاسيون، أجاز له الحافظ السلفي، وسمع من أبي المظفر ابن السمعاني، وعبدالقادر الرهاوي، وأبي الفرج ابن الجوزي، وغيرهم كثير، توفي سنة ثلاث وأربعين وستمائة. انظر: سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٢٦)، والمقصد الأرشد (٢/ ٤٥٠)، وهدية العارفين (٦/ ١٢٣).

(٤) هو: محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه، أبو عبد الله الحاكم، المعروف بابن البيع، من أهل نيسابور، ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، رحل في طلب الحديث، وتفقه على أبي علي ابن أبي هريرة، وأبي الوليد النيسابوري، وأبي سهل الصعلوكي، وغيرهم، أخذ عنه أبو بكر البيهقي فأكثر عنه وبكتبه تفقه وتخرج، صنف الكتب الكبار والصغار، منها: «المستدرك على الصحيحين»، و«علوم الحديث»، و«تاريخ نيسابور»، توفي سنة =

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّي صَلَاةَ الصُّبْحِ وَهُوَ خَلْفَهُ، فَالْتَبَسَتْ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةُ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ: «لَوْ رَأَيْتُمُونِي وَإِبْلِيسَ فَأَهْوَيْت بِيَدِي، فَمَا زِلْت أَخْنُقُهُ حَتَّى وَجَدْت بَرْدَ لُعَابِهِ بَيْنَ أُصْبُعَيَّ هَاتَيْنِ -الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا- وَلَوْلَا دَعْوَةُ أَخِي سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مَرْبُوطًا بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ يَتَلَاعَبُ بِهِ صِبْيَانُ الْمَدِينَةِ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ أَحَدٌ فَلْيَفْعَلْ»(١). رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَأَبُو دَاوُد فِي سُنَنِهِ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ قَالَ: «قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي، فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنْك»، ثُمَّ قَالَ: «أَلْعَنُك بِلَعْنَةِ اللهِ» ثَلَاثًا، وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، سَمِعْنَاك تَقُولُ شَيْئًا فِي الصَّلَاةِ لَمْ نَسْمَعْك تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَرَأَيْنَاك بَسَطْت يَدَك. قَالَ: «إنَّ عَدُوَّ اللهِ إبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي، فَقُلْت: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْك ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْت: أَلْعَنُك بِلَعْنَةِ اللهِ التَّامَّةِ، فَاسْتَأْخَرَ. ثُمَّ أَرَدْت أَنْ آخُذَهُ، وَلَوْلَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ الْمَدِينَةِ»(٢).

الشَّرح

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ثُمَّ ذَكَرْت قَوْلَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ). لأن التمكن من الشياطين إنما أُعطيه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ استجابة لدعوته: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ

=خمس وأربعمائة. ينظر: تاريخ بغداد (٥/ ٤٧٣)، وسير أعلام النبلاء (١٧/ ١٦٢)، وطبقات الشافعية (١/ ١٩٣).

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٨٢) مطولًا، وأخرجه أبو داود (٦٩٩) مختصرًا.

(٢) أخرجه مسلم (٥٤٢).

لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾، فَذَكَر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعوة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ فترك هذا الشيطان.

قوله: (وَعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كَانَ يُصَلِّي ... حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ).**

الحديث رواه الضياء المقدسي في كتابه «الأحاديث المختارة مما ليس في الصحيحين»، وهو كتاب جيد، وطُبع الآن في مجلدات، يقول الشيخ: إنه أحسن من صحيح الحاكم أبي عبد الله، وهو «المستدرك على الصحيحين».

قوله: (وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كَانَ يُصَلِّي صَلاةَ الصُّبْحِ ... وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ أَحَدٌ فَلْيَفْعَلْ).** الحاصل من هذا: أن الشياطين كانت تحاول أن تؤثر على الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فكيف بغيرهم؟ فعلى المسلم أنه يتحصن منهم بذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، وتلاوة الأوراد الشرعية.

قوله: (وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ...). كل هذه الأحاديث بمعنى واحد، وتدل على أن الشياطين كانت تعرض للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صلاته وتهدده، ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ يحميه منهم بالذكر، وتلاوة القرآن، والاستعاذة بالله، وهكذا ينبغي لكل مسلم.

والشاهد من هذا: أن الإنسان لا يغتر بظهور الشياطين، ويظن أنهم هم الأولياء والصالحون، وإنما هم شياطين فلا يغتر بهذا.

فَإِذَا كَانَتْ الشَّيَاطِينُ تَأْتِي الْأَنْبِيَاءَ -عَلَيْهِمْ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- لِتُؤْذِيَهُمْ وَتُفْسِدَ عِبَادَتَهُمْ، فَيَدْفَعُهُمْ اللهُ تَعَالَى بِمَا يُؤَيِّدُ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ مِنَ الدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ وَالْعِبَادَةِ وَمِنْ الجِهَادِ بِالْيَدِ؛ فَكَيْفَ مَنْ هُوَ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ؟. فَالنَّبِيُّ ﷺ قَمَعَ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالجِنِّ بِمَا أَيَّدَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْأَعْمَالِ، وَمِنْ أَعْظَمِهَا الصَّلاةِ وَالجِهَادِ. وَأَكْثَرُ أَحَادِيثِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلاةِ وَالجِهَادِ.

فَمَنْ كَانَ مُتَّبِعًا لِلْأَنْبِيَاءِ نَصَرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِمَا نَصَرَ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ، وَأَمَّا مَنْ ابْتَدَعَ دِينًا لَمْ يَشْرَعُوهُ، فَتَرَكَ مَا أَمَرُوا بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَاتِّبَاعِ نَبِيِّهِ فِيمَا شَرَعَهُ لِأُمَّتِهِ، وَابْتَدَعَ الْغُلُوَّ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالشِّرْكَ بِهِمْ، فَإِنَّ هَذَا تَتَلَعَّبُ بِهِ الشَّيَاطِينُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩، ١٠٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢].

الشَّرح

قوله: (فَإِذَا كَانَتْ الشَّيَاطِينُ تَأْتِي الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمْ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ). هذه النتيجة من سياق الأحاديث.

قوله: (فَكَيْفَ مَنْ هُوَ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ؟). فلا يُظن أن الذين يخرجون إلى زوار الأضرحة هم الأموات والصالحون، إنما هم شياطين يريدون أن يضلوا بني آدم. ولا زال السياق في بيان أن الشياطين تأتي لتضل الناس، إما بتهديد،

وإما بترغيب؛ حتى يخضعوا لها، وإذا كانوا لا يخضعون مثل الرسل، فإنها تحاول أن تفسد أعمالهم من باب الحسد، كما حصل للنبي ﷺ في الأحاديث السابقة أن الشيطان عرض له في صلاته، وأراد أن يشوش عليه صلاته، حتى إنه أتاه بشهاب من نار يريد أن يؤذيه، ولكن النبي ﷺ مؤيد من قبل الله، فلا سبيل للشيطان عليه، فلذلك نصره الله عليه، وأمسكه حتى كاد يربطه بسارية المسجد؛ لأن الله نصره عليه، وأبطل كيده. فإذا كانت الشياطين تفعل هذا مع الأنبياء والله يحميهم، فكيف لا تفعل هذا مع من هو دون الأنبياء ممن يدَّعون الصلاح والعبادة، لكنهم على جهل؟!

يأتونهم بأشياء يتظاهرون أنها من خوارق العادات، ومن كرامات الأولياء، فيغرونهم بها، ويزعمون أنها حصلت لهم من باب الكرامة من الله، وهي في الحقيقة من كيد الشيطان، فيضلون بسبب ذلك، مثل كثير من الصوفية والقبورية، يضلون بسبب هذه الأشياء التي تظهر على أنها خوارق عادات وكرامات، ويظنون أنهم حصلوا عليها بسبب العبادة، وهي بالعكس خوارق شيطانية؛ لأجل إضلالهم بها، هذا هو المقصود.

فلا يُغتر بما تظهره الشياطين لمن يعبدون القبور، أو التماثيل والأصنام؛ لأن الشياطين تظهر لهم بمظهر معين، وقد تحملهم في الهواء، وتسير بهم على الماء، ونحو ذلك، كما يحصل كثيرًا للسحرة وغيرهم بسبب أن بني آدم خضعوا للشياطين، فخدمتهم الشياطين؛ لأجل إفساد عقيدتهم.

فيجب على المسلم أن يكون حذرًا من كيد الشيطان، وأن يعرف نفسه، وأنه مقصر ومذنب، وأنه بحاجة إلى المغفرة، فلا يغتر بنفسه ويدَّعي أنه من

الأولياء، وله تصرف في الكون، كما حصل لهؤلاء المغرورين من مشايخ الطرق، ومن سدنة القبور، وغيرهم.

ومعلوم أن من دون الأنبياء ليس معهم مثل إيمان الأنبياء، وليس معهم نصرة مثل ما مع الأنبياء، فهم أولى بأن يغتروا بالشياطين، وينخدعوا بذلك.

قوله: (**فَالنَّبِيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَمَعَ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ**). لأن الإنس لهم شياطين يروجون الباطل، ويدعون إليه بشبه وضلالات، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قمعهم وأبطل كيدهم بالقرآن والسنة، وكذلك قمع شياطين الجن، مثلما حصل لهذا الشيطان الذي عرض للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (**وَمِنْ أَعْظَمِهَا الصَّلاةِ وَالجِهَادِ. وَأَكْثَرُ أَحَادِيثِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فِي الصَّلاةِ وَالجِهَادِ**). لأن الصلاة كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣]، فالصلاة فيها جهاد للنفس، وجهاد للشياطين والأعداء، والله جَلَّ وَعَلَا يعين المصلين على مشاق الحياة والأعداء، بخلاف الذين يضيعون الصلاة، فتتسلط عليهم أعداؤهم، ولا يكون لهم عون من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وقد تكاثرت الأحاديث في الحث على الصلاة؛ لما فيها من الإعانة للعبد وحمايته، ولكونها تقرب العبد من الله بذكره، قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥].

وكذلك الجهاد وهو على نوعين: جهاد باللسان والحجة، وجهاد بالسيف والسنان. فالله جَلَّ وَعَلَا يؤيد أهل الإيمان بهاتين الخصلتين.

فالجهاد يقمع شياطين الجن والإنس، وما ترك قوم الجهاد في سبيل الله وهم يقدرون عليه إلا سلط الله عليهم شياطين الإنس والجن، فالجهاد يقمع الشياطين، ويرد كيدهم، فهم لا يقفون، إذا سنحت لهم الفرصة دخلوا على المسلمين؛ للإضرار بهم، ولإزالة الدين، فليس إذا تركناهم تركونا، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة:٢١٧]، فهم ليسوا إذا تركناهم تركونا، وإنما يتسلطون علينا، والله جَلَّوَعَلَا قال لنبيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة:٧٣]، فالكفار يجاهدون بالسلاح، والمنافقون يُجاهدون بالحجة، ورد باطلهم وشبهاتهم.

قوله: (**فَمَنْ كَانَ مُتَّبِعًا لِلْأَنْبِيَاءِ نَصَرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِمَا نَصَرَ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ**). كما أن الله نصر الأنبياء على أعدائهم من شياطين الإنس والجن، فإنه سبحانه ينصر أتباع الأنبياء بما نصر به الأنبياء.

قوله: (**وَأَمَّا مَنْ ابْتَدَعَ دِينًا لَمْ يَشْرَعُوهُ فَتَرَكَ مَا أَمَرُوا بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَاتِّبَاعِ نَبِيِّهِ فِيمَا شَرَعَهُ لِأُمَّتِهِ، وَابْتَدَعَ الْغُلُوَّ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالشِّرْكَ بِهِمْ، فَإِنَّ هَذَا تَتَلَعَّبُ بِهِ الشَّيَاطِينُ**). هذه فائدة عظيمة أن من تمسك بالدين وتابع الأنبياء نصره الله، ولن يستطيع العدو أن يتغلب عليه، بل هو الذي يتغلب عدوه، إذا استقام على الدين، وتمسك السنة في العقيدة، والعمل، والآداب، والأخلاق، فإن الله ينصره، أما إذا تعلق بالبدع ورغب فيها، وهجر السنن، فعلى العكس يذله الله ويسلط عليه أعداءه، ولذلك كم عدد المسلمين اليوم؟ إن صدق عدهم يقولون: مليارًا أو أكثر، أين هم؟ أليس أصحاب بدر كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر فنصرهم الله على أهل الكفر،

ودوى نصرهم في العالم إلى الآن؟ فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله؛ بسبب أنهم ساروا على شرع الله عَزَّوَجَلَّ، والآن لمَّا صار كثير من المسلمين مبتدعة قبورية صوفية، ويتهكمون بمن دعاهم إلى السنة وإلى العقيدة الصحيحة، ويحذرون منه، ماذا كان واقع المسلمين اليوم مع الأسف؟

تسلط عليهم عدوهم، وأخذ ما بأيديهم واستذلهم، وصاروا تابعين للأعداء، يهددونهم صباح ومساء؛ لأنهم تخلوا عن الله، فتخلى الله عنهم، أحيوا البدع، وهجروا السنن، وأقاموا الأضرحة، وعملوا بالبدع الشركية والعملية، وتركوا الدين الصحيح، فماذا كانت النتيجة الآن مع كثرة المسلمين، ومع أن أغلب المسلمين بأيديهم ثروات يحتاجها العدو؟

أعطى الله بعض المسلمين ثروات ليست عند العدو، والعدو بحاجة إلى هذه الثروات، فلو أن المسلمين تمسكوا بدينهم تمسكًا صحيحًا واعتزوا به؛ لأذل الله عدوهم.

قوله: (قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾**)**. هذه الآيات فاصلة في بيان الحق ورد الباطل، وتُبين من الذي يتسلط عليه الشيطان، وأنه يتسلط على الذين يتولونه، يتبعونه، ويقبلون وساوسه، ويروجون شبهاته.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾، كيف يكونون مشركين بالشيطان؟

نعم، الذين يعبدون القبور والأضرحة مشركون بالشيطان؛ لأن الشيطان هو الذي أمرهم بهذا، فهم أطاعوا أمر الشيطان، وعصوا أمر الرحمن،

والله جَلَّوَعَلَا قال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ [يس:٦٠-٦٢]، فبسبب انحيازهم للشيطان سلَّطه الله عليهم، أما الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، فليس له عليهم سلطان، ولا يقدر أبدًا عليهم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾، أي: قوة وحجة، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بربهم الإيمان الصحيح، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، فلا يتوكلون على غيره، ونص على التوكل هنا؛ لأن العبد إذا لم يذل أمام المهددات أو المغريات، ولم يتفاعل مع التهديد والوعيد، ولا مع الوعود والترغيب، بل توكل على الله، وفوَّض أمره إلى الله جَلَّوَعَلَا، فهذا ينصره الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾، أي:لا تقدر عليهم؛ لأنهم في حماية الله، ومن كان في حماية الله، فلن يضره أحد، يجير ولا يُجار عليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولكن الشأن في الصدق مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ أي: العباد الخواص؛ لأن جميع الخلق يسمون عبادًا المؤمن منهم والكافر، ولكن المراد هنا العبودية الخاصة؛ كما في الآية الأخرى لما قال الشيطان لربه: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:٨٢، ٨٣]، ما قال: عبادك، وسكت، بل قال: المخلصين، فالعبودية على قسمين:

القسم الأول: عبودية عامة تشمل المؤمن والكافر.

القسم الثاني: عبودية خاصة بالمؤمنين، وهي عبودية تشريف وتكريم.

ومِنْهَا أَنْ يَدْعُوَ الرَّائِي بِذَلِكَ رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِيُبَيِّنَ لَهُ الحَالَ، ومِنْهَا أَنْ يَقُولَ لِذَلِكَ الشَّخْصِ: أَأَنْت فُلانٌ؟ وَيُقْسِمُ عَلَيْهِ بِالْأَقْسَام المُعَظَّمَةِ، وَيَقْرَأُ عَلَيْهِ قَوَارِعَ الْقُرْآنِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَضُرُّ الشَّيَاطِينَ.

وَهَذَا كَمَا إِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْعِبَادِ يَرَى الْكَعْبَةَ تَطُوفُ بِهِ، وَيَرَى عَرْشًا عَظِيمًا وَعَلَيْهِ صُورَةٌ عَظِيمَةٌ، وَيَرَى أَشْخَاصًا تَصْعَدُ وَتَنْزِلُ فَيَظُنُّهَا المَلَائِكَةَ، وَيَظُنُّ أَنَّ تِلْكَ الصُّورَةَ هِيَ اللهُ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ، وَيَكُونُ ذَلِكَ شَيْطَانًا.

وَقَدْ جَرَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ لِغَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ النَّاسِ، فَمِنْهُمْ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ وَعَرَفَ أَنَّهُ الشَّيْطَانُ، كَالشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ[(١)] فِي حِكَايَتِهِ المَشْهُورَةِ، حَيْثُ قَالَ: كُنْت مَرَّةً فِي الْعِبَادَةِ فَرَأَيْت عَرْشًا عَظِيمًا وَعَلَيْهِ نُورٌ، فَقَالَ لِي: يَا عَبْدَ الْقَادِرِ، أَنَا رَبُّك، وَقَدْ حَلَلْت لَك مَا حَرَّمْت عَلَى غَيْرِك. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؟ اخْسَأْ يَا عَدُوَّ اللهِ. قَالَ: فَتَمَزَّقَ ذَلِكَ النُّورُ وَصَارَ ظُلْمَةً، وَقَالَ: يَا عَبْدَالْقَادِرِ نَجَوْت مِنِّي بِفِقْهِكَ فِي دِينِكَ، وَعِلْمِكَ وَبِمُنَازَلَاتِكَ فِي أَحْوَالِكَ، لَقَدْ فَتَنْتُ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ سَبْعِينَ رَجُلًا. فَقِيلَ لَهُ: كَيْفَ عَلِمْتَ أَنَّهُ الشَّيْطَانُ؟

---

(١) هو: أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكي محيي الدين الجيلي، الحنبلي، شيخ بغداد، مولده بجيلان سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، قدم بغداد شابًا، فتفقه على أبي سعد المخرمي، وسمع أبا غالب الباقلاني، وأحمد بن المظفر بن سوس، وجعفر بن أحمد السراج، وطائفة، وعنه عمر بن علي القرشي، وموفق الدين ابن قدامة، وعبد الرزاق وموسى ولداه، وغيرهم، قال ابن كثير: «كان له سمت حسن، وصمت غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان فيه تزهد كثير، وله أحوال صالحة ومكاشفات، ولأتباعه وأصحابه فيه مقالات، ويذكرون عنه أقوالًا وأفعالًا ومكاشفات أكثرها مغالاة». توفي سنة إحدى وستين وخمسمائة. انظر: البداية والنهاية (١٢/ ٢٥٢)، وذيل طبقات الحنابلة (٢/ ١٨٦)، وسير أعلام النبلاء (١٥/ ١٧٩).

قَالَ: بِقَوْلِهِ لِي: حَلَلْت لَك مَا حَرَّمْت عَلَى غَيْرِك. وَقَدْ عَلِمْت أَنَّ شَرِيعَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لَا تُنْسَخُ وَلَا تُبَدَّلُ، وَلِأَنَّهُ قَالَ: أَنَا رَبُّك. وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَقُولَ: أَنَا اللهُ الَّذِي لَا إلَهَ إلَّا أَنَا.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ الْمَرْئِيَّ هُوَ اللهُ، وَصَارَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ اللهَ تَعَالَى فِي الْيَقَظَةِ، وَمُسْتَنَدُهُمْ مَا شَاهَدُوهُ. وَهُمْ صَادِقُونَ فِيمَا يُخْبِرُونَ بِهِ، وَلَكِنْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الشَّيْطَانُ.

الشَّرْح

قوله: (ومِنْهَا أَنْ يَدْعُوَ الرَّائِي بِذَلِكَ رَبَّهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لِيُبَيِّنَ لَهُ الحَالَ). إذا أخلص العبد إيمانه بالله جَلَّوَعَلَا، وتوكل عليه، ودعاه وحده لا شريك له، فإن نصر الله آتيه لا محالة.

والدعاء سلاح المؤمن، ومقامه عظيم، فإذا دعا العبد ربه صادقًا في دعوته، فإن الله جَلَّوَعَلَا يجيبه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦]، فإن حصل الدعاء ولم تحصل إجابة فالخلل مِنْ قِبل العبد، وليس كل دعاء يُستجاب؛ لوجود موانع من الإجابة، وإلا لو أن الإنسان تخلى عن الموانع فإن الله قريب مجيب.

قوله: (أَنْ يَقُولَ لِذَلِكَ الشَّخْصِ: أَأَنْت فُلانٌ؟ وَيُقْسِمُ عَلَيْهِ بِالْأَقْسَامِ الْمُعَظَّمَةِ، وَيَقْرَأُ عَلَيْهِ قَوَارِعَ الْقُرْآنِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَضُرُّ الشَّيَاطِينَ). أي: إذا عرض الشيطان وظهر عند القبر، وقال: أنا فلان الميت،

وأنا أسمع دعاءكم، وأنا أحضر لكم ما تريدون، فالدهماء يظنون أن هذا هو الميت حقًّا، ولكن الحقيقة أنه شيطان تصور بصورة الميت؛ ليغريهم ويخدعهم، فالمؤمن لا يغتر بهذا، بل يخاصمه ويستحلفه بالله، فإن كان شيطانًا فلن يحلف بالله؛ لأنه يخشى من العقوبة، ويعلم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ.

كذلك يقرأ عليه القرآن، فإذا قرأ عليه القرآن ضاع؛ لأن الشياطين لاتقرب القرآن، ولا تقرب ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا ظهر عند القبر، فعليه أنه يقرأ القرآن، ويرى هل يبقى أو لا، فإذا ذهب، فهو شيطان بلا شك.

قوله: (**وَهَذَا كَمَا إِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْعِبَادِ يَرَى الْكَعْبَةَ تَطُوفُ بِهِ**). الشيطان يأتي بحيل كثيرة قد لا تتصورها العقول، فيأتي عند المغرور الجاهل، فيصور له أن الكعبة جاءت عنده، وأنها تطوف به، ويعتبر هذا من كرامته وعظمته وإيمانه، وهو كذب محض، فالكعبة لا تأتي ولا تطوف بأحد، الكعبة بيت الله عَزَّوَجَلَّ مصونة محفوظة، فهو يخيل له صورة الكعبة؛ ليتلاعب به ويغره.

قوله: (**وَيَرَى عَرْشًا عَظِيمًا وَعَلَيْهِ صُورَةٌ عَظِيمَةٌ، وَيَرَى أَشْخَاصًا تَصْعَدُ وَتَنْزِلُ، فَيَظُنُّهَا الْمَلَائِكَةَ، وَيَظُنُّ أَنَّ تِلْكَ الصُّورَةَ هِيَ اللهُ -تَعَالَى وَتَقَدَّسَ- وَيَكُونُ ذَلِكَ شَيْطَانًا**). كذلك يخيل لبعض المغرورين أنه يرى عرشًا عظيمًا بين السماء والأرض، وعليه جسم عظيم ونور، فيظن المغرور أن هذا عرش الله، والذي عليه هو الله، وما هو إلا شيطان، ويظن أن الذين ينزلون ويصعدون هم الملائكة، وهذا كله تدجيل وكذب.

قوله: (وَقَدْ جَرَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ لِغَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ النَّاسِ، فَمِنْهُمْ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ وَعَرَفَ أَنَّهُ الشَّيْطَانُ، كَالشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ). الشيخ عبدالقادر الجيلاني من أئمة الحنابلة، فيه صلاح ودين وفقه وعلم، وهو الذي تحاك حوله الخرافات، وينتسب إليه الصوفية، والطريقة القادرية نسبة إلى عبد القادر، وهو بريء منهم ومن هذه الطريقة وأصحابها؛ لأنه رجل صالح وعالم مستقيم.

ولما قال له الشيطان: (أَنَا رَبُّكَ، وَقَدْ حَلَلْتُ لَكَ مَا حَرَّمْتُ عَلَى غَيْرِك)، قال له: (أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)، ما استطاع أن يقول: أنا الله؛ لأنه لاأحد يتسمى بالله أبدًا، لا الشياطين ولا غيرهم، لا أحد يستطيع أن يقول عند التحدي: أنا الله، وإنما يقول: أنا ربك، مثلما قال فرعون لبني إسرائيل: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، فلما قال الشيطان لعبدالقادر: (أَنَا رَبُّكَ) تحدَّاه، وقال له: (أَنْتَ اللهُ؟)، فلم يستطع أن يقول: أنا الله.

انظر للفقه والعلم، لم يستطع أن يقول: أنا الله، فاستدل بذلك على أنه كذاب، ثم قال له: (اخْسَأْ يَا عَدُوَّ اللهِ)، لمَّا تلجلج ولم يستطع، فانكشف حينئذٍ واضمحل، وذهب هذا العرش والنور.

قوله: (فَتَمَزَّقَ ذَلِكَ النُّورُ وَصَارَ ظُلْمَةً، وَقَالَ: يَا عَبْدَ الْقَادِرِ، نَجَوْت مِنِّي بِفِقْهِك فِي دِينِك وَعِلْمِك، وَبِمُنَازَلَاتِك فِي أَحْوَالِك). نعم، الفقه في الدين كان سببًا في نجاة عبد القادر من الشيطان، أما لو كان من الجهال لتردد في هذا، أو اغتر، وفرح بهذا الشيء، وظن أن هذا هو الله، لكن العلم والفقه في الدين يعصم الله به العالم.

قوله: (لَقَدْ فَتَنْت بِهَذِهِ الْقِصَّةِ سَبْعِينَ رَجُلًا). يتخيل لهم أن له عرشًا، وأنه فوق النور، فيضلهم،فلما كان عبد القادر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عالمًا فقيهًا نجاه الله من كيده.

ولما سُئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كَيْفَ عَلِمْتَ أَنَّهُ الشَّيْطَانُ؟)** قال: **(بِقَوْلِهِ لِي: حَلَلْتُ لَكَ مَا حَرَّمْتُ عَلَى غَيْرِكَ).** انظر لفقهه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهو يعلم أن التحليل والتحريم انتهى بموت الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، فبعد وفاة الرسول لا ينزل تحليل ولا تحريم، فعرف عبد القادر أنه شيطان كذاب، وهذا من الفقه في دين الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (وَقَدْ عَلِمْت أَنَّ شَرِيعَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تُنْسَخُ وَلَا تُبَدَّلُ). ليس هناك نسخ ولا تبديل ولا تغيير بعد موت الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، استقرت الشريعة إلى أن تقوم الساعة، وهي مستقرة محفوظة ولله الحمد، لا أحد يستطيع أن يغير فيها.

قوله: (وَلِأَنَّهُ قَالَ: أَنَا رَبُّك، وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَقُولَ: أَنَا اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا).

فعرف كذبه بأمرين:

الأول: إنه ما استطاع أن يقول: أنا الله الذي لا إله إلا أنا.

والثاني: أنه يحلل ويحرم بعد وفاة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ الْمَرْئِيَّ هُوَ اللهُ). من هؤلاء الذين يتراءى لهم الشيطان من يصدق الشيطان، ويظن أن هذا الذي تراءى له هو الله، وأن الذي خاطبه هو الله، وهذا كثير عند الصوفية، يقولون: نحن نتلقى علمنا من الله، ولا نتلقاه عن أحد، لا من الرسل، ولا من غيرهم، الرسل للعوام، أما نحن فقد وصلنا إلى الله، نأخذ عنه مباشرة.

قوله: (وَصَارَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ اللهَ تَعَالَى فِي الْيَقَظَةِ).

الله جَلَّوَعَلَا لا يُرى في الدنيا في اليقظة أبدًا، ولما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كليم الله: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ [الأعراف:١٤٣]، الجبل الأصم اندك من عظمة الله، فكيف يستطيع الإنسان البشر المخلوق من لحمٍ ودمٍ أن يرى الله في هذه الدنيا؟ إذا كان الجبل لم يثبت، فكيف يثبت الإنسان؟ فدل على أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يُرى في اليقظة في الدنيا، وإنما يُرى بالعين رؤية عيان في الآخرة؛ لأن الله يُعطي أهل الجنة قدرة وقوة على أن يستطيعوا رؤيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أما في الدنيا فلا.

أما أن الله يُرى في المنام، نعم، يمكن أن يُرى الله في المنام لبعض الناس، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -أيضًا- لا يمكن أن يُرى بعد موته في اليقظة، كما تدعي الصوفية أنه يأتي، ويحضر حفلاتهم، ويحضر موالدهم، وهذا كذب على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما هذا شيطان، فالرسول لا يُرى في الدنيا بعد موته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يأتي، ولكن قد يُرى في المنام لمن يعرف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهيئته، وهذا نادر في العلماء.

قوله: (وَهُمْ صَادِقُونَ فِيمَا يُخْبِرُونَ بِهِ، وَلَكِنْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الشَّيْطَانُ). نعم، هم صادقون، وصحيح أنهم رأوا شيئًا، ولكن هل هو الله، أو هو الرسول؟ لا، هذا شيطان.

وَهَذَا قَدْ وَقَعَ كَثِيرًا لِطَوَائِفَ مِنْ جُهَّالِ الْعِبَادِ، يَظُنُّ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَرَى اللهَ تَعَالَى بِعَيْنِهِ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ رَأَى مَا ظَنَّ أَنَّهُ اللهُ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ. وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ رَأَى مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ نَبِيٌّ أَوْ رَجُلٌ صَالِحٌ أَوْ الخَضِرُ، وَكَانَ شَيْطَانًا.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي حَقًّا، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي»[1]. فَهَذَا فِي رُؤْيَةِ الْمَنَامِ؛ لِأَنَّ الرُّؤْيَةَ فِي المَنَامِ تَكُونُ حَقًّا وَتَكُونُ مِنْ الشَّيْطَانِ، فَمَنَعَهُ اللهُ أَنْ يَتَمَثَّلَ بِهِ فِي المَنَامِ، وَأَمَّا فِي الْيَقَظَةِ فَلا يَرَاهُ أَحَدٌ بِعَيْنِهِ فِي الدُّنْيَا. فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ المَرْئِيَّ هُوَ المَيِّتُ فَإِنَّمَا أُتِيَ مِنْ جَهْلِهِ، وَلِهَذَا لَمْ يَقَعْ مِثْلُ هَذَا لِأَحَدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ. وَبَعْضُ مَنْ رَأَى هَذَا أَوْ صَدَّقَ مَنْ قَالَ أَنَّهُ رَآهُ اعْتَقَدَ أَنَّ الشَّخْصَ الْوَاحِدَ يَكُونُ بِمَكَانَيْنِ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ، فَخَالَفَ صَرِيحَ المَعْقُولِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هَذِهِ رَقِيقَةُ ذَلِكَ المَرْئِيِّ، أَوْ هَذِهِ رُوحَانِيَّتُهُ، أَوْ هَذَا مَعْنَاهُ تَشَكَّلَ. وَلَا يَعْرِفُونَ أَنَّهُ جِنِّيٌّ تَصَوَّرَ بِصُورَتِهِ.

الشَّرْح

قوله: (جُهَّالِ الْعِبَادِ). أي: الصوفية الذين يعبدون الله بغير علم ولا بصيرة.

قوله: (لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ رَأَى مَا ظَنَّ أَنَّهُ اللهُ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ). لأنه ليس عنده علم، فظن أن هذا هو الله، أو اعتقد أن هذا هو الله، أما الذي عنده علم مثل عبدالقادر، فإنه دحر الشيطان وأصغره، وهذا يدل على فضل العلم،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٩٣)، ومسلم (٢٢٦٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعلى أن المسلم بحاجة إلى العلم الصحيح، وأن يتفقه في دين الله عَزَّوَجَلَّ؛ حتى يسلم من هذه الشبهات والشرور.

قوله: (**وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ رَأَى مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ نَبِيٌّ أَوْ رَجُلٌ صَالِحٌ أَوْ الخَضِرُ، وَكَانَ شَيْطَانًا**). بعض الشياطين يتصور بصورة ويوهم أنها للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فهي صورة مكذوبة ليست صورته الحقيقية؛ لأن الشيطان لا يتصور بصورة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الحقيقية، فيتصور بصورة موهمة، فإذا رآه الذي لا يعرف صورة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يصدق أنها صورته. وهذا -أيضًا- يدل على أن المسلم بحاجة إلى العلم، وبحاجة إلى أن يعرف سيرة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصفاته، حتى كأنه ينظر إليه؛ من أجل ألا يخدعه الشيطان ويضره.

وقوله: (**أَوِ الخَضِرُ**)، الخضر عبد من عباد الله أتاه الله علمًا، وكان في وقت موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وقد جاء في الحديث عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يُردَّ العِلْمَ إِلَيْه، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ...**»(١). إلى آخر الحديث. فذهب موسى إلى الخضر ليتعلم منه، والقصة مذكورة في آخر سورة الكهف.

فهذا هو الخضر، وبعض العلماء يرى أنه نبي، والله أعلم. وقيل: إنه عبد صالح؛ لأن الله أجرى على يده معجزات كما ذكرها الله في القرآن.

قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي**». هذا إذا عرفت صورة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وتيقنتها، فلا يمكن أن يظهر الشيطان لك بها،

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠) من حديث أُبي بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

أما إذا كنت تجهل صورة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه قد يظهر في أي صورة، ويقول لك: أنا الرسول.

قوله: (لِأَنَّ الرُّؤْيَةَ فِي الْمَنَامِ تَكُونُ حَقًّا وَتَكُونُ مِنْ الشَّيْطَانِ). فقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي حَقًّا، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي**»، هذا في رؤية المنام، أما أن يُرى في اليقظة بعد موته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكذب، لا أحد يرجع إلى الدنيا من الأموات أبدًا، لا الرسل ولا غيرهم.

والرؤية في المنام على ثلاثة أقسام، وليست كل رؤية تؤخذ:

القسم الأول: تكون أضغاث أحلام، وحديث نفس، كأن يفكر الإنسان في شيء ويهتم به، فإذا نام يُتصور له هذا الشيء في نومه؛ لأنه مهتم به، ومنتقش في ذاكرته، هذه أضغاث أحلام وأغلاط ليس لها قيمة.

القسم الثاني: من الشيطان، فيزعج الإنسان بالأحلام المخيفة المزعجة ويكدر عليه نومه؛ لأن الشيطان يحاول مضرة الإنسان مهما استطاع، ومن ذلك أنه يكدر عليه نومه إذا لم يحتط الإنسان عند النوم، ويقرأ آية الكرسي، والمعوذتين، والإخلاص، فإن الشيطان يتسلط عليه في نومه، أما إذا قرأ آية الكرسي، فإنه لا يقربه شيطان، ولا يزال عليه من الله حافظ حتى يصبح[1]، فإذا ترك قراءة آية الكرسي وما معها، فحري أن يتلاعب الشيطان به، ويريه ما يكره؛ حتى يزعجه ويخاف، ويبحث عن التأويل والتعبير عند الناس، وهذا كله من الشيطان، فعليه أن يرفضه ولا يهتم به، ولا يخبر به أحدًا، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرشد إلى أنه من رأى رؤية يكرهها فإنه:

(١) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. تقدم تخريجه (ص٢٩٦).

أولًا: يتحول عن جنبه الذي هو عليه إلى جنب آخر.

ثانيًا: ينفث عن يساره ثلاث مرات، ويقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ثالثًا: لا يخبر بها أحدًا، ولا يفسرها، فإنها لا تضره بإذن الله[(١)].

القسم الثالث: الرؤية الحق، وهي التي تجري على يد ملك من الملائكة، يأتي للإنسان برؤية حق، وهذا حصل للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي أول ما بُدئ به الوحي[(٢)]، والرؤية الصادقة تحصل للمؤمنين، ولا بأس أنه يفرح بها، ويخبر بها من يحب.

قوله: (فَمَنَعَهُ اللهُ أَنْ يَتَمَثَّلَ بِهِ فِي الْمَنَامِ). لما كانت الرؤية حقًّا منع الله الشيطان أن يتمثل به في المنام، فإن جاء إلى النائم وتمثل فهذا كذب، وليس بالرسول، وليعلم الإنسان هذا، إلا إذا كان يعرف صفات الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفارقة بينه وبين غيره، فإنه قد يأتي إليه الرسول في المنام.

---

(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا يُحِبُّهَا فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ اللهِ، فَلْيَحْمَدِ اللهَ عَلَيْهَا، وَلْيُحَدِّثْ بِهَا، وَإِذَا رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُ فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهَا، وَلَا يَذْكُرْهَا لِأَحَدٍ، فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ**». أخرجه البخاري (٦٩٨٥). وفي حديث أبي قتادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند مسلم (٢٢٦١): «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللهِ، وَالرُّؤْيَا السَّوْءُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَمَنْ رَأَى رُؤْيَا فَكَرِهَ مِنْهَا شَيْئًا فَلْيَنْفُثْ عَنْ يَسَارِهِ، وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، لَا تَضُرُّهُ وَلَا يُخْبِرْ بِهَا أَحَدًا، فَإِنْ رَأَى رُؤْيَا حَسَنَةً، فَلْيُبْشِرْ وَلَا يُخْبِرْ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ**».

(٢) كما في حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ». أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

قوله: (وَأَمَّا فِي الْيَقْظَةِ فَلَا يَرَاهُ أَحَدٌ بِعَيْنِهِ فِي الدُّنْيَا). أبدًا، لا أحد يرى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا غيره من الأموات في الدنيا، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [يس:٣١]، من مات لا يرجع أبدًا إلى الدنيا.

قوله: (فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْمَرْئِيَّ هُوَ الْمَيِّتُ فَإِنَّمَا أُتِيَ مِنْ جَهْلِهِ). الجهل هو الآفة، فالإنسان إذا تعلم العلم النافع عصمه الله به من الشيطان، أما إذا كان جاهلًا، فإنه معرض لفتنة الشيطان.

قوله: (وَلِهَذَا لَمْ يَقَعْ مِثْلُ هَذَا لِأَحَدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ). لكمال إيمان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين لهم بإحسان لم يتعرض لهم الشيطان، ولم يضرهم.

قوله: (وَبَعْضُ مَنْ رَأَى هَذَا، أَوْ صَدَّقَ مَنْ قَالَ أَنَّهُ رَآهُ اعْتَقَدَ أَنَّ الشَّخْصَ الْوَاحِدَ يَكُونُ بِمَكَانَيْنِ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ، فَخَالَفَ صَرِيحَ الْمَعْقُولِ). أي: من خرافاتهم أنهم يقولون: إن الميت يمكن أن يصير في أمكنة متعددة، فيراه فلان في مصر، ويراه فلان في الشام، ويراه فلان في الحجاز، ويقولون: إن الروح طليقة تذهب إلى أي مكان شاءت. وهذا من الكذب والبهتان، فلا يمكن لإنسان أن يكون في مكانين في آن واحد، هذا من المستحيل، وإنما هذا من خرافات الصوفية والجهال.

قوله: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هَذِهِ رَقِيقَةُ ذَلِكَ المَرْئِيِّ، أَوْ هَذِهِ رُوحَانِيَّتُهُ، أَوْ هَذَا مَعْنَاهُ تَشَكَّلَ، وَلَا يَعْرِفُونَ أَنَّهُ جِنِّيٌّ تَصَوَّرَ بِصُورَتِهِ). قد لا يقولون: إن هذه صورة فلان، أو هذا فلان، لكن يقولون: هذا سره، وروحانيته، وبركته، تمثلت بصورته، وهذا من الكذب والتدجيل.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ مَلَكٌ، وَالْمَلَكُ يَتَمَيَّزُ عَنِ الْجِنِّيِّ بِأُمُورٍ كَثِيرَةٍ، وَالْجِنُّ فِيهِمُ الْكُفَّارُ وَالْفُسَّاقُ وَالْجُهَّالُ، وَفِيهِمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّبِعُونَ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا، فَكَثِيرٌ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ أَنَّ هَؤُلَاءِ جِنٌّ وَشَيَاطِينُ يَعْتَقِدُهُمْ مَلَائِكَةً.

وَكَذَلِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ الْكَوَاكِبَ وَغَيْرَهَا مِنَ الْأَوْثَانِ تَتَنَزَّلُ عَلَى أَحَدِهِمْ رُوحٌ يَقُولُ: هِيَ رُوحَانِيَّةُ الْكَوَاكِبِ. وَيَظُنُّ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ يُغْوُونَ الْمُشْرِكِينَ.

وَالشَّيَاطِينُ يُوَالُونَ مَنْ يَفْعَلُ مَا يُحِبُّونَهُ مِنَ الشِّرْكِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، فَتَارَةً يُخْبِرُونَهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ الْغَائِبَةِ لِيُكَاشِفَ بِهَا، وَتَارَةً يُؤْذُونَ مَنْ يُرِيدُ أَذَاهُ بِقَتْلٍ وَتَمْرِيضٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَتَارَةً يَجْلِبُونَ لَهُ مَنْ يُرِيدُهُ مِنَ الْإِنْسِ، وَتَارَةً يَسْرِقُونَ لَهُ مَا يَسْرِقُونَهُ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ مِنْ نَقْدٍ وَطَعَامٍ وَثِيَابٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ مَسْرُوقًا. وَتَارَةً يَحْمِلُونَهُ فِي الْهَوَاءِ فَيَذْهَبُونَ بِهِ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَذْهَبُونَ بِهِ إِلَى مَكَّةَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ وَيَعُودُونَ بِهِ، فَيَعْتَقِدُ هَذَا كَرَامَةً، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَحُجَّ حَجَّ الْمُسْلِمِينَ؛ لَا أَحْرَمَ وَلَا لَبَّى وَلَا طَافَ بِالْبَيْتِ وَلَا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الضَّلَالِ.

الشَّرح

قوله: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ مَلَكٌ). الملك من عباد الله الصالحين، ولايمكن أن يعمل هذه المخاريق الفاجرة، إنما هذا من أعمال الشياطين، والملائكة لا تعمل أعمال الشياطين.

قوله: (وَالْمَلَكُ يَتَمَيَّزُ عَنْ الجِنِّيِّ بِأُمُورٍ كَثِيرَةٍ). هذا رد عليهم بأن الملك يتميز عن الجني، فلا يُشتبه الملك بالجني أبدًا.

قوله: (وَالجِنُّ فِيهِمْ الْكُفَّارُ وَالْفُسَّاقُ وَالجُهَّالُ). الملائكة كلهم صالحون، أما الجن ففيهم الصالحون المسلمون، وفيهم الكفار، وفيهم العصاة، قال تعالى مخبرًا عن الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن:١١]، ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ [الجن:١٤]، فالجن مثل الإنس فيهم الكفار المشركون، وفيهم المؤمنون، وفيهم العصاة والفساق.

قوله: (فَكَثِيرٌ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ أَنَّ هَؤُلَاءِ جِنٌّ وَشَيَاطِينُ أَرْسِلَانِ مَلَائِكَةً). هذا نتيجة الجهل أنهم لا يفرقون بين الملائكة والشياطين، فيعتقدون أن هؤلاء الشياطين ملائكة، ويعتبرون أن هذا من إكرام الله لهم، وأن الملائكة تخدمهم، وما أشبه ذلك.

قوله: (وَكَذَلِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ الْكَوَاكِبَ وَغَيْرَهَا مِنْ الْأَوْثَانِ تَتَنَزَّلُ عَلَى أَحَدِهِمْ رُوحٌ يَقُولُ هِيَ رُوحَانِيَّةُ الْكَوَاكِبِ). الذين عبدوا الكواكب في عهد النمرود، والذين بُعث إليهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان الشيطان يأتيهم بصورة، ويدَّعي أنه روحانية الكوكب الذي يعبدونه، ويدعونه، وأن روحه وروحانيته جاءت إليهم، وهذا من الكذب، فالتماثيل والكواكب جوامد ليس لها تصرف في الكون، وهذه الكواكب مخلوقات من مخلوقات الله سخرها تجري في أفلاكها، فليس لها شخصيات وتصرف في الكون؛ وكذلك التماثيل هم الذين صنعوها، فينحتون الحجر أو الطين ويجعلونه على صورة إنسان يعبدونه من دون الله، قال تعالى على لسان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا

﴿تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٥، ٩٦]، هكذا قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم.

قوله: (**وَالشَّيَاطِينُ يُوَالُونَ مَنْ يَفْعَلُ مَا يُحِبُّونَهُ مِنْ الشِّرْكِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ**). الشياطين يخدمون من يطيعهم من الإنس ويعصي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن أشرك بالله خدموه، ومن وحد الله ابتعدوا عنه، هذا شيء معروف، ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:١٢٨]. فالجني استمتع بخضوع الإنسي له، وتعظيمه له، والإنسي انتفع من الجني بأن الجني خدمه، وأحضر له حوائجه، وهذا كفر بالله عَزَّوَجَلَّ، ولا يجوز الاستعانة بالجن. وهناك من يقول: إن فيهم مسلمين، ونحن نستعين بالمسلمين.

أولًا: ما يدريك أنهم مسلمون؟

وثانيًا: هؤلاء غائبون، ولا يجوز الاستعانة بالغائب، وهذه الآية قاضية في الموضوع ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، ثم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:١٢٩]، فالله يولي الشياطين على الإنس الذين كفروا بالله وأشركوا به، فيخدمونه، ويحضرون له حوائجه، ويطيرون به في الهواء، وقد يذهبون به إلى مكة في أسرع وقت، ويردونه لمكانه؛ يخدمونه لأجل أنه كفر بالله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (فَتَارَةً يُخْبِرُونَهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ الْغَائِبَةِ؛ لِيُكَاشِفَ بِهَا). يأتون له بالأخبار؛ لأنهم يطلعون على أشياء لا يطلع عليها الإنس، فيطيرون في الهواء، ويحضرون في الأمكنة، ويسمعون الأخبار، وما يجري، ويخبرون عميلهم من الإنس، فيظن أن هذا من الكرامات، وأن الله أطلعه على هذا، وهو من الشياطين، والشياطين يفعلون معه ذلك لأجل أن يخبر بها الناس، فيغتروا به، ويقولوا: هذا من الأولياء.

قوله: (وَتَارَةً يُؤْذُونَ مَنْ يُرِيدُ أَذَاهُ). الجن تدافع عن عميلهم من الإنس، فيظن أن هذا من كراماته على الله عَزَّوَجَلَّ، والفارق بين ما كان من الله وما كان من الشيطان: حال الإنسان، إذا كان الإنسان صالحًا تقيًا مستقيمًا، فهذا إعانة من الله جَلَّوَعَلَا، أما إذا كان كافرًا مشركًا شقيًّا، فهذا من الشيطان.

قوله: (بِقَتْلٍ وَتَمْرِيضٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ). تارة يرسلهم الإنسي إلى أعدائه، فيقتلون عدوه، أو يمرضونه، أو يؤثرون عليه، وهذا استخدام للجن. وهناك من يقول: نحن لا نستخدم إلا الصالحين من الجن، وهذا من التعاون. وما هذا إلا كذب كما ذكرنا، ما الذي أدراك أن هذا من الصالحين؟ هل تعرفه وتعرف من أين هو؟ ثانيًا: هو غائب، ولا يجوز الاستعانة بالغائب.

قوله: (وَتَارَةً يَجْلِبُونَ لَهُ مَنْ يُرِيدُهُ مِنْ الْإِنْسِ). إذا عشق امرأة، أو أراد شيئًا من الإنس، حملوا ذلك الشيء وأتوا به إليه، أو ساقوه إليه من غير اختياره؛ لأن عندهم مقدرة ليست عند الإنس.

قوله: (وَتَارَةً يَسْرِقُونَ لَهُ مَا يَسْرِقُونَهُ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ مِنْ نَقْدٍ وَطَعَامٍ وَثِيَابٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ). يحضرون له الفواكه

والدراهم، ويظن أن هذا من كرامات الله، وهم سارقون من أموال الناس، يدخلون محلات الناس؛ لأن الشياطين تخترق الأشياء، وتدخل الأمكنة دون أن يراها الناس، فيحملون من أموال الناس، ويذهبون بها إلى عميلهم من الإنس؛ لأجل أن يغتر، ويحسب أن هذا كرامة، وأنه ولي من أولياء الله.

قوله: (وَإِنَّمَا يَكُونُ مَسْرُوقًا) من أموال الناس.

قوله: (وَتَارَةً يَحْمِلُونَهُ فِي الهَوَاءِ فَيَذْهَبُونَ بِهِ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ). يحملون الإنسي في الهواء، ويطيرون به، فلا يحتاج طائرة، إنما يذهب مع الجن، لكن بشرط أن يخرب دينه وعقيدته.

قوله: (فَمِنْهُمْ مَنْ يَذْهَبُونَ بِهِ إِلَى مَكَّةَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ وَيَعُودُونَ بِهِ). يذهبون به عشية عرفة ليحضر الدعاء، ويردونه لمكانه، (فَيَعْتَقِدُ هَذَا كَرَامَةً) وهو من خداع الشيطان، فمكة لا تُبلغ إلا بالوسائل المعروفة من وسائل السفر، لاتحصل بلحظة في الهواء، فهذا شيطان يغر هذا الإنسان.

قوله: (مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَحُجَّ حَجَّ الْمُسْلِمِينَ). ما ذهب يحج، لكنه فقط حضر يوم عرفة، ثم يأتي إلى أشغاله وأعماله، فهل الذي يعمل هذا العمل من المسلمين؟ هذا من أتباع الشياطين والعياذ بالله، فالمسلم قد يكون في أقصى المشرق أو أقصى المغرب، فلا يمكن أن يصل إلى عرفة ويرجع في ليلة واحدة إلا بالوسائل الحديثة كالطائرات، وهذه وسائل مباحة ومعروفة، وليست بسبب الكرامات، هذه حتى الكفار المشركين يركبونها، فهي وسائل نقل عادية ليس سببها الإيمان والكفر، وإنما هي صناعة أقدر الله عليها البشر، أما الشياطين فوسائلهم مجهولة لا أحد يعرفها.

وقوله: (مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَحُجَّ حَجَّ الْمُسْلِمِينَ)؛ لأنه ليس بمسلم، فكيف يحج مع المسلمين؟ هذا مشرك، ويقول: إن الحج في صورته شغل العوام، أما نحن فخواص لا نحتاج إلى الحج ولا إلى الصلاة، هذه يحتاجها العوام فقط.

قوله: (لَا أَحْرَمَ وَلَا لَبَّى وَلَا طَافَ بِالْبَيْتِ وَلَا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ). ما عمل عمل المسلمين، لا أحرم من الميقات ولا لبى ولا أدى المناسك؛ لأنه يعتقد أنه لا يحتاج إلى عمل المسلمين، وأنه وصل إلى الله مباشرة.

قوله: (وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الضَّلَالِ). ليس هناك شك؛ لأن هذا لايعمله مسلم؛ يزعم أنه حج، وهو لا طاف ولا أحرم ولا لبى ولا رمى الجمرات ولا أدى المناسك.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَذْهَبُ إِلَى مَكَّةَ لِيَطُوفَ بِالْبَيْتِ مِنْ غَيْرِ عُمْرَةٍ شَرْعِيَّةٍ، فَلَا يُحْرِمُ إِذْ حَاذَى المِيقَاتَ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ أَرَادَ نُسُكًا بِمَكَّةَ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُجَاوِزَ المِيقَاتَ إِلَّا مُحْرِمًا، وَلَوْ قَصَدَهَا لِتِجَارَةٍ أَوْ لِزِيَارَةِ قَرِيبٍ لَهُ أَوْ طَلَبِ عِلْمٍ كَانَ مَأْمُورًا أَيْضًا بِالْإِحْرَامِ مِنَ المِيقَاتِ. وَهَلْ ذَلِكَ وَاجِبٌ أَوْ مُسْتَحَبٌّ؟ فِيهِ قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ لِلْعُلَمَاءِ. وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ. وَمِنْهُ السِّحْرُ وَالْكَهَانَةُ، وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا المَوْضِعِ.

الشَّرْح

قوله: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَذْهَبُ إِلَى مَكَّةَ لِيَطُوفَ بِالْبَيْتِ....). يذهبون به ليلًا، ويطوف بالبيت، ويأتون به إلى منامه، وقد يكون معه ناس يذهب من بينهم، ولا يعلمون عنه، ويأتي وينام في مكانه؛ لأن الشياطين مستعدة لخدمته، ومحجوزة له من الأصل.

قوله: (وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ أَرَادَ نُسُكًا بِمَكَّةَ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُجَاوِزَ المِيقَاتَ إِلَّا مُحْرِمًا). المسلم لا يجوز له أن يجاوز الميقات إلا محرمًا مطلقًا، حتى الذي لا يقصد الحج والعمرة لا يتعدى الميقات إلا محرمًا، هذا قول لبعض العلماء.

والقول الثاني: أن الإحرام إنما يلزم من يريد النسك من حج أو عمرة، وأما الذي يمر ولا يريد حجًّا ولا عمرة، فلا يلزمه الإحرام.

وهذا مر على الميقات، ولم يحرم لحج أو عمرة، وتعدى حدود الله معتقدًا أن هذا كرامة له، وأنه ولي من أولياء الله.

قوله: (وَلَوْ قَصَدَهَا لِتِجَارَةٍ أَوْ لِزِيَارَةِ قَرِيبٍ لَهُ أَوْ طَلَبِ عِلْمٍ كَانَ مَأْمُورًا أَيْضًا بِالْإِحْرَامِ مِنْ المِيقَاتِ). هذا على القول الأول أنه يلزم الإحرام مطلقًا كل من مر بالميقات.

قوله: (وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا المَوْضِعِ). لم يقصر الكلام هنا بل بسطه ووضح، ومع هذا يقول: إن هناك بسطًا أكثر من هذا في بقية كتبه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَعِنْدَ الْمُشْرِكِينَ عُبَّادِ الْأَوْثَانِ وَمَنْ ضَاهَاهُمْ مِنَ النَّصَارَى وَمُبْتَدِعَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكَايَاتِ مَا يَطُولُ وَصْفُهُ؛ فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ يَعْتَادُ دُعَاءَ الْمَيِّتِ وَالاسْتِغَاثَةَ بِهِ -نَبِيًّا كَانَ أَوْ غَيْرَ نَبِيٍّ- إِلَّا وَقَدْ بَلَغَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ أَسْبَابِ ضَلَالِهِ؛ كَمَا أَنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ فِي مَغِيبِهِمْ وَيَسْتَغِيثُونَ بِهِمْ فَيَرَوْنَ مَنْ يَكُونُ فِي صُورَتِهِمْ أَوْ يَظُنُّونَ أَنَّهُ فِي صُورَتِهِمْ، وَيَقُولُ: أَنَا فُلَانٌ. وَيُكَلِّمُهُمْ وَيَقْضِي بَعْضَ حَوَائِجِهِمْ، فَإِنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ الْمَيِّتَ الْمُسْتَغَاثَ بِهِ هُوَ الَّذِي كَلَّمَهُمْ وَقَضَى مَطْلُوبَهُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ.

الشَّرْح

ما زال الكلام في مسألة الخوارق التي تكون مع بعض الناس، ويروج بها على العوام أنها من كرامات الأولياء، مثل ما يتراءى لهم عند القبور أن شخصًا يناديهم ويكلمهم، أو يظهر أمامهم بصورة الميت، فيقول: أنا أقضي حوائجكم، أنا أتوسط لكم وأشفع لكم عند الله، وما أشبه ذلك، فيظنون أن هذا هو الميت، وأنه ولي من أولياء الله، ويظهر يكلم الناس، فيزيد فتنتهم فيه، ولم يعلموا أن الذي يكلمهم ويظهر لهم ليس هو الميت وإنما هو شيطان يريد أن يضلهم، فيظهر لهم بصورة الميت، ويكلمهم، ويقضي شيئًا من حوائجهم، فيظنون أن هذا من كرامات الميت، وأنه ولي من أولياء الله، في حين أن الميت لا يدري عن شيء من ذلك.

يقول الشيخ: إن هذا ليس شيئًا نادرًا، وإنما جرى لكثير من الأمم قبل الإسلام، فهو مستمر من الجاهلية إلى ما بعد الإسلام، فمن المنتسبين

للإسلام من يفتنون بهذا الشيء كما هو واقع الآن حول القبور من العكوف عندها، وطلب الحوائج من الأموات، والاستغاثة بهم، وكل هذا من تزيين الشيطان، وقد تُقضى بعض حوائجهم من باب الفتنة، وقد يكلمهم الشيطان أو يخرج بصورة الميت، أو يُحكى لهم أنه خرج، وأن فلانًا رآه، وتكون حكاية مأثورة بينهم، فتزيد فتنتهم والعياذ بالله.

فهذا ليس شيئًا غريبًا، إنما هو واقع في الأمم السابقة، وفي أهل الجاهلية، وفي القبوريين من هذه الأمة، فلا يُغتر به ويُظن أن هذا يدل على أن الأموات ينفعون ويضرون، وأنهم يجيبون من دعاهم ويقدرون، وأنهم يخرجون من قبورهم، إلى غير ذلك من الخرافات والترهات الباطلة، فيعرضون عن كتاب الله، وعن سنة رسوله التي تنهى عن الشرك، وعن التعلق بغير الله، وعن عبادة غير الله، يعرضون عن هذا كله ولا يلتفتون إليه، وإنما يلتفتون إلى مثل هذه الخزعبلات والخرافات، هذا في الأموات.

وسيأتي في كلام الشيخ أنه -أيضًا- في الأحياء الذين يدَّعون الولاية، أو تُدعى لهم الولاية، فتُظهر لهم الشياطين مخاريق، أو شيئًا من السحر والشعوذة والتدجيل، فيظن الجهال والأغرار أن هذه كرامات، وأن هؤلاء أولياء، في حين أنهم ليسوا من الولاية في شيء؛ لأنهم لا يصلون، ولا يصومون، ولايتورعون عن الفواحش، ويقولون: ما عليهم تكاليف، هؤلاء أولياء خرجوا عن التكاليف، فصار يُباح لهم كل شيء.

هذا ما أوعز إليهم به الشيطان أنهم يُباح لهم كل شيء؛ لأنهم خرجوا عن الولاية، بل خرجوا عن حدود العبادات، ووصلوا إلى الله مباشرة،

فلا يحرم عليهم شيء، إنما يفعلون ما يشاءون، ولا تجب عليهم فرائض من صلاة وصيام وحج؛ لأنهم أولياء.

وهذا واقع الآن في الذين يغالون في بعض الطواغيت الذين يظهرون هذه الخرافات للناس، أو يستعملون شيئًا من السحر والشعوذة والتقمير على أبصار الناس، ويظنون أن هذه كرامات، وهي مخاريق شياطينية وسحرية، فلا يُلتفت إليها. ومنهم من يظهر لهم أنه يمشي على النار، ويبلع الجمر، وينام على المسامير، وتمشي عليه السيارة، ويصدقون، ويقولون: هذا ولي لا تضره هذه الأشياء. في حين أنك لو طعنته بدبوس صغير ما يستطيع أن يصبر، لكن يستعمل السحر والقمرة، فيظهر للناس أنه لا يضره شيء من هذه الأشياء، وهذا كله من الكذب والتدجيل والضحك على العقول في الأموات والأحياء.

والكرامة إنما تجري على يد ولي من أولياء الله الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢، ٦٣]، فكل مؤمن تقي ولي لله، وما يجري على يده كرامة ما دام أنه مستقيم على طاعة الله، وكذلك لا يستعمل هذه الكرامة في إضلال الناس، بل قد لا يدري عنها أحد، ولا يظهرها هو؛ لأنه لا يريد تعظيم نفسه، بل ما ظهر له شيء من الكرامة إلا زاده تواضعًا وخوفًا وذلة لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، هذا هو الولي حقيقة، وهذا لا يُغلى فيه، ولا يُطلب منه ما لا يقدر عليه، وهم ينهون عن ذلك، فأولياء الله لا يرضون أن يعبدوا، ولا يرضون

أن يُدعوا من دون الله، ولا يدَّعون شيئًا من علم الغيب، لا يدَّعون شيئًا مما لا يستطيعه البشر، هؤلاء هم أولياء الله:

أولًا: أن يكونون على العبادة والدين والاستقامة.

وثانيًا: لا يستعلمون هذه الكرامات التي تجري على أيديهم لإضلال الناس، والتكبر بها عليهم.

وليس كل ولي لله تظهر له كرامة، وليس من شرط الولي أن تظهر له كرامة، إنما من شرط الولي أن يكون مؤمنًا تقيًّا، وليس من شرطه الكرامة وخوارق العادة، لكن لو حصلت فهم لا يغترون بها، بل تزيدهم تواضعًا، وشكرًا لله عَزَّوَجَلَّ، ولا يفتخرون بها، ولا يستعملونها في معصية الله.

قوله: (**فِي ذَلِكَ مِنَ الحِكَايَاتِ مَا يَطُولُ وَصْفُهُ**). الحكايات التي يخترعونها، أو التي يظهر لهم الشيطان بها.

قوله: (**فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ يَعْتَادُ دُعَاءَ المَيِّتِ وَالاسْتِغَاثَةَ بِهِ -نَبِيًّا كَانَ أَوْ غَيْرَ نَبِيٍّ- إِلَّا وَقَدْ بَلَغَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ أَسْبَابِ ضَلَالِهِ**). ما من أحد يتعلق بالأموات إلا وهو يردد مثل هذه الخرافات والحكايات، ويعتمد عليها، ويستمر في شركه؛ لذلك يؤلفون الكتب فيها، والقصص والحكايات، وهذه الفرى التي يزعمون أنها كرامات.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. وَالْمَلَائِكَةُ لَا تُعِينُ الْمُشْرِكِينَ، وَإِنَّمَا هُمْ شَيَاطِينُ أَضَلُّوهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، وَفِي مَوَاضِعِ الشِّرْكِ مِنَ الْوَقَائِعِ وَالحِكَايَاتِ الَّتِي يَعْرِفُهَا مَنْ هُنَالِكَ وَمَنْ وَقَعَتْ لَهُ مَا يَطُولُ وَصْفُهُ، وَأَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ فِيهَا نَوْعَانِ: نَوْعٌ يُكَذِّبُ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَنَوْعٌ يَعْتَقِدُ ذَلِكَ كَرَامَاتٍ لِأَوْلِيَاءِ اللهِ.

فَالْأَوَّلُ يَقُولُ: إِنَّمَا هَذَا خَيَالٌ فِي أَنْفُسِهِمْ لَا حَقِيقَةَ لَهُ فِي الخَارِجِ، فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ لِجَمَاعَةٍ بَعْدَ جَمَاعَةٍ، فَمَنْ رَأَى ذَلِكَ وَعَايَنَهُ مَوْجُودًا، أَوْ تَوَاتَرَ عِنْدَهُ ذَلِكَ عَمَّنْ رَآهُ مَوْجُودًا فِي الخَارِجِ، وَأَخْبَرَهُ بِهِ مَنْ لَا يَرْتَابُ فِي صِدْقِهِ، كَانَ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ ثَبَاتِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُبْتَدِعِينَ الْمُشَاهِدِينَ لِذَلِكَ وَالْعَارِفِينَ بِهِ بِالْأَخْبَارِ الصَّادِقَةِ.

ثُمَّ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ لِذَلِكَ مَتَى عَايَنُوا بَعْضَ ذَلِكَ خَضَعُوا لِمَنْ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ، وَانْقَادُوا لَهُ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ، مَعَ كَوْنِهِمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا يُؤَدِّي فَرَائِضَ اللهِ حَتَّى وَلَا الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ، وَلَا يَجْتَنِبُ مَحَارِمَ اللهِ لَا الْفَوَاحِشَ وَلَا الظُّلْمَ، بَلْ يَكُونُ مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَنِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى الَّتِي وَصَفَ اللهُ بِهَا أَوْلِيَاءَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢، ٦٣]، فَيَرَوْنَ مَنْ هُوَ مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَنِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى لَهُ مِنَ الْمُكَاشَفَاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ الخَارِقَاتِ مَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُتَّقِينَ.

فَمِنْهُمْ مَنْ يَرْتَدُّ عَنِ الْإِسْلَامِ وَيَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ، وَيَعْتَقِدُ فِيمَنْ لَا يُصَلِّي -بَلْ وَلَا يُؤْمِنُ بِالرُّسُلِ، بَلْ يَسُبُّ الرُّسُلَ وَيَتَنَقَّصُ بِهِمْ- أَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُتَّقِينَ.

الشَّرْح

قوله: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَإِنَّمَا هُمْ شَيَاطِينُ أَضَلُّوهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ). يقولون: هو ملك، لا يقولون: هذا شيطان، وهذا كذب على الملائكة؛ لأن الملائكة لا تعين المشركين، ولا تعين على الكذب، بل الملائكة تكون مع المؤمنين المتقين، فليسوا ملائكة، وإنما هم شياطين من مردة الجن يريدون إضلال بني آدم وإهلاكهم؛ لأن الشياطين هذا هدفهم، أما الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فإنهم يستغفرون ويدعون للمؤمنين، ويساعدونهم على الخير، بل قد ينزلون في القتال، ويقوون عزم المؤمنين، ويساعدونهم في القتال؛ كما حصل في بدر، وفي غيرها[1].

قوله: (وَفِي مَوَاضِعِ الشِّرْكِ مِنَ الْوَقَائِعِ وَالْحِكَايَاتِ). تجدونها موجودة في كتب الخرافيين من أمثال: كتاب الطبقات في تراجم الأولياء للشعراني[2]،

---

(١) كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ: «**هَذَا جِبْرِيلُ، آخِذٌ بِرَأْسِ فَرَسِهِ، عَلَيْهِ أَدَاةُ الْحَرْبِ**». أخرجه البخاري (٣٩٩٥).

(٢) هو: عبدالوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن محمد الشعراني أو الشعراوي -بالنون والواو كما وجد بخطه- من مشايخ الصوفية، صاحب الطبقات الكبرى والطبقات الصغرى، توفي سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة. انظر: فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمسلسلات (٢/ ١٠٧٩)، ومعجم المؤلفين (٦/ ٢١٨). =

يذكر فيه من الخرافات والأوهام الشيء الكثير؛ من أن فلانًا حصل له كذا، وفلانًا ظهر على يده كذا.

قوله: (وَأَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ فِيهَا نَوْعَانِ). الناس -كما سبق- في مسألة الكرامات طرفان، ووسط:

الطرف الأول: من الناس من ينكر الكرامات نهائيًّا، ويقول: ليس هناك كرامات للأولياء، كالمعتزلة ينكرونها نهائيًّا.

الطرف الثاني: من يغلو فيها ويثبتها حتى لغير أولياء الله، فيثبتها للعصاة والمجرمين والفساق، فيغلو في إثباتها، ويتعلق بأصحابها المنسوبة إليهم، ويدعوهم من دون الله.

والوسط: هم أهل السنة والجماعة، فيثبتون الكرامات بضوابطها للأولياء، وهذا شيء ثابت في القرآن والسنة، ولكن له ضوابط، منها:

- أن يكون الذي جرت على يده مؤمنًا تقيًّا.

= ونقل عنه محقق كتابه طبقات الشعراني (١/ ٣٠) أنه قال: «إن كثيرًا من المنكرين لو رأوا واحدًا من الأولياء والصالحين يطير في الهواء لقالوا: هذا سحر واستخدامات للجن والشياطين. ولا شك أن من حُرِم التوفيق كذَّب بالحق عيانًا وحسًّا، فكيف حال هذا في تصديقه بالمغيبات التي أمر الله تعالى بالإيمان بها، فربما زلت به القدم فخسر الدارين؛ لأنه إذا أنكر المحسوسات فبالحقيق إنكاره للمغيبات».

قلت: وهذا من فساد الاستدلال، فما أمر الله به لا يُعرف إلا بنصٍّ من الكتاب أو نطق به الصادق المصدوق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا ينطق عن الهوى، أما هؤلاء فلا دليل على صدقهم، فكيف يسوي بين ما يجب على المسلم أن يؤمن به من أمور الغيب، وبين ما يجري على أيدي هؤلاء من أمور تدل أحوال أصحابها على أنها خوارق شيطانية، ولا فرق بينهم وبين السحرة والدجالين والمشعوذين، بل إذا تعارض قول أحدهم أو فعله مع الكتاب والسنة، عزف أتباعه عن الكتاب والسنة وتمسكوا بالتراهات والأباطيل.

- أنها لا تغره، ولا يتكبر بها.

- أنه لا يستعملها في معصية الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما تزيده طاعة وشكرًا لله.

- أنه لا يسوغ التعلق به ولا دعاؤه من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

هذا عند أهل السنة والجماعة، فلا إفراط ولا تفريط، لا تُنفى نهائيًا، ولاتثبت مطلقًا، ويُتعلق بأصحابها.

قوله: (**نَوْعٌ يُكَذِّبُ بِذَلِكَ كُلِّهِ**)، ويقول: ليس هناك كرامات.

قوله: (**فَالْأَوَّلُ يَقُولُ: إِنَّمَا هَذَا خَيَالٌ فِي أَنْفُسِهِمْ لَا حَقِيقَةَ لَهُ فِي الخَارِجِ**). الأول الذي ينفي الكرامات يقول: ليس هناك شيء واقع، وإنما هذا شيء يتخيلونه في أنفسهم فقط.

قوله: (**مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ ثَبَاتِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُبْتَدِعِينَ الْمُشَاهِدِينَ لِذَلِكَ وَالْعَارِفِينَ بِهِ بِالْأَخْبَارِ الصَّادِقَةِ**). فمنهم من ينكرها ويشكك فيها، ومنهم ينكرها ابتداءً لكن إذا ثبتت عنده من الأخبار الصادقة عمن يثق به انحرف، واعتقد أن أصحابها ينفعون ويضرون، فيتعلق بهم، ويدعوهم من دون الله؛ لأنه لم يبنِ على أصل في نفيها.

قوله: (**ثُمَّ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ لِذَلِكَ مَتَى عَايَنُوا بَعْضَ ذَلِكَ خَضَعُوا لِمَنْ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ وَانْقَادُوا لَهُ**). هذا هو قصد الشيطان: أن الناس يخضعون لهذا المشعوذ والدجال الذي يظهر أشياء ما اعتادوها، ولا ألفوها، وهي خوارق شيطانية، فالناس يخضعون له، ويعتبرونه وليًا من أولياء الله، ويطلبون منه حوائجهم حيًّا، وميتًا.

قوله: (وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ). وهو ليس من أولياء الله، بل هو لايصلي، ولا يصوم، فكيف يكون من أولياء الله، وهو لا يصلي، ولا يصوم، ولا يتورع عن الفواحش؟ يقولون: هو من أولياء الله، ولكنه سقط عنه التكليف، فلا يحرم عليه شيء! انظر كيف يفعل الشيطان ببني آدم، يشاهدونه لا يصلي، ويشاهدونه يفعل اللواط، أو يُلاط به، ويقولون: هذا ولي من أولياء الله لا يحرم عليه شيء!.

قوله: (وَلَا يَجْتَنِبُ مَحَارِمَ اللهِ لَا الْفَوَاحِشَ وَلَا الظُّلْمَ). يشاهدونه لا يجتنب محارم الله من الفواحش كالزنا واللواط وسائر الفواحش والعياذ بالله، ويقولون: ليس عليه تكليف؛ لأنه ولي. ونحن نقول: ليس عليه تكليف؛ لأنه مجنون ليس لأنه ولي، فالذي وصل إلى هذا الحد مجنون، أو ضالٌّ مضلٌّ.

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، فإذا جادلتهم يقولون: هذا ولي، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، فيأخذون الآية الأولى فقط ويتركون الآية الثانية: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾؛ لأنها ترد عليهم، وهكذا أصحاب الباطل يأخذون ما يوافق هواهم، ويتركون ما لا يوافق هواهم من الآيات والأحاديث، وإلا لو جاءوا بالآية الثانية إلى الآية الأولى لتبين لهم من هو ولي الله حقًّا، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، أي: كمل إيمانهم، ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ يتقون الله غاية التقوى، ويخافونه، ويرجونه، فهؤلاء هم أولياء

الله حقيقة، وليس ولي الله الذي لا يصلي، ولا يصوم، ويفعل الفواحش، هذا ولي للشيطان وليس وليًّا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه ليس من المؤمنين المتقين.

قوله: (لَهُ مِنَ الْمُكَاشَفَاتِ). المكاشفات: الاطلاع على الأمور الغائبة، وهو ليس عنده اطلاع، وإنما الشياطين تخبره عن أشياء غائبة عن الناس، فيظن الجهال أنه هو الذي اطلع عليها بولايته، ولا يعلمون أن الذي يطلعه على هذه الأشياء ويجلبها له هو الشيطان، يدل لذلك قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٣]، فهؤلاء عملاء الشياطين.

قوله: (مَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُتَّقِينَ). يعتقدون أن هؤلاء الأولياء يتصرفون في الكون، ويدبرون مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: (بَلْ يَسُبُّ الرُّسُلَ وَيَتَنَقَّصُ بِهِمْ). ينتقص الرسل، ويقول: أنا لست بحاجة إليهم، أنا وصلت إلى الله، وأنا آخذ العلم من الله. ويسمونه العارف بالله، وهو ليس بحاجة إلى الرسل، إنما الرسل للعوام، وليست لأولياء الله، وهذا فتنة عظيمة والعياذ بالله، وكفر وإلحاد، كل هذا عند عباد القبور الذين يشغلون حيزًا كبيرًا من العالم الإسلامي، وكلهم على هذا المذهب الباطل.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى حَائِرًا مُتَرَدِّدًا شَاكًّا مُرْتَابًا، يُقَدِّمُ إِلَى الْكُفْرِ رِجْلًا وَإِلَى الْإِسْلَامِ أُخْرَى، وَرُبَّمَا كَانَ إِلَى الْكُفْرِ أَقْرَبَ مِنْهُ إِلَى الْإِيمَانِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُمُ اسْتَدَلُّوا عَلَى الْوِلَايَةِ بِمَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهَا، فَإِنَّ الْكُفَّارَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالسَّحَرَةَ وَالْكُهَّانَ مَعَهُمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَفْعَلُ بِهِمْ أَضْعَافَ أَضْعَافِ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء:٢٢١، ٢٢٢]، وَهَؤُلَاءِ لَابُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ كَذِبٌ وَفِيهِمْ مُخَالَفَةٌ لِلشَّرْعِ، فَفِيهِمْ مِنَ الْإِثْمِ وَالْإِفْكِ بِحَسْبِ مَا فَارَقُوا أَمْرَ اللهِ وَنَهْيَهُ الَّذِي بَعَثَ بِهِ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتِلْكَ الْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ نَتِيجَةُ ضَلَالِهِمْ وَشِرْكِهِمْ وَبِدْعَتِهِمْ وَجَهْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، وَهِيَ دَلَالَةٌ وَعَلَامَةٌ عَلَى ذَلِكَ، وَالْجَاهِلُ الضَّالُّ يَظُنُّ أَنَّهَا نَتِيجَةُ إِيمَانِهِمْ وَوِلَايَتِهِمْ للهِ تَعَالَى، وَأَنَّهَا عَلَامَةٌ وَدَلَالَةٌ عَلَى إِيمَانِهِمْ وَوِلَايَتِهِمْ للهِ سُبْحَانَهُ.

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ فُرْقَانٌ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ؛ كَمَا قَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى ذَلِكَ فِي مَسْأَلَةِ «الْفُرْقَانِ بَيْنَ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ»، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ الَّتِي جَعَلَهَا دَلِيلًا عَلَى الْوِلَايَةِ تَكُونُ لِلْكُفَّارِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ أَعْظَمَ مِمَّا تَكُونُ لِلْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَالدَّلِيلُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَدْلُولِ مُخْتَصٌّ بِهِ لَا يُوجَدُ بِدُونِ مَدْلُولِهِ، فَإِذَا وُجِدَتْ لِلْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ لَمْ تَكُنْ مُسْتَلْزِمَةً لِلْإِيمَانِ فَضْلًا عَنِ الْوِلَايَةِ، وَلَا كَانَتْ مُخْتَصَّةً بِذَلِكَ، فَامْتَنَعَ أَنْ تَكُونَ دَلِيلًا عَلَيْهِ.

وَأَوْلِيَاءُ اللهِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ، وَكَرَامَاتُهُمْ ثَمَرَةُ إِيمَانِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ لَا ثَمَرَةُ الشِّرْكِ وَالْبِدْعَةِ وَالْفِسْقِ، وَأَكَابِرُ الْأَوْلِيَاءِ إِنَّمَا يَسْتَعْمِلُونَ هَذِهِ الْكَرَامَاتِ

بِحُجَّةٍ لِلدِّينِ أَوْ لِحَاجَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ، وَالْمُقْتَصِدُونَ قَدْ يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي الْمُبَاحَاتِ، وَأَمَّا مَنِ اسْتَعَانَ بِهَا فِي الْمَعَاصِي فَهُو ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، مُتَعَدٍّ حَدَّ رَبِّهِ، وَإِنْ كَانَ سَبَبُهَا الْإِيمَانَ وَالتَّقْوَى.

الشَّرْح

قوله: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى حَائِرًا مُتَرَدِّدًا شَاكًّا مُرْتَابًا). ومن هؤلاء الذين يزعمون أنهم أولياء من هو شاك متحير، فالأول زائغ خارج من الإسلام عمدًا؛ لأنه لا يرى الإسلام، ولا يرى اتِّباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويرى أنه واصل إلى الله، وأنه يأخذ عن الله مباشرة، ويجتمع مع الله، ويأخذ منه الأوامر والنواهي. والثاني: متردد شاك فيما جاءت به الرسل، هل هو صحيح أو ليس صحيحًا.

قوله: (وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُمُ اسْتَدَلُّوا عَلَى الْوِلَايَةِ بِمَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهَا). هذا هو السبب: أنهم استدلوا على الولاية بما لا يدل عليها، وما الذي يدل عليها؟ الآية الثانية: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦٣]، هم أخذوا الآية الأولى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] واقتصروا عليها، فإذا جادلتهم وقلت: هذا باطل وكفر وشرك. قالوا: لا .. هؤلاء هم أولياء الله، والله قال: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، أي: يزينون كل شيء، ويطلبون كل شيء، ولكن لما تأتي الآية الثانية تقصم ظهورهم، تقول لهم: هل هؤلاء يصلون، هل هؤلاء يصومون، هل هؤلاء يتجنبون الفواحش؟ أنتم تشهدون عليهم أنهم لا يصلون.

يذكرون أن أحدهم جاء إلى أناس لا يعرفهم، فرآهم يصلون، فلما انتهوا وجدوه نائمًا مغطى، فقال بعضهم: أيقظوا هذا النائم. قالوا: لا، هذا يصلي في مكة ولا يصلي معنا، هذا ولي من أولياء الله. وهذه الواقعة من قصصهم وحكاياتهم التي يذكرونها في كتبهم(١).

قوله: (مَعَهُمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَفْعَلُ بِهِمْ أَضْعَافَ أَضْعَافِ ذَلِكَ).

الشياطين تفعل أشياء مع بني آدم أشد من هذا، تطير بهم في الهواء، وتمشي بهم على البحار، لكن بشرط أن يكفروا، فإذا كفروا فإن الشياطين تعطيهم ما يريدون، وتحضر لهم الأطعمة، وتسرق من أموال الناس، وتأتي بها إليهم، ويقولون: هذا من كرامات الأولياء. وهو سرقة الشياطين.

أما ما يجري على يد الولي من الكرامات، مثل: ما حصل مع مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ وهي في مصلاها، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران:٣٧]، مع أنها لا تخرج، ولا تذهب، ولا يدخل عليها أحد، قال تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم:١٧]، فلا أحد يصل إليها إلا زكريا؛ لأنه يكفلها عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ

(١) ومن ذلك ما ذكره السخاوي في الضوء اللامع (٩/ ٥٠) عن المقريزي أنه حدَّث أن شيخه أبا حيان زار البدوى بناحية طنطا مع الأمير ناصر الدين بن جنكلي يوم الجمعة، قال: (فلما حان وقت الصلاة نزلنا معه إلى الجامع، وجلسنا لانتظار إقامة الجمعة، فلما فرغ الخطيب وأقيمت الصلاة وضع الشيخ رأسه فى طوقه بعدما قام قائمًا، وكشف عن عورته بحضرة الناس، وبال على ثيابه وحصر المسجد، واستمر ورأسه فى طوق ثوبه وهو جالس إلى أن انقضت الصلاة ولم يصل).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧]. فهذه كرامة يقينًا؛ لأن هذه أمة تقية صالحة مؤمنة، فما يجري عندها هو من كرامات الأولياء بلا شك، ومثل ما ثبت أن خبيبًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أسره أهل مكة، وحبسوه كان يُرى أنه يأكل من العنب الطري، مع أنه محبوس ولا يصل إليه أحد(١)، فمن أين أتى هذا العنب الطري؟ هذا من عند الله جاء به ملك من الملائكة، يدل لذلك أنه مؤمن تقي، أما إذا كان كافرًا فاجرًا، قلنا: لا، ليست هذه كرامة، والذي أتى له بهذه شيطان.

هذا الفرق بين الأمرين: أن تنظر في حال الشخص، فإذا كان مؤمنًا تقيًّا، فهو ولي من أولياء الله، وما يجري على يده من الخوارق والكرامات، وإن كان فاجرًا، فهو عدو لله، وما يجري على يده من الخوارق فهي خوارق شياطينة، وليست رحمانية.

قوله: (مَنْ يَفْعَلُ بِهِمْ أَضْعَافَ). أي: ليس في هذا حجة، يقولون: هذا ولي لأنه حصل له ذلك، نقول: هذا حصل لأهل الإلحاد أكثر مما حصل لأهل الإيمان، فالشياطين تفعل لهم هذه الأشياء، مع أنهم ليسوا من المؤمنين قطعًا، وإنما هم كفار أو مشركين أو من السحرة والكهان، وهل يُقال: إن الساحر وليٌّ من أولياء الله؟ هو يعمل أشياء خارقة للعادة، ويطير في الهواء، ويمشي على الماء، ويقطع المسافات البعيدة، فهل يُقال: إن هذا وليٌّ من أولياء الله مع أنه يعتمد على الكفر والسحر؟.

---

(١) قصة خبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الأسر أخرجها البخاري (٣٠٤٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾؛ لأنهم قالوا: إن القرآن نوع من الكهانة، وهذا مثل ما يقول الكهان؛ لأن الكهان عندهم سجع وكلام منظوم، فقالوا: القرآن مثل عمل الكهان، فبيَّن الله جَلَّوَعَلَا الحق في هذا، وأن القرآن لا يمكن أن تتنزل به الشياطين أبدًا، وإنما تتنزل الشياطين على الكهان، والرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا ينزل عليه شيطان، وإنما ينزل عليه ملك: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٤]، وقبلها يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ [الشعراء:٢١٢]، الشياطين معزلون عن الوحي، لا يمكن أن ينزلوا بالوحي أبدًا، فالذي ينزل على الرسول هو من عند الله، والذي نزل به ملك، والذي ينزل على الكاهن من عند الشيطان، والذي ينزل به شيطان، فلا يُغتر به.

قوله: (بِحَسْبِ مَا فَارَقُوا أَمْرَ اللهِ وَنَهْيَهُ الَّذِي بَعَثَ بِهِ نَبِيَّهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ).

لابد أن هؤلاء الذين يتعاملون مع الشياطين لا علاقة لهم بالشرع، فلو كان لهم علاقة بالشرع لما تقربت إليهم الشياطين، فلما انعزلوا عن الشرع حضرت الشياطين عندهم، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾[الزخرف:٣٦-٣٩]،

فهذا هو السبب: أن من انعزل عن القرآن، وانعزل عن دين الإسلام، فإنه يقع في قبضة الشياطين، وتقترن به الشياطين والعياذ بالله.

قوله: (**وَتِلْكَ الْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ نَتِيجَةُ ضَلَالِهِمْ وَشِرْكِهِمْ وَبِدْعَتِهِمْ وَجَهْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ**). ما يجري عليهم من الشياطين ليس كرامة، وليس نتيجة طاعة لله مثل ما يكون لأولياء الله، فالذي يجري على أولياء الله نتيجة طاعتهم وعبادتهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والذي يجري على أولياء الشيطان نتيجته معصية الله ومخالفة أمره، فالله استدرجهم بذلك، وولى عليهم الشياطين تضلهم عن سبيل الله: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف:٣٦]، فلا يحمي من الشيطان إلا اتِّباع كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (**وَهِيَ دَلَالَةٌ وَعَلَامَةٌ عَلَى ذَلِكَ**). لا يُقال: إن هذه كرامات؛ لأنها نتيجة لهذه المعاصي والمخالفات، بل هي عقوبة من الله عَزَّوَجَلَّ ليستدرجهم، فسلط عليهم عدوهم الشيطان يضلهم عن سبيل الله، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾، والمشكلة أنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولو كان يعلم أنه ضال لرُجي منه أن يرجع إلى الحق، ولكنهم يحسبون أنهم مهتدون، ويحسبون ما حصل كرامة لهم (**نَتِيجَةُ إِيمَانِهِمْ وَوِلَايَتِهِمْ للهِ تَعَالَى**)، وهي بالعكس.

قوله: (**وَأَنَّهَا عَلَامَةٌ وَدَلَالَةٌ عَلَى إِيمَانِهِمْ وَوِلَايَتِهِمْ للهِ سُبْحَانَهُ**). العلامة على الإيمان ليست حصول الخارق فقط، وإنما العلامة على الإيمان الامتثال لأوامر الله، والعمل بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، أما مجرد الخارق، فهذا قد يكون من الشيطان، وهو نتيجة الكفر، فليس مجرد حصول الخارق يدل على الولاية.

وهذه مقالة القبوريين يقولون: هذه الكرامات. مع أنها ما ثبتت، وإنما حكايات يتناقلونها، ومنامات، وخرافات، وحتى لو ثبتت فهي نتيجة للكفر والشرك والعياذ بالله، وهي من عمل الشيطان.

قوله: **(وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ فُرْقَانٌ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ)**. هذا الذي يغتر بالخوارق ليس عنده فرقان بين ما هو من الكرامات، وما هو من خوارق الشيطان، لا يستطيع أن يميز بينها، وأكثر الناس كذلك.

قوله: **(كَمَا قَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى ذَلِكَ فِي مَسْأَلَةِ الْفُرْقَانِ بَيْنَ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ)**. وهذا كتاب عظيم للشيخ اسمه: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، وهو كتاب نفيس جدًّا، وهو في مضمون هذا الكلام الذي مر، وقد لخصه تقريبًا، والتفصيل في ذلك الكتاب، ذكر فيه من أنواع الكرامات، وما جرى على يد الأولياء من أنواع الكرامات الشيء الكثير، وذكر من أنواع الخوارق الشيطانية الشيء الكثير[1]، وله كتاب آخر مختصر اسمه: «قاعدة في المعجزات والكرامات».

قوله: **(وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ الَّتِي جَعَلَهَا دَلِيلًا عَلَى الْوِلَايَةِ تَكُونُ لِلْكُفَّارِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ أَعْظَمُ مِمَّا تَكُونُ لِلْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ)**. كما سبق، قد تجري لبعض الفساق والملاحدة من الخوارق أشد مما عند هؤلاء المنتسبين للإسلام، ومع هذا هم أعداء الله جَلَّ وَعَلَا، وهم أولياء الشيطان.

---

(١) كتاب: (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) مطبوع مع شرح شيخنا العلامة الدكتور/ صالح بن فوزان الفوزان، في مجلدين بمطبعة الإمام الذهبي بالكويت.

قوله: (وَالدَّلِيلُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَدْلُولِ مُخْتَصٌّ بِهِ لَا يُوجَدُ بِدُونِ مَدْلُولِهِ). فدليل الولاية الآية الكريمة: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾، هذا الدليل القاطع الذي لا خفاء فيه أبدًا.

قوله: (وَأَوْلِيَاءُ اللهِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ). أولياء الله هم المؤمنون المتقون؛ أخذًا من القرآن لا من الخرافات والحكايات والمخاريق، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾.

قوله: (وَكَرَامَاتُهُمْ ثَمَرَةُ إِيمَانِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ). أما أولئك، فخرافاتهم ومخاريقهم ثمرة كفرهم وشركهم بالله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (وَأَكَابِرُ الْأَوْلِيَاءِ إِنَّمَا يَسْتَعْمِلُونَ هَذِهِ الْكَرَامَاتِ بِحُجَّةٍ لِلدِّينِ أَوْ لِحَاجَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ). هذا هو الفارق:

أولًا: أن الكرامة تكون نتيجة الإيمان والتقوى، وخارق الشيطان بكون نتيجة الكفر والطغيان.

ثانيًا: أن أولياء الله لا يغترون بهذه الكرامات، ولا يتكبرون بها، بل تزيدهم تواضعًا وشكرًا لله عَزَّوَجَلَّ وعبادة، ولا يقولون: نحن وصلنا. ويتركون العبادة، بل تزيدهم عبادة لله، وخوفًا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيستعينون بالكرامات على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ ونفع العباد.

ويستعملونها إما لإقامة الحجة على المعاند، وإما لقضاء حاجة الناس، كأن يدعو الله لهم وهم في حالة جدب وانحباس مطر، فينزل الله المطر لحاجة المسلمين بسبب دعوة هذا الولي، فولي الله يستعمل الكرامة في منفعة نفسه،

ومنفعة المسلمين، (**وَالْمُقْتَصِدُونَ قَدْ يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي الْمُبَاحَاتِ**)، خلافًا لأولياء الشيطان الذين يستعملونها في المحرمات.

قوله: (**وَإِنْ كَانَ سَبَبُهَا الْإِيمَانَ وَالتَّقْوَى**). هذا سببها في الأول، ولكن قد تخرجه هذه الكرامة عن الإيمان؛ لأنه اغتر بها وتكبر، فيخرجه الشيطان من دائرة الإيمان إلى الغرور والعياذ بالله.

فَمَنْ جَاهَدَ الْعَدُوَّ فَغَنِمَ غَنِيمَةً فَأَنْفَقَهَا فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ، فَهَذَا المَالُ وَإِنْ نَالَهُ بِسَبَبِ عَمَلٍ صَالِحٍ فَإِذَا أَنْفَقَهُ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ كَانَ وَبَالًا عَلَيْهِ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ سَبَبُ الخَوَارِقِ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَهِيَ تَدْعُو إِلَى كُفْرٍ آخَرَ وَفُسُوقٍ وَعِصْيَانٍ، وَلِهَذَا كَانَ أَئِمَّةُ هَؤُلَاءِ مُعْتَرِفِينَ بِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَمُوتُونَ عَلَى غَيْرِ الْإِسْلَامِ. وَلِبَسْطِ هَذِهِ الْأُمُورِ مَوْضِعٌ آخَرُ.

وَالمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ ضَلَالِ المُشْرِكِينَ مَا يَرَوْنَهُ أَوْ يَسْمَعُونَهُ عِنْدَ الْأَوْثَانِ؛ كَإِخْبَارٍ عَنْ غَائِبٍ، أَوْ أَمْرٍ يَتَضَمَّنُ قَضَاءَ حَاجَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِذَا شَاهَدَ أَحَدُهُمُ الْقَبْرَ انْشَقَّ وَخَرَجَ مِنْهُ شَيْخٌ بَهِيٌّ عَانَقَهُ أَوْ كَلَّمَهُ ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ النَّبِيُّ المَقْبُورُ، وَالْقَبْرُ لَمْ يَنْشَقَّ، وَإِنَّمَا الشَّيْطَانُ مَثَّلَ لَهُ ذَلِكَ، كَمَا يُمَثِّلُ لِأَحَدِهِمْ أَنَّ الحَائِطَ انْشَقَّ، وَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْهُ صُورَةُ إِنْسَانٍ، وَيَكُونُ هُوَ الشَّيْطَانُ تَمَثَّلَ لَهُ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ، وَأَرَاهُ أَنَّهُ خَرَجَ مِنَ الحَائِطِ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَقُولُ لِذَلِكَ الشَّخْصِ الَّذِي رَآهُ قَدْ خَرَجَ مِنَ الْقَبْرِ: نَحْنُ لَا نَبْقَى فِي قُبُورِنَا، بَلْ مِنْ حِينِ يُقْبَرُ أَحَدُنَا يَخْرُجُ مِنْ قَبْرِهِ وَيَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى ذَلِكَ المَيِّتَ فِي الجِنَازَةِ يَمْشِي وَيَأْخُذُهُ بِيَدِهِ، إِلَى أَنْوَاعٍ أُخْرَى مَعْرُوفَةٍ عِنْدَ مَنْ يَعْرِفُهَا، وَأَهْلُ الضَّلَالِ إِمَّا أَنْ يُكَذِّبُوا بِهَا، وَإِمَّا أَنْ يَظُنُّوهَا مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللهِ، وَيَظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ الشَّخْصَ هُوَ نَفْسُ النَّبِيِّ أَوِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ أَوْ مَلَكٍ عَلَى صُورَتِهِ، وَرُبَّمَا قَالُوا: هَذَا رَوْحَانِيَّتُهُ أَوْ رَقِيقَتُهُ أَوْ سِرُّهُ أَوْ مِثَالُهُ أَوْ رُوحُهُ تَجَسَّدَتْ. حَتَّى قَدْ يَكُونُ مَنْ يَرَى ذَلِكَ الشَّخْصَ فِي مَكَانَيْنِ فَيَظُنُّ أَنَّ الجِسْمَ الْوَاحِدَ يَكُونُ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ فِي مَكَانَيْنِ، وَلَا يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ حِينَ تَصَوَّرَ بِصُورَتِهِ لَيْسَ هُوَ ذَلِكَ الْإِنْسِيُّ.

الشَّرح

قوله: (فَمَنْ جَاهَدَ الْعَدُوَّ فَغَنِمَ غَنِيمَةً). مثال ذلك: المغنم الذي يأخذه المجاهدون في جهادهم، فإنه حلال طيب؛ كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [الأنفال:٦٩]، فإن استعمل هذه الغنيمة في طاعة الله زادته إيمانًا وتقوى وعملًا صالحًا، وإذا استعملها في معصية الله صارت وبالًا وشرًّا عليه بعدما كانت نعمة.

قوله: (فَكَيْفَ إِذَا كَانَ سَبَبُ الْخَوَارِقِ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَهِيَ تَدْعُو إِلَى كُفْرٍ آخَرَ وَفُسُوقٍ وَعِصْيَانٍ). إذا كانت الكرامة بسبب الإيمان، لكن استعملها في معصية الله صارت وبالًا عليه، فكيف إذا كان الخارق سببه الكفر وليس الإيمان، واستعمله -أيضًا- في كفر؟ فالأمر أشد والعياذ بالله.

قوله: (وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ ضَلَالِ الْمُشْرِكِينَ مَا يَرَوْنَهُ أَوْ يَسْمَعُونَهُ). رجع إلى أصل الكلام، فسبب ضلال المشركين وفتنتهم بالقبور ما قد يرونه عند القبر حينما يستغيثون ويستنجدون به، ما يراه من شخص يظهر له، ويقول: أنا صاحب القبر، أنا فلان. أو يحضر له حاجته، أو يخدمه، فيظن أن هذا من الله عَزَّوَجَلَّ، وأنها كرامة لهذا الميت، في حين أن هذا الذي كلمه وأتى له بمقصوده إنما هو شيطان يريد أن يضله ويهلكه، لكن انتكاس الفطر والعقول -ولا حول ولا قوة إلا بالله- إذا كان محتاجًا ومضطرًا، فلماذا لا يرفع يديه إلى الله جَلَّوَعَلَا ويدعوه في أي مكان، أو في المسجد الذي هو بيت من بيوت الله؟ لماذا لا يرفع يديه إلى الله ويطلب منه العون؟ لماذا يذهب

للميت العاجز الذي صار رميمًا ومرتهنًا بأعماله من أجل قضاء حاجته وتفريج كربته؟ لكن العقول تنتكس والعياذ بالله.

قوله: (عِنْدَ الْأَوْثَانِ). أو عند الأشجار، أو الأحجار، أو القبور، تحضر الشياطين في هذه الأماكن، ويحصل منها ما يحصل مما يزيدهم ضلالة.

قوله: (ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ النَّبِيُّ الْمَقْبُورُ، وَالْقَبْرُ لَمْ يَنْشَقَّ وَإِنَّمَا الشَّيْطَانُ مَثَّلَ لَهُ ذَلِكَ). إذا كان عند قبر نبي يخرج له شخص من القبر، من باب القمرة والسحر، وإلا فالقبر لا ينشق، لكن يصور له الشيطان ذلك تصويرًا فيخيل له أن القبر انشق، أو الجدار الذي أمامه انشق وخرج منه رجل، وسلم عليه، وقضى حاجته، فيقول: هذا الولي، هو الذي عمل لي كذا وكذا، في حين أنه شيطان.

قوله: (وَيَكُونُ هُوَ الشَّيْطَانُ تَمَثَّلَ لَهُ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ وَأَرَاهُ أَنَّهُ خَرَجَ مِنَ الْحَائِطِ). وهو لم يخرج من الحائط، لكن أراه هذا من باب التخييل، كما سبق في قصة عبد القادر الجيلاني حينما كان يعبد الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا بالشيطان فوقه على عرش ونور، فقال: أنا ربك، وأنا أحللت لك ما حرمت عليك. فقال له عبدالقادر: كذبت، أنت شيطان. لأن بعد وفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يحصل تحليل وتحريم، هذه ناحية، والناحية الثاني: أنه تحداه، وقال له: أنشدك بالله، أنت الله الذي لا إله إلا هو؟ فلم يستطع الشيطان أن ينطق ويقول: أنا الله الذي لا إله إلا هو، ولكنه لما قال له ذلك تلاشى هذا العرش، وهذا النور، وذهب مع الهواء[1]. ولكن من هو مثل عبدالقادر في فقهه وإيمانه وعلمه

(١) راجع (ص٣٠٩-٣١٠).

لا يغتر بهذا الشيطان؛ لذلك قال له: «نجوت مني يا عبد القادر بعلمك، وقد أهلكت بهذه كذا وكذا من الناس».

قوله: (**نَحْنُ لَا نَبْقَى فِي قُبُورِنَا، بَلْ مِنْ حِينْ يُقْبَرُ أَحَدُنَا يَخْرُجُ مِنْ قَبْرِهِ وَيَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ**). هذا ما يقوله الشيطان على لسان الميت، ويصدقه المسكين في هذا.

قوله: (**وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى ذَلِكَ المَيِّتَ فِي الجِنَازَةِ يَمْشِي وَيَأْخُذُهُ بِيَدِهِ**). أي: الميت يمشي مع الذين يشيعونه، ومنهم من يُطار بنعشه، يحملون النعش، ثم يأتي شيء يحمله من بينهم، ويطير به، فيقولون: هذا ولي من أولياء الله، والذين يحملونه الشياطين؛ لأجل أن يعتقدوا بهذا أنه ولي ينفع ويضر.

قوله: (**وَيَظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ الشَّخْصَ هُوَ نَفْسُ النَّبِيِّ أَوِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ أَوْ مَلَكٍ عَلَى صُورَتِهِ**). كما سبق، إما أن يكذبوا بالخوارق مطلقًا، ويقولوا: ليس هناك كرامات، ولا خوارق، وإنما هي خيالات، وإما أن يغلوا في إثباتها، ويظنوا أن خوارق الشياطين كرامات، ولا يفرقون بين الكرامات، والخوارق الشيطانية.

قوله: (**وَرُبَّمَا قَالُوا: هَذَا رَوْحَانِيَّتُهُ أَوْ رَقِيقَتُهُ أَوْ سِرُّهُ أَوْ مِثَالُهُ أَوْ رُوحُهُ تَجَسَّدَتْ**). أو يقولون: هذا ليس بشخصه، لكن هذه روحه تجسدت بجسد، وظهرت على الناس، وإلا جسده ما زال في القبر، لكن ظهرت روحه وصارت في جسد يراه الناس، وهذا كله من الكذب، والتدجيل.

قوله: (حَتَّى قَدْ يَكُونُ مَنْ يَرَى ذَلِكَ الشَّخْصَ فِي مَكَانَيْنِ، فَيَظُنُّ أَنَّ الجِسْمَ الْوَاحِدَ يَكُونُ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ فِي مَكَانَيْنِ). حتى إنهم يصدقون بالمحال، فيقول أحدهم: أنا رأيت فلانًا باليمن. ويقول الثاني: أنا رأيته الساعة التي تقول في الشام. فيقولون: هذا ولي، والولي لا يشكل عليه شيء، فيمكن أن يتواجد في مكانين في آن واحد. وهل هذا يصدق به عاقل؟! ولكنهم يصدقون بذلك، ويقولون: هذا ولي، والولي ليس مثلنا، يمكن أن يصير في الشام، واليمن، والمشرق، والمغرب في آن واحد.

قوله: (وَلَا يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ حِينَ تَصَوَّرَ بِصُورَتِهِ لَيْسَ هُوَ ذَلِكَ الْإِنْسِيُّ). إنما هي صور شيطانية تصورت بصورة الشخص، فصار شيطان باليمن، وشيطان بالشام، وشيطان بمصر، وهم شياطين.

وَهَذَا وَنَحْوُهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ عِنْدَ قُبُورِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ غَيْرَ اللهِ؛ كَالَّذِينَ يَدْعُونَ الْكَوَاكِبَ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٧٩، ٨٠].

الشرح

قوله: (وَهَذَا وَنَحْوُهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ عِنْدَ قُبُورِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ غَيْرَ اللهِ). الذي يدعو غير الله مشرك، سواء دعا ملكًا من الملائكة، أو نبيًّا من الأنبياء، أو وليًّا من الصالحين، أو شيطانًا، أو حجرًا، فكل من عبد غير الله مشرك، والذي يعبده إنما هو الشيطان؛ لأنه أمره بذلك فأطاعه، فهؤلاء إنما يعبدون الشيطان، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ [يس:٦٠]، يقولون لك: نحن لا نعبد الشيطان، نحن نلعن الشيطان ونبغضه. ولكنهم يعبدون القبر، فالذي يعبد القبر والشجر والحجر يعبد الشيطان، ولو كان يلعنه، ولو كان يستعيذ منه، ما دام أنه يعبد غير الله فهو يعبد الشيطان.

قوله: (كَالَّذِينَ يَدْعُونَ الْكَوَاكِبَ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا). فكل من عبد غير الله عبد الشيطان، وهو مشرك الشرك الأكبر، سواء

عبد الملائكة، أو الرسل، أو الأولياء، والصالحين، أو الكواكب، أو الشمس، أو القمر، أو غير ذلك.

قوله: (قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾). هذا رد على النصارى؛ لأن صدر سورة آل عمران كله في الرد على النصارى، فالنصارى يقولون: المسيح ابن الله، فيعبدونه، ويزعمون أن المسيح أمرهم بهذا، فالله جَلَّ وَعَلَا كذبهم، وقال: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ -مثل: المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ- ﴿ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، هل الأنبياء يأمرون بهذا؟ إنما الذي يأمر بهذا هو الشيطان، ﴿ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾ أي: إن الذي يقوله النبي للناس: ﴿ وَلَـٰكِن ﴾ للاستثناء المنقطع ﴿ كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾، هذا الذي تقوله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهذا رد على النصارى ومن شابههم ممن يعبدون الأولياء والصالحين، هل الأولياء والصالحون على الحقيقة يرضون أن يُعبدوا من دون الله؟

لو رضي ما كان وليًّا لله، فالذي يرضى أن يُعبد من دون الله ما يكون وليًا لله، فالولي على الحقيقة لا يرضى بذلك، ولا يأمر بذلك.

هذا في معرض بيان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ للرد على الذين يدعون الأولياء والصالحين من الموتى، ويتقربون إليهم بحجة أنهم أولياء الله، وأنهم قريبون من الله، ويعتقدون أنهم يشفعون لهم عند الله لقضاء حوائجهم،

كما كان المشركون الأولون: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨].

فحجة هؤلاء مثل حجة المشركين الأولين، ويسمون هذا من باب التوسل، وطلب الشفاعة منهم، وهذا لا يُغير من الحقيقة شيئًا، فالشرك هو الشرك ولو سُمِّي بغير اسمه، ولو كان من يعمله في الجاهلية، أو كان في الإسلام، فالشرك هو الشرك قديمًا وحديثًا، والله جَلَّوَعَلَا أمرنا أن ندعوه، ونطلب منه حاجاتنا، ونطلب منه كل ما هو من مصلحتنا مباشرة دون أن نتخذ بيننا وبينه وسائط أو شفعاء، فهو سبحانه قريب مجيب، والشفعاء والوسائط إنما يُحتاج إليهم مع البعيدين عن الناس كالملوك والرؤساء، وأما الله جَلَّوَعَلَا فهو قريب مجيب، يسمع ويرى ويعلم، وما عليك إلا أن تمد يديك، وتقول: يا الله أعطني كذا وكذا، اشفني من مرضي، ارزقني، اهدني، أصلح لي كذا وكذا. وتخلص في الدعاء له، وهو سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ قريب مجيب، لا يُقاس بخلقه الذين لابد أن يُتخذ معهم الوسائط والشفعاء، وغير ذلك من الطرق.

فالحاصل: أن فعل هؤلاء لا يختلف عن فعل المشركين من أولهم سواء بسواء.

وقوله: (قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ... ﴾). هاتان الآيتان فيهما رد عليهم في اتخاذ الملائكة والأنبياء والصالحين وسائط بينهم وبين الله، والتقرب إليهم من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

وسبب نزول الآية كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «اجْتَمَعَتْ نَصَارَى نَجْرَانَ وَأَحْبَارُ يَهُودَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... فَقَالَ أَبُو رَافِعٍ الْقُرَظِيُّ -حِينَ اجْتَمَعَ عِنْدَهُ النَّصَارَى وَالْأَحْبَارُ فَدَعَاهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْإِسْلَامِ-: أَتُرِيدُ مِنَّا يَا مُحَمَّدُ أَنْ نَعْبُدَكَ كَمَا تَعْبُدُ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ نَصْرَانِيٌّ -يُقَالُ لَهُ الرِّبِّيسُ-: وَذَلِكَ تُرِيدُ يَا مُحَمَّدُ، وَإِلَيْهِ تَدْعُو؟ أَوْ كَمَا قَالَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَعَاذَ اللهِ أَنْ أَعْبُدَ غَيْرَ اللهِ، أَوْ آمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ، مَا بِذَلِكَ بَعَثَنِي وَلَا أَمَرَنِي»**، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾»[1].

فلا يليق هذا بنبي من الأنبياء -لا المسيح، ولا محمد، ولا غيره- أن يأمر الناس أن يعبدوه، وأن يكونوا عبادًا له، وإنما يأمرهم بعبادة الله وحده، هذا الذي جاءت به الأنبياء، ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ والرباني: هو الذي يُعلم الناس الخير، ويربيهم عليه، وهذا الذي يقولونه ليس خيرًا، ولا يمكن أن يعلمه نبي لأمته أبدًا، إنما الأنبياء يعلمون التوحيد، وكذلك أتابعهم من العلماء يعلمون التوحيد، ويربون الناس على التوحيد ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾، هذا هو الذي جاءت به الأنبياء أنهم يعلمون الناس التوحيد، وإخلاص العبادة لله عَزَّ وَجَلَّ، ولا يطلبون منهم أن يعبدوهم من دون الله، ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾، لا يمكن أن يأمر نبيٌّ بهذا، ثم قال: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٣٨٤).

إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾، فدل على أن عبادة غير الله كفر ولو سمي ذلك توسلًا، أو طلبًا للشفاعة، أو غير ذلك، ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ ﴾، أي: هذا البشر الذي آتاه الله من الكتاب والحكمة والنبوة ﴿أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ﴾، هؤلاء هم صفوة الخلق الملائكة والنبيين، فكيف بغيرهم من الأولياء والصالحين؟

لا يليق بأحد من عباد الله، خصوصًا الملائكة، والأنبياء وأتباعهم ﴿أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ﴾، فدل على أن الذي يدعو الملائكة، أو يدعو الأنبياء، أو يدعو الأولياء والصالحين قد اتخذهم أربابًا، ومن اتخذ ربًا مع الله فهو كافر: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

ففي هاتين الآيتين ردٌّ عليهم، وهي في الأصل ردٌّ على النصارى واليهود، وهي عامة في كل من قال هذه المقالة أو انتحلها ونسب هذا إلى الأنبياء.

فلو أن هذا الكتاب، وأمثاله دُرِّس في مدارس المسلمين، وفي مناهج المسلمين لعاد الإسلام نقيًّا كما كان، ولكن الذي يُدرس -مع الأسف- في كثير من مدارس المسلمين خرافات باسم العقيدة، وهو من هذا النوع، من الدعاية للأموات، وعبادة الأموات، وغير ذلك، فالواجب على المسلمين أن يعتنوا بالعقيدة الصحيحة، ويكتبوها، ويقرؤوها، ويتأملوها، وينشروها في الناس، فلو أن طلبة العلم الذين من تلك البلاد إذا منَّ الله عليهم ودرسوا وعرفوا هذا الدين ذهبوا إلى بلادهم يحملون معهم هذه الكتب، ويدرسونها للناس في بيوتهم وفي مساجدهم، ويحاولون أنها تقرر في المدارس، لكان في ذلك الخير الكثير.

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء:٥٦، ٥٧].

الشَّرح

يقول الله جَلَّوَعَلَا للمشركين من باب التحدي لهم: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: غير الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ أيًّا كان، ملائكة، أو أنبياء، أو صالحين، أو جنًّا، أو إنسًا، فقد تحداهم سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿ٱدۡعُواْ﴾ أي: اطلبوا من ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾، والزعم كذب، فاتخاذهم إياهم من باب الزعم لا أصل له في دين الله.

قال: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ﴾، إذا نزل بأحد مرض أو ببلد أو بجماعة، ودعوا المقبورين، والأموات، والأولياء، والصالحين، وجميع من يدعونهم من دون الله، فلا يملكون كشف هذا الضر أبدًا، فلا يرفعه إلا الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:١٧]، وكونه يعالج بالأدوية وبالرقية، فهذه أسباب قد تنفع وقد لا تنفع، فإذا نفعت، فهذا بإذن الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهو الذي كشف هذا الضر بسبب هذه الرقية أو هذا الدواء، وإذا أراد لم ينفع شيئًا، فالأمر بيد الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي: تحويل الضر من عضو إلى عضو، فهم لايملكون أن يؤخروا وجع الرأس إلى وجع الرجل، أو اليد في البدن، ولا يملكون أن يحولوه من شخص إلى شخص آخر، ولا من بلد إلى بلد آخر، هذا لا يملكه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو الذي يملك كشفه، ويملك نقله من محل إلى محل، فإذا كان الأمر كذلك فما فائدة التعلق بغير الله عَزَّوَجَلَّ؟.

ثم قال: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾، أولئك الذين يدعوهم المشركون، وهم: عيسى، وعزير، ومريم عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ هم أنفسهم فقراء إلى الله يطلبون من الله ويتقربون إليه ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ أي: القرب من الله جَلَّ وَعَلَا، فعيسى وأمه عباد من عباد الله محتاجون إلى الله يتقربون إليه بطاعته وعبادته، فكيف يُطلب منهم كشف الضر أو تحويله؟ فهم عباد مثلكم مفتقرون إلى الله يتقربون إليه ويتوسلون إليه بالطاعة، ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾، فهم لا يأمنون على أنفسهم، ولا يضمنون لأنفسهم حصول المقصود، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ هذا قول في تفسير الآية.

والقول الثاني: أنها نزلت في قوم من المشركين كانوا يعبدون الجن من دون الله عَزَّوَجَلَّ، فأسلم الجن، وصاروا يتقربون إلى الله بطلب حوائجهم منه، ولم يعلم هؤلاء المشركون أن معبوديهم أسلموا وصاروا يدعون الله عَزَّوَجَلَّ(١)، ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا

(١) كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه البخاري (٤٧١٤)، ومسلم (٣٠٣٠).

﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾.

وعلى كلٍ: الآية تدل على أن من يدعوهم المشركون هم عباد من عباد الله، سواء كانوا من الأنبياء الصالحين، أو كانوا من الجن، فهم عباد فقراء لا يملكون شيئًا، فكيف يُطلب منهم ما لا يُطلب إلا من الله جَلَّ وَعَلَا؟

وهذه الآية فيها رد على المشركين في أن من تدعونهم لا يستطيعون إجاباتكم، وتحقيق مطالبكم؛ لأنهم مخلوقون أمثالكم، فكيف يعبد الإنسان مخلوقًا مثله، فقيرًا مثله، عاجزًا مثله؟ هذه من العجائب، ومن الانتكاس في الفطر، وتلاعب الشيطان بعقول بني آدم.

وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ:٢٢، ٢٣].

الشرح

وهذه -أيضًا- فيها رد على المشركين، وإبطال للشرك من أصله.

قال الله جَلَّ وَعَلَا متحديًا للمشركين: ﴿ قُلِ ﴾ أيها الرسول ﴿ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والزعم كذب؛ لأن هذا لا أصل له، فاتخاذكم إياه من باب الزعم والظن الكاذب، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، كيف تطلب من إنسان لا يملك شيئًا ولا مثقال ذرة من السموات والأرض؟ فمن أين يعطيك وهو لا يملك ولا ذرة؟ الملك كله لله جَلَّ وَعَلَا، ليس لهم ملك في السموات ولا في الأرض فكيف تطلب منهم؟ هذه واحدة.

الثانية: إذا كانوا لا يملكون، فقد يكونوا شركاء لمن يملك، قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾، أي: لا يملكون شيئًا في السموات والأرض استقلالًا، ولا يملكون شيئًا بالاشتراك، الملك كله خالص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الثالثة: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، أي: ما لله منهم من معين، فإذا لم يكن مالكًا ولا شريكًا، فقد يكون قريبًا من المالك، كأن يكون وزيرًا له أو قريبًا منه فيؤثر عليه، والله جَلَّ وَعَلَا ليس له ظهير من عباده، ليس له وزير، ولا معين، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس كملوك الدنيا؛ لأن من عادة ملوك الدنيا أن

يتخذوا لهم وجهاء وأعوانًا ووزراء، فيؤثرون على الملوك لتحصيل الطلب، أما الله جَلَّوَعَلَا فليس له ظهير ولا وزير ولا معين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾، انتفت الثلاثة: لا الملك، ولا الشركة، ولا الظهير، لكنه قد يشفع عنده، ولكن لا أحد يشفع عند الله جَلَّوَعَلَا إلا بإذنه، فليس الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مثل المخلوقين يشفع الشفعاء عنده ولو لم يأذن، والله لا يأذن إلا لأهل التوحيد؛ لأن الشفاعة لها شرطان:

الأول: أن تكون في عصاة الموحدين، أما المشركون، ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨]، ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]، فليس فيهم شفاعة.

الثاني: الأذن للشافع، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ أي: عند الله ﴿إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾، وهو لا يأذن إلا لأهل التوحيد، فلا تنفع الشفاعة، ولا تقبل في المشركين أبدًا، وحتى أهل التوحيد لا يشفع لهم أحد إلا بإذن الله جَلَّوَعَلَا.

فإذًا: الشفاعة تُطلب من الله، ولا تُطلب من المخلوق، فيقال: اللهم شفع فيَّ نبيك، اللهم شفع فيَّ عبادك الصالحين، ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ [الزمر:٤٤]، هو سبحانه الذي يأذن بها، فتُطلب منه جَلَّوَعَلَا.

فانقطعت كل عروق الشرك التي يتعلق بها المشركون في هذه الآية الكريمة من هذه الوجوه الأربعة.

وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، يَنْهَى أَنْ يُدْعَى غَيْرُ اللهِ لَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَلَا الْأَنْبِيَاءِ وَلَا غَيْرِهِمْ، فَإِنَّ هَذَا شِرْكٌ أَوْ ذَرِيعَةٌ إِلَى الشِّرْكِ. بِخِلَافِ مَا يُطْلَبُ مِنْ أَحَدِهِمْ فِي حَيَاتِهِ مِنَ الدُّعَاءِ وَالشَّفَاعَةِ، فَإِنَّهُ لَا يُفْضِي إِلَى ذَلِكَ.

الشَّرح

قوله: (**وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ**). مثل هذه الآيات التي تبطل الشرك وترد على أصحابه كثيرة في القرآن لمن تدبره وعقله، لكن هؤلاء لا يتدبرون القرآن، كأن القرآن يخاطب غيرهم، يقرؤونه ويحفظونه ولكن لا يتدبرونه، فيشركون بالله، والقرآن ينهى عن الشرك في كثير من الآيات، ويرد الشبهات التي يتعلقون بها وهم لا يشعرون بذلك، فانظر للآية السابقة كيف أبطلت الشرك من أصله من أربعة وجوه، وهم يقرؤونها ولا يقلعون عن الشرك وعبادة القبور، ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ لأن قلوبهم عليها غطاء لا يصل إليها القرآن، ولا يصل إليها العلم والنور.

قوله: (**يَنْهَى أَنْ يُدْعَى غَيْرُ اللهِ لَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَلَا الْأَنْبِيَاءِ وَلَا غَيْرِهِمْ**). ينهى الله جَلَّ وَعَلَا في القرآن أن يُدعى غيره: لا من الملائكة، ولا من الرسل والأنبياء، ولا من الصالحين، ولا من الجن والإنس، ولا من الأصنام والأوثان، بل القرآن كله يأمر بإفراد الله جَلَّ وَعَلَا بالعبادة، والدعاء، والخوف، والرجاء، والتضرع، وجميع أنواع العبادة.

قوله: (**فَإِنَّ هَذَا شِرْكٌ أَوْ ذَرِيعَةٌ إِلَى الشِّرْكِ**). هذا شرك بالله إذا طلبت الحاجة من غير الله؛ من الميت سواء كان نبيًّا أو من الصالحين، فالميت لا يقدر

على شيء، أو طُلبت الغائب؛ لأنه لا يقدر على شيء وهو غائب، ولا يسمع دعاء من دعا، قال تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ﴾ [فاطر:١٤]؛ لأنكم تطلبون منهم ما لا يستطيعونهز

ففي القرآن آيات كثيرة تنهى عن الشرك، وتأمر بالتوحيد وإخلاص العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، ومع هذا هم يصرون على شركهم، ويقولون: هذا ليس بشرك، هذا توسل وطلب للشفاعة، وغير ذلك من الشبهات.

قوله: (فَإِنَّ هَذَا شِرْكٌ أَوْ ذَرِيعَةٌ إِلَى الشِّرْكِ). إذا طلب من المخلوق أن يتوسط لقضاء حاجته عند الله، فهذا شرك أو ذريعة إلى الشرك.

قوله: (بِخِلَافِ مَا يُطْلَبُ مِنْ أَحَدِهِمْ فِي حَيَاتِهِ مِنَ الدُّعَاءِ وَالشَّفَاعَةِ). أما الحي الحاضر فلا مانع أن تطلب منه ما يقدر عليه، فتقول: يا فلان أعطني، أقرضني من المال، يا فلان ابْنِ معي هذا الجدار، احمل معي هذا المتاع، لا مانع من ذلك؛ لأنه يقدر عليه، فتطلب من المخلوق الحي الحاضر عندك، أو تقول: يا فلان ادع الله لي. فيدعو الله لك، كما كان الصحابة يطلبون من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو الله لهم بالمطر والسقيا، ويدعو الله لهم حاجاتهم، ويدعو الله لهم بالنصر، فلا مانع أن تطلب من الحي الحاضر الدعاء، أما الميت فلا تطلب منه شيئًا لا دعاء ولا غيره، ولم يكن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يذهبون إلى قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقولون: يا رسول الله: ادع الله أن يغيثنا، ادع الله كذا، بل لما أجدبوا في عهد عمر لم يذهبوا إلى قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما صلوا صلاة الاستسقاء، وقال عمر للعباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قم

يا عباس فادع الله»[١]. فطلب من قرابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو عمه؛ لأنه حاضر حي يقدر على الدعاء، فطلب الدعاء من الحي لا بأس به كغيره من الحوائج، وفرق بين الحي والميت.

قوله: (مِنَ الدُّعَاءِ وَالشَّفَاعَةِ). من دعاء الله جَلَّ وَعَلَا للمحتاج، وهذا الدعاء شفاعة من الداعي للمدعو له.

قوله: (فَإِنَّهُ لَا يُفْضِي إِلَى ذَلِكَ). أي: لا يفضي إلى الشرك، وليس هذا وسيلة إلى الشرك، خلاف دعاء الميت، فإنه شرك أو وسيلة إلى الشرك.

(١) تقدم تخريجه (ص٣٧).

فَإِنَّ أَحَدًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لَمْ يُعْبَدْ فِي حَيَاتِهِ بِحَضْرَتِهِ، فَإِنَّهُ يَنْهَى مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ، بِخِلَافِ دُعَائِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ ذَرِيعَةٌ إِلَى الشِّرْكِ بِهِمْ، وَكَذَلِكَ دُعَاؤُهُمْ فِي مَغِيبِهِمْ هُوَ ذَرِيعَةٌ إِلَى الشِّرْكِ.

فَمَنْ رَأَى نَبِيًّا أَوْ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَقَالَ لَهُ: «ادْعُ لِي» لَمْ يُفْضِ ذَلِكَ إِلَى الشِّرْكِ بِهِ، بِخِلَافِ مَنْ دَعَاهُ فِي مَغِيبِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُفْضِي إِلَى الشِّرْكِ بِهِ كَمَا قَدْ وَقَعَ، فَإِنَّ الْغَائِبَ وَالْمَيِّتَ لَا يَنْهَى مَنْ يُشْرِكُ، بَلْ إِذَا تَعَلَّقَتِ الْقُلُوبُ بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ أَفْضَى ذَلِكَ إِلَى الشِّرْكِ بِهِ، فَدُعِيَ وَقُصِدَ مَكَانُ قَبْرِهِ أَوْ تِمْثَالِهِ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ، كَمَا قَدْ وَقَعَ فِيهِ الْمُشْرِكُونَ وَمَنْ ضَاهَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمُبْتَدِعَةِ الْمُسْلِمِينَ.

الشَّرْح

قوله: (فَإِنَّ أَحَدًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لَمْ يُعْبَدْ فِي حَيَاتِهِ بِحَضْرَتِهِ).

لأنهم ينهون عن ذلك، ويقاتلون من فعله، وإنما يعبدونهم إذا ماتوا، والأموات لا يعلمون عن شيء من ذلك، ولكنهم في حياتهم كانوا يحاربون الشرك؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٧٩]، فلا أحد من الأنبياء ولا من أتباعهم يقول هذا في حياته، أما بعد موته فإنهم يعبدونه، وهو لا يدري ولا يقدر على منعهم، كما حصل للمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لما مات قالوا: المسيح ابن الله، أو هو الله، أو ثالث ثلاثة، ولهذا إذا حشرهم الله يوم القيامة وجمع الخلائق جميعًا، قال: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ

قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ أي: ننزهك عن ذلك؛ لأن الله منزه عن الشرك ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾؛ لأن العبادة حق لله جَلَّوَعَلَا، فهو نزه الله أولًا، ثم نزه نفسه أن يأمر الناس بالشرك ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾، الله جَلَّوَعَلَا يعلم أنه لم يقل هذا؛ لأن الله لا يخفى عليه شيء، وإنما يسأله من أجل أن يبطل قول هؤلاء، ويظهر بطلانهم، فهذا من باب إبطال حجة المشركين، ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾، يقول: حتى ما أضمرت هذا في نفسي ولم أقله بلساني أنت تعلمه ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾، هذا الذي أمرهم به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة:١١٦، ١١٧]، فدل هذا على أنهم إنما عبدوه بعد وفاته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو لا يعلم، ولا أمرهم بذلك.

قوله: (**فَإِنَّهُ يَنْهَى مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ**). بل يُقاتل من يفعل ذلك؛ كما قاتل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشركين. ولَمَّا قال بعض الصحابة: قوموا بنا نستغيث برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا المنافق. قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّهُ لا يُسْتَغَاثُ بِي وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ**»(١). ولما قال له رجل: ما شاء الله وشئت. قال: «**أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ عَدْلًا؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»(٢). ولما قالوا له: أنت سيدنا وابن سيدنا قال: «**لَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ،**

(١) تقدم تخريجه (ص٨٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٩)، والنسائي في الكبرى (٩/ ٣٦٢)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٠٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ»[1]. فكان ينكر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حتى الألفاظ التي يقولونها.

قوله: (**بِخِلَافِ دُعَائِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ ذَرِيعَةٌ إِلَى الشِّرْكِ بِهِمْ**). إذا ما ماتوا وتغيبوا عن هذه الدنيا، فإن دعاءهم من دون الله ذريعة إلى الشرك، والموتى لا يشعرون بذلك، ولا يقدرون على منعهم وردهم.

قوله: (**وَكَذَلِكَ دُعَاؤُهُمْ فِي مَغِيبِهِمْ هُوَ ذَرِيعَةٌ إِلَى الشِّرْكِ**). دعاء الميت أو الغائب على قسمين:

الأول: أن يدعوه ويطلب منه الحاجة من دون الله، وهذا شرك أكبر.

الثاني: أن يدعوه لأجل أن يشفع له، ويطلب منه الدعاء، فهذا ذريعة إلى الشرك، أما لو طلب منه الحاجة، فهذا شرك أكبر.

قوله: (**فَمَنْ رَأَى نَبِيًّا أَوْ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ...**). قد يرى الإنسان ملكًا من الملائكة، فيطلب منه الدعاء بحضوره، فلا بأس بذلك؛ لأنه حي حاضر وهو يقدر على الدعاء، أو أدرك نبيًّا من الأنبياء، فطلب منه أن يدعو الله له، لا بأس بذلك في حضوره وحياته.

قوله: (**بِخِلَافِ مَنْ دَعَاهُ فِي مَغِيبِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُفْضِي إِلَى الشِّرْكِ بِهِ**). أما من كان ميتًا أو غائبًا، فلا يُطلب منه الدعاء؛ لأن هذا يفضي به إلى الشرك به، يطلب منه الدعاء في البداية، ثم في النهاية يدعوه من دون الله عَزَّوَجَلَّ، فيقع في الشرك والعياذ بالله، كما وقع لكثير من القبوريين، يقولون: نحن نطلب منهم

---

(١) تقدم تخريجه (ص٩١).

الدعاء، وطلب الدعاء جائز، ولا فرق بين الحياة والموت، كما أنه يجوز أن نطلب منه الدعاء وهو حي حاضر نطلب منه وهو ميت.

فنقول: هذه مغالطة، فهناك فرق بين الحي والميت، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم كان على قيد الحياة، ويمشي مع الناس وهم يطلبون منه الدعاء، ويستفتونه بما أشكل عليهم، ويتعلمون منه، ويتلقون عنه القرآن والوحي، فلما مات لم يكونوا يفعلون هذا عند قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا دليل على الفرق بين الحياة والموت، فالميت لا يُطلب منه شيء، وإنما يُطلب له، ويُدعى له، ويُستغفر له، ويُتصدق عنه؛ لأنه بحاجة، أما أن يُطلب منه ويُدعى، فهذا شرك بالله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله: (فَإِنَّ الْغَائِبَ وَالْمَيِّتَ لَا يَنْهَى مَنْ يُشْرِكُ). لو أشركوا به وهو غائب لا يدري، فلا يمكن أن ينهى عن ذلك وهو لا يدري، كذلك الميت لا يدري من دعاه؛ لأنه في عالم آخر غير عالم الدنيا، فهم لا يسمعون أهل الدنيا، ولا يعلمون بأحوالهم؛ لأنهم في عالم الآخرة.

قوله: (كَمَا قَدْ وَقَعَ فِيهِ الْمُشْرِكُونَ). أي: كما كان المشركون يفعلون ذلك.

قوله: (وَمَنْ ضَاهَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمُبْتَدِعَةِ الْمُسْلِمِينَ). أي: من شابههم من اليهود والنصارى مع أنبيائهم، وكذلك من المسلمين من وقع في هذا من القبوريين وعباد الأضرحة.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ المَلَائِكَةَ تَدْعُو لِلْمُؤْمِنِينَ وَتَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر:٧-٩].

قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى:٥- ٦].

فَالمَلَائِكَةُ يَسْتَغْفِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْأَلَهُمْ أَحَدٌ، وَكَذَلِكَ مَا رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْ غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ يَدْعُو وَيَشْفَعُ لِلْأَخْيَارِ مِنْ أُمَّتِهِ، هُوَ مِنْ هَذَا الجِنْسِ، هُمْ يَفْعَلُونَ مَا أَذِنَ اللهُ لَهُمْ فِيهِ بِدُونِ سُؤَالِ أَحَدٍ.

الشَّرح

قوله: (وَمَعْلُومٌ أَنَّ المَلَائِكَةَ تَدْعُو لِلْمُؤْمِنِينَ وَتَسْتَغْفِرُ لَهُمْ). الملائكة يدعون للمسلمين، ويستغفرون لهم ولو لم يُطلب منهم ذلك، هذا شأنهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

قوله: (كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ...﴾). لأن الملائكة أقسام، وكل قسم له عمل، ومنهم الذين يحملون عرش الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.
وقوله: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾، أي: حول العرش، هذا صنف من الملائكة، وهناك أصناف أخرى، وكل صنف له عمل موكول إليه.

وقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ هؤلاء شأنهم التسبيح، ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من المسلمين؛ خوفًا عليهم، وهذا من نصحهم لبني آدم وشفقتهم عليهم، فهم يعملون هذا، ولا يُحتاج إلى أنه يُطلب منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: غير الله، ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ يعبدونهم من دون الله، ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ الله ليس غافلًا عنهم، بل يرى فعلهم، ويطلع عليهم، وسيعاقبهم ويحاسبهم على ذلك، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما هو مبلغ عن الله، ولا يملك هداية القلوب وإدخال الناس في الإيمان، قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، هذا بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى:٤٨]، فالرسول إنما هو مبلغ، وأما الهداية فهي بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠].

قوله: (فَالمَلَائِكَةُ يَسْتَغْفِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْأَلَهُمْ أَحَدٌ). لا حاجة إلى أنك تطلب من الملائكة أن يدعوا لك؛ لأن هذا شأنهم أن يدعوا للمؤمنين، فإن كنت من المؤمنين حقًّا فهم يدعون لك، وإن كنت من غير المؤمنين -والعياذ بالله- فلا ينفعك شيء.

قوله: (وَكَذَلِكَ مَا رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ...). كذلك الشفاعة، الله جَلَّوَعَلَاله ملك الشفاعة، ويعطيها من يشاء، ويأذن بها لمن يشاء من الأنبياء وغيرهم، فالملائكة يشفعون، والأنبياء يشفعون، والصالحون يشفعون، والأفراط الذين ماتوا صغارًا يشفعون عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولكن كل هذا لابد أن يكون بشرطين:

الأول: إذن الله للشافع أن يشفع.

الثاني: أن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد ممن يرضى الله قوله وعمله، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥] هذا شرط، ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، هذا الشرط الثاني، ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِى شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]، هذان الشرطان.

وَإِذَا لَمْ يُشْرَعْ دُعَاءُ المَلَائِكَةِ لَمْ يُشْرَعْ دُعَاءُ مَنْ مَاتَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَلَا أَنْ نَطْلُبَ مِنْهُمُ الدُّعَاءَ وَالشَّفَاعَةَ، وَإِنْ كَانُوا يُدْعَونَ وَيَشْفُعُونَ لِوَجْهَيْنِ:

أَحَدِهِمَا: أَنَّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنْ ذَلِكَ هُمْ يَفْعَلُونَهُ وَإِنْ لَمْ يُطْلَبْ مِنْهُمْ، وَمَا لَمْ يُؤْمَرُوا بِهِ لَا يَفْعَلُونَهُ وَلَوْ طُلِبَ مِنْهُمْ، فَلَا فَائِدَةَ فِي الطَّلَبِ مِنْهُمْ.

الثَّانِي: أَنَّ دُعَاءَهُمْ وَطَلَبَ الشَّفَاعَةِ مِنْهُمْ فِي هَذِهِ الحَالِ يُفْضِي إِلَى الشِّرْكِ بِهِمْ، فَفِيهِ هَذِهِ المَفْسَدَةُ، فَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ فِيهِ مَصْلَحَةً لَكَانَتْ هَذِهِ المَفْسَدَةُ رَاجِحَةً، فَكَيْفَ وَلَا مَصْلَحَةَ فِيهِ، بِخِلَافِ الطَّلَبِ مِنْهُمْ فِي حَيَاتِهِمْ وَحُضُورِهِمْ فَإِنَّهُ لَا مَفْسَدَةَ فِيهِ، فَإِنَّهُمْ يَنْهَوْنَ عَنِ الشِّرْكِ بِهِمْ. بَلْ فِيهِ مَنْفَعَةٌ، وَهُوَ أَنَّهُمْ يُثَابُونَ وَيُؤْجَرُونَ عَلَى مَا يَفْعَلُونَهُ حِينَئِذٍ مِنْ نَفْعِ الخَلْقِ كُلِّهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ فِي دَارِ الْعَمَلِ وَالتَّكْلِيفِ، وَشَفَاعَتُهُمْ فِي الْآخِرَةِ فِيهَا إِظْهَارُ كَرَامَةِ اللهِ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الشَّرح

قوله: (فَلَا فَائِدَةَ فِي الطَّلَبِ مِنْهُمْ). الغائبون من الملائكة والأموات من الرسل والأولياء لا يُطلب منهم هذا الشيء، إنما يُطلب هذا من الأحياء الحاضرين، هذه هي القاعدة.

قوله: (يُفْضِي إِلَى الشِّرْكِ بِهِمْ فَفِيهِ هَذِهِ المَفْسَدَةُ). إذا جاء إلى القبر، وطلب من الميت أن يشفع له ويدعو له، فهذا طلب يفضي إلى الشرك، هو ليس شركًا بنفسه؛ لأنه يطلب منه الدعاء والشفاعة عند الله، لكنه طلب

باطل؛ لأن الميت لا يسمعه ولا يقدر أن يجيبه، فهذا يفضي في النهاية إلى أنه يدعو الميت نفسه، ويطلب منه الحاجة، فهو وسيلة إلى الشرك.

قوله: (**فَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ فِيهِ مَصْلَحَةً لَكَانَتْ هَذِهِ الْمَفْسَدَةُ رَاجِحَةً**). فالطلب من الحي إن كان سائغًا ليس فيه مفسدة، كأن تطلب منه مبلغًا من المال، أو تطلب منه إعانة على عمل، أو إجابة على مسألة، فهذا لا بأس به، أما إذا كان فيه شرك، فهم لا يقرون ذلك، بل ينهون عنه، والحي غير محظور في الطلب منه؛ لأنه إن كان يُطلب منه، فهذا أمر سائغ ولا بأس به، وإن كان غير سائغ، فإنه ينهى عنه ولا يقر عليه، خلافًا للميت الذي لا يقدر ولا يدري.

قوله: (**بَلْ فِيهِ مَنْفَعَةٌ، وَهُوَ أَنَّهُمْ يُثَابُونَ وَيُؤْجَرُونَ ...**). فالحي إذا طلبت منه وقضى حاجتك كان له مصلحة في هذا؛ لأن الله يأجره على إعانة أخيه وتفريج كربته، فأنت تحصل على حاجاتك، وهو يحصل على الأجر، فإذا طلبت منه مبلغًا من المال -صدقة أو قرضًا- فهذا فيه مصلحة للسائل والمسؤول، فالسائل يقضي حاجته، والمسؤول له الأجر والثواب عند الله جَلَّ وَعَلَا، والله يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة:٢]، ويقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والله فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**»(١).

قوله: (**فَإِنَّهُمْ فِي دَارِ الْعَمَلِ وَالتَّكْلِيفِ**) أي: في الدنيا (**وَشَفَاعَتُهُمْ فِي الْآخِرَةِ فِيهَا إِظْهَارُ كَرَامَةِ اللهِ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**). فإذا أذن الله للشفعاء في الآخرة أن يشفعوا، فهذا إكرام للشفعاء، ونفع للمشفوع فيه.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٢٨).

وَأَصْلُ سُؤَالِ الخَلْقِ الحَاجَاتُ الدُّنْيَوِيَّةُ الَّتِي لَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فِعْلُهَا لَيْسَ وَاجِبًا عَلَى السَّائِلِ وَلَا مُسْتَحَبًّا، بَلِ المَأْمُورُ بِهِ سُؤَالُ اللهِ تَعَالَى وَالرَّغْبَةُ إِلَيْهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ.

وَسُؤَالُ الخَلْقِ فِي الأَصْلِ مُحَرَّمٌ، لَكِنَّهُ أُبِيحَ لِلضَّرُورَةِ، وَتَرْكُهُ تَوَكُّلًا عَلَى اللهِ أَفْضَلُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح:٧، ٨]، أَيْ: ارْغَبْ إِلَى اللهِ تَعَالَى لَا إِلَى غَيْرِهِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة:٥٩]، فَجَعَلَ الإِيتَاءَ للهِ وَالرَّسُولِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، فَأَمَرَهُمْ بِإِرْضَاءِ اللهِ وَرَسُولِهِ.

وَأَمَّا فِي الحَسْبِ فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ لَا أَنْ يَقُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَرَسُولُهُ. وَيَقُولُوا: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ لَمْ يَأْمُرْهُمْ أَنْ يَقُولُوا: إِنَّا للهِ وَرَسُولِهِ رَاغِبُونَ، فَالرَّغْبَةُ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور:٥٢]، فَجَعَلَ الطَّاعَةَ للهِ وَالرَّسُولِ، وَجَعَلَ الخَشْيَةَ وَالتَّقْوَى للهِ وَحْدَهُ.

الشَّرح

قوله: (وَأَصْلُ سُؤَالِ الخَلْقِ الحَاجَاتُ الدُّنْيَوِيَّةُ...). لما ذكر أنه لا بأس بالسؤال، وطلب الحاجة من الحي، وأنه مباح، قال: تركه أحسن، فمهما استطعت ألا تسأل الناس، فهو أحسن لك؛ لأن سؤال الناس مكروه؛

لِمَا فيه من مذلة وحاجة، حتى الدعاء يستحب ألَّا تطلب من الناس الدعاء لك، بل ادع الله أنت، هو جائز أن تطلب منهم الدعاء، ولكن أحسن من هذا أن تدعو الله عَزَّوَجَلَّ، ولا تحتاج إلى المخلوق.

قوله: (بَلِ المَأْمُورُ بِهِ سُؤَالُ اللهِ تَعَالَى وَالرَّغْبَةُ إِلَيْهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ). المطلوب أنك تستغني عن الناس.

قوله: (وَسُؤَالُ الخَلْقِ فِي الْأَصْلِ مُحَرَّمٌ). لأن فيه حاجة إلى المخلوق، ولكنه يُباح عند الحاجة، ولكن مع الكراهة، فمهما استغنيت عنهم فهو أحسن.

قوله: (قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ..﴾). قال الله جَلَّوَعَلَا لنبيه صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ أي: من أعمالك، ﴿فَٱنصَبْ﴾ أي: اتعب في العبادة، والصيام، والقيام؛ لأن المسلم ليس عنده فراغ في حياته، ليس عنده زيادة وقت كما يقول بعض الناس: نقتل الوقت، نقضي الوقت، فإذا فرغت من أعمالك، فاعمل لطاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، واستغل فراغك في العبادة، كما أمر الله نبيه صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾، ثم قال: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾، وهذا حصر، ارغب إليه ولا ترغب إلى غيره، فهذا فيه أن ترغب إلى الله أحسن من أن ترغب إلى المخلوق.

قوله: (ارْغَبْ إِلَى اللهِ تَعَالَى) في طلب حوائجك (لَا إِلَى غَيْرِهِ).

قوله: (وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ...﴾). لو أن المنافقين قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: كفانا الله، ولم يقل: حسبنا الله

ورسوله، بل قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ وحده، فالحسب، والكفاية من الله جَلَّ وَعَلَا، ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾، أما الإيتاء، فهو من الله ورسوله، فالله معط، والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعطي مما أعطاه الله، ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ أفرد الله بالرغبة، ولم يقل: إنا إلى الله ورسوله راغبون، فهناك شيء مشترك بين الله ورسوله، وهو الإعطاء من المال، وهناك شيء خاص بالله، وهو الحسب والرغبة، فهذه لا تكون إلا لله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله: (فَجَعَلَ الْإِيتَاءَ للهِ وَالرَّسُولِ). الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤتي ويعطي من المال، فهو يقدر على هذا، بخلاف الرغبة والحسب لا يكونان إلا لله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله: (لَا أَنْ يَقُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَرَسُولُهُ). ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤]، أي: حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين الله، فهو حسب الجميع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أي: كافيهم.

قوله: (لَمْ يَأْمُرْهُمْ أَنْ يَقُولُوا: إِنَّا للهِ وَرَسُولِهِ رَاغِبُونَ). لأن الرغبة لا تكون إلا لله جَلَّ وَعَلَا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ الطاعة مشتركة، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء:٥٩]، وأما الخشية، فلا تكون إلا لله عَزَّ وَجَلَّ، فقال: ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾، ولم يقل: ويخش الرسول؛ لأن الخشية نوع من أنواع العبادة، والعبادة لا تكون إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم قال: ﴿وَيَتَّقْهِ﴾، ولم يقل: ويتقه ويتقي الرسول، فالتقوى إنما تكون لله؛ لأنها عبادة، والعبادة ليس للرسول فيها حق، إنما هي حق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِابْنِ عَبَّاسٍ: «يَا غُلَامُ إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ، فَلَوْ جَهِدَتِ الْخَلِيقَةُ عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ للهِ بِالرِّضَا مَعَ الْيَقِينِ فَافْعَلْ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا»(١).

وَهَذَا الحَدِيثُ مَعْرُوفٌ مَشْهُورٌ، وَلَكِنْ قَدْ يُرْوَى مُخْتَصَرًا، وَقَوْلُهُ: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ» هُوَ مِنْ أَصَحِّ مَا رُوِيَ عَنْهُ.

الشَّرح

الرسول ﷺ قال لابن عمه عبد الله بن عباس -وكان صغيرًا-: **«يَا غُلَامُ»**. والغلام هو: الصغير، فهذا فيه تعليم الأطفال ما ينفعهم وتربيتهم، ولا يُقال: هذا طفل لا يدري.

قوله ﷺ: **«إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ»**. أي: يعلمه كلمات مختصرة حتى يحفظها، والتعليم إنما يكون بالتدريج شيئًا فشيئًا، كلمات وليس أن تأتي له بكتاب ضخم كصحيح البخاري، وتقول له: تعال أعلمك. وإنما تأتي إليه أولًا بكلمات قليلًا قليلًا حتى يسهل عليه العلم، وليس أن تعطيه العلم جميعًا.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٩)، والترمذي (٢٥١٦)، وأبو يعلى الموصلي (٤/ ٤٣٠)، والطبراني في الكبير (١١٢٤٣)، والحاكم (٣/ ٦٢٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٧٤).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ**». الله جَلَّ وَعَلَا هو الحافظ لا يُحفظ، ولكن المراد: حفظ دينه، وحفظ أوامره، فمن حفظ أوامر الله ودينه، فقد حفظ الله عَزَّ وَجَلَّ، والجزاء من جنس العمل، فإذا حفظت دينك حفظك الله، وإذا ضيعت دينك ضيعك الله.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ**». أي: في الإعانة والتوفيق يكون أمامك دائمًا، يسددك ويهديك ويرشدك.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ**». تعرف إلى الله في الرخاء وحال السعة بالعبادة والدعاء والصلاة، فإذا وقعت في شدة خلصك الله منها، أما الذي لا يعرف الله إلا في الشدة، ويكفر به في الرخاء، فهذه طريقة المشركين الذين لا يعرفون الله إلا في الشدة، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥].

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ**». هذا محل الشاهد، إن كنت لا تسأل الناس فحسن، واقصر سؤالك على الله.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ**». والاستعانة عبادة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥]، فلا تستعن في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله إلا بالله؛ من كشف ضر، أو شفاء مرض، أو غير ذلك، أما الاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه، فهذا جائز، قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى

﴿ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢]، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**واللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**»[(١)]. هذا في الأمور العادية التي يقدر عليها المخلوق.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ**». القلم الذي كتب الله به المقادير، وهذا فيه الإيمان بالقضاء والقدر.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَلَوْ جَهِدَتِ الْخَلِيقَةُ عَلَى أَنْ يَضُرُّوك لَمْ يَضُرُّوك إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ**». أي: اعتمد على الله، واعلم أنه لن يضرك أحد إلا بقضاء الله وقدره.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ للهِ بِالرِّضَا مَعَ الْيَقِينِ فَافْعَلْ**».

الرضا عن الله مع اليقين والإيمان الصادق.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا**».

الصبر لاشك أنه رأس الدين، والصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط، فالذي ليس عنده صبر ليس عنده دين؛ لأنه لا يستمر إلا مع الصبر، والصبر مع الدين بمنزلة الرأس من الجسد، فالجسد الذي ليس له رأس ليس فيه حياة، كذلك الدين الذي ليس معه صبر، فإنه دين ميت لا يستمر؛ لأن الصبر هو الذي يحملك على الثبات على الدين، وتحمل الأذى،

(١) تقدم تخريجه (ص٢٢٨).

قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:٣]، فالذي ليس عنده صبر لا يستمر على المشاق، أو على أذى الناس، أو على التعب.

قوله: (وَهَذَا الحَدِيثُ مَعْرُوفٌ مَشْهُورٌ). الحديث كما هو في «الأربعين النووية»، وشرحه الإمام ابن رجب في «جامع العلوم» شرحًا جيدًا وافيًا، وشرحه مختصرًا في رسالة مستقلة «نور الاقتباس في وصية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس».

وَفِي المُسْنَدِ لِأَحْمَدَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَسْقُطُ السَّوْطُ مِنْ يَدِهِ فَلَا يَقُولُ لِأَحَدٍ: نَاوِلْنِي إِيَّاهُ، وَيَقُولُ: إِنَّ خَلِيلِي أَمَرَنِي أَلَّا أَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا(١).

الشَّرْح

تقدم أنه لا يجوز سؤال الغائبين ولو كانوا أحياء من الملائكة وغيرهم، ولا يجوز سؤال الأموات، أما الأحياء إذا كانوا حاضرين، فيجوز سؤالهم؛ لأنه لا محظور في ذلك من ناحية العقيدة، ولأنهم يسمعون من سألهم، ويقدرون على إجابته، إلا أن الأولى ألا يسأل الإنسان أحدًا شيئًا، وأن يستغني عن الناس حتى ولو كان السؤال جائزًا؛ لأن سؤال الناس فيه مذلة، وحاجة إلى المخلوق، فكون الإنسان يستغني أحسن، وأيضًا: سؤال الناس فيه منة، فإذا أعطوك، أو أجابوك ففيه نوع منة، فكون المسلم يستغني، ولا يسأل الناس شيئًا أحسن وأسلم له.

وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يبايعون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ألا يسألوا أحدًا شيئًا، فعملوا بهذه المبايعة(٢)، فكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسقط سوطه وهو على الراحلة، فلا يقول لأحد ناولني إياه، بل كان ينزل ويأخذ سوطه استغناءً عن الناس، وهو يقول: «إِنَّ خَلِيلِي أَمَرَنِي» يعني: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) أخرج أحمد في المسند (١/ ٢٢٨) عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: «كَانَ رُبَّمَا سَقَطَ الخِطَامُ مِنْ يَدِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: فَيَضْرِبُ بِذِرَاعِ نَاقَتِهِ فَيُنِيخُهَا فَيَأْخُذُهُ، قَالَ: فَقَالُوا لَهُ: أَفَلَا أَمَرْتَنَا نُنَاوِلْكَهُ؟ فَقَالَ: إِنَّ حِبِّي رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَنِي أَنْ لَا أَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا».

(٢) كما في حديث عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سيأتي تخريجه قريبًا.

«أَلَّا أَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا». ويجوز أن يقول الصحابي للرسول: خليلي، لكن الرسول لا يجوز له أن يقول: خليلي فلان؛ لأن الله اتخذه خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا، بل يوحد الخُلة مع ربه عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قال في آخر حياته: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبِي، وَقَدِ اتَّخَذَ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **صَاحِبَكُمْ خَلِيلًا**»(١). والخلة أعلى درجات المحبة لله جَلَّوَعَلَا، ولم ينلها من الخلق إلا محمد صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإبراهيم صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقط، وأما المحبة التي دون الخُلة، فكل المؤمنين يحبون الله ويحبهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤]، فالله يحب المؤمنين، والمؤمنون يحبون الله عَزَّوَجَلَّ، لكن درجة الخُلة لم ينلها إلا اثنان من الخلق.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٨٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري (٤٦٧) نحوه من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَايَعَ طَائِفَةً مِنْ أَصْحَابِهِ وَأَسَرَّ إِلَيْهِمْ كَلِمَةً خَفِيَّةً: أَلَّا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا. قَالَ عَوْفٌ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ السَّوْطُ مِنْ يَدِهِ فَلَا يَقُولُ لِأَحَدٍ: نَاوِلْنِي إِيَّاهُ(١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي الْجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ»، وَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»(٢). فَمَدَحَ هَؤُلَاءِ بِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَرْقُونَ، أَيْ: لَا يَطْلُبُونَ مِنْ أَحَدٍ أَنْ يَرْقِيَهُمْ. وَالرُّقْيَةُ مِنْ جِنْسِ الدُّعَاءِ فَلَا يَطْلُبُونَ مِنْ أَحَدٍ ذَلِكَ.

وَقَدْ رُوِيَ فِيهِ: «وَلَا يَرْقُونَ» وَهُوَ غَلَطٌ، فَإِنَّ رُقْيَتَهُمْ لِغَيْرِهِمْ وَلِأَنْفُسِهِمْ حَسَنَةٌ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْقِي نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ، وَلَمْ يَكُنْ يَسْتَرْقِي، فَإِنَّ رُقْيَتَهُ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ مِنْ جِنْسِ الدُّعَاءِ لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ، وَهَذَا مَأْمُورٌ بِهِ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ كُلَّهُمْ سَأَلُوا اللهَ وَدَعَوْهُ كَمَا ذَكَرَ اللهُ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ آدَمَ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَغَيْرِهِ.

الشَّرْح

قوله: «وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ...». كما في الحديث الذي قبله في قصة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهم عملوا بهذه البيعة، فلم يسألوا الناس شيئًا، حتى في أيسر الأشياء، وهي مناولة السوط من الأرض، فمهما أمكن للمسلم أن يستغني عن الناس، فليفعل.

(١) أخرجه مسلم (١٠٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله: «**وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...». أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يدخل الجنة من هذه الأمة سبعون ألفًا بغير حساب ولا عذاب، ثم ذكر صفاتهم التي بها استحقوا هذه المنزلة العظيمة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقال: «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**».

قوله: «**لَا يَسْتَرْقُونَ**»، أي: لا يطلبون الرقية من غيرهم، والرقية هي: القراءة على المريض، فهم لا يطلبونها استغناءً عن الناس، فيرقون أنفسهم، ولا يطلبون من أحد أن يرقيهم، والله قريب مجيب، والرقية من القرآن والأدعية المشروعة، وهذا الكل يحسنه، فتقرأ الفاتحة، وتقرأ سورة الإخلاص، وتقرأ المعوذتين ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١]، تقرؤها على نفسك أو على غيرك مع الاستعاذة بالله من شر ما خلق، والأدعية الواردة في الرقية، فهذا لا تحتاج أنك تسأل الناس، بل أنت تفعله وتستغني عن الناس، والله قريب مجيب.

فالذين توسعوا في الرقية، وصاروا يطلبونها حتى من غير أهلها، فيطلبونها من المشعوذين والدجالين والسحرة الذين يدعون أنهم يعالجون الناس، وهم بين أمرين:

الأمر الأول: إما أن غرضهم من ذلك إفساد عقائد الناس بأن يأمروهم بالذبح لغير الله، ودعاء غير الله، وإما أن قصدهم ابتزاز أموال الناس، وهذا هو الأغلب، فأخذوا يتاجرون بالرقية، ويفتحون المحال للرقية، وينظمون

المكاتب، وصارت الرقية حرفة امتهنوها وجعلوها للدنيا، مع أنها قربة إلى الله، ونفع للمسلمين، فلا ينبغي أن تُجعل لطلب الدنيا.

الأمر الثاني: أغلب من يتخذ الرقية مهنة هم من السحرة والمشعوذين والدجالين والكهنة، ولا يجوز للإنسان أن يبيع عقيدته ودينه ويذهب إليهم، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**»(١)، وفي الحديث الآخر: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(٢).

فالأمر خطير جدًّا، ولا يجوز أن يدخل في الرقية كل من هب ودب، ولايجوز للناس أن يذهبوا إلى هؤلاء؛ لأنهم يبتزون أموال الناس، أو يفسدون عقائد الناس، فينبغي التنبه لهذا الأمر. أما الرقية في الأصل فجائزة إذا كانت بالضوابط الشرعية، ولكن لا تتخذ حرفة، ولا تُخضع لطلب الدنيا والمتاجرة، إنما هي لنفع الناس، وقربة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، هذا هو الأصل فيها، ولا تُخرج عن أصلها إلى أن تكون حرفة من الحرف، ويدخل فيها من لا يحسنها، أو يدخل فيها أصحاب العقائد الفاسدة، والدجالون، والكذابون، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ**»(٣). تبرأ الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الفريقين: السحرة والكهنة، والذين يطلبون السحر والكهانة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠) من حديث بعض أزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) أخرجه أبوداود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩)، وأحمد (١٥/ ٣٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البزار (٩/ ٥٢)، والطبراني في الكبير (٣٥٥) من حديث عمران بن حضين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وفي الأيام الأخيرة ظهر مَنْ يفتي بأنه يجوز حل السحر عند السحرة، وهذا أمر باطل، فلا يجوز حل السحر عند السحرة؛ لهذا الحديث: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ**»، وفي الأثر: «**لَا يَحُلُّ السِّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ**»[1]، فأنت لاتذهب إلى الساحر، وتقع في قول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا**»، والساحر أشد من الكاهن «**فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، فالسحر يحل بالرقية الشرعية، وبالأدوية المباحة، ولا يحل بالكفر والشرك بواسطة السحر.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**».

هذه أربع صفات:

الأولى: «**لَا يَسْتَرْقُونَ**»، أي: لا يطلبون الرقية، بل يرقون أنفسهم.

الثانية: «**وَلَا يَكْتَوُونَ**»، والكي مباح، وكرهه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لما فيه من استعمال النار، فهو جائز مع الكراهة، إلا إذا احتيج إليه، فتزول الكراهة.

الثالثة: «**وَلَا يَتَطَيَّرُونَ**»، الطيرة شرك، وهي التشاؤم بالمخلوقات، وتوقع الشر منها، وسوء ظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مما يجعل الإنسان يخاف ويخشى المخلوق، وما عليه إلا أن يتوكل على الله، وأن يعلق قلبه بالله، ولا يخاف إلا الله، ولا يخشى إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١) ذكره ابن القيم في إعلام الموقعين (٤/ ٣٩٦)، وابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/ ٦٤) عن الحسن رَحِمَهُ اللهُ. ولم أقف عليه مسندًا.

الرابعة: «**وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»، هذه التي جعلتهم يتجنبون هذه الأشياء أنهم يتوكلون على الله، فلا يسترقون، أي: لا يطلبون من غيرهم، ولم يقل: «لا يرقون»؛ لأنه يجوز للإنسان أنه يرقي نفسه وغيره، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رقى ورُقي، فكونه هو يرقي لا بأس، وإنما الممنوع أن يسترقي، أي: يطلب الرقية. ولا يكتوون، أي: لا يفعلون العلاج المكروه، وعلى ربهم يتوكلون.

فهذه الصفات منها ما هو شرك كالتطير، ومنها ما هو مكروه كالاسترقاء والكي.

قوله: (وَالرُّقْيَةُ مِنْ جِنْسِ الدُّعَاءِ، فَلَا يَطْلُبُونَ مِنْ أَحَدٍ ذَلِكَ). لا يطلبون من أحد أن يدعو الله لهم، بل يدعون الله بأنفسهم، والدعاء أعظم أنواع العبادة، لماذا تقول لغيرك: ادع الله لي. ولا تدعو أنت مع أنه أعظم أنواع العبادة؟!

قوله: (وَقَدْ رُوِيَ فِيهِ: «وَلَا يَرْقُونَ» وَهُوَ غَلَطٌ). هذه الرواية ليست صحيحة؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رقى بعض المرضى، ورقى نفسه بالمعوذتين(١)، ورقاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ(٢). فرواية «**وَلَا يَرْقُونَ**» غلط، والصحيح والصواب: «**لَا يَسْتَرْقُونَ**»، فلا محظور في أن يرقوا وإنما المحظور في الاسترقاء.

---

(١) أخرج البخاري (٥٧٣٥) واللفظ له، ومسلم (٢١٩٢) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**أَنَّ النَّبِيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كَانَ يَنْفُثُ عَلَى نَفْسِهِ فِي المَرَضِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ بِالمُعَوِّذَاتِ، فَلَمَّا ثَقُلَ كُنْتُ أَنْفِثُ عَلَيْهِ بِهِنَّ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِهِ لِبَرَكَتِهَا**».

(٢) أخرج مسلم (٢١٨٥) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «**كَانَ إِذَا اشْتَكَى رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **رَقَاهُ جِبْرِيلُ، قَالَ: بِاسْمِ اللهِ يُبْرِيكَ، وَمِنْ كُلِّ دَاءٍ يَشْفِيكَ، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ، وَشَرِّ كُلِّ ذِي عَيْنٍ**».

قوله: (فَإِنَّ رُقْيَتَهُمْ لِغَيْرِهِمْ وَلِأَنْفُسِهِمْ حَسَنَةٌ). نعم هي حسنة وعبادة لله عَزَّوَجَلَّ، فكيف يمدحون بترك الدعاء؟ وكيف يمدحون بترك نفع الناس؟ هذا يدل على أن الرواية غير صحيحة.

قوله: (وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَرْقِي نَفْسَهُ، وَغَيْرَهُ وَلَمْ يَكُنْ يَسْتَرْقِي). كان صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يرقي نفسه، فيقرأ على نفسه، وكان يرقي غيره من المرضى، فكيف يفعل شيئًا لا يجوز؟ أما لو جاء الراقي، وقرأ عليك دون أن تطلب منه، فلا بأس بذلك، ولا يدخل في الكراهة.

قوله: (فَإِنَّ رُقْيَتَهُ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ مِنْ جِنْسِ الدُّعَاءِ لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ، وَهَذَا مَأْمُورٌ بِهِ). الإنسان مأمور أن يدعو لنفسه ولغيره، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠]، وقال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [إبراهيم:٤١]، وقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩]، فكونك تدعو لنفسك وللناس، فهذا مطلوب ومشروع.

قوله: (فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ كُلَّهُمْ سَأَلُوا اللهَ وَدَعَوْهُ كَمَا ذَكَرَ اللهُ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ آدَمَ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَغَيْرِهِ). ذكر الله عن الأنبياء أنهم يدعون ربهم، فآدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ دعا ربه، وقال: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، ونوح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح:٢٨]، وإبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ دعا لنفسه ولذريته وللمؤمنين، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١]، ومحمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ دعا لنفسه

وللمسلمين، فالأنبياء كلهم كانوا يدعون الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠]، هذه في الأنبياء الذين ذكرهم الله في سورة «الأنبياء».

وَمَا يُرْوَى: أَنَّ الخَلِيلَ لَمَّا أُلْقِيَ فِي المِنْجَنِيقِ قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: سَلْ، قَالَ: «حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي»(١). لَيْسَ لَهُ إِسْنَادٌ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ بَاطِلٌ، بَلِ الَّذِي ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: «حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ حِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣](٢).

الشَّرح

قوله: (وَمَا يُرْوَى: أَنَّ الخَلِيلَ لَمَّا أُلْقِيَ فِي المِنْجَنِيقِ ...). هذا الحديث لاأصل له، فمن ناحية الإسناد ليس له إسناد، ومن ناحية المعنى باطل؛ لأن فيه إلغاء للدعاء، كأن إبراهيم ترك الدعاء وقال: إن الله يعلم، وإذا كان يعلم لا حاجة للدعاء. نعم الله جَلَّ وَعَلَا يعلم كل شيء، ولكن مع هذا أمرنا بالدعاء، وإلا فهو لا تخفى عليه أحوالنا، قال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]. فهذا القول فيه إلغاء للدعاء، فدل على بطلانه، وهذا قول الصوفية، فهم الذين لا يرون الدعاء، ويقولون: يكفي علم الله بأحوالنا. وهذا من شدة التقرب إلى الله بزعمهم، وهو خلاف ما أمر الله به في آيات كثيرة، وسبق

(١) ذكره الثعلبي في تفسيره (٦/ ٢٨١)، قال: (وروى المعتمر عن أُبي بن كعب عن أرقم أن إبراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه في النار...) وساقه، وكذا ذكره البغوي في تفسيره (٣/ ٢٥٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٦٦)، والقرطبي في تفسيره (١١/ ٣٠٣). ولم يرد في شيء من كتب السنة أو التفسير بسند متصل. قال الألباني في السلسلة الضعيفة (١/ ٧٤): (لا أصل له).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

أن الأنبياء كانوا يدعون الله ويأمرون الناس بالدعاء، وهم أعلم الناس بالله عَزَّوَجَلَّ، فهذا مما يدل على بطلان هذا الأثر.

ومع الأسف سمعت بعض الخطباء في خطبة مذاعة في الإذاعة أتى بهذا الأثر: «حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي». دون أن يعلم هذا الخطيب أن هذا باطل، ولم يثبت عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فليس كل ما وجد في الكتب يُقرأ، بل لابد من التثبت، لاسيما الذي يُعلن للناس على المنابر، ويُذاع في الإذاعة.

قوله: «بَلِ الَّذِي ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاس ...». صح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قذفوه في النار قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، حسبنا: أي كافينا، وهذا دعاء من الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فماذا كانت النتيجة؟ ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، كفاه الله شر هذه النار، فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ دعا في هذه الحالة، ولم يقل: «حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي».

وقالها محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا في واقعة أحد لَمَّا حصل للمسلمين ما حصل من القتل والجراح، وانتهت المعركة، وقفل الكفار إلى مكة، وتشاوروا فيما بينهم وقالوا: نرجع ونستأصل بقية المسلمين، فأرسلوا إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مندوبًا يخبره بأنهم سيرجعون إليهم، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استنفر الذين كانوا معه في أحد، وأكثرهم جرحى، ولم يستنفر غيرهم، فخرجوا مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونزلوا في مكان يُسمى حمراء الأسد، فلما علم المشركون بخروجهم أصابهم الرعب، وقالوا: ما خرجوا وإلا فيهم قوة.

فهابوا أن يرجعوا، فولوا مدبرين(١). قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أبا سفيان ومن معه ﴿قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:١٧٣، ١٧٤]، هذا ابتلاء وامتحان، ويجري على سادات الأولياء من الامتحان مثل هذا وأشد منه، ولكنهم يصبرون.

فالثابت أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، وقالها محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حينما بلغهم الخبر ولم يضعفوا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾، ثقة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولم يقع الوهن والخوف في قلوبهم، ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٢، ١٧٣]، وهذا دعاء، فكيف إذا وقع الإنسان في شدة لا يدعو الله عَزَّوَجَلَّ، ويقول: «حسبي من سؤالي علمه بحالي»؟! هذا باطل.

---

(١) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أخرجه البخاري (٤٠٧٧). وانظر في ذكر غزوة حمراء الأسد: سيرة ابن هشام (٢/ ١٢١)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٣٧)، والروض الأنف (٦/ ٣١).

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ جِبْرِيلَ قَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ؟ قَالَ: «أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا»، وَقَدْ ذَكَرَ هَذَا الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ(١).

وَأَمَّا سُؤَالُ الخَلِيلِ لِرَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ فَهَذَا مَذْكُورٌ فِي الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، فَكَيْفَ يَقُولُ: «حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي، واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»، وَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِأَنْ يَعْبُدُوهُ وَيَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَيَسْأَلُوهُ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ هَذِهِ الْأُمُورَ أَسْبَابًا لِمَا يُرَتِّبُهُ عَلَيْهَا مِنْ إِثَابَةِ الْعَابِدِينَ، وَإِجَابَةِ السَّائِلِينَ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، فَعِلْمُهُ بِأَنَّ هَذَا مُحْتَاجٌ أَوْ هَذَا مُذْنِبٌ، لَا يُنَافِي أَنْ يَأْمُرَ هَذَا بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَيَأْمُرَ هَذَا بِالدُّعَاءِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُقْضَى بِهَا حَاجَتُهُ، كَمَا يَأْمُرُ هَذَا بِالْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ الَّتِي بِهَا يَنَالُ كَرَامَتَهُ.

وَلَكِنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَكُونُ مَأْمُورًا فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ بِمَا هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الدُّعَاءِ، كَمَا رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ»(٢).

---

(١) لم أقف عليه في المسند. وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٨/ ٤٦٧) عن معتمر بن سليمان التيمي، عن بعض أصحابه قال: «جاء جبريل إلى إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وهو يوثق أو يقمَّط ليلقى في النار، قال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أمَّا إليك فلا». وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٥٢) عن بشر بن الحارث.

(٢) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (ص١٠٩)، والبزاز في مسنده (١/ ٢٤٧)، والطبراني في الدعاء (ص٥١٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٩٣) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ شَغَلَهُ قِراءَةُ الْقُرْآنِ عَنْ ذِكْرِي وَمَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ»[1]. قَالَ التِّرْمِذِيُّ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ».

الشَّرح

قوله: (**وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ جِبْرِيلَ قَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ؟ ...**). الذي ورد أن جبريل اعترض لإبراهيم وهو في الهواء حين قذفوه في النار، وقال له: «هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ؟ قَالَ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلا». أي: أنت مخلوق، «وَأَمَّا إِلَى اللهِ فَبَلَى». أي: أنا بحاجة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا مثل قوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، وفي هذا استغناء عن الخلق بالخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: (**فَهَذَا مَذْكُورٌ فِي الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ**). ذكر الله عن الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في آيات كثيرة أنه دعا، كما في آخر سورة «إبراهيم»، دعا بأدعية عظيمة لأهل مكة ولذريته هو وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فكيف يُقال: إن إبراهيم يستغني عن الدعاء، ويكتفي بعلم الله عَزَّ وَجَلَّ؟ هذا من الكذب.

قوله: (**والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**). لا تنافي بين علم الله، وبين الدعاء؛ لأن الدعاء من الأسباب، والله أمرنا بالدعاء، مع أنه يعلم حالنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الدعاء عبادة، وسبب من أسباب النصر، والرزق، وكشف الكرب، فكيف يتهاون به، ويُقال: يكفي علم الله بأحوالنا؟

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٢٦) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (وَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِأَنْ يَعْبُدُوهُ وَيَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَيَسْأَلُوهُ). لا تعارض بين التوكل على الله، ودعائه وسؤاله من فضله.

قوله: (لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ هَذِهِ الْأُمُورَ أَسْبَابًا). فكيف تُلغى الأسباب النافعة، ويُقال: هذا من التوكل على الله؟ القاعدة: أن المسلم يجمع بين التوكل على الله، وفعل الأسباب، أما أن يقتصر على التوكل على الله، ويلغي الأسباب، فهذا لا يجوز، أو العكس بأن يعتمد على الأسباب، ويترك التوكل على الله، هذا مذموم، والمشروع أن يجمع بين التوكل على الله وفعل الأسباب.

قوله: (وَيَأْمُرَ هَذَا بِالدُّعَاءِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُقْضَى بِهَا حَاجَتُهُ). هذا هو الأصل أن يجمع بين التوكل على الله، وفعل الأسباب، وكون الله يعلم بأحوالنا لا يتنافى مع كونه يأمرنا بدعائه وسؤاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: (كَمَا يَأْمُرُ هَذَا بِالْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ الَّتِي بِهَا يَنَالُ كَرَامَتَهُ). كذلك الله أمرنا بطاعته وعبادته؛ لننال بذلك كرامته وجنته، ولا يكفي أنه يعلم بحالنا فيدخلنا الجنة؛ لأنه يعلم أننا من المحتاجين إليها، ولو أن الإنسان أصابه الجوع والعطش فهل يقول: الله يعلم أني عطشان، ويعلم أني جائع، ثم يجلس؟ أليس يذهب يطلب الماء والطعام؟ هذا من فعل الأسباب، ولا يقول: الله يعلم أني عطشان وإني جوعان، ويجلس حتى يموت.

قوله: (وَلَكِنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَكُونُ مَأْمُورًا فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ ...). ذكر الله جَلَّ وَعَلَا بالتسبيح والتهليل والتكبير نوع من الدعاء، بل هو أفضل الدعاء؛ لأنه دعاء عبادة. والدعاء على قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، فإذا

اقتصرت على دعاء العبادة، فهذا يُغني عن دعاء المسألة، وإن جمعت بينهما، فلا بأس، وكلاهما فاتحة الكتاب التي نقرؤها كل ركعة، أولها دعاء عبادة وثناء على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وآخرها سؤال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، هذا سؤال، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أي: نطلب العون، فسورة الفاتحة جمعت بين نوعي الدعاء: دعاء العبادة بالثناء على الله في أولها، وتمجيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ودعاء المسألة في قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، هذا دعاء ومسألة، وكون المسلم يجمع بينهما أفضل.

قوله: (مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ).

قراءة القرآن ذكر لله عَزَّوَجَلَّ، وهي دعاء عبادة، فكونك تكثر من تلاوة القرآن، فهذه عبادة لله عَزَّوَجَلَّ، ويعطيك الله ما يعطي السائلين، المهم: أنك لا تترك الدعاء نهائيًّا، وتقول: الله يعلم بحالي. فهذا عجز وإلغاء للعبادة، ولا يجوز.

وَأَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ الصَّلاةُ، وَفِيهَا الْقِرَاءَةُ وَالذِّكْرُ وَالدُّعَاءُ، وَكُلُّ وَاحِدٍ فِي مَوْطِنِهِ مَأْمُورٌ بِهِ، فَفِي الْقِيَامِ بَعْدَ الاسْتِفْتَاحِ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَفِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ يُنْهَى عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ يُؤْمَرُ بِالدُّعَاءِ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو فِي آخِرِ الصَّلاةِ وَيَأْمُرُ بِذَلِكَ(١). وَالدُّعَاءُ فِي السُّجُودِ حَسَنٌ مَأْمُورٌ بِهِ، وَيَجُوزُ الدُّعَاءُ فِي الْقِيَامِ أَيْضًا وَفِي الرُّكُوعِ، وَإِنْ كَانَ جِنْسُ الْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ أَفْضَلَ.

فَالمَقْصُودُ: أَنَّ سُؤَالَ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ السُّؤَالَ المَشْرُوعَ حَسَنٌ مَأْمُورٌ، وَقَدْ سَأَلَ الخَلِيلُ وَغَيْرُهُ، قَالَ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٣٧-٤١]، وَقَالَ

---

(١) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلاةِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا، وَفِتْنَةِ المَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ المَأْثَمِ وَالمَغْرَمِ**». أخرجه البخاري (٨٣٢)، ومسلم (٥٨٩). وحديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلاتِي، قَالَ: «**قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**». أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٩].

الشَّرْح

قوله: (وَأَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ الصَّلاةُ). الصلاة أفضل أنواع العبادة، سواء كانت فريضة أو نافلة، وفيها أنواع من الدعاء: فيها قراءة القرآن، وفيها التسبيح في الركوع والسجود، وفيها الدعاء بين السجدتين: «رَبِّ اغْفِرْ لِي»، والدعاء في السجود، والدعاء في التشهد، ولهذا تُعرَّف الصلاة بأنها: أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم، وتشمل نوعي الدعاء: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

وقوله: (الْبَدَنِيَّةِ). لأن العبادات على ثلاثة أقسام:

الأول: قسم بدني محض، مثل: الصلاة، والصيام، والذكر.

الثاني: قسم مالي محض، وهو: الزكاة، والصدقات.

الثالث: قسم مركب من البدني والعملي، مثل: الحج، حيث يجمع بين عبادة المال وعبادة البدن؛ لأن فيه نفقة، وإتعابًا للبدن، وكذلك الجهاد في سبيل الله يجمع بين عبادة البدن وعبادة المال.

ولا تخلو العبادات من هذه الأقسام الثلاثة: إما بدنية محضة، وإما مالية محضة، وإما مالية بدنية.

قوله: (**وَكُلٌّ وَاحِدٍ فِي مَوْطِنِهِ مَأْمُورٌ بِهِ**). كل نوع من العبادة في موطنه مأمور به، فكيف يُقال: إن الدعاء لم يؤمر به؟ والله أمرنا في الصلاة أن ندعوه.

قوله: (**فَفِي الْقِيَامِ بَعْدَ الاسْتِفْتَاحِ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ**). يقرأ الفاتحة، وما تيسر من القرآن، وهذه عبادة ودعاء.

قوله: (**وَفِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ يُنْهَى عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ يُؤْمَرُ بِالدُّعَاءِ**). كل نوع مأمور به في محله، ولا ينقل إلى المحل الثاني في الصلاة، فلا يجوز أن تقرأ في الركوع والسجود؛ لأن محل القراءة في القيام، ولهذا جاء في الحديث عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «نَهَانِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَأَنَا رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ»[(١)]. لأن محل القراءة هو القيام، فلا يُجعل الدعاء في القيام، والقراءة في الركوع والسجود، هذا عكس ما أمر الله به، ولا تصح الصلاة بهذا.

قوله: (**كَمَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو فِي آخِرِ الصَّلاةِ وَيَأْمُرُ بِذَلِكَ**). قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**»[(٢)]. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ**

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٠).

(٢) أخرجه مسلم (٥٨٨).

رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»[(١)]. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فيه الرَّبَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا في الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ**[(٢)] **أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**»[(٣)].

قوله: (**وَإِنْ كَانَ جِنْسُ الْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ أَفْضَلَ**). الجمع بين القراءة والدعاء في القيام لا بأس به، وإنما الممنوع الاقتصار على الدعاء وترك القراءة، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرأ ويسأل عند آية الرحمة ويستعيذ به عند آية العذاب.

وفي الركوع الأفضل أن يقتصر الإنسان على التسبيح، فيقول: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ» ويكررها، وإذا دعا في الركوع فلا بأس، ولكن الدعاء في السجود أفضل من الدعاء في الركوع؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ**».

قوله: (**فَالْمَقْصُودُ: أَنَّ سُؤَالَ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ السُّؤَالَ الْمَشْرُوعَ حَسَنٌ مَأْمُورٌ**). وفي هذا ردٌّ على من يقول: إن السؤال ليس مشروعًا، ويكفي علم الله جَلَّ وَعَلَا بحال العبد.

ولَمَّا وضع إبراهيم الخليل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إسماعيل وأمه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في مكة، وتركهما في الوادي، ثم أدبر عنهما ذاهبًا إلى الشام، وقف خلف الجبل ودعا بهذا الدعاء العظيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **قمن**: أي خليق وجدير. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ١١١)، ومشارق الأنوار (٢/ ١٨٥)، ولسان العرب (١٣/ ٣٤٧).

(٣) أخرجه مسلم (٤٧٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

زَرۡعٍ﴾، أي: مكة، ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ الذي أمره الله جَلَّوَعَلَا أن يضعها فيه، فوضعها فيه توكلًا على الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ودعا لهذا البلد: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]، وفي سورة «البقرة»: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ [البقرة:١٢٦]، هذا قبل أن تكون بلدًا، فلما صار بلدًا قال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾، فدعا مرتين: مرة قبل أن يُبنى به وقبل أن يتكون، ومرة بعد أن صارت بلدًا، فهذا إبراهيم الخليل يدعو ربه عَزَّوَجَلَّ، فكيف يأتي جاهل، ويقول: ليس هناك حاجة للدعاء، ويكفي علم الله بأحوال العباد؟!

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾. هذا الدعاء الذي في سورة «البقرة»، اشترك معه إسماعيل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، أما الدعاء الذي في سورة «إبراهيم»، فدعا به إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ وحده كما في الآيات.

وَكَذَلِكَ دُعَاءُ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ حَسَنٌ مَأْمُورٌ بِهِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ إِلَّا وَكَّلَ اللهُ بِهِ مَلَكًا كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِدَعْوَةٍ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ»(١). أَيْ: بِمِثْلِ مَا دَعَوْتَ لِأَخِيكَ بِهِ.

وَأَمَّا سُؤَالُ الْمَخْلُوقِ الْمَخْلُوقَ أَنْ يَقْضِيَ حَاجَةَ نَفْسِهِ أَوْ يَدْعُوَ لَهُ فَلَمْ يُؤْمَرْ بِهِ، بِخِلَافِ سُؤَالِ الْعِلْمِ، فَإِنَّ اللهَ أَمَرَ بِسُؤَالِ الْعِلْمِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥].

وَهَذَا لِأَنَّ الْعِلْمَ يَجِبُ بَذْلُهُ، «فَمَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢). وَهُوَ يَزْكُو عَلَى التَّعْلِيمِ، لَا يَنْقُصُ بِالتَّعْلِيمِ كَمَا تَنْقُصُ الْأَمْوَالُ بِالْبَذْلِ، وَلِهَذَا يُشَبَّهُ بِالْمِصْبَاحِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ لَهُ عِنْدَ غَيْرِهِ حَقٌّ مِنْ عَيْنٍ أَوْ دَيْنٍ كَالْأَمَانَاتِ مِثْلُ الْوَدِيعَةِ وَالْمُضَارَبَةِ لِصَاحِبِهَا أَنْ يَسْأَلَهَا مِمَّنْ هِيَ عِنْدَهُ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٤/ ٢١٤) واللفظ له، وأبو داود (٣٦٥٨)، وابن ماجه (٢٦١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشَّرح

قوله: (وَكَذَلِكَ دُعَاءُ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ حَسَنٌ مَأْمُورٌ بِهِ). لأن فيه نفعًا لأخيه، والله أمر به، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠]، فلا يقتصر الإنسان على نفسه، بل يدعو لإخوانه الأموات والأحياء، هذا هو المشروع؛ لأن المسلمين أمة واحدة، وجسد واحد، فكما تدعو لنفسك تدعو لإخوانك.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ...»**. **إذا دعوت** لأخيك وهو غائب، فإن الملك يؤمن على دعائك، ويقول: ولك بمثله. فإن الله يعطيك من الثواب مثل ما دعوت به لأخيك، فهذا فيه فضل الدعاء للغير، ولاسيما الغائب.

قوله: (وَأَمَّا سُؤَالُ المَخْلُوقِ المَخْلُوقَ أَنْ يَقْضِيَ حَاجَةَ نَفْسِهِ). سؤال الغير على أقسام:

أحدها: أن تسأل حقًّا لك عنده، كالزوجة تطلب النفقة من زوجها، والولد الفقير يطلب النفقة من والده، فهذا حق واجب عليه، الفقير يسأل الغني من الزكاة التي هي حق للفقير، أحد الرعية يسأل من ولي الأمر من بيت المال، هذا لا بأس به؛ لأن له حقًّا في هذا، فهو يسأل حقه، ولا بأس بذلك، وليس هذا من مذلة السؤال.

الثاني: سؤال العلم، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾، فهذا ليس فيه مذلة، وإنها فيه خير وبذل للعلم، وأنت تريد الهداية لنفسك، فلابد أن تسأل أهل العلم، وليس في ذلك مذمة، فلا تستحي من سؤال العلم.

الثالث: سؤال الناس الأموال التي ليس لك فيها حق، هذا هو المكروه، إلا عند الحاجة الشديدة تزول الكراهة، ويجوز السؤال لما يزيل حاجتك وضرورتك من الناس.

الرابع: سؤال الناس المحرم، وهو الذي يسأل الناس وهو غير محتاج، فتصير حرفته التسول وهو غني ليس محتاجًا، وهذا حرام عليه، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكَثُّرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا، فَلْيُقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ**»(١). وجاء: «**أَنَّ السَّائِلَ لَا يَزَالُ يَسْأَلُ النَّاسَ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مِزْعَةُ لَحْمٍ**»(٢). فيحرم سؤال أموال الناس على من لا يستحق، وليس مضطرًّا.

والله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾، وأهل الذكر هم أهل العلم، وقال لنبيه: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: القرآن ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾؛ لأن أحبار اليهود والنصارى يعلمون أن القرآن حق، وأنه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا أَشُكُّ وَلَا أَسْأَلُ**»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٤١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦/ ١٢٥)، والطبري في تفسيره (١٥/ ٢٠٢) عن قتادة، قال: بلغنا أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا أَشُكُّ وَلَا أَسْأَلُ**».

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ من الرسل السابقين ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾، هذا رد على المشركين الذين يعبدون غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكل الرسل ينهون عن الشرك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، فكل الرسل جاؤوا بالتوحيد، ونهوا عن الشرك، فالشرك لم يأت في شريعة نبي من الأنبياء، وإنما هو من عمل الشياطين، ولم يأت في كتاب من كتب الله عَزَّوَجَلَّ المنزلة، لا في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في القرآن، وما وقع في الإنجيل من كون المسيح ابن الله، أو ثالث ثلاثة، أو أن الله هو المسيح ابن مريم، أو المخلص، هذا من تحريف النصارى، وكذلك ما وقع في التوراة من تحريف اليهود ليس هذا هو الكتاب الأصلي، إنما هو تحريف لكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وزيادة ونقص وتلاعب بكتب الله.

قوله: (وَهَذَا لِأَنَّ الْعِلْمَ يَجِبُ بَذْلُهُ، فَمَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). سؤال العلم لا يُستحيى منه، وهو حق للسائل، والعالم يجب عليه أن يجيب السائل؛ لأن هذا نشر للعلم، وعدم إجابته كتمان للعلم، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]، فالواجب على العالم أن يُبين ويوضح للناس في كل المجالات: من الخطب، والدروس، والمحاضرات، وفي وسائل الإعلام، ينشر العلم،

ويبين للناس ما أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالعلم لا يخزن في الصدور، وإنما ينشر على الناس؛ لينتفعوا به، هذه مهمة العالم. **وقوله: (أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)**، هذا وعيد شديد، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧].

قوله: (وَهُوَ يَزْكُو عَلَى التَّعْلِيمِ، لَا يَنْقُصُ بِالتَّعْلِيمِ كَمَا تَنْقُصُ الْأَمْوَالُ بِالْبَذْلِ). هذه ميزة العلم، أنه يزيد كلما أنفقت منه ولا ينقص، فكلما كثرت الأسئلة والأجوبة زاد العلم، بخلاف المال، فالمال ينقص إذا أنفقت منه، فأعطيت هذا، وأعطيت هذا.

فالعلم يزكو، وينمو بأحد أمرين:

الأول: إما بالعمل، فالعمل بالعلم ينميه.

الثاني: إما بنشر العلم وإجابة الأسئلة، فهذا ينمي العلم ويزيده، وينبه العالم على أشياء ما كانت تخطر بباله، لولا أن السائل سأل عنها.

قوله: (وَلِهَـذَا يُشَبَّهُ بِالْمِصْبَاحِ). العلم يشبه بالمصباح يضيء لنفسه ولغيره، والنبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رضىً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي المَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ**

أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[١]. فالقمر يضيء الكون، وأما الكوكب وهو العابد، فلا يضيء إلا لنفسه، فالعالم مثل المصباح، ومثل القمر يضيء الكون للناس.

قوله: (وَكَذَلِكَ مَنْ لَهُ عِنْدَ غَيْرِهِ حَقٌّ مِنْ عَيْنٍ أَوْ دَيْنٍ كَالْأَمَانَاتِ ...).

فإذا كنت تسأل من حقك عند أحد، فليس هناك مانع، كوديعة، أو مال لك عنده، أو حق يجب عليه لك، كالنفقة ونحوها، فلا بأس بذلك؛ لأنك لا تسأله شيئًا من ماله، إنما تسأله حقك أنت، ولا تُذم في هذا.

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٣٦/ ٤٥) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَكَذَلِكَ مَالُ الْفَيْءِ وَغَيْرُهُ مِنَ الأَمْوَالِ الْمُشْتَرَكَةِ الَّتِي يَتَوَلَّى قِسْمَتَهَا وَلِيُّ الأَمْرِ لِلرَّجُلِ أَنْ يَطْلُبَ حَقَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَطْلُبُ حَقَّهُ مِنَ الْوَقْفِ وَالمِيرَاثِ وَالْوَصِيَّةِ؛ لِأَنَّ المُتَوَلِّي يَجِبُ عَلَيْهِ أَدَاءُ الحَقِّ إِلَى مُسْتَحِقِّيهِ.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ: سُؤَالُ النَّفَقَةِ لِمَنْ تَجِبُ عَلَيْهِ، وَسُؤَالُ المُسَافِرِ الضِّيَافَةَ لِمَنْ تَجِبُ عَلَيْهِ، كَمَا اسْتَطْعَمَ مُوسَى وَالخَضِرُ أَهْلَ الْقَرْيَةِ، وَكَذَلِكَ الْغَرِيمُ لَهُ أَنْ يَطْلُبَ دَيْنَهُ مِمَّنْ هُوَ عَلَيْهِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ المُتَعَاقِدِينَ لَهُ أَنْ يَسْأَلَ الآخَرَ أَدَاءَ حَقِّهِ إِلَيْهِ، فَالْبَائِعُ يَسْأَلُ الثَّمَنَ، وَالمُشْتَرِي يَسْأَلُ المَبِيعَ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ [النساء:١].

وَمِنَ السُّؤَالِ مَا لَا يَكُونُ مَأْمُورًا بِهِ، وَالمَسْؤُولُ مَأْمُورٌ بِإِجَابَةِ السَّائِلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضحى:١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [المعارج:٢٤، ٢٥].

الشرح

قوله: (**وَكَذَلِكَ مَالُ الْفَيْءِ**). مال الفيء هو: ما يكون للمسلمين من بيت المال، لك أن تسأل السلطان، ولا تُذم على هذا؛ لأن لك حقًّا في هذا المال.

قوله: (**وَمِنْ هَذَا الْبَابِ: سُؤَالُ النَّفَقَةِ لِمَنْ تَجِبُ عَلَيْهِ**). فالزوجة تسأل زوجها أن ينفق عليها، والولد الفقير يسأل والده أن ينفق عليه، والقريب المحتاج يسأل قريبه أن ينفق عليه، هذه حقوق واجبة، فلا بأس بسؤالها ممن هي عنده.

قوله: (وَسُؤَالُ الْمُسَافِرِ الضِّيَافَةَ لِمَنْ تَجِبُ عَلَيْهِ). كذلك من الحقوق الواجبة: الضيافة، فهي حق واجب على من نزل عنده الضيف، فيجب عليه أن يضيفه، وأن يقدم له قراه الذي يستطيعه ويتيسر له، ولا يطرده، أو يمتنع عن ضيافته، حتى قيل: لو امتنع، فللضيف أن يشتكي، وإذا ظفر الضيف بماله يأخذ قدر ضيافته؛ لأن هذا حق له على المضيف.

قوله: (كَمَا اسْتَطْعَمَ مُوسَى وَالخَضِرُ أَهْلَ الْقَرْيَةِ). قال تعالى: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ [الكهف:٧٧]، فموسى والخضر استطعما، أي: طلبا القرى من أهل القرية، فدل على أن القرى حق للضيف له أن يطلبه.

قوله: (وَكَذَلِكَ الْغَرِيمُ لَهُ أَنْ يَطْلُبَ دَيْنَهُ مِمَّنْ هُوَ عَلَيْهِ). لأن هذا من الحقوق الواجبة.

قوله: (وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَعَاقِدِينَ لَهُ أَنْ يَسْأَلَ الْآخَرَ أَدَاءَ حَقِّهِ إِلَيْهِ). الشركاء في التجارة كل واحد يسأل شريكه ماله الذي له في هذه الشركة، ولا يُلام في هذا؛ لأنه يطلب حقه.

قوله: (فَالْبَائِعُ يَسْأَلُ الثَّمَنَ، وَالْمُشْتَرِي يَسْأَلُ المَبِيعَ). وليس هذا من السؤال المذموم؛ لأنه حق.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾، تقول: أسألك بالله ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ بالنصب، أي: اتقوا الأرحام أن تقطعوها؛ لأن لها حقًّا على قريبها، فعلى المسلم أن يتقي حق الرحم ولا يقطعه.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾. السؤال هذا غير مأمور به للسائل، ولكن المسؤول إذا سُئل، فإنه يجب عليه أن يعطي السائل بناءً على ظاهر حاله أنه لم يسأل إلا لحاجة، فإن كان كاذبًا ويسأل الناس من غير حاجة، فإثمه عليه، لكن السائل له حق.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾. فدل على أن السائل له حق، والمحروم: هو الفقير الذي يتعفف عن السؤال، وقيل: الذي نزلت به جائحة فأتلفت ماله وانحرم منه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ٢٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ [القلم:٢٦-٢٧]؛ لأنهم أصابتهم جائحة فاحترق بستانهم بما فيه.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [الحج:٣٦]، وَمِنْهُ الحَدِيثُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَسْأَلُنِي المَسْأَلَةَ، فَيَخْرُجُ بِهَا يَتَأَبَّطُهَا نَارًا»(١). وَقَوْلُهُ: «اقْطَعُوا عَنِّي لِسَانَ هَذَا»(٢).

الشَّرح

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾. لحوم الهدي في الحج أمر الله أن تكون ثلاثة أقسام:

الأول: لحوم هدي النسك، وهو التمتع والقران، فللمهدي أن يأكل منها، وهذه سنة، وقد أكل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هديه(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (١٧/ ٤٠)، وابن حبان (٨/ ٢٠٣)، والحاكم (١/ ١٠٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١/ ٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٧/ ٣١٩) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن شاعرًا أتى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**يا بلال، اقطع لسانه عني**»، فأعطاه أربعين درهمًا وحلة، فقال: قطع والله لساني». ويشهد له حديث رافع بن خديج رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند مسلم (١٠٦٠) قال: أَعْطَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، وَصَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ، وَعُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ، وَالْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ، كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ، وَأَعْطَى عَبَّاسَ بْنَ مِرْدَاسٍ دُونَ ذَلِكَ، فَقَالَ عَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ:

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعُبَيْدِ ... بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ
فَمَا كَانَ بَدْرٌ وَلَا حَابِسٌ ... يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فِي الْمَجْمَعِ
وَمَا كُنْتُ دُونَ امْرِئٍ مِنْهُمَا ... وَمَنْ تَخْفِضِ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعِ

قَالَ: «فَأَتَمَّ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِائَةً».

(٣) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «... فَدُخِلَ عَلَيْنَا يَوْمَ النَّحْرِ بِلَحْمِ بَقَرٍ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ فَقِيلَ: ذَبَحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَزْوَاجِهِ». أخرجه البخاري (١٧٢٠)، ومسلم (١٢١١).

الثاني: لحوم هدي الجبران الذي يُذبح جبرانًا لترك واجب، أو فعل محظور، فلا يجوز للمُهدي أن يأكل منه؛ لأنه كفارة.

الثالث: لحوم هدي التطوع، فهي مثل لحوم هدي التمتع والقرآن، فله أن يأكل منها.

قوله: ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾، قيل: القانع: الفقير الذي لا يسأل، والمعتر: هو الذي يسأل، وقيل العكس[1]. المهم أن لحم الهدي -هدي التطوع، أو هدي التمتع والقران- يُستحب أن يأكل منه ولا يتركه؛ لأن هذا من العمل بالسنة والعبادة، وأن يطعم منه، فلا يأكله كله، ولا يتصدق به كله، وإنما يقسمه بين نفسه وأضيافه والمحتاجين.

قوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَسْأَلُنِي المَسْأَلَةَ فَيَخْرُجُ بِهَا يَتَأَبَّطُهَا نَارًا**».

الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعطي، ولكن إذا سأله أحد غير محتاج، فإنما يأخذها نارًا والعياذ بالله، وكذلك كل سائل وهو غير محتاج يأخذ نارًا، قال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلْيُقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ**». فدل على أن المسؤول يعطي، ويكل الأمر إلى ظاهره، وأما السائل فهو أدرى بحاله، إن كان محتاجًا فقد أخذ حقًّا له، وإن كان غير محتاج فحرام عليه.

---

(١) انظر: غريب الحديث لأبي عبيد (٢/ ١٥٦)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٢٠٥)، (٤/ ١١٤)، ومشارق الأنوار (٢/ ٣٣٠)، ولسان العرب (٨/ ٢٩٧).

قوله ﷺ: «**اقْطَعُوا عَنِّي لِسَانَ هَذَا**». لسان شاعر، والنبي ﷺ قال: اقطعوا لسانه، أي: أعطوه ما يكف لسانه عني، وليس المراد قطع لسانه بالسكين، وإنما المراد قطع لسانه بالعطاء حتى يسكت، فدل على أنه يُعطى من يخاف من شره؛ كفًّا لشره، وإثمه عليه هو.

وَقَدْ يَكُونُ السُّؤَالُ مَنْهِيًّا عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيمٍ أَوْ تَنْزِيهٍ، وَإِنْ كَانَ المَسُؤُولُ مَأْمُورًا بِإِجَابَةِ سُؤَالِهِ، فَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ مِنْ كَمَالِهِ أَنْ يُعْطِيَ السَّائِلَ، وَهَذَا فِي حَقِّهِ مِنْ فَضَائِلِهِ وَمَنَاقِبِهِ، وَهُوَ وَاجِبٌ أَوْ مُسْتَحَبٌّ، وَإِنْ كَانَ نَفْسُ سُؤَالِ السَّائِلِ مَنْهِيًّا عَنْهُ.

وَلِهَذَا لَمْ يُعْرَفْ قَطُّ أَنَّ الصِّدِّيقَ وَنَحْوَهُ مِنْ أَكَابِرِ الصَّحَابَةِ سَأَلُوهُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَلَا سَأَلُوهُ أَنْ يَدْعُوَ لَهُمْ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ يَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يَدْعُوَ لِلْمُسْلِمِينَ، كَمَا أَشَارَ عَلَيْهِ عُمَرُ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ لَمَّا اسْتَأْذَنُوهُ فِي نَحْرِ بَعْضِ ظَهْرِهِمْ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ بِنَا إِذَا لَقِينَا الْعَدُوَّ غَدًا رِجَالًا جِيَاعًا؟ وَلَكِنْ إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَدْعُوَ النَّاسَ بِبَقَايَا أَزْوَادِهِمْ فَتَجْمَعَهَا، ثُمَّ تَدْعُوَ اللهَ بِالْبَرَكَةِ فَإِنَّ اللهَ يُبَارِكُ لَنَا فِي دَعْوَتِكَ. وَفِي رِوَايَةٍ: فَإِنَّ اللهَ سَيُغِيثُنَا بِدُعَائِكَ[(١)].

وَإِنَّمَا كَانَ سَأَلَهُ ذَلِكَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا سَأَلَهُ الْأَعْمَى أَنْ يَدْعُوَ اللهَ لَهُ لِيَرُدَّ عَلَيْهِ بَصَرَهُ[(٢)]، وَكَمَا سَأَلَتْهُ أُمُّ سُلَيْمٍ أَنْ يَدْعُوَ اللهَ لِخَادِمِهِ أَنَسٍ[(٣)]، وَكَمَا سَأَلَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ أَنْ يَدْعُوَ اللهَ أَنْ يُحَبِّبَهُ وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ[(٤)]، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤/ ١٨٤)، والنسائي في الكبرى (٨/ ١٠٢) من حديث أبي عمرة الأنصاري رضي الله عنه. وأخرجه بنحو هذا اللفظ: البخاري (٢٤٨٤) من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، ومسلم (٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٧٨)، والنسائي في الكبرى (٩/ ٢٤٤)، وابن ماجه (١٣٨٥)، وأحمد (٢٨/ ٤٧٨)، والحاكم (١/ ٤٥٨) من حديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (١٩٨٢)، ومسلم (٢٤٨٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الشَّرح

تقدم أن سؤال الناس ينقسم إلى أربعة أقسام:

الأول: ما هو محرم وشرك أكبر، كسؤال الأموات والغائبين قضاء الحاجات وتفريج الكربات، مما عليه القبوريون.

الثاني: قسم واجب، وهو سؤال أهل العلم؛ كما قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

الثالث: قسم مكروه، وهو سؤال الناس من الأمور المباحة، فإنه مكروه؛ لما فيه من المذلة والافتقار إلى المخلوق.

الرابع: سؤال مباح متساوي الطرفين، وهو أن يسأل الإنسان ما له من حق عند الآخر، كأن يكون له عنده دين أو وديعة، أو يسأل من بيت المال، فهذا يسأل شيئًا من حقه، فهذا مباح إن شاء طلبه، وإن شاء تركه.

هذه أقسام السؤال الأربعة، ويكون السؤال مكروهًا في حق السائل، أو محرمًا في حق السائل، أما المسؤول فإنه يعطي السائل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى:١٠]، فالمسؤول يعطي السائل ولا يمنعه، ولا يقول: لعله ليس محتاجًا لعله كذا. فهذا في ذمة السائل، فالسائل له حق، وليس المسؤول بمسؤول عن استحقاقه أو عدم استحقاقه، فيعطيه.

وقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعطي السائل؛ لأنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يرد سائلًا، ولو كان السؤال لا يجوز، فإنه لا يرده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (وَإِنْ كَانَ المَسْؤُولُ مَأْمُورًا بِإِجَابَةِ سُؤَالِهِ). وذلك دون نظر إلى سؤاله هل هو جائز أو غير جائز، فهذا تقع مسؤوليته على السائل لا على المسؤول.

قوله: (فَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ مِنْ كَمَالِهِ أَنْ يُعْطِيَ السَّائِلَ). الرسول ﷺ كان يعطي ولا يرد سائلًا، وهذه من فضائله ﷺ ومناقبه، وكذلك من اقتدى بالرسول ﷺ، فإن هذا يعد من مكارم المسؤول ومناقبه أنه لا يرد سائلًا.

قوله: (وَلِهَذَا لَمْ يُعْرَفْ قَطُّ أَنَّ الصِّدِّيقَ وَنَحْوَهُ مِنْ أَكَابِرِ الصَّحَابَةِ سَأَلُوهُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ...). الصديق أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لم يذكر عنه أنه طلب من النبي ﷺ أن يدعو له؛ لعلمه أن الرسول يكره ذلك، أو لا يستسيغه، فكان لا يطلب من الرسول الدعاء لنفسه، وإنما يطلب منه الدعاء للمسلمين، مثل ما إذا أجدبوا، فإنه يطلب منه ﷺ أن يدعو الله لهم بالغيث والسقيا، وهذا عام للمسلمين، كذلك يطلب منه أن يدعو الله للمسلمين بالنصر على العدو، فهذا لا بأس به.

قوله: (كَمَا أَشَارَ عَلَيْهِ عُمَرُ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ...). في بعض المغازي أصابت الصحابة مسغبة(١) شديدة؛ لنفاد ما معهم من الزاد، فجاء بعضهم وطلب من النبي ﷺ أن يأذن لهم في نحر بعض الإبل التي يركبونها؛

(١) مسغبة: أي مجاعة، يقال: سَغِبَ الرجلُ يَسْغَب، وسَغَبَ يَسْغُبُ سَغْبًا وسَغَبًا وسَغابةً وسُغُوبًا ومَسْغَبَةً: جاعَ. والسَّغْبة: الجُوعُ. انظر: تهذيب اللغة (٨/ ٧١)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٣٧١)، ولسان العرب (١/ ٤٦٨).

لأجل أن يأكلوا من لحمها؛ دفعًا للجوع، وجاءه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأبدى له مشورة، وقال: (**كَيْفَ بِنَا إِذَا لَقِينَا الْعَدُوَّ غَدًا رِجَالًا جِيَاعًا؟**) أي: نمشي على أرجلنا وفي هذا ضعف، (**وَلَكِنْ إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَدْعُوَ النَّاسَ بِبَقَايَا أَزْوَادِهِمْ فَتَجْمَعَهَا، ثُمَّ تَدْعُوَ اللهَ بِالْبَرَكَةِ، فَإِنَّ اللهَ يُبَارِكُ لَنَا فِي دَعْوَتِكَ**)، فقبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه هذه المشورة، وأمر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فبسطوا نطعًا[(١)]، وجاء كلٌّ بما عنده، فيأتي هذا بكسرة تمر، وهذا بكسرة خبز، وغيره بقليل من الدقيق إلى آخره، فاجتمع عند الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما جاؤوا به، فدعا عليه بالبركة، فبارك الله فيه، وكلٌّ أخذ منه ما يكفيه ببركة دعاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وهذا من مواقف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ العظيمة مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنزلت البركة على هذا المجموع، واندفعت بذلك حاجتهم، وبقيت لهم مراكبهم وإبلهم.

الشاهد من هذا: أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طلب من الرسول أن يدعو أن ينزل الله البركة للعسكر الذين معه، ولم يطلب ذلك لنفسه.

قوله: (رِجَالًا) أي: ماشين، (**جِيَاعًا**) ليس معهم شيء، ولاشك أن هذا ضعف، وربما يتغلب عليهم العدو، وهذا من ثاقب نظره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستشير أصحابه في الأمور التي لم ينزل عليه فيها وحي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يستشيرهم في المنازل، في الرحيل، في لقاء العدو؛ ليستطلع آراءهم، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

---

(١) **النطع**: بساط من الأديم. انظر: العين للخليل (٢/ ١٦)، ومشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢/ ١١)، ولسان العرب (٨/ ٣٥٧).

قوله: (فَإِنَّ اللهَ يُبَارِكُ لَنَا فِي دَعْوَتِكَ. وَفِي رِوَايَةٍ: فَإِنَّ اللهَ سَيُغِيثُنَا بِدُعَائِكَ). هذا محل الشاهد: أنه طلب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو لهم بالبركة، فدل على أن طلب الدعاء للمسلمين ليس بمكروه، وإنما المكروه طلب الدعاء للسائل فقط.

قوله: (وَإِنَّمَا كَانَ سَأَلَهُ ذَلِكَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ). أي: سأله بعض المسلمين أن ينحروا بعض الإبل.

قوله: (كَمَا سَأَلَهُ الْأَعْمَى أَنْ يَدْعُوَ اللهَ لَهُ لِيَرُدَّ عَلَيْهِ بَصَرَهُ). هذا حديث مشهور: «أَنَّ رَجُلًا ضَرِيرَ الْبَصَرِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَنِي، قَالَ: «إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ، وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قَالَ: فَادْعُهْ، قَالَ: فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيُحْسِنَ وُضُوءَهُ وَيَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاءِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ لِتُقْضَى لِيَ، اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ»، فرد الله عليه بصره. وهذا في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطلب منه الدعاء.

قوله: (وَكَمَا سَأَلَتْهُ أُمُّ سُلَيْمٍ أَنْ يَدْعُوَ اللهَ لِخَادِمِهِ أَنَسٍ). أم سليم الأنصارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أم أنس بن مالك خادم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جاءت به إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صغيرًا، وقالت: «يَا رَسُولَ اللهِ، خَادِمُكَ أَنَسٌ، ادْعُ اللهَ لَهُ»، قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَمَا تَرَكَ خَيْرَ آخِرَةٍ وَلَا دُنْيَا إِلَّا دَعَا لِي بِهِ، قَالَ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ مَالًا وَوَلَدًا، وَبَارِكْ لَهُ فِيهِ»، فَإِنِّي لَمِنْ أَكْثَرِ الْأَنْصَارِ مَالًا». فطال عمره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكثر أولاده ببركة دعوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد خدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر سنين، من حين قدومه المدينة إلى أن توفي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشاهد منه: أن أم سليم طلبت من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو الله لهذا الغلام، فدل على أن طلب الدعاء من الرسول أو من غيره جائز، وإن كان -كما سبق- مكروهًا في بعض الأحوال. ثم إن أم سليم لم تطلب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دنيا، وإنما طلبت ما هو أعلى من ذلك، وهو أن يبارك الله في هذا الغلام، وأن يطيل في عمره على عمل صالح، فهذا من طلب الدعاء فيما هو أفضل من الدنيا، والكراهة إنما هي في أمور الدنيا.

قوله: (وَكَمَا سَأَلَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ أَنْ يَدْعُوَ اللهَ أَنْ يُحَبِّبَهُ وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ). لَمَّا أسلم أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عام خيبر قدم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وطلب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو لأمه بالهداية، فدعا لها، فأسلمت، ثم طلب منه أن يدعو الله أن يحببه وأمه إلى المسلمين، فدعا لهما، فصارا محبوبين عند المسلمين، وهذا ليس طلب دنيا، وإنما هو طلب دين.

وَأَمَّا الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَدْ قَالَ اللهُ فِيهِ وَفِي مِثْلِهِ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:١٧-٢١].

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيْنَا فِي صُحْبَتِهِ وَذَاتِ يَدِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا»[1]، فَلَمْ يَكُنْ فِي الصَّحَابَةِ أَعْظَمُ مِنَّةً مِنَ الصِّدِّيقِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِنَّمَا يَعْمَلُ هَذَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى لَا يَطْلُبُ جَزَاءً مِنْ مَخْلُوقٍ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾، فَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ عِنْدَ الصِّدِّيقِ نِعْمَةٌ تُجْزَى، فَإِنَّهُ كَانَ مُسْتَغْنِيًا بِكَسْبِهِ وَمَالِهِ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ لَهُ عَلَى الصِّدِّيقِ وَغَيْرِهِ نِعْمَةُ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ، وتِلْكَ النِّعْمَةُ لَا تُجْزَى، فَإِنَّ أَجْرَ الرَّسُولِ فِيهَا عَلَى اللهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٠٩].

الشرح

قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾. الشاهد فيه: أن الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يؤتي ماله -أي: يتصدق وينفق- ولا يريد من ذلك جزاءً من الناس، وإنما يريده من الله، فهو ينفق المال رغبة فيما عند الله

(١) تقدم تخريجه (ص٣٨٣).

عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ أي: النار التي تلظى، ﴿ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي: ينفق في سبيل الله ليزكي نفسه ويطهرها، ولم يقصد بهذا المكافأة من الناس لا بالدعاء ولا بغيره، وإنما يقصد وجه ربه الأعلى، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾، هذا وعد من الله أن يرضيه، وهذا عام في أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وغيره، فالذي ينفق ينبغي له أن يخلص النية لله عَزَّوَجَلَّ، ولا يريد من الناس مقابلة، لا بدعاء ولا بغيره، وإنما يريده من الله.

قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيْنَا فِي صُحْبَتِهِ وَذَاتِ يَدِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلا**». أثنى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بخصلتين عظيمتين:

الأولى: أنه صحب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من بعثته إلى وفاته، وهو يدافع عنه، ويلازمه في أسفاره، وحضوره.

الثانية: أنه كان ينفق ماله في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، لاسيما في الأزمات التي تنزل بالمسلمين.

فأثنى عليه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وعرف له منزلته، وهذا فيه إشارة إلى استخلافه من بعده، وقوله: «**وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلا**» لم يمنعه من ذلك إلا أنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خليل الله، وخليل الله لا ينبغي أن يتخذ خليلًا غير الله، فهذا فيه فضل أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. والشاهد منه: أنه منَّ بماله على المسلمين، وفي مصالح المسلمين، وليس المن المراد به طلب المدح، أو إيذاء الناس بأنه يعطيهم، وإنما المنَّ المراد به هنا كثرة العطاء.

قوله: (فَلَمْ يَكُنْ فِي الصَّحَابَةِ أَعْظَمُ مِنَّةً مِنَ الصِّدِّيقِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ). بنفسه: لأنه دافع عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصاحبه ولازمه، وتعرض للأخطار مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه ويدفع عنه أذى قومه، وهذا شيء معروف له. وبماله: لأنه كان ينفقه في الأزمات والحوائج.

قوله: (وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِنَّمَا يَعْمَلُ هَذَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى). قال تعالى: ﴿يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ هذا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومن عمل مثل عمله، ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ لا يريد المقابلة من الناس، أو أنه يعطي الناس لأنهم أحسنوا إليه، فكون الإنسان لا يحسن إلَّا إلى من أحسن إليه هذه مكافأة، والفضل والشرف في الذي يحسن إلى الناس عمومًا؛ من أحسن إليه ومن لم يحسن إليه.

قوله: (فَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ عِنْدَ الصِّدِّيقِ نِعْمَةٌ تُجْزَى). أي: لم يكن عند الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منَّةٌ لأحد، فلم يكن يحتاج إلى الناس، ولا ينظر إلى ما في أيدي الناس، بل كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكتسب ويتجر ويعمل الأسباب لطلب الرزق؛ من أجل أن يستعين به على طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، فلم يكن عنده منَّةٌ لأحد استغناء بالله عَزَّ وَجَلَّ. وهكذا ينبغي للمؤمن أن يستغني بالله، ولا ينظر إلى الناس، وأيضًا: لا يقصر إحسانه على من أحسن إليه، بل يحسن إلى من أحسن إليه، وإلى من لم يحسن إليه.

قوله: (فَإِنَّ أَجْرَ الرَّسُولِ فِيهَا عَلَى اللهِ). الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له مَنَّة على جميع الأمة: على أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعلى غيره، الله ورسوله أمنّ، قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات:١٧]، فالمنة لله عَزَّ وَجَلَّ،

ثم للرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالرسول أحسن إلى الأمة؛ لأنه دعاها إلى الإسلام، فله من الأجر مثل أجور من تبعه، كل من عمل عملًا صالحًا من هذه الأمة من أولها إلى آخرها، فللرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل أجره؛ لأنه هو الذي دل الأمة على ذلك، وكما قال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**»(١). فكان صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له من الأجر مثل أجور أمته.

وكل الرسل لم يدعوا قومهم وهم يرجون منهم نفعًا أو ثناءً، أو أن يدعوا لهم، بل دعوهم لوجه الله عَزَّ وَجَلَّ، ولهذا تكرر في الآيات: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، وكل رسول يقول لقومه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، أي: لا أريد منكم أن تقابلوا دعوتي لكم بالمنفعة لي، بل أنا أريد المنفعة من الله عَزَّ وَجَلَّ، وهكذا يجب على الداعية ألا يقصد من الناس نفعًا دنيويًّا ولا دينيًّا، وإنما يقصد من الله عَزَّ وَجَلَّ، فهذا أخلص في العمل، وأخلص لوجه الله عَزَّ وَجَلَّ، فالذي يدعو إلى الله يحتسب الأجر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وَأَمَّا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَغَيْرُهُمَا، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ لَهُ عِنْدَهُمْ نِعْمَةٌ تُجْزَى، فَإِنَّ زَيْدًا كَانَ مَوْلَاهُ فَأَعْتَقَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ [الأحزاب:٣٧]، وَعَلِيٌّ كَانَ فِي عِيَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِجَدْبٍ أَصَابَ أَهْلَ مَكَّةَ، فَأَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْعَبَّاسُ التَّخْفِيفَ عَنْ أَبِي طَالِبٍ مِنْ عِيَالِهِ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا إِلَى عِيَالِهِ، وَأَخَذَ الْعَبَّاسُ جَعْفَرًا إِلَى عِيَالِهِ[1]، وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

وَالمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ الصِّدِّيقَ كَانَ أَمَنَّ النَّاسِ فِي صُحْبَتِهِ وَذَاتِ يَدِهِ لِأَفْضَلِ الخَلْقِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِكَوْنِهِ كَانَ يُنْفِقُ مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ كَاشْتِرَائِهِ المُعَذَّبِينَ.

وَلَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحْتَاجًا فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ لَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَلَا غَيْرِهِ، بَلْ لَمَّا قَالَ لَهُ فِي سَفَرِ الهِجْرَةِ: إِنَّ عِنْدِي رَاحِلَتَيْنِ فَخُذْ إِحْدَاهُمَا. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِالثَّمَنِ»[2].

الشَّرح

قوله: (وَأَمَّا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَغَيْرُهُمَا). زيد بن حارثة الكلبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان مملوكًا لخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فوهبته للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأعتقه، فصار مولىً له لأنه عتيقه، فصار للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (١/ ٥٣٨)، وابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ٨٥)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٦٦)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٠٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

منَّة عليه بالعتق، ولهذا قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ﴾ أي: زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ بالإسلام ﴿وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾ بالعتق ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ لَمَّا جاءه يشكو إليه زوجته، وأنها تُسيء إليه، وأنه يريد أن يطلقها، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نصحه.

والشاهد في قوله: ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾، فصار للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نعمة على زيد بالعتق. ولهذا يقول العلماء في الولاء في الميراث: «الولاء عصوبة سببها نعمة المعتق على رقيقه بالعتق». فدل على أن الإعتاق نعمة ينعم بها السيد على مملوكه، وهذه منَّة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مولاه بالعتق.

قوله: **(وَعَلِيٌّ كَانَ فِي عِيَالِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... **فَأَخَذَ النَّبِيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عَلِيًّا إِلَى عِيَالِهِ، وَأَخَذَ الْعَبَّاسُ جَعْفَرًا إِلَى عِيَالِهِ)**. جاء في الأثر: «أَنَّ قُرَيْشًا أَصَابَتْهُمْ أَزْمَةٌ شَدِيدَةٌ، وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ ذَا عِيَالٍ كَثِيرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْعَبَّاسِ عَمِّهِ -وَكَانَ مِنْ أَيْسَرِ بَنِي هَاشِمٍ- يَا عَبَّاسُ: إِنَّ أَخَاكَ أَبَا طَالِبٍ كَثِيرُ الْعِيَالِ، وَقَدْ أَصَابَ النَّاسَ مَا تَرَى مِنْ هَذِهِ الْأَزْمَةِ، فَانْطَلِقْ بِنَا إِلَيْهِ، فَلْنُخَفِّفْ عَنْهُ مِنْ عِيَالِهِ، آخُذُ مِنْ بَنِيهِ رَجُلًا، وَتَأْخُذُ أَنْتَ رَجُلًا، فَنَكِلُهُمَا عَنْهُ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: نَعَمْ. فَانْطَلَقَا حَتَّى أَتَيَا أَبَا طَالِبٍ، فَقَالَا لَهُ: إِنَّا نُرِيدُ أَنْ نُخَفِّفَ عَنْكَ مِنْ عِيَالِكَ حَتَّى يَنْكَشِفَ عَنْ النَّاسِ مَا هُمْ فِيهِ، فَقَالَ لَهُمَا أَبُو طَالِبٍ: إِذَا تَرَكْتُمَا لِي عَقِيلًا فَاصْنَعَا مَا شِئْتُمَا. فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، وَأَخَذَ الْعَبَّاسُ جَعْفَرًا فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ عَلِيٌّ مَعَ رَسُولِ اللهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَعَثَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيًّا، فَاتَّبَعَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَآمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ، وَلَمْ يَزَلْ جَعْفَرٌ عِنْدَ الْعَبَّاسِ حَتَّى أَسْلَمَ وَاسْتَغْنَى عَنْهُ».

وقوله: «**فِي عِيَالِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» أي: في بيته وعائلته الذين يعولهم، وهو ليس من عيال النبي، إنما هو من عيال أبي طالب، جعله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيته ينفق عليه، فصار للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له على عليٍّ منَّة أنه رباه في بيته وأنفق عليه وعلمه.

قوله: « **وَالمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ الصِّدِّيقَ كَانَ أَمَنَّ النَّاسِ ... لِكَوْنِهِ كَانَ يُنْفِقُ مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ كَاشْتِرَائِهِ المُعَذَّبِينَ**». أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان أمنَّ الناس على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه وبماله كما سبق، ومن منته بماله: أنه كان يشتري المعذبين؛ لأن الذين أسلموا في مكة من العبيد كان المشركون يعذبونهم من أجل أن يرتدوا عن الإسلام، فيأتي أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيشتريهم ويعتقهم، ومن هؤلاء بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد جاء في الأثر: «أَنَّ بِلَالًا أَخَذَهُ أَهْلُهُ فَمَطُّوهُ -أي: مدوه- وَأَلْقَوْا عَلَيْهِ مِنَ الْبَطْحَاءِ -أي: الزبل- وَجِلْدِ بَقَرَةٍ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: رَبُّكَ اللاتُ وَالْعُزَّى. وَيَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ. فَأَتَى عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: عَلامَ تُعَذِّبُونَ هَذَا الإِنْسَانَ؟ فَاشْتَرَاهُ بِسَبْعِ أَوَاقٍ، فَأَعْتَقَهُ. فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: **الشَّرِكَةَ يَا أَبَا بَكْرٍ**. فَقَالَ: قَدْ أَعْتَقْتُهُ يَا رَسُولَ اللهِ»[1].

فهذا العمل الجليل من أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لايقصد به إلا وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٢٣٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠/ ٤٤٢).

قوله: (**وَلَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **مُحْتَاجًا فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ لَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَلَا غَيْرِهِ**). كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يجود على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا بمعنى أنه يجود على نفس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الرسول أغناه الله من عنده، وإنما يجود عليه بما ينفقه في سبيل الله، فكان يجود في الأزمات التي تعرض للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سبيل الله، فهو لا يعطيه شيئًا لنفسه، وإنما يعطيه شيئًا للمسلمين على يد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (**بَلْ لَمَّا قَالَ لَهُ فِي سَفَرِ الهِجْرَةِ....**). لما أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الهجرة صحب معه أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان عند أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ راحلتين أراد أن يعطي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويهب له واحدة منهما، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِالثَّمَنِ»؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يريد أن يأخذ الراحلة دون ثمن، فدل على أنه لا يأخذ من أبي بكر ولا من غيره شيئًا لنفسه، وإنما يأخذه في سبيل الله.

فَهُوَ أَفْضَلُ صِدِّيقٍ لِأَفْضَلِ نَبِيٍّ، وَكَانَ مِنْ كَمَالِهِ أَنَّهُ لَا يَعْمَلُ مَا يَعْمَلُهُ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى، لَا يَطْلُبُ جَزَاءً مِنْ أَحَدٍ مِنَ الخَلْقِ، لَا الْمَلَائِكَةِ وَلَا الْأَنْبِيَاءِ وَلَا غَيْرِهِمْ، وَمِنَ الجَزَاءِ أَنْ يَطْلُبَ الدُّعَاءَ، قَالَ تَعَالَى عَمَّنْ أَثْنَى عَلَيْهِمْ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩].

الشَّرح

قوله: (فَهُوَ أَفْضَلُ صِدِّيقٍ لِأَفْضَلِ نَبِيٍّ). أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو صدِّيق الأمة؛ لذلك يُلقب بالصدِّيق، والصدِّيق: هو كثير الصدق، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا**»(١). فأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صديق عند الله ورسوله كثير الصدق، ولم يُجرب عليه كذب أبدًا، صدَّق الله ورسوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ هو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ هو أبو بكر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣]، فأبو بكر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مقدمة المصدقين للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (وَكَانَ مِنْ كَمَالِهِ أَنَّهُ لَا يَعْمَلُ مَا يَعْمَلُهُ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى، لَا يَطْلُبُ جَزَاءً مِنْ أَحَدٍ مِنَ الخَلْقِ). كان الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يعمل ما يعمله من الأعمال الجليلة إلا طلبًا لرضى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يريد من الناس شيئًا، إنما يطلب جزاءه من الله وحده.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (وَمِنَ الجَزَاءِ أَنْ يَطْلُبَ الدُّعَاءَ). هذا هو وجه الكراهية أنك تطلب الجزاء من الناس بالدعاء، فإذا أحسنت إليهم تقول: ادعوا لي، أو تحسن إليهم بقصد أن يدعوا لك، فهذا مكروه، والذي ينبغي أن تخلص الإحسان لله عَزَّوَجَلَّ، ولا تطلب من المخلوق شيئًا، كما قال الله جَلَّوَعَلَا في الأبرار: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٨-٩]. من الجزاء الذي لا ينبغي أن يطلبه المحسن طلب الدعاء، فيترك هذا.

وَالدُّعَاءُ جَزَاءٌ كَمَا فِي الحَدِيثِ: «مَنْ أَسْدَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ بِهِ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلَمُوا أَنْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»[(١)].

وَكَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِذَا أَرْسَلَتْ إِلَى قَوْمٍ بِصَدَقَةٍ تَقُولُ لِلرَّسُولِ: «اسْمَعْ مَا يَدْعُونَ بِهِ لَنَا حَتَّى نَدْعُوَ لَهُمْ بِمِثْلِ مَا دَعَوْا لَنَا وَيَبْقَى أَجْرُنَا عَلَى اللهِ»[(٢)].

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «إِذَا قَالَ لَكَ السَّائِلُ: بَارَكَ اللهُ فِيكَ. فَقُلْ: وَفِيكَ بَارَكَ اللهُ»[(٣)].

الشَّرْح

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلَمُوا أَنْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**». جعل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدعاء مكافأة على الإحسان، فلا ينبغي للمحسن أن يتطلع إلى الدعاء، أو يطلب الدعاء من المحسن إليه؛ لأن هذا نقص في الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ.

وقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (اسْمَعْ مَا يَدْعُونَ بِهِ لَنَا حَتَّى نَدْعُوَ لَهُمْ بِمِثْلِ مَا دَعَوُا لَنَا، وَيَبْقَى أَجْرُنَا عَلَى اللهِ). عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت تحسن إلى

---

(١) أخرجه أحمد (٩/ ٢٦٦)، وأبو داود (١٦٧٢)، والنسائي (٢٥٦٧) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٩/ ١٢١).

(٣) أخرج البخاري في الأدب المفرد (ص٣٨١)، والطبراني في الكبير (١٠٦٠٩) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «لَوْ قَالَ لِي فِرْعَوْنُ: بَارَكَ اللهُ فِيكَ، قُلْتُ: وَفِيكَ، وَفِرْعَوْنُ قَدْ مَاتَ».

الناس، ولا تريد الدعاء منهم، فإذا دعوا لها، فإنها تدعو لهم مقابل دعائهم؛ لئلا يبقى لهم منَّة، ولهذا كانت توصي مندوبها بالصدقة أن يستمع ما يقولون، فإذا دعوا لها دعت لهم بمثله من أجل المقابلة، فهذا من الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (**وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا قَالَ لَكَ السَّائِلُ...**). أي: إذا قال لك: بارك الله فيك، رد عليه، وقل: وفيك، أي: بارك الله فيك، ولا تسكت؛ كي تقابل دعاءه بدعاء، ولا يبقى له فضل عليك، فقد كافأته بالدعاء؛ حتى لايبقى فضل لأحد عليك إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا كله عود على ما سبق من أنه لايسأل المخلوقين، وإنما يسأل الله السؤال الجائز، فكيف بالسؤال المحرم؟ فمن سأل من الأموات أو الغائبين شيئًا، فهذا سؤال كفر وشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

فَمَنْ عَمِلَ خَيْرًا مَعَ المَخْلُوقِينَ سَوَاءً كَانَ المَخْلُوقُ نَبِيًّا أَوْ رَجُلًا صَالِحًا أَوْ مَلِكًا مِنَ المُلُوكِ أَوْ غَنِيًّا مِنَ الْأَغْنِيَاءِ، فَهَذَا الْعَامِلُ لِلْخَيْرِ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ خَالِصًا للهِ يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ، لَا يَطْلُبُ بِهِ مِنَ المَخْلُوقِ جَزَاءً وَلَا دُعَاءً وَلَا غَيْرَهُ، لَا مِنْ نَبِيٍّ وَلَا رَجُلٍ صَالِحٍ وَلَا مَلَكٍ مِنَ المَلَائِكَةِ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَهَذَا هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنَ الرُّسُلِ، فَلَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا غَيْرَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

وَكَانَ نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَالمَسِيحُ وَسَائِرُ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَلَى الْإِسْلَامِ. قَالَ نُوحٌ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢]، وَقَالَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٠-١٣٢]. ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٨٤]، وَقَالَتِ السَّحَرَةُ: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٢٦]، وَقَالَ يُوسُفُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ [المائدة:٤٤]، وَقَالَ عَنِ الحَوَارِيِّينَ: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ

إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة:١١١].

الشَّـرْح

قوله: (لَا يَطْلُبُ بِهِ مِنَ المَخْلُوقِ جَزَاءً وَلَا دُعَاءً وَلَا غَيْرَهُ). إذا أحسنت إلى أحد فلا تطلب منه جزاء، لا بالدعاء ولا غيره؛ ليكون عملك خالصًا لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه مرتبة عظيمة قل من يصل إليها ويفطن لها.

وهذا كله امتداد للمسألة السابقة في الرد على الذين يدعون الأموات والغائبين، فإن هذا شرك أكبر، فإذا كان هذا في الأمور العادية والمباحة لاينبغي، فكيف بالأمور التي هي شرك أو كفر؟

فعلى المسلم أن يستغني بالله، ولا يلتفت إلى أحد، والله قريب مجيب، وقد أمرنا أن ندعوه، ووعدنا أن يستجيب لنا: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠]، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦]، فلا حاجة إلى أن تطلب من الناس أن يدعوا لك، أو تحسن إليهم من أجل أن يكافئوك، اطلب المكافأة من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قوله: (وَهَـٰذَا هُوَ دِينُ الْإِسْـلامِ...). الإسلام هو: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، فلا يكون توحيدًا إلا مع البراءة من الشرك، والانقياد له بالطاعة في أوامره ونواهيه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهو بهذا المعنى دين جميع الرسل، فكل الرسل على التوحيد،

وكلهم على البراءة من المشركين، وكلهم على العمل بما شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالإسلام هو: عبادة الله في كل وقت بما شرع، والشرائع مختلفة، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، فمن عبد الله بما شرعه في كل وقت، فهو مسلم، ويشمل هذا جميع الأنبياء وأتباعهم، ولما بُعث محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صار الإسلام هو ما جاء به إلى أن تقوم الساعة، ونسخ الله به الشرائع السابقة، وبقيت شريعة الإسلام التي جاء بها محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾. ليس المراد به خصوص الإسلام الذي جاء به محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا قبل أن يُبعث الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المراد بالإسلام عبادة الله في كل وقت بما شرع في ذلك الوقت، فأتباع نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كانوا مسلمين، وكذلك أتباع إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأتباع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأتباع المسيح ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكل من عبد الله بما شرع في وقته فإنه من المسلمين.

قوله: (وَكَانَ نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَالمَسِيحُ وَسَائِرُ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ عَلَى الْإِسْلَامِ). أي: الإسلام بمعناه العام.

قول نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. أي: أن أخلص العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، وأترك عبادة ما سواه، وأعمل بما شرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ

قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾. فهذا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من المسلمين، ويعقوب حفيده -الذي هو إسرائيل- من المسلمين، فكل نبي وكل من اتبع الأنبياء، فإنه مسلم، لكن بعدما بُعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يبقَ إسلام إلا باتباعه، فالذي يبقى على اليهودية أو النصرانية بعد بعثة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كافر؛ لأنه يعمل بدين منسوخ، والعمل إنما يكون بالناسخ، ويُترك المنسوخ، هو كان دينًا في وقته قبل أن يُنسخ، لكن لما نُسخ لم يبقَ دينًا لله عَزَّوَجَلَّ، وصار دين الله -الذي هو الإسلام- هو الناسخ.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾. أي: النبيون يحكمون الذين أسلموا، فدل على أن أتباع الرسل مسلمون.

قوله: (وَقَالَ عَنِ الحَوَارِيِّينَ). الحواريون: هم الأتباع، وأتباع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يُقال لهم: الحواريون، والحواريون قالوا في آية «المائدة»: ﴿ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾، وفي آية أخرى: ﴿ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٥٢].

وَدِينُ الْإِسْلَامِ مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلَيْنِ: أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ نَعْبُدَهُ بِمَا شَرَعَهُ مِنَ الدِّينِ، وَهُوَ مَا أَمَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ أَمْرَ إِيجَابٍ أَوْ أَمْرَ اسْتِحْبَابٍ، فَيُعْبَدُ فِي كُلِّ زَمَانٍ بِمَا أَمَرَ بِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ. فَلَمَّا كَانَتْ شَرِيعَةُ التَّوْرَاةِ مُحْكَمَةً كَانَ الْعَامِلُونَ بِهَا مُسْلِمِينَ، وَكَذَلِكَ شَرِيعَةُ الْإِنْجِيلِ.

وَكَذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ لَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ كَانَتْ صَلَاتُهُ إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَمَّا أُمِرَ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ كَانَتِ الصَّلَاةُ إِلَيْهَا مِنَ الْإِسْلَامِ، وَالْعُدُولُ عَنْهَا إِلَى الصَّخْرَةِ خُرُوجًا عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، فَكُلُّ مَنْ لَمْ يَعْبُدِ اللهَ بَعْدَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِمَا شَرَعَهُ اللهُ مِنْ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ، وَلَابُدَّ فِي جَمِيعِ الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ أَنْ تَكُونَ خَالِصَةً للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٤، ٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر:١-٣].

فَكُلُّ مَا يَفْعَلُهُ الْمُسْلِمُ مِنَ الْقُرَبِ الْوَاجِبَةِ وَالْمُسْتَحَبَّةِ، كَالْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَالْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ وَالْمَالِيَّةِ، وَمَحَبَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى عِبَادِ اللهِ بِالنَّفْعِ وَالْمَالِ، هُوَ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَفْعَلَهُ خَالِصًا للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا يَطْلُبُ مِنْ مَخْلُوقٍ عَلَيْهِ جَزَاءً؛ لَا دُعَاءً وَلَا غَيْرَ دُعَاءٍ، فَهَذَا مِمَّا لَا يَسُوغُ أَنْ يَطْلُبَ عَلَيْهِ جَزَاءً؛ لَا دُعَاءً وَلَا غَيْرَهُ.

الشَّرح

قوله: (وَدِينُ الْإِسْلَامِ). أي: جميع الملل الإلهية، (مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلَيْنِ): الإخلاص لله، والمتابعة للرسول، فالإخلاص لله ينفي الشرك، والمتابعة للرسول تنفي البدعة؛ لأنه لا يُعبد الله إلا بما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (وَأَنْ نَعْبُدَهُ بِمَا شَرَعَهُ مِنَ الدِّينِ). فلا نعبده بأهوائنا، ولا بإحداثات فلان أو علان، وإنما بما شرعه الله، ولهذا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1]، وقال: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[2]، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [البقرة:١١٢]، ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾ هذا الإخلاص، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ متبع للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالإسلام في عهد كل نبي مبني على أصلين: الإخلاص لله، والمتابعة لذلك الرسول الذي في وقته.

قوله: (فَيُعْبَدُ فِي كُلِّ زَمَانٍ بِمَا أَمَرَ بِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ). فإذا نُسخ يتحول منه إلى الناسخ.

قوله: (فَلَمَّا كَانَتْ شَرِيعَةُ التَّوْرَاةِ مُحْكَمَةً كَانَ الْعَامِلُونَ بِهَا مُسْلِمِينَ). قبل أن تُنسخ؛ لأن المحكم غير المنسوخ، والنصوص تنقسم إلى قسمين:

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٠٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٠٣).

الأول: محكم لم يُنسخ.

الثاني: منسوخ، وهذا يسمى غير محكم.

فقوله: (فَلَمَّا كَانَتْ شَرِيعَةُ التَّوْرَاةِ مُحْكَمَةً) أي: كانت في وقتها غير منسوخة، (كَانَ الْعَامِلُونَ بِهَا مُسْلِمِينَ).

قوله: (وَكَذَلِكَ شَرِيعَةُ الْإِنْجِيلِ). كذلك شريعة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان العاملون بها في وقتهم مسلمين؛ ولذلك قالوا: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٥٢].

قوله: (وَكَذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ لَمَّا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ كَانَتْ صَلَاتُهُ إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْلَامِ). النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول ما فُرضت الصلاة في مكة كان يصلي إلى بيت المقدس؛ لأنه لم يؤمر بالتحول، ولكنه كان يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، ثم لما هاجر إلى المدينة كان يصلي إلى بيت المقدس، وصلى معه المسلمون في المدينة إلى بيت المقدس، ثم لما أمره الله بالتوجه إلى الكعبة توجه إليها، فالصلاة التي صلوها إلى بيت المقدس من الإسلام؛ لأنها عمل بها شرعه الله في ذلك الوقت، ولهذا لمَّا تأسف الصحابة بعد تحول القبلة على الأموات الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس، أنزل الله قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣][(١)]، أي: صلاتكم إلى بيت المقدس. وهذا يدل على أن العمل من الإيمان؛ لأنه سمى الصلاة إيمانًا، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾.

---

(١) كما في حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه البخاري (٤٠)، ومسلم (٥٢٥).

قوله: (وَلَمَّا أُمِرَ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ كَانَتِ الصَّلَاةُ إِلَيْهَا مِنَ الْإِسْلَامِ). الصلاة إلى الكعبة صارت من الإسلام؛ لأنها بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والإسلام هو: اتِّباع ما أمر الله به.

قوله: (وَالْعُدُولُ عَنْهَا إِلَى الصَّخْرَةِ خُرُوجًا عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ). من توجه إلى بيت المقدس بعد أن أمر الله بالتوجه إلى الكعبة، فقد خرج على أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالمسلم لا يدور مع هواه والعادات والتقاليد، وإنما يدور مع أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حيث أمره يتوجه، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١١٥]، وقال: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ... ﴾ [البقرة:١٧٧]، إلى آخر الآية، فالعبد يدور مع أوامر الله أينما وجهه الله يتوجه، هذا هو الإسلام، أما الذي يبقى على المنسوخ، ويترك الناسخ، فهذا لا يدور مع أمر الله، إنما يدور مع هواه، قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة:١٤٣]، فالذي يبقى على الصلاة إلى بيت المقدس انقلب على عقبيه والعياذ بالله، وارتد عن دين الإسلام.

قوله: (فَكُلُّ مَنْ لَمْ يَعْبُدِ اللهَ بَعْدَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا شَرَعَهُ اللهُ مِنْ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ). كل من لم يعبد الله قبل بعثة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يتبع الأنبياء، فهو مشرك كافر، وكل من اتبع نبيًا من الأنبياء، وعمل بشريعته، فهو مسلم في وقته.

قوله: (وَلَابُدَّ فِي جَمِيعِ الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحِبَّاتِ أَنْ تَكُونَ خَالِصَةً لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ). هذا هو الشرط الأول.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾. أي: العبادة بألا يقصدوا بها غير الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ لأن الله لا يقبل إلا ما كان خالصًا لوجهه، وما كان فيه شرك، فإن الله لا يقبله.

وقال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ ثم قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾، فدل على أن الذي يخالطه شرك، فإن الله لا يقبله، ويرده على صاحبه، وإنما يقبل الله ما كان خالصًا لوجهه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

قوله: (فَكُلُّ مَا يَفْعَلُهُ الْمُسْلِمُ مِنَ الْقُرَبِ الْوَاجِبَةِ وَالْمُسْتَحَبَّةِ ...). هذا رجوع إلى المسألة التي مضت، فالإنسان يخلص عمله لله، ولا يرجو من الخلق لا دعاء ولا غيره، وإنما يرجو من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، لكن الذي يطلب الدعاء من الناس لا يُقال: إنه مشرك لأنه لم يخلص، بل يُقال: هذا نقص في إخلاصه، وقد يكون فعله هذا شركًا أصغر وليس شركًا أكبر؛ لأن الشرك على قسمين: أكبر، وأصغر.

وَأَمَّا سُؤَالُ المَخْلُوقِ غَيْرَ هَذَا فَلَا يَجِبُ، بَلْ وَلَا يُسْتَحَبُّ إِلَّا فِي بَعْضِ المَوَاضِعِ، وَيَكُونُ المَسْؤُولُ مَأْمُورًا بِالْإِعْطَاءِ قَبْلَ السُّؤَالِ.

الشرح

تقدم بيان أقسام سؤال المخلوق، وأنه إما أن يكون شركًا وهو سؤال الأموات والغائبين، أو يكون محرمًا ليس بشرك وهو سؤال غير المحتاج، كمن يسأل الناس تكثرًا من غير حاجة، وهذا حرام منهي عنه.

وإما أن يكون واجبًا، كسؤال أهل العلم عن المسائل العلمية، ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

وإما أن يكون مكروهًا غير محرم، كسؤال الناس قضاء حوائجه من مناولته شيئًا، أو إعانته على شيء، وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يسقط السوط من يد أحدهم، فلا يقول لأحد: ناولني إياه[1]، ومنه حديث: «**وَلَا يَسْتَرْقُونَ**»[2]. أي: لا يطلبون الرقية من غيرهم؛ لما في ذلك من المذلة والحاجة إلى المخلوق، وإما أن يكون مباحًا، كسؤال المحتاج الفقير حتى يسد حاجته، أو سؤال ولي الأمر مما له فيه نصيب مشترك.

فلما ذكر هذه الأقسام قال: (**وَأَمَّا سُؤَالُ المَخْلُوقِ غَيْرَ هَذَا فَلَا يَجِبُ**)، أي: سؤال المخلوق غير الحرام والواجب، فهذا لا يُستحب، وإنما يُباح في بعض الأحوال.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٨٤).

(٢) تقدم تخريجه (ص٣٨٤).

قوله: (**وَيَكُونُ الْمَسْؤُولُ مَأْمُورًا بِالْإِعْطَاءِ قَبْلَ السُّؤَالِ**). هذا هو المفروض أن من عنده خير ومال يوزعه على المحتاجين دون أن يسألوه، فيبدأهم بذلك، هذا هو المستحسن.

وَإِذَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لَيْسُوا مَأْمُورِينَ بِسُؤَالِ الْمَخْلُوقِينَ فَالرَّسُولُ أَوْلَى بِذَلِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّهُ أَجَلُّ قَدْرًا وَأَغْنَى بِاللهِ مِنْ غَيْرِهِ.

فَإِنَّ سُؤَالَ الْمَخْلُوقِينَ فِيهِ ثَلَاثُ مَفَاسِدَ:

- مَفْسَدَةُ الافْتِقَارِ إِلَى غَيْرِ اللهِ وَهِيَ مِنْ نَوْعِ الشِّرْكِ.
- وَمَفْسَدَةُ إِيذَاءِ الْمَسْؤُولِ وَهِيَ مِنْ نَوْعِ ظُلْمِ الْخَلْقِ.
- وَفِيهِ ذُلٌّ لِغَيْرِ اللهِ وهُوَ ظُلْمُ النَّفْسِ.

فَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى أَنْوَاعِ الظُّلْمِ الثَّلَاثَةِ، وَقَدْ نَزَّهَ اللهُ رَسُولَهُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَحَيْثُ أَمَرَ الْأُمَّةَ بِالدُّعَاءِ لَهُ فَذَاكَ مِنْ بَابِ أَمْرِهِمْ بِمَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ كَمَا يَأْمُرُهُمْ بِسَائِرِ الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ يَنْتَفِعُ بِدُعَائِهِمْ لَهُ فَهُوَ أَيْضًا يَنْتَفِعُ بِمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَإِنَّهُ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»(١).

وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الدَّاعِي إِلَى مَا تَفْعَلُهُ أُمَّتُهُ مِنَ الْخَيْرَاتِ، فَمَا يَفْعَلُونَهُ لَهُ فِيهِ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِهِمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا.

الشَّرح

قوله: (فَالرَّسُولُ أَوْلَى بِذَلِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...). الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يسأل ربه عَزَّ وَجَلَّ، ويستغني عن المخلوقين، وإنما الصحابة هم الذين يبذلون له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أموالهم ما ينفقه في سبيل الله للمحتاجين، فهم

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٢٤).

يعطونه لا لأن يتموله أو يختص به، وإنما لأجل أن ينفقه في النوائب التي تنوبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (**مَفْسَدَةُ الافْتِقَارِ إِلَى غَيْرِ اللهِ، وَهِيَ مِنْ نَوْعِ الشِّرْكِ**). لكنه شرك أصغر.

قوله: (**وَمَفْسَدَةُ إِيذَاءِ المَسْؤُولِ، وَهِيَ مِنْ نَوْعِ ظُلْمِ الخَلْقِ**). كذلك المسؤول يتأذى بسؤال السائل، ويثقل عليه ذلك، وهذه طبيعة الإنسان أنه يكره أنه يُسأل شيئًا من ماله.

قوله: (**وَفِيهِ ذُلٌّ لِغَيْرِ اللهِ، وهُوَ ظُلْمُ النَّفْسِ**). فهذه ثلاث مفاسد: الافتقار لغير الله، وإيذاء المسؤول، وإذلال السائل نفسه لغير الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (**فَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى أَنْوَاعِ الظُّلْمِ الثَّلَاثَةِ**). ظلم الشرك، وظلم النفس، وظلم الغير، هذه أنواع الظلم.

قوله: (**وَقَدْ نَزَّهَ اللهُ رَسُولَهُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ**). فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يسأل الناس مطلقًا، ما كان يسألهم أموالهم، وإنما هم الذين كانوا يبذلون ذلك له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأجل صرفه في النوائب، والدعوة إلى الله.

قوله: (**وَحَيْثُ أَمَرَ الْأُمَّةَ بِالدُّعَاءِ لَهُ فَذَاكَ مِنْ بَابِ أَمْرِهِمْ بِمَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ**). النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد يأمر الناس أن يدعوا له، كما في حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ،**

وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»(١)، فأمرهم أن يسألوا له الوسيلة بعد الأذان، وأمرهم أن يصلوا ويسلموا عليه، وهذا نفعه عائد إلى الناس؛ لأن الله يكتب لهم الأجر والثواب بذلك، وقد أشار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن الفائدة لسائل الوسيلة أن تحل له شفاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة، فعاد النفع على السائل، لا إلى المسؤول، وكذلك من صلى عليه واحدة صلى الله عليه بها عشرًا، فعاد النفع على السائل.

قوله: **(وَإِنْ كَانَ هُوَ يَنْتَفِعُ بِدُعَائِهِمْ لَهُ فَهُوَ أَيْضًا يَنْتَفِعُ بِمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَمُحَمَّدٌ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **هُوَ الدَّاعِي إِلَى مَا تَفْعَلُهُ أُمَّتُهُ مِنَ الخَيْرَاتِ)**. كل ما يفعله المسلم من العبادات والخيرات، فإن للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل أجره؛ لأنه دل أمته على ذلك ودعا إليه، وقد جاء في الحديث: **«مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ»**. فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له مثل أجور أمته كلهم؛ لأنه هو الذي دلهم على عبادة الله، وفعل الطاعات، **«مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»**، فأجورهم موفاة، ولكن له مثل ذلك زيادة على أجورهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨٤).

وَلِهَذَا لَمْ تَجْرِ عَادَةُ السَّلَفِ بِأَنْ يُهْدُوا إِلَيْهِ ثَوَابَ الْأَعْمَالِ؛ لِأَنَّ لَهُ مِثْلَ ثَوَابِ أَعْمَالِهِمْ بِدُونِ الْإِهْدَاءِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ ثَوَابِهِمْ شَيْئًا، وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْأَبَوَانِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَا يَفْعَلُهُ الْوَلَدُ يَكُونُ لِلْوَالِدِ مِثْلُ أَجْرِهِ، وَإِنَّمَا يَنْتَفِعُ الْوَالِدُ بِدُعَاءِ الْوَلَدِ وَنَحْوِهِ مِمَّا يَعُودُ نَفْعُهُ إِلَى الْأَبِ، كَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، وَعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(١).

فَالنَّبِيُّ ﷺ فِيمَا يَطْلُبُهُ مِنْ أُمَّتِهِ مِنَ الدُّعَاءِ طَلَبُهُ طَلَبُ أَمْرٍ وَتَرْغِيبٍ لَيْسَ بِطَلَبِ سُؤَالٍ.

فَمِنْ ذَلِكَ: أَمْرُهُ لَنَا بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ، فَهَذَا قَدْ أَمَرَ اللهُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦]، وَالْأَحَادِيثُ عَنْهُ فِي الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ مَعْرُوفَةٌ، وَمِنْ ذَلِكَ أَمْرُهُ بِطَلَبِ الْوَسِيلَةِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا دَرَجَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا ذَلِكَ الْعَبْدُ، فَمَنْ سَأَلَ اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٨).
(٢) تقدم تخريجه قريبًا.

الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَالدَّرَجَةَ الرَّفِيعَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ المِيعَادِ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

فَقَدْ رَغَّبَ المُسْلِمِينَ فِي أَنْ يَسْأَلُوا اللهَ لَهُ الْوَسِيلَةَ، وَبَيَّنَ أَنَّ مَنْ سَأَلَهَا لَهُ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا أَنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ مَرَّةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا، فَإِنَّ الجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ.

الشَّرْح

قوله: (وَلِهَذَا لَمْ تَجْرِ عَادَةُ السَّلَفِ بِأَنْ يُهْدُوا إِلَيْهِ ثَوَابَ الْأَعْمَالِ؛ لِأَنَّ لَهُ مِثْلَ ثَوَابِ أَعْمَالِهِمْ بِدُونِ الْإِهْدَاءِ). السلف لم يكونوا يهدون إلى الرسول ثواب أعمالهم كما يهدونه لغير الرسول، فقد كانوا يحجون عن الميت، ويتصدقون عن الميت، ولم يرد أن أحدًا منهم حجَّ أو اعتمر أو تصدق عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يرد أن أحدًا منهم وقف وقفًا، وقال: هذا أجره للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو بنى مسجدًا وقال هذا: أجره للرسول؛ لعلمهم أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يشرع لهم ذلك، وأن له من الأجر مثل أجور أهل الطاعات، فلا حاجة إلى الإهداء.

قوله: (وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْأَبَوَانِ). الأبوان ليسا مثل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم بحاجة إلى بر أولادهم، ولذلك يبر الولد أبويه بعد موتهما بالصدقة عنهما، والحج والعمرة عنهما، والدعاء لهما.

(١) أخرجه البخاري (٦١٤).

قوله: (**فَإِنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَا يَفْعَلُهُ الْوَلَدُ يَكُونُ لِلْوَالِدِ مِثْلُ أَجْرِهِ**). إلا إذا كان الوالد قد أمر ولده بذلك في حياته، ورباه على الخير، وعلمه، وحفظه القرآن، فإنه يكون له مثل أجر ولده، أما ما فعله الولد دون أن يكون الوالد تسبب فيه، فليس للوالد منه شيء، ولذلك يستحب للولد بأن يهدي ثوابه لوالده.

قوله ﷺ: «**إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، وَعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**». دل على أن دعاء الولد يصل إلى الوالد وينتفع به بعد موته.

قوله: (**فَالنَّبِيُّ ﷺ فِيمَا يَطْلُبُهُ مِنْ أُمَّتِهِ مِنَ الدُّعَاءِ طَلَبُهُ طَلَبُ أَمْرٍ وَتَرْغِيبٍ لَيْسَ بِطَلَبِ سُؤَالٍ**). مثل: (**اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ**)، هذا دعاء للرسول ﷺ، لكن نفعه يعود إلى الداعي.

قوله: (**فَمِنْ ذَلِكَ: أَمْرُهُ لَنَا بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ**). لأن من صلى عليه واحدة صلى الله عليه بها عشرًا، فهذا يؤجر عليه المصلي على الرسول ﷺ المرة بعشر مرات. قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب:٥٦]، فمن حقوقه ﷺ: أن نصلي ونسلم عليه عند ذكره، وفي المواطن التي شُرعت الصلاة والسلام عليه فيها، والأجر في ذلك عائد إلينا.

قوله: (وَالْأَحَادِيثُ عَنْهُ فِي الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ مَعْرُوفَةٌ). أي: في الترغيب فيها، وقد أُلفت كتب في الصلاة والسلام على الرسول، وفضلها وأحكامها، مثل كتاب «الشفا في حقوق المصطفى» للقاضي عياض[1]، ومثل ما ألفه ابن القيم في الصلاة والسلام على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغيره من الكتب المؤلفة في هذا.

قوله: (وَمِنْ ذَلِكَ أَمْرُهُ بِطَلَبِ الْوَسِيلَةِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو...). بعد الأذان أول شيء يُشرع لنا متابعة المؤذن بأن نقول مثل ما يقول المؤذن بألفاظ الأذان ما عدا الحيعلتين: «حي على الصلاة»، «حي على الفلاح»، فإننا لا نقول مثلها، وإنما نقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، ثم بعد الأذان نصلي، ونسلم على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم ندعو له بطلب الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود، فإن من فعل ذلك حلت له شفاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ)** هي الأذان؛ لأن الأذان دعوة، **(وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ)** أي: التي ستقام بعد الأذان، **(وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ)** ذلك في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]، هذا وعد من الله جَلَّ وَعَلَا، والمقام المحمود: الشفاعة العظمى للخلائق يوم القيامة.

---

(١) هو: عياض بن موسى بن عياض، أبو الفضل اليحصبي السبتي، أخذ عن ابن حمدين، وابن سكرة، وأبي الحسين بن سراج، وخلق، له: الشفاء في شرف المصطفى، وترتيب المدارك، ومشارق الأنوار، وغيرها، توفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة. ينظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٢١٣)، ووفيات الأعيان (٣/ ٤٨٣).

قوله: (فَإِنَّ الجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ). العمل: الصلاة على الرسول، وسؤال الوسيلة يعود على السائل أجرًا كثيرًا، فله في ذلك نفع عظيم، وهو عمل يعمله الإنسان.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ مَاجَه: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْعُمْرَةِ فَأَذِنَ لَهُ ثُمَّ قَالَ: «وَلا تَنْسَنَا يَا أَخِي مِنْ دُعَائِكَ»(١).

فَطَلَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عُمَرَ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ كَطَلَبِهِ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ وَيُسَلِّمَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُسْأَلَ اللهُ لَهُ الْوَسِيلَةَ وَالدَّرَجَةَ الرَّفِيعَةَ، وَهُوَ كَطَلَبِهِ أَنْ يَعْمَلَ سَائِرَ الصَّالِحَاتِ، فَمَقْصُودُهُ نَفْعُ المَطْلُوبِ مِنْهُ وَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِ، وَهُوَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْضًا يَنْتَفِعُ بِتَعْلِيمِهِمُ الخَيْرَ وَأَمْرِهِمْ بِهِ، وَيَنْتَفِعُ أَيْضًا بِالخَيْرِ الَّذِي يَفْعَلُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَمِنْ دُعَائِهِمْ لَهُ.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُ الْقَائِلِ: إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ». قَالَ: الرُّبُعُ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قَالَ: النِّصْفُ؟ قَال: «مَا شِئْتَ، وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قَالَ: الثُّلُثَيْنِ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، وَإِذَا زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قَالَ: أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا. قَالَ: «إِذًا تُكْفَى هَمُّكَ وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ». رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمَا(٢).

وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي «جَوَابِ المَسَائِلِ الْبُغْدَادِيَّةِ». فَإِنَّ هَذَا كَانَ لَهُ دُعَاءٌ يَدْعُو بِهِ، فَإِذَا جَعَلَ مَكَانَ دُعَائِهِ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَفَاهُ اللهُ مَا أَهَمَّهُ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، فَإِنَّهُ كَمَا صَلَّى عَلَيْهِ مَرَّةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا، وَهُوَ لَوْ دَعَا

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٥)، وأبو داود (١٤٩٨)، والترمذي (٣٥٦٢)، وابن ماجه (٢٨٩٤).

(٢) أخرجه أحمد (٣٥/ ١٦٦) مختصرًا، والترمذي (٢٤٥٧) واللفظ له.

لِآحَادِ الْمُؤْمِنِينَ لَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: «آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ»[(١)]. فَدُعَاؤُهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْلَى بِذَلِكَ.

وَمَنْ قَالَ لِغَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ: ادْعُ لِي أَوْ لَنَا، وَقَصْدُهُ أَنْ يَنْتَفِعَ ذَلِكَ الْمَأْمُورُ بِالدُّعَاءِ وَيَنْتَفِعَ هُوَ أَيْضًا بِأَمْرِهِ، وَبِفِعْلِ ذَلِكَ الْمَأْمُورِ بِهِ، كَمَا يَأْمُرُهُ بِسَائِرِ فِعْلِ الْخَيْرِ، فَهُوَ مُقْتَدٍ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُؤْتَمٌّ بِهِ، لَيْسَ هَذَا مِنَ السُّؤَالِ الْمَرْجُوحِ.

الشَّرْح

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَا تَنْسَنَا يَا أَخِي مِنْ دُعَائِكَ**». هذا -أيضًا- من هذا الباب أن الرسول طلب من عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الدعاء؛ لأجل أن ينال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الأجر بذلك، وأيضًا: هذا تشريف لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولهذا فرح عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذا، ويُعد من مناقبه أن الرسول طلب منه أن يدعو له.

قوله: (**فَطَلَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عُمَرَ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ كَطَلَبِهِ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ وَيُسَلِّمَ عَلَيْهِ، فَمَقْصُودُهُ نَفْعُ الْمَطْلُوبِ مِنْهُ وَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِ**). لأن طلبه من عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليس لحاجة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ذلك، وإنما هو من جنس طلب الصلاة والسلام عليه، وسؤال الوسيلة والفضيلة له، ومقصوده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك نفع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والإحسان إليه؛ لينال بذلك الفضل والأجر.

قوله: (**وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْضًا يَنْتَفِعُ بِتَعْلِيمِهِمُ الْخَيْرَ وَأَمْرِهِمْ بِهِ**). فيعود عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأجر مثل أجورهم؛ لأنه هو الذي علمهم الخير، حتى

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٠٣).

وإن لم يدعوا للرسول، ولم يسألوا له شيئًا، فإنه يحصل له من الأجر مثل أجورهم.

قوله: (وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُ الْقَائِلِ: إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ...). ذكر أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يكثر من الصلاة عليه، ثم سأله: كم يجعل له من صلاته عليه؛ ربعها أو ثلثها أو نصفها أو كلها؟ فأرشده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن يجعل كل صلاته للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي: كل دعائه؛ لينال بذلك الأجر العظيم لنفسه.

وقوله: «أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا» المراد به: الدعاء.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ»** فيه فضل الإكثار من الصلاة والسلام على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن الله يكفيه همه، ويعظم له أجره.

قوله: (وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي «جَوَابِ الْمَسَائِلِ الْبُغْدَادِيَّةِ»). الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كان يعنون رسائله بأسماء السائلين أحيانًا وأحيانًا بأسماء المواطن التي جاءت منها الأسئلة، مثل: «الحموية»؛ لأن السائل من أهل حماة، و»التدمرية»؛ لأن السائل من أهل تدمر، و»الواسطية»؛ لأن السائل من أهل واسط بالعراق، ومن ذلك: «المسائل البغدادية»؛ لأن السائل من أهل بغداد.

قوله: (فَإِنَّ هَذَا كَانَ لَهُ دُعَاءً يَدْعُو بِهِ ...). كان أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدعو الله كثيرًا بحوائجه، ويصلي على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسأله هل يجعل محل دعائه كله صلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويكتفي بذلك؟ فأرشده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن يجعل بدل دعائه صلاة وسلامًا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (**فَإِنَّهُ كَمَا صَلَّى عَلَيْهِ مَرَّةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا**). لأن الحسنة بعشر أمثالها.

قوله: (**وَهُوَ لَوْ دَعَا لِآحَادِ الْمُؤْمِنِينَ لَقَالَتِ المَلَائِكَةُ: «آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ»، فَدُعَاؤُهُ لِلنَّبِيِّ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أَوْلَى بِذَلِكَ**). إذا دعا المسلم لأحد من إخوانه المسلمين أمنت الملائكة على دعائه، وقالت: «ولك بمثل»، أي: لك من الأجر والخير مثل ما دعوت به لأخيك، وكُتب له من الأجر والنفع مثل ما يحصل للمدعو له، فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولى بأن جعل كل دعائه صلاة وسلامًا عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن يلاحظ أن تكون الصلاة والسلام عليه بالألفاظ الشرعية، لا بالألفاظ البدعية التي يفعلها الصوفية والمبتدعة، كالاستغاثة به وطلب الحوائج منه، فهذا شرك بالله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله: (**وَقَصْدُهُ أَنْ يَنْتَفِعَ ذَلِكَ المَأْمُورُ بِالدُّعَاءِ وَيَنْتَفِعَ هُوَ أَيْضًا بِأَمْرِهِ**). كما في الحديث: «**مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ إِلَّا وَكَّلَ اللهُ بِهِ مَلَكًا كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِدَعْوَةٍ، قَالَ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ**»، فإذا كان قصد الطالب للدعاء من غيره هذا المعنى، فهذا لاشك أنه عمل جليل، وفيه نفع له ونفع للداعي.

وَأَمَّا إِنْ لَمْ يَكُنْ مَقْصُودُهُ إِلَّا طَلَبَ حَاجَتِهِ لَمْ يَقْصِدْ نَفْعَ ذَلِكَ وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِ، فَهَذَا لَيْسَ مِنَ الْمُقْتَدِينَ بِالرَّسُولِ الْمُؤْتَمِّينَ بِهِ فِي ذَلِكَ، بَلْ هَذَا هُوَ مِنَ السُّؤَالِ الْمَرْجُوحِ الَّذِي تَرْكُهُ إِلَى الرَّغْبَةِ إِلَى اللهِ وَسُؤَالُهُ، أَفْضَلُ مِنَ الرَّغْبَةِ إِلَى الْمَخْلُوقِ وَسُؤَالِهِ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ سُؤَالِ الْأَحْيَاءِ السُّؤَالَ الْجَائِزَ الْمَشْرُوعَ.

وَأَمَّا سُؤَالُ الْمَيِّتِ فَلَيْسَ بِمَشْرُوعٍ وَلَا وَاجِبٍ وَلَا مُسْتَحَبٍّ بَلَ وَلَا مُبَاحٍ، وَلَمْ يَفْعَلْ هَذَا قَطُّ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا اسْتَحَبَّ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ فِيهِ مَفْسَدَةٌ رَاجِحَةٌ وَلَيْسَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ، وَالشَّرِيعَةُ إِنَّمَا تَأْمُرُ بِالْمَصَالِحِ الْخَالِصَةِ أَوِ الرَّاجِحَةِ، وَهَذَا لَيْسَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ، بَلْ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَفْسَدَةً مَحْضَةً أَوْ مَفْسَدَةً رَاجِحَةً، وَكِلَاهُمَا غَيْرُ مَشْرُوعٍ.

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ مَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ طَلَبِ الدُّعَاءِ مِنْ غَيْرِهِ هُوَ مِنْ بَابِ الْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي هُوَ وَاجِبٌ أَوْ مُسْتَحَبٌّ.

الشَّرْح

قوله: (وَأَمَّا إِنْ لَمْ يَكُنْ مَقْصُودُهُ إِلَّا طَلَبَ حَاجَتِهِ لَمْ يَقْصِدْ نَفْعَ ذَلِكَ وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِ). إذا قال له: ادع لي. فإن كان قصده أن ينتفع الداعي بما أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا مقصد عظيم:

أولًا: أمره بالدعاء، والدعاء عبادة.

ثانيًا: قصد نفعه بهذا، وأن تؤمن الملائكة على دعائه، وأن تقول له: لك من الأجر بمثله. أما إذا اقتصر على نفسه، وقال: ادع لي. يقصد النفع

لنفسه فقط، فهذا قصور، وتحجر للخير، والرسول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يقصد هذا في قوله لعمر: «**وَلَا تَنْسَنَا يَا أَخِي مِنْ دُعَائِكَ**». لم يقصد قصر النفع على نفسه، وإنما قصد النفع لعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قوله: (**فَهَذَا لَيْسَ مِنَ الْمُقْتَدِينَ بِالرَّسُولِ الْمُؤْتَمِّينَ بِهِ فِي ذَلِكَ**). فمن طلب الدعاء من غيره، وقال: ادعُ لي. وهو لا يقصد إلا نفع نفسه فقط، فهذا ناقص، وفيه حاجة للمخلوق -كما سبق- فإذا استدل بقول الرسول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**وَلَا تَنْسَنَا يَا أَخِي مِنْ دُعَائِكَ**» لم يكن هذا دليلًا له؛ لأن الرسول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يقصد قصر النفع على نفسه فقط، وإنما قصد أن ينتفع عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بذلك الدعاء.

قوله: (**وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ سُؤَالِ الْأَحْيَاءِ السُّؤَالَ الْجَائِزَ الْمَشْرُوعَ، وَأَمَّا سُؤَالُ الْمَيِّتِ فَلَيْسَ بِمَشْرُوعٍ وَلَا وَاجِبٍ وَلَا مُسْتَحَبٍّ بَلَ وَلَا مُبَاحٍ**). هذا التفصيل الذي مر وأطال فيه الشيخ كله في طلب الدعاء من الحي الحاضر، أما طلب الدعاء من الأموات، فهو محرم؛ لأنه شرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (**وَلَمْ يَفْعَلْ هَذَا قَطُّ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ**). لم يكونوا يأتون إلى القبور ليطلبوا من أصحابها أن يدعوا ويستغفروا لهم، بل كانوا يأتون إلى القبور ليدعوا لأصحابها، ويستغفروا لأصحابها، لا أن يطلبوا من الأموات الاستغفار والدعاء، حتى مع أفضل الخلق محمد صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يكونوا يأتون إلى قبره، ويقولون: يا رسول الله ادعُ لنا، استغفر لنا، لم يكونوا يفعلون هذا؛ لعلمهم أن هذا لا يجوز، وأنه شرك بالله عَزَّوَجَلَّ، مع أنهم كانوا يطلبون من الرسول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قبل موته الدعاء لهم بالسقيا، وغير ذلك من

أمورهم، فلما مات توقفوا، فدل هذا على أنه لا يجوز أن يُطلب من الميت شيء أبدًا؛ لأنه قد انقطع عمله؛ كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ**»[١]. وهذا يشمل كل بني آدم، وفيهم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- انقطع عملهم، ومنه الدعاء والاستغفار لأنفسهم أو لغيرهم.

وأما الذين يشبهون على الناس بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤]. فهذا من تلبيس على الناس؛ لأن الآية ليست عامة للحياة والموت، وإنما هي خاصة بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حال حياته، فلو أنهم جاؤوا إليه في حياته واستغفروا عنده وطلبوا منه الاستغفار لهم لغفر الله لهم، والآية لا تشمل المجيء إليه بعد موته؛ لأن في قوله تعالى: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، «إذ» لِمَا مضى من الزمان عند النحويين، أما «إذا»، فهي للمستقبل.

فهؤلاء يلبسون على الناس بهذه الآية، ويقولون: لا فرق بين الحياة والموت. وهذه مغالطة، بل هناك فروق كبيرة بين الحياة والموت.

قوله: (وَلَا اسْتَحَبَّ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ). لم يستحب أحد من السلف أن يطلب من الأموات الدعاء والاستغفار.

قوله: (لِأَنَّ ذَلِكَ فِيهِ مَفْسَدَةٌ رَاجِحَةٌ وَلَيْسَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ). ليس فيه مصلحة راجحة، وإنما فيه مفسدة راجحة، أو خالصة؛ لأن الميت لا يقدر

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٨).

على الدعاء، ولا يقدر على الاستغفار؛ لانقطاع عمله، فلا يُطلب منه شيء لا يقدر عليه.

قوله: **(وَالشَّرِيعَةُ إِنَّمَا تَأْمُرُ بِالمَصَالِحِ الخَالِصَةِ أَوِ الرَّاجِحَةِ)**. هذه هي القاعدة: أن الشرع إنما يأمر بما مصلحته خالصة أو راجحة، أما إذا كانت المصلحة مرجوحة، أو ليس فيه مصلحة أصلًا، فهذا ممنوع.

قوله: **(إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَفْسَدَةً مَحْضَةً أَوْ مَفْسَدَةً رَاجِحَةً)**. محضة: أي خالصة، أو فيه نفع وخير لكن شره أكثر من خيره، فهذا غير مشروع؛ كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩]، فلما قال: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ دل على تحريمهما إلى أن جاء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة:٩٠]، فانقطع ما فيهما من النفع أصلًا، وصار ضررًا محضًا.

قوله: **(فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ مَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ طَلَبِ الدُّعَاءِ مِنْ غَيْرِهِ هُوَ مِنْ بَابِ الْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي هُوَ وَاجِبٌ أَوْ مُسْتَحَبٌّ)**. ولم يأمره لحاجته ﷺ إلى ذلك، وإنما هو من باب الإحسان، من ذلك قوله:«**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ**». وقوله: «**سَلُوا اللهَ لِيَّ الْوَسِيلَةَ**». وقوله لعمر: «**لَا تَنْسَنَا مِنْ صَالِحِ دُعَائِكَ**». إنما قصده في ذلك كله نفع الناس بذلك.

وَكَذَلِكَ مَا أَمَرَ بِهِ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَى الجَنَائِزِ، وَمِنْ زِيَارَةِ قُبُورِ المُؤْمِنِينَ، وَالسَّلَامِ عَلَيْهِمْ، وَالدُّعَاءِ لَهُمْ، هُوَ مِنْ بَابِ الْإِحْسَانِ إِلَى المَوْتَى الَّذِي هُوَ وَاجِبٌ أَوْ مُسْتَحَبٌّ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ المُسْلِمِينَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَالصَّلَاةُ حَقُّ الحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالزَّكَاةُ حَقُّ الخَلْقِ.

الشَّرح

قوله: (**وَكَذَلِكَ مَا أَمَرَ بِهِ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَى الجَنَائِزِ**). لأن القصد من الصلاة على الميت نفع الميت والشفاعة له عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والمصلي يؤجر على نفع أخيه الميت، فيجتمع فيها انتفاع الحي، وانتفاع الميت بالصلاة على الجنازة.

قوله: (**وَمِنْ زِيَارَةِ قُبُورِ المُؤْمِنِينَ**). وكذلك زيارة قبر المسلم فيها نفس المنفعتين: منفعة الحي بالاعتبار والاتعاظ ونيل أجر الزيارة، ونفع الميت بالدعاء له والاستغفار له، لا أنه يزور الميت ليطلب من الميت حاجته، أو أن يطلب منه أن يستغفر له أو يدعُو له، فهذه زيارة شركية وليست شرعية، وهي التي عليها القبوريون اليوم، فهم يشيدون القبور ويبنون عليها، ويجعلونها أوثانًا تُعبد من دون الله، فيذبحون لها، وينذرون لها، ويطوفون ويتبركون بها، فهذه عبادة للأموات والعياذ بالله، هم يسمونها زيارة، ويقولون: الرسول أمر بزيارة القبور. ويلبسون على الناس والعوام، لكنها زيارة غير شرعية، بل هي زيارة شركية، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن الشرك بالله.

قوله: (فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ المُسْلِمِينَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ). الله جَلَّ وَعَلَا أمر بالصلاة والزكاة، والصلاة حق لله جَلَّ وَعَلَا، أما الزكاة فهي حق للمخلوق الفقير والمسكين، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج:٢٤-٢٥]، فهي حق للمخلوقين، وهي -أيضًا- عبادة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الإحسان للمخلوقين عبادة لله.

فَالرَّسُولُ أَمَرَ النَّاسَ بِالْقِيَامِ بِحُقُوقِ اللهِ وَحُقُوقِ عِبَادِهِ بِأَنْ يَعْبُدُوا اللهَ لَايُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَمِنْ عِبَادَتِهِ الْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ حَيْثُ أَمَرَهُمُ اللهُ سُبْحَانُهُ بِهِ، كَالصَّلَاةِ عَلَى الجَنَائِزِ، وَكَزِيَارَةِ قُبُورِ الْمُؤْمِنِينَ، فَاسْتَحْوَذَ الشَّيْطَانُ عَلَى أَتْبَاعِهِ، فَجَعَلَ قَصْدَهُمْ بِذَلِكَ الشِّرْكَ بِالخَالِقِ وَإِيذَاءَ المَخْلُوقِ، فَإِنَّهُمْ إِذَا كَانُوا إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِزِيَارَةِ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ سُؤَالَهُمْ أَوِ السُّؤَالَ عِنْدَهُمْ أَوْ بِهِمْ، لَايَقْصِدُونَ السَّلَامَ عَلَيْهِمْ وَلَا الدُّعَاءَ لَهُمْ كَمَا يُقْصَدُ بِالصَّلَاةِ عَلَى الجَنَائِزِ كَانُوا بِذَلِكَ مُشْرِكِينَ، وَكَانُوا مُؤْذِينَ ظَالِمِينَ لِمَنْ يَسْأَلُونَهُ، وَكَانُوا ظَالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ، فَجَمَعُوا بَيْنَ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ الثَّلَاثَةِ.

فَالَّذِي شَرَعَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ تَوْحِيدٌ وَعَدْلٌ وَإِحْسَانٌ وَإِخْلَاصٌ وَصَلَاحٌ لِلْعِبَادِ فِي المَعَاشِ وَالمَعَادِ.

الشرح

قوله: (فَالرَّسُولُ أَمَرَ النَّاسَ بِالْقِيَامِ بِحُقُوقِ اللهِ وَحُقُوقِ عِبَادِهِ). الله جَلَّ وَعَلَا أمر بحقوقه وحقوق عباده، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٣٦]، عشرة حقوق في هذه الآية:

أولها: حق الله، وهو عبادته وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه.

والثاني: حق الوالدين، ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ إلى آخر الحقوق العشرة المذكورة في هذه الآية، فأمر سبحانه بإيتاء هذه الحقوق لمستحقيها، وحق الله

جَلَّوَعَلَا عبادته وحده لا شريك له؛ كما في الحديث: «**أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»(١).

ولهذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢):

حَقُّ الْإِلَهِ عِبَادَةٌ بِالْأَمْرِ لا بِهَوَى النُّفُوسِ فَذَاكَ لِلشَّيْطَانِ

قوله: «**عِبَادَةٌ بِالْأَمْرِ**» أي: بالشرع، فعبادة الله لا تكون إلا بما شرعه الله، لا بما ابتدعه الناس واخترعوه، ويسمونه عبادة، وما هو إلا بدعة.

قوله: (**فَاسْتَحْوَذَ الشَّيْطَانُ عَلَى أَتْبَاعِهِ، فَجَعَلَ قَصْدَهُمْ بِذَلِكَ الشِّرْكَ بِالْخَالِقِ وَإِيذَاءَ الْمَخْلُوقِ**). استحوذ عليهم الشيطان، فعكس عليهم الأمر، فجعل زيارة القبور من أجل الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ وإيذاء المقبور؛ لأن المقبور يتأذى بما يفعل عند قبره من الشرك بالله وعبادة غير الله.

قوله: (**فَإِنَّهُمْ إِذَا كَانُوا إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِزِيَارَةِ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ سُؤَالَهُمْ أَوِ السُّؤَالَ عِنْدَهُمْ أَوْ بِهِمْ**). سؤالهم بأن يطلب من الميت أن يفرج همومه، ويقضي حوائجه ونحو ذلك، وهذا شرك أكبر صريح، أو أن يسأل الله عند القبر، وهذا ليس محل دعاء، ولا هو محل صلاة ولا صدقة، فعبادة الله عند القبر وسيلة إلى الشرك، فإذا صلى لله عند القبر فقد أتى بدعة؛ لأن الصلاة عند القبر وسيلة إلى الشرك، فإن قال: أنا لم أصلِّ إلا لله. نقول: الله لم يأمرك أن تصلي عند القبور، وإنما أمرك أن تصلي في أرض الله الواسعة، إما في المساجد، وإما في البراري، أما القبور فليست مساجد، وقد لعن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من

(١) تقدم تخريجه (ص٢١٤).
(٢) انظر: نونية ابن القيم (ص٢٥٠).

اتخذ القبور مساجد[1]، فليست القبور محل عبادة؛ لا بالصدقة، ولا بالصلاة، ولا بالدعاء، ولا بالذبح، ولا بالنذر، ولا بغير ذلك.

قوله: (**لَا يَقْصِدُونَ السَّلَامَ عَلَيْهِمْ وَلَا الدُّعَاءَ لَهُمْ**). إذا كانوا يزورون القبور لا للعبادة، وإنما يزورنها للنزهة أو للتفرج، أو غير ذلك، فهذه زيارة غير مشروعة؛ لأن الزيارة المطلوب منها أمران:

الأول: الاعتبار والاتعاظ، والخوف من الله، واستحضار الموت.

الثاني: نفع الميت بالدعاء، والاستغفار له، والترحم عليه.

وما خلت من هذين القصدين، فهي زيارة شركية، أو بدعية، فتكون شركية إذا طلب من الميت قضاء حوائجه، وتكون بدعية إذا طلب من الله عند القبر قضاء حوائجه، ويظن أن هذا أقرب للإجابة.

أو تكون غير مشروعة إذا كان فيها أذية، كالذين يزورون القبور للتفرج فقط، ومشاهدة ما على القبور من المباني، وغير ذلك، لا من أجل الإنكار، ولا من أجل البيان للناس، وإنما يقولون: هذه حضارة، ونحو ذلك. فهذا لا يجوز.

قوله: (**كَانُوا بِذَلِكَ مُشْرِكِينَ**) أي: مشركين بالله (**وَكَانُوا مُؤْذِينَ ظَالِمِينَ لِمَنْ يَسْأَلُونَهُ**). إذا فعلوا ذلك فقد آذوا الأموات وظلموهم؛ لأن الأموات الصالحين لا يرضون بذلك، بل كانوا ينكرونه يوم كانوا على قيد الحياة، ويجاهدون أصحابه، هكذا كان الأنبياء وأتباعهم يجاهدون المشركين،

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٣٩).

ولا يرضون بهذا، فهم يتأذون بما يُفعل عند قبورهم بما يخالف ما جاؤوا به من الدعوة إلى التوحيد، والنهي عن الشرك.

قوله: (وَكَانُوا ظَالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ). لأنهم أوقعوا أنفسهم في المعاصي، والشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، فهو ظالم لنفسه، بمعنى أنه أوقعها في العذاب والمحظور والبدعة.

قوله: (فَجَمَعُوا بَيْنَ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ الثَّلَاثَةِ). وهي: ظلم الشرك، وظلم العباد، وظلم النفس.

قوله: (فَالَّذِي شَرَعَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ تَوْحِيدٌ وَعَدْلٌ وَإِحْسَانٌ وَإِخْلَاصٌ). الذي شرعه الله عمومًا، وفي زيارة القبور خصوصًا عدل منه سبحانه، وفيه المصلحة الخالصة. **(تَوْحِيدٌ وَعَدْلٌ)** لا شرك ولا ظلم، وهؤلاء ظلموا أنواع الظلم الثلاثة: فخالفوا العدل، وأشركوا بالله ، **(وَإِحْسَانٌ)** إلى الميت، وهؤلاء أساؤوا إلى الميت ولم ينفعوه بشيء، **(وَإِخْلَاصٌ)** لله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (وَصَلَاحٌ لِلْعِبَادِ فِي المَعَاشِ وَالمَعَادِ). أي: صلاح للعباد في الدنيا والآخرة، فيتذكر الزائر الآخرة، ويرجع تائبًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وينال الأجر بزيارة أخيه والدعاء له.

وَمَا لَمْ يُشَرِّعْهُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْمُبْتَدَعَةِ فِيهِ شِرْكٌ وَظُلْمٌ وَإِسَاءَةٌ وَفَسَادُ الْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِعِبَادَتِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى عِبَادِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء:٣٦]، وَهَذَا أَمْرٌ بِمَعَالِي الْأَخْلَاقِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ وَيَكْرَهُ سِفْسَافَهَا(١).

الشَّرْح

قوله: (وَمَا لَمْ يُشَرِّعْهُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْمُبْتَدَعَةِ فِيهِ شِرْكٌ وَظُلْمٌ).

ما لم يشرعه الله فهو شرك وظلم، ولا يُقال: إن قصد صاحبه طيب، وهو يريد الخير. لأن النية لا تكفي، بل لابد أن يكون العمل موافقًا للشرع، وإلا كان بدعة، وكل بدعة ضلالة، قصدها أو لم يقصدها، فنحن لا ننظر إلى المقاصد والقلوب، وإنما ننظر إلى ما يوافق الشرع، فما وافق الشرع فهو توحيد وعدل، وما خالف الشرع فهو شرك وبدعة، هذا هو الميزان.

قوله: (وَإِسَاءَةٌ وَفَسَادُ الْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ). فيه نشر الشرك، وإفساد العقيدة، وغير ذلك من المحاذير، ففيه هدم للدعوة، وإعادة للشرك

---

(١) كما في حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ **كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ، وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا**». أخرجه الطبراني في الكبير (٥٩٢٨)، والحاكم (١/ ١١١)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٣٢٢).

والسفساف: الأمر الحقير والرديء من كل شيء، وهو ضد المعالى والمكارم. وأصله ما يطير من غبار الدقيق إذا نخل، والتراب إذا أثير. انظر: المحكم والمحيط الأعظم (٨/ ٤٢١)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٣٧٤)، ولسان العرب (٩/ ١٥٥).

والبدع والمحدثات، والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما جاء لمحو الشرك والبدع والمحدثات.

قوله: (**فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِعِبَادَتِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى عِبَادِهِ**). كما في الآية: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ...﴾، فيحسن إلى الوالدين، والأقارب، والجيران، والأصحاب، حتى المماليك: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ من الأرقاء، وحتى البهائم يحسن إليها.

فالآية فيها إحسان في حق الله جَلَّ وَعَلَا بعبادته، وإحسان للمخلوقين بإعطائهم حقوقهم.

قوله: (**وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ**)، وهي الأخلاق الرفيعة الطيبة (**وَيَكْرَهُ سِفْسَافَهَا**)، وهي الأخلاق الرديئة والرذيلة وما فيه دناءة.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»(١). رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»(٢). وَقَالَ: «الْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُعْطِيَةُ وَالْيَدُ السُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ»(٣)، وَهَذَا ثَابِتٌ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ.

فَأَيْنَ الْإِحْسَانُ إِلَى عِبَادِ اللهِ مِنْ إِيذَائِهِمْ بِالسُّؤَالِ وَالشِّحَاذَةِ لَهُمْ؟

الشَّرْح

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ». هذا حديث ضعيف(٤)؛ ولهذا عبرَّ الشيخ بقوله (رُوِيَ)، وهكذا ينبغي لطالب العلم، فالحديث الضعيف لا يُسند إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سبيل الجزم، وإنما يُقال: رُوي، أو يُروى، أو ورد عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذا وكذا.

(١) أخرجه بهذا اللفظ: البزار (١٥/ ٣٦٤)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٣٢٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه أحمد (١٤/ ٥١٣)، والبخاري في الأدب المفرد (ص١٠٤)، والحاكم (٢/ ٦٧٠) بلفظ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ». قال الحاكم: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ»، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (١٠٣٤) من حديث حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٢٩)، ومسلم (١٠٣٣) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) الرواية الضعيفة أخرجها الطبراني في الأوسط (٧/ ٧٤) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفيها: «إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي بِتَمَامِ مكارمِ الْأَخْلَاقِ». قال الطبراني: (لم يرو هذا الحديث عن يوسف بن محمد إلا عمر بن إبراهيم، تفرد به: صالح بن بشر). قال الألباني في السلسلة الضعيفة (٥/ ١٠٤): (وهذا إسناد ضعيف من أجل يوسف هذا).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى**». هذا ذم للسؤال كما سبق، فاليد السفلى هي الآخذة، وهي يد السائل، سماها سفلى، وسمى المعطية يدًا عليا، فهذا فيه ذم لسؤال الناس.

قوله: (فَأَيْنَ الْإِحْسَانُ إِلَى عِبَادِ اللهِ مِنْ إِيذَائِهِمْ بِالسُّؤَالِ وَالشِّحَاذَةِ لَهُمْ؟). هذا عود على ما سبق من أن سؤال الناس مذموم، وينبغي الاستغناء عنه مهما أمكن، فإن فيه إيذاء للمسؤولين؛ لأنهم يكرهون الذي يأتي ويشحذ، فهم بطبيعتهم يستثقلونه.

والسؤال والشحاذة بمعنى واحد؛ لذا يقولون الشحاذ. أي: السائل. فمهما أمكن أن يستغني الإنسان عن السؤال حتى ولو بالحرف الدنيئة، فلو يكون حجامًا مع أن الحجامة مكروهة؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَسْبُ الْحَجَّامِ خَبِيثٌ**»[1]. أي: رديء، ومع هذا عمل الحجام أحسن من الشحاذة والسؤال؛ لأن الحجامة عمل، ويترفع به المسلم عن الحاجة، أما السؤال والشحاذة فذلة، فالحجام والحلاق أحسن حالًا، بل والكساح الذي يكنس الشوارع خير من السائل؛ لأن هذا يستغني بعمله وكسبه، وهذا يذل نفسه للناس.

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٦٨) من حديث رافع بن خديج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَيْنَ التَّوْحِيدُ لِلْخَالِقِ بِالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ وَالرَّجَاءِ لَهُ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالحُبِّ لَهُ مِنَ الْإِشْرَاكِ بِهِ بِالرَّغْبَةِ إِلَى الْمَخْلُوقِ وَالرَّجَاءِ لَهُ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَأَنْ يُحَبَّ كَمَا يُحَبُّ اللهُ؟

وَأَيْنَ صَلَاحُ الْعَبْدِ فِي عُبُودِيَّةِ اللهِ وَالذُّلِّ لَهُ وَالافْتِقَارُ إِلَيْهِ مِنْ فَسَادِهِ فِي عُبُودِيَّةِ الْمَخْلُوقِ وَالذُّلِّ لَهُ وَالافْتِقَارِ إِلَيْهِ؟

فَالرَّسُولُ ﷺ أَمَرَ بِتِلْكَ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ الْفَاضِلَةِ الْمَحْمُودَةِ الَّتِي تُصْلِحُ أُمُورَ أَصْحَابِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

الشَّرْح

قوله: (**وَأَيْنَ التَّوْحِيدُ لِلْخَالِقِ**). أين هذا في الذي يسأل الناس، إن سأل الأموات فهذا شرك، وإن سأل الأحياء فهذا مكروه ومذموم، والواجب على المسلم أن يسأل الله، والله غني كريم، فعلق آمالك بالله، واستغن عن سؤال الناس ولو بالحرف الدنيئة.

قوله: (**وَأَيْنَ صَلَاحُ الْعَبْدِ فِي عُبُودِيَّةِ اللهِ ...**). هذا فيه نوع من العبودية للمخلوق، كونك تخضع له، وتذل نفسك له، وتطلب منه، هذا فيه ذلة، وفيه احتياج إلى المخلوق، والمفروض أنك تتوجه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتعلق قلبك به، وتطلب منه حوائجك، فأنت عبد لله، لا تكن عبدًا للمخلوق، ولهذا يقول الشاعر(١):

---

(١) يُنسب هذا البيت لسنان الحمال، أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (ص٨٥) من طريق محمد ابن الفضل، قال: (سمعت الزبير بن عبد الواحد، قال: سمعت بنان الحمال يقول) وساقه.

الْـعَـبْـدُ حُـرٌّ مَـا قَـنَـعْ وَالْحُـرُّ عَـبْـدٌ مَـا طَـمِـعْ

فإذا طمع الحر صار عبدًا، وإذا قنع العبد صار حرًّا.

قوله: (**فَالرَّسُولُ** ﷺ **أَمَرَ بِتِلْكَ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ الْفَاضِلَةِ الْمَحْمُودَةِ الَّتِي تُصْلِحُ أُمُورَ أَصْحَابِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**). هذه الثلاثة هي:

- دعاء الله سبحانه، والرغبة إليه؛ لأن فيه عبادة لله.
- الترفع عن الذلة.
- كف للأذى للناس، فلا تتعرض لهم وتسألهم تؤذيهم بهذا.

وَنَهَى عَنِ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي تُفْسِدُ أُمُورَ أَصْحَابِهَا، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْمُرُ بِخِلَافِ مَا يَأْمُرُ بِهِ الرَّسُولُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس:٦٠-٦٢]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢].

الشَّرْح

قوله: (**وَنَهَى عَنِ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي تُفْسِدُ أُمُورَ أَصْحَابِهَا**). وهي النظر إلى ما في أيدي الناس، ففيه أذية للناس، وأذية وإذلال للنفس، وفيه أشد من ذلك وهو تعلق القلب بغير الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (**وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْمُرُ بِخِلَافِ مَا يَأْمُرُ بِهِ الرَّسُولُ**). دائمًا وأبدًا الشيطان يأمر بخلاف ما يأمر به الله ورسوله، فيأمر بالشرك، والكفر، والبدع، وقطيعة الأرحام، ويأمر بكل رذيلة، قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٨]، والله لا يأمر بالفحشاء: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٢٩].

والفحشاء المذكورة في الآية هي كشف العورات، فقد كانوا يكشفون عوراتهم في الطواف، ويقولون: إن الله أمرنا بهذا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟

فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف:٢٨]، فكشف العورات، والسفور بالنسبة للنساء، هذا من أمر الشيطان، وهو فحشاء والعياذ بالله، وهذا ليس خاصًّا بالذين يطوفون بالبيت عراة، بل هذا عام لكل من يأمر بالسفور، والعري، والإباحية، والحرية البهيمية، كله يدخل في أمر الشيطان لعنه الله.

يقول الله جَلَّوَعَلَا لأهل النار إذا دخلوا النار -والعياذ بالله-: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾، أي: أوصي إليكم، يُقال: عهد إلى فلان إذا أوصاه، وهذا من باب التوبيخ ﴿أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾، وقد نهيتكم عن ذلك؛ لأنه عدوكم، ولا يريد لكم الخير، وهذه النار التي أنتم فيها من ثمرات طاعة الشيطان الذي أطعتموه، فالشيطان يدعو إلى النار: ﴿يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

وليس من لازم عبادة الشيطان أن يسجد له، ويصلي له، وإنما إذا أطاعه وعصى الله عَزَّوَجَلَّ فقد عبد الشيطان، وامتثل أمر الشيطان، وعصى أمر ربه، هذا الانقياد والطاعة للشيطان نوع من عبادته، فمن أطاع الشيطان فقد عبده، ومن أشرك بالله فقد أطاع الشيطان، ومن ابتدع في دين الله فقد أطاع الشيطان، ومن قطع رحمه وعق والديه فقد أطاع الشيطان، وهكذا. وليست عبادة الشيطان مقصورة على أن يسجد ويركع له، وإنما عبادته في طاعته ومخالفة أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فالإنسان مجبور مفطور على أنه عبد، فإما أن يكون عبدًا لله، فينال بذلك الشرف في الدنيا والآخرة، وإما أن يكون عبدًا للشيطان.

ولهذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ   فَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

قوله: (الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ) هو: عبادة الله جَلَّ وَعَلَا.

وقوله: (فَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ)، أي: صاروا أرقاء مملوكين للنفس وللشيطان والعياذ بالله. فالإنسان عبد مهما كان، إما أن يكون عبدًا لله، وإما أن يكون عبدًا لغيره؛ عبدًا لهواه، عبدًا للشيطان، عبدًا للدنيا وطمعها، عبدًا للنساء، عبدًا للمخلوقين، فلا شك هو عبد على كل حال.

ثم بيَّن جَلَّ وَعَلَا سبب نهيه لهم عن عبادة الشيطان، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، فكيف يعبد الإنسان من هو عدوه ويريد له الهلاك والنار، ويترك عبادة ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي يريد له الخير والنجاة؟ هذا من العجائب، وليست عداوته سهلة، إنما هو ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: واضح العداوة، ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ أي: وعهدت إليكم أن اعبدوني؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١] لعلكم تتقون النار وغضب الله بعبادة الله عَزَّوَجَلَّ وحده لا شريك له، هذا الذي يقي من المكروه.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ عبادة الله صراط مستقيم معتدل يوصل إلى الجنة، وأما عبادة الشيطان فهي سبيل إلى النار وغضب الجبار.

---

(١) انظر: نونية ابن القيم (ص٣٠٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾. لمَّا تعهد الشيطان بعد لعنته وطرده أن يضل بني آدم، وينتقم منهم؛ لأنه ما أصابه هذا إلا بسبب أبيهم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حيث حسده الشيطان، وتكبر عليه، وحقَّت عليه اللعنة، حينئذٍ طلب من ربه أن يبقيه حيًّا إلى يوم يبعثون، ولكن الله أجابه بأنه سيبقيه إلى يوم الوقت المعلوم الذي حدده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وقد طلب الخبيث هذه المدة من أجل أن ينتقم من بني آدم، فقال الله جَلَّ وَعَلَا له: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء:٦٣-٦٤]، ثم قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٦٥]، والشيطان يقول: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:٨٢-٨٣]. ولما قال الشيطان: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٤٠]، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢]، فعباد الله الذين أخلصوا له العبادة نجوا من عبادة الشيطان، فليس له سبيل عليهم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ﴾ أي: الشيطان ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩-١٠٠].

عرف الشيطان أنه لا سبيل له على عباد الله الذين أخلصوا له العبادة ولجؤوا إليه، فمن أطاع الشيطان وقبل ولايته هلك معه، ومن تولى ربه عَزَّوَجَلَّ، وأطاعه، وصبر على ما يصيبه، فإنه محفوظ من الشيطان ليس له سبيل إليه؛

لأن الله قد حفظه من الشيطان أن يغويه، وأن يخرجه عن الصراط المستقيم، وإن كان يؤذيه، ويضايقه، ويوسوس له، ولكن لا يطيعه؛ لأن العبد المخلص لله لايطيع الشيطان.

فهذه الآية فيها الضمان من الله عَزَّوَجَلَّ لأوليائه أنه سيحفظهم من كيد عدوهم، مما يحث الإنسان أن يلجأ إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ دائمًا وأبدًا، ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ولا ينقاد له.

وَقَالَ تعالَى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل:٩٨-١٠٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٧].

وَذِكْرُ الرَّحْمَنِ هُوَ الذِّكْرُ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ الَّذِي قَالَ فِيهِ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه:١٢٣-١٢٦].

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:١-٣].

الشَّرح

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أي: إذا أردت قراءته، وليس المعنى أنك بعدما تفرغ من قراءة القرآن تستعيذ من الشيطان، وإنما تستعيذ إذا قبل البدء بالقراءة؛ لأجل ألا يحضرك الشيطان فيشغلك عن القرآن، وهذا

كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة:٦]، أي: إذا أردتم القيام، وليس المراد إذا قمتم ووقفتم للصلاة تتوضؤون.

فقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: أردت قراءته ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: الجأ إلى الله ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ لئلا يحول بينك وبين فهم القرآن، أو يلبس عليك الآيات، ويغلطك في القرآن.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ هو إبليس، فهو رأس الشياطين، وكذلك شياطين الإنس والجن الذين هم جنوده وأتباعه، فاستعذ بالله من الشيطان وجنوده وأتباعه، ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾ أي: المرجوم الملعون المبعد عن رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حكمة الأمر بالاستعاذة، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾ أي: ليس له سلطة وولاية -وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢]، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واستعانوا به، ولجؤوا إليه، واعتصموا به، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، يفوضون أمورهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويعتمدون عليه دون غيره؛ لأنه الوكيل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الموكول إليه كل شيء، القادر على كل شيء. والتوكل على الله من أعظم أنواع العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ﴾ أي: سلطان الشيطان وتسلطه، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ أي: يتخذونه وليًّا من دون الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ

وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، فالإنسان لا يخلو إما أن يكون من أولياء الله، وإما أن يكون من أولياء الشيطان. ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ يطيعونه وينقادون له، فهم الذين سببوا على أنفسهم تولي الشيطان عليهم، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ﴾ أي: بالشيطان، ﴿مُشْرِكُونَ﴾ في الطاعة، فيطيعونه في معصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وينقادون له، ويتركون طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، هؤلاء هم الذين يسيطر عليهم الشيطان، ويستولي عليهم، ويستحوذ عليهم، وهم السبب في ذلك، وإلا لو استعاذوا بالله من الشيطان استعاذة حقيقية لا باللفظ فقط لما صار له عليهم سلطان، فدلت الآية على أن ولاية الله لها سبب، وولاية الشيطان لها سبب من قبل العبد.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

هذا -أيضًا- من أسباب تولي الشيطان على ابن آدم، وتسلطه عليه: أنه يعشى عن ذكر الرحمن، والعشى: هو ضعف البصر، أي: يعرض عنه، ويغمض عينيه عنه استكبارًا عنه، وعدم اهتمام به، ومن أعرض عن القرآن فإن الله يعاقبه: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ هذه هي العقوبة، ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ يقارنه الشيطان ويلازمه لا ينفك عنه؛ بسبب أنه عشى عن ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ؛ عن قراءة القرآن، وعن ذكر الله بالتسبيح والتكبير والتهليل، والذكر يشمل كل ذلك، لكن أعظم الذكر هو القرآن.

ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أي: الشياطين ﴿ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾ أي: ليصدون أتباعهم من بني آدم، ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: عن الطريق الصحيح صراط الله المستقيم، ويعمون بصائرهم عنه، ويذهبون بهم إلى طرق الهلاك، فيخرجونهم من النور إلى الظلمات، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ هذا هو المشكل؛ لأنهم لو عصوا الله وهم يعلمون أنهم على معصية ومخالفة لرُجي أنهم يرجعون ويتوبون، ولكن يطبع الله على قلوبهم، فيحسبون أن الضلالة هدى، والعمى بصيرة، وأن ما هم عليه هو الحق، فهؤلاء لا مطمع في رجوعهم؛ لأنهم لم يتركوا الحق جهلًا به، وإنما تركوه عن عمد، فهؤلاء لا يرجعون إلى الحق، بل يعاقبون بالحرمان منه ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾، فدل على أن العبرة ليست بكون الإنسان يظن أنه على حق، وإنما هل هو على دليل أو لا؟ فإن كان على دليل من الكتاب والسنة، فهو على حق، أما إذا كان على غير دليل، فهو على ضلال، وإن كان يحسب أنه على هدى، فليست العبرة بالحسبان، وإنما العبرة بالدليل.

فهذا فيه رد على الذين يقولون: إن هؤلاء الذين يقعون في المعاصي والشرك بالله ما تعمدوا هذا الشرك. نقول: ليس لهم عذر؛ لأن الحق بيِّن، والقرآن واضح، والدلالة واضحة، ولكنهم أعرضوا عنها، فابتلاهم الله جَلَّوَعَلَا بعمى البصيرة؛ عقوبة لهم، فصاروا يحسبون أنهم مهتدون؛ كما قال تعالى: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون:٥٣]، هؤلاء يفرحون بالضلال والعياذ بالله، ولا يرجعون إلى الحق أبدًا، وهذه مصيبة عظيمة فيها أن من ترك الحق بعد معرفته يصاب بالحرمان من الهداية؛

كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام:١١٠]، فمن اتضح له الحق لا يجوز له أن يتركه ويتعداه إلى قول فلان أو علان أبدًا، فإن ترك الحق بعد معرفته إلى غيره، فإنه يُصاب بعمى البصيرة، وفساد القلب، والزيغ والضلال، فلا يهتدي بعد ذلك.

قوله: (وَذِكْرُ الرَّحْمَنِ هُوَ الذِّكْرُ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ). ذكر الرحمن في هذه الآية المراد به القرآن؛ لأنه أعظم الذكر، وإن كان ذكر الله يشمل كل الطاعات، ولكن المراد به في هذه الآية القرآن؛ كما في الآية الأخرى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ أي: القرآن، حفظه الله من التبديل والتغيير والتحريف، وبقي كما أُنزل على محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا تناله أيدي الكفار والأعداء والشياطين فتحرفه، فهو محفوظ بحفظ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بخلاف الكتب السابقة -التوراة والإنجيل- هذه حرفها أهلها، وبدلوا وغيروا فيها، ولم تبقَ كما أنزلها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أما القرآن لما أراد الله بقاءه واستمراره إلى قيام الساعة تعهد بحفظه من أيدي العابثين؛ ليقيم به الحجة على عباده، وليهتدي به من يريد الله هدايته، فهذا من معجزات القرآن على كثرة أعدائه، ما استطاعوا أن يغيروا منه حرفًا واحدًا، وما استطاعوا أن يأتوا بسورة من مثله.

ولَمَّا أهبط الله آدم وذريته إلى الأرض بعدما حصل من آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ الأكل من الشجرة أخرجه الله من الجنة، وأهبطه هو وذريته إلى الأرض، ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾، وهذا الهدى هو ما أنزله الله على أنبيائه ورسله ليخرجوا بني

آدم من الظلمات إلى النور، وقوله: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا، ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرة، فهو في الدنيا على هدى وعلى طريق صحيح، وفي الآخرة لا يشقى؛ لأن له الجنة، فالجنة دار السعادة والراحة ليس فيها شقاء.

قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ عما أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنه يعاقب ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قيل: في الدنيا، وقيل: عذاب القبر والعياذ بالله، والظاهر -والله أعلم-: أن الآية عامة في الدنيا، وفي القبر، فقوله: ﴿لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ في مقابل ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾، وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ في مقابل ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾، فالشقي الذي يحشره الله جَلَّ وَعَلَا يوم القيامة أعمى لا يبصر عقوبة له، فكما عمي عن الحق في الدنيا أعماه الله عن الحق في الآخرة، ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٧٢].

ثم قال: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ أي: أعرضت عنها، وليس نسيان الذهول، فالذهول لا يؤاخذ عليه؛ لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ**»(١)، الذي هو الذهول، إنما النسيان في هذه الآية: هو ترك الشيء رغبة عنه، ومنه قول الله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]. ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ جزاء له كما نسي ذكر الله في الدنيا وأعرض عنه، فإنه يُنسى في الآخرة، فالجزاء من جنس العمل.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٥)، وابن حبان (١٦/ ٢٠٢)، والحاكم (٢/ ٢١٦)، والدارقطني (٥/ ٣٠٠)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ٥٨٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾. هذا أول سورة «الأعراف» افتتحها الله بهذه الحروف المقطعة، وقوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾ هو القرآن، والله نكَّره في هذا تعظيمًا له، أي: كتاب عظيم، ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ أنزله الله إليك بواسطة جبريل عَلَيۡهِ‌ٱلسَّلَامُ، فهو منزل من الله غير مخلوق، خلافًا لما تقوله الجهمية، ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ لا يساورك شك أنه من عند الله عَزَّوَجَلَّ قطعًا، لا من عند غيره، والنبي صَلَّى‌ٱللَّهُ‌عَلَيۡهِ‌وَسَلَّمَ لا يشك، ولكن هذا تنبيه للناس ألا يكون عند أحد منهم شك أن هذا القرآن منزل من عند الله جَلَّ‌وَعَلَا، وفي الآية الأخرى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [يونس:٩٤] الذين يعرفون الكتب السماوية، وهم المؤمنون من أهل الكتاب يعرفون أن القرآن من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه منزل من الله، ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ هذه الحكمة من إنزاله، فهؤلاء الكفار، والمشركون، والعصاة، والمذنبون تنذرهم عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يذكرهم ويعرفهم بالله عَزَّوَجَلَّ، ويعرفهم بطريق النجاة، فهو ذكر للمتقين، ومنذر للكافرين.

ثم قال موجهًا الخطاب إلى أمة محمد صَلَّى‌ٱللَّهُ‌عَلَيۡهِ‌وَسَلَّمَ من الجن والإنس: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: اتبعوا هذا القرآن المنزل عليكم من ربكم بواسطة نبيكم محمد صَلَّى‌ٱللَّهُ‌عَلَيۡهِ‌وَسَلَّمَ، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ من شياطين الجن والإنس، فتطيعونهم وتعصون الله عَزَّوَجَلَّ، تأخذون بأقوالهم،

وخرافاتهم، وشبهاتهم، وترهاتهم، وتتركون الوحي المنزل من عند الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا من الحرمان من النعمة والخير، واستبدال الضلالة بالهداية والعياذ بالله، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ تتذكرون قليلًا، والمطلوب أن يكون تذكركم كثيرًا.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:١، ٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣].

الشَّرح

قال الله تعالى في مطلع سورة إبراهيم: ﴿الٓر﴾ افتتحها بثلاثة حروف «ألف، لام، راء»، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ وفي آية الأعراف: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، فالمنزل هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وضمير «نا» للعظمة بصيغة الجمع، ولكن المراد به الله جَلَّ وَعَلَا، ﴿إِلَيْكَ﴾ أيها الرسول ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ وليست العرب فقط؛ لأن رسالته عامة لجميع الإنس والجن، وهذا من خصائصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما من قبله فكانت رسالتهم إلى أممهم خاصة، ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمات الكفر والشرك والجهل، ولم يحددها؛ لأنها ظلمات كثيرة ليس لها حد، ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ لم يقل إلى الأنوار؛ لأن النور واحد لا يتعدد، وصراط الله واحد والسبل كثيرة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فالظلمات ليس لها حد، وإنما النور

واحد لا يتبدل ولا يتغير، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بشرعه ودينه، فلا يُخرج الناس من الظلمات إلى النور إلا كتاب الله، وما شرعه الله لهم من الأحكام التي هي في صالحهم في الدنيا والآخرة، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ طريق العزيز الحميد، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: القوي الذي لا يغلبه أحد، ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾: المحمود على كل حال، فكل أفعاله وأقواله محمودة، وتقاديره التي قدرها كلها محمودة، يُحمد عليها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنها إما عدل، وإما فضل، فلا تخرج أفعاله وأقواله عن العدل والفضل، فهو محمود عليها جَلَّ وَعَلَا، ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذا كان له ما في السموات وما في الأرض، فهو الذي يستحق العبادة، بخلاف من لا يملك شيئًا من السموات ولا من الأرض، فكيف يطلب منه وهو لا يملك شيئًا؟

والعادة أن الذي يُسأل ويُطلب منه هو الذي يملك الشيء، وهذا إنما يكون لله عَزَّوَجَلَّ، أما من عُبد غيره، فهو لا يملك شيئًا لا من السموات ولا من الأرض، إلا ما ملَّكه الله إياه، فهو مملوك لا يملك شيئًا من السموات ولا الأرض، فكيف يُدعى مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟!

قال تعالى في ختام سورة الشورى، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ أي: القرآن، سماه الله روحًا لأنه تحيا به القلوب، فهو روح، وهو نور -كما في الآية الأخرى- وهدى، وبرهان، وفرقان، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ جاء بعد قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ

حَكِيمٌ ﴾، فالله أرسل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا القرآن، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلغه إلينا كما جاءه.

قال: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ في أول نشأة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن يدري، إنما كان يعبد ربه بالفطرة، وموجب بقايا دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكان يعبد الله على الحنيفية ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكنه كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٨]، فهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ فكان يؤمن بالله عَزَّ وَجَلَّ، ولكن تفاصيل الإيمان لم تبلغه، وإنما كان يؤمن إيمانًا مجملًا، فهو قبل البعثة لم يشرك بالله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يعبد غير الله، وإنما كان على الحنفية ملة أبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أي: الوحي، ﴿ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا ﴾ سماه نورًا؛ لأنه تهتدي به البصائر في السير إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالذي يتمسك بالقرآن يمشي على نور، بخلاف الذي لا يتمسك بالقرآن، فإنه يمشي في ظلمة وشبهات وشكوك وأوهام، ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ نهدي به هداية التوفيق والإيمان، هذه خاصة بالمؤمنين، أما هداية الإرشاد فهي عامة لكل الناس المؤمن والكافر، هو هدى للناس من ناحية أنه بيان موضح للحق من الباطل، لكن القبول له والعمل به إنما يخص به الله من يعلم أنه أهل لذلك، ﴿ نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ ﴾ فالهداية بيد الله

عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦]؛ ولهذا قال: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ ممن يعلم الله أنه يقبل الهداية، ﴿مِنْ عِبَادِنَا ﴾ المراد العبودية الخاصة، وإلا فكل الناس عباد الله جَلَّوَعَلَا، ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ ﴾ هذا جواب قسم محذوف وهو (والله) إنك لتهدي، هذه لام القسم، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ معتدل واضح ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ أضافه إلى نفسه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تشريفًا له، فهذا الصراط هو صراط الله جَلَّوَعَلَا ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: ترجع الأمور وترد إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كلها.

فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ، وَتَرْكِ مَا حَظَرَ، وَتَصْدِيقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ، لَا طَرِيقَ إِلَى اللهِ إِلَّا ذَلِكَ، وَهَذَا سَبِيلُ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُتَّقِينَ، وَحِزْبِ اللهِ الْمُفْلِحِينَ، وَجُنْدِ اللهِ الْغَالِبِينَ، وَكُلُّ مَا خَالَفَ ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ طُرُقِ أَهْلِ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ، وَقَدْ نَزَّهَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ عَنْ هَذَا وَهَذَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:١-٤]. وَقَدْ أَمَرَنَا اللهُ سُبْحَانَهُ أَنْ نَقُولَ فِي صَلَاتِنَا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٦، ٧].

الشَّرْح

قوله: «**فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ، وَتَرْكِ مَا حَظَرَ، وَتَصْدِيقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ، لَا طَرِيقَ إِلَى اللهِ إِلَّا ذَلِكَ**».

معنى شهادة أن محمدًا رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يُعبد الله إلا بما شرع. هذه العبارات التي ذكرها الشيخ محمد بن عبدالوهاب في «ثلاثة أصول»[1] في معنى شهادة أن محمدًا رسول الله، فمن حقق هذا، فقد شهد أن محمدًا رسول الله شهادة الحق.

وقوله: «**وَتَصْدِيقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ**» أي: الرسول ﷺ، لا طريق إلى الله إلا طريق هذا النبي، فمن أراد أن يصل إلى الله فليتبع هذا النبي،

---

(١) انظر: ثلاثة الأصول وشروط الصلاة والقواعد الأربع (ص١٥).

ولا طريق له غير ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]، والإسلام بعد بعثة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو: ما جاء به وحده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يقبل الله إلا دين الإسلام الذي جاء به محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد بعثته، أما قبله فكل الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وأتباعهم على الإسلام، لكن بعد بعثة الرسول انحصر الإسلام فيما جاء به، فلا يجوز لأحد أن يقول: أنا أتبع موسى، أو أنا أتبع عيسى، أو أنا أتبع النبي الفلاني بعد بعثة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى الأنبياء لو بُعث الرسول محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأحد منهم حي وجب عليه أن يتبعه. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي: محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي: عهدي، ﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١]، ولهذا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يروى عنه: «**لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي**»[(١)]. ولذلك إذا نزل المسيح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في آخر الزمان يتبع محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويحكم بدين الإسلام، ويكون مجددًا من المجددين لهذا الدين[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢/ ٤٦٨)، وأبو يعلى الموصلي (٤/ ١٠٢)، والبيهقي في الكبرى (١/ ٣٤٧) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ -يَعْنِي عِيسَى- وَإِنَّهُ نَازِلٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ: رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ،** =

قوله: (وَهَذَا سَبِيلُ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُتَّقِينَ، وَحِزْبِ اللهِ الْمُفْلِحِينَ، وَجُنْدِ اللهِ الْغَالِبِينَ». هذا سبيلهم، وهو ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عند الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: «وَكُلُّ مَا خَالَفَ ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ طُرُقِ أَهْلِ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ». كل ما خالف دين هذا الرسول فهو من طرق أهل الغي الذين عصوا الله على بصيرة، وأهل الضلال الذين يعبدون الله على غير علم.

قوله: (وَقَدْ نَزَّهَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ عَنْ هَذَا وَهَذَا). أي: عن الغي والضلال، قال تعالى: ﴿ **مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ** ﴾ أي: محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يعمل على غير علم ووحي من الله جَلَّ وَعَلَا، ﴿ **وَمَا غَوَىٰ** ﴾ أي: لا يخالف ما أنزل الله عليه.

وقد أقسم سبحانه على ذلك في أول السورة فقال: ﴿ **وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ** ﴾، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقسم بما شاء من خلقه، ﴿ **وَٱلنَّجْمِ** ﴾ قيل: المراد به الثُّريا، وقيل: المراد به سائر النجوم؛ لأنها من آيات الله، ﴿ **إِذَا هَوَىٰ** ﴾ أي: غاب، فطلوع النجوم ومغيبها من آيات الله؛ لأن الله يسيرها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهي من آيات الله، ومن العبر، وقيل: ﴿ **إِذَا هَوَىٰ** ﴾ أي: رجم به الشيطان؛ لأن الشهب تنطلق من النجوم فتصيب الشياطين الذين يسترقون السمع، والمقسم عليه ما هو؟ ﴿ **مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ** ﴾ أي: محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو يعمل على علم وبصيرة لا على جهل، ويدعوكم على علم وبصيرة لا على جهل: ﴿ **قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ**

=**بَيْنَ مُمَصَّرَتَيْنِ، كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ، وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ، فَيُقَاتِلُ النَّاسَ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِسْلَامَ»**.
أخرجه أبو داود (٤٣٢٤)، وابن حبان (١٥/ ٢٣٣).

﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٠٨]. ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ أي: لم يخالف ما أنزل الله عليه، ولم يزد عليه، ولم ينقص منه، بل أداه بأمانة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يجحد منه شيئًا، ولهذا يقولون: لو كان محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاحدًا لشيء لجحد سورة «عبس» ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ [عبس:١، ٢]؛ لأن فيها عتابًا للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾، وهذه شهادة من الله عَزَّ وَجَلَّ، وتزكية لهذا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو لا يتكلم من عند نفسه، وإنما يتبع ما يوحى إليه، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ﴾ [سبأ:٥٠]، فالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما يبلغ ما أوحي إليه، وهذا فيه دليل على أن السنة والأحاديث الواردة عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحي من الله عَزَّ وَجَلَّ، فهي الوحي الثاني بعد القرآن.

قوله: (وَقَدْ أَمَرَنَا اللهُ سُبْحَانَهُ أَنْ نَقُولَ فِي صَلَاتِنَا: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾). أمرنا الله جَلَّ وَعَلَا أن نقرأ «الفاتحة» في كل ركعة من صلاتنا، وجعلها ركنًا من أركان الصلاة لا تصح الصلاة إلا بقراءتها، وفي آخرها الدعاء: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أي: دلنا وثبتنا عليه، وهو الإسلام، أو اتباع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو القرآن، الكل حق، فُسر بالإسلام، وفُسر بالرسول، وبالقرآن(١).

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٧١)، وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٠)، وتفسير البغوي (١/ ٧٦).

يقول الشيخ محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «ثلاثة أصول»: «والكل حق»(١). فالقرآن صراط، والرسول صراط، والإسلام صراط، كله طريق إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ أي: المعتدل الموصل إلى الله جَلَّوَعَلَا وإلى جنته، وفي هذا دليل على افتقار العبد إلى الله، وأنه لا يوفق للصراط المستقيم إلا بتوفيق الله جَلَّوَعَلَا، وليس بالتخرص والتحري، ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ هذا تفسير للصراط المستقيم، وبيان لأهله أن من سار عليه فقد أنعم الله عليه، فهو صراط المنعم عليهم، ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ وهم الذين أعطاهم الله علمًا، ولكنهم لم يعملوا به، وفي مقدمتهم اليهود، فإنهم يعلمون، ولكنهم لا يعملون بعلمهم، قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة:٥].

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ وهم الذين يعبدون الله على جهل دون علم.

إذًا: فالأمور ثلاثة:

الأول: أهل العلم والعمل، وهم الذين أنعم الله عليهم، وهؤلاء هم الذين تسأل الله أن يدلك على طريقهم.

الثاني: أهل العمل دون علم، وهم المغضوب عليهم.

الثالث: الضالون، وهم الذين يعملون دون علم.

فأنت تسأل الله أن يجنبك طريق الفئتين: المغضوب عليهم والضالين.

---

(١) انظر: ثلاثة الأصول وشروط الصلاة والقواعد الأربع (ص٣٤).

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ»(١). قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: كَانُوا يَقُولُونَ: مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى(٢).

وَكَانَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ يَقُولُ: «احْذَرُوا فِتْنَةَ الْعَالِمِ الْفَاجِرِ وَالْعَابِدِ الجَاهِلِ، فَإِنَّ فِتْنَتَهُمَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ»(٣).

فَمَنْ عَرَفَ الحَقَّ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ أَشْبَهَ الْيَهُودَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤].

وَمَنْ عَبَدَ اللهَ بِغَيْرِ عِلْمٍ بَلْ بِالْغُلُوِّ وَالشِّرْكِ أَشْبَهَ النَّصَارَى الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧].

فَالْأَوَّلُ مِنَ الْغَاوِينَ، وَالثَّانِي مِنَ الضَّالِّينَ، فَإِنَّ الْغَيَّ اتِّبَاعُ الهَوَى، وَالضَّلَالَ عَدَمُ الهُدَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٥٣)، والطبراني في الكبير (٢٣٦).

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٥١)، ولم أقف عليه مسندًا.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في العلل ومعرفة الرجال، رواية ابنه عبد الله (٣/ ١١٨)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص٣٣٥) عن سفيان الثوري.

لَرَفَعْنَهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦].

الشَّرْح

قوله ﷺ: (**الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ**). هذا تفسير للآيتين، أن المراد بالمغضوب عليهم اليهود، والمراد بالضالين النصارى، واليهود مغضوب عليهم؛ لأنهم عصوا الله على بصيرة وعلم، والنصارى ضالون؛ لأنهم عبدوا الله على جهل وضلال، فهذا الحديث نص في أن المغضوب عليهم اليهود، وأن المراد بالضالين النصارى، وهذا لا يقتصر على اليهود والنصارى، بل يشمل كل من عنده علم ولم يعمل به، وكل من يعبد الله على جهل وضلال وخرافات وبدع ومحدثات، وإن كان سبب نزول الآية في الفئتين أو في الأمتين؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قوله: (**وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ**). سفيان بن عيينة أحد الأعلام من أوعية العلم، ومن علماء مكة، وسفيان الثوري من علماء العراق، وكلاهما حبر في العلم.

قوله: (**كَانُوا يَقُولُونَ: مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ**). أي: ليس هذا خاصًّا باليهود، فمن فسد من علمائنا، أي: لم يعمل بعلمه، ففيه شبه من اليهود.

قوله: (وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى). من فسد من العباد الذين يعبدون الله على جهل، كالصوفية، وغيرهم، ففيه شبه من النصارى.

قوله: (احْذَرُوا فِتْنَةَ الْعَالِمِ الْفَاجِرِ وَالْعَابِدِ الجَاهِلِ). هذه مثل ما ذكر سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والمقصود به العالم الذي لا يعمل بعلمه، والفجور: هو الخروج عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فهو فاجر خارج عن طاعة الله على بصيرة، وكذلك (الْعَابِدِ الجَاهِلِ) الذي يعبد الله وهو مجتهد، ولكنه ليس على علم، فهذا يخطئ أكثر مما يصيب، فاحذروا من فتنته، ولا تنظروا إلى عبادته، بل انظروا إلى ما هو عليه، هل هو على علم أو ليس على علم؟ هل يعمل بعلمه أو لا يعمل؟

قوله: (فَإِنَّ فِتْنَتَهُمَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ). أي: فتنة هذين الصنفين -العالم الفاجر والعابد الجاهل- أشد الفتن؛ فيُقال: هذا عالم، وهذا عابد، فيغتر الناس بهذين الصنفين.

قوله: (فَمَنْ عَرَفَ الحَقَّ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ أَشْبَهَ الْيَهُودَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾). الشيخ يُبين أن هذا ليس قاصرًا على اليهود، ثم ذكر الآية التي فيها بعض صفات اليهود، فهم ينسون أنفسهم من العمل، وهم يتلون الكتاب الذي يأمرهم بالعمل، فعصوا الله على بصيرة، ووصفهم الله بعدم العقل: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ لأن فعلهم هذا يخالف العقل.

قوله: (وَمَنْ عَبَدَ اللهَ بِغَيْرِ عِلْمٍ بَلْ بِالْغُلُوِّ وَالشِّرْكِ أَشْبَهَ النَّصَارَى). الغلو هو: الزيادة عن الحد المشروع[1]، إما بالزيادة في العبادة، وإما بالغلو

(١) انظر معنى الغلو لغة في: العين (٤/ ٤٤٦)، وتهذيب اللغة (٨/ ١٦٧)، ومقاييس اللغة (٤/ ٣٨٨)، ولسان العرب (١٥/ ١٣٢).

في شخص من الأشخاص حيًّا أو ميِّتًا، ففيه شبه من النصارى الذين غلوا في المسيح، وقالوا: إنه ابن الله، أو هو الله، أو ثالث ثلاثة. وهذا غلو في الشخص، وإنزال له في غير منزلته التي أنزله الله فيها. أو غلو في العبادة؛ لأن النصارى عندهم غلو ورهبانية في العبادة؛ حتى تركوا الدنيا، واعتزلوا الناس، والتزموا الصوامع، وهذا لم يأمر الله به عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد:٢٧]، لم يكتب الله عليهم هذه الرهبانية، وإنما هم الذين ابتدعوها، ومع هذا ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ عجزوا؛ لأن الإنسان إذا غلا وينقطع يترك، بخلاف المقتصد المعتدل، فإنه يستديم ويستمر.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾. وفي الآية الأخرى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٧١]؛ لأنهم غلوا فيه، ورفعوه فوق منزلته إلى مرتبة الألوهية، فهذا غلو في الأشخاص، والرهبانية غلو في الدين.

قوله: (فَإِنَّ الْغَيَّ اتِّبَاعُ الْهَوَى). الغي: مخالفة العمل للعلم، فيترك العلم ويعمل بهواه، وهذا ديدن اليهود ومن شابههم.

قوله: (وَالضَّلَالَ عَدَمُ الْهُدَى). مثل: النصارى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ

أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. هذا مثال من اليهود، وهو بلعام بن باعوراء، كان عالمًا مجاب الدعوة، لكنه انسلخ -والعياذ بالله- من العلم، واتبع هواه، فأذله الله عَزَّوَجَلَّ وشبهه بالكلب، مع أنه عالم عابد مجاب الدعوة، ولكن لما انسلخ من آيات الله وتركها، وراح مع شهواته ورغباته سلخه الله عَزَّوَجَلَّ وأهانه.

وقيل: المراد به: أمية بن أبي الصلت الذي عرف الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصفاته، فلما بُعث الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حسده وكفر به، ومات كافرًا، وكان عالمًا، وله أشعار في التوحيد، وفي دين الله، وأشعار زهدية؛ لأنه كان يقرأ الكتب السابقة ويتعلمها، وكان يطمع أن يكون هو الرسول، فلما بُعث محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حسده، وكفر به والعياذ بالله[1]. ولهذا لَمَّا سمع الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعض شعره قال: «**آمَنَ شِعْرُهُ، وَكَفَرَ قَلْبُهُ**»[2].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٥٦٧)، وتفسير البغوي (٢/ ٢٤٩)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣١٩).

(٢) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٣/ ١٦٨) عن هشام بن الكلبي عن أبيه، رفعه.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٦].

وَمَنْ جَمَعَ الضَّلَالَ وَالْغَيَّ فَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَهْدِيَنَا وَسَائِرَ إِخْوَانِنَا صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا.

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ ... ﴾. في هذه الآية الكريمة أخبر جَلَّ وَعَلَا أنه يصرف عن آياته مَنْ اتصف بهذه الصفات المذكورة في الآية، فلا يستفيد منها، ولا يهتدي بها؛ عقوبة له:

الصفة الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾. يتكبرون عن الناس، وعن القرآن، فلا يعملون به، ويرون أنه لا أحد يوجههم، وأنهم يفعلون ما يشاؤون، هذا هو الكبر والعياذ بالله، والكبر الاستكبار عن الحق هو سبب كفر إبليس. والواجب على العبد أن يتواضع للحق ويقبله، فالحق فوق كل شيء، ليس لابن آدم حق أن يتكبر، بل الواجب عليه أن يتواضع، هذا هو المطلوب من العبد، فهم يتكبرون في الأرض بغير الحق، وليس هناك تكبر بحق إلا في حق الله جَلَّ وَعَلَا، فإنه هو الكبير المتعال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والمخلوق ضعيف، ومخلوق من ضعف، وأيضًا: هو بشر يخطئ، فليس له أن يتكبر.

الصفة الثانية: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾. إن يروا كل آية من آيات الله جَلَّوَعَلَا الدالة على عبادته وتوحيده، والموجهة -أيضًا- للعبد نحو الصواب، فلا يؤمنون بها، ويتركونها، ويقولون: هذه الآيات مثل غيرها آراء الناس وأقوالهم. بل ويدَّعون أنهم قد يكون عندهم رأي أحسن من الآية، أو أن الآيات لقوم مضوا ولا تصلح لهذا الزمان، فيتكبرون عنها، ولا يلتفتون إليها، أو أن الآيات لا تعنيهم. فإما أنهم لا يؤمنون أصلًا أنها من عند الله، وإما أنهم لا يتبعونها، والذي لا يتبعها لا يؤمن بها ولو اعتقد أنها من عند الله.

الصفة الثالثة: أنهم يتبعون الغي ويتركون الرشد، ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، والغي هو: ترك الحق مع العلم به، فيعصون الله على بصيرة، ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، والرشد هو: قبول الحق والعمل به، وأهل الرشد يكون عندهم علم وعمل، أما أهل الغي فعندهم علم ولكن ليس عندهم عمل ولا اتباع.

وهذه هي صفات المتكبرين عن آيات الله الذين لا يؤمنون بها: أنهم لايتبعون الوحي المنزل، وإنما يتبعون ما تمليه عليه أهواؤهم وشياطينهم، وهذا مطرد في العالم، فالذين تركوا الشريعة واستبدلوها بالقوانين الوضعية الكفرية اتبعوا الغي، وهم يعلمون أن القرآن من عند الله، وأنه حكم بالعدل، لكن لايريدونه، ويستبدلونه بالقوانين الوضعية، ويرون أن القانون أحسن من القرآن، وهو المناسب للزمان، أما القرآن فإنه لزمان مضى عندهم.

فهذه الآية فيها وعيد شديد على مَنْ لم يقبل هدى الله، ولم يهتدِ بوحي الله الذي أوحاه إلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيها أن الله يصرف قلبه عن قبول الحق، فلا يقبله بعد ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، فلا حيلة فيهم، ولا طمع في رجوعهم؛ لأنهم لم يتركوا الحق عن جهل فإذا بُيِّن لهم قبلوه، وإنما تركوه عن عناد وبعد معرفة له، فهذا هو الذي يُصرف عن الحق. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، هذا هو السبب الذي حملهم على هذه المخالفات أنهم يكذبون بآيات الله، فإما أن يكذبوا بأصلها، وإما أن يكذبوا بهدايتها وصلاحيتها، ﴿وَكَانُوا عَنْهَا﴾ أي: عن آيات الله ﴿غَافِلِينَ﴾ لا يقبلون عليها، ولا يهتمون بها أصلًا، فهم غافلون عنها غفلة تعمد وإعراض والعياذ بالله.

ومن ذلك ما هذه الرسالة بصدده، وهي أن عُباد القبور والأضرحة إذا تُليت عليهم آيات الله، وقيل لهم: ما تعملون هو الشرك الأكبر، لا يقبلون هذا، ويستمرون على شركهم في عبادة الأموات والاستغاثة بهم، وهم يسمعون القرآن، ولكن الله صرفهم عن فهمه، وحرمهم من اتباعه؛ عقوبة لهم، فالآية ليست خاصة بأناس مضوا، بل هي مستمرة إلى أن تقوم الساعة.

قوله: (**وَمَنْ جَمَعَ الضَّلَالَ وَالْغَيَّ فَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ**). الضلال: هو العمل دون علم وهو صفة اليهود ، والغي: هو ترك الحق مع العلم به،

وهذا أشد من الضلال وهو صفة النصارى، فمن جمع بين الأمرين اجتمع فيه الشر كله، ففيه شبه من اليهود، وشبه من النصارى.

قوله: (نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَهْدِيَنَا وَسَائِرَ إِخْوَانِنَا صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا).

أي: نسأل الله أن يجنبنا الطريقتين: طريقة المغضوب عليهم، وطريقة الضالين الذين تركوا العلم، وأخذوا العمل فقط، وأن يجعلنا من الذين أنعم عليهم ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٧]، وهم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [النساء:٦٩]، هؤلاء هم الذين أنعم الله عليهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾.

هذه طبقات المؤمنين: أولًا: الأنبياء، ثم الصديقون، ثم الشهداء في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، ثم بقية الصالحين المسلمين.

فَصْـلٌ

إِذَا عُرِفَ هَذَا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ لَفْظَ «الْوَسِيلَةِ» وَ«التَّوَسُّلِ» فِيهِ إِجْمَالٌ وَاشْتِبَاهٌ يَجِبُ أَنْ تُعْرَفَ مَعَانِيهِ، وَيُعْطَى كُلُّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَيُعْرَفَ مَا وَرَدَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنْ ذَلِكَ وَمَعْنَاهُ، وَمَا كَانَ يَتَكَلَّمُ بِهِ الصَّحَابَةُ وَيَفْعَلُونَهُ وَمَعْنَى ذَلِكَ، وَيُعْرَفَ مَا أَحْدَثَهُ الْمُحَدِّثُونَ فِي هَذَا اللَّفْظِ وَمَعْنَاهُ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ اضْطِرَابِ النَّاسِ فِي هَذَا الْبَابِ هُوَ بِسَبَبِ مَا وَقَعَ مِنَ الْإِجْمَالِ وَالاشْتِرَاكِ فِي الْأَلْفَاظِ وَمَعَانِيهَا، حَتَّى تَجِدَ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْرِفُ فِي هَذَا الْبَابِ فَصْلَ الْخِطَابِ.

الشَّرْح

قوله: **(إِذَا عُرِفَ هَذَا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ لَفْظَ «الْوَسِيلَةِ» وَ«التَّوَسُّلِ» فِيهِ إِجْمَالٌ وَاشْتِبَاهٌ يَجِبُ أَنْ تُعْرَفَ مَعَانِيهِ)**. رجع المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الأصل الذي يريد أن يبينه في هذه الرسالة، فقد استطرد فيما سبق، ثم رجع إلى أصل الكلام، وهو التوسل، وبيَّن فيما سبق أن التوسل هو: التقرب إلى الله جَلَّ وَعَلَا بعبادته، والوسيلة هي: العمل الصالح، وسميت وسيلة؛ لأنها تقرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا وسيلة إلى رضا الله إلا بطاعته، وبيَّن هذا فيما سبق، وعاد إليه الآن؛ لأن هذا هو محور الرسالة، فالوسيلة هي: ما يُقرب إلى الله، والتوسل: طلب القرب من الله جَلَّ وَعَلَا.

قوله: **(وَيُعْرَفَ مَا أَحْدَثَهُ الْمُحَدِّثُونَ فِي هَذَا اللَّفْظِ وَمَعْنَاهُ)**. الناس في مسألة التوسل والوسيلة ثلاثة أقسام:

الأول: ما جاء به القرآن والسنة من أن الوسيلة هي: العمل الصالح، وسميت بذلك؛ لأنها تقرب إلى الله، والتوسل هو: القرب، أو طلب التقرب، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة:٣٥]، ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ ﴾ أي: اطلبوا ما يقربكم إليه، وفي الآية الأخرى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾، أي: القرب من الله جَلَّوَعَلَا، ﴿يَدۡعُونَ ﴾ أي: الذين يدعونهم أهل الجاهلية والقبوريون هم عباد لله، ﴿ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء:٥٧]، فكيف يدعونهم مع الله وهم ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾، فالملائكة والأنبياء والصالحون عباد لله يتقربون إليه جَلَّوَعَلَا، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، فلا يصلحون للعبادة؛ لأنهم عباد محتاجون إلى الله فقراء إلى الله.

الثاني: التوسل عند الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ؛ كما قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»[١].

لما أجدبوا، واستسقوا قال عمر هذه المقالة: «كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا» في حياته صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولما مات عدلوا إلى أقرب الناس إليه، وهو العباس بن عبدالمطلب عم الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وطلبوا منه أن يدعو لهم، فقول عمر: «كُنَّا نَتَوَسَّلُ»، أي: نطلب من النبي أن يدعو لنا بالغيث، «فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا» أي: بدعائه، فقام العباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ فدعا الله كما كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يفعل. هذا هو التوسل عند الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ: أنهم يطلبون من الرجل الصالح أن يدعو الله لهم بالغيث أو بغيره من حوائجهم،

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٧).

كما فعل معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الشام لما أجدبوا طلب من يزيد بن الأسود الجرشي أن يدعو لهم، وكان رجلًا صالحًا، فدعا لهم[1]. وليس التوسل معناه أنهم يطلبون من المخلوق أن يغيثهم، أو أنهم يجعلونه واسطة بينهم وبين الله. هذا هو المعروف عند الصحابة، أن التوسل بالشخص: هو طلب دعاءه، لا التوسل بذاته.

أما التوسل عند الخرافيين فهو أنهم يطلبون من الشخص أن يقضي لهم حاجاتهم، فيتقربون إلى القبور بالذبح لها والنذر لها؛ لأنهم يعتقدون أن هؤلاء الأولياء يقضون حاجاتهم، فيتقربون إليهم ويستغيثون بهم، وهذا أشد أنواع التوسل الباطل؛ لأنه شرك أكبر يخرج من الملة. وأما إذا كان القصد من التوسل جعل المخلوق واسطة بينهم وبين الله ولا يتقربون إليه بشيء، فهذا توسل بدعي؛ لأنه لم يكن في كتاب الله، ولا في سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا من عمل السلف أنهم يتوسلون بالشخص، إنما يتوسلون بدعائه لا بشخصه وذاته، وهذا يأتي تفصيله في كلام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: (وَيُعْرَفَ مَا أَحْدَثَهُ الْمُحَدِّثُونَ فِي هَذَا اللَّفْظِ وَمَعْنَاهُ). في وقت الشيخ وفي زماننا الآن زاد الشر من هؤلاء الخرافيين، يحرفون كلام الله ويقولون: المراد بالوسيلة أن تجعل بينك وبين الله واسطة من الخلق. ويفسرون القرآن بغير مراده، ويجعلون الوسيلة التي أمر الله بابتغائها أن تجعل بينك وبين الله واسطة من خلقه من الأولياء والصالحين، وهذا كذب على الله جَلَّ وَعَلَا، وليس هذا معنى الآيات. وقد سبق أن التوسل بالمخلوق إما أن يكون شركًا أكبر

(١) تقدم تخريجه (ص٣٨).

يُخرج من الملة، وإما يكون بدعة ووسيلة إلى الشرك، فيكون شركًا أكبر إذا صرف للمخلوق شيئًا من العبادة، وهو ما عليه القبوريون الآن؛ يذبحون عند القبور، وينذرون لها، ويستغيثون بها، ويهتفون بها، ويدعونها من دون الله. أما إذا كان المقصود فقط مجرد جعله واسطة بينه وبين الله، فهذا توسل بدعي، وهو وسيلة إلى الشرك الأكبر.

قوله: **(فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ اضْطِرَابِ النَّاسِ فِي هَذَا الْبَابِ هُوَ بِسَبَبِ مَا وَقَعَ مِنَ الْإِجْمَالِ وَالاشْتِرَاكِ فِي الْأَلْفَاظِ وَمَعَانِيهَا)** نعم، سبب الضلال هو ما يقع في بعض الألفاظ من الاشتراك في معانيها، وهذا يحتاج إلى العلماء الذين يبينون المعاني؛ لأن أنواع الأدلة: إما أن يكون دلالة مطابقة، أو دلالة تضمن، أو دلالة التزام لما بين الألفاظ من الاشتراك في المعاني، وهذا لا يعرفه إلا المختصون من أهل العلم، فهؤلاء الذين وقعوا في بدعة التوسل أو شركية التوسل إنما أُتوا من جهلهم بمعاني كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالمجمل يُبين، وليس هناك شيء مجمل لم يُبيِّن، ما أجمله الله في موضع فصَّله في موضع آخر، وما أجمله الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في موضع فصله في موضع آخر، فلابد من الجمع بين الأدلة كلها؛ لأنها يُفصل بعضها ببعض.

وهذا من رد المتشابه إلى المحكم، وهي طريقة الراسخين في العلم، ولايُقطع طرف ويُترك الباقي، إما بقصد التضليل ويكون هذا عن علم، وإما أن يكون عن جهل، والجاهل لا يصلح أنه يتكلم في القرآن والسنة، ولا يصلح أن يؤخذ دليل ويترك الثاني، ولا أن يؤخذ المجمل ويترك المفصَّل، ولا أن يؤخذ العام ويترك المقيد، ولا يؤخذ المنسوخ ويترك الناسخ، وهذه

أمور تحتاج إلى ضوابط وتحتاج إلى العلماء، ولهذا يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]:

فَعَلَيْكَ بِالتَّفْصِيلِ وَالتَّمْيِيزِ فَالـ ... إِطْلَاقِ وَالإِجْمَالِ دُونَ بَيَانِ

قَدْ أَفْسَدَا هَذَا الوُجُودِ وَخَبَّطَا ... الأَذْهَانِ وَالآرَاءِ كُلَّ زَمَانِ

فالآفة إنما تأتي من أناس لا يعرفون المجمل والمفصل، والمطلق والمقيد، لا يعرفون هذه الأمور، أو يعرفونها ويضللون الناس.

قوله: (**هُوَ بِسَبَبِ مَا وَقَعَ مِنَ الْإِجْمَالِ وَالاشْتِرَاكِ فِي الْأَلْفَاظِ وَمَعَانِيهَا**). لأن الآيات والأحاديث فيها المجمل والمفصل، وفيها المشترك في المعنى، فتكون الألفاظ مشتركة في معنى من المعاني، ولا تشترك في كل المعنى.

قوله: (**حَتَّى تَجِدَ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْرِفُ فِي هَذَا الْبَابِ فَصْلَ الخِطَابِ**). أي: لايعرف هذا الأمر ويجهله، فيدخل في الاستدلال وهو لا يحسن الاستدلال وطريقة الاستدلال.

فَلَفْظُ الْوَسِيلَةِ مَذْكُورٌ فِي الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥] ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:٥٦، ٥٧]، فَالْوَسِيلَةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ أَنْ تُبْتَغَى إِلَيْهِ وَأَخْبَرَ عَنْ مَلَائِكَتِهِ وَأَنْبِيَائِهِ أَنَّهُمْ يَبْتَغُونَهَا إِلَيْهِ هِيَ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ.

فَهَذِهِ الْوَسِيلَةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِابْتِغَائِهَا تَتَنَاوَلُ كُلَّ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ، وَمَا لَيْسَ بِوَاجِبٍ وَلَا مُسْتَحَبٍّ لَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ، سَوَاءٌ كَانَ مُحَرَّمًا أَوْ مَكْرُوهًا أَوْ مُبَاحًا. فَالْوَاجِبُ وَالْمُسْتَحَبُّ هُوَ مَا شَرَعَهُ الرَّسُولُ فَأَمَرَ بِهِ أَمْرَ إِيجَابٍ أَوِ اسْتِحْبَابٍ، وَأَصْلُ ذَلِكَ الْإِيمَانُ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ.

فَجِمَاعُ الْوَسِيلَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ الْخَلْقَ بِابْتِغَائِهَا هُوَ التَّوَسُّلُ إِلَيْهِ بِاتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، لَا وَسِيلَةَ لِأَحَدٍ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا ذَلِكَ.

وَالثَّانِي: لَفْظُ الْوَسِيلَةِ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا دَرَجَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا ذَلِكَ الْعَبْدُ، فَمَنْ سَأَلَ اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٤٦).

وَقَوْلُهُ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ المِيعَادَ، حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»[(١)].

الشَّرْح

قوله: (فَالْوَسِيلَةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ أَنْ تُبْتَغَى إِلَيْهِ، وَأَخْبَرَ عَنْ مَلَائِكَتِهِ وَأَنْبِيَائِهِ أَنَّهُمْ يَبْتَغُونَهَا إِلَيْهِ). في قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾، التي كان الملائكة والأنبياء الذين يدعوهم المشركون يبتغونها من الله جَلَّوَعَلَا، هي: الطاعة والعبادة.

قوله: (هِيَ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ). أي: من الطاعات الواجبة والفرائض، والمستحبات من النوافل.

قوله: (فَهَذِهِ الْوَسِيلَةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِابْتِغَائِهَا...). فالوسيلة: هي الطاعة الواجبة كالفرائض، أو المستحبة كالنوافل، وأما ما ليس بواجب ولامستحب فإنه لا يكون وسيلة إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قوله: (فَالْوَاجِبُ وَالْمُسْتَحَبُّ هُوَ مَا شَرَعَهُ الرَّسُولُ فَأَمَرَ بِهِ أَمْرَ إِيجَابٍ أَوِ اسْتِحْبَابٍ). الواجب والمستحب هو ما دل القرآن والسنة على وجوبه أو استحبابه.

(١) تقدم تخريجه (ص٤٤٦).

قوله: (**فَجِمَاعُ الْوَسِيلَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ الخَلْقَ بِابْتِغَائِهَا هُوَ التَّوَسُّلُ إِلَيْهِ بِاتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ**). أي: أن التوسل المشروع هو العبادة والطاعة، أو اتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاتباع الرسول وسيلة يُقرب إلى الله جَلَّ وَعَلَا، قال تعالى على لسان الحواريين: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣]، هكذا قال الحواريون؛ توسلوا إلى الله باتباعهم الرسول وهو عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي آخر سورة «آل عمران» في دعاء أولي الألباب أنهم يقولون: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣]، توسلوا إلى الله بإيمانهم بهذا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي ناداهم ودعاهم إلى الإيمان، هذا هو التوسل إلى الله بالعبادة، وباتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطاعته.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَلُوا اللهَ لِي الْوَسِيلَةَ**»، هذا موضع ثالث من مواضع ذكر الوسيلة في السنة، فقد جاء في القرآن آيتان في التوسل، وجاءت السنة أيضًا بنوع من الوسيلة وهو المنزلة العالية في الجنة تُسمى بالوسيلة؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في متابعة المؤذن: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ**»، ما هي الوسيلة؟ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ**» يعني: هذه المنزلة «**حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ**»، يعني: أن الله يجزيه بأن يُشفع فيه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَهَذِهِ الْوَسِيلَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً، وَقَدْ أُمِرْنَا أَنْ نَسْأَلَ اللهَ لَهُ هَذِهِ الْوَسِيلَةَ، وَأَخْبَرَ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ وَهُوَ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْعَبْدَ، وَهَذِهِ الْوَسِيلَةُ أُمِرْنَا أَنْ نَسْأَلَهَا لِلرَّسُولِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ سَأَلَ لَهُ هَذِهِ الْوَسِيلَةَ فَقَدْ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّ الجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَلَمَّا دَعَوْا لِلنَّبِيِّ ﷺ اسْتَحَقُّوا أَنْ يَدْعُوَ هُوَ لَهُمْ، فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ نَوْعٌ مِنَ الدُّعَاءِ؛ كَمَا قَالَ: «إِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ مَرَّةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا».

وَأَمَّا التَّوَسُّلُ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَالتَّوَجُّهُ بِهِ فِي كَلَامِ الصَّحَابَةِ فَيُرِيدُونَ بِهِ التَّوَسُّلَ بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ.

وَالتَّوَسُّلُ بِهِ فِي عُرْفِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ يُرَادُ بِهِ الْإِقْسَامُ بِهِ وَالسُّؤَالُ بِهِ، كَمَا يُقْسِمُونَ وَيَسْأَلُونَ بِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَمَنْ يَعْتَقِدُونَ فِيهِ الصَّلَاحَ.

الشَّرْح

عرفنا الوسيلة في القرآن والسنة، بقي أن نعرف الوسيلة عند الصحابة.

قوله: (فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ نَوْعٌ مِنَ الدُّعَاءِ). لأن شفاعة الرسول ﷺ يوم القيامة نوع من الدعاء، فكما أن المسلم دعا الله للرسول ﷺ في الدنيا فإن الرسول ﷺ يدعو له يوم القيامة بأن ينجيه الله من الأهوال والنار؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

وقوله ﷺ: «إِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ مَرَّةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا».

لأن الجزاء من جنس العمل، فمن صلى على النبي ﷺ مرة واحدة

صلى الله عليه بها عشرًا، وصلاة الله: ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى، وإذا أثنى الله على عبد فإنه يسعد في الدنيا والآخرة.

قوله: (**وَأَمَّا التَّوَسُّلُ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَالتَّوَجُّهُ بِهِ فِي كَلَامِ الصَّحَابَةِ فَيُرِيدُونَ بِهِ التَّوَسُّلَ بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ**). أما التوسل الذي جاء في كلام الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في حق النبي ﷺ والذي يستدل به الجهال أو المغرضون بأنه توسل بذاته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حيًّا وميتًا، فهذا باطل؛ لأن المراد التوسل بدعاء النبي ﷺ. يُفسر هذا قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا**»(١)، يعني: بدعائه ﷺ، ولو كان التوسل بذاته لما كان هناك فرق بين حياته وموته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولماذا عدل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن التوسل بالرسول ﷺ بعد موته إلى التوسل بالعباس؟ لأن التوسل ليس بالذات وإنما هو بالدعاء، والرسول مات ولن يدعو، فعدلوا إلى الحي وهو العباس عم الرسول ﷺ. فالتوسل في عرف الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالشخص هو طلب الدعاء منه، فيتوسلون بدعائه لهم.

قوله: (**وَالتَّوَسُّلُ بِهِ فِي عُرْفِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ**). هذا النوع الثالث الباطل.

قال: (**يُرَادُ بِهِ الْإِقْسَامُ بِهِ وَالسُّؤَالُ بِهِ، كَمَا يُقْسِمُونَ وَيَسْأَلُونَ بِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَمَنْ يَعْتَقِدُونَ فِيهِ الصَّلَاحَ**). فهذا عند المتأخرين الذين غلطوا في معنى التوسل، يريدون التوسل بذات الرسول، أو بذات الولي، وهذا باطل؛ لأنه لا يتوسل إلى الله بأحد من خلقه، ولأن هذا معناه الإقسام

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٧).

على الله، فإذا قلت: أسألك بنبيك. فمعناه: أقسم عليك بنبيك؛ لأن الباء باء القسم، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَنْ سَأَلَكُمْ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ**»(١)، يعني: من أقسم عليكم أن تعطوه فأعطوه إجلالًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي سألكم به، قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ**﴾ [النساء:١].

---

(١) أخرجه أحمد (٩/ ٢٦٦)، وأبو داود (٥١٠٩)، والنسائي (٢٥٦٧)، وابن حبان (٨/ ١٩٩)، والحاكم (١/ ٥٧٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَحِينَئِذٍ فَلَفْظُ التَّوَسُّلِ بِهِ يُرَادُ بِهِ مَعْنَيَانِ صَحِيحَانِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَيُرَادُ بِهِ مَعْنًى ثَالِثٌ لَمْ تَرِدْ بِهِ سُنَّةٌ.

فَأَمَّا الْمَعْنَيَانِ الْأَوَّلَانِ الصَّحِيحَانِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ:

فَأَحَدُهُمَا: هُوَ أَصْلُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَهُوَ التَّوَسُّلُ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِطَاعَتِهِ.

وَالثَّانِي: دُعَاؤُهُ وَشَفَاعَتُهُ كَمَا تَقَدَّمَ.

فَهَذَانِ جَائِزَانِ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ.

وَمِنْ هَذَا قَوْلُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا إِذَا أَجْدَبْنَا تَوَسَّلْنَا إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتُسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»[1]. أَيْ: بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ.

الشَّرح

قوله: (وَحِينَئِذٍ فَلَفْظُ التَّوَسُّلِ بِهِ يُرَادُ بِهِ مَعْنَيَانِ صَحِيحَانِ).

الأول: وهو ما جاء في القرآن؛ كما سبق.

والثاني: التوسل عند الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأن معناه طلب الدعاء من الحي الحاضر عندهم.

وأما الإقسام على الله بمخلوق من خلقه فهذا لا يجوز، لا يجوز أن تقسم على الله بمخلوق، أو بحق مخلوق، أو بصلاح فلان. توسل إلى الله بعملك أنت، لا تتوسل إليه بعمل فلان؛ لأن عمل فلان له وليس لك، والله جَلَّ وَعَلَا

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٧).

يقول: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة:١٣٤]، لما كان اليهود يفتخرون بأنهم أولاد إبراهيم وإسحاق، ذكَّرهم الله جَلَّوَعَلَا يقول بأن هؤلاء الذين مضوا لهم عملهم، وأما هم فليس لهم إلا عملهم.

فلا تتوسل إلى الله بعمل فلان وصلاح فلان، بل توسل إلى الله بعملك أنت، فلن ينفعك عمل فلان وإنما ينفعك عملك أنت.

قوله: (وَهُوَ التَّوَسُّلُ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِطَاعَتِهِ). يجوز لك أن تتوسل إلى الله جَلَّوَعَلَا بالإيمان بالرسول صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وطاعته؛ لأن اتباعك للرسول وطاعتك له هذا عملك أنت، فأنت تتوسل إلى الله بالعمل الصالح، وهذا مشروع.

قوله: (وَالثَّانِي: دُعَاؤُهُ وَشَفَاعَتُهُ). وهذا في حال حياته، تطلب منه أن يدعو لك، ودعاؤه لك شفاعة عند الله جَلَّوَعَلَا.

قوله: (وَمِنْ هَذَا قَوْلُ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: **«اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا إِذَا أَجْدَبْنَا تَوَسَّلْنَا إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتُسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»)**. كانوا يتوسلون بالنبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حال حياته في طلب السقيا، بمعنى أنهم يطلبون من النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يدعو الله لهم، يوضح هذا حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: «أَصَابَتِ النَّاسَ سَنَةٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَبَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَخْطُبُ عَلَى المِنْبَرِ يَوْمَ الجُمُعَةِ قَامَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلَكَ المَالُ، وَجَاعَ العِيَالُ، فَادْعُ اللهَ لَنَا أَنْ يَسْقِينَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَدَيْهِ وَمَا فِي السَّمَاءِ قَزَعَةٌ، قَالَ: فَثَارَ سَحَابٌ أَمْثَالُ الجِبَالِ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ المَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ، قَالَ: فَمُطِرْنَا

يَوْمَنَا ذَلِكَ، وَفِي الغَدِ، وَمِنْ بَعْدِ الغَدِ، وَالَّذِي يَلِيهِ إِلَى الجُمُعَةِ الأُخْرَى، فَقَامَ ذَلِكَ الأَعْرَابِيُّ -أَوْ رَجُلٌ غَيْرُهُ- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، تَهَدَّمَ البِنَاءُ، وَغَرِقَ المَالُ، فَادْعُ اللهَ لَنَا، فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ، وَقَالَ: **اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلَا عَلَيْنَا**، قَالَ: فَمَا جَعَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ السَّمَاءِ إِلَّا تَفَرَّجَتْ»[(١)].

فهذا يوضح أن المراد بالتوسل بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو طلب الدعاء منه، وهذا إنما يكون في حياته، فلما مات صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يذهبوا إلى قبره؛ لعلمهم أن هذا لا يجوز، وأن الميت لا يُطلب منه شيء، وإنما عدلوا إلى الحي، وهو العباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فعدلوا من الفاضل إلى المفضول؛ لأن الفاضل مات ولا يستطيع الدعاء، وأما المفضول فهو حيٌّ حاضر وقادر على الدعاء.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٣٣)، ومسلم (٨٩٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥]، أَيْ: الْقُرْبَةُ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ، وَطَاعَةُ رَسُولِهِ طَاعَتُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

فَهَذَا التَّوَسُّلُ الْأَوَّلُ هُوَ أَصْلُ الدِّينِ، وَهَذَا لَا يُنْكِرُهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَأَمَّا التَّوَسُّلُ بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ كَمَا قَالَ عُمَرُ، فَإِنَّهُ تَوَسُّلٌ بِدُعَائِهِ لَا بِذَاتِهِ؛ وَلِهَذَا عَدَلُوا عَنِ التَّوَسُّلِ بِهِ إِلَى التَّوَسُّلِ بِعَمِّهِ الْعَبَّاسِ، وَلَوْ كَانَ التَّوَسُّلُ هُوَ بِذَاتِهِ لَكَانَ هَذَا أَوْلَى مِنَ التَّوَسُّلِ بِالْعَبَّاسِ، فَلَمَّا عَدَلُوا عَنِ التَّوَسُّلِ بِهِ إِلَى التَّوَسُّلِ بِالْعَبَّاسِ عُلِمَ أَنَّ مَا يُفْعَلُ فِي حَيَاتِهِ قَدْ تَعَذَّرَ بِمَوْتِهِ، بِخِلَافِ التَّوَسُّلِ الَّذِي هُوَ الْإِيمَانُ بِهِ وَالطَّاعَةُ لَهُ فَإِنَّهُ مَشْرُوعٌ دَائِمًا.

فَلَفْظُ التَّوَسُّلِ يُرَادُ بِهِ ثَلَاثَةُ مَعَانٍ:

أَحَدُهُمَا: التَّوَسُّلُ بِطَاعَتِهِ، فَهَذَا فَرْضٌ لَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِهِ.

وَالثَّانِي: التَّوَسُّلُ بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ، وَهَذَا كَانَ فِي حَيَاتِهِ، وَيَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَوَسَّلُونَ بِشَفَاعَتِهِ.

وَالثَّالِثُ: التَّوَسُّلُ بِهِ بِمَعْنَى: الْإِقْسَامُ عَلَى اللهِ بِذَاتِهِ وَالسُّؤَالُ بِذَاتِهِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي لَمْ تَكُنِ الصَّحَابَةُ يَفْعَلُونَهُ فِي الاسْتِسْقَاءِ وَنَحْوِهِ، لَا فِي حَيَاتِهِ وَلَا بَعْدَ مَمَاتِهِ، لَا عِنْدَ قَبْرِهِ وَلَا غَيْرَ قَبْرِهِ، وَلَا يُعْرَفُ هَذَا فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَدْعِيَةِ الْمَشْهُورَةِ بَيْنَهُمْ، وَإِنَّمَا يُنْقَلُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فِي أَحَادِيثَ ضَعِيفَةٍ مَرْفُوعَةٍ وَمَوْقُوفَةٍ، أَوْ عَنْ مَنْ لَيْسَ قَوْلُهُ حُجَّةً، كَمَا سَنَذْكُرُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

الشَّرْح

لماذا تتوسل بطاعتك للرسول واتباعك للرسول؟ لأن طاعة الرسول طاعة لله، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾.

قوله: (فَإِنَّهُ تَوَسُّلٌ بِدُعَائِهِ) أي: بدعاء الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **(لَا بِذَاتِهِ، وَلِهَذَا عَدَلُوا عَنِ التَّوَسُّلِ بِهِ إِلَى التَّوَسُّلِ بِعَمِّهِ الْعَبَّاسِ)**. أي: عدلوا عن التوسل به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته إلى عمه العباس؛ لأن الميت لا يقدر على الدعاء، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ**»(١). فينقطع دعاؤه وغيره. فهم عدلوا عن طلب الدعاء من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته إلى الحي الذي يمكن أن يدعو لهم وهو العباس؛ لقربه من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (وَلَوْ كَانَ التَّوَسُّلُ هُوَ بِذَاتِهِ لَكَانَ هَذَا أَوْلَى مِنَ التَّوَسُّلِ بِالْعَبَّاسِ). لو كان التوسل بالرسول معناه التوسل بذاته لم يكن هناك فرق بين حياته وموته، أما الدعاء فهناك فرق؛ لذلك عدلوا عن التوسل بالرسول إلى التوسل بالعباس، فيدل هذا على أن المراد بالتوسل عندهم هو الدعاء لا التوسل بذاته.

قوله: (عُلِمَ أَنَّ مَا يُفْعَلُ فِي حَيَاتِهِ قَدْ تَعَذَّرَ بِمَوْتِهِ). ما يُفعل في حياته وهو طلب الدعاء منه والشفاعة منه انتهى بموته، فلا يُطلب منه شيء عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٨).

قوله: (**بِخِلَافِ التَّوَسُّلِ الَّذِي هُوَ الْإِيمَانُ بِهِ وَالطَّاعَةُ لَهُ فَإِنَّهُ مَشْرُوعٌ دَائِمًا**).

أما التوسل بطاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباعه فهذا مشروع في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعد مماته، لا ينقطع الاتباع والطاعة بموت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأنت إذا فعلت طاعة فقد أطعت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذا تركت المعصية فقد أطعت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو ميت عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فالاتباع والطاعة لا ينقطعان بموته، وأما دعاؤه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فينقطع بموته.

قوله: (**فَلَفْظُ التَّوَسُّلِ يُرَادُ بِهِ ثَلَاثَةُ مَعَانٍ: أَحَدُهُمَا: التَّوَسُّلُ بِطَاعَتِهِ، فَهَذَا فَرْضٌ لَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِهِ**)، وهذا لا ينكره أحد.

قوله: (**وَالثَّانِي: التَّوَسُّلُ بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ، وَهَذَا كَانَ فِي حَيَاتِهِ**). أي: بدعاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشفاعته، وهذا إنما يجوز في حياته لا بعد موته.

قوله: (**وَيَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَوَسَّلُونَ بِشَفَاعَتِهِ**). لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة يكون حيًّا، فيذهبون إلى الأنبياء يطلبون منهم الشفاعة في أن يريحهم الله من الموقف، فيعتذرون كلهم إلى أن يأتوا إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول: «**أَنَا لَهَا**»، فيذهب ويخر ساجدًا بين يدي ربه حتى يُقال له: «**ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**»، فعند ذلك يشفع في الخلق، فيريحهم الله من الموقف[1]. وهذا هو المقام المحمود الذي قال الله فيه: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩]، فالشفاعة العظمى التي لجميع الخلق هي المقام المحمود الذي يحمده عليه الأولون

---

(١) حديث الشفاعة في أهل الموقف تقدم تخريجه (ص٣٠).

والآخرون، وهو حي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك الوقت، والناس بُعثوا يوم القيامة وصاروا أحياء بعد الموت.

قوله: (**وَالثَّالِثُ: التَّوَسُّلُ بِهِ بِمَعْنَى: الْإِقْسَامُ عَلَى اللهِ بِذَاتِهِ وَالسُّؤَالُ بِذَاتِهِ**). وهذا لا يجوز؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**»(١)، فلا يجوز الحلف بالمخلوق مطلقًا، فإذا كان الحلف بالمخلوق على المخلوق شرك، فكيف يُحلف بالمخلوق على الله جَلَّ وَعَلَا؟.

قوله: (**وَإِنَّمَا يُنْقَلُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فِي أَحَادِيثَ ضَعِيفَةٍ مَرْفُوعَةٍ وَمَوْقُوفَةٍ**). التوسل بذاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته إن ما يُروى فيه أحاديث لا يُحتج بها، إما موضوعة، وإما ضعيفة شديدة الضعف، أو حكايات، وهذا لا يصح دليلًا، فالتوسل بذات الرسول أو غيره لا يجوز لا حيًّا ولا ميتًا، لا يجوز التوسل بالمخلوق إلى الله جَلَّ وَعَلَا.

قوله: (**أَوْ عَنْ مَنْ لَيْسَ قَوْلُهُ حُجَّةً**). أي: قال به من العلماء من ليس قوله حجة، والحجة ما قاله الله ورسوله، وليست الحجة ما قاله فلان وعلان.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وأحمد (١٠/ ٢٤٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وَهَذَا هُوَ الَّذِي قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ: إِنَّهُ لا يَجُوزُ، وَنَهَوْا عَنْهُ حَيْثُ قَالُوا: لَا يُسْأَلُ بِمَخْلُوقٍ، وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ: أَسْأَلُكَ بِحَقِّ أَنْبِيَائِكَ.

قَالَ أَبُو الْحُسَيْنِ الْقُدُورِيُّ(١) فِي كِتَابِهِ الْكَبِيرِ فِي الْفِقْهِ الْمُسَمَّى بِشَرْحِ الْكَرْخِيِّ فِي بَابِ الْكَرَاهَةِ: وَقَدْ ذَكَرَ هَذَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ.

قَالَ بِشْرُ بْنُ الْوَلِيدِ(٢): حَدَّثَنَا أَبُو يُوسُفَ(٣)، قَالَ: قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَدْعُوَ اللهَ إِلَّا بِهِ. وَأَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ: «بِمَعَاقِدِ الْعِزِّ مِنْ عَرْشِكَ». أَوْ «بِحَقِّ خَلْقِكَ». وَهُوَ قَوْلُ أَبِي يُوسُفَ. قَالَ أَبُو يُوسُفَ: بِمَعْقِدِ الْعِزِّ مِنْ

---

(١) هو: أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان، المعروف بالقدوري، ولد سنة ثنتين وستين وثلاثمائة، تفقه على أبي عبد الله الجرجاني، وروى الحديث عن محمد بن علي المؤدب، وعبيد الله الجوشني، وروى عنه أبو عبد الله الدامغاني، والخطيب، ولم يحدث إلا بشيء يسير، انتهت إليه بالعراق رياسة أصحاب أبي حنيفة، قال السمعاني: كان فقيهًا صدوقًا، صنف من الكتب المختصر المشهور، وشرح مختصر الكرخي، والتجريد، والتقريب، وغير ذلك، توفي سنة ثمان وعشرين وأربعمائة. انظر: تاريخ بغداد (٤/ ٣٧٧)، وطبقات الحنفية (١/ ٩٣).

(٢) هو: بشر بن الوليد الكندي، سمع عبد الرحمن بن الغسيل، ومالك بن أنس، وتفقه بأبي يوسف، روى عنه أبو القاسم البغوي، وعبيد الله بن جعفر، وحامد بن شعيب، وغيرهم، وولي قضاء مدينة المنصور إلى سنة ثلاث عشرة ومائتين، وكان واسع الفقه، قال عنه الخطيب: «كان جميل المذهب، حسن الطريقة»، توفي سنة ثمان وثلاثين ومائتين. انظر: الثقات (٨/ ١٤٣)، وتاريخ بغداد (٧/ ٨٠)، وطبقات الحنفية (١/ ١٦٦).

(٣) هو: القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري، الكوفي، صاحب أبي حنيفة، سمع هشام بن عروة، وأبا إسحاق الشيباني، وعطاء بن السائب، وطبقتهم، وعنه محمد بن الحسن الفقيه، وأحمد بن حنبل، وبشر بن الوليد، ويحيى بن معين، وخلق سواهم، توفي سنة ثنتين وثمانين ومائة. انظر: الثقات (٧/ ٦٤٥)، وتاريخ بغداد (١٤/ ٢٤٢)، وطبقات الحنفية (٢/ ٢٢٠).

عَرْشِهِ هُوَ اللهُ، فَلَا أَكْرَهُ هَذَا، وَأَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ: بِحَقِّ فُلَانٍ، أَوْ بِحَقِّ أَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ، وَبِحَقِّ الْبَيْتِ الحَرَامِ وَالمَشْعَرِ الحَرَامِ.

قَالَ الْقُدُورِيُّ: المَسْأَلَةُ بِخَلْقِهِ لَا تَجُوزُ؛ لِأَنَّهُ لَا حَقَّ لِلْخَلْقِ عَلَى الخَالِقِ، فَلَا تَجُوزُ وِفَاقًا(١).

الشَّرح

قوله: (لَا يُسْأَلُ بِمَخْلُوقٍ، وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ: أَسْأَلُكَ بِحَقِّ أَنْبِيَائِكَ).
أنكر الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقدم الأئمة الأربعة وأصحابه الإقسام على الله بمخلوق.

قوله: (وَقَدْ ذَكَرَ هَذَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ). أي: ذكروا كراهة الإقسام على الله بمخلوق، والكراهة في عرف المتقدمين معناها التحريم، أما الكراهة بمعنى كراهة التنزيه هذه عند المتأخرين، أما الأقدمون إذا قالوا: يُكره. فمعناه يحرم، قال تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء:٣٨]، وفيه الشرك: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء:٣٩].

قوله: (قَالَ بِشْرُ بْنُ الْوَلِيدِ: حَدَّثَنَا أَبُو يُوسُفَ، قَالَ: قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ). أبو حنيفة له ثلاثة تلاميذ اختصوا بحمل مذهبه، وهم أوثق الناس: أبو يوسف

---

(١) انظر: المحيط البرهاني في الفقه النعماني (٥/ ٣١٢)، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق (٦/ ٣١)، والدر المختار شرح تنوير الأبصار (ص٦٦٢).

هذا واحد، والثاني: محمد بن الحسن الشيباني[١]، والثالث: زفر بن الهذيل[٢]، هؤلاء هم أصحاب أبي حنيفة المختصون بنقل الرواية عنه رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، وكلهم حكوا عنه أنه يكره التوسل بذات المخلوق.

قول أبي حنيفة: (وَأَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ: بِمَعَاقِدِ الْعِزِّ مِنْ عَرْشِكَ). لأن العرش مخلوق، فلا يتوسل إلى الله به.

قول أبي يوسف: (بِمَعْقِدِ الْعِزِّ مِنْ عَرْشِهِ هُوَ اللهُ، فَلَا أَكْرَهُ هَذَا). أبو حنيفة كره هذا القول ولم يُفصل، أما أبو يوسف ففصل وقال: إذا كان المراد معاقد العز الله جَلَّ وَعَلَا فيتوسل إليه بذلك، أما إن كان المقصود مخلوقًا من خلقه فلا يجوز.

قوله: (**قَالَ الْقَدُورِيُّ: الْمَسْأَلَةُ بِخَلْقِهِ لَا تَجُوزُ**). لا يجوز سؤال الله بحق فلان؛ لأنه ليس لأحد حق على الله إلا ما تفضل الله به على خلقه، ولو كان له حق فلا تسأل به؛ لأن هذا حقه هو وعمله هو.

---

(١) هو: محمد بن الحسن بن فرقد أبو عبد الله الشيباني، إمام أهل الرأى، ولد بواسط، ونشأ بالكوفة، وسمع العلم بها من أبي حنيفة، ومسعر بن كدام، وسفيان الثوري، وكتب أيضًا عن مالك بن أنس، وأبى عمرو الأوزاعي، وغيرهم، وروى عنه الإمام الشافعي، وأبو سليمان الجوزجاني، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وغيرهم، توفي بالري سنة تسع وثمانين ومائة. انظر: تاريخ بغداد (٢/ ١٧٢)، وطبقات الحنفية (٢/ ٤٢).

(٢) هو: زفر بن الهذيل بن قيس العنبري البصري، كنيته أبو الهذيل، كان من أصحاب أبى حنيفة، يروي عن يحيى بن سعيد الأنصاري، روى عنه شداد بن حكيم البلخي وأهل الكوفة، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال عنه: «كان زفر متقنًا حافظًا قليل الخطأ، لم يسلك مسلك صاحبه في قلة التيقظ في الروايات، وكان أقيس أصحابه وأكثرهم رجوعًا إلى الحق إذا لاح له»، توفي سنة ثمان وخمسين ومائة. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٣٨٧)، والثقات (٦/ ٣٣٩)، وطبقات الحنفية (١/ ٢٤٣).

قوله: (**لِأَنَّهُ لَا حَقَّ لِلْخَلْقِ عَلَى الخَالِقِ، فَلَا تَجُوزُ وِفَاقًا**). أي: لا حق واجب على الخالق سبحانه، أما الحق الذي تفضل الله به فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، فهذا تفضل الله به، لا أن المخلوق هو الذي ألزم الله به وجعله على الله جَلَّ وَعَلَا، فلا أحد يفرض على الله شيئًا. وقد جاء في الحديث: «**فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»[١]، فهذا حق تفضل الله به، لا أن أحدًا أوجبه عليه سبحانه.

(١) تقدم تخريجه (ص٢١٤).

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ مِنْ أَنَّ اللهَ لَا يُسْأَلُ بِمَخْلُوقٍ لَهُ مَعْنَيَانِ:

أَحَدُهُمَا: هُوَ مُوَافِقٌ لِسَائِرِ الْأَئِمَّةِ الَّذِينَ يَمْنَعُونَ أَنْ يُقْسِمَ أَحَدٌ بِالمَخْلُوقِ، فَإِنَّهُ إِذَا مَنَعَ أَنْ يُقْسِمَ عَلَى مَخْلُوقٍ بِمَخْلُوقٍ، فَلأَنْ يَمْنَعَ أَنْ يُقْسِمَ عَلَى الخَالِقِ بِمَخْلُوقٍ أَوْلَى وَأَحْرَى، وَهَذَا بِخِلَافِ إِقْسَامِهِ سُبْحَانَهُ بِمَخْلُوقَاتِهِ كَـ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾، ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾، ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾.

فَإِنَّ إِقْسَامَهُ بِمَخْلُوقَاتِهِ يَتَضَمَّنُ مِنْ ذِكْرِ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ مَا يَحْسُنُ مَعَهُ إِقْسَامُهُ، بِخِلَافِ المَخْلُوقِ فَإِنَّ إِقْسَامَهُ بِالمَخْلُوقَاتِ شِرْكٌ بِخَالِقِهَا؛ كَمَا فِي السُّنَنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»[1]. وَقَدْ صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ، وَفِي لَفْظٍ: «فَقَدْ كَفَرَ». وَقَدْ صَحَّحَهُ الحَاكِمُ[2].

الشَّرح

قوله: (فَإِنَّهُ إِذَا مَنَعَ أَنْ يُقْسِمَ عَلَى مَخْلُوقٍ بِمَخْلُوقٍ، فَلأَنْ يَمْنَعَ أَنْ يُقْسِمَ عَلَى الخَالِقِ بِمَخْلُوقٍ أَوْلَى وَأَحْرَى). لو أقسمت بمخلوق على مخلوق لم يجز

(١) تقدم تخريجه (ص٥٢٠).

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٦٥) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، فقد احتجا بمثل هذا الإسناد وخرجاه في الكتاب، وليس له علة، ولم يخرجاه، وله شاهد على شرط مسلم، فقد احتج بشريك بن عبد الله النخعي».

هذا، فكيف تقسم بالمخلوق على الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الإقسام بالمخلوق شرك كما يأتي.

قوله: (وَهَذَا بِخِلَافِ إِقْسَامِهِ سُبْحَانَهُ بِمَخْلُوقَاتِهِ). أما الله جَلَّوَعَلَا فإنه يُقسم بما شاء من خلقه، أما العبد فلا يُقسم إلا بالله عَزَّوَجَلَّ. فإقسامه جَلَّوَعَلَا بآياته: مثل الليل والضحى، وإقسامه أيضًا بخلقه كإقسامه بالصافات والنازعات وهم الملائكة، فلله عَزَّوَجَلَّ أن يقسم بما شاء من خلقه.

قوله: (فَإِنَّ إِقْسَامَهُ بِمَخْلُوقَاتِهِ يَتَضَمَّنُ مِنْ ذِكْرِ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ مَا يَحْسُنُ مَعَهُ إِقْسَامُهُ). لا يقسم بشيء من مخلوقاته إلا وهذا المقسم به له شأن عظيم وآية على قدرة الله جَلَّوَعَلَا.

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»(١)، وَقَالَ: «لَا تَحْلِفُوا إِلَّا بِاللهِ»(٢)، وَقَالَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ»(٣)، «فَإِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ»(٤). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»(٥).

وَقَدِ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّهُ مَنْ حَلَفَ بِالْمَخْلُوقَاتِ الْمُحْتَرَمَةِ أَوْ بِمَا يَعْتَقِدُ هُوَ حُرْمَتَهُ: كَالْعَرْشِ، وَالْكُرْسِيِّ، وَالْكَعْبَةِ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَمَسْجِدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْمَلَائِكَةِ، وَالصَّالِحِينَ، وَالْمُلُوكِ، وَسُيُوفِ الْمُجَاهِدِينَ، وَتُرْبِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَأَيْمَانِ السَّذَّقِ(٦)، وَسَرَاوِيلِ الْفُتُوَّةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، لَا يَنْعَقِدُ يَمِينُهُ، وَلَا كَفَّارَةَ فِي الْحَلِفِ بِذَلِكَ.

الشَّرْح

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى» صنمان من أصنام

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٧٩)، ومسلم (١٦٤٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٤٨)، والنسائي (٣٧٦٩)، وابن حبان (١٠/ ١٩٩)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٥١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٤٨)، ومسلم (١٦٤٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه البخاري (٦١٠٨)، ومسلم (١٦٤٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٥) أخرجه البخاري (٤٨٦٠)، ومسلم (١٦٤٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٦) السَّذَّق: من أعياد العجم، وقيل: ليلة الوقود، فارسي معرب، أصله: «شذه». انظر: تهذيب اللغة (٨/ ٣٠٥)، ولسان العرب (١٠/ ١٥٥).

وأعياد العجم ليست من الأشياء المحترمة عند المسلم، فلعلها تصحيف، ولعل الصواب: «أيمان البندق» كما في مجموع الفتاوى (١/ ٢٠٤)، ويُقصد بها ما يُرمى به في أمور الحرب والسلاح؛ لأنه ذكر بعدها ما يناسب ذلك فقال: «وسراويل الفتوة»، فكأنه يقصد اصطلاحًا في وقته يتعلق بنوع من أنواع القوة والرماية.

الجاهليـة، «**فَلْيَقُـلْ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ**». يعنـي: أنـه أشرك، فعليه أن يطهر نفسـه بالتوحيد، فيقول: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)؛ لتكون كفارة لما حصل منه من الشرك.

قوله: (وَسَرَاوِيلِ الفُتُوَّةِ). هذا عند الصوفية، يعظمونها.

قوله: (لَا يَنْعَقِدُ يَمِينُهُ، وَلَا كَفَّارَةَ فِي الحَلِفِ بِذَلِكَ). من حلف بغير الله فقد أشرك، فعليه التوبة، وإذا حنث وخالف ما حلف عليه فليس عليه كفارة؛ لأنها يمين غير مشروعة، والكفارة إنما تكون في اليمين المشروعة وهو الحلف بالله عَزَّوَجَلَّ، وهذه ليست مشروعة ولا منعقدة وليس فيها كفارة، ولكن عليه التوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وَالحَلِفُ بِالمَخْلُوقَاتِ حَرَامٌ عِنْدَ الجُمْهُورِ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ، وَأَحَدُ الْقَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ. وَقَدْ حُكِيَ إِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ عَلَى ذَلِكَ.

وَقِيلَ: هِيَ مَكْرُوهَةٌ كَرَاهَةَ تَنْزِيهٍ.

وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ، حَتَّى قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: «لِأَنْ أَحْلِفَ بالله كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِ اللهِ صَادِقًا»(١)؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الحَلِفَ بِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ، وَالشِّرْكُ أَعْظَمُ مِنَ الْكَذِبِ.

الشَّرْح

قوله: (وَالحَلِفُ بِالمَخْلُوقَاتِ). الحلف والقسم واليمين بمعنى واحد، وهو: تأكيد أمر من الأمور بذكر معظم، ويكون بالواو مثل: «والله»، ويكون بالباء مثل: «بالله»، ويكون بالتاء مثل: «تالله»، هذه حروف القسم. ولَمَّا كان القسم تعظيمًا للمحلوف به، والتعظيم لا يليق إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كان الحلف بغيره شركًا بالله عَزَّوَجَلَّ، وهو الحلف بالمخلوقات كلها، فلا يجوز الحلف إلا بالله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (وَالحَلِفُ بِالمَخْلُوقَاتِ حَرَامٌ عِنْدَ الجُمْهُورِ). هو منهي عنه بالإجماع، ولكن الجمهور على أن النهي للتحريم كما هو الأصل في النهي، وذهب بعض العلماء إلى أن النهي للتنزيه، أي: مكروه كراهية التنزيه، وإلا فالجميع مجمعون على النهي عن الحلف بغير الله، ولكن هل هو نهي يفيد التحريم، أو يفيد الكراهة؟

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٨/ ٤٦٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٧٩).

والصحيح ما ذهب إليه الجمهور أن الحلف بغير الله حرام؛ لأنه شرك.

قوله: (وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ، وَأَحَدُ الْقَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ). هو مذهب الأئمة الثلاثة: أبي حنيفة، وهو أقدم الأئمة الأربعة، وقول في مذهب أحمد ومذهب الشافعي.

قوله: (وَقَدْ حُكِيَ إِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ عَلَى ذَلِكَ). أي: إجماع الصحابة على تحريم الحلف بغير الله.

قوله: (وَقِيلَ: هِيَ مَكْرُوهَةٌ كَرَاهَةَ تَنْزِيهٍ. وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ). هذا القول الثاني: أنها جائزة، أو مكروهة كراهة تنزيه. والصواب: أنها حرام، وأن كراهتها كراهة تحريم وليست كراهة تنزيه؛ لأنه ظاهر النصوص، وظاهر النهي.

قوله: (حَتَّى قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: لِأَنْ أَحْلِفَ باللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِ اللهِ صَادِقًا). قال هؤلاء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الأجلاء هذه الكلمة العظيمة؛ لأن الكذب سيئة والشرك سيئة، لكن سيئة الشرك أشد من سيئة الكذب، فإذا حلفت بالله كاذبًا فهذه خطيئة وذنب، ولكنها أخف من الشرك وهو الحلف بالمخلوق، ولو كنت صادقًا في يمينك أو في حلفك.

وَإِنَّمَا يُعْرَفُ النِّزَاعُ فِي الحَلَفِ بِالْأَنْبِيَاءِ، فَعَنْ أَحْمَدَ فِي الحَلِفِ بِالنَّبِيِّ ﷺ رِوَايَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: لَا يَنْعَقِدُ الْيَمِينُ بِهِ كَقَوْلِ الجُمْهُورِ: مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ والشَّافِعِيِّ.

وَالثَّانِيَةُ: يَنْعَقِدُ الْيَمِينُ بِهِ، وَاخْتَارَ ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، كَالْقَاضِي(١) وَأَتْبَاعِهِ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ(٢) وَافَقَ هَؤُلَاءِ.

وَقَصَرَ أَكْثَرُ هَؤُلَاءِ النِّزَاعَ فِي ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً، وَعَدَّى ابْنُ عَقِيلٍ(٣) هَذَا الحُكْمَ إِلَى سَائِرِ الأَنْبِيَاءِ.

---

(١) هو: محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد، القاضي أبو يعلى ابن الفراء البغدادي الحنبلي، صاحب التعليقة الكبرى، والتصانيف المفيدة في المذهب، ولد سنة ثمانين وثلاثمائة، وسمع أبا الحسن الحربي، وإسماعيل بن سويد، وجماعة، وعنه أبو بكر الخطيب، وأبو الخطاب الكلوذاني، وغيرهما، توفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة. انظر: تاريخ بغداد (٢/ ٢٥٨٢)، وطبقات الحنابلة (٢/ ١٩٣)، وسير أعلام النبلاء (١٨/ ٨٩).

(٢) هو أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، شيخ الحرم وصاحب كتاب المبسوط في الفقه، وكتاب الأشراف في اختلاف العلماء، وغير ذلك، سمع محمد بن ميمون، ومحمد بن إسماعيل الصائغ، وخلقًا كثيرًا، حدث عنه أبو بكر بن المقرئ، ومحمد بن يحيى بن عمار، وآخرون، توفي سنة ثمان عشرة وثلاثمائة. انظر: طبقات الشافعية (١/ ٩٨)، وطبقات الشافعية الكبرى (٣/ ١٠٢)، وميزان الاعتدال (٦/ ٣٨).

(٣) هو: أبو الوفاء علي بن محمد بن عقيل بن عبد الله، الفقيه البغدادي، سمع أبا بكر بن بشران، وأبا الفتح بن شيطا، وأبا محمد الجوهري، وأبا يعلى بن الفراء وتفقه عليه، قال الذهبي: «أخذ علم العقليات عن شيخي الاعتزال أبي علي بن الوليد وأبي القاسم بن التبان صاحبي أبي الحسين البصري فانحرف عن السنة»، وعنه أبو حفص المغازلي، وأبو المعمر الأنصاري، وأبو بكر السمعاني، وأبو طاهر السلفي، وآخرون، توفي سنة ثلاث عشرة وخمسمائة. انظر: طبقات الحنابلة (٢/ ٢٥٩)، وميزان الاعتدال (٥/ ١٧٦)، وسير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٤٣).

وَإِيجَابُ الْكَفَّارَةِ بِالحَلِفِ بِمَخْلُوقٍ وَإِنْ كَانَ نَبِيًّا قَوْلٌ ضَعِيفٌ فِي الْغَايَةِ، مُخَالِفٌ لِلأُصُولِ وَالنُّصُوصِ، فَالْإِقْسَامُ بِهِ عَلَى اللهِ -وَالسُّؤَالُ بِهِ بِمَعْنَى الْإِقْسَامِ- هُوَ مِنْ هَذَا الجِنْسِ.

وَأَمَّا السُّؤَالُ بِالمَخْلُوقِ إِذَا كَانَتْ فِيهِ بَاءُ السَّبَبِ لَيْسَتْ بَاءَ الْقَسَمِ -وَبَيْنَهُمَا فَرْقٌ- فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِإِبْرَارِ الْقَسَمِ.

وَثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ مِن عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ». قَالَ ذَلِكَ لَمَّا قَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ: أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ؟ قَالَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لَا تُكْسَرُ سِنُّهَا. فَقَالَ: «يَا أَنَسُ كِتَابُ اللهِ القِصَاصُ»، فَرَضِيَ الْقَوْمُ وَعَفَوْا، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ مِن عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»[1].

الشَّرْح

قوله: (وَإِنَّمَا يُعْرَفُ النِّزَاعُ فِي الحَلَفِ بِالْأَنْبِيَاءِ). هل الحلف بالمخلوقين منهي عنه مطلقًا، أو يُستثنى الأنبياء، فيجوز الحلف بهم؟ هذا هو محل النزاع.

قوله: (فَعَنْ أَحْمَدَ فِي الحَلِفِ بِالنَّبِيِّ ﷺ رِوَايَتَانِ: ...). الأئمة الثلاثة على أنه لا يجوز الحلف بالأنبياء عمومًا، ومنهم نبينا محمد ﷺ، وهو مذهب الثلاثة، ورواية عن أحمد عليها جمهور أصحابه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٣)، ومسلم (١٦٧٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

والراوية الثانية عن أحمد، وعليها بعض الأصحاب: أن الحلف بالنبي ﷺ خاصة جائز، وينعقد، وهذا مرجوح بلا شك.

قوله: (**وَابْنُ الْمُنْذِرِ**) من الشافعية (**وَافَقَ هَؤُلَاءِ**) الذين قالوا: ينعقد الحلف بالنبي ﷺ.

قوله: (**وَقَصَرَ أَكْثَرُ هَؤُلَاءِ النِّزَاعَ فِي ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً**). أما بقية الأنبياء فلا يجوز الحلف بهم عند الجميع، وإنما هذا خاص بنبينا محمد ﷺ، والصحيح: عدم الجواز؛ لعموم الأحاديث الآتية عامة في الأنبياء وفي غيرهم.

قوله: (**وَعَدَّى ابْنُ عَقِيلٍ هَذَا الْحُكْمَ إِلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ**). ابن عقيل من كبار الحنابلة، ويرى أن هذا شامل لجميع الأنبياء وليس خاصًّا بالنبي، فيجوز، أو ينعقد الحلف بالأنبياء، لكن جمهور الأصحاب على خلاف ذلك، وأن الذين قالوا: ينعقد إنما هو في حق النبي ﷺ خاصة.

وعلى كل حال هذا خلاف أتى به الشيخ لبيان البحث في هذه المسألة، فمن عادته رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه يستقصي البحث، ثم يُبين الصحيح الراجح؛ لئلا يأتي من يقول: المسألة فيها خلاف، والشيخ لم يذكر هذا الخلاف، كما ينادي به اليوم كثير من الجهال والمغرضين، ويقولون: المسائل فيها خلاف، وأنتم تجحدون الخلاف ولا تبينونه، فنحن نقول: الخلاف يُذكر، ولكن العبرة بما قام عليه الدليل من الكتاب، والسنة.

قوله: (**وَإِيجَابُ الْكَفَّارَةِ بِالْحَلِفِ بِمَخْلُوقٍ وَإِنْ كَانَ نَبِيًّا قَوْلٌ ضَعِيفٌ فِي الْغَايَةِ**). هذه مسألة متفرعة عن الحلف بالمخلوق: هل ينعقد مع تحريمه،

ويكون به كفارة؟ يرى هذا بعض العلماء، والجمهور على أنه لا ينعقد، ولاتجب به كفارة، وهذا هو الصحيح.

قوله: (**مُخَالِفٌ لِلأُصُولِ وَالنُّصُوصِ**). أي: كيف ينعقد وهو منهي عنه، والنهي يقتضي الفساد، فلا ينعقد الحلف بغير الله، ولا تجب به كفارة؛ لأن وجوب الكفارة مبني على انعقاد اليمين، ولذلك لغو اليمين ليس به كفارة، قال تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ [المائدة:٨٩]؛ لأن اللغو غير منعقد.

قوله: (**فَالْإِقْسَامُ بِهِ عَلَى اللهِ -وَالسُّؤَالُ بِهِ بِمَعْنَى الْإِقْسَامِ- هُوَ مِنْ هَذَا الجِنْسِ**). الحلف بالمخلوق قد يكون حلفًا به على مخلوق، وهذا لا يجوز، وقد يكون إقسامًا على الخالق، وهذا أشد، فلا يُقسم بالمخلوق على الخالق جَلَّوَعَلَا.

قوله: (**وَأَمَّا السُّؤَالُ بِالمَخْلُوقِ إِذَا كَانَتْ فِيهِ بَاءُ السَّبَبِ لَيْسَتْ بَاءَ الْقَسَمِ**). الإقسام بالمخلوق على الله أو على المخلوق بالباء يحتمل أنه أراد الحلف؛ لأن الباء من حروف القسم، ويحتمل أنه أراد باء السببية، فلا يكون حلفًا، وإنما يقول: أسألك بسبب فلان، وما له من المنزلة عندك، والقرابة منك، فإذا كانت الباء باء السببية فلا تدخل في الحلف.

قوله: (**وَبَيْنَهُمَا فَرْقٌ**). أي: بين باء السبب وباء القسم، فباء السبب ليس فيها إثم، وأما باء القسم ففيها الإثم؛ لأنه حلف بغير الله.

قوله: (**فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَمَرَ بِإِبْرَارِ الْقَسَمِ**). إبرار القسم: الوفاء به، فإذا حلف عليك أحد بالله أن تأكل أو تشرب أو تدخل بيته، فيجب عليك أن تبر بقسمه، وألا تحنثه؛ تعظيمًا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ**». الحلف على الله بالله عَزَّ وَجَلَّ، كأن تقول: والله يا ربي، أو أحلف بك يا ربي أن تقضي حاجتي. هذا لا بأس به؛ لأنه من حسن الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ، ومن تعظيم الرغبة في الله عَزَّ وَجَلَّ، ولكن هذا لا يكون لكل أحد، وإنما يكون لخواص الأولياء، كما في قصة الربيع بنت النضر، فإنها صار بينها وبين جارية من جواري الأنصار مشادة، فكسرت الربيع ثنية الجارية، وجاء أهلها يشتكون إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطلبون القصاص، والله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة:٤٥]، فالله أوجب القصاص في السن، فجاءوا يطالبون بحقهم، فحكم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقصاص، فأخوها أنس بن النضر -وكان من سادات الصحابة ومن أولياء الله المخلصين- قال: (أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ؟). يتعجب من هذا، أو يستبعد هذا، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نَعَمْ، كِتَابُ اللهِ الْقَصَاصُ**». فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يحابي أحدًا، يقيم الحق على القوي والضعيف، وعلى كل أحد حكم بالقصاص، فقال: (لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لَا تُكْسَرُ سِنُّهَا).

هذا محل الشاهد: هو ليس يعترض على حكم الله، وإنما يؤمل في الله أن الله يُهيئ فرجًا لها ومخرجًا، فهذا من باب حسن الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ، وقد وقع هذا، فقد ألقى الله في قلوب هؤلاء أن يسمحوا عن الربيع، فهذا من كرامة الأولياء أن الله ألهم هؤلاء أن يسمحوا؛ لأن أنسًا أقسم على الله ألا يقتصوا منها، فأبر الله قسمه، فهذا يُعد من كرامات أولياء الله عَزَّ وَجَلَّ.

الشاهد منه: أن الحلف على الله إذا كان من باب حسن الظن بالله، فإنه جائز، أما إذا كان من باب الحجر على الله، وسوء الظن بالله، فإنه حرام ومحبط للعمل؛ كما جاء في الحديث في الرجلين من بني إسرائيل: أن أحدهما كان يلقى أخاه على المعصية فينهاه عن ذلك، ثم يلقاه مرة ثانية فينهاه، واستمر الرجل يعصي الله، فأخذت هذا الرجل الذي ينكر عليه الشدة، وقال: والله لا يغفر الله لفلان. وهذا سوء أدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وسوء ظن بالله، وتقنيط من رحمة الله، وهذا لا يجوز، فقال الله جَلَّ وَعَلَا: «**مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ**»، أي: يحلف عليَّ «**أَلَّا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**»(١).

فأحبط عمله لأنه أساء الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ، ويأس من رحمة الله، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣]، ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، فلا يجوز لأحد أن يقطع أن الله لا يغفر لأحد؛ لأن هذا من سوء الظن بالله، أما أن يقسم على الله أن يفعل الخير، وينزل الغيث، وينصر المسلمين، فأمر طيب؛ لأنه من حسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢١) من حديث جندب بن عبد الله البجلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»(١)، رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ.

وقال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ. أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ(٢) جَوَّاظٍ(٣) مُسْتَكْبِرٍ»(٤). وَهَذَا فِي الصَّحِيحَيْنِ وَكَذَلِكَ حَدِيثُ أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ وَالْآخَرُ مِنْ أَفْرَادِ مُسْلِمٍ.

وَقَدْ رُوِيَ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ» أَنَّهُ قَالَ: «مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ»(٥).

وَكَانَ الْبَرَاءُ إِذَا اشْتَدَّتِ الْحَرْبُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُفَّارِ يَقُولُونَ: يَا بَرَاءُ، أَقْسِمْ عَلَى رَبِّكَ. فَيُقْسِمُ عَلَى اللهِ فَيَنْهَزِمُ الْكُفَّارُ، فَلَمَّا كَانُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بِالسُّوسِ قَالُوا: يَا بَرَاءُ، أَقْسِمْ عَلَى رَبِّكَ. فَقَالَ: يَا رَبِّ أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ لَمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ وَجَعَلْتَنِي أَوَّلَ شَهِيدٍ. فَأَبَرَّ اللهُ قَسَمَهُ فَانْهَزَمَ الْعَدُوُّ وَاسْتُشْهِدَ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ يَوْمَئِذٍ(٦).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **العُتُل**: هو الجافي الغليظ، وقيل: الجافي الشَّديد الخصومة اللئيم، وقيل: الأكول، وقيل: الشديد من كل شيء. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٨٠)، ومشارق الأنوار (٢/ ٦٥)، ولسان العرب (١١/ ٤٢٣).

(٣) **الجوَّاظ**: قيل: هو القصير البطن، وقيل: الجموع المنوع، وقيل: الكثير اللحم المختال في مشيته، وقيل: الغليظ الرقبة والجسم، وقيل: الفاجر، وقيل: الذي لا يستقيم على أمر واحد يصانع هنا وهنا. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣١٦)، ومشارق الأنوار (١/ ١٦٥)، ولسان العرب (٧/ ٤٣٩).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩١٨)، ومسلم (٢٨٥٣) من حديث حارثة بن وهب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه الترمذي (٣٨٥٤)، والحاكم (٣/ ٣٣١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٣١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ٨٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَهَذَا هُوَ أَخُو أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَتَلَ مِائَةَ رَجُلٍ مُبَارَزَةً غَيْرَ مَنْ شَرَكَ فِي دَمِهِ، وَحُمِلَ يَوْمَ مُسَيْلِمَةَ عَلَى تُرْسٍ وَرُمِيَ بِهِ إِلَى الْحَدِيقَةِ حَتَّى فَتَحَ الْبَابَ(١).

الشَّرْح

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**». هناك من أولياء الله من ليس له مظهر يعجب الناس، وليس له جاه عند الناس «**أَشْعَثَ أَغْبَرَ**» ليس عليه ملابس جميلة، ولا أبهة ينظر الناس إليه من أجلها، وإنما هو أشعث الرأس أغبر عليه غبار، «**مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ**» إذا جاء يريد شيئًا من السلاطين أو الأمراء يدفعونه؛ لأنه ليس معروفًا، فالناس يأنفون منه، ولكنه قريب من الله جَلَّ وَعَلَا، «**لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**»، فدل هذا على أن العبرة ليست بالمظاهر ولا بالجاه، وإنما العبرة بالقلب وما بينه وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا تحتقر أحدًا لمظهره، أو أنه ليس له جاه، فقد يكون من أخص أولياء الله عَزَّ وَجَلَّ، فالميزان ليس باعتبار الناس، وإنما الاعتبار بالإيمان الذي في القلب.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ**». هذه صفات أهل الجنة: كل ضعيف متضعف متواضع لله عَزَّ وَجَلَّ، ليس له مظهر، وليس له مكانة عند الناس، ولكن صلته بالله قوية.

وأما أهل النار (**كُلُّ عُتُلٍّ**)، والعتل: الغليظ الجافي، (**جَوَّاظٍ**) كثير اللحم مختال في مشيته، أي: مظهره وجسمه يعجب الناس، لكنه من أهل النار؛ لأنه

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (ص٧٠)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ٧٧) عن ابن سيرين.

مستكبر، وليس له صلة بالله عَزَّوَجَلَّ. والله جَلَّوَعَلَا قال في المنافقين: ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون:٤]، فمظاهرهم وطلعاتهم بهية، وعندهم فصاحة، لكنهم في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم ليس لهم صلة مع الله جَلَّوَعَلَا، فليست العبرة بالمظاهر، وإنما العبرة بما في القلوب من الإيمان بالله، واليقين بالله، ولو لم يكن هناك مظهر للإنسان.

قوله: (وَهَذَا فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَكَذَلِكَ حَدِيثُ أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ وَالْآخَرُ مِنْ أَفْرَادِ مُسْلِمٍ). حديث أنس بن النضر في الصحيحين، والحديث الذي بعده انفرد به مسلم، ولم يروه البخاري.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ**». قال هذا في أنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهناك شخص آخر -أيضًا- هو البراء بن مالك أخو أنس بن مالك خادم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان شجاعًا مجاهدًا في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وسيأتي ذكره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه من الذين لو أقسموا على الله لأبرهم، وكان ليس له منظر، بل كان أشعث أغبر.

قوله: (وَكَانَ الْبَرَاءُ إِذَا اشْتَدَّتِ الْحَرْبُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُفَّارِ يَقُولُونَ: يَا بَرَاءُ، أَقْسِمْ عَلَى رَبِّكَ. فَيُقْسِمُ عَلَى اللهِ فَيَنْهَزِمُ الْكُفَّارُ). يقسم على الله، فيبر الله بقسمه، ويهزم الكفار.

قوله: (فَلَمَّا كَانُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بِالسُّوسِ قَالُوا: يَا بَرَاءُ، أَقْسِمْ عَلَى رَبِّكَ). وهو الذي تسور الحديقة على مسيلمة الكذاب في حرب اليمامة، وفتح للمسلمين، فدخلوا وقد احتمى بها مسيلمة وجنده، فقتلوه، وهو الذي

تشجع، وقال لهم: احملوني وألقوني في الحديقة. فحملوه على الرماح، وألقوه بالحديقة، ففتح الباب، فدخلوا، وهذا من مواقفه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: (عَلَى قَنْطَرَةٍ بِالسُّوسِ). أي: في بعض المغازي.

قوله: (يَا رَبِّ أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ لَمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ وَجَعَلْتَنِي أَوَّلَ شَهِيدٍ. فَأَبَرَّ اللهُ قَسَمَهُ فَانْهَزَمَ الْعَدُوُّ وَاسْتُشْهِدَ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ يَوْمَئِذٍ). الله بر بقسمه في أمرين:

الأول: انهزام المشركين.

والثاني: حصول الشهادة له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (وَهَذَا هُوَ أَخُو أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ). أنس بن مالك بن النضر خادم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (قَتَلَ مِائَةَ رَجُلٍ مُبَارَزَةً). المبارزة يبرز اثنان بالسيوف، واحد من المسلمين وواحد من الكفار، ويتقاتلان، وهذه لا يُقدم عليها إلا الشجاع، فقد بارز مائة شخص من الكفار، وقتلهم، وهذا من مواقفه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (غَيْرَ مَنْ شَرَكَ فِي دَمِهِ). وقتل غير هذه المائة ممن شارك في دمه مع غيره.

قوله: (وَحُمِلَ يَوْمَ مُسَيْلِمَةَ عَلَى تُرْسٍ وَرُمِيَ بِهِ إِلَى الْحَدِيقَةِ حَتَّى فَتَحَ الْبَابَ). الترس هو: ما يُتقى به السلاح، ويُشبه الصحن من الحديد يجعله المقاتل أمام وجهه ليصد به السهام، فأجلسوه على هذا الترس، وحملوه بأيديهم حتى شارف السور، فسقط في الحديقة، وفتح الباب للمسلمين، ونصر الله المسلمين بسببه، فهل بعد هذه الشجاعة شجاعة؟.

وَالْإِقْسَامُ بِهِ عَلَى الْغَيْرِ أَنْ يَحْلِفَ الْمُقْسِمُ عَلَى غَيْرِهِ لَيَفْعَلَنَّ كَذَا؛ فَإِنْ حَنَّثَهُ وَلَمْ يَبَرَّ قَسَمَهُ، فَالْكَفَّارَةُ عَلَى الحَالِفِ لَا عَلَى المَحْلُوفِ عَلَيْهِ عِنْدَ عَامَّةِ الْفُقَهَاءِ، كَمَا لَوْ حَلَفَ عَلَى عَبْدِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ صَدِيقِهِ لَيَفْعَلَنَّ شَيْئًا وَلَمْ يَفْعَلْهُ، فَالْكَفَّارَةُ عَلَى الحَالِفِ الحَانِثِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: سَأَلْتُكَ باللهِ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا. فَهَذَا سُؤَالٌ وَلَيْسَ بِقَسَمٍ، وَفِي الحَدِيثِ: «مَنْ سَأَلَكُمْ باللهِ فَأَعْطُوهُ»[(١)]، وَلاَ كَفَّارَةَ عَلَى هَذَا إِذَا لَمْ يُجِبْ سُؤَالَهُ.

وَالخَلْقُ كُلُّهُمْ يَسْأَلُونَ اللهَ مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، وَقَدْ يُجِيبُ اللهُ دُعَاءَ الْكُفَّارِ؛ فَإِنَّ الْكُفَّارَ يَسْأَلُونَ اللهَ الرِّزْقَ فَيَرْزُقُهُمْ وَيَسْقِيهِمْ، وَإِذَا مَسَّهُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ يَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضُوا وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا[(٢)].

وَأَمَّا الَّذِينَ يُقْسِمُونَ عَلَى اللهِ فَيَبَرُّ قَسَمَهُمْ فَإِنَّهُمْ نَاسٌ مَخْصُوصُونَ.

فَالسُّؤَالُ كَقَوْلِ السَّائِلِ للهِ: أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الحَمْدَ أَنْتَ اللهُ المَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَا ذَا الجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ[(٣)].

وَأَسْأَلُكَ بِأَنَّكَ أَنْتَ اللهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ[(٤)].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٥١٣).

(٢) إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٦٧].

(٣) كما في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه أبو داود (١٤٩٥)، والترمذي (٣٥٤٤)، والنسائي (١٣٠٠)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، وأحمد (١٩/ ٢٣٨).

(٤) كما في حديث بريدة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه أحمد (٣٨/ ١٤٩)، وابن ماجه (٣٨٥٧)، وحديث محجن بن الأدرع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه أبو داود (٩٨٥).

وَأَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ[(١)].

فَهَذَا سُؤَالُ اللهِ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِقْسَامًا عَلَيْهِ، فَإِنَّ أَفْعَالَهُ هِيَ مُقْتَضَى أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَمَغْفِرَتُهُ وَرَحْمَتُهُ مِنْ مُقْتَضَى اسْمِهِ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَعَفْوُهُ مِنْ مُقْتَضَى اسْمِهِ الْعَفُوِّ. وَلِهَذَا لَمَّا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنْ وَافَقْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ مَاذَا أَقُولُ؟ قَالَ: «قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي»[(٢)].

الشَّرح

قوله: (وَالْإِقْسَامُ بِهِ عَلَى الْغَيْرِ). الإقسام على الله عرفناه، والإقسام بالله على المخلوق يجب الإبرار به، فإذا حلف عليك أخوك أن تفعل كذا، وليس فيه إثم، فإنك تبر بقسمه، فإذا حلف عليك أن تأكل طعامه، أو تقبل هديته، فعليك أن تبر بقسمه ولا تحنثه؛ تعظيمًا لليمين، وجبرًا لخاطر أخيك.

قوله: (فَإِنْ حَنَّثَهُ وَلَمْ يَبَرَّ قَسَمَهُ، فَالْكَفَّارَةُ عَلَى الحَالِفِ لَا عَلَى المَحْلُوفِ عَلَيْهِ عِنْدَ عَامَّةِ الْفُقَهَاءِ). إبرار المقسم واجب، لكن لو أنه لم يفعل، وحنث أخاه ولم يستجب، فالكفارة تكون على الحالف لا على المحلوف عليه؛ لأنه الله أوجب الكفارة على الحالف، قال تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم:٢]، وقال: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ ...﴾ [المائدة:٨٩]، إلى آخر الآية.

---

(١) كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه أحمد (٦/ ٢٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤٢/ ٢٣٦)، والترمذي (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠).

قوله: (كَمَا لَوْ حَلَفَ عَلَى عَبْدِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ صَدِيقِهِ لَيَفْعَلَنَّ شَيْئًا وَلَمْ يَفْعَلْهُ، فَالْكَفَّارَةُ عَلَى الحَالِفِ الحَانِثِ). لأنه هو الذي حلف، فتجب عليه الكفارة بالحنث، والحنث هو: عدم الوفاء باليمين.

قوله: (وَأَمَّا قَوْلُهُ: سَأَلْتُكَ باللهِ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا. فَهَذَا سُؤَالٌ وَلَيْسَ بِقَسَمٍ). فهو لم يقسم عليك بالله، وإنما سألك بالإيمان بالله؛ لأنك مؤمن تؤمن بالله، فتتعاطف مع أخيك المؤمن من باب الإخوة في الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (وَفِي الحَدِيثِ: «مَنْ سَأَلَكُمْ باللهِ فَأَعْطُوهُ»). تعطيه من أجل تعظيم الله الذي سألك به، والله جَلَّوَعَلَا قال في مطلع سورة «النساء»: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ [النساء:١]، أي: يقول أحدكم للآخر: أسألك بالله أن تعطني كذا.

قوله: (وَلَا كَفَّارَةَ عَلَى هَذَا إِذَا لَمْ يَجِبْ سُؤَالُهُ). إذا قال: أسألك بالله، ولم تعطه ما سأل، فليس في هذا كفارة؛ لأن قوله هذا ليس يمينًا.

قوله: (وَالخَلْقُ كُلُّهُمْ يَسْأَلُونَ اللهَ مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، وَقَدْ يُجِيبُ اللهُ دُعَاءَ الْكُفَّارِ). الله يجيب الدعاء حتى ولو من الكافر، كما جاء في الأدلة أن الكافر إذا كان مظلومًا، ودعا على ظالمه، فإن الله يجيب دعاءه(١)، وكذلك يجيب

(١) كما حديث في أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «اتَّقُوا دَعْوَةَ المَظْلُومِ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ». أخرجه أحمد (٢٠/ ٢٢)، وإسناده ضعيف لجهالة أبي عبد الله الأسدي، ويشهد له حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «ثَلَاثَةٌ لا يُرَدُّ دُعَاؤُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ، يَرْفَعُهَا اللهُ فَوْقَ الْغَمَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ: بِعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ». أخرجه أحمد (١٥/ ٤٦٣)، والترمذي (٣٥٩٨)، وابن ماجه (١٧٥٢).

دعاء الكافر حال الضرورة، ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء:٦٧]، فكانوا يدعون الله مخلصين له الدين حال الضرورة، ولا يدعون غيره، وينسون ما يشركون، فيستجيب الله دعاءهم.

قوله: (وَأَمَّا الَّذِينَ يُقْسِمُونَ عَلَى اللهِ فَيَبَرُّ قَسَمَهُمْ فَإِنَّهُمْ نَاسٌ مَخْصُوصُونَ). ليس لكل أحد، وإنما هو لخواص أولياء الله عَزَّوَجَلَّ الذين صدقوا مع الله عَزَّوَجَلَّ، كأنس بن النضر، والبراء بن مالك.

قوله: (فَالسُّؤَالُ كَقَوْلِ السَّائِلِ للهِ: أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الحَمْدَ أَنْتَ اللهُ المَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَا ذَا الجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ). أسألك بأنك أنت الله، الباء سببية، وليست قسمًا على الله.

قوله: (وَأَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ). هذا من التوسل بأسماء الله، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف:١٨٠]، فهذا من التوسل بألوهيته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وربوبيته ووحدانيته.

قوله: (فَهَذَا سُؤَالُ اللهِ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِقْسَامًا عَلَيْهِ). إنما هو توسل إلى الله بأسمائه وصفاته.

قوله: (فَإِنَّ أَفْعَالَهُ هِيَ مُقْتَضَى أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ). أفعاله كلها من أسمائه وصفاته، فالله جَلَّوَعَلَا يخلق، ويرزق، ويرحم، ويغضب، ويعطي، كل هذا مقتضى أسمائه وصفاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (إِنْ وَافَقْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ مَاذَا أَقُولُ؟). ليلة القدر ليلة عظيمة نوه الله بشأنها في القرآن، ويُستجاب فيها الدعاء، فعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سألت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن وافقتها ماذا تقول؟ أي: بماذا تدعو؟ قَالَ: «**قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**». سألت الله باسمه العفو أن يعفو عنها، فهذا من التوسل على الله جَلَّ وَعَلَا بأسمائه.

وَهِدَايَتُهُ وَدَلَالَتُهُ مِنْ مُقْتَضَى اسْمِهِ الهَادِي، وَفِي الْأَثَرِ الْمَنْقُولِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلَ أَنَّهُ أَمَرَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ: يَا دَلِيلَ الحَيَارَى دُلَّنِي عَلَى طَرِيقِ الصَّادِقِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ[(١)].

وَجَمِيعُ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَبْدِهِ مِنَ الخَيْرِ مِنْ مُقْتَضَى اسْمِهِ الرَّبُّ، وَلِهَذَا يُقَالُ فِي الدُّعَاءِ: يَا رَبُّ، يَا رَبُّ، كَمَا قَالَ آدَمُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، وَقَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود:٤٧]، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ...﴾ [إبراهيم:٣٧]، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الأَنْبِيَاءِ.

وَقَدْ كَرِهَ مَالِكٌ، وَابْنُ أَبِي عِمْرَانَ[(٢)] مِنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ وَغَيْرُهُمَا أَنْ يَقُولَ الدَّاعِي: يَا سَيِّدِي يَا سَيِّدِي وَقَالُوا: قُلْ كَمَا قَالَتِ الأَنْبِيَاءُ: رَبِّ رَبِّ.

وَاسْمُهُ الحَيُّ القَيُّومُ يَجْمَعُ أَصلَ مَعَانِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، كَمَا قَدْ بُسِطَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا المَوْضِعِ، وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُهُ إِذَا اجْتَهَدَ فِي الدُّعَاءِ[(٣)].

---

(١) أخرجه اللالكائي في كرامات الأولياء (ص٢٣٣).

(٢) هو: أبو جعفر أحمد بن أبي عمران موسى بن عيسى، أحد أصحاب الرأي، وشيخ الحنفية، نزل مصر وحدث بها عن عاصم بن علي، وسعيد بن سليمان، وعلي بن الجعد، وغيرهم، وهو أستاذ أبي جعفر الطحاوي، توفي سنة ثمانين ومائتين. انظر: تاريخ بغداد (٥/ ١٤١)، وطبقات الحنفية (١/ ١٢٧)، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٣٤).

(٣) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَهَمَّهُ الأَمْرُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ»، وَإِذَا اجْتَهَدَ فِي الدُّعَاءِ قَالَ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ». أخرجه الترمذي (٣٤٣٦) وقال: «هذا حديث غريب».

فَإِذَا سُئِلَ المَسْؤُولُ بِشَيْءٍ -وَالْبَاءُ لِلسَّبَبِ- سُئِلَ بِسَبَبٍ يَقْتَضِي وُجُودَ المَسْؤُولِ، فَإِذَا قَالَ: أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الحَمْدَ أَنْتَ اللهُ المَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، كَانَ كَوْنُهُ مَحْمُودًا مَنَّانًا بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَقْتَضِي أَنْ يَمُنَّ عَلَى عَبْدِه السَّائِلِ، وَكَوْنُهُ مَحْمُودًا هُوَ يُوجِبُ أَنْ يَفعَلَ مَا يُحْمَدُ عَلَيْهِ، وَحَمْدُ العَبْدِ لَهُ سَبَبُ إِجَابَةِ دُعَائِهِ.

الشَّرْح

قوله: (وَهِدَايَتُهُ وَدَلَالَتُهُ مِنْ مُقْتَضَى اسْمِهِ الهَادِي). كذلك من أفعاله: أنه يهدي ويدل إلى الخير، وهذا من اسمه الهادي.

قوله: (وَفِي الْأَثَرِ المَنْقُولِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلَ). هذا يُروى عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أنه أمر رجلًا أن يدعو الله ويقول: (يَا دَلِيلَ الحَيَارَى دُلَّنِي). فالذي يدل الحيارى هو الله جَلَّ وَعَلَا، وهذا من مقتضى أسمائه وصفاته.

قوله: (وَجَمِيعُ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَبْدِهِ مِنَ الخَيْرِ مِنْ مُقْتَضَى اسْمِهِ الرَّبُّ). كل أفعاله سبحانه منطلقة من اسمه الرب، فإن مقتضى ربوبيته أنه يتصرف في ملكه، وفي عباده، ويراعي ما يصلحهم، وما ينفعهم، وما يقيم حياتهم، وما يضمن مصالحهم، كل هذا من مقتضى ربوبيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: (وَلِهَذَا يُقَالُ فِي الدُّعَاءِ يَا رَبُّ، يَا رَبُّ). ولهذا يُكرر الرب في الدعاء: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠]، ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران:٥٣]، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ [آل عمران:١٤٧]، فيُفتتح الدعاء باسم الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،

ومنه حديث: «الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ»(١). والدعوات التي في القرآن كلها مصدرة بالرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا يُستحب للداعي أن يدعو باسم الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يقول: يا سيدي، وإنما يقول: يا ربي.

قوله: (كَمَا قَالَ آدَمُ)، فهذا آدم أبو البشرية دعا ربه، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، وذريته يدعون الله بربوبيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: (وَقَالَ نُوحٌ)، وهذا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أول الرسل، وعده الله جَلَّ وَعَلَا أن ينجيه وأهله، فلما غرق ابنه مع الكفار سأل ربه وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود:٤٥]، فعاتبه الله جَلَّ وَعَلَا وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:٤٦]، أي: ليس من أهلك الناجين، ولا ينفع الكافر كونه ابنًا لنبي، أو أبًا لنبي، فالكافر لا ينفعه قرابته من النبي؛ لما هو عليه من الكفر، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ -وفي قراءة: (إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ)- ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود:٤٦، ٤٧]. الشاهد: أنه دعا ربه بقوله: «رب».

قوله: (وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ). دعوات إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كلها مصدرة بقوله: «ربنا»، ومن ذلك: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم:٣٧]، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم:٤٠].

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (وَقَدْ كَرِهَ مَالِكٌ وَابْنُ أَبِي عِمْرَانَ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ وَغَيْرُهُمَا أَنْ يَقُولَ الدَّاعِي: يَا سَيِّدِي يَا سَيِّدِي. وَقَالُوا: قُلْ كَمَا قَالَتِ الأَنْبِيَاءُ: رَبِّ رَبِّ). أي: كره مالك بن أنس، وبعض الشافعية أن يدعو، فيقول: يا سيدي يا سيدي، ويعدل عن قوله بأن يقول: يا رب يا رب.

قوله: (وَاسْمُهُ الحَيُّ القَيُّومُ يُجَمِّعُ أَصِلَ مَعَانِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ). الحي القيوم قيل: هذا هو اسم الله الأعظم الذي إذا سُئل به أجاب، وإذا سُئل به أعطى، فهما اسمان يتضمنان كل الأسماء والصفات، فالحي يتضمن كل أفعال الربوبية من: الخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، والقيوم يتضمن كل أفعال الإلهية، وأحوال العباد كلها تتعلق بالألوهية[1].

القيوم، وفي قراءة «القَيَّام»[2]، مبالغة من قيامه بأمور خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،

---

(١) كما في حديث أسماء بنت يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران:١، ٢]»، أخرجه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، والدارمي (٣٣٨٩)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وقد رواه أحمد (٤٥/ ٥٨٤) بلفظ: «سمعت رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في هَذَيْنِ الآيَتَيْنِ ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وَ﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران:٢] إِنَّ فِيهِمَا اسْمَ اللهِ الْأَعْظَمَ». وأخرج الحاكم (١/ ٦٨٤)، والطبراني في مسند الشاميين (٧٧٨)، والأوسط (٨٣٧١)، والكبير (٧٩٢٥)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ في ثَلاثِ سُوَرٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ وَطه» قال القاسم: فالتمستها إنه الحي القيوم، وأخرجه ابن ماجه (٣٨٥٦) موقوفًا على القاسم ومرفوعًا.

(٢) أخرج ابن أبي داود في المصاحف (ص١٦٢) أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قرأ: «الم اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ الْقَيَّامُ».

فهو القائم على كل نفس بما كسبت، وهو القائم بأحوال عباده. والقيوم صيغة مبالغة من القيام، وهو الذي قام بنفسه فلم يحتج إلى أحد، وأقام غيره فاحتاج كل أحد إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: (وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يَقُولُهُ إِذَا اجْتَهَدَ فِي الدُّعَاءِ).** كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا اجتهد في الدعاء وألح يقول: «يا حي يا قيوم»؛ لعظم هذين الاسمين من بين الأسماء والصفات.

قوله: (فَإِذَا سُئِلَ المَسْؤُولُ بِشَيْءٍ -وَالْبَاءُ لِلسَّبَبِ- سُئِلَ بِسَبَبٍ يَقْتَضِي وُجُودَ المَسْؤُولِ). سبق أن الباء تحتمل أنها للقسم، وتحتمل أنها للسببية، فإذا كانت للقسم فلها حكم الحلف، وإذا كانت للسببية فلا تقتضي الحلف.

قوله: (فَإِذَا قَالَ: أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الحَمْدَ أَنْتَ اللهُ) الباء هنا سببية، **(المَنَّانُ)** أي: المعطي، والمن هو العطاء، والذي يمن هو الله جَلَّ وَعَلَا، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات:١٧]، فهو الذي يمن بالعطاء، وهو الذي يعطي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: (وَكَوْنُهُ مَحْمُودًا هُوَ يُوجِبُ أَنْ يَفْعَلَ مَا يُحْمَدُ عَلَيْهِ، وَحَمْدُ العَبْدِ لَهُ سَبَبُ إِجَابَةِ دُعَائِهِ). كونه جَلَّ وَعَلَا له الحمد يدل على استحقاقه له بأفعاله، فالحمد هو الثناء على الله جَلَّ وَعَلَا بأفعاله، فالله جَلَّ وَعَلَا يُحمد لذاته، ويُحمد لأفعاله، ولأسمائه وصفاته.

وَلِهَذَا أُمِرَ المُصَلِّي أَنْ يَقُولَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَه. أَيْ: اسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَ مِنْ حَمْدِهُ، فَالسَّمَاعُ هُنَا بِمَعْنَى الإِجَابَةِ وَالقُبُولِ، كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ»(١). أَيْ: لَا يُسْتَجَابُ.

وَمِنْهُ قَوْلُ الخَلِيلِ فِي آخِرِ دُعَائِهِ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٧]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ [المائدة:٤١]، أَيْ: يَقْبَلُونَ الكَذِبَ وَيَقْبَلُونَ مِنْ قَوْمٍ آخَرِيْنَ لَمْ يَأْتُوكَ، أَيْ: لَمْ يَأْتِكَ أُولَئِكَ الأَقْوَامُ.

الشَّرْح

قوله: (وَلِهَذَا أُمِرَ المُصَلِّي أَنْ يَقُولَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَه. أَيْ: اسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَ مِنْ حَمْدِهُ). المراد به: أن الله يسمع الأصوات كلها، ولا يخفى عليه منها شيء، وهذا اسم وصفة من صفاته، ويحتمل (سَمِعَ) بمعنى: استجاب، فإذا جاءت اللام بعده، فهو بمعنى الاستجابة (سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَه) أي: استجاب لمن حمده، وإلا فهو يسمع كل الأصوات من الحامد وغير الحامد، ولكن هذا سماع خاص بمعنى استجاب لمن حمده.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وفيه: «وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا» بدل قوله: «وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ». وأخرجه بهذا اللفظ: أبو داود (١٥٤٨)، والنسائي (٥٤٦٧)، وابن ماجه (٣٨٣٧)، وأحمد (١٤/ ١٨٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (فَالسَّمَاعُ هُنَا بِمَعْنَى الإِجَابَةِ وَالقَبُولِ). ويأتي السماع -أيضًا- بمعنى سماع الأصوات والدعوات.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يَسْمَعُ**». الشاهد في قوله: «**دُعَاءٍ لَا يَسْمَعُ**»، هل الله لا يسمع أصوات الداعين؟ لا، بل الله جَلَّ وَعَلَا يسمع كل شيء، وإنما المعنى أنه لا يُستجاب له، كما في الرواية الأخرى: «**وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا**».

قوله: (وَمِنْهُ قَوْلُ الخَلِيلِ فِي آخَرِ دُعَائِهِ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾). أي: مجيب الدعاء، وليس القصد أنه يسمع الأصوات فقط، وإنما يسمع الصوت ويجيبه جَلَّ وَعَلَا.

قوله: (وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾). الله جَلَّ وَعَلَا قال عن المنافقين: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾، أي: من المؤمنين من يتأثر بالمنافقين، فحذرنا الله جَلَّ وَعَلَا من هؤلاء.

قوله: (وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾). قوله: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: مستجيبون للكذب ويقبلونه، ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ من الكفار، أي: يستجيبون لهم، فيصرفونهم عن الإيمان، فكل من اتبع مضلًّا من المضلين فقد استمع له، أي: استجاب له وتأثر به، ومن هذا يؤخذ خطورة دعاة الضلال الذين يؤثرون على بعض الناس، فيقبلون منهم ما يدعون إليه.

وَلِهَذَا أُمِرَ المُصَلِّي أَنْ يَدْعُوَ بَعْدَ حَمْدِ اللهِ بَعْدَ التَّشَهُّدِ المُتَضَمِّنِ الثَّناءَ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ. وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَنْ رَآهُ يُصَلِّي وَيَدْعُو وَلَمْ يَحْمَدْ رَبَّهُ وَلَمْ يَصِلِ عَلَى نَبِيِّهِ فَقَالَ: «عَجِلَ هَذَا». ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِحَمْدِ اللهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَلْيَصِلْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلْيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ»(١). [أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ].

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ: كُنْتُ أُصَلِّي وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ مَعَهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَدَأْتُ بِالثَّنَاءِ عَلَى اللهِ ثُمَّ بِالصَّلَاةِ عَلَى نَبِيهِ، ثُمَّ دَعَوْتُ لِنَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَلْ تُعْطَهُ»(٢). [رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ].

فَلَفَظُ السَّمْعِ يُرَادُ بِهِ إِدْرَاكُ الصَّوْتِ، وَيُرَادُ بِهِ مَعْرِفَةُ المَعْنَى مَعَ ذَلِكَ، وَيُرَادُ بِهِ القَبُولُ وَالِاسْتِجَابَةُ مَعَ الْفَهْمِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ عَلَى هَذِهِ الحَالِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا لَمْ يَقْبَلُوا الحَقَّ ثُمَّ ﴿لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣]، فَذَمَّهُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يَفْهَمُونَ الْقُرْآنَ، وَلَوْ فَهِمُوهُ لَمْ يَعْمَلُوا بِهِ.

وَإِذَا قَالَ السَّائِلُ لِغَيْرِهِ: أَسْأَلُكَ بِاللهِ. فَإِنَّمَا سَأَلَهُ بِإِيمَانِهِ بِاللهِ، وَذَلِكَ سَبَبٌ لِإِعْطَاءِ مَنْ سَأَلَهُ بِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْإِحْسَانَ إِلَى الخَلْقِ، لَاسِيَّمَا إِنْ كَانَ المَطْلُوبُ كَفَّ الظُّلْمِ، فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَيَنْهَى عَنِ الظُّلْمِ، وَأَمْرُهُ أَعْظَمُ

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٨١)، والترمذي (٣٤٧٧)، وأحمد (٣٩/ ٣٦٣) من حديث فضالة ابن عبيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٥٩٣)، وقال: (حديث حسن صحيح).

الأَسْبَابِ فِي حَضِّ الفَاعِلِ، فَلَا سَبَبٌ أُولَى مِنْ أَنْ يَكُونَ مُقْتَضِيًا لِمُسَبِّبِهِ مِنْ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى.

الشَّرْح

قوله: (**وَلِهَذَا أُمِرَ الْمُصَلِّي أَنْ يَدْعُوَ بَعْدُ حَمْدِ اللهِ بَعْدَ التَّشَهُّدِ ...**). من أسباب قبول الدعاء: ما جاء في هذه الأحاديث وغيرها أن الداعي يبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم يصلي على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم يدعو بما أراد، فإن هذا من أسباب استجابة الدعاء، والصلاة فيها هذا المعنى؛ لأن فيها حمد الله في قراءة سورة «الفاتحة»، وفيها الصلاة على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيها الدعاء في آخرها قبل السلام، فمن صلى ودعا الله في صلاته، حريٌّ أن يُستجاب له.

قوله: (**وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بِنُ مَسْعُودٍ: كُنْتُ أَصْلِي ...**). لَمَّا بدأ عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالثناء على الله، ثم صلى على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم سأل الله عَزَّ وَجَلَّ، قال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَلْ تُعْطَهُ»، فهذا إقرار منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أتى بآداب الدعاء وأسباب الإجابة.

قوله: (**فَلَفَظُ السَّمْعِ يُرَادُ بِهِ إِدْرَاكُ الصَّوْتِ**). هذا رجوع على ما سبق في تفسير «سمع الله لمن حمده»، فهو يدل على أن حمد الله والثناء عليه من أسباب سماع الله له، أي: استجابته له؛ لأن السماع يُطلق ويُراد به: سماع الصوت دون فهم معناه، كما تسمع البهائم الراعي، ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً﴾ [البقرة:١٧١]، فالبهائم تسمع صوت الراعي، ولكنها لا تفهم معناه، ويُراد بالسماع -أيضًا-: معرفة معنى الصوت، ويُراد به: الإجابة.

قوله: (**وَيُرَادُ بِهِ مَعْرِفَةُ المَعْنَى مَعَ ذَلِكَ**). يُراد به: إدراك الصوت مع معرفة المعنى، فإن سمع الصوت وعرف المعنى ثم عمل به فقد حصل على المطلوب، وإن لم يعمل به فإنه يُحرم من المطلوب، وكذلك من سمع آيات الله وأحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفهم معناها، فإن عمل بها حصل على المطلوب والنتيجة، وإن اكتفى بمجرد السماع والمعرفة فقط ولم يعمل حُرم من فائدتها.

قوله: (**وَيُرَادُ بِهِ القَبُولُ وَالِاسْتِجَابَةُ مَعَ الْفَهْمِ**). وهذا معنى رابع، يُراد بالسماع: القبول والاستجابة له مع الفهم، ويؤخذ هذا من قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ۝٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢٠-٢١]، قالوا: سمعنا بأذانهم، فهم يسمعون الصوت ويفهمون معناه، ولكنهم لا يسمعون سماع إجابة وقبول، فالمنفي عنهم هو سماع الإجابة والقبول، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣]، هذا هو السبب أنهم يسمعون ويفهمون، لكن لا يعملون ولا يستجيبون، فصرفهم الله عَزَّوَجَلَّ، فلم ينتفعوا بما يسمعون.

فقوله: ﴿لَّأَسۡمَعَهُمۡ﴾ المراد به: سماع إجابة واستجابة، وأما أنهم يسمعون، فهم ليسوا صمًا، وإنما يسمعون ويفهمون؛ لأنهم عرب فصحاء، ولكنهم لا يريدون الإجابة، فحرمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأنه لم يعلم فيهم خيرًا.

قوله: (**فَذَمَّهُمْ بِأَنَّهُمْ لا يَفْهَمُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ فَهِمُوهُ لَمْ يَعْمَلُوا بِهِ**). فهم يسمعون القرآن ويفهمونه؛ لأنه بلغتهم، ولكنهم لا يعملون به، ولذلك لَمَّا

قال لهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**». قالوا: إِلَهًا وَاحِدًا، مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ. فنزل فيهم قول الله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص:١-٧][1]. فهم فهموا ما المراد بـ«لا إله إلا الله»، وأن معناها: إفراد الله بالعبادة، وترك عبادة ما سواه، فلما فهموا ذلك تمردوا وعتوا، ولم يستجيبوا لدعوة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن العجيب أن عباد القبور الآن عرب، ولكن لا يفهمون مثل ما فهم كفار قريش، فهم لا يمتنعون من قول: «لا إله إلا الله»، بل يكثرون من قولها صباحًا ومساءً وأورادًا، لكنهم يعبدون القبور، فجمعوا بين المتناقضات، أما كفار قريش فكانوا أنبه منهم وأفطن وأفهم بمعنى «لا إله إلا الله»، ولهذا يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفرة، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني»[2].

لأنهم يقولون: «لا إله إلا الله»، ولا يفهمونها، فيعبدون مع الله غيره.

قوله: (وَإِذَا قَالَ السَّائِلُ لِغَيْرِهِ: أَسْأَلُكَ باللهِ. فَإِنَّمَا سَأَلَهُ بِإِيمَانِهِ باللهِ).
سبق أن الباء تكون للقسم، وتكون سببية ليست قسمًا، فلا يجوز أن تقسم في حق الله وتقول: أسألك بفلان، أو بنبيك، أو بالولي الفلاني.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٩٣)، والترمذي (٣٢٣٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.
(٢) كشف الشبهات (ص٩).

هذا ممنوع؛ لأنه قسم على الله بمخلوق، ولو أقسم على المخلوق بالمخلوق لم يجز، فكيف يقسم على الله بالمخلوق؟

أما إذا قال: أسألك بالله. فالباء سببية، أي: بسبب الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا لا محذور فيه، ولهذا جاء في الحديث: «**مَنْ سَأَلَكُمْ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ**»[1]. أي: بسبب الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ.

(١) تقدم تخريجه (ص٥١٣).

وَقَدْ جَاءَ فِيهُ حَدِيثٌ رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مَسْنَدِهِ وَابْنُ مَا جَه، عَنْ عَطِيَّة الْعُوفِيِّ[١]، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ عَلَّمَ الخَارِجَ إِلَى الصَّلَاةِ أَنْ يَقُولَ فِي دُعَائِهِ: «وَأَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلَيْنِ عَلَيْك، وَبِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا، فَإِنِّي لَمْ أَخْرُجَ أَشَرًا وَلَا بَطَرًا وَلَا رِيَاءَ وَلَا سُمْعَةً، وَلَكِنْ خَرَجْتُ اتِّقَاءَ سَخَطِكَ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكِ»[٢].

فَإِنْ كَانَ هَذَا صَحِيحًا فَحَقُّ السَّائِلِينَ عَلَيْهِ أَنْ يُجِيبَهُمْ، وَحَقُّ العَابِدِينَ لَهُ أَنْ يُثِيبَهُمْ، وَهُوَ حَقٌّ أُوجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ لَهُمْ.

كَمَا يَسْأَلُ بِالْإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي جَعَلَهُ سَبَبًا لِإِجَابَةِ الدُّعَاءِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الشورى:٢٦].

الشَّرح

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلَيْنِ عَلَيْكَ...». الحديث هذا يُجاب عنه بجوابين:

أولًا: أن سنده فيه مقال؛ لأنه من رواية عطية العوفي، ولا يُحتج به.

(١) هو: عطية بن سعد العوفي أبو الحسن، يروي عن أبي سعيد وطائفة، وعنه ابناه عمرو والحسن، ومسعر، وقرة، توفي سنة سبع وعشرين ومائة، قال ابن حبان: «فلا يحل الاحتجاج به ولا كتابة حديثه إلا على جهة التعجب»، وقال عنه الذهبي: «ضعفوه». انظر: المجروحين (٢/ ١٧٦)، والجرح والتعديل (٦/ ٣٨٢)، والكاشف (٢/ ٢٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٧/ ٢٤٧)، وابن ماجه (٧٧٨).

ثانيًا: لو صح، فإن معنى «**وَأَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلَيْنِ عَلَيْكَ**» أن يجيبهم، فإن الله قال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر:٦٠]، فهو وعدهم أن يستجيب لهم، فأنت تسأله بوعده الذي قاله عن نفسه، وهذا ليس من التوسل الممنوع؛ لأنه توسل إلى الله بأسمائه وصفاته؛ لأن الإجابة صفة من صفات الله، فهو سبحانه القريب المجيب: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢].

قوله: (**فَإِنْ كَانَ هَذَا صَحِيحًا**). هذا الجواب الأول، فهو يشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنه حديث ضعيف.

قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ﴾ أي: الله، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يستجيب أعمالهم ودعاءهم، ﴿وَيَزِيدُهُم﴾ يعطيهم شيئًا لم يسألوه ولم يطلبوه منه؛ فضلًا منه وإحسانًا، فإجابة السائل صفة من صفات الله عَزَّوَجَلَّ، ومن توسل إلى الله بها فهو يتوسل إليه بصفة من صفاته.

وَكَمَا يُسْأَلُ بِوَعْدِهِ؛ لِأَنَّ وَعْدَهُ يَقْتَضِي إِنْجَازَ مَا وَعَدَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾ [آل عمران:١٩٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي ﴾ [المؤمنون:١٠٩، ١١٠].

وَيُشْبِهُ هَذَا مُنَاشَدَةَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بِدْرٍ حَيْثُ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي»(١).

وَكَذَلِكَ مَا فِي التَّوْرَاةِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى غَضِبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَجَعَلَ مُوسَى يَسْأَلُ رَبَّهُ وَيَذْكُرُ مَا وَعَدَ بِهِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّهُ سَأَلَهُ بِسَابِقِ وَعْدِهِ لِإِبْرَاهِيمَ.

وَمِنَ السُّؤَالِ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ سُؤَالُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ آوَوْا إِلَى غَارٍ، فَسَأَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِعَمَلٍ عَظِيمٍ أَخْلَصَ فِيهِ لله؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الْعَمَلَ مِمَّا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مَحَبَّةً تَقْتَضِي إِجَابَةَ صَاحِبِهِ: هَذَا سَأَلَ بِبِرِّهِ لِوَالِدَيْهِ، وَهَذَا سَأَلَ بِعِفَّتِهِ التَّامَّةِ، وَهَذَا سَأَلَ بِأَمَانَتِهِ وَإِحْسَانِهِ(٢).

الشَّرْح

قوله: (وَمِنْهُ قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا ﴾). هذا من التوسل، ﴿إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا﴾، وهو الرسول ﷺ ﴿يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٦٣) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) حديث الثلاثة نفر الذين آووا إلى الغار، أخرجه البخاري (٣٤٦٥)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ﵟءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚﵞ توسلوا إلى الله بإيمانهم وإجابتهم للرسول ﷺ، وهذا توسل بالعمل الصالح، وهو سائغ.

قوله تعالى: ﵟرَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَاﵞ. الفاء سببية، أي: اغفر لنا بسبب إيماننا، وهذا توسل إلى الله بالعمل الصالح وهو الإيمان.

وقوله تعالى: ﵟإِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَﵞ توسلوا إلى الله جَلَّوَعَلَا بإيمانهم، وتوسلوا إلى الله بأسمائه وصفاته ﵟوَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَﵞ، يقول الله لأهل النار: ﵟفَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَﵞ كنتم تسخرون منهم في الدنيا، أما الآن فانظروا إلى العواقب: أنتم من أهل النار، وهم من أهل الجنة، ﵟإِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْﵞ على استهزائكم و سخريتكم في الدنيا، ﵟأَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَﵞ، أما هؤلاء ففي النار ﵟتَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَﵞ والعياذ بالله.

قوله: (وَيُشْبِهُ هَذَا مُنَاشَدَةَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بِدْرٍ). الله جَلَّوَعَلَا وعد نبيه أن ينصره، فلما تقابل المسلمون والكفار في واقعة بدر، وكان الكفار أكثر من المسلمين وأقوى لجأ النبي ﷺ إلى ربه بالدعاء والإلحاح يطلب منه النصر، وقال: «**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي**». توسل إلى الله بوعده سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، والله جَلَّوَعَلَا لا يخلف وعده، فاستجاب الله له، ونصر المؤمنين على قلَّتهم، وخذل الكافرين على كثرتهم وقوتهم.

قوله: (وَكَذَلِكَ مَا فِي التَّوْرَاةِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى غَضِبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَجَعَلَ مُوسَى يَسْأَلُ رَبَّهُ وَيَذْكُرُ مَا وَعَدَ بِهِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّهُ سَأَلَهُ بِسَابِقِ وَعْدِهِ

لِإِبْرَاهِيمَ). ما جاء في التوراة أن الله لما غضب على بني إسرائيل بسبب تعنتهم وأفعالهم القبيحة مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسوء أدبهم مع الله ورسوله، فهم مغضوب عليهم، ويسمون «الأمة الغضبية»؛ لأنهم عصوا الله على علم وبصيرة، فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أخذته الشفقة بهم، فتوسل إلى ربه عَزَّ وَجَلَّ بما وعد الله به خليله إبراهيم، فالله جَلَّ وَعَلَا إذا وعد فإنه لا يخلف وعده، ولكن بشرط أن يكون العبد صالحًا لإنجاز الوعد معه بأن يعمل الأسباب التي تقتضي إنجاز الوعد من الله جَلَّ وَعَلَا، فإن حصل تأخر للوعد، فإنما هو لخلل عند المخلوق.

قوله: (وَمِنَ السُّؤَالِ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ سُؤَالُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ آوَوْا إِلَى غَارٍ).

سبق أن التوسل على قسمين: توسل ممنوع، وتوسل مشروع.

والتوسل المشروع أنواع:

النوع الأول: التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، هذا توسل إلى الله بأسمائه وصفاته، كأن تقول: يا رحمن ارحمني، يا غفور اغفر لي، يا رزاق ارزقني، وهكذا.

النوع الثاني: التوسل إلى الله بطلب الدعاء من الصالحين، كما كان الصحابة يتوسلون إلى الله بدعاء نبيهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أن كان حيًّا بين أظهرهم، فلما مات توسل عمر بالعباس عم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بمعنى: أنه طلب منه أن يدعو الله للمسلمين بالغيث، فالتوسل بدعاء الصالحين مشروع بشرط أن يكون الداعي حاضرًا يسمع طلبك فتطلب منه، أما إن كان ميتًا

أو غائبًا فلا تتوسل به؛ لأنه لا يمكن أن يسمعك، ولا يمكن أن يدعو وهو لا يسمع طلبك، فيُشترط في طلب الدعاء من الصالحين أن يكونوا حاضرين يسمعون طلب من طلب منهم الدعاء، فلا يُطلب الدعاء من الغائبين ولا الأموات.

النوع الثالث: التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة؛ كما في قصة أصحاب الغار، وكما في الآيات السابقة.

قوله: (**فَسَأَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِعَمَلٍ عَظِيمٍ أَخْلَصَ فِيهِ للهِ، لِأَنَّ ذَلِكَ الْعَمَلَ مِمَّا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مَحَبَّةً تَقْتَضِي إِجَابَةَ صَاحِبِهِ**). أخبرنا رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح أن ثلاثة من بني إسرائيل آووا إلى غار في جبل؛ ليبيتوا فيه، أو ليستريحوا فيه، ويكنهم من البرد أو الحر، المهم: أنهم دخلوا في الغار، وأراد الله جَلَّ وَعَلَا أن يمتحنهم، فانحدرت صخرة كبيرة فسدت باب الغار، فلم يستطيعوا الخروج، فعند ذلك فكروا فيما يفرج الله به عنهم هذه الكربة، فتذكروا صالح أعمالهم، وقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه إلا صالح أعمالكم، فأحدهم توسل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ببره بوالديه، فقد كان يرعى الغنم، ثم يأتي في الليل ويحلبها، ويسقي والديه، ثم يسقي أولاده، وصادف في مرة أنه تأخر في المجيء حتى نام والداه قبل أن يشربا من اللبن، فجاء باللبن، ووقف على والديه، وكره أن يوقظهما، فبقي واقفًا طوال الليل، ومعه الإناء فيه اللبن، وأولاده يتضاغون تحته يريدون اللبن، لكنه لا يريد أن يسقي قبل والديه أحدًا من عظم بره بوالديه، ولم يشأ أن يوقظهما يكدر عليهما النوم، فبقي إلى أن أصبح وهو واقف باللبن، وهذا من البر بالوالدين.

والثاني توسل إلى الله بأنه كان له ابنة عم، وكان يراودها عن نفسها فتأبى، فنزلت بها حاجة، فجاءت إليه تطلب منه الإعانة، فظن أنه سنحت له الفرصة للتمكن منها، وهي من شدة حاجتها خضعت لطلبه، فأعطاها مائة وعشرين دينارًا من الذهب، ثم لما جلس منها مجلس الرجل من امرأته، قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه. فوقع خوف الله في قلبه، وقام وترك لها الدنانير؛ خوفًا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا موقف عظيم يدل على إجلاله وتعظيمه لله جَلَّ وَعَلَا.

وأما الثالث فقد كان عنده أجير، فذهب الأجير ولم يأخذ أجرته، ولم يدرِ أين ذهب، فنما له هذه الأجرة حتى نمت وتكاثرت، وكانت من الإبل والبقر والغنم، فنمت حتى سدت الوادي من كثرتها، ثم جاء الرجل يطلب أجرته، فقال: خذ ما في هذا الوادي كله لك، قال: يا عبد الله لا تسخر بي، قال: لا أسخر بك، ولكنه أجرتك، فاستاقها ولم يترك منها فصيلًا واحدًا.

فلما دعوا الله بهذه القربات والطاعات فرَّج الله عنهم؛ دعا الأول فتزحزحت الصخرة شيئًا قليلًا، ثم دعا الثاني فتزحزحت شيئًا أكثر، إلا أنهم لا يستطيعوا الخروج، فلما دعا الثالث تزحزحت نهائيًا، وانفتح الباب فخرجوا، فهذا التوسل بالأعمال الصالحة ذكره النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مقررًا له، فدل على أن التوسل بالأعمال الصالحة مشروع. وقد قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ**»[(١)]. فإذا عبدت الله وتقربت إليه حال الرخاء والصحة، ثم وقعت في شدة، فإن الله يفرج عنك،

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٧٨).

قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات:١٤٣، ١٤٤]، هذا يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لولا أنه كان عبدًا صالحًا يعبد الله حال الرخاء، فلما وقع في بطن الحوت أنجاه الله بذلك، ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ أي: المصلين، ﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾.

وَكَذَلِكَ كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَقُولُ وَقْتَ السَّحْرِ: «اللَّهُمَّ أَمَرْتَنِي فَأَطَعْتُكِ، وَدَعَوْتَنِي فَأَجَبْتُكِ، وَهَذَا سَحَرٌ فَاغْفِرْ لِي»(١).

وَمِنْهُ حَدِيثُ ابْنِ عَمْرَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ عَلَى الصَّفَا: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ قُلْتَ وَقَوْلُكَ الحَقُّ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، وَإِنَّكَ لَا تُخْلِفُ المِيعَادَ». ثُمَّ ذَكَرَ الدُّعَاءَ المَعْرُوفَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ عَلَى الصَّفَا(٢).

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ قَوْلَ القَائِلِ: أَسْأَلُكَ بِكَذَا. نَوْعَانِ:

فَإِنَّ البَاءَ قَدْ تَكُونُ لِلْقَسَمِ، وَقَدْ تَكُونُ لِلسَّبَبِ، فَقَدْ تَكُونُ قَسَمًا بِهِ عَلَى اللهِ، وَقَدْ تَكُونُ سُؤَالًا بِسَبَبِهُ.

فَأَمَّا الأَوَّلُ: فَالْقَسَمُ بِالمَخْلُوقَاتِ لَا يَجُوزُ عَلَى المَخْلُوقِ فَكَيْفَ عَلَى الخَالِقِ؟

وَأَمَّا الثَّانِي: وَهُوَ السُّؤَالُ بِالمُعْظَّمِ كَالسُّؤَالِ بِحَقِّ الأَنْبِيَاءِ فَهَذَا فِيهُ نِزَاعٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَوِّزُ ذَلِكَ.

فَنَقُولُ: قَوْلُ السَّائِلِ للهِ: أَسْأَلُكَ بِحَقِّ فُلَانٍ وَفُلَانٍ مِنَ المَلَائِكَةِ وَالأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ وَغَيْرِهِمْ، أَوْ بِجَاهِ فُلَانٍ أَوْ بِحُرْمَةِ فُلَانٍ يَقْتَضِي أَنَّ هَؤُلَاءِ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ جَاهٌ، وَهَذَا صَحِيحٌ، فَإِنْ هَؤُلَاءِ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةٌ وِجَاهٌ وَحُرْمَةٌ يَقْتَضِي أَنْ يَرْفَعَ اللهُ دَرَجَاتِهِمْ وَيُعَظِّمَ أَقْدَارَهُمْ وَيَقْبَلَ شَفَاعَتَهُمْ إِذَا شَفَعُوا، مَعَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ٢٠٨).

(٢) أخرجه مالك في الموطإ رواية يحيى الليثي (١/ ٣٧٢)، والفاكهي في أخبار مكة (٢/ ٢٢٠)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٣٠٨)، والبيهقي في الكبرى (١/ ١٥٣).

الشَّرح

قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (اللَّهُمَّ أَمَرْتَنِي فَأَطَعْتُكَ، وَدَعَوْتَنِي فَأَجَبْتُكَ، وَهَذَا سَحَرُ) أي: وقت يُستجاب فيه الدعاء، (فَاغْفِرْ لِي). هذا من التوسل على الله بالعمل الصالح.

وقول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (اللَّهُمَّ إِنَّكَ قُلْتَ، وَقَوْلُكَ الحَقُّ: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر:٦٠]، وَإِنَّكَ لَا تُخْلِفُ المِيعَادَ).كان يقول هذا الدعاء على الصفا وهو يسعى، فهذا توسل إلى الله جَلَّ وَعَلَا بوعده سبحانه أنه لا يخلف الميعاد، وقد وعد السائلين أن يستجيب لهم، ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾.

قوله: (فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ قَوْلَ القَائِلِ: أَسْأَلُكَ بِكَذَا). قول القائل لله: أسألك بكذا. نوعان، وهذا سبق، ولكنه أعاده رَحِمَهُ اللَّهُ، فإما أن تكون الباء قسمية، أو سببية، فإن كانت قسمية فلا يجوز أن تقسم على الله بمخلوق، وإن كانت سببية فلا بأس من سؤال الله بذلك.

قوله: (فَقَدْ تَكُونُ قَسَمًا بِهِ عَلَى اللهِ، وَقَدْ تَكُونُ سُؤَالًا بِسَبَبِهِ). لا يجوز الإقسام على الله جَلَّ وَعَلَا بالمخلوق، وأما الإقسام على الله بالله، فهذا سبق أن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره.

قوله: (فَالْقَسَمُ بِالمَخْلُوقَاتِ لَا يَجُوزُ عَلَى المَخْلُوقِ فَكَيْفَ عَلَى الخَالِقِ؟).
لا يجوز لك أن تقسم على مخلوق بمخلوق؛ لأن القسم بغير الله شرك أو كفر -كما سبق- فإذا كان هذا لا يجوز مع المخلوق، فكيف يجوز مع الخالق؟

قوله: (**وَهُوَ السُّؤَالُ بِالْمُعَظَّمِ كَالسُّؤَالِ بِحَقِّ الأَنْبِيَاءِ فَهَذَا فِيهُ نِزَاعٌ**). السؤال بالأنبياء والرسل فيه خلاف، وأبو حنيفة لا يجيز ذلك، وبعضهم يجيزه، ومنهم من أجازه بنبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والصواب: أنه لا يجوز.

قوله: (**قَوْلُ السَّائِلِ للهِ: أَسْأَلُكَ بِحَقِّ فُلَانٍ وَفُلَانٍ مِنَ المَلَائِكَةِ وَالأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ وَغَيْرِهِمْ، أَوْ بِجَاهِ فُلَانٍ أَوْ بِحُرْمَةِ فُلَانٍ يَقْتَضِي أَنَّ هَؤُلَاءِ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ جَاهٌ**). للرسل بلا شك جاه عند الله جَلَّ وَعَلَا، قال الله تعالى في موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩]، وقال في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران:٤٥]، فلهم جاه عند الله، وأعظمهم جاهًا نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن لا يجوز السؤال بالجاه؛ لأن هذا شيء لم يرد عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا في القرآن ولا في السنة، فلا تقل: أسألك بجاه نبيك، أو جاه موسى، أو جاه عيسى. لا يجوز هذا؛ لأن الدعاء عبادة، والعبادة توقيفية، وأعظم العبادة الدعاء، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»(١). فلا يجوز لنا أن ندخل فيه شيئًا لم يرد به دليل من الكتاب والسنة.

أما الحق، فالله لا يجب عليه حق لأحد، إلا ما أوجبه سبحانه على نفسه، قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، فالله هو الذي أوجبه على نفسه، وكذلك في حديث معاذ الذي سيأتي: «**فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَمْ**

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي(٢٩٦٩)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٢٤٤)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (٣٠/ ٢٩٨)، وابن حبان (٣/ ١٧٢)، والحاكم (١/ ٦٦٧) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا»[1]. هذا حق أوجبه على نفسه، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، هو الذي كتب على نفسه، وأوجب على نفسه. وسيذكر الشيخ الخلاف في أنه لا تمني يفرض على الله، ولا يقال: يجب على الله كذا. كما تقول المعتزلة ومنهم من يخالف في هذا. وعلى كل حال لا يجوز الدعاء بمثل هذا: أسألك بحق فلان، أسألك بجاه فلان، أسألك بفلان.

قوله: (**وَهَذَا صَحِيحٌ**). الجاه صحيح؛ لوروده في القرآن.

قوله: (...**يَقْتَضِي أَنْ يَرْفَعَ اللهُ دَرَجَاتِهِمْ وَيُعَظِّمَ أَقْدَارَهُمْ وَيَقْبَلَ شَفَاعَتَهُمْ إِذَا شَفَعُوا**). فهم وإن كانوا يشفعون، لكن لا يشفعون إلا بعد إذن الله جَلَّ وَعَلَا، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾. وسبق أن للشفاعة الصحيحة شرطان: الأول: إذن الله جَلَّ وَعَلَا للشافع أن يشفع. والثاني: رضى الله عن المشفوع فيه أن يكون من أهل الإيمان، أما الكافر والمشرك فليس له شفاعة عند الله، قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].

(١) تقدم تخريجه (ص٢١٤).

وَيَقْتَضِي -أَيْضًا- أَنَّ مَنِ اتَّبَعَهُمْ وَاقْتَدَى بِهِمْ فِيمَا سُنَّ لَهُ الِاقْتِدَاءُ بِهِمْ فِيهِ كَانَ سَعِيدًا، وَمَنْ أَطَاعَ أَمْرَهُمُ الَّذِي بَلَّغُوهُ عَنِ اللهِ كَانَ سَعِيدًا، وَلَكِنَّ لَيْسَ نَفْسَ مُجَرَّدِ قَدْرِهِمْ وِجَاهِهِمْ مَا يَقْتَضِي إِجَابَةَ دُعَائِهِ إِذَا سَأَلَ اللهَ بِهِمْ حَتَّى يَسْأَلَ اللهَ بِذَلِكَ، بَلْ جَاهُهُمْ يَنْفَعُهُ إِذَا اتَّبَعَهُمْ وَأَطَاعَهُمْ فِيمَا أَمَرُوا بِهِ عَنِ اللهِ، أَوْ تَأَسَّى بِهِمْ فِيمَا سَنُّوهُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيَنْفَعُهُ -أَيْضًا- إِذَا دَعَوْا لَهُ وَشَفَعُوا فِيهِ.

فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ دُعَاءٌ وَلَا شَفَاعَةٌ، وَلَا مِنْهُ سَبَبٌ يَقْتَضِي الإِجَابَةَ، لَمْ يَكُنْ مُسْتَشْفِعًا بِجَاهِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ سُؤَالُهُ بِجَاهِهِمْ نَافِعًا لَهُ عِنْدَ اللهِ، بَلْ يَكُونُ قَدْ سَأَلَ بِأَمْرٍ أَجْنَبِيٍّ عَنْهُ لَيْسَ سَبَبًا لِنَفْعِهِ.

الشَّرْح

قوله: (وَمَنْ أَطَاعَ أَمْرَهُمُ الَّذِي بَلَّغُوهُ عَنِ اللهِ كَانَ سَعِيدًا). إذا سألت الله بإيمانك بالرسول، واتباعك له، ومحبتك له، فهذا صحيح؛ لأن هذا من عملك، ويجوز التوسل إلى الله بالعمل الصالح.

قوله: (وَلَكِنَّ لَيْسَ نَفْسَ مُجَرَّدِ قَدْرِهِمْ وِجَاهِهِمْ مَا يَقْتَضِي إِجَابَةَ دُعَائِهِ إِذَا سَأَلَ اللهَ بِهِمْ حَتَّى يَسْأَلَ اللهَ بِذَلِكَ). هم لهم جاه عند الله، وإذا أذن الله لهم شفعوا، ولكن هم لا يملكون هذا، إنما هو بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالطلب يكون من الله لا منهم، هذا من ناحية.

الناحية الثانية: إن كان لهم مكانة عند الله بعملهم الصادق، ونبوتهم، ورسالتهم، فأنت لا علاقة لك بعمل غيرك حتى تسأل الله بصلاح الصالحين، والذي ورد إنما هو سؤال الله بصلاحك أنت، وعملك أنت، فكيف تسأل

الله بعمل غيرك والذي لم تبذل فيه شيئًا؟ فهذا عملهم خاص بهم، وأنت لا ينفعك إلا عملك، ولا علاقة لك بعملهم، قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٣٤]، فلا تتعلق على الأولياء والصالحين بأن الله يحبهم، وأن لهم أعمالًا صالحة، هذا لا يغني عنك شيئًا، وأنت ليس لك إلا عملك.

قوله: (بَلْ جَاهُهُمْ يَنْفَعُهُ إِذَا اتَّبَعَهُمْ وَأَطَاعَهُمْ فِيمَا أَمَرُوا بِهِ عَنِ اللهِ). أما كونك لا تطيعهم، وتسأل الله بحقهم وجاههم، فهذا بعيد، إنما تسأل الله بعملك، واتباعك للرسول وطاعته ومحبته، أما أن تقول: أسألك بأن رسولك له جاه عندك، وحق عندك، ومقام عندك. فهذا غير مشروع، ولكن تقول: أسألك بطاعتي له، واتباعي له، وإيماني به، ومحبتي له. لأن هذا عملك أنت.

قوله: (أَوْ تَأَسَّى بِهِمْ فِيمَا سَنُّوهُ لِلْمُؤْمِنِينَ). إذا كان لك عمل معهم -كالاتباع، والطاعة، والانقياد، والمحبة- فهو عملك أنت لا عمل غيرك، إلا ان بعض هؤلاء المغرورين إذا نُهي عن دعاء الأموات والاستغاثة بهم، يقول: إن الله جَلَّوَعَلَا يقول فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢، ٦٣]، فأنا أطلب من الله بهم. فنقول له: ما علاقتك بإيمانهم وتقواهم؟ هذا لهم، ولا ينفعك أنت إلا عملك وإيمانك وتقواك، فلا تتكل على عمل الآخرين وتسأل الله به؛ لأن الله لم يشرع لك هذا، أما إذا سألته بمحبتك لأولياء الله، وبغضك لأعداء الله، فهذا صحيح؛ لأنه عملك.

قوله: (**وَيَنْفَعُهُ -أَيْضًا- إِذَا دَعَوْا لَهُ وَشَفَعُوا فِيهُ**). ينفعونه لو دعوا له وشفعوا فيه بإذن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أما أن تسأله سبحانه بمجرد صلاحهم وتقواهم وعملهم، فهذا لا علاقة لك به.

قوله: (**وَلَمْ يَكُنْ سُؤَالُهِ بِجَاهِهِمْ نَافِعًا لَهُ عِنْدَ اللهِ**). فلا يُسألون الشفاعة؛ لأن الشفاعة ملك لله جَلَّوَعَلَا، ولا يملكونها إلا بإذنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهم أموات قد انقطع عملهم، كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِذَا مَاتَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ**»(١). فلا يقدرون على الدعاء لك، أو الاستغفار لك، فالأموات من الأنبياء وغيرهم انتهى عملهم بموتهم، فكيف تتعلق بهم؟

وإذا كنت تريد النجاة لنفسك، فالباب مفتوح أمامك، اعمل، وادع الله، وصلِّ، وأصلح نفسك، ولا تعتمد على غيرك وتضيع نفسك، فإذا كنت مسيئًا تقول: أنا مسيء، وعندي ذنوب، وتوجه إلى الله بالتوبة الصادقة، يغفر لك الله الذنوب جميعًا، ولا يسد عليك الباب، فهو سبحانه يحب التوابين.

قوله: (**بَلْ يَكُونُ قَدْ سَأَلَ بِأَمْرٍ أَجْنَبِيٍّ عَنْهُ لَيْسَ سَبَبًا لِنَفْعِهِ**). فسبب الإجابة هو دعاؤك وصلاحك وعملك لا عمل غيرك، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقول: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ**﴾ [البقرة:١٣٤]، فلا تتعلق عليهم، وتتكل على صلاحهم وتقواهم، وتترك العمل، وتقول: نحن نتوسل إلى الله بهم ويكفي.

(١) تقدم تخريجه (ص٣٨).

أو يقول قائل: أنا من أقارب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويكفي، أو أنا من ساكني مكة أو المدينة، وهذا يكفي. ويترك العمل.

هذا غرور من الشيطان، فليس أمامك إلا العمل الصالح، وهو ميسر ومفتوح لك، فلماذا تعرض عنه، وتذهب إلى الملهيات، وتتعلق بالقبور والأموات، وتنسى الحي القيوم الذي لا يموت السميع المجيب؟ فهذا منتهى الرذالة والبلاهة والبلادة.

وَلَوْ قَالَ الرَّجُلُ لِـمُطَاعٍ كَبِيرٍ: أَسْأَلُكَ بِطَاعَةِ فُلَانٍ لَكَ، وَبِحُبِّكَ لَهُ عَلَى طَاعَتِكَ، وَبِجَاهِهِ عِنْدَكَ الَّذِي أَوْجَبَتْهُ طَاعَتُهُ لَكَ. لَكَانَ قَدْ سَأَلَهُ بِأَمْرٍ أَجْنَبِيٍّ لَا تَعَلُّق لَهُ بِهِ، فَكَذَلِكَ إِحْسَانُ اللهِ إِلَى هَؤُلَاءِ الْمُقَرَّبِينَ، وَمَحَبَّتُهُ لَهُمْ، وَتَعْظِيمُهُ لِأَقْدَارِهِمْ، مَعَ عِبَادَتِهِمْ لَهُ وَطَاعَتِهِمْ إِيَّاهُ، لَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يُوجِبُ إِجَابَةَ دُعَاءِ مَنْ يَسْأَلُ بِهِمْ، وَإِنَّمَا يُوجِبُ إِجَابَةَ دُعَائِهِ بِسَبَبٍ مِنْهُ لِطَاعَتِهِ لَهُمْ، أَوْ سَبَبٍ مِنْهُمْ لِشَفَاعَتِهِمْ لَهُ، فَإِذَا انْتَفَى هَذَا وَهَذَا فَلَا سَبَبٌ.

نَعَمْ لَوْ سَأَلَ اللهَ بِإِيمَانِهِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَحَبَّتِهِ لَهُ، وَطَاعَتِهِ لَهُ وَاتِّبَاعِهِ، لَهُ لَكَانَ قَدْ سَأَلَهُ بِسَبَبٍ عَظِيمٍ يَقْتَضِي إِجَابَةَ الدُّعَاءِ، بَلْ هَذَا أَعْظَمُ الأَسْبَابِ وَالوَسَائِلِ.

وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَّنَ أَنَّ شَفَاعَتَهُ فِي الآخِرَةِ تَنْفَعُ أَهْلَ التَّوْحِيدِ لَا أَهْلَ الشِّرْكِ، وَهِيَ مُسْتَحَقَّةٌ لِمَنْ دَعَا لَهُ بِالوَسِيلَةِ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا سَمِعْتُمُ المُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا دَرَجَةٌ فِي الجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ذَلِكَ العَبْدُ، فَمَنْ سَأَلَ اللهَ لِيَ الوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ»[١].

وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ لَهُ: أَيُّ النَّاسِ أَسْعَدُ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»[٢].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٤٧).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٦٩).

فَبيَّنَ ﷺ أَنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ كَانَ أَعْظَمَ تَوْحِيدًا وَإِخْلَاصًا؛ لِأَنَّ التَّوْحِيدَ جِمَاعُ الدِّينِ، واللهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِذَا شَفَعَ مُحَمَّدٌ ﷺ حَدَّ لَهُ رَبُّهُ حدًّا فَيُدْخِلُهُمْ الجَنَّةَ، وَذَلِكَ بِحَسَبِ مَا يَقُومُ بِقُلُوبِهِمْ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالإِيمَانِ(١).

وَذَكَرَ ﷺ أَنَّهُ مَنْ سَأَلَ اللهَ لَهُ الوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ شَفَاعَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَبيَّنَ أَنَّ شَفَاعَتَهُ تُنَالُ بِاتِّبَاعِهِ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالإِيمَانِ، وَبِالدُّعَاءِ الَّذِي سَنَّ لِنَا أَنْ نَدْعُوَ لَهُ بِهِ.

الشَّرح

قوله: (وَلَوْ قَالَ الرَّجُلُ لِمُطَاعٍ كَبِيرٍ: ...). هذا مثال في المخلوقين، لو أتيت عند ملك من الملوك، وقلت: أسالك بطاعة فلان لك، وانقياده لك، وخدمته لك، ومحبته لك. هذا مما يضحك العقلاء، ما علاقتك أنت بفلان، وعمل فلان، وقربه من الملك، ومحبة الملك له؟ هذا خاص به، وليس لك به سبب ولا علاقة، وكذلك لا تسأل الله بصلاح فلان أو تقواه؛ لأنك لا علاقة لك بذلك.

---

(١) قال ﷺ في حديث الشفاعة في أهل الموقف: «ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ، فَأَقُولُ مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ القُرْآنُ، وَوَجَبَ عَلَيْهِ الخُلُودُ». تقدم تخريجه (ص٣٠).

قوله: (فَكَذَلِكَ إِحْسَانُ اللهِ إِلَى هَؤُلَاءِ الْمُقَرَّبِينَ، وَمَحَبَّتُهُ لَهُمْ، وَتَعْظِيمُهُ لِأَقْدَارِهِمْ، مَعَ عِبَادَتِهِمْ لَهُ وَطَاعَتِهِمْ إِيَّاهُ، لَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يُوجِبُ إِجَابَةَ دُعَاءِ مَنْ يَسْأَلُ بِهِمْ). ليس هذا سببًا، ولا علاقة لك بعمل غيرك، فلا تتكل على عمل غيرك، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧]، فليس لك إلا عملك، كما أنها لا تضرك إساءة من أساء، فلا تنفعك طاعة من أطاع، إنما هذا له وعليه، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦].

قوله: (وَإِنَّمَا يُوجِبُ إِجَابَةَ دُعَائِهِ بِسَبَبٍ مِنْهُ لِطَاعَتِهِ لَهُمْ). بسبب منه وهو طاعته وانقياده لله، واستغفاره ودعائه.

قوله: (نَعَمْ لَوْ سَأَلَ اللهَ بِإِيمَانِهِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَحَبَّتِهِ لَهُ وَطَاعَتِهِ لَهُ وَاتِّبَاعِهِ لَهُ، لَكَانَ قَدْ سَأَلَهُ بِسَبَبٍ عَظِيمٍ يَقْتَضِي إِجَابَةَ الدُّعَاءِ). سأله بعمله؛ لأن طاعته للرسول، ومحبته للرسول، واتباعه له، هذا عمله، فيسأل الله به ويتوسل إلى الله به، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣].

قوله: (بَلْ هَذَا أَعْظَمُ الأَسْبَابِ وَالوَسَائِلِ). أي: العمل الصالح.

قوله: (وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَّنَ أَنَّ شَفَاعَتَهُ فِي الآخِرَةِ تَنْفَعُ أَهْلَ التَّوْحِيدِ لَا أَهْلَ الشِّرْكِ). شفاعته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما تكون لأهل التوحيد من أمته، وليست للمشركين، فالذين يدعون الأولياء والصالحين، ويستغيثون بهم، ويذبحون لهم، هؤلاء مشركون يتبرأ منهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم

القيامة[(١)]، ويتبرأ منهم الصالحون الذين عكفوا عند قبورهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤]، وقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي: الشياطين هم الذين أمروهم بذلك، أما نحن فننهى عن ذلك ونجاهد عليه، ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [سبأ:٤٠، ٤١]، انقطع هذا السبب، وهذا الذي تعلقتم به لا أصل له.

واستدل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ على هذا بحديث: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا دَرَجَةٌ فِي الجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ذَلِكَ العَبْدُ، فَمَنْ سَأَلَ اللهَ لِيَ الوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ**».

فهذا الحديث يُبين أن الشفاعة لأهل التوحيد؛ لأن الذي يجيب المؤذن يأتي بالتوحيد، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ثم يدعو للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالوسيلة، فتحل له شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهي لأهل التوحيد، وليست لأهل الشرك الذين يدعون غير الله، ويتقربون إلى الأموات والأضرحة، فهؤلاء لا تنفعهم شفاعة الشافعين؛ لأنها مرتبة على التوحيد،

(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي**». أخرجه البخاري (٦٥٨٤)، ومسلم (٢٢٩١).

فمن يتابع المؤذن، ويقول مثل ما يقول معتقدًا ذلك بقلبه عاملًا به، فهذا موحد تحل له شفاعة، وقد تقدم أن الشفاعة لها شرطان:

الأول: إذن الله جَلَّوَعَلَا للشافع أن يشفع.

الثاني: أن تكون الشفاعة في أهل التوحيد الذين يرضى الله قولهم، وعملهم. قال تعالى: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]، وقال في الملائكة: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، فلا يرضى إلا لأهل التوحيد، ولا يرضى عن أهل الشرك، ولا يغفر لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨]، لا بشفاعة ولا بغيرها.

قوله: (وَهِيَ مُسْتَحَقَّةٌ لِمَنْ دَعَا لَهُ بِالوَسِيلَةِ). فهي مرتبة على شيئين:

الأول: متابعة المؤذن.

الثاني: الدعاء للرسول صَلَّىَاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالوسيلة.

والنبي صَلَّىَاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما سأله أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَيُّ النَّاسِ أَسْعَدُ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: «**مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**». أي: أهل التوحيد لا أهل الشرك، وفي هذا رد على الذين يشركون بالله، ويدعون غير الله، ويقولون: نرجو منهم الشفاعة، ويشفعون لنا. فمن أراد أن يسعد بشفاعة الرسول صَلَّىَاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يكتفي بقول (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، بل لا بد أن يقولها خالصًا من قلبه، معتقدًا لمعناها، وعاملًا بمقتضاها، لا أن يأتي بمجرد اللفظ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، ولكنه يعبد غير الله، ويدعو غير الله، ويستغيث بالأموات، فهذه ليست خالصة من قلبه، بل هي مجرد لفظ لا ينفع قائله يوم القيامة.

قوله: (لِأَنَّ التَّوْحِيدَ جِمَاعُ الدِّينِ). الدين كله مبني على التوحيد، فدين ليس فيه توحيد دين باطل من أساسه، ولو أتعب صاحبه الليل والنهار، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣]، الذي ليس عنده دين خالص، ويدعو غير الله، ويقول: هؤلاء يقربونا إلى الله زلفى، هذا كاذب على الله، فمن أين تكون له الشفاعة؟

قوله: (واللهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ). هذا بنص الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨]، إذا المشرك على شركه، فإنه لا يُغفر، وإنما الذي يُغفر له الموحد الذي عنده ذنوب دون الشرك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ بهذا القيد: إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه، لكن مآله إلى الجنة بعد التعذيب.

قوله: (فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِذَا شَفَعَ مُحَمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّ لَهُ رَبُّهُ حدًّا فَيُدْخِلُهُمْ الجَنَّةَ). يدل أنه لا يشفع في كل أحد، وإنما يشفع فيما يحده الله له، فهذا دليل على أنه لابد من إذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: (وَذَلِكَ بِحَسَبِ مَا يَقُومُ بِقُلُوبِهِمْ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالإِيمَانِ). يقبل الله شفاعة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويحد له حدًا يشفع فيهم؛ لما في قلوبهم من التوحيد والإيمان، أما من لم يكن عندهم توحيد ولا إيمان، فإن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يشفع فيهم، ولا تُقبل شفاعته فيهم.

وَأَمَّا السُّؤَالُ بِحَقِّ فُلَانٍ فَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مَا لَهُ مِنَ الحَقِّ عِنْدَ اللهِ.

وَالثَّانِي: هَلْ نَسْأَلُ اللهَ بِذَلِكَ كَمَا نَسْأَلُ بِالجَاهِ وَالحُرْمَةِ.

أَمَّا الْأَوَّلُ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: لِلمَخْلُوقِ عَلَى الخَالِقِ حَقٌّ يُعْلَمُ بِالعَقْلِ، وَقَاسَ المَخْلُوقَ عَلَى الخَالِقِ، كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ يَقُولُهُ مِنَ المُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: لَا حَقَّ لِلمَخْلُوقِ عَلَى الخَالِقِ بِحَالٍ، لَكِنْ يَعْلَمُ مَا يَفْعَلُهُ بِحَكَمِ وَعْدِهِ وَخَبَرِهِ، كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ يَقُولُ مِنْ أَتْبَاعِ جَهْمٍ[1]، وَالأَشْعَرِيِّ[2]، وَغَيْرُهُمَا مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إِلَى السُّنَّةِ.

---

(١) هو: الجهم بن صفوان أبو محرز الراسبي، مولاهم السمرقندي، الضال المبتدع رأس الجهمية، هلك في زمان صغار التابعين، وقد زرع شرًّا عظيمًا، رأس في التعطيل، زعم أن القرآن مخلوق، وذهب إلى القول بأن العبد لا قدرة له أصلًا، بل فعله كحركة المرتعش، أو كالريشة في مهب الريح، أو بمنزلة حركة أغصان الأشجار، فالعبد عندهم مجبور على فعله، وأن الجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما حتى لا يبقى موجود سوى الله تعالى، قتله سَلْمُ بن أحوز سنة ثمان وعشرين ومائة. انظر: الملل والنحل (١/ ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص١٩٩)، وميزان الاعتدال (٢/ ١٥٩).

(٢) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم الأشعري، ولد سنة ستين ومائتين، وتوفي سنة عشرين وثلاثمائة، نشأ على مذهب المعتزلة، وتتلمذ على أبي علي الجبائي من أكابر المعتزلة، ومضى على ذلك صدرًا من حياته، ثم ترك مذهبهم وتبرأ منه، قال عنه ابن خلكان: «رقي كرسيًا يوم الجمعة، ونادى بأعلى صوته: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي: أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا تراه الأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة، مخرج لفضائحهم ومعايبهم». ثم سلك طريقة ابن كلاب، وانتشر مذهبه، ثم رجع عنه إلى مذهب أهل الحديث، وانتسب إلى الإمام أحمد، وألف في مذهب أهل السنة: الإبانة، والموجز. انظر: تاريخ بغداد (١١/ ٣٤٦)، وسير أعلام النبلاء (١٥/ ٨٥).

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: بَلْ كَتَبَ اللهُ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَأَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ حَقًّا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا حَرَّمَ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِهِ، لَمْ يُوجِبْ ذَلِكَ مَخْلُوقٌ عَلَيْهِ، وَلَا يُقَاسُ بِمَخْلُوقَاتِهِ، بَلْ هُوَ بِحُكْمِ رَحْمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ وَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ الظُّلْمَ؛ كَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الإِلَهِيِّ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا»[(١)]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

الشَّرح

قوله: (وَأَمَّا السُّؤَالُ بِحَقِّ فُلَانٍ فَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلَيْنِ...). انتقل رَحِمَهُ اللَّهُ إلى السؤال بحق فلان أو بجاهه، فيقول: هو مبني على أمرين:

الأول: هل للمخلوق حق على الله جَلَّ وَعَلَا؟

الثاني: إذا كان للمخلوق حق على الله، فهل يُشرع لنا أن نسأل بحق المخلوق على الله؟

فلابد من تحقق هذين الأمرين: أن يثبت أن للمخلوق حقًّا على الله، وأن يُشرع لنا أن نسأل الله بذلك، المسألة فيها ثلاثة أقوال:

القول الأول: قول المعتزلة، ومن ذهب مذهبهم أنهم يوجبون على الله حقًّا بالعقل، كما هي عادتهم في التعنت والمكابرة.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القول الثاني: لا حق للمخلوق مطلقًا، وهذا قول الجهمية والأشاعرة.

ولكن الله أخبر أنه يغفر للمذنب، فيقع هذا بموجب خبر الله الذي لايتخلف، لا لأن للمخلوق حقًّا على الخالق.

القول الثالث -وهو الصحيح-: أن للمخلوق حقًّا على الخالق، ولكن الله هو الذي تفضل به دون أن يوجبه عليه أحد من خلقه، فهو حقٌّ أوجبه على نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يُقال: للمخلوق حقٌّ على الخالق مطلقًا، ولا يُقال: ليس له حقٌّ مطلقًا، وإنما يُقال: للمخلوق حقٌّ على الخالق أوجبه الله على نفسه، ووعد به، وهو لا يخلف وعده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا هو القول الحق، ويدل له حديث معاذ الآتي.

قوله: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: لَا حَقَّ لِلمَخْلُوقِ عَلَى الخَالِقِ بِحَالٍ، لَكِنْ يَعْلَمُ مَا يَفْعَلُهُ بِحَكَمِ وَعْدِهِ وَخَبَرِهِ). لكن الله أخبر أنه يعطي المخلوق، ويغفر له، وهو لا يخلف وعده، وخبره لا يتخلف، لا أن هذا حق عليه، وإنما يفعله بموجب الخبر، والوعد الذي وعد به، وهذا عند الأشاعرة والجهمية الذين ينفون الأسباب أن تكون أسبابًا.

قوله: (كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ يَقُولُ مِنْ أَتْبَاعِ جَهْمٍ وَالأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِمَا مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إِلَى السُّنَّةِ). الجهم بن صفوان، وأبو الحسن الأشعري، ومن يتبعه ممن ينتسب إلى السنة، أما الجهم فلا ينتسب إلى السنة، بل هو عدو السنة.

قوله: (وَمِنْهِمْ مَنْ يَقُولُ: بَلْ كَتَبَ اللهُ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ). هذا هو القول الثالث، وهو الصحيح، فهو سبحانه أوجب على نفسه الرحمة، لا أن

أحدًا أوجب عليه شيئًا، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، فهو حق أوجبه على نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ [النساء:١٢٢]، فهذا ثابت بالقرآن، لكنه هو الذي تفضل به، وهو الذي كتبه على نفسه ووعد به، لا كما تقوله المعتزلة أنه شيء واجب على الله جَلَّ وَعَلَا.

قوله: (وَأَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ حَقًّا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا حَرَّمَ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِهِ). أوجب لعباده حقًّا على نفسه، كما حرم الظلم على نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا**»، وقال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر:١٧]؛ لأن الله منزه عن الظلم، والظلم: أن يُعذب أحدًا بغير جريمة وبغير ذنب، وهذا لا يكون من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكذلك لا ينقص من حسنات أحد، بل يضاعفها فضلًا منه، فالأمر راجع إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: (لَمْ يُوجِبْ ذَلِكَ مَخْلُوقٌ عَلَيْهِ، وَلَا يُقَاسُ بِمَخْلُوقَاتِهِ). لا يُقاس الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمخلوقاته؛ من أن الإنسان يوجب على الإنسان حقًّا له عليه، ولكن المخلوق لا يوجب على الخالق؛ لأن هناك فروقًا سيذكرها بين الخالق والمخلوق.

قوله: (بَلْ هُوَ بِحُكْمِ رَحْمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ).
هو شيء كتبه الله عدلًا منه سبحانه وفضلًا وحكمة.

قوله: (كَمَا قَالَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ الإِلَهِيِّ). حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المشهور الحديث العظيم القدسي، ومنه هذه الجملة، يقول الله جَلَّ وَعَلَا: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مَحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤]. هذا شيء أوجبه سبحانه على نفسه فضلًا وإحسانًا منه، ورحمة بعباده.

وقوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]. رتب الانتقام على الإجرام، ورتب النصر على الإيمان.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ مُعَاذٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «حَقُّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟» قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «حَقُّهُمْ عَلَيْهِ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ»[1].

فَعَلَى هَذَا القَوْلِ لِأَنْبِيَائِهِ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ حَقٌّ أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ مَعَ إِخْبَارِهِ.

وَعَلَى الثَّانِي يَسْتَحِقُّونَ مَا أَخْبَرَ بِوُقُوعِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ سَبَبٌ يَقْتَضِيهِ.

الشَّرْح

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»**. لأن هذا هو الذي خلقهم الله من أجله، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، فهذا حق الله على عباده، وهو أول الحقوق على الإطلاق، وأوجب الواجبات، وأعظم ما أمر الله به التوحيد.

ولم يقتصر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قوله: **«أَنْ يَعْبُدُوهُ»** بل قال: **«وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»**؛ لأن العبادة لا تنفع مع وجود الشرك، فالشرك يبطلها، ولو عبد الله الليل والنهار، لكنه يدعو غير الله، ويذبح لغير الله، وينذر لغير الله، فعبادته هباء منثور، لا تنفعه حتى يخلصها من الشرك الأكبر والأصغر، فالشرك يحبط العمل ويبطله.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢١٤).

وقوله: «**حَقُّهُمْ عَلَيْهِ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ**». هذا حق تفضل الله به، وليس واجبًا عليه سبحانه، فأوجب على نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ألا يُعذب من لا يشرك به شيئًا، وهذا من باب الوعد الكريم منه جَلَّ وَعَلَا أنه لا يعذب من لا يُشرك به شيئًا، وهذا راجع إلى مشيئته؛ كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]، فهو راجع إلى مشيئته فقد يعذبه، وقد لا يعذبه، وإذا عذبه، فلا يخلده في العذاب، بل يخرجه ويدخله الجنة بالتوحيد الذي معه.

فهذا حديث مطلق يُقيد بالنصوص الأخرى من أن هذا راجع إلى مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي هذا الحديث قال معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هل أبشر الناس يا رسول الله؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**». فهذا فيه دليل على أن بعض أنواع العلم لا تُنشر في الناس، وإنما يطلع عليها العلماء فقط، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما أطلع معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على هذا، ونهاه أن يخبر به الناس مخافة أن يتكلوا على هذا، فيتركوا الأعمال، ويتساهلوا بالذنوب والسيئات، ويقولون: نحن لا نشرك بالله شيئًا، وما عدا الشرك فلا يضرنا. فيترتب على هذا مفسدة راجحة؛ فلهذا يُكتم العلم لمصلحة راجحة، ولا يُعطى مثل هذا إلا لأهل العلم سرًّا، ولا يُعطى للعوام، فدل على جواز كتمان العلم للمصلحة، فيكون مستثنى من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ ﴾ [البقرة:١٥٩، ١٦٠]، هذا مخصص في مثل هذه الحالة.

والشاهد منه: «حَقُّهُمْ عَلَيْهِ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ». فدل على أن للعباد حقًّا على الله، ولكن هذا الحق هو الذي أوجبه على نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي ذلك رد على الجهمية والأشاعرة.

وقول معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ). فيه: أن المسؤول إذا لم يكن عنده علم يمسك عن الجواب، ولا يتخرص، بل يقول: الله ورسوله أعلم. وهذا في حياة الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما بعد مماته صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه يقول: الله أعلم. ويقتصر على ذلك.

قوله: (وَعَلَى الثَّانِي يَسْتَحِقُّونَ مَا أَخْبَرَ بِوُقُوعِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ سَبَبٌ يَقْتَضِيهِ). هذا قول جهم والأشاعرة، وهو قول مردود.

فَمَنْ قَالَ: لَيْسَ لِلمَخْلُوقِ عَلَى الخَالِقِ حَقٌّ يَسْأَلُ بِهِ؛ كَمَا رُوِيَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِدَاوُدَ: «وَأَيُّ حَقٍّ لِآبَائِكَ عَلَيَّ؟»(١)، فَهُوَ صَحِيحٌ إِذَا أُرِيدَ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ لِلمَخْلُوقِ عَلَيْهِ حَقٌّ بِالقِيَاسِ وَالِاعْتِبَارِ عَلَى خَلْقِهِ كَمَا يَجِبُ لِلمَخْلُوقِ عَلَى المَخْلُوقِ، وَهَذَا كَمَا يَظُنُّهُ جُهَّالُ العُبَّادِ مِنْ أَنَّ لَهُمْ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ حَقًّا بِعِبَادَتِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ النُّفُوسَ الجَاهِلِيَّةَ تَتَخَيَّلُ أَنَّ الإِنْسَانَ بِعِبَادَتِهِ وَعِلْمِهِ يَصِيرُ لَهُ عَلَى اللهِ حَقٌّ مِنْ جِنْسِ مَا يَصِيرُ لِلمَخْلُوقِ عَلَى المَخْلُوقِ، كَالَّذِينَ يَخْدُمُونَ مُلُوكَهُمْ وَمُلَّاكَهُمْ، فَيَجْلِبُونَ لَهُمْ مَنْفَعَةً وَيَدْفَعُونَ عَنْهُمْ مَضَرَّةً، وَيَبْقَى أَحَدُهُمْ يَتَقَاضَى العِوَضَ وَالمُجَازَاةَ عَلَى ذَلِكَ، وَيَقُولُ لَهُ عِنْدَ جَفَاءٍ أَوْ إِعْرَاضٍ يَرَاهُ مِنْهُ: أَلَمْ أَفْعَلْ كَذَا؟ يَمُنُّ عَلَيْهِ بِمَا يَفْعَلُهُ مَعَهُ، وَإِنْ لَمْ يَقُلْهُ بِلِسَانِهِ كَانَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ، وَتَخَيُّلُ مِثْلِ هَذَا فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَى مِنْ جَهْلِ الإِنْسَانِ وَظُلْمِهِ؛ وَلِهَذَا بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ عَمَلَ الإِنْسَانِ يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْهِ، وَأَنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الخَلْقِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:٧]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ

---

(١) لم أقف عليه بهذا السياق، وأخرج أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ٩) عن عبد الله الحذاء أنه قال: «قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: اللهم إني أتوجه إليك بصلاح آبائي إبراهيم خليلك وإسحاق ذبيحك ويعقوب إسرائيلك، فأوحى الله تعالى إليه: يا يوسف، تتوجه بنعمة أنا أنعمتها عليهم». وقال أبو المظفر السمعاني في تفسيره (٣/ ٣٣): «ورُوي أن يوسف قال: يا رب، بحق آبائي اغفر لي ذنبي. فجاء جبريل وقال له: وأي حق لآبائك علي، أما جدك إبراهيم فقد جعلت النار عليه بردًا وسلامًا، وأما إسماعيل ففديته بكبش عظيم، وأما أبوك يعقوب فأعطيته اثني عشر ابنًا وأخذت منهم واحدًا، فما زال يبكي حتى ابيضت عيناه وجعل يشكوني، فقال يوسف: إلهي بمنك القديم، وفضلك العظيم، وأياديك الكثيرة، اغفر لي ذنبي، فغفر له».

﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠]، وَقَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧، ٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٧٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

الشَّرح

قوله: (فَمَنْ قَالَ لَيْسَ لِلمَخْلُوقِ عَلَى الخَالِقِ حَقٌّ يَسْأَلُ بِهِ...). أي: إذا قيل: ليس للمخلوق حق على الخالق. فإن أريد به نفي ما لم يوجبه الله جَلَّ وَعَلَا على نفسه، فهذا نفي صحيح، وإن أريد به نفي أي حق للمخلوق على الخالق مطلقًا، فهذا نفي باطل؛ لأن الله أخبر أنه كتب على نفسه الرحمة، وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، وقال: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢].

قوله: (كَمَا رُوِيَ أَنْ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِدَاوُدَ: وَأَيُّ حَقٍّ لِآبَائِكَ عَلَيَّ؟). يعني: أي حق لم أوجبه على نفسي، ولم أكتبه على نفسي؟

قوله: (فَهُوَ صَحِيحٌ، إِذَا أُرِيدَ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ لِلمَخْلُوقِ عَلَيْهِ حَقٌّ بِالقِيَاسِ وَالِاعْتِبَارِ عَلَى خَلْقِهِ). أي: ليس للمخلوق حق على الخالق كما

يكون للعباد حقوق على بعضهم بعضًا، فالعباد عليهم حقوق، مثل: حق الوالدين وهو واجب، وحق لذوي القربى، وحق لليتامى والمساكين، وحق للجار، وحق لابن السبيل، وحق لملك اليمين؛ كما في الآية.

قوله: (وَهَذَا كَمَا يَظُنُّهُ جُهَّالَ العُبَّادِ مِنْ أَنَّ لَهُمْ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ حَقًّا بِعِبَادَتِهِمْ). فهم يعجبون بعبادتهم، ويمنون بها على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكن ما الذي يدل على أن عباداتهم قُبلت؟ والله تعالى يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٤٩]. ثم لو قُبلت العبادة وصحت، فهي لا تعادل النعم التي أنعم الله بها عليهم، فلو أن الله عذبك لعذبك وأنت مستحق للتعذيب؛ لأنك لم تقم بحق الله الكامل عليك، بل عندك نقص كثير، فعملك لا يعادل أدنى نعمة من نعم الله عليك، لكن الله جَلَّ وَعَلَا يتفضل على أهل الصلاح، فيغفر لهم ويكرمهم، فضلًا منه وإحسانًا، لا أنهم استحقوا هذا على الله كالأجير الذي يعمل بالأجرة، بل هذا فهم جهال العباد من الصوفية وغيرهم، الذين يرون أن العباد يستحقون على الله الجزاء بعبادتهم، وهذا فيه تقول على الله جَلَّ وَعَلَا.

فالإنسان لا يغتر ولا يُعجب بعمله، ولكنه يرجو رحمة الله، ويرجو ثوابه، ويخاف من عقابه، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧].

قوله: (كَالَّذِينَ يَخْدُمُونَ مُلُوكَهُمْ وَمُلَّاكَهُمْ فَيَجْلِبُونَ لَهُمْ مَنْفَعَةً وَيَدْفَعُونَ عَنْهِمْ مَضَرَّةً، وَيَبْقَى أَحَدُهُمْ يَتَقَاضَى العِوَضَ وَالمُجَازَاةَ عَلَى ذَلِكَ). فيقيس الخالق على المخلوق؛ لأن المخلوق إذا عمل شيئًا لمخلوق آخر، فإنه يستحق

عليه المجازاة والأجرة، أما الخالق جَلَّوَعَلَا فلا يُقاس بخلقه، ولو عملت ما عملت من الأعمال، فإن نعم الله عليك أكثر، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النحل:١٨]، فلو حاسبك الله على نعمه لما بقي لك شيء، بل تستحق العذاب لتقصيرك وعدم شكرك، وهذا يأتي في الحديث: «**لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ**»[(١)].

قوله: (**وَيَبْقَى أَحَدُهُمْ يَتَقَاضَى العِوَضَ وَالْمُجَازَاةَ عَلَى ذَلِكَ، وَيَقُولُ لَهُ عِنْدَ جَفَاءٍ أَوْ إِعْرَاضٍ يَرَاهُ مِنْهُ: أَلَمْ أَفْعَلْ كَذَا؟ يَمُنُّ عَلَيْهِ بِمَا يَفْعَلُهُ مَعَهُ، وَإِنْ لَمْ يَقُلْهُ بِلِسَانِهِ كَانَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ**). هذا يوجد بين الناس؛ إذا لم يعطه أجرته، أو لم يعطه مقابل عمله وخدمته، فإنه يتمنن عليه، ويقول: أنا عملت كذا وكذا، ولم تعطني، وهذا شيء في النفوس ولو لم ينطق به لسانه.

قوله: (**وَتَخَيُّلُ مِثْلِ هَذَا فِي حَقِّ الله تَعَالَى مِنْ جَهْلِ الإِنْسَانِ وَظُلْمِهِ**). لأنه قاس الخالق على المخلوق، فكما يجب للعباد حقوق على بعضهم، فهو يوجب على الخالق جَلَّوَعَلَا من باب القياس، وهذا باطل، فالله جَلَّوَعَلَا لا يُقاس بخلقه.

قوله: (**وَلِهَذَا بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنْ عَمَلَ الإِنْسَانِ يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْهِ وَأَنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الخَلْقِ**). الإنسان لا يعمل لله؛ لأن الله غني عن عمل العباد وطاعتهم، قال تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٨]، وإنما عملك الصالح لك، وعملك السيئ عليك، قال تعالى: ﴿لَهَا

---

(١) أخرجه أحمد (٣٥/ ٤٦٥)، وأبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧) من حديث زيد ابن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا، وعن أبي بن كعب وابن مسعود وحذيفة بن اليمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ موقوفًا.

مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦]، فلا يظلم أهل العمل الصالح، ولا يظلم أهل العمل السيئ، بل يجازيهم بأعمالهم، فهو غني عن طاعة المطيعين، ولا تضره معصية العاصين، وإنما هذا راجع إليهم، فلا تظن أن الله حينما أمر العباد بطاعته وعبادته أنه سبحانه محتاج إلى هذا، وإنما هم المحتاجون إلى ذلك، وإلا فالله غني عنهم، قال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الزمر:٧]، فالأعمال لأصحابها خيرًا كانت أو شرًا.

قوله تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾.

أي: من شكر الله جَلَّ وَعَلَا فإنما يشكر لنفسه ثواب ذلك له، ومن كفر فإن الله غني حميد، لا يضره كفر الكافر والجاحد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾. إنما يضرون أنفسهم، ولو تسارعوا إلى الكفر وتسابقوا إليه فلن يضروا إلا أنفسهم، وأما الله جَلَّ وَعَلَا فلا يتضرر بذلك، فملكه تام سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وغناه تام دون أعمال العباد.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ

ﭐلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾. أي: لله على الناس حق أن يحجوا بيته كل سنة بالنسبة لعموم المسلمين، فحج البيت كل سنة فرض كفاية، فلا يُترك الحج في بعض السنين من غير عذر شرعي، ولابد أن يُحج البيت، أما الحج الذي هو ركن من أركان الإسلام فهو على المستطيع مرة واحدة في العمر، وما زاد فهو تطوع.

الشاهد في قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: عن جميع العالم، فلن يضر الله كفرهم لو كفر الناس جميعًا، ولن يضروا الله شيئًا لو شكروه جميعًا، ولن يزيد ذلك في ملكه شيئًا؛ كما في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَإِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**»[(١)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَدْ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ المَانُّ بِالعَمَلِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات:٧-٨].

وَفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ الإِلَهِيِّ: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَإِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا وَلَا أُبَالِي، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يُنْقِصُ المَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ»[1].

الشَّرْح

قوله: (وَقَدْ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ المَانُّ بِالعَمَلِ). هو المان بالعمل على عباده، لا أنهم هم الذين يمنون على الله بأعمالهم، قال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾، فهو منَّة من الله جَلَّ وَعَلَا عليهم، وتفضل منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجب أن يُشكر على ذلك.

وجاء في سبب نزول هذه الآية أن الأعراب جاءوا إلى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأساءوا الأدب معه، ونادوه من وراء الحجرات، وقالوا: إنا جئنا وآمنا بك وإنا وإنا، وأخذوا يعددون تفضلاتهم على الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرد عليهم الله جَلَّ وَعَلَا بقوله: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾، وأهل الجنة يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الطور:٢٦-٢٨]، فالمنَّة لله على عباده.

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

الشاهد في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾، فالفضل من الله جَلَّ وَعَلَا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾، هذا الذي حصلت عليه من محبة الإيمان وكراهية الكفر؛ تفضلًا من الله جَلَّ وَعَلَا ونعمة منه عليكم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ يعلم من يصلح لذلك لمنه وكرمه سبحانه، ﴿حَكِيمٌ ﴾ يضع الأمور في مواضعها، فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من لا يستحق الهداية.

وَبَيْنَ الخَالِقِ تَعَالَى وَالمَخْلُوقِ مِنَ الفُرُوقِ مَا لَا يَخْفَى عَلَى مَنْ لَهُ أَدْنَى بَصِيرَةٍ.

مِنْهَا: أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى غَنِيٌّ بِنَفْسِهِ عَمَّا سِوَاهُ، وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ مُفْتَقِرًا إِلَى غَيْرِهِ بِوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ، وَالمُلُوكُ وَسَادَةُ العَبِيدِ مُحْتَاجُونَ إِلَى غَيْرِهِمْ حَاجَةً ضَرُورِيَّةً.

وَمِنْهَا: أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى وَإِنْ كَانَ يُحِبُّ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَيَرْضَى وَيُفْرِحُ بِتَوْبَةِ التَّائِبِينَ، فَهُوَ الَّذِي يَخْلُقُ ذَلِكَ وَيُيَسِّرُهُ، فَلَمْ يَحْصُلْ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ إِلَّا بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

وَهَذَا ظَاهِرٌ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ الَّذِينَ يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْمُنْعِمُ عَلَى عِبَادِهِ بِالإِيمَانِ، بِخِلَافِ الْقَدَرِيَّةِ، وَالمَخْلُوقُ قَدْ يَحْصُلُ لَهُ مَا يُحِبُّهُ بِفِعْلِ غَيْرِهِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى أَمَرَ العِبَادَ بِمَا يُصْلِحُهُمْ وَنَهَاهُمْ عَمَّا يُفْسِدُهُمْ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ(١): إِنَّ اللهَ لَمْ يَأْمُرِ الْعِبَادَ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِمْ، وَلَا يَنْهَاهُمْ عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ بُخْلًا عَلَيْهِمْ، بَلْ أَمَرَهُمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ وَنَهَاهُمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ، بِخِلَافِ المَخْلُوقِ الَّذِي يَأْمُرُ غَيْرَهُ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَيَنْهَاهُ عَمَّا يَنْهَاهُ بُخْلًا عَلَيْهِ.

---

(١) هو قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، الحافظ العلامة أبو الخطاب السدوسي البصري، الضرير الأكمه، من أئمة التابعين، حدث عن عبد الله بن سرجس، وأنس بن مالك، وسعيد بن المسيب، ومعاذة، وأبي الطفيل، وخلق، وعنه مسعر، وابن أبي عروبة، وشيبان، وشعبة، وأمم سواهم، توفي سنة ثماني عشرة ومائة. انظر: الثقات (٥/ ٣٢١)، والجرح والتعديل (٧/ ١٣٣)، وميزان الاعتدال (٥/ ٤٦٦).

وَهَذَا أَيْضًا ظَاهِرٌ عَلَى مَذْهَبِ السَّلْفِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ الَّذِينَ يُثْبِتُونَ حِكْمَتَهُ وَرَحْمَتَهُ، وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ لَمْ يَأْمُرِ الْعِبَادَ إِلَّا بِخَيْرٍ يَنْفَعُهُمْ، وَلَمْ يُنْهَهُمْ إِلَّا عَنْ شَرٍّ يَضُرُّهُمْ. بِخِلَافِ الْمُجَبِّرَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ قَدْ يَأْمُرُهُمْ بِمَا يَضُرُّهُمْ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا يَنْفَعُهُمْ.

الشَّرْح

قوله: (وَبَيْنَ الخَالِقِ تَعَالَى وَالمَخْلُوقِ مِنَ الفُرُوقِ مَا لَا يَخْفَى عَلَى مَنْ لَهُ أَدْنَى بَصِيرَةٍ). يقصد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا الكلام الرد على الذين يعبدون الأولياء والصالحين، فيذبحون لهم، وينذرون لهم، ويستغيثون بهم، ويقولون: قصدنا بهذا أنهم يشفعون لنا عند الله عَزَّوَجَلَّ، فهم وسائط بيننا وبين الله.

وهذا في الواقع كقول المشركين من قبل، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨]، لم يقولوا: إن هؤلاء شركاء لله، ولم يقولوا: إن هذا شرك. إنما يسمون هذا من باب الشفاعة لهم عند الله، ويتخذونهم وسائط بينهم وبين الله.

وكذلك إذا كانوا لا يقربون لهم شيئًا من العبادات، ولكن يدعون الله بهم بأن يشفعوا لهم دون أن يتقربوا إليهم بشيء من العبادات، بل هم مجرد واسطة، وهذا أخف من النوع الأول، فالتوسل الأول يسمى شركًا أكبر، وهذا التوسل يسمى شركًا أصغر وبدعة، وهو وسيلة إلى الشرك الأكبر، فهم قاسوا الله جَلَّوَعَلَا بالمخلوقين الذين لا يقضون حوائج الناس إلا بوسائط، والوسائط

تؤثر على الملوك والأمراء في قضاء حوائج الرعية، وهذا شيء معروف، فهم قاسوا الله عَزَّوَجَلَّ بخلقه، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرد عليهم من عدة وجوه تأتي.

قوله: (مِنْهَا أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى غَنِيٌّ بِنَفْسِهِ عَمَّا سِوَاهُ، وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ مُفْتَقِرًا إِلَى غَيْرِهِ بِوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ).

أي: **الوجه الأول**: أن الأمراء والملوك بحاجة إلى هؤلاء الذين يتوسطون عندهم، ويشفعون للناس؛ لأنه لو لم يوسطهم لأخلوا بالملك ونازعوه، فهو يستجلبهم، ويستجلب مودتهم؛ لأنه بحاجة إليهم، أما الله جَلَّوَعَلَا فغني عن خلقه ليس بحاجة إلى أحد يتوسط أو يشفع عنده، بل هو يقضي حوائج الناس ابتداءً دون شفاعة أحد يتوسط عنده، كما يتوسط عند الملوك، ويقبلون الوساطة لحاجتهم إلى الشفعاء والوزراء.

قوله: (وَالْمُلُوكُ وَسَادَةُ العَبِيدِ مُحْتَاجُونَ إِلَى غَيْرِهِمْ حَاجَةً ضَرُورِيَّةً).

الملوك بحاجة إلى غيرهم: يخدمونهم ويساعدونهم على أعمالهم؛ لأنهم بحاجة إلى المساعدين والوزراء، أما الله جَلَّوَعَلَا فليس بحاجة إلى أحد، وهو غني عن خلقه أجمعين.

قوله: (وَمِنْهَا أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى وَإِنْ كَانَ يُحِبُّ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَيَرْضَى وَيُفْرِحُ بِتَوْبَةِ التَّائِبِينَ، فَهُوَ الَّذِي يَخْلُقُ ذَلِكَ وَيُيَسِّرُهُ).

الفرق الثاني: أن الله جَلَّوَعَلَا هو الذي يعطي هؤلاء الجاه والمال، ويوفقهم للعبادة والصلاح، بخلاف الملوك، فإنهم لا يقدرون على أن يُعطوا أحدًا شيئًا، أو أن يصلحوا قلبه، لا يقدرون على ذلك إلا بإقدار الله لهم، فما مع الملوك ليس هو من عملهم دون توفيق الله جَلَّوَعَلَا.

قوله: (**فَلَمْ يَحْصُلْ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ إِلَّا بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ الَّذِينَ يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْمُنْعِمُ عَلَى عِبَادِهِ بِالإِيمَانِ، بِخِلَافِ الْقَدَرِيَّةِ**). بخلاف القدرية الذين يقولون: إن العبد هو الذي يخلق فعل نفسه، وليس لله إرادة ولا تقدير في عمله، وليس هناك قضاء وقدر، وهذا معروف من مذهب القدرية، من المعتزلة وغيرهم، أما أهل السنة فمذهبهم أن الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي أقدر العباد وأعطاهم، ولا يكون شيء في ملكه إلا ما يريد ويقدر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: (**وَالمَخْلُوقُ قَدْ يَحْصُلُ لَهُ مَا يُحِبُّهُ بِفِعْلِ غَيْرِهُ**). لا بفعله هو، بل بالإعانة ممن يعينه من الناس، أما الله جَلَّ وَعَلَا فليس بحاجة إلى فعل غيره، بل هو القادر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كل شيء.

قوله: (**وَمِنْهَا أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى أَمَرَ العِبَادَ بِمَا يُصْلِحُهُمْ وَنَهَاهُمْ عَمَّا يُفْسِدُهُمْ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ اللهَ لَمْ يَأْمُرِ الْعِبَادَ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِمْ، وَلَا يَنْهَاهُمْ عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ بُخْلًا عَلَيْهِمْ، بَلْ أَمَرَهُمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ وَنَهَاهُمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ، بِخِلَافِ المَخْلُوقِ الَّذِي يَأْمُرُ غَيْرَهُ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهُ وَيَنْهَاهُ عَمَّا يَنْهَاهُ بُخْلًا عَلَيْهِ**). من الفروق بين الخالق والمخلوق: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أوامره ونواهيه إنما أراد بها مصلحة العباد، فأمرهم ونهاهم لمصلحتهم، فإذا أطاعوا أمره أكرمهم، وإذا عصوا أمره عذبهم، فهذا لصالحهم، فأمرهم ونهاهم ليدفع عنهم العذاب، وليجلب لهم الخير لحاجتهم هم إلى هذا. أما الملوك فيأمرون الوزراء ورجالهم بما فيه مصلحتهم لا مصلحة المأمورين، فهم يستخدمونهم وينتفعون بخدمتهم، فهذا فرق بين الخالق والمخلوق، فالخالق إنما يأمر العباد

لمصلحتهم وينهاهم لمصلحتهم، لا لأنه محتاج إلى ذلك، قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٨]، لا ينقصه شيء، ولو أنهم أطاعوه كلهم ما زاد ذلك في ملكه شيئًا، وإنما نفع ذلك أو ضرره عائد إليهم، فمن رحمته سبحانه: أنه يأمرهم بما يصلحهم، وينهاهم عما يضرهم، فأوامره ونواهيه رحمة منه جَلَّوَعَلَا لعباده، لا أنه يستفيد من وراء ذلك، فإنه غني بدون ذلك، فهذا فرق بين الخالق والمخلوق.

وقوله: (**بِخِلَافِ المَخْلُوقِ الَّذِي يَأْمُرُ غَيْرَهُ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهُ وَيَنْهَاهُ عَمَّا يَنْهَاهُ بُخْلًا عَلَيْهِ**). فهو يأمر من يأمر؛ لأنه محتاج إلى فعله وخدمته، فيأمره بما فيه مصلحته هو، وينهاه عما ينهاه عنه بخلًا عليه، أما الله فينهى من باب الرحمة.

قوله: (**وَهَذَا أَيْضًا ظَاهِرٌ عَلَى مَذْهَبِ السَّلْفِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ الَّذِينَ يُثْبِتُونَ حِكْمَتَهُ وَرَحْمَتَهُ وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ لَمْ يَأْمُرِ الْعِبَادَ إِلَّا بِخَيْرٍ يَنْفَعُهُمْ، وَلَمْ يُنْهَهُمْ إِلَّا عَنْ شَرٍّ يَضُرُّهُمْ. بِخِلَافِ الْمُجَبِّرَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ قَدْ يَأْمُرُهُمْ بِمَا يَضُرُّهُمْ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا يَنْفَعُهُمْ**). هناك من ينفي حكمة الله في أفعاله وأوامره ونواهيه، ويقولون: إنه يأمر وينهى لمجرد أنه رب، فيفعل ما يشاء لا لحكمة. فينفون الحكمة عن الله، ويقولون: لأن الحكمة تكون مؤثرة، والله جَلَّوَعَلَا لا يتأثر بشيء، فينفون حكمة الله التي أثبتها لنفسه، وهو الحكيم الخبير العليم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٣]، وعلى هذا الأشاعرة، ويقولون: جائز على الله أن يُعذب المؤمن، وينعم الكافر، فليست الطاعة سببًا، ولا حكمةً للنعيم، وليس الكفر والشرك والمعاصي سببًا للتعذيب، إنما هذا راجع إلى السلطة الإلهية فقط. وهذا مذهب باطل، فإن الله وصف نفسه بالحكمة، والحكمة:

هي وضع الشيء في وضعه، فلا يليق به أن يضع العذاب فيمن لا يستحق، أو من أفنى عمره بالطاعة، ولا يليق بحكمته أن ينعم من أمضى عمره بالكفر والشرك، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥، ٣٦]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١]، هذا يخالف عدل الله جَلَّ وَعَلَا وحكمته.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨]، هذا تأباه حكمة الله جَلَّ وَعَلَا، فهم لم ينزهوا الله عن هذا.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُنْعِمُ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الكُتُبِ، وَهُوَ الْمُنْعِمُ بِالقُدْرَةِ وَالحَوَاسِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا بِهِ يُحَصِّلُ العِلْمَ وَالعَمَلَ الصَّالِحَ، وَهُوَ الهَادِي لِعِبَادِهِ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ. وَلِهَذَا قَالَ أَهْلُ الجَنَّةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٤٣]، وَلَيْسَ يَقْدِرُ المَخْلُوقُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

وَمِنْهَا: أَنَّ نِعَمَهُ عَلَى عِبَادِهِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تُحْصَى، فَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ العِبَادَةَ جَزَاءُ النِّعْمَةِ، لَمْ تَقُمِ العِبَادَةُ بِشُكْرِ قَلِيلٍ مِنْهَا، فَكَيْفَ وَالعِبَادَةُ مِنْ نِعَمِهِ أَيْضًا؟

وَمِنْهَا: أَنَّ العِبَادَ لَا يَزَالُونَ مُقَصِّرِيْنَ مُحْتَاجِينَ إِلَى عَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، فَلَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ سَيِّئَاتٌ يَحْتَاجُ فِيهَا إِلَى مَغْفِرَةِ اللهِ لَهَا ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥].

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»(١)، لَا يُنَاقِضُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ فَإِنَّ المَنْفِيَّ نُفِيَ بِبَاءِ المُقَابَلَةِ وَالمُعَاوَضَةِ كَمَا يُقَالُ: بِعْتُ هَذَا بِهَذَا. وَمَا أُثْبِتَ أُثْبِتَ بِبَاءِ السَّبَبِ، فَالعَمَلُ لَا يُقَابِلُ الجَزَاءَ وَإِنْ كَانَ سَبَبًا لِلجَزَاءِ.

وَلِهَذَا مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ قَامَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى مَغْفِرَةِ الرَّبِّ تَعَالَى وَعَفْوِهِ فَهُوَ ضَالٌّ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَنْ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ». وَرُوِيَ: «بِمَغْفِرَتِهِ»[(١)].

الشَّرْح

قوله: (وَمِنْهَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُنْعِمُ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الكُتُبِ، وَهُوَ الْمُنْعِمُ بِالقُدْرَةِ وَالحَوَاسِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا بِهِ يُحَصِّلُ العِلْمَ وَالعَمَلَ الصَّالِحَ...).

من الفروق بين الخالق والمخلوق: أن صلاح الصالحين وطاعة المطيعين إنما هي بفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو الذي هداهم ووفقهم، وهو الذي دلهم على الخير حتى عملوه ونالوا من الله الأجر والثواب. وأما من أعرض عن أوامره ونواهيه، واتبع هواه، فهو الذي جنى على نفسه، وسبب لها الهلاك والعذاب، فالله جَلَّ وَعَلَا جعل الثواب والعقاب منوطين بأعمال العباد، فأعمال العباد أسباب لنيل الكرامة أو نيل العذاب، والمخلوق لا يقدر على شيء من ذلك، لا يقدر أنه يوفق أحدًا للخير، أو أن يشقي أحدًا، فهو إنسان ضعيف، ولهذا قال الله جَلَّ وَعَلَا لأشرف الخلق محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦]، فهو أعلم بمن يستحق الهداية ممن لا يستحقها، أما المخلوق فلا يعلم، نعم المخلوق يدعو إلى الخير، ويبينه للناس، وينهى عن الشر، لكن لا يقدر أن يوفق للخير، وأن يمنع من الشر، وإنما هو مجرد داعية إلى الخير، والتوفيق بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٧)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وأخرجه مسلم (٢٨١٦)، ولفظه: «إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ».

قوله: (وَمِنْهَا أَنَّ نِعَمَهُ عَلَى عِبَادِهِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تُحْصِى، فَلَوْ قُدِّر أَنَّ العِبَادَةَ جَزَاءُ النِّعْمَةِ، لَمْ تَقُمِ العِبَادَةُ بِشُكْرِ قَلِيلٍ مِنْهَا، فَكَيْفَ وَالعِبَادَةُ مِنْ نِعْمِهِ أَيْضًا؟). من الفروق -أيضًا-: أن العبادة والصلاح والتقوى التي استحق بها الأولياء والصالحون كرامة الله إنما ذلك بتوفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو المنعم بجميع النعم، ومن ذلك العمل الصالح والعبادة، فإنها بتوفيق الله جَلَّ وَعَلَا، فهو الذي أنعم بها على العبد، ووفقه لها، وأعانه عليها.

قوله: (وَمِنْهَا أَنَّ العِبَادَ لَا يَزَالُونَ مُقَصِّرِيْنَ مُحْتَاجِينَ إِلَى عَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، فَلَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ سَيِّئَاتٌ يَحْتَاجُ فِيهَا إِلَى مَغْفِرَةِ اللهِ لَهَا ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾). هذا متفرع عن الوجه الذي قبله، إذا كان العمل الصالح والعبادة والصلاح من الله جَلَّ وَعَلَا، هو الذي وفق العبد وهداه وأعانه عليها، فإن عمل العبد من نعم الله عَزَّ وَجَلَّ، فعمل العبد لو وُزن بالنعم لم يقابل أقل نعمة من نعم الله عليه، ولكن الله يدخله الجنة برحمته لا بعمله، إنما العمل سبب لدخول الجنة، وليست الجنة ثمنًا للعمل مثل ما يعمل الأجير عند المؤجر؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**».

والله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾، فلو أنه حاسبهم على نعمه، فأعمالهم لا تبلغ أقل نعمة من نعمه عليهم، فيستحقون عذابه؛ لأنهم لم يشكروه حق

الشكر، ولم يعبدوه حق العبادة؛ لأن عملهم قليل جدًّا بالنسبة لنعم الله، فالله جَلَّ وَعَلَا لو حاسبهم على نعمه وأعمالهم ما قابلت أعمالهم شيئًا من نعمه إلا القليل، وحينئذٍ يستحقون العذاب على تقصيرهم، وعدم قيامهم بحق الله جَلَّ وَعَلَا على الوجه الكامل؛ ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل:٦١].

قوله: (**وَقَوْلُهُ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**»، **لَا يُنَاقِضُ قَوْلَهُ تَعَالَى**: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾). لأن الباء مختلفة، وهي تأتي بمعان، فجاءت في الآية بمعنى، وجاءت في الحديث بمعنى آخر، فالباء قد تكون باء العوض، وقد تكون سببية، فالباء المنفية «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**» هي باء العوض، والباء المثبتة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هي باء السبب، فالعمل سبب لدخول الجنة، وليس مقتضيًا لدخول الجنة، والسبب قد يترتب عليه النتيجة وقد لا يترتب عليه، فليس هناك تناقض بين الآية والحديث، وهذا جواب مفيد جدًّا في بيان المراد بالباء في موضع الإثبات ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وفي موضع النفي: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**».

قوله: (**فَإِنَّ المَنْفِيَّ نُفِيَ بِبَاءِ المُقَابَلَةِ وَالمُعَاوَضَةِ كَمَا يُقَالُ: بِعْتُ هَذَا بِهَذَا**). فليس العمل ثمنًا للجنة، وإنما هو سبب لدخول الجنة فقط.

قوله: (**وَمَا أُثْبِتَ أُثْبِتَ بِبَاءِ السَّبَبِ، فَالعَمَلُ لَا يُقَابِلُ الجَزَاءَ وَإِنْ كَانَ سَبَبًا لِلجَزَاءِ**). فهو سبب للجزاء، لكنه ليس ثمنًا للجزاء.

قوله: (**وَلِهَذَا مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ قَامَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى مَغْفِرَةِ الرَّبِّ تَعَالَى وَعَفْوِهِ فَهُوَ ضَالٌّ**). من ظن أن عمله يدخله الجنة، وأنه ليس بحاجة إلى رحمة الله ومغفرته، فإنه ظالم في حق الله جَلَّ وَعَلَا؛ حيث أوجب على الله أن يدخله الجنة بعمله، ولو قوبل عمله بالنعم التي أنعمها الله عليه ما كافأ القليل من النعم، فلا أحد يقوم بما أوجب الله عليه على وجه الكمال، بل لا بد من نقص وتقصير.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولُ اللهِ؟ قَالَ: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**». الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي تفضل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأرسله وجعله من أفضل الرسل، ووفقه للعمل بطاعة الله؛ ولهذا قال الله جَلَّ وَعَلَا يُخاطب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٦-٨]، هذه نعم الله على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف بغيره؟

وَمِنْ هَذَا أَيْضًا: الحَدِيثُ الَّذِي فِي السُّنَنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لِهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ»(١). الحَدِيث.

وَمَنْ قَالَ: بَلْ لِلمَخْلُوقِ عَلَى اللهِ حَقٌّ. فَهُوَ صَحِيحٌ إِذَا أَرَادَ بِهِ الحَقَّ الَّذِي أَخْبَرَ اللهُ بِوُقُوعِهِ، فَإِنَّ اللهَ صَادِقٌ لَا يُخْلِفُ المِيعَادَ، وَهُوَ الَّذِي أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ بِحِكْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَهَذَا المُسْتَحِقُّ لِهَذَا الحَقِّ إِذَا سَأَلَ اللهَ تَعَالَى بِهِ فَسَأَلَ اللهَ تَعَالَى إِنْجَازَ وَعْدِهِ، أَوْ سَأَلَهُ بِالأَسْبَابِ الَّتِي عَلَّقَ اللهُ بِهَا المُسَبَّبَاتِ كَالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَهَذَا مُنَاسِبٌ. وَأَمَّا غَيْرُ المُسْتَحِقِّ لِهَذَا الحَقِّ إِذَا سَأَلَهُ بِحَقِّ ذَلِكَ الشَّخْصِ فَهُوَ كَمَا لَوْ سَأَلَهُ بِجَاهِ ذَلِكَ الشَّخْصِ، وَذَلِكَ سُؤَالٌ بِأَمْرٍ أَجْنَبِيٍّ عَنْ هَذَا السَّائِلِ لَمْ يَسْأَلْهُ بِسَبَبٍ يُنَاسِبُ إِجَابَةَ دُعَائِهِ.

وَأَمَّا سُؤَالُ اللهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ الَّتِي تَقْتَضِي مَا يَفْعَلُهُ بِالعِبَادِ مِنَ الهُدَى وَالرِّزْقِ وَالنَّصْرِ فَهَذَا أَعْظَمُ مَا يُسْأَلُ اللهُ تَعَالَى بِهِ. فَقُولُ المُنَازِعِ: لَا يَسْأَلُ بِحَقِّ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّهُ لَا حَقَّ لِلمَخْلُوقِ عَلَى الخَالِقِ مَمْنُوعٌ.

فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ حَدِيثُ مُعَاذٍ الَّذِي تَقَدَّمَ إِيرَادُهُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

فَيُقَالُ لِلْمُنَازِعِ: الكَلَامُ فِي هَذَا فِي مَقَامَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: فِي حَقِّ العِبَادِ عَلَى اللهِ.

وَالثَّانِي: فِي سُؤَالِهِ بِذَلِكَ الحَقِّ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشَّـرح

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لِهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ**». هذا الحديث واضح في أن الله لو عذب أهل سماواته وأرضه بما فيهم الملائكة والرسل والأولياء والصالحون، لم يكن ظالمًا لهم، فلو أنه أوقع عليهم عدله وحاسبهم على نعمه لعذبهم وهو غير ظالم لهم؛ لأن عندهم تقصيرًا وأخطاء، ولا يقدرون على شكر نعم الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل:١٨]، لا تحصيها عدًّا، فكيف تحصيها شكرًا؟

قارن بين عملك وبين نعم الله عليك، بل إن العمل نفسه نعمة من الله عليك، فكان دخولهم الجنة إنما هو تكرم وتفضل منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلو عذبهم على نعمه، وأجرى عليهم عدله لم يستحقوا شيئًا، وأعمالهم راحت مقابل أقل نعمة من نعمه، وتبقى بقية النعم ليس عليها مقابل، وهذا عدل منه سبحانه، فلو عذبهم فهذا عدل منه سبحانه، ولكن الله جَلَّ وَعَلَا تفضل عليهم، فدخولهم الجنة بفضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا بعدله، لو أجرى العدل عليهم ما دخلوا الجنة؛ لأنهم لا يستحقون دخولها بما عندهم من الظلم والمعاصي والتقصير والسيئات، وعدم شكر النعم، لو أن الإنسان أفنى حياته كلها في عبادة الله ما قابلت أقل نعمة من نعم الله عليه، فالإنسان ينظر في هذا.

قوله: (**وَمَنْ قَالَ: بَلْ لِلمَخْلُوقِ عَلَى اللهِ حَقٌّ. فَهُوَ صَحِيحٌ إِذَا أَرَادَ بِهِ الحَقَّ الَّذِي أَخْبَرَ اللهُ بِوُقُوعِهِ**). نعم، للعباد حق على الله، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«**حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»[(١)]، لكنه ليس حقًّا واجبًا عليه أوجبه عملهم، وإنما هو حق تفضل الله به عليهم، قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، وقال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:١٠٣]، فهذا تفضل منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلهم حق أوجبه على نفسه، ولم توجبه عليه أعمالهم، فأما من قال: إن للعباد على الله حقًّا واجبًا لم يوجبه الله وأوجبته أعمالهم. فهذا باطل؛ لأن الله لا يجب عليه حق لأحد من باب الفرض والإيجاب، وإنما الله هو الذي أوجب ذلك على نفسه، وتفضل به على عباده، فمن قال: للعباد على الله حق. هذا فيه تفصيل: فقد يكون صحيحًا، وقد يكون باطلًا؛ فيكون صحيحًا إذا أراد أن الله أوجب هذا على نفسه تكرمًا منه سبحانه، ووعد به، وهو لا يخلف وعده سبحانه، ويكون باطلًا إذا ألزم الله به، كما تقوله المعتزلة من أن العقل يوجب على الله حقًّا لعباده، فهذا باطل، وهو تنقص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: (**وَأَمَّا غَيْرُ المُسْتَحِقِّ لِهَذَا الحَقِّ إِذَا سَأَلَهُ بِحَقِّ ذَلِكَ الشَّخْصِ فَهُوَ كَمَا لَوْ سَأَلَهُ بِجَاهَ ذَلِكَ الشَّخْصِ، وَذَلِكَ سُؤَالٌ بِأَمْرٍ أَجْنَبِيٍّ عَنْ هَذَا السَّائِلِ لَمْ يَسْأَلْهُ بِسَبَبٍ يُنَاسِبُ إِجَابَةَ دُعَائِهِ**). رجع إلى أصل المسألة، وهو: التوسل بالمخلوقين إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا توسل إلى الله بالصالحين من باب أنه جعلهم وسائط بينه وبين الله؛ لأنهم صالحون، وقال: اللهم اغفر لي بحق فلان، اللهم أكرمني وعافني بحق فلان عبدك الصالح. فهو يسأل الله بشيء لم يعمله هو، إنما يسأله بعمل غيره، وعمل غيره لا ينفعه، وصلاح فلان

(١) تقدم تخريجه (ص٢١٤).

له، وتقواه له، فهو سأل الله بسبب لا يكون سببًا، ولكن لو سأل الله بعمله الصالح، وبإيمانه بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا صحيح؛ لأنه توسل إلى الله بعمله الصالح الذي عمله هو، لا العمل الصالح الذي عمله فلان، والذي ليس له به علاقة ولا سبب بأي وجه من الوجوه.

قوله: (**وَأَمَّا سُؤَالُ اللهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ الَّتِي تَقْتَضِي مَا يَفْعَلُهُ بِالعِبَادِ مِنَ الهُدَى وَالرِّزْقِ وَالنَّصْرِ فَهَذَا أَعْظَمُ مَا يُسْأَلُ اللهُ تَعَالَى بِهِ**). إذا سأل الله بأسمائه وصفاته بأن قال: يا أرحم الراحمين ارحمني، يا غفور يا رحيم اغفر لي، وهكذا يتوسل إلى الله بأسمائه وصفاته، فالله أمر بذلك، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، تدعو الله بأسمائه وصفاته، وتتوسل إليه بأسمائه وصفاته، وتأتي بالاسم والصفة المناسبة لحاجتك، إذا كنت مريضًا تقول: اشفني أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، إن كنت خائفًا من ذنوبك تقول: اللهم ارحمني، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي، وارحمني. فتتوسل إلى الله بأسمائه وصفاته التي تناسب حاجتك، وهكذا.

قوله: (**فَقَوْلُ المُنَازِعَ: لَا يَسْأَلُ بِحَقِّ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّهُ لَا حَقَّ لِلمَخْلُوقِ عَلَى الخَالِقِ مَمْنُوعٌ**). الكلام هذا غير صحيح، فالعباد لهم حق على الخالق أوجبه هو بنفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ووعدهم به، وهو لا يخلف وعده، أما حق هم أوجبوه على الله، فهذا باطل.

قوله: (**فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ حَدِيثُ مُعَاذٍ الَّذِي تَقَدَّمَ إِيرَادُهُ**). هو حديث معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ، فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ**»، فَقُلْتُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ. ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ**». قُلْتُ:

لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «**أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟**»، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»[1]. وهذا وعد منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أوجبه على نفسه تكرمًا منه وفضلًا، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي: أوجبها على نفسه ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤]، فمن هذا الوجه للعباد حق على الله أوجبه سبحانه على نفسه، ووعدهم به، وهو لا يخلف وعده.

فقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ﴾، أي: أوجب.

وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. معناه -والله أعلم-: أن الله أحقه على نفسه وتفضل به، لا أن أحدًا أوجبه وجعله حقًّا عليه.

(١) تقدم تخريجه (ص٢١٤).

أَمَّا الأَوَّلُ فَلَا رَيْبَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى وَعَدَ الْمُطِيعِينَ بِأَنْ يُثِيبَهُمْ، وَوَعَدَ السَّائِلَيْنِ بِأَنْ يُجِيبَهُمْ، وَهُوَ الصَّادِقُ الَّذِي لَا يُخْلِفُ المِيعَادُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]، وَقَالَ: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ [إبراهيم:٤٧]. فَهَذَا مِمَّا يَجِبُ وُقُوعُهُ بِحُكْمِ الوَعْدِ بِاتِّفَاقِ المُسْلِمِينَ.

وَتَنَازَعُوا: هَلْ عَلَيْهِ وَاجِبٌ بِدُونِ ذَلِكَ؟

عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ كَمَا تَقَدَّمَ:

قِيلَ: لَا يَجِبُ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ حَقٌّ بِدُونِ ذَلِكَ.

وَقِيلَ: بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ وَاجِبَاتٌ وَيَحْرُمُ عَلَيْهِ مُحَرَّمَاتٌ بِالقِيَاسِ عَلَى عِبَادِهِ.

وَقِيلَ: هُوَ أَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ وَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ مَا أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَيَحْرُمُ عَلَيْهِ مَا حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ كَمَا تَقَدَّمَ.

الشَّرح

قوله: (وَهُوَ الصَّادِقُ الَّذِي لَا يُخْلِفُ المِيعَادُ). كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾.

فالله جَلَّ وَعَلَا إذا وعد لا يخلف وعده، بل قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾، فهو لا يخلف وعده، أما الوعيد، فقد يخلفه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويتوب على الإنسان ويرحمه.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾. الله جَلَّ وَعَلَا وعد رسله بالنصر والتأييد على الكفرة والمشركين، فلا يخلف الله هذا الوعد، قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر:٥١]، لا يخلف الله هذا الوعد.

قوله: (فَهَذَا مِمَّا يَجِبُ وُقُوعُهُ بِحُكْمِ الوَعْدِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ). فإن قلت: لماذا حل بالمسلمين الآن ما حل بهم من تسلط الأعداء، وتفوقهم عليهم؟ نقول: هذا بسب ذنوبهم ومعاصيهم، ولو يؤاخذهم الله بذنوبهم، لما بقي على وجه الأرض أحد، فهذا بسبب ذنوبهم، وإلا فالله لا يخلف وعده.

قوله: (وَتَنَازَعُوا: هَلْ عَلَيْهِ وَاجِبٌ بِدُونِ ذَلِكَ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ كَمَا تَقَدَّمَ). تقدم أن من الناس من قال: إن العقل يوجب على الله. وهو قول المعتزلة، وهذا قول باطل.

والقول الثاني: لا حق على الله للعبد مطلقًا، وهذا -أيضًا- قول باطل.

الثالث: التفصيل، فيقال: للعباد حق على الله أوجبه هو على نفسه، وكتبه على نفسه تفضلًا منه، وليس لهم حق عليه أوجبوه هم أو فرضوه على الله جَلَّ وَعَلَا، فلابد من هذا التفصيل.

قوله: (وَقِيلَ: بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ وَاجِبَاتٌ وَيَحْرُمُ عَلَيْهِ مُحَرَّمَاتٌ بِالقِيَاسِ عَلَى عِبَادِهِ). هذا قول المعتزلة.

قوله: (وَقِيلَ: هُوَ أَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ، وَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ). هذا هو الصحيح، وسبق بيانه، ولكن أعاده الشيخ للمناسبة.

قوله: (وَيَحْرُمُ عَلَيْهِ مُحَرَّمَاتٌ بِالقِيَاسِ عَلَى عِبَادِهِ). لا أحد يحرم على الله جَلَّ وَعَلَا شيئًا، هو سبحانه الذي حرم على نفسه الظلم؛ كما في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي**»[1]. فلا أحد يحرم شيئًا على الله جَلَّ وَعَلَا.

قوله: (فَيَجِبُ عَلَيْهِ مَا أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَيَحْرُمُ عَلَيْهِ مَا حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ كَمَا تَقَدَّمَ). فهو سبحانه الذي حرم على نفسه، فيجب عليه ما أوجبه على نفسه من التحريم، وما أوجبه على نفسه من جزاء الصالحين ألا يُعذبهم.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٥٨١).

وَالظُّلْمُ مُمْتَنِعٌ مِنْهُ بِاتِّفَاقِ المُسْلِمِينَ، لَكِنْ تَنَازَعُوا فِي الظُّلْمِ الَّذِي لَا يَقَعُ. فَقِيلَ: هُوَ المُمْتَنِعُ، وَكُلُّ مُمْكِنٍ يُمْكِنُ أَنْ يَفْعَلَهُ لَا يَكُونُ ظُلْمًا؛ لِأَنَّ الظُّلْمَ إِمَّا التَّصَرُّفُ فِي مِلْكِ الغَيْرِ، وَإِمَّا مُخَالَفَةُ الأَمْرِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ طَاعَتُهُ، وَكَلَاهُمَا مُمْتَنِعٌ مِنْهُ. وَقِيلَ: بَلْ مَا كَانَ ظُلْمًا مِنَ العِبَادِ فَهُوَ ظُلْمٌ مِنْهُ.

وَقِيلَ: الظُّلْمُ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢].

قَالَ المُفَسِّرُونَ: هُوَ أَنْ يُحَمَّلَ عَلَيْهِ سَيِّئَاتِ غَيْرِهِ وَيُعَاقَبَ بِغَيْرِ ذَنْبِهِ، وَالهَضْمُ أَنْ يُهْضَمَ مِنْ حَسَنَاتِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠]، وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١].

الشَّرح

الله جَلَّ وَعَلَا منزه عن الظلم؛ لأنه الحكم العدل الذي لا يظلم، قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦]، فالظلم إنما هو من العباد، والظلم في الأصل: وضع الشيء في غير موضعه[1]، وهو ثلاثة أنواع:

(١) انظر: غريب الحديث لابن قُتَيْبَة (٢/ ٨٤)، ولسان العرب (١٢/ ٣٧٣)، والقاموس المحيط (ص١٤٦٤)، ومختار الصحاح (ص١٧٠).

الأول -وهو أعظمها-: ظلم الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]؛ لأنه وضع للعبادة في غير موضعها.

والثاني: ظلم العبد لنفسه بالذنوب والسيئات والمعاصي، فهو يظلم نفسه بوضعها في غير موضعها، والواجب أن يراعيها، وأن يكرمها بالطاعة، ويطهرها من الذنوب والمعاصي، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٧-١٠]، فهو ظلمها؛ حيث عرضها للعذاب.

والثالث: ظلم بين العبد والناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

أما الظلم الأول، فهو لا يُغفر إلا بالتوبة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وأما الثالث، فلا يُغفر إلا إذا سامح العباد، فمظالم العباد لابد من القصاص فيها، إلا إذا سامحوا بها، وأما الثاني -وهو ظلم العبد لنفسه- فهذا الله يغفره، ولا يعبأ به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

قوله: (**لَكِنْ تَنَازَعُوا فِي الظُّلْمِ الَّذِي لَا يَقَعُ. فَقِيلَ هُوَ الْمُمْتَنِعُ**). يقولون: ظلم ممتنع على الله؛ لأنه مستحيل في حقه أن يظلم أحدًا، وهذا قول باطل، فالظلم في حقه ممكن، ولكن الله نزه نفسه عنه، لا لأنه مستحيل، فلو كان مستحيلًا ما احتاج إلى أنه ينزه نفسه منه، فهو ممكن، ولكن الله نزه نفسه عنه جَلَّ وَعَلَا؛ لأنه من النقائص، والله جَلَّ وَعَلَا منزه عن النقائص.

قوله: (**لِأَنَّ الظُّلْمَ إِمَّا التَّصَرُّفُ فِي مِلْكِ الغَيْرِ، وَإِمَّا مُخَالَفَةُ الأَمْرِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ طَاعَتُهُ، وَكِلَاهُمَا مُمْتَنِعٌ مِنْهُ**). ممتنع، أي: مستحيل، فلو كان مستحيلًا في حق الله لما نزه نفسه عنه.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾. الظلم: أن يُعذب العبد بشيء لم يعمله، أو يؤخذ من سيئات غيره وتوضع عليه فيُعذب على عمل غيره، والهضم: النقص من حسناته. والله جَلَّ وَعَلَا لا ينقص من حسنات العباد، وإنما يضاعفها لهم أضعافًا كثيرة؛ فضلًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا أحد يخاف تبعة غيره، ولا يخاف أنه يُنقص من حسناته، وإنما يجازى بعمله خيرًا أو شرًا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾. الذرة، قيل: هي النملة الصغيرة، وقيل: الهباء الذي يطير في الهواء، فالله لا يظلم مثقال ذرة؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منزه عن الظلم، ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾ أي: توجد حسنة، ﴿يُضَاعِفْهَا﴾ إلى عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة[1]؛ فضلًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾. ظلموها بأن تسببوا في عذابها ودخولها النار، وجنوا عليها.

---

(١) كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً**». أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

وَأَمَّا المَقَامُ الثَّانِي فَإِنَّهُ يُقَالُ: مَا بَيَّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ أَنَّهُ حَقٌّ لِلعِبَادِ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَقٌّ، لَكِنِ الكَلَامُ فِي السُّؤَالِ بِذَلِكَ، فَيُقَالُ: إِنْ كَانَ الحَقُّ الَّذِي سَأَلَ بِهِ سَبَبًا لِإِجَابَةِ السُّؤَالِ حَسُنَ السُّؤَالُ بِهِ، كَالحَقِّ الَّذِي يَجِبُ لِعَابِدِيهِ وَسَائِلَيْهِ.

وَأَمَّا إِذَا قَالَ السَّائِلُ: بِحَقِّ فُلَانٍ وَفُلَانٍ. فَأُولَئِكَ إِذَا كَانَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ حَقٌّ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ وَأَنْ يُكَرِّمَهُمْ بِثَوَابِهِ وَيَرْفَعَ دَرَجَاتِهِمْ - كَمَا وَعَدَهُمْ بِذَلِكَ وَأَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ- فَلَيْسَ فِي اسْتِحْقَاقِ أُولَئِكَ مَا اسْتَحَقُّوهُ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ مَا يَكُونُ سَبَبًا لِمَطْلُوبِ هَذَا السَّائِلِ، فَإِنَّ ذَلِكَ اسْتَحَقَّ مَا اسْتَحَقَّهُ بِمَا يَسَّرَهُ اللهُ لَهُ مِنَ الإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، وَهَذَا لَا يَسْتَحِقُّ مَا اسْتَحَقَّهُ ذَلِكَ.

فَلَيْسَ فِي إِكْرَامِ اللهِ لِذَلِكَ سَبَبٌ يَقْتَضِي إِجَابَةَ هَذَا.

وَإِنْ قَالَ: السَّبَبُ هُوَ شَفَاعَتُهُ وَدُعَاؤُهُ. فَهَذَا حَقٌّ إِذَا كَانَ قَدْ شَفَعَ لَهُ وَدَعَا لَهُ، وَإِنْ لَمْ يَشْفَعْ لَهُ وَلَمْ يَدْعُ لَهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ سَبَبٌ، وَإِنْ قَالَ: السَّبَبُ هُوَ مَحَبَّتِي لَهُ وَإِيمَانِي بِهِ وَمُوَالَاتِي لَهُ. فَهَذَا سَبَبٌ شَرْعِيٌّ وَهُوَ سُؤَالُ اللهِ وَتَوَسُّلٌ إِلَيْهِ بِإِيمَانِ هَذَا السَّائِلِ وَمَحَبَّتِهِ للهِ وَرَسُولِهِ وَطَاعَتِهِ للهِ وَرَسُولِهِ.

الشَّرْح

تقدم أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتكلم عن سؤال الله بحق المخلوق، وإن هذا يتضمن مقامين:

المقام الأول: أن يثبت أن لهذا المخلوق حقًّا على الله.

المقام الثاني: إذا ثبت أن لهذا المخلوق حقًّا على الله، فلابد أن يثبت ما يدل على جواز سؤال الله به.

فإذا تحقق هذان المقامان فلا بأس بذلك، أما المقام الأول فليس للمخلوق حق على الخالق، بمعنى: أن أحدًا أوجب على الله حقًّا لخلقه، وإنما الله جَلَّوَعَلَا هو الذي أوجب ذلك على نفسه تفضلًا منه وإحسانًا؛ كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤]، هذا أوجبه الله على نفسه تفضلًا منه وإحسانًا، لا أن أحدًا أوجبه على الله، فإذا كان قصد السائل هذا، فهذا يحتاج إلى دليل أنه يجوز أن يسأل الله بحق فلان، أو بصلاح فلان، أو بجاه فلان، فإن مقام الدعاء توقيفي؛ لأنه عبادة، ولابد من دليل يدل على جواز أن تسأل الله بحق فلان، وليس هناك دليل على ذلك، بل حق فلان، وعمل فلان له، وليس لسائل فيه أي أثر، فكيف يسأل الله بصلاح فلان، أو عمل فلان، وهو ليس له فيه عمل؟

فإن قال: أنا لا أسأل الله بصلاح فلان، أنا أسأل الله بإيماني بالرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، واتباعي له، أو محبتي للصالحين. نقول: نعم، كونك تحب الرسول والصالحين هذا عملك، فأنت تتوسل إلى الله بعملك، والتوسل إلى الله بالأعمال الصالحة مشروع. ولكن ليس هذا هو غرض المتوسلين بالصالحين والأولياء، وإنما غرضهم إما التوسل بذواتهم والإقسام بهم على الله، وإما التوسل بأعمالهم، وأعمالهم ليس للسائل فيها استحقاق، وإنما هي لهم.

قوله: (فَلَيْسَ فِي اسْتِحْقَاقِ أُولَئِكَ مَا اسْتَحَقُّوهُ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ مَا يَكُونُ سَبَبًا لِمَطْلُوبِ هَذَا السَّائِلِ). سبق أن العبد لا يسأل الله إلا بأعماله الصالحة،

ولا يسأله بأعمال غيره، فإن أعمال غيره له ولا تنفعه، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤١]، فكلٌ له عمل، فلا تتعلق على عمل غيرك أبدًا، كأن تعتمد أن أباك من الصالحين، أو قريبك أو عمك أو خالك من الصالحين، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧]، كلٌّ مشغول بنفسه، ولا أحد يلوي على أحد، فاستحضر هذا الموقف، واستعد له بالعمل الصالح، ولا تتكل على صلاح فلان وفلان، فلا تسأل الله بصلاح الناس وإنما اسأله بأعمالك الصالحة.

وفي هذا رد على الذين يتعلقون بالأولياء والصالحين، ويعكفون عند قبورهم، ويقولون: هؤلاء صالحون، ولهم عند الله جاه، ولهم عند الله منزلة، ونحن نسأل الله بصلاحهم وجاههم. وهذا شيء باطل؛ لأنه لا علاقة للعبد بعمل غيره، إنما علاقته بعمله هو فقط، فلماذا لا يدعو الله هو، ولماذا لا يعمل أعمالًا صالحة تلحقه بهؤلاء؟ ولم يمنعه أحد من ذلك، إنما هو الذي منع نفسه، فبدل أن يذهب للقبر ويفني وقته في الشرك بالله، هذه مساجد الله مفتوحة؛ يدخل ويصلي، ويعتكف، ويقرأ القرآن، ويذكر الله، ويدعو الله عَزَّوَجَلَّ، ويعمر مساجد الله بالطاعة؛ لأن هذا هو المجدي والنافع بإذن الله.

قوله: (**فَإِنَّ ذَلِكَ اسْتَحَقَّ مَا اسْتَحَقَّهُ بِمَا يَسَّرَهُ اللهُ لَهُ مِنَ الإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، وَهَذَا لَا يَسْتَحِقُّ مَا اسْتَحَقَّهُ ذَلِكَ**). فلا أحد من العباد يستحق على الله شيئًا بعمل فلان، وما يستحقه على الله بموجب وعد الله له، فهو سبحانه

لا يخلف وعده، فليتقرب إلى الله بعمله، والله جَلَّ وَعَلَا يقول في الحديث القدسي: «**مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»[1]. انظر عملك أنت، واجتهد في الفرائض والنوافل، ولا تتعلق على فلان وفلان، وأناس خلوا ومضوا؛ لأن هذا لا ينفعك أبدًا.

قوله: (**فَلَيْسَ فِي إِكْرَامِ اللهِ لِذَلِكَ سَبَبٌ يَقْتَضِي إِجَابَةَ هَذَا**). كون الله أكرم هذا الرسول، أو هذا الولي، وتفضل عليه، فهذا حق، ولكن أنت ما علاقتك به؟ هذا عمله هو، والمشروع أن تتوسل بعملك أنت لا بعمل غيرك، لابصلاح الصالحين، وإيمان المؤمنين، إنما تسأل الله بصلاحك، وبإيمانك، وبعملك الصالح، فلا تتكل على أعمال غيرك وصلاح غيرك؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا قد قال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٣]، لماذا لا تصلح أنت، وتحسن أعمالك، وتخلص توحيدك، وتدعو الله بذلك؟ هذا هو الطريق الصحيح، ولا تعتمد على صلاح فلان، أو عمل فلان.

قوله: (**وَإِنْ قَالَ: السَّبَبُ هُوَ شَفَاعَتُهُ وَدُعَاؤُهُ**). لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه، والميت لا يقدر أن يدعو؛ لأن عمله انقطع، فهو لا يقدر أن يقضي حاجته أو يدعو لنفسه؛ لأنه ميت هامد، بل هو الذي بحاجة إليك أن تدعو

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

له، وتستغفر له، وتتصدق عنه؛ لأنه انقطع عمله، أما أن تدعوه وهو ميت هامد، فهذا من انتكاس العقول.

قوله: (فَهَذَا حَقٌّ إِذَا كَانَ قَدْ شَفَعَ لَهُ وَدَعَا لَهُ). هذا إنما يكون في الحياة، **وقوله: (شَفَعَ لَهُ)**، أي: دعا له؛ لأن الشفاعة معناها الدعاء، فإذا كان دعا لك وهو حي، فهذا يكون من الأسباب النافعة، أما بعد أن يموت، فلا مجال لدعائه؛ لأنه انقطع عمله، ولا يقدر على الدعاء، قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر:١٤]، لا يقدرون على ذلك، فأنت حي قادر تستطيع أن تستغفر، وتصلي، وتصوم، تحج، وتجاهد في سبيل الله، وتعمل الأعمال الصالحة، وهو ميت انقطع عمله، فكيف تتعلق به وتطلب منه؟!

قوله: (وَإِنْ لَمْ يَشْفَعْ لَهُ وَلَمْ يَدْعُ لَهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ سَبَبٌ). الميت لا يقدر أن يدعو أو يشفع، فكيف تعلق عليه الطلب وهو ميت مرتهن في قبره، بحاجة إلى من يهب إليه الحسنات والأعمال الصالحة؟ فهو بحاجة إليك، أما أن تقول: إنك محتاج إليه. فهذا ليس محلًّا لطلب الحاجة منه.

قوله: (وَإِنْ قَالَ: السَّبَبُ هُوَ مَحَبَّتِي لَهُ وَإِيمَانِي بِهِ وَمُوَالَاتِي لَهُ). نعم، هذا صحيح، إن قال: السبب محبتي له، واتباعي له، وطاعتي للرسول صلى الله عليه وسلم، ليس هناك شك أن هذا عملك، فلك أن تتوسل به، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣]، وقال: ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا

بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣]، فتبين أنك إنما تتوسل إلى الله بأعمالك، وإيمانك، واتباعك للرسول، ومحبتك له، ومحبتك لعباد الله الصالحين في الله عَزَّوَجَلَّ، هذه هي الأعمال التي يتوسل بها.

قوله: (فَهَذَا سَبَبٌ شَرْعِيٌّ). هذا سبب صحيح شرعي؛ لأنه عملك، فأنت تتوسل إلى الله بعملك لا بعمل غيرك. ولكن الذين يتوسلون بالأولياء والصالحين لا يريدون هذا، هم يريدون النوع الأول، وهو التوسل إلى الله بأعمال الغير وصلاح الغير، أو أشد من ذلك يتوسلون إلى الله بالأشخاص، فيقسمون على الله بخلقه، وهذا باطل، وهذا هو الذي عليه أكثر المخرفين.

قوله: (وَهُوَ سُؤَالُ اللهِ وَتَوَسُّلٌ إِلَيْهِ بِإِيمَانِ هَذَا السَّائِلِ وَمَحَبَّتِهِ للهِ وَرَسُولِهِ وَطَاعَتِهِ للهِ وَرَسُولِهِ). إذا كان هذا قصده، وهو حقيقي، وموجود أنه يطيع الرسول، ويتبع الرسول، ويؤمن به، ويحب الصالحين لله عَزَّوَجَلَّ، فهذا عمل صحيح نقره عليه؛ لأن هذا مقتضى الكتاب والسنة.

لَكِنْ يَجِبُ الفَرْقُ بَيْنَ المَحَبَّةِ للهِ وَالمَحَبَّةِ مَعَ اللهِ، فَمِنْ أَحَبَّ مَخْلُوقًا كَمَا يُحِبُّ الخَالِقَ فَقَدْ جَعَلَهُ نِدًّا للهِ، وَهَذِهِ المَحَبَّةُ تَضُرُّهُ وَلَا تَنْفَعُهُ.

وَأَمَّا مَنْ كَانَ اللهُ تَعَالَى أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُ، وَأَحَبَّ أَنْبِيَاءَهُ وَعِبَادَهُ الصَّالِحِيْنَ لَهُ، فَحُبُّهُ للهِ تَعَالَى هُوَ أَنْفَعُ الأَشْيَاءِ. وَالفَرْقُ بَيْنَ هَذَيْنِ مِنْ أَعْظَمِ الأُمُورِ.

فَإِنْ قِيلَ: إِذَا كَانَ التَّوَسُّلُ بِالإِيمَانِ بِهِ وَمَحَبَّتُهُ وَطَاعَتُهُ عَلَى وَجْهَيْنِ: تَارَةً يَتَوَسَّلُ بِذَلِكَ إِلَى ثَوَابِهِ وَجَنَّتِهِ وَهَذَا أَعْظَمُ الوَسَائِلِ، وَتَارَةً يَتَوَسَّلُ بِذَلِكَ فِي الدُّعَاءِ كَمَا ذَكَرْتُمْ نَظَائِرَهُ. فَيُحْمَلُ قَوْلِ القَائِلِ: أَسْأَلُكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ، عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ: إِنِّي أَسْأَلُكِ بِإِيمَانِي بِهِ وَبِمَحَبَّتِهِ، وَأَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِإِيمَانِي بِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَقَدْ ذَكَرْتُمْ أَنَّ هَذَا جَائِزٌ بِلَا نِزَاعٍ. قِيلَ: مَنْ أَرَادَ هَذَا المَعْنَى فَهُوَ مُصِيبٌ فِي ذَلِكَ بِلَا نِزَاعٍ، وَإِذَا حَمَلَ عَلَى هَذَا المَعْنَى لِكَلَامِ مَنْ تَوَسَّلَ بِالنَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَمَاتِهِ مِنَ السَّلَفِ كَمَا نُقِلَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَعَنِ الإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ، كَانَ هَذَا حَسَنًا، وَحِينَئِذٍ فَلَا يَكُونُ فِي المَسْأَلَةِ نِزَاعٌ.

الشَّرْح

ذكر الشيخ محبة الله جَلَّ وَعَلَا، وهي أعظم أنواع العبادة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، فالمؤمنون محبتهم لله خالصة، وأما المشركون، فمحبتهم لله غير خالصة، فهم يحبون الله، ويحبون معه غيره من

الأصنام والأشجار والأحجار، فمحبتهم شركية، وإذا دخلها الشرك بطلت، فلابد أن تكون محبة الله خالصة لا يحب معه أحدًا.

وكذا إذا أحب الله، فإنه يحب من يحبهم الله جَلَّوَعَلَا، وهذه المحبة تُسمى المحبة في الله، وهذا مقام عظيم، مَن أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تُنال ولاية الله بذلك[(١)]، وجاء في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **«إِنَّ اللهَ يَقُولُ يَومَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَومَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي»**[(٢)]. وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ذكر منهم: **«رَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَافْتَرَقَا عَلَيْهِ»**[(٣)]، وهذا من محبة الله، وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ، أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»**[(٤)].

والمحبة في الله تأتي بعد محبة الله جَلَّوَعَلَا، وهي تابعة لمحبة الله، فأنت تحبه لا لدنيا ولا لطمع ولا لعصبية، وإنما تحبه لأن الله يحبه، فأنت تحب من يحبه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذه المحبة من حقوق التوحيد وحقوق الإيمان، فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض بالمحبة والنصرة والتعاون على البر والتقوى، فيوالي بعضهم بعضًا.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٣٤)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٤٠٦) عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه قال: «أَحِبَّ فِي اللهِ، وَوَالِ فِي اللهِ، وَعَادِ فِي اللهِ، فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلَايَةُ اللهِ بِذَلِكَ، لَا يَجِدُ رَجُلٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ».

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٦).

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٥٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قوله: (**لَكِنْ يَجِبُ الفَرْقُ بَيْنَ المَحَبَّةِ للهِ وَالمَحَبَّةِ مَعَ اللهِ**). المحبة لله أن تحب من تحب لأجل الله، لا لأجل طمع دنيوي، أما المحبة مع الله فهي محبة المشركين، فالمشركون يحبون الله لكنهم يحبون معه غيره من الأصنام، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥]، يسوونهم بالله في المحبة، وهذا شرك أكبر والعياذ بالله.

قوله: (**فَمِنْ أَحَبَّ مَخْلُوقًا كَمَا يُحِبُّ الخَالِقَ فَقَدْ جَعَلَهُ نِدًّا للهِ**). لقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ أي: شركاء، ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾، فجعلوهم أندادًا لله في المحبة، وشركاء له في المحبة، وهذا شرك أكبر، ولولا أن المشركين يحبون أصنامهم ما عبدوها، ولذلك يقاتلون دونها، ويبذلون دماءهم وأموالهم دون أصنامهم، فدل على أنهم يحبونها حبًا شديدًا والعياذ بالله. مثل ما ذكر الله عن بني إسرائيل: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ [البقرة:٩٣]، أي: أحبوه -والعياذ بالله- محبة عبادة، فلم يستطيعوا التخلص من ذلك، بل إنهم استمروا على محبة العجل.

قوله: (**وَهَذِهِ المَحَبَّةُ تَضُرُّهُ وَلَا تَنْفَعُهُ**). لأنها غير خالصة كالعبادة، فإذا عبد الله وعبد معه غيره، فإن عبادته لا تنفعه؛ لأنها خالطها الشرك فبطلت، وكونه يصلي، ويصوم، ويحج، ويتصدق، ولكنه يدعو الأموات، ويستغيث بالأضرحة، فهذا لا تنفعه صلاته ولا صيامه ولا حجه؛ لأنه أشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، فبطل عمله والعياذ بالله.

قوله: (**وَأَمَّا مَنْ كَانَ اللهُ تَعَالَى أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُ، وَأَحَبَّ أَنْبِيَاءَهُ وَعِبَادَهُ الصَّالِحِيْنَ لَهُ، فَحُبُّهُ للهِ تَعَالَى هُوَ أَنْفَعُ الأَشْيَاءِ**). كقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ثلاثة**

مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[١]. يعتبر الشرك نارًا فيكره أن يقع فيه كما يكره أن يقع في النار، ومن بلغ هذه المرتبة فهو مؤمن بإذن الله.

قوله: (وَالفَرْقُ بَيْنَ هَذَيْنِ مِنْ أَعْظَمِ الأُمُورِ). أي: الفرق بين المحبة الخالصة لله، والمحبة المشتركة من أوضح الأمور، فمحبة الله جَلَّوَعَلَا وحده هذه توحيد، ومحبة الله مع محبة غيره هذه شرك، وبين التوحيد والشرك فرق عظيم.

قوله: (فَيُحْمَلُ قَوْلِ القَائِلِ: أَسْأَلُكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ، عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ: إِنِّي أَسْأَلُكِ بِإِيمَانِي بِهِ وَبِمَحَبَّتِهِ، وَأَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِإِيمَانِي بِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَقَدْ ذَكَرْتُمْ أَنَّ هَذَا جَائِزٌ بِلَا نِزَاعٍ). إذا كان المقصود أنه يتوسل بالنبي، بمعنى أنه يتوسل بإيمانه، وباتباعه له، ومحبته له، فهذا من أفضل الأعمال، وهو توسل صحيح؛ لأنه من عملك، فأنت تتوسل إلى الله بعملك الصالح، وهو محبة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وطاعته واتباعه والإيمان به.

قوله: (قِيلَ: مَنْ أَرَادَ هَذَا المَعْنَى فَهُوَ مُصِيبٌ فِي ذَلِكَ بِلَا نِزَاعٍ). بلا نزاع بين أهل العلم، أما من أراد التوسل بذات الرسول، فهذا من الإقسام على الله بمخلوق، ولا يجوز الإقسام بالمخلوق على المخلوق، فكيف يجوز الإقسام على الله جَلَّوَعَلَا بالمخلوق؟

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فإن كان قصده التوسل بذات الرسول، فهذا لا يجوز بلا نزاع بين أهل العلم، أما إذا كان قصده التوسل بطاعته للرسول واتباعه والإيمان به، فهذا صحيح بلا نزاع.

وكذلك إذا كان قصده بالتوسل بعمل الرسول أو غيره من الصالحين، فهذا -أيضًا- لا يجوز؛ لأنه ليس فيه عمل للمتوسل، وإنما هو عمل غيره.

قوله: (**وَإِذَا حَمَلَ عَلَى هَذَا المَعْنَى لِكَلَامِ مِنْ تَوَسَّلَ بِالنَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بَعْدَ مَمَاتِهِ مِنَ السَّلَفِ كَمَا نُقِلَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَعَنِ الإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ، كَانَ هَذَا حَسَنًا**). إذا توسل بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته، وهو يريد التوسل باتباعه، والإيمان به، وطاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا صحيح، سواء كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيًّا أو ميتًا؛ لأنه تتوسل إلى الله بعمله لا بعمل غيره.

قوله: (**وَحِينَئِذٍ فَلَا يَكُونُ فِي المَسْأَلَةِ نِزَاعٌ**). لأن هذا عملك، ولك أن تتوسل إلى الله بعملك، ومن أفضل الأعمال، أو هو أصل الأعمال محبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واتباعه، والإيمان به، وطاعته، وهذا الذي يُحمل عليه ما يُروى عن الإمام أحمد من جواز التوسل بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه أراد به التوسل بطاعته واتباعه والإيمان به.

قوله: (**كَمَا نُقِلَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَعَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ**). أي: أنهم يتوسلون بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته، فيُحمل هذا على أنهم يتوسلون باتباعه، والإيمان به، وطاعته، وامتثال أمره، واجتناب نهيه، وهذا لا ينقطع بموت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل هو مستمر إلى أن تقوم الساعة.

وَلَكِنْ كَثِيرٌ مِنَ العَوَامِّ يُطْلِقُونَ هَذَا اللَّفْظَ وَلَا يُرِيدُونَ هَذَا المَعْنَى، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ مَنْ أَنْكَرَ، وَهَذَا كَمَا أَنْ الصَّحَابَةَ كَانُوا يُرِيدُونَ بِالتَّوَسُّلِ بِهِ التَّوَسُّلَ بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ، وَهَذَا جَائِزٌ بِلَا نِزَاعٍ، ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ فِي زَمَانِنَا لَايُرِيدُونَ هَذَا المَعْنَى بِهَذَا اللَّفْظِ. فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ يَقُولُ الرَّجُلُ لِغَيْرِهِ: بِحَقِّ الرَّحِمِ. قِيلَ: الرَّحِمُ تُوجِبُ عَلَى صَاحِبِهَا حَقًّا لذي الرَّحِمَ، كَمَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء:١]، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الرَّحِمُ شُجْنَةٌ(١) مِنَ الرَّحْمَنِ، مَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللهُ»(٢).

وَقَالَ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الرَّحِمَ تَعَلَّقَتْ بِحِقْوَيِ الرَّحْمَنِ(٣)، وَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيعَةِ، فَقَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعُ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى قَدْ رَضِيتَ»(٤).

---

(١) شجنة: أي قرابة مشتبكة كاشتباك العروق والأغصان، وأصل ذلك الشجر الملتف عروقه وأغصانه. انظر: غريب الحديث للقاسم بن سلام (١/ ٢٠٩)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٤٤٧)، ومشارق الأنوار (٢/ ٢٤٥).

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٢٤) بهذا اللفظ من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وأخرجه البخاري (٥٩٨٨) بلفظ: «إِنَّ الرَّحِمَ شَجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ اللهُ: مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ»، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) **الحقو**: الخصر، وهو موضع شد الإزار، وجمعه أحق وأحقاء وحقى، يُقال للإزار حقو لأنه يُشد على الحقو. انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين للحميدي (ص٣٨٩). وقال القاضي عياض في مشارق الأنوار (١/ ٢١٠): (أصل الحقو -بفتح الحاء- طرف الورك أو موضع النطاق، وسمي به الإزار كما تقدم، ثم استُعير هذا الكلام للاستجارة، يُقال: عذت بحقو فلان. أي: استجرت به؛ لما كان من يستجير بآخر يأخذ بثوبه وإزاره، فهو في حق الله تعالى بهذا المعنى، والله تعالى منزه عن المشابهة بخلقه).

(٤) أخرجه البخاري (٤٨٣٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشرح

قوله: (وَلَكِنْ كَثِيرٌ مِنَ العَوَامِّ يُطْلِقُونَ هَذَا اللَّفْظَ وَلَا يُرِيدُونَ هَذَا المَعْنَى). أي: لا يريدون الطاعة، ولا الاتباع، والإيمان بالرسول، وإنما يريدون التوسل الممنوع، وهذا لا يجوز، كالتوسل بدعاء الرسول بعد موته، أو طلب الاستغفار منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته، هذا إنما كان جائزًا في حياته، فكانوا يطلبون من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو الله لهم بحاجاتهم وسقيا المطر، فكان يدعو لهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانوا يطلبون منه الاستغفار، فيستغفر لهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا مشروع في حياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما بعد موته فقد انقطع. وهذا ما يريده أغلب الجهال أن يدعو لهم وهو ميت، أو يستغفر لهم وهو ميت، وهذا ممنوع؛ لأن هذا انتهى بوفاة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يريدون المعنى الصحيح.

قوله: (فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ مَنْ أَنْكَرَ). ولهذا أنكر عليهم العلماء في طلبهم الدعاء والاستغفار من الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (وَهَذَا كَمَا أَنْ الصَّحَابَةَ كَانُوا يُرِيدُونَ بِالتَّوَسُّلِ بِهِ التَّوَسُّلَ بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ، وَهَذَا جَائِزٌ بِلَا نِزَاعٍ). كانوا في حياة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطلبون منه الدعاء والشفاعة؛ لأنه حي بين أظهرهم، والشفاعة معناها أنه يدعو لهم، والصلاة على الميت شفاعة؛ لأنها دعاء له من المسلمين الذين يصلون عليه، فيجوز أن تطلب من الحي الحاضر أن يدعو الله لك، وأن يستغفر لك، وإن كان الأفضل أن تستغني عن الناس.

وهذا يوضحه قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أجدبوا بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأرادوا أن يستسقوا، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا، قُمْ يَا عَبَّاس فَادْعُ»(١). فمراد عمر بالتوسل هو طلب الدعاء، ولذلك عدل عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته؛ لأن الرسول لايُطلب منه الدعاء بعد موته، فعدل من الميت إلى الحي، وعدل من الفاضل إلى المفضول وهو العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأن الميت لا يُطلب منه شيء، وإنما يُطلب هذا من الحي الحاضر القادر على الدعاء. وهذا هو مفهوم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في التوسل: أنه طلب الدعاء من الحي الحاضر، وطلب الشفاعة بمعنى الدعاء؛ لأن الدعاء شفاعة لهم عند الله.

قوله: (ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ فِي زَمَانِنَا لَا يُرِيدُونَ هَذَا المَعْنَى بِهَذَا اللَّفْظِ).
لا يريدون هذا المعنى، يريدون المعنى الممنوع وهو التوسل بذات الشخص، أو التوسل بدعائه وهو ميت، أو التوسل بصلاحه وعمله، وهذا لادخل للإنسان فيه، فهذه التوسلات كلها ممنوعة: التوسل بذاته، أو التوسل بدعائه واستغفاره، أو التوسل بعمله وصلاحه.

قوله: (فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ يَقُولُ الرَّجُلُ لِغَيْرِهِ: بِحَقِّ الرَّحِمِ). الرحم يُسأل بها، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء:١]، أي: اتقوا الأرحام أن تقطعوها؛ لأن قطعية الرحم كبيرة من كبائر الذنوب، والسؤال بالرحم أن تقول: بقرابتي منك يا فلان أن تعينني. هذا أمر لا بأس به بين الناس، يا ابن عمي، يا أخي، يا خالي، يا جدي، يا فلان أنا قريبك، فتتوسل

(١) تقدم تخريجه (ص٣٧).

إليه بالقرابة، وتقول: أسالك بحق الرحم. فالرحم لها حق بلاشك، والله جَلَّوَعَلَا جعل حق الرحم مع الحقوق العشرة، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هذا الرحم ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ [النساء: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾.

قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ مَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللهُ...**». الشجنة: العلاقة، فهي علاقة بين الناس، وهي من الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بمعنى: أنه هو الذي خلق الأرحام والقرابات، وأوجب التواصل بها.

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ الرَّحِمَ تَعَلَّقَتْ بِحِقْوَيِ الرَّحْمَنِ...**». الحقوين: تثنية الحقو، وهو الخاصرة، أو معقد الإزار من الإنسان، هذا بالنسبة للإنسان، أما الله جَلَّوَعَلَا فنحن نؤمن بما جاء من أوصافه، لكن لا نكيفها، ولانقيسها على الإنسان، نؤمن بها كما يليق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صفة ذاتية، مثل: الوجه واليد، ولكنها لا تُقاس بصفات المخلوقين.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا الرَّحْمَنُ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَّقْتُ لَهَا اسْمًا مِنَ اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُه، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ»(١).

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَأَلَهُ ابْنُ أَخِيهِ بِحَقِّ جَعْفَرٍ أَبِيهِ أَعْطَاهُ لِحَقِّ جَعْفَرٍ عَلَى عَلِيٍّ(٢).

وَحَقُّ ذِي الرَّحِمِ بَاقٍ بَعْدَ مَوْتِهِ، كَمَا فِي الحَدِيثِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، الدُّعَاءُ لَهُمَا، وَالاِسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ وَعْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، وَصِلَةُ رَحِمِكَ الَّتِي لَا رَحِمَ لَكَ إِلَّا مِنْ قِبَلِهِمَا»(٣).

وَفِي الحَدِيثِ الآخَرِ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ: «إِنَّ مِنْ أَبَرِّ البِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّي»(٤).

فَصِلَةُ أَقَارِبِ المَيِّتِ وَأَصْدِقَائِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ هُوَ مِنْ تَمَامِ بِرِّهِ.

وَالَّذِي قَالَهُ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ وَغَيْرُهُمْ مَنَ العُلَمَاءِ مِنْ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَسْأَلَ اللهَ تَعَالَى بِمَخْلُوقٍ، لَا بِحَقِّ الأَنْبِيَاءِ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ، يَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ:

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٩٤)، والترمذي (١٩٠٧)، وأحمد (٣/ ٢١٢)، وابن حبان (٢/ ١٨٦)، والحاكم (٤/ ١٧٤) من حديث عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرج أحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٩٠٣) عن عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «مَا سَأَلْتُ عَلِيًّا شَيْئًا قَطُّ بِحَقِّ جَعْفَرٍ إِلَّا أَعْطَانِيهِ». وأخرجه الطبراني في الكبير (١٤٧٦) بلفظ: «كُنْتُ أَسْأَلُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الشَّيْءَ فَيَأْبَى عَلَيَّ، فَأَقُولُ: بِحَقِّ جَعْفَرٍ، فَإِذَا قُلْتُ: بِحَقِّ جَعْفَرٍ، أَعْطَانِي».

(٣) أخرجه أحمد (٢٥/ ٤٥٧)، وأبو داود (٥١٤٢) من حديث مالك بن ربيعة الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وفيه: «**وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا**».

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٥٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

أَحَدُهُمَا: الْإِقْسَامُ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِهِ، وَهَذَا مَنْهِيٌّ عَنْهُ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ كَمَا تَقَدَّمَ، كَمَا يُنْهَى أَنْ يُقْسِمَ عَلَى اللهِ بِالكَعْبَةِ وَالْمَشَاعِرِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ.

وَالثَّانِي: السُّؤَالُ بِهِ، فَهَذَا يُجَوِّزُهُ طَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ. وَنُقِلَ فِي ذَلِكَ آثَارٌ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ، وَهُوَ مَوْجُودٌ فِي دُعَاءِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، لَكِنَّ مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ كُلُّهُ ضَعِيفٌ بَلْ مَوْضُوعٌ، وَلَيْسَ عَنْهُ حَدِيثٌ ثَابِتٌ قَدْ يُظَنُّ أَنْ لَهُمْ فِيهِ حُجَّةً، إِلَّا حَدِيثَ الأَعْمَى الَّذِي عَلَّمَهُ أَنْ يَقُولَ: «أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ»[١].

وَحَدِيثُ الأَعْمَى لَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهِ، فَإِنَّهُ صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ إِنَّمَا تَوَسَّلَ بِدُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَفَاعَتِهِ، وَهُوَ طَلَبَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدُّعَاءَ، وَقَدْ أَمَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَ: «اللَّهُمَّ شَفِّعْه فِيَّ».

لِهَذَا رَدَّ اللهُ عَلَيْهِ بَصَرَهِ لَمَّا دَعَا لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا يُعَدُّ مِنْ آيَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَلَوْ تَوَسَّلَ غَيْرُهُ مِنَ الْعُمْيَانِ الَّذِينَ لَمْ يَدْعُ لَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالسُّؤَالِ بِهِ لَمْ تَكُنْ حَالُهُمْ كَحَالِهِ.

الشَّرح

يقول الله جَلَّ وَعَلَا: (أَنَا الرَّحْمَنُ). هذا من أسمائه سبحانه، ومن صفاته الرحمة، فالرحمن اسمه، والرحمة صفته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والرحم مشتق من الرحمن، (خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَّقْتُ لَهَا اسْمًا مِنِ اسْمِي)؛ لأنه يكون بين الأقارب تراحم وتواصل فيما بينهم بموجب الرحمة.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤١٩).

قوله: (**وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَأَلَهُ ابْنُ أَخِيهِ بِحَقِّ جَعْفَرٍ أَبِيهِ أَعْطَاهُ لِحَقِّ جَعْفَرٍ عَلَى عَلِيٍّ**). جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخو علي بن أبي طالب استُشهد في واقعة مؤتة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان ابنه عبد الله بن جعفر يسأل عمه علي بن أبي طالب بحق الرحم، أي: بحق أبيه جعفر، فعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يجيبه، فدل على أن السؤال بالرحم جائز؛ لِمَا للرحم من الحق والتعظيم والتوقير.

قوله: (**وَحَقُّ ذِي الرَّحِمِ بَاقٍ بَعْدَ مَوْتِهِ**). الرحم لا تنقطع بالموت، وصلة الرحم ممتدة بعد الموت بالدعاء، والصدقة، والإحسان إلى أولاده، وإلى من يتصلون بالميت.

قوله: (**كَمَا فِي الحَدِيثِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟ قَالَ: (نَعَمْ، الدُّعَاءُ لَهُمَا وَالاِسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ وَعْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، وَصِلَةُ رَحِمِكَ الَّتِي لَا رِحْمَ لَكَ إِلَّا مِنْ قِبَلِهِمَا**). الرحم لاتنتهي بالموت، ولذلك لما سأل هذا الرجل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟)، قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**نَعَمْ**). أي: البر باق لاينقطع بموت الوالدين، وحق الوالدين معلوم أنه أعلى حقوق الأرحام، ويأتي بعد حق الله جَلَّ وَعَلَا، قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء:٣٦]، وقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، والإحسان إلى الوالدين لا ينقطع بالموت، فتُحسن إليهما وهما ميتان، وذلك بالدعاء لهما، والاستغفار لهما، والصدقة عنهما.

ومحل الشاهد صلة الرحم التي تربطك بهما، كإخوتك، وأخواتك، وأعمامك، وعماتك، وأخوالك، وخالاتك، وجداتك، والرحم ترتبط بأحد أبويك، إما الأب وإما الأم، فالأعمام والعمات، والإخوة والأخوات يرتبطون بالأب، وأما الأخوال والخالات والإخوة لأم، فهؤلاء يرتبطون بالأم.

قوله: (وَفِي الحَدِيثِ الآخَرِ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ: إِنَّ مِنْ أَبَرِّ البِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّي). كذلك من بر الوالدين أن تكرم صديقهما ولو لم يكن من الأقارب، بل لأن والدك كان يحبه في حياته، فأنت تحب من يحب والدك، فهذا باق -أيضًا- من بر الوالدين.

قوله: (وَالَّذِي قَالَهُ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ وَغَيْرُهُمْ مَنَ العُلَمَاءِ مِنْ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَسْأَلَ اللهَ تَعَالَى بِمَخْلُوقٍ، لَا بِحَقِّ الأَنْبِيَاءِ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ يَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ). ذكر أنه ثبت عن أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يُسأل الله بمخلوق، فهذا له معنى يبينه الشيخ، وقد بينه فيما سبق.

قوله: (أَحَدُهُمَا: الْإِقْسَامُ عَلَى اللهِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بِهِ، وَهَذَا مَنْهِيٌّ عَنْهُ عِنْدَ جَمَاهِيرِ العُلَمَاءِ كَمَا تَقَدَّمَ). الإقسام على الله كأن تقول: أسألك بفلان، أسألك بنبيك، أسألك بفلان وليك، والباء باء القسم، فإذا كان لا يجوز أن تُقسم على المخلوق بالمخلوق، فكيف تقسم على الخالق جَلَّ وَعَلَا بالمخلوق؟ هذا وجه من وجوه كون الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنكر سؤال الله بالمخلوق.

قوله: (كَمَا يُنْهَى أَنْ يُقْسِمَ عَلَى اللهِ بِالكَعْبَةِ وَالمَشَاعِرِ بِاتِّفَاقِ العُلَمَاءِ). لا يجوز الإقسام على الله بالمخلوق، ولو كان هذا المخلوق معظمًا عند الله،

كالكعبة المشرفة بيت الله عَزَّوَجَلَّ، وعرفة، ومنى، ومزدلفة والمشاعر، وكذلك الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، الرسل كلهم لهم مقام عند الله، ولهم جاه عند الله، ولكن لا يجوز الإقسام على الله بهم.

قوله: (وَالثَّانِي: السُّؤَالُ بِهِ، فَهَذَا يُجَوِّزُهُ طَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ). هذا كما سبق: السؤال بفلان إن كان قصده السؤال بعمله، وصلاحه، فهذا لا يجوز، وإن كان قصده لمحبته، والإيمان به، واتباعه إذا كان من الصالحين والأتقياء، فهو يحبه لصلاحه، ويقتدي به في صلاحه، فهذا عمل الإنسان، ويجوز أن يتوسل إلى الله به.

قوله: (وَنُقِلَ فِي ذَلِكَ آثَارٌ عَنْ بَعْضِ السَّلْفِ، وَهُوَ مَوْجُودٌ فِي دُعَاءِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، لَكِنَّ مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ كُلُّهُ ضَعِيفٌ بَلْ مَوْضُوعٌ). موجود في كلام كثير من الناس، ولكن الشأن بالدليل، يقول الشيخ: لا دليل عليه، ولم يثبت فيه دليل، وكل ما رُوي فيه فهو ضعيف، بل موضوع مكذوب.

قوله: (وَلَيْسَ عَنْهُ حَدِيثٌ ثَابِتٌ قَدْ يُظَنُّ أَنْ لَهُمْ فِيهُ حُجَّةً، إِلَّا حَدِيثَ الأَعْمَى). الأعمى الذي جاء إلى النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وطلب منه أن يدعو الله له أن يرد عليه بصره، فأمره النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يتوضأ، ويصلي، ويدعو الله أن يشفع فيه نبيه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ ليرد عليه بصره. فهذا الرجل إنما طلب من الرسول أن يدعو له، وطلب الدعاء من الحي -سواء كان نبيًّا أو غيره- مشروع، فيجوز أن تطلب من الحي الحاضر أن يدعو الله لك برد بصرك، أو قضاء حاجتك، أو أن يرزقك الولد، هذا مشروع لا بأس به، وهذا الذي

حصل من الأعمى، وكان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيًّا، فطلب منه أن يدعو الله له أن يرد عليه بصره.

وقوله: (**أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ**). ليس معناه أن يتوجه إليه بذات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو بحق النبي، وإنما بدعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له أن يرد الله عليه بصره، والذي يفسر هذا هو أول الحديث أن الأعمى طلب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو الله له أن يرد عليه بصره، فالتوجه والشفاعة هي الدعاء.

وقوله: (**وَهُوَ طَلَبَ مِنَ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **الدُّعَاءَ**). هذا هو؛ لأن الأعمى طلب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو له.

قوله: (**وَقَدْ أَمَرَهُ النَّبِيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ**). أي: اقبل دعاء نبيك فيَّ أن يرد عليَّ بصري، والدعاء شفاعة.

قوله: (**وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا يَعُدُّ مِنْ آيَاتِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). أي: من معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله استجاب دعاءه، وحقق لهذا الأعمى ما طلب، ورد عليه بصره، ولا يقدر على المعجزات إلا الله جَلَّ وَعَلَا.

قوله: (**وَلَوْ تَوَسَّلَ غَيْرُهُ مِنَ الْعُمْيَانِ الَّذِينَ لَمْ يَدْعُ لَهُمُ النَّبِيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بِالسُّؤَالِ بِهِ لَمْ تَكُنْ حَالُهُمْ كَحَالِهِ**). يقول: لو جاء أعمى إلى قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وطلب منه أن يشفع له عند الله برد بصره لم يكن هذا جائزًا ولا مشروعًا؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما يُطلب منه الدعاء يوم أن كان حيًّا يقدر على الدعاء، أما بعد موته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا يُطلب منه شيء، لا هو ولا غيره من الأموات.

وَدُعَاءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرِ بنِ الخَطَّابِ فِي الاِسْتِسْقَاءِ الْمَشْهُورِ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَقَوْلُهُ: (اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا إِذَا أَجْدَبْنَا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا)[1]، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّوَسُّلَ الْمَشْرُوعَ عِنْدَهُمْ هُوَ التَّوَسُّلُ بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ لَا السُّؤَالُ بِذَاتِهِ؛ إِذْ لَوْ كَانَ هَذَا مَشْرُوعًا لَمْ يَعْدِلْ عُمَرُ وَالْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ عَنِ السُّؤَالِ بِالرَّسُولِ إِلَى السُّؤَالِ بِالعَبَّاسِ.

الشَّرْح

قوله: (وَدُعَاءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرِ بنِ الخَطَّابِ فِي الاِسْتِسْقَاءِ). لَمَّا أرادوا الاستسقاء قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا إِذَا أَجْدَبْنَا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا) أي: بدعائه يوم كان حيًّا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا)، ثم دعا العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقرابته من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأجاب الله دعاءه، فدل على أن الدعاء إنما يُطلب من الحي، ولا يُطلب من الميت، ولو كان جائزًا أن يُطلب من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدعاء لما عدل عمر بحضرة المهاجرين والأنصار عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي اعتادوا أن يطلبوا منهم الدعاء بالسقيا، وما أقره المهاجرون والأنصار إلا لأن الميت لا يُطلب منه شيء.

قوله: (يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّوَسُّلَ الْمَشْرُوعَ عِنْدَهُمْ هُوَ التَّوَسُّلُ بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ لَا السُّؤَالُ بِذَاتِهِ). لو كان المقصود السؤال بذات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن

(١) تقدم تخريجه (ص٣٧).

هناك فرق بين حياته وموته، وإنما المراد التوسل بدعائه، وقد انقطع بموته ﷺ، ومثل هذا حصل عند معاوية رضي الله عنه في الشام[(١)].

قوله: (إِذْ لَوْ كَانَ هَذَا مَشْرُوعًا لَمْ يَعْدِلْ عَمْرُ وَالْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ عَنِ السُّؤَالِ بِالرَّسُولِ إِلَى السُّؤَالِ بِالعَبَّاسِ). وهم عدلوا عن الفاضل إلى المفضول.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٨).

وَسَاغَ النِّزَاعُ فِي السُّؤَالِ بِالأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ دُونَ الْإِقْسَامِ بِهِمْ؛ لِأَنَّ بَيْنَ السُّؤَالِ وَالْإِقْسَامِ فَرْقًا، فَإِنَّ السَّائِلَ مُتَضَرِّعٌ ذَلِيلٌ يَسْأَلُ بِسَبَبٍ يُنَاسِبُ الإِجَابَةَ، وَالْمُقْسِمُ أَعْلَى مِنْ هَذَا فَإِنَّهُ طَالِبٌ مُؤَكِّدٌ طَلَبَهُ بِالقَسَمِ، وَالْمُقْسِمُ لَا يُقْسِمُ إِلَّا عَلَى مَنْ يَرَى أَنَّهُ يَبَرُّ قَسَمَهُ، فَإِبْرَارُ الْقَسَمِ خَاصٌّ بِبَعْضِ العِبَادِ، وَأَمَّا إِجَابَةُ السَّائِلَيْنَ فَعَامٌّ، فَإِنَّ اللهُ يُجِيبُ دَعْوَةَ الْمُضْطَرِّ وَدَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا[(١)].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ دَاعٍ يَدْعُو اللهَ بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى خِصَالٍ ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَ لَهُ مِنَ الخَيْرِ مِثْلَهَا، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مِثْلَهَا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِذَنْ نُكْثِرُ. قَالَ: «اللهُ أَكْثَرُ»[(٢)].

وَهَذَا التَّوَسُّلُ بِالأَنْبِيَاءِ بِمَعْنَى السُّؤَالِ بِهِمْ -وَهُوَ الَّذِي قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ وَغَيْرُهُمْ: إِنَّهُ لَا يَجُوزُ- لَيْسَ فِي المَعْرُوفِ مِنْ مَذْهَبِ مَالِكٍ مَا

---

(١) كما في حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ**». أخرجه أحمد (٢٠/ ٢٢)، وإسناده ضعيف لجهالة أبي عبد الله الأسدي، ويشهد له حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُرَدُّ دُعَاؤُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، يَرْفَعُهَا اللهُ فَوْقَ الْغَمَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: بِعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ**». أخرجه أحمد (١٥/ ٤٦٣)، والترمذي (٣٥٩٨)، وابن ماجه (١٧٥٢).

(٢) لم يخرجاه أو أحدهما في الصحيحين، فلعل شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ يقصد بقوله: (وفي الصحيح) أي: في الحديث الصحيح.
والحديث أخرجه أحمد (١٧/ ٢١٣)، والطبراني في الدعاء للطبراني (ص٣٢)، والحاكم (١/ ٦٧٠) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه الترمذي (٣٥٧٣) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُنَاقِضُ ذَلِكَ، فَضْلًا أَنْ يَجْعَلَ هَذَا مِنْ مَسَائِلِ السَّبَبِ، فَمِنْ نَقَلَ عَنْ مَذْهَبِ مَالِكٍ: أَنَّهُ جَوَّزَ التَّوَسُّلَ بِهِ بِمَعْنَى الْإِقْسَامِ بِهِ أَوْ السُّؤَالِ بِهِ فَلَيْسَ مَعَهُ فِي ذَلِكَ نَقْلٌ عَنْ مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَقُولَ مَالِكٌ: إِنْ هَذَا سَبٌّ لِلرَّسُولِ أَوْ تَنْقُصٌ بِهِ.

بَلِ الْمَعْرُوفُ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ كَرِهَ لِلدَّاعِي أَنْ يَقُولَ: يَا سَيِّدِي سَيِّدِي، وَقَالَ: قُلْ كَمَا قَالَتِ الأَنْبِيَاءُ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ يَا كَرِيمُ. وَكَرِهَ أَيْضًا أَنْ يَقُولَ: يَا حَنَانُ يَا مَنَّانُ. فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمَأْثُورٍ عَنْهُ.

الشَّرح

قوله: (وَسَاغَ النِّزَاعُ فِي السُّؤَالِ بِالأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ). إذا قال السائل: أسألك بنبيك. فإن كان يريد بهذا الإقسام على الله تكون الباء باء القسم، فهذا ممنوع بالإجماع؛ لأنه لا يجوز الحلف بالمخلوق على المخلوق، فمن باب أولى لايجوز الحلف على الله بالمخلوق.

وأما إذا كانت الباء سببية في قوله: أسألك بنبيك. أي: بسبب نبيك الذي أرسلته، فهذا وقع فيه نزاع بين العلماء، وليس معناه أن الشيخ يجوز هذا كما توهم المحشي[1]، ولكنه يقول: (وَسَاغَ النِّزَاعُ) أي: وقع النزاع بين

(١) قال محشي كتاب قاعدة جليلة (١/ ١٢٣) في هذا الموضع: (هذا التعليل مستغرب من شيخ الإسلام، فإن النزاع إنما هو في السؤال المبتدع بمعنى التوسل بذوات الأنبياء والصالحين وبجاههم وحقهم. وشيخ الإسلام يقرر في غير موضع أن التوسل من هذا النوع توسل بأسباب أجنبية غير مناسبة للإجابة. فيستبعد صدور هذا الكلام منه، والله أعلم).

العلماء، فبعضهم أجاز هذا، وبعضهم منع، والشيخ ممن يمنع هذا، ولكن هو يحكي أن هذا فيه نزاع، والنزاع الذي وقع لا يمكن أنه يُجحد، ولكن يُبيِّن الراجح والصواب.

فالقول الصحيح من النزاع: أنه لا يجوز، ولو كانت الباء للسببية، إلا إن كان يقصد بقوله: بنبيك. أي: باتباعي له، والإيمان به، واقتدائي به، وبمحبته، فهذا جائز؛ لأن هذا توسل بالعمل، ومحبة الرسول واتباعه والاقتداء به عمل صالح، فهو يسأل الله بعمله الذي حصل له مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن هذا المعنى غير ظاهر من قوله: أسألك بنبيك. لكنه يُحتمل، فإذا كان هذا هو القصد، فهو سائغ، وإن كان القصد السببية من غير نية الاقتداء والاتباع، فلا يجوز.

وهناك فرق بين المقسم وبين السائل، فالمقسم يؤكد ويلزم، فإذا أقسم على الله، فمعناه: أنه يلزم الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا سوء أدب مع الله، أما السائل، فإنما هو يعرض عرضًا على المسؤول ولا يلزمه.

قوله: (**فَإِنَّ السَّائِلَ مُتَضَرِّعٌ ذَلِيلٌ يَسْأَلُ بِسَبَبٍ يُنَاسِبُ الإِجَابَةَ**). يناسب الإجابة برأي السائل، وليس المعنى أن الشيخ يؤيد هذا.

قوله: (**وَالْمُقْسِمُ أَعْلَى مِنْ هَذَا فَإِنَّهُ طَالِبٌ مُؤَكِّدٌ طَلَبَهُ بِالْقَسَمِ**). يكون ملزمًا إذا أقسم، فمعناه أنه يلزم المسؤول.

قوله: (**وَأَمَّا إِجَابَةُ السَّائِلَيْنَ فَعَامٌّ، فَإِنَّ اللهُ يُجِيبُ دَعْوَةَ الْمُضْطَرِّ وَدَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا**). ثلاثة يجيب الله دعوتهم ولو كانوا كفرة:

الأول: المضطر، فإن الكفار إذا اضطروا ودعوا الله أجابهم، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]، وإذا كانوا في البحر تتقاذفهم الأمواج ويخشون الهلاك، ثم سألوا الله مخلصين له الدين، فإن الله يجيبهم وينجيهم.

الثاني: المظلوم تُستجاب دعوته ولو كان كافرًا؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لمعاذ لَمَّا أرسله إلى نصارى نجران: «**وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**»(١).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ دَاعٍ يَدْعُو اللهَ بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى خِصَالٍ ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَ لَهُ مِنَ الخَيْرِ مِثْلَهَا، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مِثْلَهَا**». هذا فيه أن الداعي إذا دعا الله عَزَّوَجَلَّ مؤمنًا به، فإن الله لا يضيع دعوته؛ لأن الله قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، فوعد أن يستجيب، وهو سبحانه لا يخلف وعده، فإذا توافرت شروط قبول الدعاء، فإن الله لا يضيع هذه الدعوة، ولكنه جَلَّوَعَلَا يختار للداعي ما هو خير له، إن كان الخير أن يُعجل له دعوته عجلها، وإن كان الخير أن يعطيه غيرها أحسن منها فعل، فهو جَلَّوَعَلَا يعمل مصلحة الداعي، إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يعطيها خيرًا منها، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها، وذلك إذا توافرت فيها شروط الإجابة.

قوله: (**قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ: إِذَنْ نُكْثِرُ**). لَمَّا رأوا أن الدعوة لا تضيع عند الله قالوا: (**إِذَنْ نُكْثِرُ**) من الدعاء، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**اللهُ أَكْثَرُ**). أي: أكثر خيرًا وفضلًا وإجابة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله: (**وَهَذَا التَّوَسُّلُ بِالأَنْبِيَاءِ بِمَعْنَى السُّؤَالِ بِهِمْ**). ولو صبر المحشي حتى قرأ هذا، فالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يقر هذا، وقال: (**وَسَاغَ النِّزَاعُ فِي السُّؤَالِ بِالأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ**)، فهو لا يقر القول بالجواز، وإنما يحكي النزاع فقط، ثم إنه ذكر أن الأئمة لا يجيزون هذا، وهو يؤيد هذا، وساقه من باب التأييد.

قوله: (**لَيْسَ فِي المَعْرُوفِ مِنْ مَذْهَبِ مَالِكٍ مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ**). لأن هناك من يزعم أن مالكًا أجاز هذا، فالشيخ ينفي هذا عن مالك نفيًا باتًّا، وأن مالكًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يخالف الأئمة في منع هذا، فما نُقل عنه غير صحيح كما يأتي.

قوله: (**فَضْلًا أَنْ يَجْعَلَ**) يعني: مالكًا (**هَذَا مِنْ مَسَائِلِ السَّبَبِ**).

قوله: (**فَضْلًا عَنْ أَنْ يَقُولَ مَالِكٌ: إِنْ هَذَا سَبٌّ لِلرَّسُولِ أَوْ تَنَقُّصٌ بِهِ**). يقول المخرفون: إن الذي لا يسأل بالرسول أو بالولي متنقص له؛ لأن الرسول له حق وجاه عند الله، والولي له جاه عند الله، فالذي لا يتوسل إلى الله بحق الرسول وبحق الولي، هذا تنقص له.

انظر كيف التلبيس على الناس، ليس في هذا تنقص للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا للأولياء، وإنما هو إخلاص التوحيد، وتعظيم الله جَلَّ وَعَلَا. وما نسبوه إلى مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو فرية وكذب.

قوله: (**بَلِ المَعْرُوفُ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ كَرِهَ لِلدَّاعِي أَنْ يَقُولَ: يَا سَيِّدِي سَيِّدِي**). الإمام مالك كره ما هو أقل من ذلك، وهو قول: (**يَا سَيِّدِي**)؛ لأن السيادة لله عَزَّ وَجَلَّ، فهو يكره أن يُقال للشخص: يا سيد، أو يا سيدي؛ لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قالوا له: وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَيَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ»**(١). وفي رواية: **«السَّيِّدُ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى**»**(٢). فمالك يكره كلمة سيد، فكيف يجيز السؤال بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (وَقَالَ: قُلْ كَمَا قَالَتِ الأَنْبِيَاءُ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ يَا كَرِيمُ). الله هو السيد سبحانه، ولكن لا يُسأل بهذا اللفظ، قل: يا رب، فهذه دعوة الأنبياء، أما لفظة السيد وإن كانت ثابتة لله ومن أسمائه، لكن لا يُسأل بها؛ لأن هذا شيء لم يرد، وكذلك في الحديث: **«الَّذِي يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَقُولُ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ»**(٣).

فالدعاء بالربوبية أكمل من الدعاء بالسيد، وهذا شيء غير معروف.

قوله: (وَكَرِهَ أَيْضًا أَنْ يَقُولَ: يَا حَنَانُ يَا مَنَّانُ. فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمَأْثُورٍ عَنْهُ). ليس بمأثور عن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أن يُقال: يا حنان يا منان، كما أنه لا يقول: يا سيدي يا سيدي، وإنما يُدعى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقول: يا رب.

والمنان ثابت أنه من أسماء الله، لكن الحنان لم يثبت.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٩١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٦/ ٢٣٤)، وأبو داود (٤٨٠٦).

(٣) تقدم تخريجه (ص٥٤٨).

فَإِذَا كَانَ مَالِكٌ يَكْرَهُ مِثْلَ هَذَا الدُّعَاءِ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ مَشْرُوعًا عِنْدَهُ، فَكَيْفَ يَجُوزُ عِنْدَهُ أَنْ يَسْأَلَ اللهَ بِمَخْلُوقٍ نَبِيًّا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الصَّحَابَةَ لَمَّا أَجْدَبُوا عَامَ الرَّمَادَةِ لَمْ يَسْأَلُوا اللهَ بِمَخْلُوقٍ، لَا نَبِيٍّ وَلَا غَيْرِهِ، بَلْ قَالَ عُمَرُ: (اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا إِذَا أَجْدَبْنَا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا). فَيُسْقَوْنَ[١].

وَكَذَلِكَ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ[٢] وَأَنَسٍ[٣] وَغَيْرِهِمَا أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَجْدَبُوا إِنَّمَا يَتَوَسَّلُونَ بِدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَاسْتِسْقَائِهِ، لَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ كَانَ فِي حَيَاتِهِ ﷺ سَأَلَ اللهَ تَعَالَى بِمَخْلُوقٍ، لَا بِهِ وَلَا بِغَيْرِهِ، لَا فِي الِاسْتِسْقَاءِ وَلَا غَيْرِهِ. وَحَدِيثُ الْأَعْمَى سَنَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

الشَّرْح

قوله: (فَإِذَا كَانَ مَالِكٌ يَكْرَهُ مِثْلَ هَذَا الدُّعَاءِ إِذْ لَمْ يَكُنْ مَشْرُوعًا عِنْدَهُ، فَكَيْفَ يَجُوزُ عِنْدَهُ أَنْ يَسْأَلَ اللهَ بِمَخْلُوقٍ نَبِيًّا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ). إذا كان مالك لا يجيز دعاء الله ببعض أسمائه كالسيد، والمنان، والحنان، مع أن المنان، والسيد من أسماء الله؛ لأن هذا لم يرد في الأدعية الثابتة، فلئن يكره السؤال بالنبي وغيره من باب أولى.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٧).

(٢) أخرج البخاري (١٠٠٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «رُبَّمَا ذَكَرْتُ قَوْلَ الشَّاعِرِ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَسْقِي، فَمَا يَنْزِلُ حَتَّى يَجِيشَ كُلُّ مِيزَابٍ:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ ... ثِمَالُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ

(٣) وهو الحديث المتقدم الذي قال فيه عمر رضي الله عنه: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا إِذَا أَجْدَبْنَا...».

قوله: (وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الصَّحَابَةَ لَمَّا أَجْدَبُوا عَامَ الرَّمَادَةِ لَمْ يَسْأَلُوا اللهَ بِمَخْلُوقٍ). انحبس المطر عن الناس في عام الرمادة، فأجدبت الأرض، واحتاج الناس إلى الغيث، فاستسقوا؛ إحياءً لسنة الرسول ﷺ، وكانوا في حياة النبي ﷺ يأتون إليه، ويقولون: ادع الله أن يسقينا. فيرفع النبي ﷺ يديه، ويطلب من الله السقيا، فيسقون، كما حصل في الرجل الذي دخل المسجد يوم الجمعة، والرسول ﷺ يخطب، فشكا الجدب، وهلاك الأموال، وانقطاع السبل، قال أنس رضي الله عنه: «فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ وَمَا فِي السَّمَاءِ قَزَعَةٌ، قَالَ: فَثَارَ سَحَابٌ أَمْثَالُ الجِبَالِ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ المَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ، قَالَ: فَمُطِرْنَا يَوْمَنَا ذَلِكَ، وَفِي الغَدِ، وَمِنْ بَعْدِ الغَدِ، وَالَّذِي يَلِيهِ إِلَى الجُمُعَةِ الأُخْرَى، فَقَامَ ذَلِكَ الأَعْرَابِيُّ -أَوْ رَجُلٌ غَيْرُهُ- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، تَهَدَّمَ البِنَاءُ، وَغَرِقَ المَالُ، فَادْعُ اللهَ لَنَا، فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ، وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلَا عَلَيْنَا**»، قَالَ: فَمَا جَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ السَّمَاءِ إِلَّا تَفَرَّجَتْ»(١).

فهذا كان فعل الصحابة رضي الله عنهم في حياة الرسول ﷺ؛ يطلبون منه أن يدعو الله لهم، وهذا مشروع أن تطلب من العالم أو الرجل الصالح أن يدعو الله لك أو للمسلمين، ولكن لما مات الرسول ﷺ وأجدبوا في خلافة عمر رضي الله عنه احتاجوا للمطر، فلم يطلبوا من النبي ﷺ أن

(١) تقدم تخريجه (ص٥١٦).

يدعو الله لهم؛ لأنه ميت، والميت لا يُطلب منه شيء، فعدلوا إلى عمه العباس؛ لأنه حي حاضر، فقال عمر: (اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا إِذَا أَجْدَبْنَا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا) أي: بدعائه، (فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسِقِنَا. قُمْ يَا عَبَّاسُ فَادْعُ). فدعا العباس، فسقاهم الله، فعدوهم عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كانوا يطلبون منه يوم أن كان حيًّا إلى العباس؛ لأن العباس حي حاضر عندهم، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ميت غائب، فلا يُطلب منه شيء بعد موته، فدل على أن التوسل بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته لا يجوز، ولا يُطلب منه دعاء ولا غير دعاء.

قوله: (**لَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ كَانَ فِي حَيَاتِهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **سَأَلَ الله تَعَالَى بِمَخْلُوقٍ، لَا بِهِ وَلَا بِغَيْرِهِ، لَا فِي الِاسْتِسْقَاءِ وَلَا غَيْرِهِ**). أما طلب الدعاء من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو الصالحين حال الحياة، فهذا مشروع.

قوله: (**وَحَدِيثُ الْأَعْمَى سَنَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى**). حديث الأعمى الذي جاء في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطلب منه أن يدعو الله له أن يرد عليه بصره، هذا حديث صحيح.

وهناك حديث آخر سيأتي: أن رجلًا أعمى جاء إلى عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلم يلقِ له بالًا، فطلع مغمومًا؛ لأن الخليفة لم يُلقِ له بالًا، فلقيه عثمان بن حنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فسأله عن حاله؟ فقال: كذا وكذا، قال: اذهب وتوضأ -قاس على ما حصل للأعمى الذي في عهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثم صلِ، وادع، وأتى له بدعاء الأعمى الذي كان في عهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا الحديث لم يثبت، وسيتكلم الشيخ عنه -إن شاء الله- فيما يأتي، وأنه لم يثبت بعد وفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أحدًا دعا الله بهذا الدعاء فرد إليه بصره.

فَلَوْ كَانَ السُّؤَالُ بِهِ مَعْرُوفًا عِنْدَ الصَّحَابَةِ لَقَالُوا لِعُمَرَ: إِنَّ السُّؤَالَ وَالتَّوَسُّلَ بِهِ أُولَى مِنَ السُّؤَالِ وَالتَّوَسُّلِ بِالعَبَّاسِ، فَلِمَ نَعْدِلُ عَنِ الأَمْرِ المَشْرُوعِ الَّذِي كُنَّا نَفْعَلُهُ فِي حَيَاتِهِ وَهُوَ التَّوَسُّلُ بِأَفْضَلِ الخَلْقِ إِلَى أَنْ نَتَوَسَّلَ بِبَعْضِ أَقَارِبِهِ، وَفِي ذَلِكَ تَرْكُ السُّنَّةِ المَشْرُوعَةِ، وَعُدُولٌ عَنِ الأَفْضَلِ، وَسُؤَالُ اللهِ تَعَالَى بِأَضْعَفِ السَّبَبَيْنِ مَعَ القُدْرَةِ عَلَى أَعْلَاهُمَا، وَنَحْنُ مُضْطَرُّونَ غَايَةَ الِاضْطِرَارِ فِي عَامِ الرَّمَادَةِ الَّذِي يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ فِي الجَدْبِ.

وَالَّذِي فَعَلَهُ عُمَرُ فَعَلَ مِثْلَهُ مُعَاوِيَةُ بِحَضْرَةِ مَنْ مَعَهُ مَنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، فَتَوَسَّلُوا بِيَزِيدَ بْنِ الأَسْوَدِ الجُرَشِيِّ[1]، كَمَا تَوَسَّلَ عُمَرُ بِالعَبَّاسِ.

وَكَذَلِكَ ذَكَرَ الفُقَهَاءُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُ يُتَوَسَّلُ فِي الِاسْتِسْقَاءِ بِدُعَاءِ أَهْلِ الخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، قَالُوا: وَإِنْ كَانَ مِنْ أَقَارِبِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ أَفْضَلُ؛ اقْتِدَاءً بِعُمَرَ.

وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ: إِنَّهُ يُسْأَلُ اللهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ لَا بِنَبِيٍّ وَلَا بِغَيْرِ نَبِيٍّ.

الشَّرح

قوله: (فَلَوْ كَانَ السُّؤَالُ بِهِ مَعْرُوفًا عِنْدَ الصَّحَابَةِ لَقَالُوا لِعُمَرَ: إِنَّ السُّؤَالَ وَالتَّوَسُّلَ بِهِ أُولَى مِنَ السُّؤَالِ وَالتَّوَسُّلِ بِالعَبَّاسِ). لو كان طلب الدعاء من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته سائغًا لقالوا: اطلب من الرسول يدعو لنا

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٨).

أفضل من العباس، واستمرارًا لما كنا عليه في حياة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلماذا تعدل؟

فلما لم يقولوا هذا، وأقروا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على عدوله عن الرسول إلى العباس، ولم ينكروا عليه، صار هذا إجماعًا منهم على أن الميت لا يُطلب منه شيء.

قوله: (**فَلِمَ نَعْدِلُ عَنِ الأَمْرِ المَشْرُوعِ الَّذِي كُنَّا نَفْعَلُهُ فِي حَيَاتِهِ وَهُوَ التَّوَسُّلُ بِأَفْضَلِ الخَلْقِ**). لم يقولوا لعمر: نطلب من الرسول؛ لأن الرسول أفضل الخلق، وأفضل من عمه العباس، وأقرب إلى الإجابة، فلماذا نترك السبب القوي، ونذهب إلى السبب الذي دونه؟ لم يقولوا هذا، بل أقروا عمر على صنيعه، فدل على أن الميت لا يُطلب منه شيء، ولا يتوسل به إلى الله.

قوله: (**وَالَّذِي فَعَلَهُ عُمَرُ فَعَلَ مِثْلَهُ مُعَاوِيَةُ بِحَضْرَةِ مَنْ مَعَهُ مَنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، فَتَوَسَّلُوا بِيَزِيدَ بْنِ الأَسْوَدِ الجُرَشِيِّ كَمَا تَوَسَّلَ عُمَرُ بِالعَبَّاسِ**). هذا أمير المؤمنين معاوية في خلافته حصل جدب في الشام، فتوسل إلى الله بدعاء الأسود بن يزيد الجرشي، وكان من الصالحين، فطلب منه الدعاء، فدعا، وسقاهم الله، ولم يتوسل بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذه سنة التوسل بدعاء الصالحين، بشرط أن يكونوا موجودين حاضرين، فلا يتوسل بالأموات والغائبين ولو كانوا أفضل من الحي الحاضر.

قوله: (**وَكَذَلِكَ ذَكَرَ الفُقَهَاءُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُ يُتَوَسَّلُ فِي الاِسْتِسْقَاءِ بِدُعَاءِ أَهْلِ الخَيْرِ وَالصَّلَاحِ**). نعم، هذا موجود في كتب

الفقه، ومن أقربها متن «الزاد» أنهم يقولون في باب الاستسقاء: يُستحب التوسل بالصالحين وأهل الخير، بمعنى: طلب الدعاء منهم، كما فعل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكما فعل عمر مع العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكما فعل معاوية مع يزيد بن الأسود الجرشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهذه سنة ماضية، وليس معناه التوسل بذواتهم، وإنما التوسل بدعائهم؛ لأن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قم يا عباس فادع». فدل على أن المراد دعاؤهم، وهذا شيء واضح، ولكن من لا يريد الحق لا حيلة فيه، ولكن لابد من البيان؛ لئلا يغتر من يغتر بهذا.

قوله: (**قَالُوا: وَإِنْ كَانَ مِنْ أَقَارِبِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ أَفْضَلُ؛ اقْتِدَاءً بِعُمَرَ**). إن كان هذا الرجل الصالح من أهل بيت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه أفضل من بقية الصالحين؛ لأن له مزيتين: مزية الصلاح، ومزية القرابة من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما فعل عمر مع العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله: (**وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ إِنَّهُ يُسْأَلُ اللهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ لَا بِنَبِيٍّ وَلَا بِغَيْرِ نَبِيٍّ**). لم يقل أحد من العلماء المعتبرين: إن الله يُسأل بالمخلوق، لا نبي ولا غير نبي، وإنما يُطلب من المخلوق إذا كان من الصالحين أن يدعو الله؛ لأنه أقرب إلى الإجابة لصلاحه.

وَكَذَلِكَ مَنْ نَقَلَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ جَوَّزَ سُؤَالَ الرَّسُولِ أَوْ غَيْرِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، أَوْ نَقَلَ ذَلِكَ عَنْ إِمَامٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ غَيْرَ مَالِكٍ كَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِمَا، فَقَدْ كَذَبَ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّ بَعْضَ الْجُهَّالِ يَنْقُلُ هَذَا عَنْ مَالِكٍ وَيَسْتَنِدُ إِلَى حِكَايَةٍ مَكْذُوبَةٍ عَنْ مَالِكٍ، وَلَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً لَمْ يَكُنِ التَّوَسُّلُ الَّذِي فِيهَا هُوَ هَذَا، بَلْ هُوَ التَّوَسُّلُ بِشَفَاعَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَكِنْ مِنَ النَّاسِ مِنْ يُحَرِّفُ نَقْلَهَا، وَأَصْلُهَا ضَعِيفٌ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَالْقَاضِي عِيَاضٌ لَمْ يَذْكُرْهَا فِي كِتَابِهِ فِي بَابِ زِيَارَةِ قَبْرِهِ، بَلْ ذَكَرَ هُنَاكَ مَا هُوَ الْمَعْرُوفُ عَنْ مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَهَا فِي سِيَاقِ أَنَّ حُرْمَةَ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَتَوْقِيرَهُ وَتَعْظِيمَهُ لَازِمٌ كَمَا كَانَ حَالَ حَيَاتِهِ، وَذَلِكَ عِنْدَ ذِكْرِهِ وَذِكْرِ حَدِيثِهِ وَسُنَّتِهِ وَسَمَاعِ اسْمِهِ[(١)].

وَذَكَرَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ[(٢)]، فَقَالَ: مَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ أَحَدٍ إِلَّا وَأَيُّوبُ أَفْضَلُ مِنْهُ. قَالَ: وَحَجَّ حَجَّتَيْنِ فَكُنْتُ أَرْمُقُهُ فَلَا أَسْمَعُ مِنْهُ غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ ﷺ بَكَى حَتَّى أَرْحَمَهُ، فَلَمَّا رَأَيْتُ مِنْهُ مَا رَأَيْتُ وَإِجْلَالَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَتَبْتُ عَنْهُ[(٣)].

---

(١) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٤٠).

(٢) هو: أيوب بن أبي تميمة أبو بكر السختياني، عداده في صغار التابعين، يروي عن عمرو بن سلمة، ومعاذة، وابن سيرين، وغيرهم، وعنه الثوري، وشعبة، وابن علية، وغيرهم، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال: «وكان الحسن يقول: أيوب سيد شباب أهل البصرة»، توفي سنة إحدى وثلاثين ومائة. انظر: التاريخ الكبير (١/ ٤٠٩)، والثقات (٦/ ٥٣)، والجرح والتعديل (٢/ ٢٥٥).

(٣) انظر: التمهيد لابن عبد البر (١/ ٣٤٠)، والتعديل والتجريح لأبي الوليد الباجي (١/ ٣٨٦)، والشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٤١).

الشَّرح

قوله: (وَكَذَلِكَ مَنْ نَقَلَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ جَوَّزَ سُؤَالَ الرَّسُولِ أَوْ غَيْرِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ أَوْ نَقَلَ ذَلِكَ عَنْ إِمَامٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ غَيْرَ مَالِكٍ كَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِمَا فَقَدْ كَذَبَ عَلَيْهِمْ). أي: من نقل عن الأئمة الأربعة أنهم يجوزون سؤال الله بالمخلوق من الأنبياء أو الصالحين، فقد كذب عليهم، فليس في كلامهم الثابت عنهم شيء من ذلك، وإنما هذا قد يكون في كلام المتأخرين من أتباع المذهب، ولكن إذا غلط واحد من أتباع المذهب فلا يُنسب غلطه إلى إمام المذهب.

قوله: (وَلَكِنَّ بَعْضَ الْجُهَّالِ يَنْقُلُ هَذَا عَنْ مَالِكٍ وَيَسْتَنِدُ إِلَى حِكَايَةٍ مَكْذُوبَةٍ عَنْ مَالِكٍ، وَلَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً لَمْ يَكُنِ التَّوَسُّلُ الَّذِي فِيهَا هُوَ هَذَا بَلْ هُوَ التَّوَسُّلُ بِشَفَاعَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). هذه القصة ستأتي مع أبي جعفر المنصور الخليفة.

قوله: (وَالْقَاضِي عِيَاضٌ لَمْ يَذْكُرْهَا فِي كِتَابِهِ فِي بَابِ زِيَارَةِ قَبْرِهِ بَلْ ذَكَرَ هُنَاكَ مَا هُوَ الْمَعْرُوفُ عَنْ مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ). القاضي عياض اليحصبي من أئمة المالكية له كتاب مشهور عند العلماء في حقوق المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسمه «الشفا في حقوق المصطفى»، وهو كتاب جيد ضخم، ولم يذكر فيه أنه يجوز التوسل بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته، مع أنه استوعب كل ما ثبت في حق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (وَإِنَّمَا ذَكَرَهَا فِي سِيَاقِ أَنَّ حُرْمَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ مَوْتِهِ وَتَوْقِيرَهُ وَتَعْظِيمَهُ لَازِمٌ كَمَا كَانَ حَالَ حَيَاتِهِ، وَذَلِكَ عِنْدَ ذِكْرِهِ وَذِكْرِ حَدِيثِهِ وَسُنَّتِهِ وَسَمَاعِ اسْمِهِ). الذي يُشرع في حق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته: احترامه، وتوقيره، ومحبته، واتباعه، وليس المشروع أن نتوسل به إلى الله، أو نطلب منه الدعاء.

ومن تعظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتوقيره، واحترامه، وحقه علينا: أننا نجل الأحاديث الثابتة عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنها من كلامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا ينطق عن الهوى، فلا يجوز لأحد أن يخوض في الأحاديث الصحيحة برأيه وجهله، ويصحح ويضعف ويعبث فيها، ويقول: هذا تخريج للأحاديث، ويعبث بكتب العلماء، ويحشي عليها، ويفسد الأدلة التي بنوا عليها كلامهم، ويقول: هذه ضعيفة، وهذه كذا ... إلى آخره، مثلما يحصل الآن من العبث بالكتب، وهدم أدلتها، وتجميع الكلام حولها، فقد أفسد هذا كثيرًا من الكتب، وقلل الثقة بها وبمؤلفيها، فيجب احترام كلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وألا يشتغل به إلا من هو متخصص من المحدثين المشهود لهم بأنهم من أهل الحديث حقًّا، كما أنه لا يجوز العبث بكلام العلماء، واحتقار كلامهم، إلا إذا كان خطأ، فيُبين، ولكن من غير تنقص لهم، وأنا أقصد العلماء المتبعين للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أخطأوا، أما علماء الضلال فلا حرمة لهم.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات:٣]، فيغض الصوت عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيًّا وميتًا، فإذا سلمت عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلتقف بأدب،

ولا ترفع صوتك بالسلام عليه، وأشد من ذلك التوسل به، أو الإشراك به، وطلب الحاجات منه، فإن هذا إساءة أدب مع الرسول ﷺ. ولا تدع الله عند القبر، وإذا أردت أن تدعو فاستقبل القبلة وادع في المسجد، هذا هو الأدب مع الرسول ﷺ، وأنت لم تأته لأجل طلب الحوائج منه، وإنما جئته زائرًا مسلمًا فقط، ولا ترفع صوتك عنده حيًّا وميتًا.

وكذلك حينما تقرأ الأحاديث، أو تسمعها من القارئ، أو من الإذاعة، فإنك تحترمها، وتستكين عندها، وتجلها، وتعظمها؛ لأنها كلام الرسول ﷺ.

قوله: (**وَذَكَرَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ، فَقَالَ: مَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ أَحَدٍ إِلَّا وَأَيُّوبُ أَفْضَلُ مِنْهُ**). ما السبب؟ قال: (**وَحَجَّ حَجَّتَيْنِ**) يعني: أيوب، (**فَكُنْتَ أَرْمُقُهُ فَلَا أَسْمَعُ مِنْهُ غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ ﷺ بَكَى حَتَّى أَرْحَمَهُ، فَلَمَّا رَأَيْتُ مِنْهُ مَا رَأَيْتُ وَإِجْلَالَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَتَبْتُ عَنْهُ**). روى عنه مالك لَمَّا رأى من أدبه مع الرسول ﷺ، وأنه إذا ذُكر الرسول ﷺ بكى، فعرف أنه يعظمه، ويعظم أحاديثه، فلا يمكن أن يحدث عنه بحديث غير ثابت عنه ﷺ.

وقال: وَقَالَ مِصْعَبُ بْنُ عَبْدِ اللهِ(١): كَانَ مَالِكٌ إِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ وَيُنْحَنِي حَتَّى يَصْعُبَ ذَلِكَ عَلَى جُلَسَائِهِ. فَقِيلَ لَهُ يَوْمًا فِي ذَلِكَ فَقَالَ: لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَمَا أَنْكَرْتُمْ عَلَيَّ مَا تَرَوْنَ، لَقَدْ كُنْتُ أَرَى مُحَمَّدَ بْنَ الْمُنْكَدِرِ(٢) -وَكَانَ سَيِّدَ الْقُرَّاءِ- لَا نَكَادُ نَسْأَلُهُ عَنْ حَدِيثٍ أَبَدًا إِلَّا يَبْكِي حَتَّى نَرْحَمُهُ.

وَلَقَدْ كُنْتُ أَرَى جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ(٣) -وَكَانَ كَثِيرَ الدُّعَابَةِ وَالتَّبَسُّمِ- فَإِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ النَّبِيُّ ﷺ اصْفَرَّ لَوْنُهُ، وَمَا رَأَيْتُهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا عَلَى طَهَارَةٍ. وَلَقَدِ اخْتَلَفْتُ إِلَيْهِ زَمَانًا فَمَا كُنْتُ أَرَاهُ إِلَّا عَلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِمَّا مُصَلِّيًا، وَإِمَّا صَامِتًا، وَإِمَّا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ. وَلَا يَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، وَكَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْعُبَّادِ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللهَ.

---

(١) هو: مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت الزبيري، يروي عن مالك، والضحاك، وإبراهيم بن سعد، وعنه ابن ماجة، والنسائي عن المخرمي عنه، وعن الصغاني عنه، قال ابن حبان: «كان من علماء الناس بالأنساب وأيام الناس وما كان فيهم من الحوادث»، توفي سنة ست وثلاثين ومائتين. انظر: الثقات (٩/ ١٧٥)، والجرح والتعديل (٨/ ٣٠٩)، والكاشف (٢/ ٢٦٨).

(٢) هو: محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير التيمي المدني الحافظ عن أبيه وعائشة وأبي هريرة وأبي قتادة وأبي أيوب وجابر وعنه شعبة ومالك والسفيانان، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال: «كان من سادات القراء لا يتمالك البكاء إذا قرأ أحد حديث رسول الله ﷺ»، توفي سنة ثلاثين ومائة. انظر: الثقات (٥/ ٣٥٠)، والجرح والتعديل (٨/ ٩٧)، والكاشف (٢/ ٢٢٤).

(٣) هو: جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أبو عبد الله الصادق، كان من سادات أهل البيت فقهًا وعلمًا وفضلًا، سمع أباه، والقاسم، وعطاء، وعنه الثوري، ومالك، وشعبة، والقطان، توفي سنة ثمان وأربعين ومائة. انظر: الثقات (٦/ ١٣١)، والجرح والتعديل (٢/ ٤٨٧)، والكاشف (١/ ٢٩٥).

وَلَقَدْ كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ القَاسِمِ[١] يَذْكُرُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُنْظَرُ إِلَى لَوْنِهِ كَأَنَّهُ نُزِفَ مِنْهُ الدَّمُ، وَقَدْ جَفَّ لِسَانُهُ فِي فَمِهِ هَيْبَةً لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَلَقَدْ كُنْتُ آتِي عَامِرَ بْنَ عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ[٢] فَإِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَكَى حَتَّى لَا يَبْقَى فِي عَيْنَيْهِ دُمُوعٌ.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ الزُّهْرِيَّ[٣] -وَكَانَ لَمِنْ أَهْنَأ النَّاسِ وَأَقْرَبِهِمْ- فَإِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَأَنَّهُ مَا عَرَفَكَ وَلَا عَرَفْتَهُ.

وَلَقَدْ كُنْتُ آتِي صَفْوَانَ بْنَ سُلَيْمٍ[٤] -وَكَانَ مِنَ الْمُتَعَبِّدِينَ الْمُجْتَهِدِينَ- فَإِذَا

---

(١) هو: عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر التيمي أبو محمد، الفقيه ابن الفقيه، قال ابن عيينه: (كان أفضل أهل زمانه)، سمع أباه، وابن المسيب، وأسلم مولى عمر، وعنه شعبة، ومالك، وابن عيينة، توفي سنة ست وعشرين ومائة. انظر: الثقات (٧/ ٦٢)، والجرح والتعديل (٥/ ٢٧٨)، والكاشف (١/ ٦٤٠).

(٢) هو: عامر بن عبد الله بن الزبير بن العوام، عابد كبير القدر، سمع أباه، وأنس بن مالك، وعمرو بن سليم، وعنه زياد بن سعد، ومالك، وفليح، قال ابن عيينة: (اشترى نفسه من الله ست مرات). توفي سنة إحدى وعشرين ومائة. انظر: الثقات (٥/ ١٨٦)، والجرح والتعديل (٦/ ٣٢٥)، والكاشف (١/ ٥٢٣).

(٣) هو: أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري، القرشي، المدني، سمع سهل بن سعد، وأنس بن مالك، وأبا جميلة، وأبا الطفيل، روى عنه صالح بن كيسان، ويحيى بن سعيد، وعكرمة، وقتادة، وغيرهم، قيل لمكحول: من أعلم من رأيت؟ قال: ابن شهاب، قيل: ثم من؟ قال: ابن شهاب، قيل: ثم من؟ قال: ابن شهاب. توفي سنة أربع وعشرين ومائة. انظر: التاريخ الكبير (١/ ٢٢٠)، والجرح والتعديل (٨/ ٧١)، والكاشف (٢/ ٢١٧).

(٤) هو: صفوان بن سليم الزهري مولاهم المدني، الإمام القدوة، يروي عن ابن عمر، وعبد الله بن جعفر، وابن المسيب، وعنه مالك، والداروردي، قال الذهبي: (يُقال: إنه لم يضع جنبه أربعين سنة، وقيل: إن جبهته ثقبت من كثرة السجود، وكان قانعًا لا يقبل =

ذُكِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَكَى، فَلَا يَزَالُ يَبْكِي حَتَّى يَقُومَ النَّاسُ عَنْهُ وَيَتْرُكُوهُ(١).

الشَّرْح

قوله: (**وَقَالَ مِصْعَبُ بْنُ عَبْدِ اللهِ**). من أصحاب الإمام مالك، ومن حملة مذهبه.

قوله: (**كَانَ مَالِكٌ إِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ وَيُنَحْنِي حَتَّى يَصْعُبَ ذَلِكَ عَلَى جُلَسَائِهِ. فَقِيلَ لَهُ يَوْمًا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ**). أي: من تعظيم العلماء للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (**وَلَقَدْ كُنْتُ أَرَى جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ**). جعفر بن محمد من أهل البيت من قرابة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو جعفر الصادق.

قوله: (**وَكَانَ مِنَ العُلَمَاءِ وَالعُبَّادِ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللهَ**). ويجلون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويجلون أحاديثه، ويحترمونها، ولا يعبثون بها بحجة التحقيق كما يُفعل الآن.

قوله: (**وَلَقَدْ كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ القَاسِمِ**). الذي روى المدونة عن الإمام مالك.

قوله: (**وَلَقَدْ كُنْتُ آتِيَ عَامِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ...**).

=جوائز السلطان). توفي سنة اثنتين وثلاثين ومائة. انظر: الثقات (٦/ ٤٦٨)، والجرح والتعديل (٤/ ٤٢٣)، والكاشف (١/ ٥٠٣).

(١) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٤٢).

(وَلَقَدْ رَأَيْتُ الزُّهْرِيَّ ...).

(وَلَقَدْ كُنْتُ آتِيَ صَفْوَانَ بْنَ سُلَيْمٍ ...). كل هذا من إجلالهم لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واحترامهم لأحاديثه.

فَهَذَا كُلُّهُ نَقَلَهُ القَاضِي عِيَاضٌ مَنْ كُتُبِ أَصْحَابِ مَالِكٍ المَعْرُوفَةِ، ثُمَّ ذَكَرَ حِكَايَةً بِإِسْنَادٍ غَرِيبٍ مُنْقَطِعٍ رَوَاهَا عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ إِجَازَةً، قَالُوا: حَدَّثَنَا أَبُو العَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عَمَرَ بْنِ دَلْهَاتٍ[(١)]، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ فِهْرٍ[(٢)]، ثَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ الفَرَحِ[(٣)]، ثَنَا أَبُو الحَسَنِ عَبْدُ اللهِ بْنُ المُنْتَابِ[(٤)] ثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ أَبِي إِسْرَائِيلَ[(٥)]، ثَنَا ابْنُ حِمَيدٍ[(٦)]، قَالَ: نَاظَرَ

(١) دلهات: هكذا في المطبوع من كتاب قاعدة جليلة، وفي الشفا للقاضي عياض (٢/ ٤١): «دلهاث»، وهو الصواب، وهو: أبو العباس العذري أحمد بن عمر بن أنس بن دلهاث الأندلسي الدلائي، قال الذهبي: (كان حافظًا محدثًا متقنًا). لازم أبا زر الهروي، وروى عن أبي الحسن بن جهضم وطائفة، وعنه ابن حزم، وأبو عمر ابن عبد البر، وأبو الوليد الوقشي، والحميدي، وغيرهم، له كتاب «دلائل النبوة»، وكتاب «المسالك والممالك»، وغير ذلك، توفي سنة ثمان وسبعين وأربعمائة. انظر: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس (ص١٣٦)، وسير أعلام النبلاء (١٨/ ٥٦٧).

(٢) هو: علي بن الحسن بن محمد بن العباس بن فهر أبو الحسن، فقيه مالكي، ألف في فضائل مالك بن أنس اثني عشر جزءًا، سمع بالمشرق من جماعة، سمع منه الدلائي، والمهلب ابن أبي صفرة، قال المهلب: (لقيته بمصر ومكة، ولم ألق مثله)، كان حيًّا في حدود سنة أربعين وأربعمائة. ينُظر: ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٧/ ٢٣٧)، والديباج المذهب (١/ ٢٠٢)، والوافي بالوفيات (٢٠/ ٢١٤).

(٣) ابن الفرح: هكذا في المطبوع، وفي الشفا للقاضي عياض (٢/ ٤١): «ابن الفرج»، وكذا في الصارم المنكي لابن عبد الهادي (ص٣٤٤)، ولم أقف على ترجمته.

(٤) لم أقف على ترجمته، ولعله: عبيد الله أبو الحسن بن المنتاب بن الفضل البغدادي، ويُعرف بالكرابيسي أيضًا، وقيل في اسمه غير ذلك، عداده في البغداديين، من أصحاب القاضي إسماعيل وبه تفقه، له كتاب في مسائل الخلاف والحجة لمالك نحو مائتي جزء. انظر: الديباج المذهب (١/ ٤٦٠)، وشجرة النور الزكية (١/ ١١٥).

(٥) هو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بن كامجر، المعروف والده بإسحاق بن أبي إسرائيل، مروزي الأصل، حدث عن: أبيه، وعن داود بن رشيد، والحسن بن شبيب المؤدب، وعمر بن شبة النميري، وعنه: المفضل بن سلمة ، وعبد الصمد الطستي، وأبو القاسم الطبراني، قال الدارقطني: (لا بأس به). انظر: سؤالات الحاكم للدارقطني (ص١٥٩)، وتاريخ بغداد (١٤/ ٢٩١)، وتاريخ الإسلام (٢١/ ٣٣٧).

(٦) هو: محمد بن حميد بن حيان أبو عبد الله الرازي، حدث عن يعقوب القمي، وجرير بن =

أَبُو جَعْفَرٍ(١) أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَالِكًا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لا تَرْفَعْ صَوْتَكَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ، فَإِنَّ اللهَ أَدَّبَ قَوْمًا فَقَالَ: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية [الحجرات:٢]، وَمَدَحَ قَوْمًا فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الحجرات:٣]، وَذَمَّ قَوْمًا فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ الآية [الحجرات:٤]، وَإِنَّ حُرْمَتَهُ مَيِّتًا كَحُرْمَتِهِ حَيًّا. فَاسْتَكَانَ لَهَا أَبُو جَعْفَرٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، أَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ وَأَدْعُو، أَمْ أَسْتَقْبِلُ رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: وَلِمَ تَصْرِفُ وَجْهَكَ عَنْهُ وَهُوَ وَسِيلَتُكَ وَوَسِيلَةُ أَبِيكَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ بَلِ اسْتَقْبِلْهُ وَاسْتَشْفِعْ بِهِ فَيُشَفِّعَكَ اللهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤](٢).

قُلْتُ: وَهَذِهِ الحِكَايَةُ مُنْقَطِعَةٌ، فَإِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ حميدٍ الرَّازِيَّ لَمْ يُدْرِكْ مَالِكًا لاسِيَّما فِي زَمَنِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ، فَإِنَّ أَبَا جَعْفَرٍ تُوُفِّيَ بِمَكَّةَ سَنَةَ ثَمانٍ وَخَمْسِينَ

=عبد الحميد، والفضل بن موسى، وخلق كثير، وعنه أبو داود والترمذي وأحمد بن حنبل، وأبو زرعة، قال ابن حبان: (كان ممن ينفرد عن الثقات بالأشياء المقلوبات، ولا سيما إذا حدث عن شيوخ بلده)، وقال الذهبي: (وهو مع إمامته منكر الحديث، صاحب عجائب). توفي سنة ثمان وأربعين ومائتين. انظر: المجروحين (٢/ ٣٠٣)، والجرح والتعديل (٧/ ٢٣٢)، وسير أعلام النبلاء (١١/ ٥٠٣).

(١) هو: أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، روى عن أبيه، وعطاء بن يسار، وعنه ولده المهدي، وبويع بالخلافة بعهد من أخيه، وكان جمَّاعًا للمال، تاركًا اللهو واللعب، قتل خلقًا كثيرًا، وكان غاية في الحرص والبخل، فلقب أبا الدوانيق لمحاسبته العمال والصناع على الدوانيق والحبات، توفي سنة ثلاث وخمسين ومائة. انظر: تاريخ بغداد (١٠/ ٥٣)، وتاريخ الخلفاء (١/ ٢٥٩).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٤١).

وَمِائَةٍ، وَتُوُفِّيَ مَالِكٌ سَنَةَ تِسْعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَةٍ، وَتُوُفِّيَ مُحَمَّدُ بْنُ حُمَيْدٍ الرَّازِيُّ سَنَةَ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ بَلَدِهِ حِينَ رَحَلَ فِي طَلَبِ العِلْمِ إِلَّا وَهُوَ كَبِيرٌ مَعَ أَبِيهِ. وَهُوَ مَعَ هَذَا ضَعِيفٌ عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الحَدِيثِ.

كَذَّبَهُ أَبُو زُرْعَةَ(١) وَابْنُ وَارَةَ(٢).

وَقَالَ صَالِحُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَسْدِيُّ(٣): مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَجْرَأَ عَلَى اللهِ مِنْهُ وَأَحْذَقَ بِالْكَذِبِ مِنْهُ.

وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ شَيْبَةَ(٤): كَثِيرُ المَنَاكِيرِ.

(١) هو: عبيد الله بن عبدالكريم بن يزيد بن فروخ أبو زرعة الرازي، الحافظ أحد الأعلام، يروي عن أبي نعيم، والقعنبي، وقبيصة، وطبقتهم في الآفاق، وعنه مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وأممٌ، توفي سنة أربع وستين ومائتين. انظر: طبقات الحنابلة (١/ ١٩٩)، والكاشف (١/ ٦٨٣).

(٢) هو: محمد بن مسلم بن وارة أبو عبد الله الرازي، يروى عن أبي نعيم، وأبي عاصم النبيل، والفريابي، وغيرهم، وعنه محمد بن المنذر، قال ابن حبان: «كان صاحب حديث»، وقال ابن أبي حاتم: «سمعت منه، وهو صدوق ثقة». انظر: الثقات (٩/ ١٥٠)، والجرح والتعديل (٨/ ٧٩)، وتذكرة الحفاظ (٢/ ٥٧٥).

(٣) هو: صالح بن محمد بن عمرو بن حبيب أبو علي الأسدي البغدادي الملقب جزرة، سمع سعيد بن سليمان سعدويه، وخالد بن خداش، وعلي بن الجعد، وأحمد بن حنبل، ويحيى ابن معين، وغيرهم، وعنه مسلم خارج الصحيح، وأحمد بن علي بن الجارود، وأبو النضر محمد بن محمد الفقيه، وخلق سواهم، توفي سنة ثلاث وتسعين ومائتين. انظر: تاريخ بغداد (٩/ ٣٢٢)، وسير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٣).

(٤) هو: يعقوب بن شيبة بن الصلت بن عصفور السدوسي مولاهم أبو يوسف، كان بارعًا في مذهب مالك، ألف فيه تآليف جليلة، أخذ ذلك عن ابن المعذل، وأصبغ بن الفرج، والحارث ابن مسكين، ولقي جماعة من أصحاب مالك، يروي الحديث عن يزيد بن هارون، ويونس بن محمد، وهاشم بن القاسم، وجماعة، وروي عنه ابن ابنه محمد بن أحمد، ويوسف بن يعقوب، قال ابن عبدالبر: «يعقوب أحد أئمة أهل الحديث، وصنف مسندًا معللًا إلا أنه لم يتمه». توفي سنة اثنتين وستين ومائتين. انظر: تاريخ بغداد (١٤/ ٢٨١)، والديباج المذهب (١/ ٣٥٥)، وتذكرة الحفاظ (٢/ ٥٧٧).

وَقَالَ النَّسَائِيُّ(١): لَيْسَ بِثِقَةٍ.

وَقَالَ ابْنُ حِبَّانَ(٢): يَنْفَرِدُ عَنِ الثِّقَاتِ بِالمَقْلُوبَاتِ.

وَآخِرُ مَنْ رَوَى المُوَطَّأَ عَنْ مَالِكٍ هُوَ أَبُو مُصْعَبٍ(٣)، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ. وَآخِرُ مَنْ رَوَى عَنْ مَالِكٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ هُوَ أَبُو حُذَيْفَةَ أَحْمَدُ ابْنُ إِسْمَاعِيلَ السَّهْمِيُّ(٤) تُوُفِّيَ سَنَةَ تِسْعٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَتَيْنِ.

وَفِي الْإِسْنَادِ أَيْضًا مَنْ لَا يُعْرَفُ حَالُهُ.

---

(١) هو: أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر، القاضي النسائي، ولد سنة خمس عشرة ومائتين بنسأ، وهي بلدة مشهورة بخراسان قريبة من مرو، رحل في طلب الحديث، وسمع قتيبة، وابن راهويه، ومحمد بن النصر المروزي، وأبا كريب، وكبار علماء عصره في بلده، وفي الحجاز، والعراق ومصر والشام ثم استوطن بلاد مصر، وتوفي في مدينة الرملة بفلسطين سنة ثلاث وثلاثمائة. انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٣/ ١٤)، وتهذيب التهذيب (١/ ٣٦- ٣٩)، وتذكرة الحفاظ (٢/ ٦٩٨).

(٢) هو: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان، أبو حاتم التميمي البستي، صاحب التصانيف، سمع النسائي، والحسن بن سفيان، وأبا يعلى الموصلي، وغيرهم، وصنف المسند الصحيح، والتاريخ، والثقات، والضعفاء، روى عنه الحاكم، وأبو علي الهروي، وأبو بكر النوقاني، وغيرهم، توفي سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة. انظر: تاريخ دمشق (٥٢/ ٢٥٠)، وطبقات الشافعية الكبرى (٣/ ١٣١)، وطبقات الحفاظ (ص٣٧٥).

(٣) هو: أحمد بن أبي بكر أبو مصعب الزهري العوفي، قاضي المدينة وعالمها، سمع مالكًا وطائفة، وعنه الجماعة لكن النسائي بواسطة، ومطين، وأبو إسحاق الهاشمي، وخلق، توفي سنة اثنتين وأربعين ومائتين. انظر: الثقات (٨/ ٢١)، والجرح والتعديل (٢/ ٤٣)، والديباج المذهب (١/ ٣٠).

(٤) هو: أحمد بن إسماعيل بن نبيه بن عبد الرحمن السهمي أبو حذافة المدني، آخر أصحاب مالك، سمع حاتم بن إسماعيل، والزنجي، وإبراهيم بن سعد، وطبقتهم، وعنه ابن ماجه، والمحاملي، وابن مخلد، قال ابن حبان: (يأتي عن الثقات ما ليس من حديث الأثبات؛ حتى شهد من الحديث صناعته أنها معلولة). توفي سنة تسع وخمسين ومائتين. انظر: المجروحين (١/ ١٤٧)، والكامل في الضعفاء (١/ ١٧٥).

وَهَذِهِ الحِكَايَةُ لَمْ يَذْكُرْهَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ المَعْرُوفِينَ بِالْأَخْذِ عَنْهُ، وَمُحَمَّدُ بْنُ حُمَيْدٍ ضَعِيفٌ عِنْدَ أَهْلِ الحَدِيثِ إِذَا أَسْنَدَ، فَكَيْفَ إِذَا أَرْسَلَ حِكَايَةً لَا تُعْرَفُ إِلَّا مِنْ جِهَتِهِ؟

هَذَا إِنْ ثَبَتَتْ عَنْهُ، وَأَصْحَابُ مَالِكٍ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ بِمِثْلِ هَذَا النَّقْلِ لَا يَثْبُتُ عَنْ مَالِكٍ قَوْلٌ لَهُ فِي مَسْأَلَةٍ فِي الفِقْهِ، بَلْ إِذَا رَوَى عَنْهُ الشَّامِيُّونَ كَالوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ(١)، وَمَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ الطَّاطِرِيِّ(٢) ضَعَّفُوا رِوَايَةَ هَؤُلَاءِ، وَإِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ عَلَى رِوَايَةِ المَدَنِيِّينَ وَالمِصْرِيِّينَ، فَكَيْفَ بِحِكَايَةٍ تُنَاقِضُ مَذْهَبَهُ المَعْرُوفَ عَنْهُ مِنْ وُجُوهٍ، رَوَاهَا وَاحِدٌ مِنَ الخُرَسَانِيِّينَ لَمْ يُدْرِكْهُ، وَهُوَ ضَعِيفٌ عِنْدَ أَهْلِ الحَدِيثِ؟

مَعَ أَنَّ قَوْلَهُ: (وَهُوَ وَسِيلَتُكَ وَوَسِيلَةُ أَبِيكَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ) إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى تَوَسُّلِ آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَذَلِكَ هُوَ التَّوَسُّلُ شَفَاعَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ.

الشَّرْح

قوله: (فَهَذَا كُلُّهُ نَقَلَهُ القَاضِي عِيَاضٌ مَنْ كُتُبِ أَصْحَابِ مَالِكٍ المَعْرُوفَةِ،

(١) هو: الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقي، يروي عن يحيى الذماري، وثور بن يزيد، وعنه أحمد، وإسحاق، ودحيم، قال ابن حبان: «ربما قلب الأسامي وغيَّر الكنى»، وقال الذهبي: «كان مدلسًا، فيُتقى من حديثه ما قال فيه: عن». توفي سنة خمس وتسعين ومائة. انظر: الثقات (٩/ ٢٢٢)، والكاشف (٢/ ٣٥٥).

(٢) هو: مروان بن محمد الطاطري، من أهل دمشق، يروى عن مالك، ومعاوية بن سلام، وسليمان بن بلال، وغيرهم، روى عنه ابنه إبراهيم بن مروان، وأهل الشام، توفي سنة عشر ومائتين. انظر: الثقات (٩/ ١٧٩)، والجرح والتعديل (٨/ ٢٧٥).

ثُمَّ ذَكَرَ حِكَايَةً). هذه الحكاية التي أخذوا منها التوسل بالرسول ﷺ، وزعموا أن مالكًا أمر أبا جعفر المنصور بذلك، وقد كذبوا عليه، ذكرها القاضي عياض في كتابه «الشفا بتعريف حقوق المصطفى».

قوله: (**رَوَاهَا عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ إِجَازَةً**). الإجازة: أن يجيزه في مروياته ومؤلفاته، يقول: اروها عني، وهي أقل من السماع.

قوله: (**قَالُوا: حَدَّثَنَا أَبُو العَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عَمَرَ بْنِ دَلْهَاتٍ ... وَإِنَّ حُرْمَتَهُ مَيِّتًا كَحُرْمَتِهِ حَيًّا**). كل هذا صحيح مأخوذ من الأدلة، ولكن ما يأتي محل النظر.

قوله: (**فَاسْتَكَانَ لَهَا أَبُو جَعْفَرٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، أَسْتَقْبِلُ القِبْلَةَ وَأَدْعُو، أَمْ أَسْتَقْبِلُ رَسُولَ اللهِ؟**). هذا محل الغرابة.

قوله: (**فَقَالَ: وَلِمَ تَصْرِفُ وَجْهَكَ عَنْهُ، وَهُوَ وَسِيلَتُكَ وَوَسِيلَةُ أَبِيكَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ بَلِ اسْتَقْبِلْهُ وَاسْتَشْفِعْ بِهِ فَيُشَفِّعَكَ اللهُ**). علامات الكذب عليها واضحة.

قوله: (**قُلْتُ: وَهَذِهِ الحِكَايَةُ مُنْقَطِعَةٌ**). منقطعة السند، والانقطاع في السند: أن يسقط منه راوٍ فأكثر، فإذا سقط منه راويان فهو معضل، وإذا سقط من أوله فهو معلق، وإذا سقط من آخره فهو مرسل، كل هذه أنواع انقطاع، وهذه الرواية منقطعة الإسناد.

قوله: (**فَإِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ حَمِيدٍ الرَّازِيَّ لَمْ يُدْرِكْ مَالِكًا لَاسِيَّمَا فِي زَمَنِ أَبِي جَعْفَرٍ المَنْصُورِ**). فكيف يُحدث عن مالك وهو لم يدركه؟ هذا الانقطاع.

قوله: (فَإِنَّ أَبَا جَعْفَرٍ تُوُفِّيَ بِمَكَّةَ سَنَةَ ثَمانٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَةٍ). وهو في طريقه للحج.

قوله: (وَتُوُفِّيَ مَالِكٌ سَنَةَ تِسْعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَةٍ). أي: متأخر عنه.

قوله: (وَتُوُفِّيَ مُحَمَّدُ بْنُ حَمِيدٍ الرَّازِيِّ سَنَةَ ثَمانٍ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ). أي: متأخر عن مالك.

قوله: (وَهُوَ مَعَ هَذَا ضَعِيفٌ عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الحَدِيثِ، كَذَّبَهُ أَبُو زُرْعَةَ وَابْنُ وَارَةَ). أي: حتى لو اتصل السند، فهذه حال الراوي عن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: (وَفِي الْإِسْنَادِ أَيْضًا مَنْ لَا يُعْرَفُ حَالُهُ). هذا مع الانقطاع، ومع حال الراوي، أيضًا: فيه رجال مجاهيل لا يُعرف حالهم، فهذا إسناد هذه القصة التي قال فيها مالك لأبي جعفر: (وَلِمَ تَصْرِفُ وَجْهَكَ عَنْهُ وَهُوَ وَسِيلَتُكَ وَوَسِيلَةُ أَبِيكَ آدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إِلَى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟) واستدل بقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، فهل مالك يستدل هذا الاستدلال؟ هل مالك يرى أنه يؤتى إلى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قبره ويُطلب منه الاستغفار كما لو كان حيًّا؟! حاشا وكلا.

قوله: (وَأَصْحَابُ مَالِكٍ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ بِمِثْلِ هَذَا النَّقْلِ لَا يَثْبُتُ عَنْ مَالِكٍ قَوْلٌ لَهُ فِي مَسْأَلَةٍ فِي الفِقْهِ). لا يثبتون بمثل هذا النقل مسألة في الفقه، فكيف بالعقيدة؟

قوله: (بَلْ إِذَا رَوَى عَنْهُ الشَّامِيُّونَ ...) أي: علماء الشام (ضَعَّفُوا رِوَايَةَ هَؤُلَاءِ). فلا يقبلون رواية علماء الشام عن مالك.

قوله: (وَإِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ عَلَى رِوَايَةِ المَدَنِيِّينَ وَالمِصْرِيِّينَ). لأن مالكًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالمدينة، فيعتمدون الرواية عن مالك من أهل المدينة؛ لأنهم في بلده.

قوله: (فَكَيْفَ بِحِكَايَةٍ تَنَاقِضُ مَذْهَبَهُ المَعْرُوفَ عَنْهُ مِنْ وُجُوهٍ رَوَاهَا وَاحِدٌ مِنَ الخُرَسَانِيِّينَ لَمْ يُدْرِكْهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ عِنْدَ أَهْلِ الحَدِيثِ؟). فإذا كانوا لا يقبلون رواية أهل الشام عن مالك، فكيف يقبلون رواية الخراساني عن مالك؟ هذا بعيد كل البعد؛ بعيد في البلد، وبعيد في الزمن أيضًا.

قوله: (مَعَ أَنَّ قَوْلَهُ: (وَهُوَ وَسِيلَتُكَ وَوَسِيلَةُ أَبِيكَ آدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إِلَى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ) إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى تَوَسُّلِ آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَذَلِكَ هُوَ التَّوَسُّلُ شَفَاعَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ). لأن وسيلة أبيه آدم لا تكون الآن، وإنما في يوم القيامة حينما يكون الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيًّا فيشفع في أهل الموقف، فيطلبون منه الشفاعة في فصل القضاء بين العباد، وهذا يختلف عن أمر الدنيا بعد موته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كان يُطلب منه في الدنيا وهو على قيد الحياة، وسوف يُطلب منه في الآخرة إذا بعثه الله، ولكن لا يُطلب منه في الدنيا بعد موته؛ لأن هذا باطل.

ولم يقل الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَهُوَ وَسِيلَتُكَ وَوَسِيلَةُ أَبِيكَ آدَمَ) وسكت، بل قال: (يَوْمَ القِيَامَةِ)، أي: بعدما يُبعث الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهناك فرق بين هذا وهذا.

وقوله: (إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى تَوَسُّلِ آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ). حينما يُطلب منه الشفاعة العظمى بفصل القضاء للخلائق.

وَهَذَا حَقٌّ؛ كَمَا جَاءَتْ بِهِ الأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ حِينَ يَأْتِي النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ آدَمَ لِيَشْفَعَ لَهُمْ، فَيَرُدُّهُمْ آدَمُ إِلَى نُوحٍ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ نُوحٌ إِلَى إِبْرَاهِيمَ، وَإِبْرَاهِيمُ إِلَى مُوسَى، وَمُوسَى إِلَى عِيسَى، وَيَرُدُّهُمْ عِيسَى إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١)، فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ وُلِدَ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ»(٢).

وَلَكِنَّهَا مُنَاقِضَةٌ لِمَذْهَبِ مَالِكٍ المَعْرُوفِ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا، قَوْلُهُ: (أَسْتَقْبِلُ القِبْلَةَ وَأَدْعُو، أَمْ أَسْتَقْبِلُ رَسُولَ اللهِ وَأَدْعُو؟ فَقَالَ: وَلِمَ تَصْرِفُ وَجْهَكَ عَنْهُ، وَهُوَ وَسِيلَتُكَ وَوَسِيلَةُ أَبِيكَ آدَمَ؟).

فَإِنَّ المَعْرُوفَ عَنْ مَالِكٍ وَغَيْرِهِ مِنَ الأَئِمَّةِ وَسَائِرِ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّ الدَّاعِيَ إِذَا سَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ لِنَفْسِهِ فَإِنَّهُ يَسْتَقْبِلُ القِبْلَةَ وَيَدْعُو فِي مَسْجِدِهِ، وَلَا يَسْتَقْبِلُ القَبْرَ وَيَدْعُو لِنَفْسِهِ، بَلْ إِنَّمَا يَسْتَقْبِلُ القَبْرَ عِنْدَ السَّلَامِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالدُّعَاءُ لَهُ.

هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ العُلَمَاءِ كَمَالِكٍ فِي إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِمْ، وَعِنْدَ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ لَا يَسْتَقْبِلُ القَبْرَ وَقْتَ السَّلَامِ عَلَيْهِ أَيْضًا.

---

(١) حديث الشفاعة في أهل الموقف تقدم تخريجه (ص٣٠).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأخرجه الترمذي (٣١٤٨) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرج مسلم (٢٢٧٨) شطره الأول من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يَجْعَلُ الْحُجْرَةَ عَنْ يَسَارِهِ -وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ وَهْبٍ(١) عَنْ مَالِكٍ- وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ. وَمِنْهِمْ مَنْ قَالَ: بَلْ يَسْتَدْبِرُ الْحُجْرَةَ وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ. وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ عِنْدَهِمْ.

الشَّرح

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**أَنَا سَيِّدُ وُلِدَ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ**). هذا كما أمره الله بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ [الضحى:١١]، فهذا ليس من باب الافتخار، وإنما هو من التحدث بنعمة الله، والتحدث بنعمة الله شكر لها؛ لأن أنواع الشكر ثلاثة:

الأول: التحدث بها ظاهرًا.

الثاني: الاعتراف بها باطنًا.

الثالث: صرفها في طاعة الله جَلَّ وَعَلَا.

فإذا تمت هذه الأمور صح الشكر، أما إذا فُقد واحد منها، فإن الشكر لا يصح.

قوله: (**أَسْتَقْبِلُ القِبْلَةَ وَأَدْعُو، أَمْ أَسْتَقْبِلُ رَسُولَ اللهِ وَأَدْعُو؟ فَقَالَ: وَلِمَ تَصْرِفُ وَجْهَكَ عَنْهُ وَهُوَ وَسِيلَتُكَ وَوَسِيلَةُ أَبِيكَ آدَمَ**). هذا منكر، لا يقول الإمام مالك: ادع الله مستقبلًا للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته؛ لأن قبلة

(١) هو: عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي أبو محمد، يروي عن الثوري، ومالك، والليث، وعنه الليث بن سعد، وأهل بلده، توفي سنة سبع وتسعين ومائة. انظر: الثقات (٨/ ٣٤٦)، والجرح والتعديل (٥/ ١٨٩).

المسلمين واحدة في الصلاة وفي الدعاء، وهي الكعبة، فليس هناك قبلة ثانية، لا قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا غيره، فكيف يقول مالك لأبي جعفر: اصرف وجهك عن القبلة التي شرعها الله جَلَّ وَعَلَا لعباده، وتوجه إلى القبر؟

قوله: (**فَإِنَّ الْمَعْرُوفَ عَنْ مَالِكٍ وَغَيْرِهِ مِنَ الأَئِمَّةِ وَسَائِرِ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّ الدَّاعِيَ إِذَا سَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ لِنَفْسِهُ فَإِنَّهُ يَسْتَقْبِلُ القِبْلَةَ وَيَدْعُو فِي مَسْجِدِهِ، وَلَا يَسْتَقْبِلُ القَبْرَ وَيَدْعُو لِنَفْسِهُ**). في السلام يستقبل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن هذه عادة المُسَلِّم، والأحياء والأموات سواء في ذلك، وليس مناسبًا أن تسلم على أحد وهو وراءك، لكن تستقبله، هذا هو المشروع في السلام، أما في الدعاء فلا تستقبل قبر النبي ولا غيره، وإنما تستقبل بيت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: (**وَيَدْعُو فِي مَسْجِدِهِ**). فلا يقف عند القبر، بل يستقبل القبلة ويدعو؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك والغلو في القبر، فإذا أراد أن يدعو يتنحى إلى ناحية من المسجد، ويدعو فيها مستقبلًا القبلة.

قوله: (**بَلْ إِنَّمَا يَسْتَقْبِلُ القَبْرَ عِنْدَ السَّلَامِ عَلَى النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وَالدُّعَاءِ لَهُ**). يستقبل القبلة عند السلام على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن هذا من آداب السلام على الحي والميت أن تستقبله عندما تسلم عليه، وكذلك عند عند الدعاء للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصلاة والتسليم عليه، فإن هذا دعاء له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا أراد أن يدعو لنفسه فإنه يتنحى عن القبر، ويستقبل القبلة، ويدعو لنفسه بما شاء من الدعاء.

قوله: (**هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ العُلَمَاءِ**). أن القبر لا يُستقبل إلا عند السلام على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (**وَعِنْدَ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ، لَا يَسْتَقْبِلُ القَبْرَ وَقْتَ السَّلَامِ عَلَيْهِ أَيْضًا**). الحنفية أشد في ذلك، فأكثر العلماء على أنه يستقبل القبر عند السلام، وبعض العلماء كأصحاب أبي حنيفة لا يرون استقبال القبر عند السلام، بل يسلم على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مستقبل القبلة. وهذا فيه نظر.

قوله: (**ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يَجْعَلُ الحُجْرَةَ عَنْ يَسَارِهِ، وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ**). يجعل القبر عن يساره، أي: من جهة المسجد؛ لأن القبر كان خارج المسجد في ذاك العهد.

قوله: (**وَمِنْهِمْ مَنْ قَالَ: بَلْ يَسْتَدْبِرُ الحُجْرَةَ وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهَذَا هُوَ المَشْهُورُ عِنْدَهِمْ**). وهذا عند الحنفية.

وَمَعَ هَذَا فَكَرِهَ مَالكٌ أَنْ يُطِيلَ القِيَامَ عِنْدَ القَبْرِ؛ لِذَلِكَ قَالَ القَاضِي عِيَاضٌ: فِي المَبْسُوطِ عَنْ مَالِكٍ: لَا أَرَى أَنْ يَقِفَ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو، وَلَكِنَّ يُسَلِّمُ وَيَمْضِي.

قَالَ: وَقَالَ نَافِعٌ(١): كَانَ ابْنُ عُمَرَ يُسَلِّمُ عَلَى القَبْرِ رَأَيْتُهُ مِائَةَ مَرَّةٍ أَوْ أَكْثَرَ يَجِيءُ إِلَى القَبْرِ فَيَقُولُ: السَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، السَّلَامُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، السَّلَامُ عَلَى أَبِي، ثُمَّ يَنْصَرِفُ(٢)، وَرُؤِيَ وَاضِعًا يَدَهُ عَلَى مَقْعَدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ المِنْبَرِ ثُمَّ وَضَعَهَا عَلَى وَجْهِهِ(٣).

الشَّرْح

قول مالك: (لَا أَرَى أَنْ يَقِفَ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو، وَلَكِنَّ يُسَلِّمُ وَيَمْضِي). نعم يستقبل القبر وقت السلام، ولا يطيل السلام، هذا هو المشروع، فلا يقف عند قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا بقدر السلام عليه، وأما بعد السلام عليه، فينصرف؛ لأن الوقوف عنده ولو للسلام عليه طويلًا يسبب الابتداع، ولو على المدى البعيد، فيظن الناس أن الوقوف عند قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيادة على السلام. وقد كان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا قدم من سفر أتى إلى قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ،

(١) هو: نافع أبو عبد الله العدوي، يروي عن مولاه ابن عمر، وأبي هريرة، وعائشة، وعنه أيوب، ومالك، والليث، توفي سنة سبع عشرة ومائة. انظر: التاريخ الكبير (٨/ ٨٤)، والكاشف (٢/ ٣١٥).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٥٧٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٢٨)، والبيهقي في الكبرى (٥/ ٤٠٢).

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٨٥، ٨٦).

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَتَاهُ»، ثم ينصرف، وهذا هو أدب السلام.

قوله: **(قَالَ: وَقَالَ نَافِعٌ)** مولى ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله: **(وَرُؤِيَ وَاضِعًا يَدَهُ عَلَى مَقْعَدِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **مِنَ الْمِنْبَرِ ثُمَّ وَضَعْهَا عَلَى وَجْهِهِ)**. هذا لو صح وضع يده على مجلس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمعروف أن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان حريصًا على الاقتداء بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يذهب إلى الأمكنة التي صلى فيها، أو جلس فيها من باب الاقتداء، لا من باب التبرك كما يظن الجهال، فابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لا يطلب البركة من المجالس أو الأخشاب، إنما كان يفعل هذا من شدة حبه بالاقتداء بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن حرَّفها الخرافيون، فقالوا: هذا دليل على التبرك، وأن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يرى التبرك.

قَالَ: وَعَنِ ابْنِ أَبِي قُسَيْطٍ(١) وَالْقَعْنَبِيِّ(٢): كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَلَا الْمَسْجِدُ جسَّوا بِرُمَّانَةِ الْمِنْبَرُ الَّتِي تَلِي الْقَبْرَ بِمَيَامِنِهِمْ، ثُمَّ اسْتَقْبِلُوا الْقِبْلَةَ يَدْعُونَ.

قَالَ: وَفِي الْمُوَطَّأِ مِنْ رِوَايَةِ يَحْيَى بِنِ يَحْيَى اللَّيْثِيِّ أَنَّهُ كَانَ -يَعْنِي ابْنَ عُمَرَ- يَقِفُ عَلَى قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعَمْر(٣).

وَعِنْدَ ابْنِ الْقَاسِمِ وَالْقَعْنَبِيِّ(٤): وَيَدْعُو لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ.

قَالَ مَالِكٌ فِي رِوَايَةِ ابْنِ وَهْبٍ: يَقُولُ: السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ

---

(١) ابن أبي قسيط: كذا في المطبوع، وفي الشفا للقاضي عياض: «ابن قسيط»، وهو الصواب.
وهو: يزيد بن عبد الله بن قسيط الليثي أبو عبد الله، يروي عن ابن عمر، وأبي هريرة، وابن المسيب، وعنه مالك، والليث، وابن أبي ذئب، توفي سنة اثنتين وعشين ومائة. انظر: الثقات (٥/ ٥٤٣)، والجرح والتعديل (٩/ ٢٧٣).
وقد روى هذا الأثر عنه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢٥٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٤٥٠).

(٢) القعنبي: كذا في المطبوع، وفي الشفا للقاضي عياض: «العتبي»، ولا يخفى ما بين القعنبي والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من انقطاع، وكذلك العتبي لا نجزم من هو، فإن كان صاحب العتبية فحاله كحال القعنبي، فلعله تصحيف، والصواب: «التيمي»، وهو محمد بن إبراهيم بن الحارث، أحد ثقات أهل المدينة، معدود في التابعين، توفي سنة إحدى وعشرين ومائة. انظر: الثقات (٥/ ٣٨١)، والجرح والتعديل (٧/ ١٨٤).
ويؤيد ذلك ما رواه عنه ابن سعد في طبقاته - القسم المتمم (١/ ١٠٠) أنه قال: «رأيت سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر يأخذان برمانة المنبر ثم ينصرفان».

(٣) موطأ مالك، رواية يحيى الليثي (١/ ١٦٦).

(٤) هو: عبد الله بن مسلمة بن قعنب أبو عبد الرحمن القعنبي، يروي عن مالك، وأفلح، وابن أبي ذئب، وغيرهم، وعنه الشيخان، وأبو داود، وابن الضريس، توفي سنة إحدى وعشرين ومائتين. انظر: الثقات (٨/ ٣٥٣)، والجرح والتعديل (٥/ ١٨١).

وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ. وَقَالَ فِي المَبْسُوطِ: وَيُسَلِّمُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. قَالَ أَبُو الوَلِيدُ البَاجِيُّ[(١)]: وَعِنْدِي أَنْ يَدْعُوَ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِلَفْظِ الصَّلَاةِ، وَلِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ بِلَفْظِ السَّلَامِ؛ لَمَّا فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ مِنَ الخِلَافِ[(٢)].

وَهَذَا الدُّعَاءُ يُفَسِّرُ الدُّعَاءَ المَذْكُورَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ وَهْبٍ، قَالَ مَالِكٌ فِي رِوَايَةِ ابْنِ وَهْبٍ: إِذَا سَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَدَعَا يَقِفُ وَوَجْهُهُ إِلَى القَبْرِ لَا إِلَى القِبْلَةِ، وَيَدْنُو وَيُسَلِّمُ وَلَا يَمَسُّ القَبْرَ.

فَهَذَا هُوَ السَّلَامُ عَلَيْهِ وَالدُّعَاءُ لَهُ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ كَمَا تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ دُعَاءٍ ذَكَرَهُ أَصْحَابُهُ كَمَا ذَكَرَ ابْنُ حَبِيبٍ[(٣)] فِي الوَاضِحَةِ، وَغَيْرُهُ.

الشَّرح

قوله: (وَعَنِ ابْنِ أَبِي قُسَيْطٍ وَالْقَعْنَبِيِّ، كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا خَلَا المَسْجِدُ جسُّوا بِرُمَّانَةِ المِنْبَرُ الَّتِي تَلِي القَبْرَ بِمَيَامِنِهِمْ، ثُمَّ اسْتَقْبَلُوا القِبْلَةَ يَدْعُونَ). هذا إن ثبت؛ لأن الرمانة ودرجة المنبر قد لامستا بدن النبي

---

(١) هو: سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب بن وارث التجيبي الأندلسي الباجي، الفقيه المالكي، أخذ عن مكي بن أبي طالب، وأبي ذر الحافظ، وأبي الطيب الطبري، وعنه الخطيب، وابن عبد البر، والطرطوشي، وجماعة، توفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة. انظر: تاريخ دمشق (٢٢/ ٢٢٤)، ووفيات الأعيان (٢/ ٤٠٨).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٨٦).

(٣) هو: عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جلهمة القرطبي، أحد الأئمة ومصنف الواضحة، روى عن عبد الملك بن الماجشون، وأصبغ بن الفرج، وعنه بقي بن مخلد، توفي سنة ثمان وثلاثين ومائتين. انظر: تاريخ العلماء بالأندلس (١/ ٣١٢)، وتذكرة الحفاظ (٢/ ٥٣٧).

ﷺ، فهم يفعلون هذا من باب الاقتداء بالرسول ﷺ، وتعظيمًا له، ولكن هذا لا دليل عليه لا من الكتاب ولا من السنة، وإنما هو اجتهاد ممن فعله، فلابد من دليل على مشروعية التمسح بالرمانة وبالمنبر.

قوله: **(أَنَّهُ كَانَ -يَعْنِي ابْنَ عُمَرَ- يَقِفُ عَلَى قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَيُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَر)**. كان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقف عند قبر النبي ﷺ، فيصلي عليه، ويصلي على أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ لأن الصلاة على آله وأصحابه تبع له ﷺ، ولذلك تجدون المسلمين كثيرًا ما يقولون: صلى الله عليه، وعلى آله، وأصحابه، وسلم تسليمًا كثيرًا، هذا من باب التبعية للرسول ﷺ.

قوله: **(وَعِنْدَ ابْنِ الْقَاسِمِ وَالْقَعْنَبِيِّ: وَيَدْعُو لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ)**. فيصلي على النبي ﷺ فقط، ثم يدعو لأبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله: **(قَالَ أَبُو الوَلِيدُ البَاجِيُّ)**. من كبار المالكية، وله مصنف في شرح الموطأ، اسمه «المنتقى».

قوله: **(وَعِنْدِي أَنْ يَدْعُوَ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِلَفْظِ الصَّلَاةِ، وَلِأَبِي بِكَرٍ وَعُمَرَ بِلَفْظِ السَّلَامِ)**. فيقول: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا عمر، فيخص الصلاة بالرسول، والسلام للصاحبين.

قوله: **(وَهَذَا الدُّعَاءُ يُفَسِّرُ الدُّعَاءَ المَذْكُورَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ وَهْبٍ)**. في رواية ابن وهب: أنه يصلي على النبي ﷺ، وعلى أبي بكر، وعمر، ولكن

الحديث الذي بعده يفسره أن الصلاة تكون خاصة بالنبي ﷺ، وأما السلام فيكون للصاحبين.

قوله: (إِذَا سَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَدَعَا، يَقِفُ وَوَجْهُهُ إِلَى القَبْرِ لَا إِلَى القِبْلَةِ، وَيَدْنُو وَيُسَلِّمُ وَلَا يَمَسُّ القَبْرَ). القبر لا يمكن مسه؛ لأنه داخل الحجرة والجدران لا يُرى ولا يُشاهد، ولكن لا يمس الشبابيك والجدران التي على قبر النبي ﷺ؛ لأن هذا من التبرك الممنوع.

قوله: (وَكَذَلِكَ كُلُّ دُعَاءٍ ذَكَرَهُ أَصْحَابُهُ). أي: أصحاب مالك، فلا يزال الكلام عن المالكية؛ لأجل أن يرد الشيخ هذه الحكاية المكذوبة من كتب المالكية أنفسهم.

قَالَ: وَقَالَ مَالِكٌ فِي المَبْسُوطِ: وَلَيْسَ يَلْزَمُ مَنْ دَخَلَ المَسْجِدَ وَخَرَجَ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ الوُقُوفُ بِالقَبْرِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِلغُرَبَاءِ.

وَقَالَ فِيهِ أَيْضًا: وَلَا بَأْسَ لِمَنْ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ أَوْ خَرَجَ إِلَى سَفَرٍ أَنْ يَقِفَ عَلَى قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُصَلِّي عَلَيْهِ، وَيَدْعُو لَهُ وَلِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. قِيلَ لَهُ: فَإِنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ لَا يَقْدُمُونَ مِنْ سَفَرٍ وَلَا يُرِيدُونَهُ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ فِي اليَوْمِ مَرَّةً أَوْ أَكْثَرَ، وَرُبَّمَا وَقَفُوا فِي الجُمُعَةِ أَوْ الأَيَّامِ المَرَّةَ وَالمَرَّتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ عِنْدَ القَبْرِ، فَيُسَلِّمُونَ وَيَدْعُونَ سَاعَةً.

فَقَالَ مَالِكٌ: لَمْ يَبْلُغْنِي هَذَا عَنْ أَهْلِ الفِقْهِ بِبَلَدِنَا، وَتَرْكُهُ وَاسِعٌ، وَلَا يُصْلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا، وَلَمْ يَبْلُغْنِي عَنْ أَوَّلِ هَذِهِ الأُمَّةِ وَصَدْرِهَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ، وَيُكْرَهُ إِلَّا لِمَنْ جَاءَ مِنْ سَفَرٍ أَوْ أَرَادَهُ[1].

الشَّرح

قوله: (وَلَيْسَ يَلْزَمُ مَنْ دَخَلَ المَسْجِدَ وَخَرَجَ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ الوُقُوفُ بِالقَبْرِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِلغُرَبَاءِ). هذه مسألة أخرى: أن السلام إنما هو للغرباء القادمين إلى المدينة، سواء من أهلها، أو من غيرهم، أما المقيمون بالمدينة فلايترددون على القبر بحجة السلام عليه؛ لأنه لم يُعرف عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنهم كلما دخلوا المسجد ذهبوا يسلمون على الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن التردد على قبره، وقال: «**لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي**

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٨٨).

عِيدًا»[(١)]. أي: تكررون الذهاب إليه، والاجتماع عنده، فالعيد يكون مكانيًّا وزمانيًّا؛ نهى أن يُجعل قبره عيدًا مكانيًّا يجتمعون فيه ويكررون زيارته؛ لأن هذا من الغلو، وهو وسيلة إلى الشرك.

قوله: (**وَلَا بَأْسَ لِمَنْ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ أَوْ خَرَجَ إِلَى سَفَرٍ، أَنْ يَقِفَ عَلَى قَبْرِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فَيُصَلِّي عَلَيْهِ، وَيَدْعُو لَهُ وَلِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ**). فيسلم عليه عند القدوم وعند السفر من باب الوداع له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (**فَإِنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ لَا يَقْدُمُونَ مِنْ سَفَرٍ وَلَا يُرِيدُونَهُ، يَفْعَلُونَ ذَلِكَ فِي اليَوْمِ مَرَّةً أَوْ أَكْثَرَ، وَرُبَّمَا وَقَفُوا فِي الجُمُعَةِ أَوْ الأَيَّامِ المَرَّةَ وَالمَرَّتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ عِنْدَ القَبْرِ، فَيُسَلِّمُونَ وَيَدْعُونَ سَاعَةً**). أي: سُئل عن هؤلاء الذين يترددون على القبر عندما يريدون السفر أكثر من مرة، وربما كل أسبوع، أو يترددون عليه يوم الجمعة، فأنكر هذا وقال: (لَمْ يَبْلُغْنِي هَذَا عَنْ أَهْلِ الفِقْهِ بِبَلَدِنَا، وَتَرْكُهُ وَاسِعٌ، وَلَا يُصْلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا)، فآخر هذه الأمة يجب أن يتبعوا ما كان عليه السلف الصالح، وهم لم يكونوا يترددون على القبر، إنما هذا من المبالغة والغلو، وقد نهى عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا**».

وقوله: (**وَلَا يُصْلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا**). هذه الكلمة المشهورة عن مالك كلمة عظيمة: أنه يجب على المتأخرين أن يقتدوا بالسابقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠]، فالواجب الاقتداء

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٤٢).

بالسابقين من المهاجرين والأنصار، والقرون المفضلة التي أثنى عليها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لتمسكها بدينها، ولغزارة علمها، أما المتأخرون، فكلما تأخر الزمان يفشو الجهل، وتكثر البدع والعادات التي تتخذ سننًا بسبب الجهل، فيجب على المتأخرين أن يقتدوا بالسلف الصالح، فيأخذون بهديهم؛ لأنهم أقرب إلى الحق والصواب، وأقرب إلى السنة، وأبعد عن البدعة.

قوله: (وَلَمْ يَبْلُغْنِي عَنْ أَوَّلِ هَذِهِ الأُمَّةِ وَصَدْرِهَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ). لم يبلغه عن أول هذه الأمة وصدر هذه الأمة أنهم يكثرون التردد على قبر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (وَيُكْرَهُ، إِلَّا لِمَنْ جَاءَ مِنْ سَفَرٍ أَوْ أَرَادَهُ). أي: يجوز لمن جاء من سفر أو أراد السفر أن يسلم عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مودعًا.

قَالَ ابْنُ القَاسِمِ: وَرَأَيْتُ أَهْلَ المَدِينَةِ إِذَا خَرَجُوا مِنْهَا أَوْ دَخَلُوا أَتَوْا القَبْرَ فَسَلَّمُوا. قَالَ: وَلِذَلِكَ رَأْيٌ.

قَالَ أَبُو الوَلِيدِ البَاجِيُّ: فَفَرَقٌ بَيْنَ أَهْلِ المَدِينَةِ وَالغُرَبَاءِ؛ لِأَنَّ الغُرَبَاءَ قَصَدُوا لِذَلِكَ، وَأَهْلُ المَدِينَةِ مُقِيمُونَ بِهَا لَمْ يَقْصِدُوهَا مِنْ أَجْلِ القَبْرِ وَالتَّسْلِيمِ.

قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ»(١)، «اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(٢).

قَالَ: وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا»(٣).

قَالَ: وَمِنْ كِتَابِ أَحْمَدَ بْنِ شُعْبَةَ(٤) فِي مَنْ وَقَفَ بِالقَبْرِ: لا يَلْتَصِقُ بِهِ وَلَا يَمَسَّهُ وَلَا يَقِفُ عِنْدَهُ طَوِيلًا.

وَفِي الْعُتْبِيَّةِ(٥) -يَعْنِي عَنْ مَالِكٍ-: يَبْدَأُ بِالرُّكُوعِ قَبْلَ السَّلَامِ فِي مَسْجِدِ ﷺ، وَأَحَبُّ مَوَاضِعِ التَّنَفُّلِ فِيهِ مُصَلَّى النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ العَمُودُ المُخَلَّقُ، وَأَمَّا فِي الفَرِيضَةِ فَالتَّقَدُّمُ إِلَى الصُّفُوفِ.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٣٩).

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٥٥).

(٣) تقدم تخريجه (ص٢٤٢).

(٤) أحمد بن شعبة: كذا في المطبوع، وفي الشفا للقاضي عياض: (أحمد بن سعيد الهندي)، وهو الصواب، وهو أحمد بن سعيد بن إبراهيم الهمداني، المعروف بابن الهندي، قال القاضي عياض: (قال ابن حيان: كان واحد عصره في علم الشروط لا نظير له، يعترف له بذلك فقهاء الأندلس). وقال أيضًا: (ولم يكن بالمرضي في دينه، ولا بالمقبول قوله، عديم المروءة). توفي سنة تسع وتسعين وثلاثمائة. انظر: ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٧/ ١٤٦)، والديباج المذهب (١/ ٣٨).

(٥) **العتبية**: منسوبة إلى مصنفها فقيه الأندلس محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي القرطبي، المتوفى سنة أربع وخمسين ومائتين، وهو مسائل في مذهب الإمام مالك. انظر: كشف الظنون (٢/ ١١٢٤).

قَالَ: وَالتَّنَفُّلُ فِيهِ لِلغُرَبَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ التَّنَفُّلِ فِي البُيُوتِ[١].

فَهَذَا قَوْلُ مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ، وَمَا نَقَلُوهُ عَنِ الصَّحَابَةِ يُبَيِّنُ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَقْصِدُونَ القَبْرَ إِلَّا لِلسَّلَامِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالدُّعَاءِ لَهُ.

وَقَدْ كَرِهَ مَالِكٌ إِطَالَةَ القِيَامِ لِذَلِكَ، وَكَرِهَ أَنْ يَفْعَلَهُ أَهْلُ المَدِينَةِ كُلَّمَا دَخَلُوا المَسْجِدَ وَخَرَجُوا مِنْهُ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ الغُرَبَاءُ وَمَنْ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ أَوْ خَرَجَ لَهُ، فَإِنَّهُ تَحِيَّةٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَأَمَّا إِذَا قَصَدَ الرَّجُلُ الدُّعَاءَ لِنَفْسِهِ فَإِنَّمَا يَدْعُو فِي مَسْجِدِهِ مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ كَمَا ذَكَرُوا ذَلِكَ عَنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ عِنْدَ القَبْرِ، بَلْ وَلَا أَطَالَ الوُقُوفَ عِنْدَ القَبْرِ لِلدُّعَاءِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَيْفَ بِدُعَائِهِ لِنَفْسِهِ؟

الشَّرْح

قوله: (قَالَ ابْنُ القَاسِمِ: وَرَأَيْتُ أَهْلَ المَدِينَةِ إِذَا خَرَجُوا مِنْهَا أَوْ دَخَلُوا أَتَوْا القَبْرَ فَسَلَّمُوا. قَالَ: وَلِذَلِكَ رَأْيٌ). يعني: وجهة نظر واجتهاد.

قوله: (قَالَ أَبُو الوَلِيدِ البَاجِيُّ: فَفَرْقٌ بَيْنَ أَهْلِ المَدِينَةِ وَالغُرَبَاءِ). أي: فرق بين المقيمين بالمدينة، والغرباء القادمين إليها؛ لأن القادمين أتوا للصلاة في المسجد النبوي، وتبعًا لذلك يسلمون على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما أهل المدينة والمقيمون فيها، فإنهم لم يقدموا من سفر، فلا يترددون على القبر كلما

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٨٨، ٨٩).

دخلوا أو أرادوا الخروج من المسجد، وعلى هذا فعل صحابة رسول الله ﷺ أنهم لم يكونوا يترددون على القبر وهم مقيمون بالمدينة.

وقوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**». **الوثن**: كل ما يُعبد من دون الله من شجر أو حجر أو قبر، فأي شيء يُعبد من دون الله فهو وثن، أما الصنم فهو ما كان على صورة إنسان أو حيوان، والوثن أعم من الصنم؛ لأن الصنم ما كان على صورة، وأما الوثن، فلا يلزم أن يكون على صورة، قد يكون شجرة أو حجرًا أو قبرًا، أو غير ذلك، فالنبي ﷺ خشي على أمته من الغلو فيه كما غلت الأمم السابقة في قبور أنبيائها، ولذلك قال عند وفاته هذا الحديث محذرًا لهذه الأمة، ودعا ربه وهم يسمعون، فقال: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**». أي: كما عُبدت قبور الأنبياء السابقين، وقال: «**اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**». أي: يصلون عندها، ويبنون عليها المساجد؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

ولهذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

فَأَجَابَ رَبُّ الْعَالَمِينَ دُعَاءَهُ	**وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الْجُدْرَانِ**
حَتَّى غَدَتْ أَرْجَاؤُهُ بِدُعَائِهِ	**فِي عِزَّةٍ وَحِمَايَةٍ وَصِيَانِ**

أي: استجاب الله دعاءه.

فقُبر ﷺ في بيته في حجرة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: «وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ، وَلَكِنْ كَرِهَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»[2]. أي: لو دُفن الرسول ﷺ

(١) انظر: نونية ابن القيم (ص٢٥٢).
(٢) تقدم تخريجه (ص٢٣٩).

بارزًا يراه الناس في البقيع لفتنوا بقبره، وجعلوه مصلى يصلون عنده، ولذلك حماه الله، فيسر وألهم الصحابة أن يدفنوه في الحجرة، وقد جاء في حديث: «**لَنْ يُقْبَرَ نَبِيٌّ إِلَّا حَيْثُ يَمُوتُ**»(١)، فدُفن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت الفراش الذي توفي عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحفروا له تحت الفراش الذي كان يُمرض فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من لطف الله جَلَّ وَعَلَا وإجابته لدعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا**». أي: تعتادون وتكررون وتجلسون عنده كلما دخلتم أو أردتم الخروج، وهذا من اتخاذه عيدًا، وهو عيد مكاني، مثل: العيد الزماني الذي يتكرر في الأسبوع أو الشهر أو السنة.

قوله: (قَالَ: وَمِنْ كِتَابِ أَحْمَدَ بْنِ شُعْبَةَ فِي مَنْ وَقَفَ بِالقَبْرِ: لَا يَلْتَصِقُ بِهِ وَلَا يَمَسَّهُ وَلَا يَقِفُ عِنْدَهُ طَوِيلًا). لا أحد يصل إلى القبر الآن، ولكن لا يتمسح بجدران الحجرة والشبابيك، كما يفعله الجهال والغلاة، فهذا شيء غير مشروع، وهو وسيلة من وسائل الشرك، وليس هو من السلام على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قوله: (وَفِي الْعُتْبِيَّةِ). أي: المدونة التي رواها عنه العتبي، فنُسبت إليه.

قوله: (يَبْدَأُ بِالرُّكُوعِ قَبْلَ السَّلَامِ فِي مَسْجِدِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**)**. إذا قدم المسافر فلايذهب إلى القبر مباشرة، وإنما يصلي تحية المسجد؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ**»(٢)، ولأن المشروع

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٦) واللفظ له، والترمذي (١٠١٨)، وابن ماجه (١٦٢٨) من حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١١٦٣)، ومسلم (٧١٤) من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

في السفر إلى مسجد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الصلاة، فأول ما يدخل يصلي، فإن كان وقت فريضة يصلي الفريضة مع المسلمين، وإن لم يكن وقت فريضة يصلي ركعتين تحية المسجد، ثم يذهب ليسلم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبيه.

قوله: (وَأَحَبُّ مَوَاضِعَ التَّنَفُّلِ فِيهِ مُصَلَّى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **حَيْثُ الْعَمُودُ الْمُخَلَّقُ)**. هذا من كلام المالكية ينقله الشيخ، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ**»(١). فيُستحب الصلاة في الروضة إن تيسر له ذلك، فإن لم يتيسر له ذلك، فيصلي في أي مكان من المسجد النبوي.

وقوله: (الْعَمُودُ الْمُخَلَّقُ). أي: المطيب، فإذا تمكن من الصلاة في الروضة لاسيما المكان الذي كان يصلي فيه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في محرابه أو ما بين بيته ومنبره فهذا أفضل.

قوله: (وَأَمَّا فِي الْفَرِيضَةِ فَالتَّقَدُّمُ إِلَى الصُّفُوفِ). فيتقدم غي الفريضة إلى الصفوف الأولى ولو كانت خارج الروضة؛ لأن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وسع مسجد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الجهة الجنوبية من جهة القبلة، وأدخل الحجرات التي كانت جنوب المسجد، وليس فيها قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هدمها، وأدخلها في التوسعة، فالمقدمة هذه زيادة عثمان التي فيها المحراب الآن، وفيها الصفوف الأول، فلا يجلس الإنسان يصلي الفريضة في الروضة ويترك الصف الأول؛ لفضيلة الصف الأول.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٩٥)، ومسلم (١٣٩٠) من حديث عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا**»[1]. أي: يقترعوا؛ لفضل ذلك، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَقَدَّمُوا فَأْتَمُّوا بِي**»[2]. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى**»[3].

فالقرب من الإمام والصف الأول أفضل في الفريضة من الصلاة في الروضة، إنما النافلة هي التي تكون أفضل في الروضة.

الأصل أن صلاة النافلة وقيام الليل في البيوت أفضل؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَلُّوا أَيُّهَا النَّاسُ فِي بُيُوتِكُمْ**» أي: صلاة النافلة «**فَإِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ صَلَاةُ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ**»[4]، وذلك في المدينة وغيرها، وفي مكة وغيرها؛ لأنه أبعد عن الرياء، وفيه عمارة وإنارة للبيوت بذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، ولأن فيه طردًا للشياطين من البيوت، فيجب أن يكون للبيوت نصيب من الصلاة صلاة النافلة، أما الغرباء القادمون على المدينة فالأفضل أن يصلوا في المسجد النبوي؛ لأن إقامتهم محدودة، فيغتنموا الفرصة، ويصلون النوافل وقيام الليل في المسجد النبوي.

قوله: (**فَهَذَا قَوْلُ مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ، وَمَا نَقَلُوهُ عَنِ الصَّحَابَةِ يُبَيِّنُ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَقْصِدُونَ الْقَبْرَ إِلَّا لِلسَّلَامِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالدُّعَاءِ لَهُ**). هذا

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٥)، ومسلم (٤٣٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٤٣٨) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٤٣٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٧٣١)، ومسلم (٧٨١) من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نتيجة ما سبق من إيراد الآثار والأقوال، كل هذا يدل على أنهم إنما يذهبون إلى القبر للسلام فقط، ولا يذهبون إليه للدعاء عنده، هذا هو هدي السلف الصالح.

قوله: (**وَقَدْ كَرِهَ مَالِكٌ إِطَالَةَ القِيَامِ لِذَلِكَ**). أي: كره مالك إطالة القيام عند السلام على الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن السلام لا يستدعي إطالة قيام، فيسلم ويمشي، أما القيام للدعاء فلا يجوز.

قوله: (**وَكَرِهَ أَنْ يَفْعَلَهُ أَهْلُ المَدِينَةِ كُلَّمَا دَخَلُوا المَسْجِدَ وَخَرَجُوا مِنْهُ**). سبق أن أهل المدينة لا يسلمون على الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلما دخلوا وخرجوا، وإنما إذا قدموا من سفر أو أرادوا السفر فقط.

قوله: (**فَأَمَّا إِذَا قَصَدَ الرَّجُلُ الدُّعَاءَ لِنَفْسِهِ ...**). هذا المأثور عن السلف أنهم لا يقفون عند القبر للدعاء لأنفسهم، ولا يطيلون القيام عند القبر للسلام على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل يسلمون وينصرفون، هذه هي السنة، وهذا هو الذي تسلم به عقيدة المسلم.

وَأَمَّا دُعَاءُ الرَّسُولِ وَطَلَبُ الحَوَائِجِ مِنْهُ وَطَلَبُ شَفَاعَتِهِ عِنْدَ قَبْرِهِ أَوْ بَعْدَ مَوْتِهِ فَهَذَا لَمْ يَفْعَلْهُ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَوْ كَانَ قَصْدُ الدُّعَاءِ عِنْدَ القَبْرِ مَشْرُوعًا لَفَعَلَهُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ، وَكَذَلِكَ السُّؤَالُ بِهِ، فَكَيْفَ بِدُعَائِهِ وَسُؤَالِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ؟

فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَا فِي الحِكَايَةِ المُنْقَطِعَةِ مِنْ قَوْلِهِ: (أَسْتَقْبِلُهُ وَأَسْتَشْفِعُ بِهِ) كِذْبٌ عَلَى مَالِكٍ، مُخَالِفٌ لِأَقْوَالِهِ وَأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَأَفْعَالِهِمُ، الَّتِي نَقَلَهَا مَالِكٌ وَأَصْحَابُهُ وَنَقَلَهَا سَائِرُ العُلَماءِ، إِذْ كَانَ أَحَدٌ مِنْهُمْ لَمْ يَسْتَقْبِلِ القَبْرَ لِلدُّعَاءِ لِنَفْسِهِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ وَيَسْتَشْفِعَ بِهِ، يَقُولُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ اشْفَعْ لِي أَوِ ادْعُ لِي، أَوْ يَشْتَكِي إِلَيْهِ المَصَائِبَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، أَوْ يَطْلُبُ مِنْهُ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ مَنَ المَوْتَى مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ أَوْ مِنَ المَلَائِكَةِ الَّذِينَ لَا يَرَاهُمْ أَنْ يَشْفَعُوا لَهُ، أَوْ يَشْتَكِي إِلَيْهِمُ المَصَائِبَ، فَإِنَّ هَذَا كُلَّهِ مِنْ فِعْلِ النَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ مَنَ المُشْرِكِينَ وَمَنْ ضَاهَاهُمْ مِنْ مُبْتَدِعَةِ هَذِهِ الأُمَّةِ، لَيْسَ هَذَا مِنْ فِعْلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا مِمَّا أَمَرَ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ، وَإِنْ كَانُوا يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ؛ إِذْ كَانَ يَسْمَعُ السَّلَامَ عَلَيْهِ مَنَ القَرِيبِ، وَيُبَلَّغُ سَلَامَ البَعِيدِ.

وَقَدِ احْتَجَّ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ بِالحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ مِنْ حَدِيثِ حَيْوَةَ بْنِ شُرَيْحٍ المِصْرِيِّ: حَدَّثَنَا أَبُو صَخْرٍ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ اللهِ ابْنِ قُسَيْطٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (١٦/ ٤٧٧)، وأبو داود (٢٠٤١).

وَعَلَى هَذَا الحَدِيثِ اعْتَمَدَ الأَئِمَّةُ فِي السَّلَامِ عَلَيْهِ عِنْدَ قَبْرِهِ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

فَإِنَّ أَحَادِيثَ زِيَارَةِ قَبْرِهِ كُلُّهَا ضَعِيفَةٌ، لَا يُعْتَمَدُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا فِي الدِّينِ؛ لِهَذَا لَمْ يَرْوِ أَهْلُ الصِّحَاحِ وَالسُّنَنِ شَيْئًا مِنْهَا، وَإِنَّمَا يَرْوِيهَا مَنْ يَرْوِي الضِّعَافَ كَالدَّارَقُطْنِي(١) وَالبَزَّارِ(٢) وَغَيْرِهِمَا.

الشَّرْح

قوله: (وَأَمَّا دُعَاءُ الرَّسُولِ وَطَلَبُ الحَوَائِجِ مِنْهُ). هذا شرك، إذا كانت إطالة القيام عند القبر، ودعاء الله جَلَّ وَعَلَا عند القبر ممنوع؛ لأنه وسيلة إلى الشرك، فكيف بالشرك نفسه؟ وهو أن يطلب من الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مغفرة الذنوب، وقضاء الحاجات، وتفريج الكربات، مثل ما يفعله الجهال

---

(١) هو: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي المعروف بالدارقطني، كان عالمًا حافظًا فقيهًا على مذهب الشافعي، انفرد بالإمامة في علم الحديث في دهره، وأسماء الرجال، وصناعة التعليل، والجرح والتعديل، سمع أبا القاسم البغوي، وابن صاعد، ومحمد بن هارون، وخلق كثير وجم غفير بالبصرة والكوفة وواسط وبلاد خوزستان وغيرها، وعنه أبو عبد الله الحاكم، وأبو نعيم الأصبهاني، وأبو بكر البرقاني، وابن الخلال، وغيرهم، توفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة. ينظر: طبقات الشافعية (٢/ ١٦١)، والبداية والنهاية (١١/ ٣١٧)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٩٧).

(٢) هو: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري، صاحب المسند، رحل في آخر عمره إلى أصبهان والشام، وسمع هدبة بن خالد، وعبد الأعلى بن حماد، وعبد الله بن معاوية، وخلقًا كثيرًا، حدث عنه ابن قانع، وابن نجيع، وأبو بكر الختلي، وأبو القاسم الطبراني، وخلق سواهم، توفي سنة اثنتين وتسعين ومائتين. انظر: سير أعلام النبلاء (١٣/ ٥٥٥)، والوافي بالوفيات (٧/ ١٧٥)، وطبقات الحفاظ (ص٢٨٩).

أو الضلال الذين يريدون نشر الخرافات بين الناس. ومسجد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى، وسائر المساجد في الأرض يجب أن تُنزه عن البدع والخرافات ووسائل الشرك.

قوله: (**وَطَلَبُ شَفَاعَتِهِ عِنْدَ قَبْرِهِ أَوْ بَعْدَ مَوْتِهِ فَهَذَا لَمْ يَفْعَلْهُ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ**). لم يطلبوا منه الحوائج، بل إذا أجدبوا كانوا لا يذهبون لقبره، ويقولون: استسق لنا. وإذا احتاجوا إلى مسألة نزلت بهم لا يذهبون يستفتون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما يستفتون العلماء، وقد كانوا يستفتونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو حي، وأما بعد موته فلم يكونوا يستفتونه، وكانوا يطلبون منه الدعاء والاستغفار لهم وهو حي، أما بعد موته فلم يفعلوا ذلك أبدًا.

قوله: (**وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَوْ كَانَ قَصْدُ الدُّعَاءِ عِنْدَ القَبْرِ مَشْرُوعًا لَفَعَلَهُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ**). لأنهم أعلم بما يُشرع وما يُمنع؛ لقربهم من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتلقيهم عنه العلم، فلم يكونوا يفعلون هذا عند القبر أبدًا.

قوله: (**وَكَذَلِكَ السُّؤَالُ بِهِ، فَكَيْفَ بِدُعَائِهِ وَسُؤَالِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ؟**). السؤال به يعني: التوسل به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسبق أنه لا يجوز التوسل بمخلوق، وإنما التوسل يكون بأسماء الله وصفاته، وبالأعمال الصالحة، وبطلب الدعاء من الصالحين الأحياء الحاضرين، هذا التوسل المشروع، أما التوسل بالأموات فممنوع، لا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا بغيره.

قوله: (**فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَا فِي الحِكَايَةِ المُنْقَطِعَةِ**). رجع بعد طول الكلام إلى الأصل، وهو هذه الحكاية، (فَدَلَّ ذَلِكَ) أي: كل ما ذكره الشيخ في هذه الأوراق الكثيرة نتيجته ذلك.

قوله: (مِنْ قَوْلِهِ: (أَسْتَقْبِلُهُ وَأَسْتَشْفِعُ بِهِ) كِذْبٌ عَلَى مَالِكٍ). كذب على مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأن ما نُقل عنه كثير جدًّا في أنه لا يقف عند القبر، بل إنه كره أن يقول الرجل: زرت قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن هذا لفظ لم يرد.

قوله: (فَإِنَّ هَذَا كُلَّهِ مِنْ فِعْلِ النَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ مَنَ الْمُشْرِكِينَ وَمَنْ ضَاهَاهُمْ مِنْ مُبْتَدِعَةِ هَذِهِ الأُمَّةِ). الميت لا يُطلب منه شيء، وكذلك الغائب ولو كان حيًّا لا يُستنجد به، لا الملائكة ولا الصالحون ولا غيرهم، إنما تُطلب الحوائج من الحي الحاضر فيما يقدر عليه؛ كما قال جَلَّ وَعَلَا عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥]، فيجوز طلب الحاجة التي يقدر عليها الإنسان إذا كان حاضرًا عند الطالب، أما الطلب من الأموات والغائبين من الملائكة أو الجن أو الناس، فلا يجوز.

قوله: (لَيْسَ هَذَا مِنْ فِعْلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا مِمَّا أَمَرَ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ). العبرة ليست بأفعال الناس ولو كثرت، فإنها لا يُحتج بها، وإنما يُحتج بالكتاب والسنة، وما يفعله سلف هذه الأمة، ولا يُقال: هذا عمل الناس. إذا لم يكن عليه دليل من الكتاب، أو السنة، أو هدي السلف الصالح.

قوله: (وَإِنْ كَانُوا يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ إِذْ كَانَ يَسْمَعُ السَّلَامَ عَلَيْهِ مَنَ الْقَرِيبِ وَيُبَلِّغُ سَلَامَ البَعِيدِ). الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصلى ويُسلم عليه بعد موته كما كان ذلك قبل موته؛ لأنه قبل موته يسمع من يسلم عليه ويرد السلام، ويسمع من يسأله ويجيبه، وكذلك بعد موته يُسلم عليه، فإن كان المسلم قريبًا منه رد الله على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ روحه عليه حتى يرد السلام، وإن كان بعيدًا عن

الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن الله وكل من الملائكة من يبلغ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سلام المسلمين عليه، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُ كُنْتُمْ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي**»(١)، فلا حاجة أن تسافر وتقول: أريد أن أصلي وأسلم على الرسول. وإنما صلِّ عليه في أي مكان، وسلم عليه في أي مكان، وسيبلغه هذا.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَسْلَمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرِدَّ عَلَيْهِ السَلَامَ**». رد الروح إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في القبر من الحياة البرزخية التي لايعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليست كحياته في الدنيا، أو على وجه الأرض، والله أخبر أن الشهداء أحياء في قبورهم، والأنبياء أعلى من الشهداء، فهم أحياء في قبورهم عليهم الصلاة والسلام، وكذلك كل ميت حينما يوضع في قبره تُرد روحه في جسده، ويقعد، ويأتيه ملكان، ويسألانه(٢).

فهذه أمور برزخية لا يعلمها إلا الله وهي حياة خاصة. كما أن الحياة تكون للجنين في بطن أمه، أليس الجنين تُنفخ فيه الروح، ويتحرك وهو في بطن أمه؟ وتكون الحياة بعد خروج الجنين من بطن أمه، وهي حياته في الدنيا، وتكون الحياة -أيضًا- في البرزخ، أي: في القبر، وتكون الحياة -أيضًا- في

---

(١) أخرجه أحمد (١٤/ ٤٠٣)، وأبو داود (٢٠٤٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) كما في الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ -لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَأَمَّا المُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا**». أخرجه البخاري (١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠).

النوم حياة النائم، فالنائم ليس ميتًا موتًا كليًا، وإنما هو موت النوم فقط، وتكون الحياة في الآخرة، وهي حياة مستقرة دائمة.

فالجنين في بطن أمه له حياة، والحي على وجه الأرض له حياة، والنائم له حياة، والميت في القبر له حياة خاصة، والناس في الآخرة لهم حياة مستقرة، سواء من المؤمنين أو الكفار، حياة لا يأتي بعدها موت.

قوله: (**وَعَلَى هَذَا الحَدِيثِ اعْتَمَدَ الأَئِمَّةُ فِي السَّلَامِ عَلَيْهِ عِنْدَ قَبْرِهِ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ**). أي: هذا الحديث احتج به العلماء على مشروعية السلام عليه بعد موته، وأن السلام يسمعه من القريب، ويبلغه من البعيد.

قوله: (**فَإِنَّ أَحَادِيثَ زِيَارَةِ قَبْرِهِ كُلُّهَا ضَعِيفَةٌ، لَا يُعْتَمَدُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا فِي الدِّينِ**). أما الأحاديث التي في زيارة قبره ﷺ خاصة، فكلها لا يُعتمد عليها؛ لأنها إما ضعيفة شديدة الضعف لا يُحتج بها، وإما مكذوبة موضوعة، وقد نبه العلماء على بطلانها واحدًا واحدًا، مثلما فعل الإمام ابن عبد الهادي(١) في رده «الصارم المنكي في الرد على السبكي»؛ لأن السبكي(٢)

(١) هو: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن بن يوسف، شمس الدين، المقدسي، الحنبلي، سمع من ابن عبد الدائم والطبقة، وتفقه بابن مسلم وتردد إلى ابن تيمية، ومهر في الفقه والأصول والعربية، قال ابن كثير: كان حافظًا علامة ناقدًا، حصل من العلوم ما لا يبلغه الشيوخ ولا الكبار. توفي سنة أربع وأربعين وسبعمائة. انظر: تذكرة الحفاظ (٤/ ١٥٠٠)، وطبقات الحفاظ (ص٥٢٤).

(٢) هو: تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي، الشافعي، صاحب التصانيف، ولد بسبك من أعمال الشرقية بمصر سنة ثلاث وثمانين وستمائة، وسمع من ابن الصواف والدمياطي وأبي جعفر بن الموازيني وغيره، توفي سنة ست وخمسين وسبعمائة. انظر: تذكرة الحفاظ (٤/ ١٥٠٠)، وطبقات الشافعية الكبرى (١٠/ ١٣٩)، وطبقات الشافعية (٣/ ٣٧).

جمع هذه الأحاديث؛ ليستدل بها على مشروعية السفر لزيارة قبر الرسول ﷺ، فانبرى له هذا الإمام ابن عبد الهادي، فنقض هذه الأحاديث واحدًا واحدًا في مجلد ضخم اسمه «الصارم المنكي في الرد على السبكي»، ردها من حيث التفصيل، أما ردها من حيث الإجمال، فهو ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هنا، فقال: لا يُحتج بها؛ لأنها إما ضعيفة، وإما مكذوبة.

فلم يرد حديث صحيح يحث على زيارة قبر الرسول ﷺ، وإنما دخلت زيارة قبره ﷺ في عموم زيارة القبور، قال ﷺ: «**إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا، فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُم الْآخِرَةَ**»(١). فيدخل قبره ﷺ في هذا العموم، أما أنه ورد حديث خاص في زيارة قبره، فكل الأحاديث الواردة في ذلك لا يُحتج بها، وقد نبه على ذلك غير واحد من الحفاظ، كالحافظ ابن حجر(٢)، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وغيرهم من الأئمة.

قوله: (**لِهَذَا لَمْ يَرْوِ أَهْلُ الصِّحَاحِ وَالسُّنَنِ شَيْئًا مِنْهَا، وَإِنَّمَا يَرْوِيهَا مَنْ يَرْوِي الضِّعَافَ كَالدَّارَقُطْنِي وَالبَزَّارِ وَغَيْرِهِمَا**). لأن بعض الأئمة لا يلتزم أن يورد في كتابه الأحاديث الصحاح فقط، وإنما يكتب فيه كل ما ورد، ويذكر السند،

---

(١) تقدم تخريجه (ص٧٢).

(٢) هو: عمدة المحدثين، وقدوة المحققين، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الكناني الشافعي، صاحب فتح الباري، والعديد من التصانيف المليحة، توفي سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة. انظر: طبقات صلحاء اليمن (تاريخ البريهي) (ص٣٣٩)، وطبقات المفسرين للأدنه وي (ص٣٢٩).

فإذا قرأ رجال الحديث السند عرفوا الصحيح من غيره؛ لأنهم عندهم علم بالرجال وتاريخ الرجال، فإذا ذكر السند برئت ذمته، فالبزار، والدارقطني، وكذلك الإمام أحمد في المسند يعملون هذا؛ اعتمادًا على السند.

وَأَجْوَدُ حَدِيثٍ فِيهَا مَا رَوَاهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ العُمَرِيُّ(١)، وَهُوَ ضَعِيفٌ، وَالكَذِبُ ظَاهِرٌ عَلَيْهِ.

مِثْلُ قَوْلِهِ: «مَنْ زَارَنِي بَعْدَ مَمَاتِي فَكَأَنَّمَا زَارَنِي فِي حَيَاتِي»(٢)، فَإِنْ هَذَا كَذِبُهُ ظَاهِرٌ مُخَالِفٌ لِدِينِ المُسْلِمِينَ، فَإِنْ مَنْ زَارَهُ فِي حَيَاتِهِ، وَكَانَ مُؤْمِنًا بِهِ، كَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ، لَاسِيَّمَا إِنْ كَانَ مِنَ المُهَاجِرِينَ إِلَيْهِ المُجَاهِدِينَ مَعَهُ.

---

(١) هو: عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم العمري، يروي عن أخيه عبيد الله، ونافع، والمقبري، وعنه ابنه عبد الرحمن، والقعنبي، وأبو مصعب، قال ابن حبان: (كان ممن غلب عليه الصلاح والعبادة، حتى غفل عن ضبط الأخبار وجودة الحفظ للآثار، فرفع المناكير في روايته، فلما فحش خطؤه استحق الترك). توفي سنة ثلاث وسبعين ومائة. انظر: المجروحين (٢/ ٦)، والجرح والتعديل (٥/ ١٠٩).

(٢) أخرجه الدارقطني (٣/ ٣٣) من طريق هارون أبي قزعة، عن رجل من آل حاطب، عن حاطب، فذكره. وفي إسناده الرجل المجهول.

وأخرجه -أيضًا- من طريق حفص بن أبي داود، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن ابن عمر، بلفظ: «وفاتي» بدل «موتي». وأخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ٣٥١)، والفاكهي في أخبار مكة (١/ ٤٣٦)، وابن عدي في كامله (٣/ ٢٧٢)، والبيهقي في الكبرى (٥/ ٤٠٣) من هذا الوجه، قال البيهقي: «تفرد به حفص، وهو ضعيف».

وأخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ٩٤) من طريق الليث بن بنت الليث بن أبي سليم، عن عائشة بنت يونس امرأة الليث بن أبي سليم، عن ليث بن أبي سليم.

وهذان الطريقان ضعيفان: أما حفص فهو ابن سليمان ضعيف الحديث، وإن كان أحمد قال فيه: صالح. وأما رواية الطبراني ففيها من لا يُعرف.

وأخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٣/ ١٢٣) من طريق عبد الله بن نافع، عن مالك بن أنس، عن نافع، عن ابن عمر، فذكره. قال الفاكهي: (وهذا حديث منكر).

وأخرجه العقيلي في الضعفاء (٣/ ٤٥٧) من حديث ابن عباس، وفي إسناده فضالة بن سعيد المازني، وهو ضعيف. انظر: التلخيص الحبير (٢/ ٢٦٦).

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مَدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»(١). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

وَالوَاحِدُ مِنْ بَعْدِ الصَّحَابَةِ لَا يَكُونُ مِثْلَ الصَّحَابَةِ بِأَعْمَالٍ مَأْمُورٍ بِهَا وَاجِبَةٍ؛ كَالحَجِّ وَالجِهَادِ وَالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ، فَكَيْفَ بِعَمَلٍ لَيْسَ بِوَاجِبٍ بِاتِّفَاقِ المُسْلِمِينَ، بَلْ وَلَا شُرِعَ السَّفَرُ إِلَيْهِ، بَلْ هُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ.

وَأَمَّا السَّفَرُ إِلَى مَسْجِدِهِ لِلصَّلَاةِ فِيهِ، وَالسَّفَرُ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى لِلصَّلَاةِ فِيهِ فَهُوَ مُسْتَحَبٌّ، وَالسَّفَرُ إِلَى الكَعْبَةِ لِلحَجِّ فَوَاجِبٌ(٢). فَلَوْ سَافَرَ أَحَدٌ السَّفَرَ الوَاجِبَ وَالمُسْتَحَبَّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ سَافَرُوا إِلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ، فَكَيْفَ بِالسَّفَرِ المَنْهِيِّ عَنْهُ؟

الشَّرح

قوله: (وَأَجْوَدُ حَدِيثٍ فِيهَا مَا رَوَاهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ العُمَرِيُّ). عبد الله ابن عمر العمري من علماء المدينة من ذرية عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولذلك يُقال له: العمري، وهم اثنان: واحد اسمه عبيد الله بن عمر، وهذا ثقة، والثاني: عبد الله بن عمر العمري المُكَبَّر، وهذا ضعيف لا يعتمد على روايته، فلا يُظن أنه عبد الله بن عمر بن الخطاب.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِي هَذَا، وَمَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى». أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧).

قوله: (مِثْلُ قَوْلِهِ: مَنْ زَارَنِي بَعْدَ مَمَاتِي فَكَأَنَّمَا زَارَنِي فِي حَيَاتِي). هذا كذب، وكذلك: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَزُرْنِي فَقَدْ جَفَانِي»[١].

---

(١) قال ابن عبد الهادي في الصارم المنكي (ص٧٤، ٧٥): (هذا خبر منكر جدًّا ليس له أصل، بل هو حديث مفتعل موضوع، وخبر مختلق مصنوع، لا يجوز الاحتجاج به، ولا يحسن الاعتماد عليه لوجوه:

أحدها: أنه من رواية النعمان بن شبل، وقد اتهمه موسى بن هارون الحمال، وقال أبو حاتم ابن حبان البستي: يأتي عن الثقات بالطامات، وعن الأثبات بالمقلوبات.

والثاني: أن في إسناده محمد بن الفضل بن عطية، وكان كذابًا. قاله يحي بن معين، وقال الإمام أحمد بن حنبل: ليس بشيء، حديثه حديث أهل الكذب. وقال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني: كان كذابًا، سألت ابن حنبل عنه فقال: ذاك عجب، يجيئك بالطامات. وقال الفلاس: متروك الحديث كذاب. وقال أبو حاتم الرازي: ذاهب الحديث، تُرِك حديثه. وقال مسلم بن الحجاج وابن خراش والنسائي: متروك الحديث، وقال النسائي في موضع آخر: كذاب، وقال ابن عدي: عامة حديثه مما لا يتابعه الثقات عليه، وقال صالح بن محمد الحافظ: كان يضع الحديث، وقال ابن حبان: كان ممن يروي الموضوعات عن الإثبات، لا يحل كتب حديثه إلا على سبيل الاعتبار، كان أبو بكر بن أبي شيبة شديد الحمل عليه.

الثالث: أن في طريقة جابر -وهو الجعفي- لم يكن بثقة، قال أبو حاتم الرازي عن أحمد ابن حنبل: تركه يحيى وعبد الرحمن. وقال أبو حنيفة: ما رأيت أحدًا أكذب من جابر الجعفي. وقال يحيى بن معين: كان جابر الجعفي كذابًا، لا يكتب حديثه ولا كرامة ليس بشيء. وقال السعدي: كذاب، سألت عنه أحمد بن حنبل: فقال: تركه ابن مهدي فاستراح. وقال النسائي: متروك الحديث. وقال في موضع آخر: ليس بثقة، ولا يكتب حديثه. وقال الحاكم أبو أحمد: ذاهب الحديث. وقال ابن حبان: كان سبئيًّا من أصحاب عبد الله بن سبأ، وكان يقول: إن عليًّا يرجع إلى الدنيا، ثم روى عن سفيان بن عيينة أنه قال: كان جابر الجعفي يؤمن بالرجعية. وقال زائدة: أما جابر الجعفي، فكان والله كذابًا يؤمن بالرجعة.

الرابع: أن محمد بن علي الذي روى عنه جابر هو أبو جعفر الباقر، ولم يدرك جد أبيه علي ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الجملة ليس هذا الخبر مما يصلح الاستشهاد به ولا الاعتبار، ولا يحتج به إلا من هو أجهل الناس بالعلم).

قوله: (**هَذَا كَذِبُهُ ظَاهِرٌ مُخَالِفٌ لِدِينِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ مَنْ زَارَهُ فِي حَيَاتِهِ، وَكَانَ مُؤْمِنًا بِهِ، كَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ، لَاسِيَّما إِنْ كَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَيْهِ، الْمُجَاهِدِينَ مَعَهُ**). هناك فرق بين من زاره في حياته، ومن زاره بعد موته، فالذي يزوره في حياته مؤمنًا به يكون صحابيًّا، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مَدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**».

أما من زاره بعد موته فلا يكون صحابيًّا، والحديث يقول: (مَنْ زَارَنِي بَعْدَ مَمَاتِي فَكَأَنَّمَا زَارَنِي فِي حَيَاتِي). وهذا يعارض الحديث الصحيح، فلا يستوي من زاره بعد الموت مع من زاره وهو حي، فالكذب ظاهر على هذا الحديث؛ لأن القياس باطل.

قوله: (**فَإِنْ مَنْ زَارَهُ فِي حَيَاتِهِ، وَكَانَ مُؤْمِنًا بِهِ، كَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ**). لأن الصحابي هو: من لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مؤمنًا به، ومات على ذلك[1].

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مَدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**». فضل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا يلحقهم فيه أحد، فلو أن أحدًا أنفق مثل أُحد ذهبًا خالصًا في سبيل الله ما ساوى نصف المد الذي يتصدق به صحابي من صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمد: ربع الصاع؛ لأن الصاع أربعة أمداد، أو نصف المد وهو الثمن من الصاع، فالبون شاسع بين الصحابي وغيره. وقوله:

---

(١) انظر: شرح التبصرة والتذكرة = ألفية العراقي (٢/ ١٢٠)، والإصابة لابن حجر (١/ ١٥٨)، ونخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر (٤/ ٧٢٤)، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٦/ ١٦٩).

«**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي**». فيه: فضل الصحابة، ومنع تنقصهم أو سب أحد منهم.

قوله: (**وَالوَاحِدُ مِنْ بَعْدِ الصَّحَابَةِ لَا يَكُونُ مِثْلَ الصَّحَابَةِ بِأَعْمَالٍ مَأْمُورٍ بِهَا وَاجِبَةٍ؛ كَالحَجِّ وَالجِهَادِ وَالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ**). لو أن أحدًا حافظ على الصلاة والحج لم يبلغ فضل الصحابة، وهي أعمال مشروعة واجبة، فكيف يبلغه بالزيارة غير الواجبة باتفاق المسلمين؟

قوله: (**فَكَيْفَ بِعَمَلٍ لَيْسَ بِوَاجِبٍ بِاتِّفَاقِ المُسْلِمِينَ، بَلْ وَلَا شُرِعَ السَّفَرُ إِلَيْهِ، بَلْ هُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ**). لقوله ﷺ: «**لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ**»، وفي رواية: «**لَا تَشَدُّوا الرِحَالَ**» بالنهي «**إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِي هَذَا، وَالمَسْجِدِ الأَقْصَى**»[1]، والمراد السفر للعبادة في مكان خاص، فلا يُسافر للعبادة في مكان خاص إلا لهذه المساجد، وأما السفر للتجارة، والنزهة، وطلب العلم، والجهاد، فمشروع لا بأس به، أو مباح.

قوله: (**وَأَمَّا السَّفَرُ إِلَى مَسْجِدِهِ لِلصَّلَاةِ فِيهِ، وَالسَّفَرُ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى لِلصَّلَاةِ فِيهِ فَهُوَ مُسْتَحَبٌّ، وَالسَّفَرُ إِلَى الكَعْبَةِ لِلحَجِّ فَوَاجِبٌ**). السفر إلى المسجدين: النبوي، والأقصى مستحب، أما السفر إلى المسجد الحرام، فيجب مرة في العمر، وهو ركن من أركان الإسلام، وما زاد على سفر الحج الركن، فمستحب.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (**فَلَوْ سَافَرَ أَحَدٌ السَّفَرَ الوَاجِبَ وَالْمُسْتَحَبَّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ سَافَرُوا إِلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ**). لو أن أحدًا سافر للحج إلى المسجد الحرام، وسافر إلى المسجد النبوي للصلاة، وسافر إلى المسجد الأقصى للصلاة والعبادة، لم يعادل هذا عمل الصحابي، فكيف يعارض هذا بالحديث المكذوب.

قوله: (**فَكَيْفَ بِالسَّفَرِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ؟**). لأنه لا يُسافر للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته استقلالًا، إنما يسافر للمسجد النبوي للصلاة، وتدخل زيارة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبعًا لا أصلًا.

وَقَدِ اتَّفَقَ الأَئِمَّةُ عَلَى أَنَّهُ لَوْ نَذَرَ أَنْ يُسَافِرَ إِلَى قَبْرِهِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- أَوْ قَبْرِ غَيْرِهِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ أَنْ يُوفِيَ بِنَذْرِهِ، بَلْ يُنْهَى عَنْ ذَلِكَ.

وَلَوْ نَذَرَ السَّفَرَ إِلَى مَسْجِدِهِ وَالمَسْجِدِ الأَقْصَى لِلصَّلَاةِ، فَفِيهِ قَوْلَانِ لِلشَّافِعِيِّ: أَظْهَرُهُمَا عَنْهُ: يَجِبُ ذَلِكَ، وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَأَحْمَدَ.

وَالثَّانِي: لَا يَجِبُ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ؛ لِأَنَّ مِنْ أَصْلِهِ أَنَّهُ لَا يَجِبُ النَّذْرُ إِلَّا مَا كَانَ وَاجِبًا بِالشَّرْعِ، وَإِتْيَانُ هَذَيْنِ المَسْجِدَيْنِ لَيْسَ وَاجِبًا بِالشَّرْعِ، فَلَا يَجِبُ بِالنَّذْرِ عِنْدَهُ.

الشَّرْح

كل هذا في سياق رد الحكاية المكذوبة على الإمام مالك أنه قال لأبي جعفر المنصور: استقبل القبر عند الدعاء؛ لأنه وسيلته، ووسيلة أبيه آدم.

قال هنا: (وَقَدِ اتَّفَقَ الأَئِمَّةُ). الأئمة: جمع إمام، وهو العالم المقتدى به، فالإمام هو القدوة.

قوله: (عَلَى أَنَّهُ لَوْ نَذَرَ أَنْ يُسَافِرَ إِلَى قَبْرِهِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- أَوْ قَبْرِ غَيْرِهِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ أَنْ يُوفِيَ بِنَذْرِهِ، بَلْ يُنْهَى عَنْ ذَلِكَ). أي: اتفقوا على أنه لو نذر الإنسان أن يسافر لزيارة قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن له أن يفي بذلك، بل يمنع من ذلك؛ لأن هذا نذر معصية، فالسفر لزيارة القبور وسيلة إلى الشرك، وما دام أنه وسيلة إلى الشرك والغلو،

فيكون معصية، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ**»(١).

فدل ذلك على أن السفر لزيارة قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو أي قبر من القبور بدعة وحرام؛ لأنه وسيلة إلى الشرك؛ ولأنه مخالف لمفهوم الحديث الصحيح: «**لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِي هَذَا، وَالمَسْجِدِ الأَقْصَى**»(٢)، فأي مسجد في الأرض سوى هذه المساجد الثلاثة لا يجوز السفر لزيارته؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حصر جواز السفر أو مشروعيته عليها بهذه الصيغة: «**لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ**»، وهذه صيغة حصر، وفي رواية: «**لَا تَشُدُّوا**» بالنهي، والرواية المشهورة: «**لَا تُشَدُّ**» بالنفي المقصود به النهي، والعلماء يقولون: إذا جاء النهي بصيغة النفي، فهو أبلغ في المنع.

فالحاصل: أنه لا يجوز نذر السفر لزيارة قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو قبر غيره من قبور الصالحين، بل لزيارة مسجد من المساجد ليصلي فيه غير المساجد الثلاثة.

قوله: (بَلْ يُنْهَى عَنْ ذَلِكَ). لأنه نذر معصية، وقد نهى عنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ**».

قوله: (أَظْهَرُهُمَا عَنْهُ: يَجِبُ ذَلِكَ). لأنه نذر طاعة؛ حيث إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حصر السفر لزيارة هذه المساجد، فدل على أن السفر لزيارتها والصلاة فيها طاعة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) تقدم تخريجه قريبًا.

قوله: **(وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَأَحْمَدَ. وَالثَّانِي: لَا يَجِبُ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ؛ لِأَنَّ مِنْ أَصْلِهِ: أَنَّهُ لَا يَجِبُ النَّذْرُ إِلَّا مَا كَانَ وَاجِبًا بِالشَّرْعِ)**. مذهب مالك، وأحمد، وأحد قولي الشافعي: أنه يجب ذلك؛ لأنه نذر طاعة، أما عند أبي حنيفة فلا يُشرع أصلًا؛ لأن أبا حنيفة لا يرى واجبًا بالنذر، ويقول: لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله، ولا يوجب الإنسان على نفسه شيئًا لم يوجبه الله عليه. فلو نذر أن يصلي الصلوات الخمس، أو يصوم رمضان، فيجب عند أبي حنيفة؛ لأنه واجب بأصل الشرع، فيكون نذره له من باب التأكيد.

قوله: **(وَإِتْيَانُ هَذَيْنِ المَسْجِدَيْنِ لَيْسَ وَاجِبًا بِالشَّرْعِ، فَلَا يَجِبُ بِالنَّذْرِ عِنْدَهُ)**. أي: عند أبي حنيفة.

وَأَمَّا الْأَكْثَرُونَ فَيَقُولُونَ: هُوَ طَاعَةٌ للهِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ»(١).

وَأَمَّا السَّفَرُ إِلَى زِيَارَةِ قُبُورِ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ فَلَا يَجِبُ بِالنَّذْرِ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِطَاعَةٍ، فَكَيْفَ يَكُونُ مَنْ فَعَلَ هَذَا كَوَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ؟

وَهَذَا مَالِكٌ كَرِهَ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: زُرْتُ قَبْرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَاسْتَعْظَمَهُ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ لِكَرَاهِيَةِ زِيَارَةِ القُبُورِ.

وَقِيلَ: لِأَنَّ الزَّائِرَ أَفْضَلُ مِنَ الْمَزُورِ.

وَكِلَاهُمَا ضَعِيفٌ عِنْدَ أَصْحَابِ مَالِكٍ.

وَالصَّحِيحُ: أَنَّ ذَلِكَ لِأَنَّ لَفْظَ زِيَارَةِ القَبْرِ مُجْمَلٌ يَدْخُلُ فِيهَا الزِّيَارَةُ الْبِدْعِيَّةُ الَّتِي هِيَ مِنْ جِنْسِ الشِّرْكِ، فَإِنَّ زِيَارَةَ قُبُورِ الأَنْبِيَاءِ وَسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى وَجْهَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ: زِيَارَةٌ شَرْعِيَّةٌ، وَزِيَارَةٌ بِدْعِيَّةٌ.

الشَّرح

قوله ﷺ: **«مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ»**. والسفر للصلاة في المساجد الثلاثة سفر للطاعة، وقد نذره، فيجب عليه.

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

قوله: (وَأَمَّا السَّفَرُ إِلَى زِيَارَةِ قُبُورِ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ فَلَا يَجِبُ بِالنَّذْرِ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ). لأنه نذر معصية، فلو نذر أن يسافر لزيارة قبر علي في الكوفة، أو قبر الحسين في كربلاء، أو قبر عبد القادر الجيلاني في العراق، فهذا نذر معصية يحرم عليه الوفاء به.

قوله: (لِأَنَّهُ لَيْسَ بِطَاعَةٍ). بل هو نذر معصية، ووسيلة إلى الشرك، ومخالف لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ...»[(١)] الحديث.

قوله: (فَكَيْفَ يَكُونُ مَنْ فَعَلَ هَذَا كَوَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ؟). هذا كله تكملة للرد على الحديث المكذوب «مَنْ زَارَنِي بَعْدَ وَفَاتِي فَكَأَنَّمَا زَارَنِي فِي حَيَاتِي». والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ سبق أن قال: هذا كذب من ناحية السند، وكذب من ناحية المعنى، وأن من زاره بعد موته لا يكون كمن زاره في حياته؛ لأن من زاره في حياته مؤمنًا به صار صحابيًّا، وأما من زاره بعد موته فلا يكون صحابيًّا، فكيف يقول: «كَأَنَّمَا زَارَنِي فِي حَيَاتِي»؟ هذه علامة الكذب.

قوله: (وَهَـذَا مَالِكٌ كَرِهَ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: زُرْتُ قَبْرَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتَعْظَمَهُ). يكره مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أن يقول الرجل: زرت قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واختلفوا في تفسير ذلك، فمنهم من قال: يُكره ذلك؛ (لِأَنَّ الزَّائِرَ أَفْضَلُ مِنَ الْمَزُورِ)، ولا أحد أفضل من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

وقيل: كره ذلك لأجل (**كَرَاهِيَةِ زِيَارَةِ الْقُبُورِ**)؛ لأن الإمام مالك يكره زيارة القبور؛ لأن هذا قد يفضي إلى الغلو. ولكن هذا ضعيف؛ لأن زيارة القبور مشروعة، ولا ينكرها مالك في الحديث.

والصحيح: أن تعليل ذلك عند مالك أن زيارة قبر النبي ﷺ مجملة، فقد يراد بها الزيارة الشرعية، وقد يراد بها الزيارة البدعية، فلا يقول: زرت قبر النبي بهذا الإجمال، وأيضًا: لم يثبت في الأحاديث الحث على زيارة قبر النبي ﷺ أبدًا، فكل الأحاديث الواردة في ذلك إما مكذوبة أو ضعيفة شديدة الضعف لا يُحتج بها، فلم يثبت في حديث صحيح الأمر بزيارة قبر النبي ﷺ، وإنما تدخل زيارة قبره ﷺ في عموم قوله ﷺ: «**زُورُوا الْقُبُورَ**»[1].

قوله: (**وَكِلَاهُمَا**) أي: كلا التفسيرين (**ضَعِيفٌ عِنْدَ أَصْحَابِ مَالِكٍ**).

(١) تقدم تخريجه (ص٧٢).

فَالزِّيَارَةُ الشَّرْعِيَّةُ يُقْصَدُ بِهَا السَّلَامُ عَلَيْهِمْ وَالدُّعَاءُ لَهُمْ، كَمَا يُقْصَدُ الصَّلَاةُ عَلَى أَحَدِهِمْ إِذَا مَاتَ فَيُصَلِّي عَلَيْهِ صَلَاةَ الجَنَازَةِ، فَهَذِهِ الزِّيَارَةُ الشَّرْعِيَّةُ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَزُورَهَا كَزِيَارَةِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ البِدَعِ لِدُعَاءِ الْمَوْتَى وَطَلَبِ الحَاجَاتِ مِنْهُمْ، أَوْ لِاعْتِقَادِهِ أَنَّ الدُّعَاءَ عِنْدَ قَبْرِ أَحَدِهِمْ أَفْضَلُ مِنَ الدُّعَاءِ فِي المَسَاجِدِ وَالبُيُوتِ، أَوْ أَنَّ الْإِقْسَامَ بِهِمْ عَلَى اللهِ وَسُؤَالَهُ سُبْحَانَهُ بِهِمْ أَمْرٌ مَشْرُوعٌ يَقْتَضِي إِجَابَةَ الدُّعَاءِ، فَمِثْلُ هَذِهِ الزِّيَارَةِ بِدْعَةٌ مَنْهِيٌّ عَنْهَا.

فَإِذَا كَانَ لَفْظُ الزِّيَارَةِ مُجْمَلًا يَحْتَمِلُ حَقًّا وَبَاطِلًا عَدَلَ عَنْهُ إِلَى لَفْظٍ لَا لَبْسَ فِيهِ كَلَفْظِ السَّلَامِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْتَجَّ عَلَى مَالِكٍ بِمَا رَوَى فِي زِيَارَةِ قَبْرِهِ أَوْ زِيَارَتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا أَحَادِيثُ ضَعِيفَةٌ بَلْ مَوْضُوعَةٌ، لَا يُحْتَجُّ بِشَيْءٍ مِنْهَا فِي أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ.

وَالثَّابِتُ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ»[1]، هَذَا هُوَ الثَّابِتُ فِي الصَّحِيحِ، وَلَكِنْ بَعْضُهُمْ رَوَاهُ بِالمَعْنَى فَقَالَ: «قَبْرِي». وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالَ هَذَا القَوْلَ لَمْ يَكُنْ قَدْ قُبِرَ بَعْدُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

الشَّرْح

قولـه: (فَمِثْلُ هَـذِهِ الزِّيَارَةِ بِدْعَـةٌ مَنْهِيٌّ عَنْهَا). زيـارة القبور على ثلاثة أنواع:

(١) تقدم تخريجه (ص٦٨٧).

الأول: زيارة شرعية، وهي التي يُقصد بها السلام على الأموات، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة؛ لما في ذلك من النفع للأموات، وأيضًا: الاعتبار بالأموات، والقبور تذكر بالآخرة.

الثاني: الزيارة الشركية، وهي التي يُقصد بها الاستغاثة بالأموات، وطلب الحوائج منهم، ودعاؤهم من دون الله، وهي التي عليها عباد القبور اليوم، فهم يزورنها لأجل الاستنجاد بالمقبورين، والاستغاثة بهم، وطلب الحوائج منهم، فيذبحون لهم عند قبورهم، وينذرون لهم، ويقيمون عند قبورهم أيامًا، وينصبون الخيام، كما هو حاصل عند قبر البدوي وغيره.

الثالث: زيارة بدعية، وهي التي لا يُقصد بها دعاء القبور، والاستغاثة بالأموات، وإنما يُقصد بها الدعاء عند القبور، أو الصلاة عند القبور، ويظن من يفعل ذلك أن هذا سبب للإجابة، فهذه زيارة بدعية، وهي وسيلة إلى الشرك.

قوله: (**فَإِذَا كَانَ لَفْظُ الزِّيَارَةِ مُجَمَلًا يَحْتَمِلُ حَقًّا وَبَاطِلًا عَدَلَ عَنْهُ**). عدل عنه مالك، وكره أن يقول: زرت قبر النبي ﷺ؛ لأنه لا يدري ما قصدك بزيارة قبر النبي ﷺ.

قوله: (**إِلَى لَفْظٍ لَا لَبْسَ فِيهِ كَلَفْظِ السَّلَامِ عَلَيْهِ**). أي: مالك يقول: قل سلمت على الرسول؛ لأن هذا هو الوارد، ولا تقل: زرت الرسول؛ لأن هذه مجملة تشمل الزيارة المشروعة والزيارة البدعية. وما أحسن كلام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ دائمًا وأبدًا، فكلماته تنبع من التوحيد والتحقيق والاتباع.

قوله: (**وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْتَجَّ عَلَى مَالِكٍ بِمَا رَوَى فِي زِيَارَةِ قَبْرِهِ أَوْ زِيَارَتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ**). إذا كان مالك ينكر لفظ «زرت قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، فلا يأت أحد ويحتج عليه بالأحاديث التي فيها الحث على زيارة قبره، وزيارته بعد موته؛ لما سبق من أنها كلها لا تقوم بها حجة.

قوله: (**فَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا أَحَادِيثُ ضَعِيفَةٌ بَلْ مَوْضُوعَةٌ، لَا يَحْتَجُّ بِشَيْءٍ مِنْهَا فِي أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ**). كلها أحاديث موضوعة أي مكذوبة، هذا الغالب عليها، أو ضعيفة شديدة الضعف لا يحتج بها، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام هنا، وفي غيره من كتبه، وكما ذكره الحافظ ابن حجر، وكما ذكره الدارقطني، وغيرهم من الأئمة.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا بَيْنَ بَيْتَيْ وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ**». الثابت عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشروعية الصلاة في مسجده، حيث قال: «**صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ المَسَاجِدِ إِلَّا المَسْجِدَ الْحَرَامَ**»[1]. والصلاة في مسجده تتفاضل، فصلاة النافلة في الروضة الشريفة أفضل من سائر المسجد، أما في الفريضة فالصلاة في الصف الأول أفضل في مسجد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن كان خارجًا عن الروضة، ولكن في النوافل الصلاة في الروضة أفضل؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا بَيْنَ بَيْتَيْ وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ**»، فإذا تمكن الإنسان من الصلاة في الروضة، وهي ما بين البيت والمنبر، فهذا أفضل، وإن صلى في أي مكان من مسجده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) أخرجه البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

حاز على الفضيلة، ولم يرد ذكر لقبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يُصلى عنده، أو يُدعى عنده، أو غير ذلك.

قوله: (**وَلَكِنْ بَعْضُهُمْ رَوَاهُ بِالمَعْنَى فَقَالَ: قَبْرِي**). وهذه اللفظة لم ترد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما الراوي رواه بالمعنى؛ لأن قبره في بيته، فأراد أن يعبر عن البيت، وذكر القبر.

قوله: (**وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالَ هَذَا القَوْلَ لَمْ يَكُنْ قَدْ قُبِرَ بَعْدُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ**). لم يرد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا اللفظ (قَبْرِي)، وأيضًا: لم يكن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قال هذا القول قد قُبر حتى يقول: «مَا بَيْنَ قَبْرِي وَمِنْبَرِي»، وإنما وجد قبره بعد ذلك.

وَلِهَذَا لَمْ يَحْتَجْ بِهَذَا أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ لَمَّا تَنَازَعُوا فِي مَوْضِعِ دَفْنِهِ، وَلَوْ كَانَ هَذَا عِنْدَهُمْ لَكَانَ نصًّا فِي مَحَلِّ النِّزَاعِ، وَلَكِنْ دُفِنَ فِي حُجْرَةِ عَائِشَةَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ(١)، بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ.

ثُمَّ لَمَّا وَسِّعَ الْمَسْجِدُ فِي خِلَافَةِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ(٢)، وَكَانَ نَائِبُهُ عَلَى الْمَدِينَةِ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ(٣) أَمَرَهُ أَنْ يَشْتَرِيَ الْحُجَرَ وَيَزِيدَهَا فِي الْمَسْجِدِ، وَكَانَتِ الْحُجَرُ مِنْ جِهَةِ الْمَشْرِقِ وَالْقِبْلَةِ، فَزِيدَتْ فِي الْمَسْجِدِ، وَدَخَلَتْ حُجْرَةُ عَائِشَةَ فِي الْمَسْجِدِ مِنْ حِينَئِذٍ، وَبَنَوْا الْحَائِطَ الْبَرَّانِيَّ مُسَنَّمًا مُحَرَّفًا.

فَإِنَّهُ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيِّ أَنَّهُ قَالَ ﷺ: «**لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا**»(٤). لِأَنَّ ذَلِكَ يُشْبِهُ السُّجُودَ لَهَا، وَإِنْ كَانَ الْمُصَلِّي إِنَّمَا يَقْصِدُ الصَّلَاةَ للهِ تَعَالَى. وَكَمَا نَهَى عَنِ اتِّخَاذِهَا مَسَاجِدَ نَهَى عَنْ قَصْدِ الصَّلَاةِ عِنْدَهَا، وَإِنَّ كَانَ الْمُصَلِّي إِنَّمَا يَقْصِدُ الصَّلَاةَ للهِ سُبْحَانَهُ وَالدُّعَاءَ لَهُ. فَمَنْ قَصَدَ قُبُورَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لِأَجْلِ الصَّلَاةِ

---

(١) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ اخْتَلَفُوا فِي دَفْنِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْئًا مَا نَسِيتُهُ، قَالَ: «**مَا قَبَضَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُدْفَنَ فِيهِ**»، ادْفِنُوهُ فِي مَوْضِعِ فِرَاشِهِ». أخرجه الترمذي (١٠١٨).

(٢) هو: الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو العباس الأموي، بويع له بالخلافة بعد أبيه بعهد منه، قال الشعبي: كان أبواه يترفانه فشب بلا أدب. توفي سنة ست وتسعين. انظر: تاريخ دمشق (٦٣/ ١٥٤). تاريخ الخلفاء (ص٢٢٣).

(٣) هو: أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية، أحيى في خلافته ما أُميت قبله من السنن، وسلك مسلك من تقدمه من الخلفاء الأربعة، توفي سنة إحدى ومائة. انظر: الثقات (٥/ ١٥١)، وتاريخ الخلفاء (ص٢٢٨).

(٤) أخرجه مسلم (٩٧٢).

وَالدُّعَاءِ عِنْدَهَا فَقَدْ قَصَدَ نَفْسَ الْمُحَرَّمِ الَّذِي سَدَّ اللهُ وَرَسُولُهُ ذَرِيعَتَهُ، وَهَذَا بِخِلَافِ السَّلَامِ الْمَشْرُوعِ حَسْبَمَا تَقَدَّمَ.

الشَّرْح

قوله: (وَلِهَذَا لَمْ يَحْتَجَّ بِهَذَا أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، لَمَّا تَنَازَعُوا فِي مَوْضِعِ دَفْنِهِ). ومما يدل على أن هذا اللفظ: «مَا بَيْنَ قَبْرِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ» لم يصدر منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لما توفي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اختلفوا أين يُدفن، هل يُدفن مع أصحابه في البقيع؟ لأنه إذا دُفن في البقيع يُخشى عليه من الغلو، ثم اتفقوا أن يُدفن في حجرة عائشة في المكان الذي توفي فيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا قالت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لما ذكرت حديث: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**». قالت: «**وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ، وَلَكِنْ كَرِهَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا**»(١).

فدفنوه في حجرتها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا محافظة عليه من الغلو، فكان هذا من توفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولو ثبت عندهم أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَا بَيْنَ قَبْرِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ**» لانتهى النزاع، ودفنوه اعتمادًا على هذا اللفظ.

قوله: (وَكَانَتِ الْحُجَرُ مِنْ جِهَةِ الْمَشْرِقِ وَالْقِبْلَةِ). كانت حجرات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي فيها أزواجه حافة في المسجد من جهة الجنوب، وهي جهة القبلة، وكذلك من جهة الشرق، فأزيلت الحجرات التي في جهة الجنوب في عهد عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا وسَّع المسجد من جهة القبلة، وبقيت حجرة عائشة

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٣٩).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خارج المسجد، لم يدخلها في المسجد، فلما جاءت خلافة الوليد بن عبد الملك من بني أمية، وأمر بتوسعة المسجد النبوي وسعه من جهة الشرق، وكان الخلفاء من قبله يوسعونه من جهة الجنوب، والغرب، ولا يتعرضون له من جهة الشرق، فهو أول من وسع المسجد من جهة الشرق، وأدخل فيها حجرة عائشة التي فيها قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فصار القبر داخل المسجد، والذي نفذ هذا بأمر الخليفة هو عمر بن عبد العزيز، وكان أميرًا على المدينة من جهة عمه الوليد بن عبد الملك.

قوله: (**وَدَخَلَتْ حُجْرَةَ عَائِشَةَ فِي المَسْجِدِ مِنْ حِينَئِذٍ**). فقد كانت في عهد الخلفاء الراشدين، وعهد معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعهد يزيد خارج المسجد، وفي عهد عبد الملك بن مروان أُدخلت في المسجد.

قوله: (**وَبَنَوْا الحَائِطَ الْبَرَّانِيَّ مُسَنَّمًا مُحَرَّفًا**). الجدار الذي من جهة الشمال بنوه مسنمًا؛ لئلا يستقبل القبر أحد، فجعلوه على شكل محراب مسنم حتى إن المصلي لا يستقبل شيئًا من الجدار، ولهذا قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[١]:

فَأَجَابَ رَبُّ الْعَالَمِينَ دُعَاءَهُ ... وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الْجُدْرَانِ
حَتَّى غَدَتْ أَرْجَاؤُهُ بِدُعَائِهِ ... فِي عِزَّةٍ وَحِمَايَةٍ وَصِيَانِ

أي: صار الجدار مثلثًا من جهة الشمال لئلا يستقبل القبر أحد، وجعلوه محرفًا لئلا يُصلى إليه؛ عملًا بنهي الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «**لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ**»؛ لأن هذا إهانة للقبر «**وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا**».

(١) انظر: نونية ابن القيم (ص٢٥٢).

هذا محل الشاهد، لا تستقبل القبر عند الصلاة، لا قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا غيره، ولأجل ذلك حرفوا الجدار، فصار المصلي لا يستقبل شيئًا من القبر أو حول القبر.

قوله: (لِأَنَّ ذَلِكَ يَشْبَهُ السُّجُودَ لَهَا). نهى عن الضدين: نهى عن امتهان القبور وهو الجلوس عليها، وكل ما يسيء إليها، ويتنافى مع حرمتها، ونهى عن الغلو الغلو فيها، والمشروع هو التوسط بين الغلو والإهانة، فالقبور تُصان وتُسور عن الأذى، ولكنها لا يُغلى فيها، ولا تتخذ أماكن للعبادة رجاء الإجابة.

فقوله: (لِأَنَّ ذَلِكَ يَشْبَهُ السُّجُودَ لَهَا)؛ لأنه إذا صلى عندها كأنه يصلي لها، ويسجد لها، ففيه تشبه بالمشركين، واليهود، والنصارى الذين يسجدون للقبور، ويعبدونها من دون الله عَزَّوَجَلَّ، أما إذا كان يقصد القبر بسجوده، فهذا شرك أكبر، لكن إن كان يسجد ويصلي ويدعو الله، ولكن عند القبر، فهذا وسيلة إلى الشرك وبدعة لا يجوز.

قوله: (وَكَمَا نَهَى عَنِ اتِّخَاذِهَا مَسَاجِدَ نَهَى عَنْ قَصْدِ الصَّلَاةِ عِنْدَهَا). نهى عن اتخاذها مساجد بالبناء عليها على شكل مسجد، أو الصلاة عندها؛ لأن ذلك وسيلة من وسائل الشرك، حتى ولو لم يُبن عليها لا يُصلي عندها، ولا يدعو عندها لنفسه، وإنما يدعو عندها للميت.

قوله: (فَمَنْ قَصَدَ قُبُورَ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لِأَجْلِ الصَّلَاةِ وَالدُّعَاءِ عِنْدَهَا فَقَدْ قَصَدَ نَفْسَ الْمُحَرَّمِ). أي: من قصد قبور الأنبياء والصالحين للدعاء

والصلاة عندها، واعتبار ذلك سببًا للإجابة، فقد فعل الحرام الذي نهى عنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**لَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ**» أي: مصليات «**فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»[1]، أي: عن اتخذاها مساجد، سواء بُني عليها مسجد، أو صُلي عندها دون بناء؛ لأن من صلى في مكان فقد اتخذه مسجدًا؛ لهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**»[2]. أي: صالحة للصلاة فيها.

قوله: (الَّذِي سَدَّ اللهُ وَرَسُولُهُ ذَرِيعَتَهُ). بالنهي عنه؛ لأن الوسيلة إلى الحرام حرام، كما أن الوسيلة إلى الطاعة طاعة.

قوله: (وَهَذَا بِخِلَافِ السَّلَامِ الْمَشْرُوعِ حَسْبَمَا تَقَدَّمَ). أما السلام المشروع على الميت، فهذا ورد وثبت عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس فيه محظور، بل فيه منفعة للميت أن يُسلم عليه، ويُدعى له؛ لأنه بحاجة إلى الدعاء والاستغفار له.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٥٥).

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٥٦).

وَقَدْ رَوَى سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ زَاذَانَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ لِلهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِيْ السَّلَامَ»(١). رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَأَبُو حَاتِمٍ فِي صَحِيحِهِ. وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

فَهَذَا فِيهِ أَنَّ سَلَامَ البَعِيدِ تُبَلِّغُهُ المَلَائِكَةُ.

وَفِي الحَدِيثِ المَشْهُورِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو الأَشْعَثُ الصَّنْعَانِيُّ، عَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِي كُلِّ يَوْمِ جُمُعَةٍ، فَإِنَّ صَلَاةَ أُمَّتِيْ تَعْرِضُ عَلَيَّ يَوْمَئِذٍ، فَمَنْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً كَانَ أَقْرَبَهُمْ مِنِّي مَنْزِلَةً»(٢).

وَفِي مُسْنَدِ الإِمَامِ أَحْمَدَ: حَدَّثَنَا شُرَيْحٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ، عَنِ المَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي»(٣). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٨٣)، والنسائي (١٢٨٢)، وابن حبان (٣/ ١٩٥)، والحاكم (٢/ ٤٥٦).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في الكبرى (٣/ ٣٥٣) من طريق برد بن سنان، عن مكحول الشامي، عن أبي أمامة، رفعه.
أما السند الذي ساقه شيخ الإسلام، فقد روى به أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٣٧٤)، وابن ماجه (١٠٨٥)، وأحمد (٢٦/ ٨٤) عن أوس بن أوس أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ».

(٣) أخرجه أحمد (١٤/ ٤٠٣)، وأبو داود (٢٠٤٢).

قَالَ القَاضِي عِيَاضٌ(١): وَرَوَى أَبُو بَكْرِ بْنِ أَبِي شِيْبَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ عِنْدَ قَبْرِيْ سَمِعْتُهُ، وَمَنْ صَلَّى نَائِيًا أُبْلِغْتُهُ»(٢). وَهَذَا قَدْ رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ السُّدِّيُّ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَهَذَا هُوَ السُّدِّيُّ الصَّغِيرُ وَلَيْسَ بِثِقَةٍ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ حَدِيثِ الأَعْمَشِ.

الشَّرْح

قوله ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ**».

سبق مثله، وهو أن النبي ﷺ أخبر أن من سلم عليه عند قبره رد الله روحه عليه حتى يرد السلام، ومن سلم عليه بعيدًا عن القبر، فإن هناك من يبلغ الرسول، وبيَّن في هذا الحديث أنهم ملائكة سياحون يبلغون الرسول ﷺ سلام أمته عليه، وهذا فيه رد على ما يفعله بعض الناس بأن يوصي الذاهبين إلى المدينة، ويقول: سلموا لي على الرسول ﷺ. كأنه لا يعترف بالملائكة، ولا يعتمد عليهم، أو أنه لا يدري.

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٧٩).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (٣/ ١٤٠)، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ١٣٦) في ترجمة محمد بن مروان السدي، وقال: «لا أصل له من حديث الأعمش، وليس بمحفوظ، ولا يتابعه إلا من هو دونه». وقال ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٢٤): «هذا حديث لا يصح، ومحمد بن مروان هو السدي، قال يحيى: ليس بثقة. وقال ابن نمير: كذاب. وقال السعدي: ذاهب. وقال النسائي: متروك، وقال ابن حبان: لا يحل كتب حديثه إلا اعتبارًا».

قوله: (**فَهَذَا فِيهِ أَنَّ سَلَامَ البَعِيدِ تُبَلِّغُهُ المَلَائِكَةُ**). هذا سيأتي من حديث الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**صَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي**»، أي: تبلغه عن طريق هؤلاء الملائكة.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِي كُلِّ يَوْمِ جُمُعَةٍ، فَإِنَّ صَلَاةَ أُمَّتِيْ تَعْرِضُ عَلَيَّ يَوْمَئِذٍ، فَمَنْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً كَانَ أَقْرَبَهُمْ مِنِّي مَنْزِلَةً**».

يوم الجمعة له فضائل عظيمة يختص بها عن سائر الأيام، وقد ذكر ابن القيم في «زاد المعاد» ما يزيد على أربعين مسألة من خصائص يوم الجمعة، وألف فيها الحافظ السيوطي رسالة سماها «اللمعة في خصائص يوم الجمعة»، فيوم الجمعة له خصائص، منها: الإكثار من الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد حث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك، وبيَّن أن صلاة أمته عليه في هذا اليوم تُعرض عليه، فيُستحب أن يكثر المسلم من الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الجمعة.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا**». العيد قسمان: عيد زماني، وهو عيد الفطر، وعيد الأضحى يتكرر بتكرر السنة، ويوم الجمعة يتكرر بالأسبوع.

وعيد مكاني: وهو المحل الذي يُجتمع فيه للعبادة، كالمشاعر: عرفة، ومزدلفة، ومنى، والمسجد الحرام. أما القبور فلا يجوز أن تتخذ أعيادًا يُجتمع عندها للعبادة، والذكر، والدعاء، خصوصًا قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقوله:

«**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا**» أي: تترددون عليه. كلما دخل أحدهم المسجد يذهب ليصلي على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا لا أصل له، إنما هذا للقادم من سفر كما سبق؛ لأن التردد عليه من اتخاذه عيدًا، والجلوس عنده من اتخاذه عيدًا، وقد نهى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك؛ لأن هذا من وسائل الشرك، ومن الغلو في حقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم قال: «**وَلَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**». ينبغي للمسلم أن يجعل من صلاته النافلة في بيته، كصلاة الليل، والسنن الرواتب؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ صَلَاةُ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ**»(١). فلا تتخذوها قبورًا ليس فيها صلاة، وإنما تكون فيها صلاة وذكر لله عَزَّوَجَلَّ، فتكون حية بذكر الله، ولا تكون ميتة كحالة القبور.

ثم قال: «**وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي**». لا يذهب الإنسان للقبر، ويقول: أصلِّي وأسلم على الرسول. بل يصلي ويسلم عليه في أي مكان، وسيبلغه ذلك، كما أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، فأنت والقريب منه سواء، فلا حاجة إلى أن تذهب للقبر، وتقول: أصلي وأسلم على الرسول؛ لأن هذا غير مشروع. صل عليه وسلم عليه في أي مكان، والله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا**﴾ [الأحزاب:٥٦]، ولم يقل: عند قبره، وهذا خطاب للمسلمين في جميع الأرض في المشارق والمغارب.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ عِنْدَ قَبْرِي سُمِّعْتُهُ وَمَنْ صَلَّى نَائِيًا أُبْلِغْتُهُ**».

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٨٨).

هذا كما سبق أن القريب يسمعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويرد الله عليه روحه حتى يرد السلام على من سلم عليه، وأما البعيد فيبلغه.

قوله: **(وَهَذَا قَدْ رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ السُّدِّيُّ عَنِ الأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَهَذَا هُوَ السُّدِّيُّ الصَّغِيرُ وَلَيْس بِثِقَةٍ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ حَدِيثِ الأَعْمَشِ)**. أي: هذا الحديث فيه مقال؛ لأنه من رواية السدي الصغير، والسدي الصغير ضعيف، أما السدي الكبير فثقة، ودائمًا يتكرر وروده في التفسير.

وَرَوَى أَبُو يَعْلَى المَوْصِلِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ مُوسَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ حَيَّانَ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الحَنَفِيِّ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ نَافِعٍ، حَدَّثَنَا الْعَلَاءُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، سَمِعْتُ الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «صَلُّوا فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا، وَلَا تَتَّخِذُوا بَيْتِي عِيدًا، صَلُّوا عَلَيَّ وَسَلِّمُوا فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ وَسَلَامَكُمْ يَبْلُغُنِي»(١).

وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ فِي سُنَنِهِ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ حَسَنِ بْنِ حَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَأَى رَجُلًا يُكْثِرُ الِاخْتِلَافَ إِلَى قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لَهُ: يَا هَذَا! إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي»، فَمَا أَنْتَ وَرَجُلٌ بِالأَنْدَلُسِ مِنْهُ إِلَّا سَوَاءٍ(٢).

وَرُوِيَ هَذَا المَعْنَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ زَيْنِ العَابِدِينَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَلِيِّ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، ذَكَرَهُ أَبُو عَبْد اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَاحِدِ المَقْدِسِيُّ الحَافِظُ فِي مُخْتَارِهِ(٣) الَّذِي هُوَ أَصَحُّ مِنْ صَحِيحِ الحَاكِمِ.

---

(١) أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده (١٢/ ١٣١).

(٢) لم أقف عليه في المطبوع من سنن سعيد بن منصور.

وأخرج عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٥٧٧) عَنِ الحَسَنِ بْنِ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، أَنَّهُ رَأَى قَوْمًا عِنْدَ الْقَبْرِ فَنَهَاهُمْ، وَقَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي».

(٣) أخرج أبو عبد الله المقدسي في الأحاديث المختارة (٢/ ٤٩) عن علي بن حسين: أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو، فَدَعَاهُ فَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُمَا كُنْتُمْ». وأخرجه من هذا الوجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ١٥٠)، وأبو يعلى الموصلي (١/ ٣٦١).

وَذَكَرَ القَاضِي عِيَاضٌ عَنِ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ: إِذَا دَخَلْتَ فَسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لا تَتَّخِذُوا بيتي عِيدًا، وَلا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُمْ قبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُ كُنْتُمْ، فَإِنَّ صَلاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»(١).

وَمِمَّا يُوهِنُ هَذِهِ الحِكَايَةَ أَنَّهُ قَالَ فِيهَا: (وَلِمَ تَصْرِفُ وَجْهَكَ عَنْهُ، وَهُوَ وَسِيلَتُكَ وَوَسِيلَةُ أَبِيكَ آدَمَ إِلَى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ). إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ يَتَوَسَّلُ النَّاسُ بِشَفَاعَتِهِ، وَهَذَا حَقٌّ كَمَا تَوَاتَرَتْ بِهِ الأَحَادِيثُ، لَكِنْ إِذَا كَانَ النَّاسُ يَتَوَسَّلُونَ بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، كَمَا كَانَ أَصْحَابُهُ يَتَوَسَّلُونَ بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ فِي حَيَاتِهِ، فَإِنَّمَا ذَاكَ طَلَبٌ لِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ، فَنَظِيرُ هَذَا لَوْ كَانَتِ الحِكَايَةُ صَحِيحَةً أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ الدُّعَاءَ وَالشَّفَاعَةَ فِي الدُّنْيَا عِنْدَ قَبْرِهِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا لَمْ يَأْمُرْ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا سَنَّهُ لِأُمَّتِهِ، وَلَا فَعَلَهُ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا اسْتَحَبَّهُ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ لَا مَالِكٌ وَلَا غَيْرُهُ مِنَ الأَئِمَّةِ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى مَالِكٍ مِثْلُ هَذَا الكَلَامِ الَّذِي لَا يَقُولُهُ إِلَّا جَاهِلٌ لَا يَعْرِفُ الأَدِلَّةَ الشَّرْعِيَّةَ وَلَا الأَحْكَامَ المَعْلُومَةَ بِأَدِلَّتِهَا الشَّرْعِيَّةِ، مَعَ عُلُوِّ قَدْرِ مَالِكٍ وَعِظَمِ فَضِيلَتِهِ وَإِمَامَتِهِ، وَتَمَامِ رَغْبَتِهِ فِي اتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَذَمِّ البِدَعِ وَأَهْلِهَا؟ وَهَلْ يَأْمُرُ بِهَذَا أَوْ يُشَرِّعُهُ إِلَّا مُبْتَدِعٌ؟ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ عَنْ مَالِكٍ قَوْلٌ يُنَاقِضُ هَذَا لَعُلِمَ أَنَّهُ لَا يَقُولُ مِثْلَ هَذَا.

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٧٩، ٨٠).

الشَّرح

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَلُّوا فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا**». أي: صلاة النافلة.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَا تَتَّخِذُوا بِيتِي عِيدًا**».

لا يجوز التردد على قبره، والجلوس عنده؛ لأن هذا وسيلة إلى اللغو.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَلُّوا عَلَيَّ وَسَلِّمُوا فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ وَسَلَامَكُمْ يَبْلُغُنِي**».

يبلغه حيثما كان الإنسان في مشارق الأرض ومغاربها، فلا حاجة إلى أن يوصي واحدًا من الذاهبين إلى المدينة، ويقول له: سلم لي على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعضهم يكتب رسائل للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويرسلها للوافدين، ويضعونها في الشباك، وهذا من الخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

قوله: (**رَأَى رَجُلًا يُكْثِرُ الِاخْتِلَافَ إِلَى قَبْرِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). أي: يتردد على قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب، روى هذا الحديث عن جده رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**صَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي**»، فاستدل به على هذا الرجل الذي يكرر المجيء لقبر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: لا حاجة إلى أن تأتي وقصدك الصلاة والسلام على الرسول، ففي أي مكان سيصل إليه سلامك وصلاتك على صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم قال له: (**فَمَا أَنْتِ وَرَجُلٌ بِالْأَنْدَلُسِ**). الأندلس في الغرب من بلاد أوروبا، وتسمى الآن إسبانيا، وقد كانت في ذلك العهد تحت ولاية المسلمين،

(**مِنْهُ إِلَّا سَوَاءٍ**)، أي: الذي يصلي عليه في الأندلس والذي يصلي عليه في المدينة سواء، كل يبلغ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا حاجة إلى المجيء إلى القبر، وهذا من فقهه رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: (**وَرُوِيَ هَذَا الْمَعْنَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ**). كذلك روي عن الحسن بن علي بن أبي طالب، وروي عن أخيه الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سيدا شباب أهل الجنة[1]، روياه عن جدهما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (**ذَكَرَهُ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ الْمَقْدِسِيُّ الْحَافِظُ فِي مُخْتَارِهِ الَّذِي هُوَ أَصَحُّ مِنْ صَحِيحِ الْحَاكِمِ**). كتاب «الأحاديث المختارة» للضياء المقدسي بن عبدالواحد الحنبلي كتاب جيد، **يقول الشيخ هنا**: (**هُوَ أَصَحُّ مِنْ صَحِيحِ الْحَاكِمِ**)؛ لأن الأحاديث التي فيه منتقاة وجيدة الأسانيد، ولذلك سماها المختارة، وهو مطبوع والحمد لله وموجود.

قوله: (**إِذَا دَخَلْتَ**). إذا دخلت مسجد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصل على الرسول، ولا حاجة إلى أن تذهب إلى قبره، قدم رجلك اليمنى، وقل: بسم الله الرحمن الرحيم، أعوذ بالله العظيم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم، اللهم صلِّ وسلم على محمد، اللهم افتح لي أبواب رحمتك. هذا يكفي.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَتَّخِذُوا بيتِي عِيدًا، وَلَا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُ كُنْتُمْ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ**». الأحاديث

---

(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه أحمد (١٧/ ٣١)، والترمذي (٣٧٦٨).

تضافرت في هذا، لاسيما عن سبطي الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في أنه لا حاجة للذهاب للقبر من أجل الصلاة والسلام على الرسول، فصلِّ عليه في أي مكان؛ لأن التردد يفضي إلى الغلو، فلذلك نُهي عنه، فهو من اتخاذ قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عيدًا.

قوله: (وَمِمَّا يُوهِنُ هَذِهِ الحِكَايَةَ). هي الحكاية المنسوبة للإمام مالك مع أبي جعفر المنصور أنه لما سأله هل يستقبل القبلة في الدعاء، أو يستقبل قبر الرسول؟ قال له مالك: «ولم تصرف عنه وجهك وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم».

هذه الحكاية مكذوبة كما قرر الشيخ، وأطال في ردها وإبطالها، ولا يمكن أن تصدق عن الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ من عدة وجوه ذكرها الشيخ، منها هذا الوجه.

قوله: (إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ يَتَوَسَّلُ النَّاسُ بِشَفَاعَتِهِ). انتهى من إبطال سندها، وأنها مكذوبة على الإمام مالك، ثم قال: لو صحت، فليس معناها أن هذا في الدنيا، وإنما هذا في الآخرة، (وَسِيلَتُكَ وَوَسِيلَةُ أَبِيكَ آدَمَ) أي: بعد البعث يوم القيامة حينما يأتي الناس إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطلبون منه الشفاعة في أن يفصل الله بينهم، ويريحهم من الموقف، وهي الشفاعة العظمى، فلو كان السند قويًّا فُسر بهذا، ولكنها مكذوبة على مالك كما قرر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: (وَهَذَا حَقٌّ كَمَا تَوَاتَرَتْ بِهِ الأَحَادِيثُ). فكانوا يتوسلون بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو حي يطلبون منه الدعاء والاستغفار، وأما بعد موته فلم

يفعلوا هذا، وكذلك يطلبون منه ذلك يوم القيامة؛ لأنه حي ﷺ، وطلب الدعاء والاستغفار من الحي الحاضر مشروع.

قوله: (لَكِنْ إِذَا كَانَ النَّاسُ يَتَوَسَّلُونَ بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، كَمَا كَانَ أَصْحَابُهُ يَتَوَسَّلُونَ بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ فِي حَيَاتِهِ). تقدم أنه ليس المقصود التوسل بشخصه أو بذاته؛ لأن هذا معناه الإقسام به على الله، وهذا لا يجوز، وإنما المراد التوسل بدعائه ﷺ.

قوله: (فَنَظِيرُ هَذَا لَوْ كَانَتِ الحِكَايَةُ صَحِيحَةً أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ الدُّعَاءَ وَالشَّفَاعَةَ فِي الدُّنْيَا عِنْدَ قَبْرِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا لَمْ يَأْمُرْ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَلَا سَنَّهُ لِأُمَّتِهِ، وَلَا فَعَلَهُ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ). أما أن القصة تدل على فعل ذلك عند قبره، فهذا باطل؛ لأن هذا شيء لم يفعله الصحابة عند قبره ﷺ، وهم أعلم الأمة بما ثبت عن الرسول ﷺ، وأعلم الأمة بشريعة الله التي تلقوها عن نبيه ﷺ، وفعلهم حجة، وتركهم هذا يدل على أنه لا يجوز، حتى لما أجدبوا لم يذهبوا إلى القبر ويقولوا: يا رسول الله، ادع الله أن يسقينا. كما كانوا يقولون ذلك في حياته ﷺ، وإنما طلبوا من العباس؛ لأنه معهم حاضر حي، وعدلوا عن الرسول ﷺ، فدل على أن الرسول بعد موته لا يُطلب منه شيء.

قوله: (وَلَا اسْتَحَبَّهُ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ لَا مَالِكٌ وَلَا غَيْرُهُ مِنَ الأَئِمَّةِ). لم يستحسنه أحد من الأئمة بعد الصحابة رضي الله عنهم والتابعين، لا الإمام أبو حنيفة، ولا الإمام مالك، ولا الإمام الشافعي، ولا الإمام أحمد،

ولا الأوزاعي، ولا الثوري، وغيرهم من الأئمة، وهم الحجة والقدوة، وليست الحجة بالخرافيين والجهال.

قوله: (فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى مَالِكٍ مِثْلُ هَذَا الكَلَامِ الَّذِي لَا يَقُولُهُ إِلَّا جَاهِلٌ لَا يَعْرِفُ الأَدِلَّةَ الشَّرْعِيَّةَ وَلَا الأَحْكَامَ المَعْلُومَةَ بِأَدِلَّتِهَا الشَّرْعِيَّةِ...).
الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أشد الناس محاربة للبدعة، ومن أشدهم تمسكًا بالسنة، هذا هو الثابت عنه، فلا يليق أن تثبت هذه الحكاية عنه؛ لأنها تخالف منهجه المعروف عنه.

قوله: (فَلَوْ لَمْ يَكُنْ عَنْ مَالِكٍ قَوْلٌ يُنَاقِضُ هَذَا لَعُلِمَ أَنَّهُ لَا يَقُولُ مِثْلَ هَذَا). فهي باطلة من وجهين: الأول: أن أقوال مالك تعارض هذه الحكاية المأثورة عنه. والثاني: أن هذا لا يليق بمقام مالك، فهو من أشد الناس تمسكًا بالسنة، ونهيًا عن البدعة.

ثُمَّ قَالَ فِي الحِكَايَةِ: (اسْتَقْبِلْهُ وَاسْتَشْفِعَ بِهِ فَيُشَفِّعَكَ اللهُ). والاسْتِشْفَاعُ بِهِ مَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ: أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ الشَّفَاعَةَ كَمَا يَسْتَشْفِعُ النَّاسُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَكَمَا كَانَ أَصْحَابُهُ يَسْتَشْفِعُونَ بِهِ.

وَمِنْهُ الحَدِيثُ الَّذِي فِي السُّنَنِ أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! جَهِدَتِ الأَنْفُسُ وَجَاعَ العِيَالُ، وَهَلَكَ المَالُ، فَادْعُ اللهَ لَنَا فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ باللهِ عَلَيْكَ وَنَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ. فَسَبَّحَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، وَقَالَ: «وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟ شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ»(١). وَذَكَرَ تَمَامَ الحَدِيثِ.

فَأَنْكَرَ قَوْلَهُ: (نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ). وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يُنْكَرُ أَنْ يُسْأَلَ المَخْلُوقُ باللهِ أَوْ يُقْسَمُ عَلَيْهِ باللهِ، وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ اللهُ شَافِعًا إِلَى المَخْلُوقِ، وَلِهَذَا لَمْ يُنْكِرْ قَوْلَهُ: (نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ)، فَإِنَّهُ هُوَ الشَّافِعُ المُشَفَّعُ.

الشَّرْح

قوله: (ثُمَّ قَالَ فِي الحِكَايَةِ). أي: التي نُسبت إليه أنه قال للمنصور: (اسْتَقْبِلْهُ) أي: القبر (وَاسْتَشْفِعَ بِهِ فَيُشَفِّعَكَ اللهُ). هل هذا يقوله مالك؟!

قوله: (وَكَمَا كَانَ أَصْحَابُهُ يَسْتَشْفِعُونَ بِهِ). في حياته.

قوله: (وَمِنْهُ الحَدِيثُ الَّذِي فِي السُّنَنِ...). هذا الحديث في كتاب التوحيد

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٦)، والبزار (٨/ ٣٥٤)، والطبراني في الكبير (١٥٤٧)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣١٧) من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بوب عليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (بابٌ لا يُستشفع بالله على أحد من خلقه) وذكر هذا الحديث(١).

وكون الأعرابي طلب من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو الله لهم بالسقيا، هذا لا بأس به، وقد كان الصحابة يطلبون من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أجدبوا أن يدعو الله لهم، وكونه يقول: «وَنَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ»؛ لأنه يُستشفع بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الله في حياته، بمعنى: أنه يُطلب منه الدعاء، والدعاء شفاعة. إنما الإنكار على قوله: «نَسْتَشْفِعُ باللهِ عَلَيْكَ»؛ لأنه جعل الله واسطة يتوسل بها، والمستشفع به أعظم من المستشفع إليه، فجعل الرسول أعظم من الله، فهذا فيه تنقص لله جَلَّ وَعَلَا، فغضب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى سبح وكرر التسبيح؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا أعجبه شيئًا سبح، وإذا استنكر شيئًا سبح؛ تنزيهًا لله سبحانه، فتسبيحه في هذه الحالة تنزيه لله عن مقالة هذا الأعرابي الذي جعل الله واسطة إلى الرسول، وشفيعًا عند الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهل هذا يليق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

فهذا فيه إنكار المنكر، وتنزيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفيه تعليم الجاهل إذا وقع في شيء يخل بالعقيدة، فلا يُسكت عنه، بل يُبين له، ويُغلظ عليه إذا كان الأمر غليظًا شديدًا؛ حتى ينزجر ويكف عن هذا الشيء.

قوله: (وَإِنَّمَا أَنْ يُكَونَ اللهُ شَافِعًا إِلَى المَخْلُوقِ). الجملة هذه هي التي استنكرها الرسول: (نَسْتَشْفِعُ باللهِ عَلَيْكَ)، أما بقية الحديث فكل ألفاظه صحيحة، وتتوافق مع الأحاديث الأخرى.

---

(١) انظر: كتاب التوحيد (ص١٤٥).

قوله: (وَلِهَذَا لَمْ يُنْكِرْ قَوْلَهُ: نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ). أي: نطلب منك الدعاء؛ لأنهم كانوا يستشفعون بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدنيا في حياته، وفي الآخرة.

قوله: (فَإِنَّهُ هُوَ الشَّافِعُ الْمُشَفَّعُ). عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وغرض الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من إيراد هذا الحديث أن يبطل الحكاية المنسوبة إلى الإمام مالك مع أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي، وهذه الحكاية سبق أنها باطلة، وفيها ألفاظ لا يليق أن تصدر من الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ.

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا شك أنه شافع مشفع، ولكنه لا يملك الشفاعة، بل الشفاعة لله، والشفاعة معناها: أنه يدعو الله جَلَّ وَعَلَا للشخص الذي يطلب منه الدعاء، فمعناها أن الرسول يدعو الله، وليس معناها أنه يملك الشفاعة، فلا تُطلب منه الشفاعة خصوصًا بعد موته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه بعد موته لا يُطلب منه شيء، لا الدعاء ولا الشفاعة، وإنما هذا في حياته في الدنيا، وفي حياته يوم القيامة.

وَهُمْ لَوْ كَانَتِ الحِكَايَةُ صَحِيحَةً إِنَّمَا يَجِيئُونَ إِلَيْهِ لِأَجْلِ طَلَبِ شَفَاعَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلِهَذَا قَالَ فِي تَمَامِ الحِكَايَةِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ الآية [النساء:٦٤]، وَهَؤُلَاءِ إِذَا شُرِعَ لَهُمْ أَنْ يَطْلُبُوا مِنْهُ الشَّفَاعَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ بَعْدَ مَوْتِهِ فَإِذَا أَجَابَهُمْ فَإِنَّهُ يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ، وَاسْتِغْفَارُهُ لَهُمْ دُعَاءٌ مِنْهُ وَشَفَاعَةٌ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ.

وَإِذَا كَانَ الاسْتِشْفَاعُ مِنْهُ طَلَبَ شَفَاعَتِهِ، فَإِنَّمَا يُقَالُ فِي ذَلِكَ: اسْتَشْفِعْ بِهِ فَيُشَفِّعَهُ اللهُ فِيكَ، لَا يُقَالُ: فَيُشَفِّعُكَ اللهُ فِيهُ. وَهَذَا مَعْرُوفُ الكَلَامِ، وَلُغَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ وَسَائِرِ العُلَمَاءِ، يُقَالُ: شَفَعَ فُلَانٌ فِي فُلَانٍ فَشَفَعَ فِيهِ. فَالمُشَفَّعُ الَّذِي يُشَفِّعُهُ المَشْفُوعُ إِلَيْهِ هُوَ الشَّفِيعُ المُسْتَشْفَعُ بِهِ، لَا السَّائِلُ الطَّالِبُ مِنْ غَيْرِهِ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ، فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ الَّذِي يَشْفَعُ، فَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الشَّفِيعُ المُشَفَّعُ، لَيْسَ المُشَفَّعُ الَّذِي يُسْتَشْفَعُ بِهِ. وَلِهَذَا يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: يَا رَبِّ شَفِّعْنِي، فَيُشَفِّعُهُ اللهُ، فَيَطْلُبُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يُشَفِّعَهُ لَا أَنْ يُشَفِّعَ طَالِبِي شَفَاعَتِهِ، فَكَيْفَ يَقُولُ: وَاسْتَشْفِعْ بِهِ فَيُشَفِّعَكَ اللهُ؟!

الشَّرْح

قوله: (إِنَّمَا يَجِيئُونَ إِلَيْهِ لِأَجْلِ طَلَبِ شَفَاعَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). طلب الدعاء والشفاعة بمعنى: الدعاء، وهذا جائز في حياة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا قال في المنافقين: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾، هذا في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، فلو أنهم بعد الجريمة التي حصلت منهم، وهي: أنهم يريدون أن

يتحاكموا إلى الطاغوت، ويعرضوا عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لو أنهم تابوا، وندموا من فعلتهم، وجاؤوا إلى الرسول يطلبون منه الاستغفار، كما يطلبون منه الدعاء بالغيث وحاجاتهم، فهذا أمر لا بأس به، وقوله: ﴿جَآءُوكَ﴾ أي: في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: **(وَهَؤُلَاءِ إِذَا شُرِعَ لَهُمْ أَنْ يَطْلُبُوا مِنْهُ الشَّفَاعَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ بَعْدَ مَوْتِهِ)**. أي: بعد موته لا يمكن أن يُطلب منه شيء، لا استغفار ولا غيره؛ بدليل أن الصحابة لم يكونوا يأتون إلى قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقولون: ادع الله لنا، استغفر الله لنا، أو ما شابه ذلك. وهم أعلم الأمة بما يجوز وما يُمنع، وهم القدوة لمن جاء بعدهم، فلما لم يأتوا إلى قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطلبون منه الدعاء كما كانوا يفعلون ذلك في حياته دل على أن ذلك لا يجوز.

قوله: **(وَإِذَا كَانَ الاسْتِشْفَاعُ مِنْهُ طَلَبَ شَفَاعَتِهِ، فَإِنَّمَا يُقَالُ فِي ذَلِكَ: اسْتَشْفِعْ بِهِ فَيُشَفِّعَهُ اللهُ فِيكَ لَا يُقَالُ: فَيُشَفِّعُكَ اللهُ فِيهُ)**. كما جاء في لفظ الحكاية، **(فَيُشَفِّعُكَ اللهُ)** أي: أن مالكًا قال ذلك لأبي جعفر، والعكس هو المطلوب أن الله يشفعه فيك، لا أن يشفعك الله فيه، كما جاءت هذه اللفظة في الحكاية، فهذا دليل على أنها باطلة لا تليق بالإمام مالك.

قوله: **(وَهَذَا مَعْرُوفُ الكَلَامِ، وَلُغَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ وَسَائِرِ العُلَماءِ)**. أي: أنهم يقولون: يشفعه الله فيك، ولا يقولون: يشفعك الله فيه. هذا ليس من لغة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا من لغة أصحابه.

قوله: (يُقَالُ: شَفَعَ فُلَانٌ فِي فُلَانٍ فَشَفَعَ فِيهِ. فَالْمُشَفَّعُ الَّذِي يُشَفِّعُهُ الْمَشْفُوعُ إِلَيْهِ هُوَ الشَّفِيعُ الْمُسْتَشْفَعُ بِهِ). هذه لغة الرسول ﷺ ولغة العرب أن تقول: يشفعه الله فيك، ولا يُقال: يشفعك الله فيه.

قوله: (لَا السَّائِلُ الطَّالِبُ مِنْ غَيْرِهِ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ). أما الطالب السائل، فلايُقال: يشفعك الله فيه، كيف يُقال: يشفعك الله، وأنت تطلب منه الشفاعة؟ فدل هذا على أن هذه الحكاية باطلة.

قوله: (فَيَطْلُبُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يُشَفِّعَهُ لَا أَنْ يَشْفَّعَ طَالِبَي شَفَاعَتِهِ). أي: الله يشفع الشافع، ولا يشفع المشفوع فيه الذي هو السائل الطالب، فهذا العكس.

قوله: (فَكَيْفَ يَقُولُ: وَاسْتَشْفِعْ بِهِ فَيُشَفِّعَكَ اللهُ؟). هذه اللفظة جاءت في الحكاية، فدل على أنها باطلة.

وَأَيْضًا: فَإِنَّ طَلَبَ شَفَاعَتِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ وَعِنْدَ قَبْرِهِ لَيْسَ مَشْرُوعًا عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا ذَكَرَ هَذَا أَحَدٌ مِنَ الأَئِمَّةِ الأَرْبَعَةِ وَأَصْحَابِهِمُ الْقُدَمَاءِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ هَذَا بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ؛ ذَكَرُوا حِكَايَةً عَنِ الْعُتْبِيِّ أَنَّهُ رَأَى أَعْرَابِيًّا أَتَى قَبْرَهُ وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ، وَأَنَّهُ رَأَى فِي الْمَنَامِ أَنَّ اللهَ غَفَرَ لَهُ[1].

وَهَذَا لَمْ يَذْكُرْهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ الْمَتْبُوعِينَ الَّذِينَ يُفْتِي النَّاسُ بِأَقْوَالِهِمْ، وَمَنْ ذَكَرَهَا لَمْ يَذْكُرْ عَلَيْهَا دَلِيلًا شَرْعِيًّا.

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَوْ كَانَ طَلَبُ دُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ عِنْدَ قَبْرِهِ مَشْرُوعًا، لَكَانَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ أَعْلَمَ بِذَلِكَ وَأَسْبَقَ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَلَكَانَ أَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ يَذْكُرُونَ ذَلِكَ.

وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ مَالِكٌ: لَا يُصْلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا. قَالَ: وَلَمْ يَبْلُغْنِي عَنْ أَوَّلِ هَذِهِ الأُمَّةِ وَصَدْرِهَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ. فَمِثْلُ هَذَا الإِمَامِ كَيْفَ يُشَرِّعُ دِينًا لَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ، وَيَأْمُرُ الأُمَّةَ بِأَنْ يَطْلُبُوا الدُّعَاءَ وَالشَّفَاعَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ بَعْدَ مَوْتِ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مِنْهُمْ عِنْدَ قُبُورِهِمْ، وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَفْعَلْهُ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الأُمَّةِ؟

---

(١) هذه الحكاية ذكرها بعضهم عن العتبي بلا إسناد، وممن ذكرها: القرافي في الذخيرة (٣/ ٣٧٥)، والماوردي في الحاوي (٤/ ٢١٤)، والنووي في الأذكار (ص١٦٣)، وابن قدامة في المغني (٣/ ٤٧٨). وبعضهم يرويها عن محمد بن حرب الهلالي، وبعضهم يرويها عن محمد بن حرب عن أبي الحسن الزعفراني عن الأعرابي.
وقد ذكرها البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٩٥) بإسناد مظلم عن محمد بن روح بن يزيد البصري: حدثني أبو حرب الهلالي ... ثم ذكر نحو هذه الحكاية. وقد وضع لها بعض الكذابين إسنادًا إلى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشَّرح

قوله: (وَأَيْضًا: فَإِنَّ طَلَبَ شَفَاعَتِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ وَعِنْدَ قَبْرِهِ لَيْسَ مَشْرُوعًا عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ). هو يُطلب منه الشفاعة والدعاء في حياته، ويُستفتى، ويُسأل في حياته، ويُسأل منه المال أيضًا، كل هذا جائز في حياة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه حي قادر على ما يُطلب منه، أما بعد موته فلا يُطلب منه شيء عند قبره، وإنما يُسلم عليه فقط، هذا هو الذي عليه المسلمون. أما الخرافيون فإنهم عملوا أشياء لا تليق بمقام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته، وطلبوا منه أشياء لا تُطلب منه، وإنما تُطلب من الله جَلَّ وَعَلَا الحي الذي لايموت، أما الميت فلا يُطلب منه شيء لا الأنبياء، ولا الأولياء ولا غيرهم.

وقوله: (لَيْسَ مَشْرُوعًا عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ) عمومًا، وأما أنه عند الخرافيين فمشروع، وهؤلاء لا عبرة بهم، إنما العبرة بأئمة المسلمين، لا أحد منهم يقول بجواز أن يؤتى عند القبر، ويُدعى الله عند القبر، ويُطلب من الرسول الشفاعة، هذا لا أصل له في دين الإسلام، فكيف ينسب للإمام مالك أنه قال لأبي جعفر أن يتوجه إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويطلب منه الشفاعة والوسيلة؛ لأنه وسيلته ووسيلة آدم؟! هذا كله من الخرافات، لا يقول ذلك مالك ولا غيره من أئمة الإسلام. ومالك رَحِمَهُ اللَّهُ من أشد الناس حفاظًا على العقيدة والتوحيد والاتباع والاقتداء.

قوله: (وَلَا ذَكَرَ هَذَا أَحَدٌ مِنَ الأَئِمَّةِ الأَرْبَعَةِ وَأَصْحَابِهِمُ القُدَمَاءِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ هَذَا بَعْضُ المُتَأَخِّرِينَ). الأئمة الأربعة: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، هؤلاء هم الأئمة الأربعة الذين بقيت مذاهبهم، وأتباعهم القدامى الذين يسيرون على منهجهم، لم يذكروا هذا، أما المتأخرون من أتباع المذاهب الأربعة قد يكون عند بعضهم شيء من الخرافات، ولا ينفعهم كونهم ينتسبون إلى الأئمة، ولا عبرة بذلك، ولا يُقال: هذا قول الحنابلة، أو هذا قول الحنفية أو المالكية، وإنما هذا قول المتأخرين أما أصحاب المذاهب المعروفين، أما أئمة المذاهب فلا يمكن أن يقولوا هذا.

قوله: (ذَكَرُوا حِكَايَةً عَنِ الْعُتْبِيِّ). انتهى من الحكاية المنسوبة إلى مالك، وأطال فيها رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم ذكر الحكاية الثانية التي يتعلقون بها، والخرافيون يتعلقون إما بالحكايات، وإما بالأدلة الضعيفة أو الموضوعة، وإما بالمنامات والرؤى، وإما بحصول الشيء الذي طلبوه، وهو من باب الاستدراج لهم، لا من باب تصويبهم في ذلك، فهذه عمدتهم:

- إما حكايات لا يُستند عليها، ولا أصل لها، ولو ثبتت لم تكن حجة، إنما الحجة في الكتاب والسنة.

- وإما أحاديث لا يُحتج بها؛ لأنها موضوعة أو ضعيفة شديدة الضعف.

- وإما منامات ورؤى، رُئي فلان في محل كذا، وفلان رآه فلان، وقال له: كذا وكذا، والرؤى لا يُعتمد عليها، ولا يؤسس عليها أحكام شرعية.

- وإما أن يقولوا: فلان دعا واستجيب له، فيستدلون بحصول المطلوب، وهذا ليس دليلًا، فقد يحصل المطلوب من باب الاستدراج للشخص، وقد يوافق قضاءً وقدرًا، وقد يكون السائل مضطرًا، والله جَلَّ وَعَلَا يجيب المضطر إذا دعاه، فحصول الشيء ليس دليلًا على جوازه أبدًا.

وقوله: (ذَكَرُوا حِكَايَةً عَنِ الْعُتْبِيِّ). العتبي مجهول، هذا أول شيء. ثانيًا: يقول: «كنت جالسًا عند قبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فجاء أعرابي». هل يجوز الجلوس عند قبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ وهو يقول: «**لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا**»؟ لا يجوز الجلوس عند قبر النبي، وإنما يمر مُسلِّمًا ويذهب.

قوله: (أَنَّهُ رَأَى أَعْرَابِيًّا أَتَى قَبْرَهُ وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ). قرأ هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤]، ثم طلب من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يستغفر له عملًا بظاهر هذه الآية دون أن يفهم أن المقصود منها في حياته لا بعد موته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثم لما ذهب نام العتبي، فزعم أن الرسول جاءه في المنام، وقال له: أدرك الأعرابي، وأخبره أن الله قد غفر له.

هذا حاصل الحكاية، وهي مجهولة، وأسانيدها منقطعة مظلمة كما ذكر العلماء، ولو صحت لا يُحتج بها؛ لأنها ليست نصًّا من الكتاب أو السنة، ولا من عمل السلف الصالح، إنما هي عمل أعرابي، والذي يقول هذا العتبي، أو رجل مجهول آخر، وفيها انقطاع في السند؛ حتى قال الحافظ ابن عبد الهادي في رده على السبكي: «وفي الجملة ليست هذه الحكاية المذكورة عن الأعرابي مما يقوم به حجة، وإسنادها مظلم مختلف، ولفظها مختلف أيضًا، ولو كانت

ثابتة لم يكن فيها حجة، ولا يصلح الاحتجاج بمثل هذه الحكاية ولا الاعتماد على مثلها عند أهل العلم»[١].

رأى العتبي في المنام من قال له: أدرك الأعرابي فبشره أن الله غفر له.

قوله: (وَهَذَا لَمْ يَذْكُرْهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ الْمَتْبُوعِينَ).

هذه الحكاية مع الأسف ذُكرت في بعض الكتب التي هي محل ثقة، مثل: «المغني»[٢] لابن قدامة عند زيارة قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومثل: «تفسير ابن كثير»[٣] ذكرها عند تفسير الآية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾، ولم يعلق عليها، وإنما مجرد ذكرها مثل ما يذكر الإسرائيليات، فابن كثير يذكر ما وردت به الأخبار، وأحيانًا لا يعلق عليها، وذكره لها لا يدل على أنه يراها، وذكرها غيرهما من المؤلفين، ولكن هذا لا يجعلها محل ثقة، ولا يجعلها صحيحة وإن ذكروها، ولو صحت فليس فيها دليل؛ لأنها ليست آية، ولا حديثًا، ولا فعل أحد من الأئمة، بل هي فعل أعرابي، والأعراب عندهم من الجهل أكثر من هذا، ثم إنها -أيضًا- فيها رؤيا للعتبي، والرؤى والمنامات لا يُبنى عليها شرع، فقد يكون الذي جاء للعتبي في المنام شيطان؛ لأجل الفتنة، من يقول إنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

قوله: (مِنْ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ الْمَتْبُوعِينَ الَّذِينَ يُفْتِي النَّاسُ بِأَقْوَالِهِمْ). الأئمة المعروفون بالفقه والعلم، وتحقيق العقيدة، كالأئمة الأربعة، والأوزاعي، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من الأئمة المتبوعين، وسفيان الثوري.

---

(١) الصارم المنكي (ص٣٣٧).

(٢) انظر: المغني (٣/ ٤٧٨).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٢١).

قوله: (**وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَوْ كَانَ طَلَبُ دُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ عِنْدَ قَبْرِهِ مَشْرُوعًا، لَكَانَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ أَعْلَمَ بِذَلِكَ وَأَسْبَقَ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِهِمْ**). مما يدل على بطلان هذه الحكاية: أنها مخالفة لما عليه الصحابة والتابعون الذين اتبعوهم بإحسان، فإنهم لم يكونوا يفعلون مثل فعل هذا الأعرابي، ويأتون عند قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطلبون منه الاستغفار، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه؛ لأنهم أحرص منا على الخير، وأعرف منا بما يُشرع.

قوله: (**وَلَكَانَ أَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ يَذْكُرُونَ ذَلِكَ**). ويحثون على المجيء إلى قبره، وطلب الحوائج منه، ولم يوجد شيء من من ذلك في كلامهم أبدًا، وإنما هذا من كلام المخرفين الذين لا عبرة بهم.

قوله: (**وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ مَالِكٌ: لَا يُصْلِحُ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا**). إذا كان أول هذه الأمة لا يأتون إلى القبر يطلبون من الرسول الدعاء أو الاستغفار، فلا يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.

قوله: (**قَالَ: وَلَمْ يَبْلُغْنِي عَنْ أَوَّلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَصَدْرِهَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ**). يقول مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: لم يبلغني عن صدر هذه الأمة أنهم كانوا يفعلون ذلك، أي: يأتون عند القبر يدعون الله جَلَّ وَعَلَا، أو يطلبون من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو لهم، فهذا أمر مبتدع لا يجوز.

قوله: (**فَمِثْلُ هَذَا الإِمَامِ كَيْفَ يُشَرِّعُ دِينًا لَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ؟**). رجع إلى أصل القصة مع أبي جعفر المنصور، فإذا كان هذا الإمام الجليل مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه المثابة، ويقول: (لَا يُصْلِحُ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا مَا

أَصْلَحَ أَوَّلَهَا). ويقول: (وَلَمْ يَبْلُغْنِي عَنْ أَوَّلِ هَذِهِ الأُمَّةِ وَصَدْرِهَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ)، فكيف يقول لأبي جعفر المنصور: (وَلِمَ تَصْرِفُ وَجْهَكَ عَنْهُ وَهُوَ وَسِيلَتُكَ وَوَسِيلَةُ أَبِيكَ آدَمَ).

قوله: (**وَيَأْمُرُ الأُمَّةَ بِأَنْ يَطْلُبُوا الدُّعَاءَ وَالشَّفَاعَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ بَعْدَ مَوْتِ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ مِنْهُمْ عِنْدَ قُبُورِهِمْ**). لا يمكن أن يقول الإمام مالك هذا أبدًا، فهو من أبعد الناس عن هذا، فدل على أن هذه الحكاية مكذوبة.

وَلَكِنَّ هَذَا اللَّفْظَ الَّذِي فِي الحِكَايَةِ يَشْبِهُ لَفظَ كَثِيرٍ مِنَ العَامَّةِ الَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَ لَفظَ الشَّفَاعَةِ فِي مَعْنَى التَّوَسُّلِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَشْفِعُ إِلَيْكَ بِفُلَانٍ وَفُلَانٍ، أَيْ: نَتَوَسَّلُ بِهِ. وَيَقُولُونَ لِـمَنْ تَوَسَّلَ فِي دُعَائِهِ بِنَبِيٍّ أَوْ غَيْرِهِ: قَدْ تَشَفَّعَ بِهِ. مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ الْمُسْتَشْفَعُ بِهِ شَفَعَ لَهُ وَلَا دَعَا لَهُ، بَلْ وَقَدْ يَكُونُ غَائِبًا لَمْ يَسْمَعْ كَلَامَهُ وَلَا شَفَعَ لَهُ.

وَهَذَا لَيْسَ هُوَ لُغَةُ النَّبِيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ وَعُلَمَاءِ الأُمَّةِ، بَلْ وَلَا هُوَ لُغَةُ العَرَبِ، فَإِنَّ الاسْتِشْفَاعَ طَلَبُ الشَّفَاعَةِ، وَالشَّافِعُ هُوَ الَّذِي يَشْفَعُ لِلسَّائِلِ فَيَطْلُبُ لَهُ مَا يُطْلَبُ مِنَ الْمَسْؤُولِ الْمَدْعُوِّ الْمَشْفُوعِ إِلَيْهِ.

وَأَمَّا الاسْتِشْفَاعُ بِمَنْ لَمْ يَشْفَعْ لِلسَّائِلِ وَلَا طَلَبَ لَهُ حَاجَةً بَلْ وَقَدْ لَا يَعْلَمُ بِسُؤَالِهِ، فَلَيْسَ هَذَا اسْتِشْفَاعًا لَا فِي اللُّغَةِ وَلَا فِي كَلَامِ مَنْ يَدْرِي مَا يَقُولُ.

نَعَمْ هَذَا سُؤَالٌ بِهِ وُدعَاءٌ بِهِ، لَيْسَ هُوَ اسْتِشْفَاعًا بِهِ، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ لَمَّا غَيَّرُوا اللُّغَةَ كَمَا غَيَّرُوا الشَّرِيعَةَ وَسَمَّوْا هَذَا اسْتِشْفَاعًا -أَيْ: سُؤَالًا بِالشَّافِعِ- صَارُوا يَقُولُونَ: اسْتَشْفِعْ بِهِ فَيُشَفِّعَكَ. أَيْ: يُجِيبُ سُؤَالُكَ بِهِ، وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ هَذِهِ الحِكَايَةَ وَضَعَهَا جَاهِلٌ بِالشَّرْعِ وَاللُّغَةِ، وَلَيْسَ لَفْظُهَا مِنْ أَلْفَاظِ مَالِكٍ.

نَعَمْ، قَدْ يَكُونُ أَصْلُهَا صَحِيحًا، وَيَكُونُ مَالِكٌ قَدْ نَهَى عَنْ رَفْعِ الصَّوْتِ فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ اتِّبَاعًا لِلسُّنَّةِ، كَمَا كَانَ عُمَرُ يَنْهَى عَنْ رَفْعِ الصَّوْتِ فِي مَسْجِدِهِ[١]، وَيَكُونُ مَالِكٌ أَمَرَ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنْ تَعْزِيزِهِ وَتَوْقِيرِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَلِيقُ بِمَالِكٍ أَنْ يَأْمُرَ بِهِ.

(١) كما في الأثر عن السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ، قَالَ: «كُنْتُ قَائِمًا فِي المَسْجِدِ فَحَصَبَنِي رَجُلٌ، فَنَظَرْتُ، =

وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ لُغَةَ الصَّحَابَةِ الَّتِي كَانُوا يَتَخَاطَبُونَ بِهَا وَيُخَاطِبُهُمْ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ وَعَادَتَهُمْ فِي الكَلَامِ، وَإِلَّا حَرَّفَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ.

الشَّرْح

قوله: (**وَلَكِنَّ هَذَا اللَّفْظَ الَّذِي فِي الحِكَايَةِ يَشْبِهُ لَفظَ كَثِيرٍ مِنَ العَامَّةِ الَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَ لَفظَ الشَّفَاعَةِ فِي مَعْنَى التَّوَسُّلِ**). أي: هؤلاء الجهال أو المخرفون لايفرقون بين الشفاعة والتوسل، الشفاعة ثابتة، ولكنها تُطلب من الحي الحاضر، ولا تُطلب من الغائب أو من الميت، أما التوسل بذوات الأشخاص أو بأعمالهم أو بصلاحهم، فلم يثبت أبدًا.

قوله: (**وَيَقُولُونَ لِمَنْ تَوَسَّلَ فِي دُعَائِهِ بِنَبِيٍّ أَوْ غَيْرِهِ: قَدْ تَشَفَّعَ بِهِ**). فرق بين الشفاعة والتوسل، الشفاعة ثابتة بشروطها، كما ذكر الله جَلَّوَعَلَا، وأما التوسل بالأشخاص فلا أصل له، وهو من التوسل الممنوع، أما التوسل المشروع، فإنما يكون بأسماء الله وصفاته، أو بأعمال العبد التي تقرب بها إلى الله، فيسأل الله بها، أو بدعاء الرجل الصالح فيطلب منه أن يدعو الله له وهو حاضر عنده، هذا التوسل المشروع، ولا يُسمى هذا توسلًا بالأشخاص، وإنما هو بالأعمال الصالحة، أو بدعاء من الصالحين أو شفاعتهم عند الله له، هذا هو المطلوب.

=فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، فَقَالَ: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِهَذَيْنِ، فَجِئْتُهُ بِهِمَا، قَالَ: مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا؟ قَالَا: مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ، قَالَ: لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ البَلَدِ لَأَوْجَعْتُكُمَا، تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ». أخرجه البخاري (٤٧٠).

وقولهم لمن توسل: (قَدْ تَشَفَّعَ بِهِ) هذا غلط، لا يجوز أن يُسمى التوسل شفاعة أبدًا، فالتوسل بالأشخاص لا يجوز، أما طلب الشفاعة من الأشخاص الصالحين الحاضرين -ومعناه طلب الدعاء منهم- فهذا مشروع.

قوله: **(مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ الْمُسْتَشْفَعُ بِهِ شَفَعَ لَهُ وَلَا دَعَا لَهُ، بَلْ وَقَدْ يَكُونُ غَائِبًا لَمْ يَسْمَعْ كَلَامَهُ وَلَا شَفْعَ لَهُ)**. كيف يُقال: إنه تشفع به، وهو لم يشفع له، ولا دعا له؟ وقد يكون لم يسمع كلامه لغيبته أو لموته، فكيف يُقال: إنه تشفع فيه وهو غائب أو ميت، بمعنى أنه دعا أو استغفر له وهو ميت، أو غائب لا يسمعه؟ هذا ما عليه أهل الضلال أنهم لا يفرقون بين الشفاعة الصحيحة، وبين التوسل الممنوع.

قوله: **(وَهَـذَا لَيْسَ هُوَ لُغَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ وَعُلَمَاءِ الْأُمَّةِ)**.ليس في لغة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسمية التوسل بالأشخاص شفاعة، ولا التوسل بالغائبين والأموات شفاعة، كل هذا باطل، ولا في كلام أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا في كلام التابعين، ولا أتباع التابعين لن تجد شيئًا من هذا، وإنما تجده في كلام المتأخرين الذين انتشر فيهم الجهل، وانتشرت فيهم الخرافات، وانتشر دعاة الضلال الذين حشوا الكتب والرسائل بمثل هذه الترهات والأباطيل، وانشغلوا بها عن التوحيد الصحيح، والعمل الصالح، وصاروا يعتمدون على الأموات حتى إنهم لا يقبلون على الله، ولا يهتمون بدعاء الله، ولا يأتون إلى المساجد، وإنما يذهبون إلى المقابر. ومن العجيب أنهم يأتون إلى الحج والعمرة، ولا يذهبون إلى المسجد الحرام أو المسجد النبوي يدعون الله ويصلون، بل تجدهم في المقابر يطلبون ويصرخون، يستشفعون

بالأموات، ويطلبون منهم الحوائج، وهذا بسبب دعاة الضلال، وهذه الكتب الفاتنة التي شُحنت بمثل هذه الأباطيل والترهات، بل كانوا يأتون بها يستصحبونها معهم ويقرؤونها، ولا يلتفتون إلى ما كتبه الأئمة والعلماء والناصحون في صفة الحج والعمرة، بل يحذرون منه. وبلغنا أنهم يمزقون ما يوزع من الكتب النافعة، والرسائل المفيدة، أو يحرقونها، ومعهم دعاة ضلال يحذرونهم منها.

قوله: (**بَلْ وَلَا هُوَ لُغَةُ العَرَبِ**). ليس في كلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا في كلام أصحابه، ولا في لغة العرب أن التوسل بالشخص يسمى تشفعًا به.

قوله: (**فَإِنَّ الاسْتِشْفَاعَ طَلَبُ الشَّفَاعَةِ، وَالشَّافِعُ هُوَ الَّذِي يَشْفَعُ لِلسَّائِلِ فَيَطْلُبُ لَهُ مَا يُطْلَبُ مِنَ المَسْؤُولِ المَدْعُوِّ المَشْفُوعِ إِلَيْهِ**). يشفع، بمعنى: أنه ينضم إلى السائل، فالسائل كان وحده يدعو الله، فجاء الشافع وانضم إليه، ودعا له معه، فصار شفعًا بدل أن كان فردًا.

قوله: (**نَعَمْ هَذَا سُؤَالٌ بِهِ وَدُعَاءٌ بِهِ، لَيْسَ هُوَ اسْتِشْفَاعًا بِهِ**). هذا دعاء به، وسبق لنا أنه لا يتوسل بالأشخاص إلى الله جَلَّ وَعَلَا، لا بالرسل ولا بغيرهم من الأولياء والصالحين؛ لأن معناه أنه يقسم على الله بخلقه.

قوله: (**وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ لَمَّا غَيَّرُوا اللُّغَةَ كَمَا غَيَّرُوا الشَّرِيعَةَ وَسَمَّوْا هَذَا اسْتِشْفَاعًا -أَيْ: سُؤَالًا بِالشَّافِعِ- صَارُوا يَقُولُونَ: اسْتَشْفِعْ بِهِ فَيُشَفِّعَكَ. أَيْ: يُجِيبُ سُؤَالَكَ بِهِ**). هذا الذي ذكروه عن مالك أنه قال لأبي جعفر: (**اسْتَشْفِعْ بِهِ فَيُشَفِّعَكَ**). ما قالوا: «حتى يشفعه الله فيك»، وهذا كله من الجهل حتى بلغة العرب، فضلًا عن الجهل بالأدلة.

قوله: (وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ هَذِهِ الحِكَايَةَ). رجع إلى الحكاية، وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ لايترك الشبهة حتى يوضحها تمامًا ويجليها، ولذلك تجدونه أطال في هذه الحكاية؛ لأنها منسوبة إلى إمام جليل، وموجودة في بعض الكتب التي هي مراجع، وربما يغتر بها الجهلة، فيأخذونها دليلًا يعتمدون عليه، فلذلك أطال في الرد عليها حتى حطمها حرفًا حرفًا.

قوله: (وَضَعَهَا جَاهِلٌ بِالشَّرْعِ وَاللُّغَةِ). جاهل بالشرع فلا يعرف الأحكام الشرعية، وجاهل باللغة فلا يفرق بين التوسل والتشفع.

قوله: (وَلَيْسَ لَفْظُهَا مِنْ أَلْفَاظِ مَالِكٍ). هل يمكن أن تكون ألفاظ هذه الحكاية صادرة عن مالك؟ لا، والله، ما صدرت عن مالك؛ لأن أسلوبها ليس أسلوب الإمام مالك، وإنما أسلوبها أسلوب جاهل خرافي ألصقها بالإمام مالك، وهكذا الخرافيون إذا أرادوا أن تروج شبهاتهم ألصقوها بالأئمة حتى تروج.

قوله: (نَعَمْ، قَدْ يَكُونُ أَصْلُهَا صَحِيحًا). أولها صحيح أنه أنكر على أبي جعفر رفع صوته عند قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (وَيَكُونُ مَالِكٌ قَدْ نَهَى عَنْ رَفْعِ الصَّوْتِ فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتِّبَاعًا لِلسُّنَّةِ). لأن الله قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات:٢]، وهذا في حياته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعد موته، إذا جاء المسلم يسلم عليه يتأدب مع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما يتأدب معه في حياته.

قوله: (كَمَا كَانَ عُمَرُ يَنْهَى عَنْ رَفْعِ الصَّوْتِ فِي مَسْجِدِهِ). عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنكر على رجلين تكلما في مسجد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحصبهما فجاءا إليه، فقال: «مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا؟» قَالَا: مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ، قَالَ: «لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ البَلَدِ لَأَوْجَعْتُكُمَا، تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(١).

قوله: (وَيَكُونُ مَالِكٌ أَمَرَ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنْ تَعْزِيزِهِ وَتَوْقِيرِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَلِيقُ بِمَالِكٍ أَنْ يَأْمُرَ بِهِ). قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ [الأعراف:١٥٧]، أي: وقروه، والتعزير من المتضادات، فيُطلق ويُراد به التوقير، ويُطلق ويُراد به التأديب، ومنه التعزير على المعاصي، فمعنى ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾: وقروه واحترموه، قال تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: الله جَلَّ وَعَلَا ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح:٩]؛ لأنه قال: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، فالرسول له حق التوقير والتعزير، والله له حق التسبيح والإجلال، مثل: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله، ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ لأن الرسول يؤتي -أيضًا- ويعطي المال، ثم قالوا: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة:٥٩]، ولم يقولوا: إنا إلى الله ورسوله راغبون، فهناك فرق بين ما يكون للرسول، وما يكون لله جَلَّ وَعَلَا.

قوله: (وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ لُغَةَ الصَّحَابَةِ الَّتِي كَانُوا يَتَخَاطَبُونَ بِهَا وَيُخَاطِبُهُمْ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَادَتَهُمْ فِي الكَلَامِ، وَإِلَّا حَرَّفَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ).

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

هكذا يجب على طالب العلم أن يعرف لغة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأحاديث، ولغة الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، ولغة الأئمة؛ حتى يعرف ما صدر عنهم، وما نُسب إليهم ولم يصدر عنهم، فيميز بين هذا وهذا.

فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَنْشَأُ عَلَى اصْطِلَاحِ قَوْمٍ وَعَادَتِهِمْ فِي الأَلْفَاظِ، ثُمَّ يَجِدُ تِلْكَ الأَلْفَاظَ فِي كَلَامِ اللهِ أَوْ رَسُولِهِ أَوِ الصَّحَابَةِ، فَيَظُنُّ أَنَّ مُرَادَ اللهِ أَوْ رَسُولِهِ أَوِ الصَّحَابَةِ بِتِلْكَ الأَلْفَاظِ مَا يُرِيدُهُ بِذَلِكَ أَهْلُ عَادَتِهِ وَاصْطِلَاحِهِ، وَيَكُونُ مُرَادُ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالصَّحَابَةِ خِلَافَ ذَلِكَ.

وَهَذَا وَاقِعٌ لِطَوَائِفَ مِنَ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الكَلَامِ وَالفِقْهِ وَالنَّحْوِ وَالعَامَّةِ وَغَيْرِهِمْ، وَآخَرُونَ يَتَعَمَّدُونَ وَضْعَ أَلْفَاظِ الأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ عَلَى مَعَانٍ أُخَرَ مُخَالِفَةٍ لِـمَعَانِيهِمْ، ثُمَّ يَنْطِقُونَ بِتِلْكَ الأَلْفَاظِ مُرِيدِينَ بِهَا مَا يَعْنُونَهُ هُمْ، وَيَقُولُونَ: إِنَّا مُوَافِقُونَ لِلأَنْبِيَاءِ.

وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي كَلَامِ كَثِيرٍ مِنَ الـمَلَاحِدَةِ المُتَفَلْسِفَةِ وَالإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَمَنْ ضَاهَاهُمْ مِنْ مَلَاحِدَةِ المُتَكَلِّمَةِ وَالمُتَصَوِّفَةِ، مِثْلُ: مَنْ وَضَعَ (المُحْدَثَ) وَ(المَخْلُوقَ) وَ(المَصْنُوعَ) عَلَى مَا هُوَ مَعْلُولٌ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ قَدِيمًا أَزَلِيًّا، وَيُسَمِّي ذَلِكَ (الحُدُوثَ الذَّاتِيَّ).

ثُمَّ يَقُولُ: نَحْنُ نَقُولُ: إِنَّ العَالَمَ مُحْدَثٌ، وَهُوَ مُرَادُهُ.

وَمَعْلُومٌ أَنْ لَفظَ المُحْدَثِ بِهَذَا الاِعْتِبَارِ لَيْسَ لُغَةَ أَحَدٍ مِنَ الأُمَمِ، وَإِنَّمَا المُحْدَثُ عِنْدَهِمْ مَا كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ.

وَكَذَلِكَ يَضَعُونَ لَفْظَ (المَلَائِكَةِ) عَلَى مَا يُثْبِتُونَهُ مِنَ العُقُولِ وَالنُّفُوسِ وَقُوَى النَّفْسِ، وَلَفَظَ (الجِنِّ) وَ(الشَّيَاطِينِ) عَلَى بَعْضِ قُوَى النَّفْسِ.

ثُمَّ يَقُولُونَ: نَحْنُ نُثْبِتُ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الأَنْبِيَاءُ، وَأَقَرَّ بِهِ جُمْهُورُ النَّاسِ مِنَ المَلَائِكَةِ وَالجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ.

الشَّرح

قوله: (فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَنْشَأُ عَلَى اصْطِلَاحِ قَوْمٍ وَعَادَتِهِمْ فِي الْأَلْفَاظِ). كثير مع الناس ينشأ مع الجهال والمخرفين، فيظن أن هذا هو الحق، وإذا سمع آية أو حديثًا فسره بما عليه قومه ومجتمعه حسب عاداتهم وتقاليدهم، فيحرف الكلم عن مواضعه، وينزل كلام الله أو كلام الرسول على غير موضعه، فينبغي التفطن لهذا الأمر.

قوله: (فَيَظُنُّ أَنَّ مُرَادَ اللهِ أَوْ رَسُولِهِ أَوِ الصَّحَابَةِ بِتِلْكَ الأَلْفَاظِ مَا يُرِيدُهُ بِذَلِكَ أَهْلُ عَادَتِهِ وَاصْطِلَاحِهِ). لذلك لا يجوز تفسير القرآن إلا بأصول التفسير المعروفة:

- تفسير القرآن بالقرآن.
- تفسير القرآن بالسنة.
- تفسير القرآن بأقوال الصحابة.
- تفسير القرآن بأقوال التابعين.

هذه مصادر التفسير الصحيحة، أما أن يُفسر القرآن بالرأي، أو يُفسر باصطلاحات الناس التي هم عليها، فلا يجوز أن يُحمل عليه كلام الله، وكلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (وَيَكُونُ مُرَادُ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالصَّحَابَةِ خِلَافَ ذَلِكَ). نعم، يكون مخالفًا لما عليه هؤلاء المتأخرون أو المخرفون، وهو يريد أن يفسر كلام الله

لا بكلام الرسول، ولا بقول الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ولا التابعين، ولا الأئمة، وإنما يفسره بما عليه قومه، وهذا غلط كبير.

قوله: (**وَهَذَا وَاقِعٌ لِطَوَائِفَ مِنَ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الكَلَامِ وَالفِقْهِ وَالنَّحْوِ وَالعَامَّةِ وَغَيْرِهِمْ**). لكن الغالب أنه من المتأخرين.

قوله: (**وَآخَرُونَ يَتَعَمَّدُونَ وَضْعَ أَلْفَاظِ الأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ عَلَى مَعَانٍ أُخَرَ مُخَالَفَةٍ لِمَعَانِيهِمْ**).

فالصنف الأول: لم يتعمدوا، ولكن ظنوا أن مراد الله ومراد رسوله ما أدركوا عليه قومهم وتعارفوا عليه، فيفسرون كلام الله وكلام رسوله بعادة قومهم.

أما الصنف الثاني: فيتعمدون والعياذ بالله، فهم يعرفون أن هذا ليس مراد الله ومراد رسوله، ولكنهم يتعمدون تحريف الكلام عن مواضعه؛ لأجل إضلال الناس، ويفسرون القرآن والسنة بغير تفسيرهما تعمدًا وقصدًا لإضلال الناس.

وقوله: (**عَلَى مَعَانٍ أُخَرَ مُخَالَفَةٍ لِمَعَانِيهِمْ**). مثل الذين أولوا الأسماء والصفات عن معانيها الصحيحة إلى معانٍ يعتقدونها هم ويرونها هم، وقد كذبوا على الله ورسوله؛ لأن الله لم يرد هذا، ولا أراده الرسول.

قوله: (**ثُمَّ يَنْطِقُونَ بِتِلْكَ الأَلْفَاظِ مُرِيدِينَ بِهَا مَا يَعْنُونَهُ هُمْ، وَيَقُولُونَ: إِنَّا مُوَافِقُونَ لِلأَنْبِيَاءِ**). وهم ليسوا موافقين لهم.

قوله: (وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي كَلَامِ كَثِيرٍ مِنَ الْمَلَاحِدَةِ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَالإِسْمَاعِيلِيَّةِ). تعمد التحريف والتأويل يوجد في كلام الملاحدة، ولهذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠]، ومن الإلحاد في أسماء الله وصفاته: تفسيرها بغير معناها الصحيح إلى معان اخترعوها واعتقدوها هم، وهذا ما عليه الباطنية من الإسماعيلية، وهم غلاة الشيعة الذين ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر، ويسمون بالإسماعيلية وهم باطنية، والفلاسفة القدامى، والمحدثون الذين يزعمون أنهم يفهمون الأشياء، وأن عندهم فهمًا غير فهم الأنبياء، وغير ذلك مما عليه الفلاسفة قديمًا وحديثًا.

قوله: (وَمَنْ ضَاهَاهُمْ مِنْ مَلَاحِدَةِ الْمُتَكَلِّمَةِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ). الملاحدة المتكلمة الذين يعتمدون على البراهين العقلية، والقواعد المنطقية، ويقدمونها على كلام الله وكلام رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويقولون: لأنها حقائق عقلية، وأما النصوص فهي ظواهر ظنية لا يعتمد عليها، بخلاف القواعد العقلية فإنها يقينية.

وقوله: (وَالْمُتَصَوِّفَةِ) هم الذين يعبدون الله على غير طريقة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وسبق أنهم يقولون: نحن نعرف الحق، ونأخذ عن الله مباشرة، ولسنا بحاجة إلى اتباع الرسل، فالرسل للعوام فقط، أما نحن فخواص، وصلنا إلى الله، فنأخذ عن الله مباشرة، أو يقولون: لا حاجة إلى أن تدرس الكتاب والسنة، لا تفني وقتك في التفقه، سيأتيك العلم من الله دون أن تدرس في الحلقة، أو تأخذ عدة سنين في المراحل الدراسية، اتبع طريقتنا ويأتيك العلم ويفيض عليك من الله عَزَّوَجَلَّ، هذه طريقة الصوفية.

قوله: (مِثْلُ: مَنْ وَضَعَ (المُحدَثَ) وَ(المَخْلُوقَ) وَ(المَصْنُوعَ) عَلَى مَا هُوَ مَعْلُولٌ وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ قَدِيمًا أَزَلِيًّا، وَيُسَمِّي ذَلِكَ (الحُدُوثَ الذَّاتِيَّ). ألفاظ أحدثوها: المحدث، والمخلوق، والمصنوع، والجسم، والعرض، والجوهر، كلها اصطلاحات من عندهم، ليس من هذه المسميات شيء في الأدلة الشرعية.

قوله: (ثُمَّ يَقُولُ: نَحْنُ نَقُولُ: إِنَّ العَالَمَ مُحْدَثٌ، وَهُوَ مُرَادُهُ). الفلاسفة عندهم أن العالم قديم لا بداية له وليس محدثًا، لا يعتقدون أن الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي خلق هذه الأشياء وأوجدها بعد أن كانت عدمًا، ويقولون: هي قديمة. لكن يضعون ألفاظًا يروجون بها على الناس، ويغطون بها عقيدتهم الباطلة، وهي القول بقدم العالم، ويريدون محدثًا قديمًا أو مصنوعًا قديمًا ليس له بداية، فإذا سمعهم الإنسان ظن أنهم يعتقدون أنها محدثة أو مصنوعة، فيصدقهم، وهم يريدون الخداع بذلك، وإلا هم يرون قدم العالم.

قوله: (وَمَعْلُومٌ أَنَّ لَفظَ المُحْدَثِ بِهَذَا الاِعْتِبَارِ لَيْسَ لُغَةَ أَحَدٍ مِنَ الأُمَمِ). المحدث القديم هذا ليس بلغة، أي: محدث ليس له بداية، هذا ليس في لغة الأمم، زإنما المحدث: هو ما وجد بعد أن لم يكن، والمخلوق: هو الذي وجد وخُلق بعد أن لم يكن، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، وقال الله لزكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٩]، فهذا معنى المحدث، ليس معناه المحدث القديم، فهم يُروِّجون على الناس بهذه الألفاظ الباطلة.

قوله: (**وَإِنَّمَا الْمُحْدَثُ عِنْدَهِمْ مَا كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ**). هذا هو المحدث: ما كان بعد أن لم يكن، أما أنه محدث لا بداية لإحداثه، فهو قديم، فهذا باطل وتناقض، كيف يكون محدثًا وقديمًا أزليًا؟

قوله: (**وَكَذَلِكَ يَضَعُونَ لَفْظَ (الْمَلَائِكَةِ) عَلَى مَا يُثْبِتُونَهُ مِنَ الْعُقُولِ وَالنُّفُوسِ وَقُوَى النَّفْسِ، وَلَفَظَ (الْجِنِّ) وَ(الشَّيَاطِينِ) عَلَى بَعْضِ قُوَى النَّفْسِ**). يقولون: الملائكة ليس معناهم أنهم مخلوقون، وأنهم ذوو أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وأنهم رسل ينزلون بالأوامر، وأن الله خلقهم من نور، ولهم أجسام عظيمة، وإنما الملائكة هي الخواطر التي في النفوس، فإن كانت طيبة فهم ملائكة، وإن كانت الخواطر سيئة فهم شياطين، وإلا ليس هناك وجود للشياطين ولا للملائكة، وإنما هي الخواطر الذهنية. ومع الأسف هذا الكلام موجود في «إحياء علوم الدين» للغزالي؛ لأن الغزالي تأثر بالفلسفة، وعجز أن يخرج منها، وكان فقيهًا شافعيًّا، ولكنه بُلي بالفلسفة، دخل فيها كما يقول تلميذه ابن العربي[(١)]: (دخل شيخنا أبو حامد في بطن الفلاسفة، ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر)[(٢)].

فتبنى هذا الفكر الفلسفي، ويرى أن الملائكة هي العوارض النفسية، وأن الأفكار التي تأتي على الإنسان والهواجس إذا كانت طيبة فهي ملائكة،

(١) هو: القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العربي الأندلسي الإشبيلي المالكي، حدث ببغداد وصنف في الحديث والفقه والأصول وعلوم القرآن والأدب والنحو والتاريخ، وله: أمهات المسائل، ونزهة الناظر، والمحصول، وغيرها، توفي بفاس سنة ست وأربعين وخمسمائة. انظر: الديباج المذهب (ص٢٨١)، وسير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٩٩)، وتذكرة الحفاظ (٤/ ١٢٩٤).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٦٦).

أما إذا كانت سيئة فهي شياطين، ونقل هذا عنه محمد عبده[(١)]، ونقله عن محمد عبده صاحب «المنار»[(٢)] تلميذ محمد عبده، فهذا الكلام الباطل موجود في «تفسير المنار»[(٣)]، عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]، فينبغي التنبه لمثل هذه الأمور المدسوسة.

وقوله: (قُوَى النَّفْسِ)، فيقولون: القوى الشريرة هذه شياطين، والقوى الطيبة هذه ملائكة، لا أن هناك مخلوقات تسمى الملائكة، ومخلوقات تسمى الشياطين، أين هذا من قول الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٥]، وقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص:٧٦].

قوله: (ثُمَّ يَقُولُونَ: نَحْنُ نُثْبِتُ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الأَنْبِيَاءُ). هل الأنبياء أخبرت بهذا؟ هؤلاء كذبة، وأعداء للأنبياء، ولكنهم يريدون الترويج على الناس.

---

(١) هو: محمد عبده بن حسن خير الله، ولد في شنرا من قرى الغربية بمصر سنة ست وستين ومائتين وألف من الهجرة، وأخذ عن مشايخ الصوفية في الجامع الأحمدي بطنطا، ثم عن جمال الدين الأفغاني، وأصدر معه مجلة العروة الوثقى، وتدرج بالقضاء حتى عين مفتيًا للديار المصرية، واشتغل بتدريس الفلسفة والمنطق بجامعة الأزهر، وأشهر تلامذته الشيخ محمد رشيد رضا صاحب تفسير المنار، له شرح البصائر القصيرية للطوسي، وشرح دلائل الإعجاز للجرجاني، وغير ذلك، توفي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وألف. انظر: الأعلام للزركلي (٦/ ٢٥٢).

(٢) هو: محمد رشيد بن علي رضا، ولد ونشأ في القلمون من أعمال طرابلس الشام، وتعلم فيها وكتب في بعض الصحف، ثم رحل إلى مصر سنة خمس عشرة وثلاثمائة وألف، فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ عليه، أشهر آثاره: مجلة المنار، أصدر منها أربعة وثلاثين مجلدًا، وتفسير القرآن الكريم، توفي سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وألف. انظر: الأعلام للزركلي (٦/ ١٢٦).

(٣) انظر: تفسير المنار (١/ ٢١٠).

قوله: (وَأَقَرَّ بِهِ جُمْهُورُ النَّاسِ مِنَ المَلَائِكَةِ وَالجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ). وهم كذبة لا يرون أن هناك جنًّا، ولا يرون أن هناك شياطين، ولا يرون أن هناك ملائكة، بل لا يؤمنون بالغيب أصلًا، وربما لا يؤمنون بالله جَلَّوَعَلَا، وإنما يتظاهرون بهذه الأشياء، ويقولون: نحن نؤمن بالأنبياء والملائكة، ولكن يؤمنون بالملائكة على اعتبار ما يرونه هم، لا على اعتبار ما جاء في القرآن، فهم ينزلون القرآن -كما ذكر الشيخ سابقًا- على أفكارهم، ويفسرونه بأفكارهم، ويقولون: نحن لم نخالف القرآن.

وَمَنْ عَرَفَ مُرَادَ الأَنْبِيَاءِ وَمُرَادَهُمْ عَلِمَ بِالِاضْطِّرَارِ أَنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ ذَاكَ، مِثْلُ أَنْ يَعْلَمَ مُرَادَهُمْ بِالعَقْلِ الأَوَّلِ، وَأَنَّهُ مُقَارِنٌ عِنْدَهُمْ لِرَبِّ العَالَمِينَ أَزَلًا وَأَبَدًا، وَأَنَّهُ مُبْدِعٌ لِكُلِّ مَا سِوَاهُ، أَوْ بِتَوَسُّطِهِ حَصَلَ كُلُّ مَا سِوَاهُ.

الشَّرْح

هذا رد على الفلاسفة والملاحدة الذين عندهم اصطلاحات اصطلحوا عليها، ويريدون أن يفسروا كلام الله وكلام رسوله على حسب اصطلاحاتهم، كما أن المشركين من مشركي الجاهلية والقبوريين في الإسلام لهم اصطلاحات، ويريدون أن يفسروا كلام الله ورسوله حسب اصطلاحاتهم، فلما سمعوا لفظ الشفاعة في القرآن والسنة فسروها بأن المراد بذلك اتخاذ الوسائط بين العباد وبين الله في قضاء حاجاتهم، فهم شفعاء بمعنى وسائط بينهم وبين الله؛ كما قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨]، فيفسرون الشرك بأنه التوسل إلى الله، وطلب الشفاعة من الأولياء والصالحين الذين تقربوا إليهم بأنواع من العبادات، أنهم إنما فعلوا ذلك طلبًا للشفاعة. في حين أن الشفاعة المذكورة في الكتاب والسنة معناها الدعاء بأن يطلب أحد من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو من عباد الله الصالحين الأتقياء أن يدعو الله له بالشفاء والعافية والرزق، ونحو ذلك. هذا هو المراد بالتوسل الشرعي، وأنه من معانيه طلب الدعاء من الصالحين، فيدعون الله لمن طلب منهم ذلك، كما كان الصحابة يطلبون من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو لهم بنزول المطر، وغير ذلك، وكما

طلب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو الله لهم بالسقيا، وكما يأتي الخلق يوم القيامة إلى الأنبياء يطلبون منهم الشفاعة بأن يدعوا الله بأن يفصل بينهم ويريحهم من الموقف الطويل، والزحمة الشديدة، فيطلبون من أولي العزم من الأنبياء أن يدعوا الله لهم بأن يريحهم من الموقف، حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدعا الله أن يريح العباد من الموقف إلى الحساب، فقبل الله شفاعته، فلذلك تسمى هذه الشفاعة العظمى، والمقام المحمود الذي يحمده عليه الأولون والآخرون صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويتبين فضله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الموقف، هذه هي الشفاعة الشرعية: طلب الدعاء من الحي الحاضر، سواء في الدنيا أو في الآخرة.

أما أن يُجعل معنى الشفاعة عبادة الأولياء والصالحين بحجة أنهم يشفعون إلى الله، فهذا باطل؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، يسمونه شفاعة، ولا يسمونه شركًا، والله سماه شركًا، قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨]، وهم يقولون: هذا ليس شركًا، وإنما هم شفعاؤنا عند الله، فنحن لا نشرك بهم مع الله، مع أنهم يعبدونهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، فهذا معنى باطل، وليس هو معنى الشفاعة التي جاءت بها الأدلة، وإنما فسروا الأدلة الواردة في الشفاعة على اصطلاحهم هم، وهو اصطلاح باطل، كما أن الملاحدة من الفلاسفة لهم اصطلاحات وضعوها لأنفسهم يريدون أن يفسروا بها كلام الأنبياء، وهذا

باطل، وكلام الأنبياء بريء من اصطلاحات الفلاسفة والملاحدة، لكن هذه قاعدة مطردة عند أهل الباطل: أنهم يشبُّون على اصطلاحات باطلة، ويفسرون بها كلام الأنبياء، فينبغي التنبه لمثل هذه الأمور.

قوله: (**وَمَنْ عَرَفَ مُرَادَ الأَنْبِيَاءِ وَمُرَادَهُمْ**). من لم يعرف مراد الأنبياء يقع في شراكهم ويصدقهم، وهذه آفة الجهل، وهذا مما يؤكد على المسلم أن يتعلم؛ لئلا يقع في هذا الضلال؛ لأنهم يُروِّجون بثوب الحق، ويُلبِّسون بثوب الحق، فالجاهل لا يدري، ويدرج عليه الكلام، وهذا مشكل، ولذلك تعين على المسلم طلب العلم، ومعرفة هذه المذاهب الباطلة؛ حتى لا تنطلي وتروج عليه مهما زخرفت وزينت، فهناك فرق بين كلام الأنبياء، وكلام الفلاسفة، ولكنه فرق عند من عرف كلام الأنبياء وفقه في دين الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (**عَلِمَ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ ذَاكَ**). أي: هناك فرق بين كلام الأنبياء وكلام الفلاسفة.

قوله: (**مِثْلُ أَنْ يَعْلَمَ مُرَادَهُمْ بِالعَقْلِ الأَوَّلِ**). العقل في كلام الله جَلَّوَعَلَا، وكلام الأنبياء، وكلام أهل العلم: هو غريزة يجعلها الله في الإنسان يميز بها الحق من الباطل. فليس العقل شيئًا مجسمًا، أو ما يسميه الفلاسفة بالجوهر، وإنما العقل معنى من المعاني مثل الروح، فلا يعلم حقيقته إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. أما الفلاسفة فلهم اصطلاح فيه، فيفسرونه بفلك من الأفلاك، وأنه يتصرف في الكون، أو ما أشبه ذلك من اصطلاحاتهم، فيقولون مثلًا: فلك القمر يتصرف فيما تحته، ويسمونه: العقل الفعال. وهذه خرافات ما أنزل الله بها من سلطان.

فالعقل: غريزة أو صفة تقوم بالإنسان يميز بها بين الحق والباطل، والنافع والضار، سمي عقلًا؛ لأن به يعقل الإنسان عما لا يليق به، فتجد من لا عقل له لا يميز بين الأشياء النافعة والضارة، ولا بين الخير والشر، وتجده أحط من البهائم والعياذ بالله، أما الذي وهبه الله العقل، فإنه يعقله عما لا يليق. ويُسمى -أيضًا- حِجْرًا، قال تعالى: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر:٥]، أي: عقل، وهو من آيات الله عَزَّوَجَلَّ، ومن أكبر نعمه على الإنسان.

قوله: (وَأَنَّهُ مُقَارِنٌ عِنْدَهُمْ لِرَبِّ العَالَمِينَ أَزَلًا وَأَبَدًا). أي: أن الذي يدبر الكون العقل، خلقه الله، ثم وكل إليه تدبير الكون، بل يفسرون اللوح المحفوظ والقلم بأنهما من هذا الباب من العقل. وما ذلك إلا خرافات ما أنزل الله بها من سلطان.

قوله: (وَأَنَّهُ مُبْدِعٌ لِكُلِّ مَا سِوَاهُ، أَوْ بِتَوَسُّطِهِ حَصَلَ كُلُّ مَا سِوَاهُ). العقل هو مبدع الأشياء، مع أن المبدع للأشياء والخالق لها هو الله، لا خالق إلا الله سبحانه الخلاق العليم، فهم لا يعترفون أن الله خلقه، فيقولون: إنه قديم مقارن لله عَزَّوَجَلَّ، ويسمونه علة الكون، أو علة العلل.

فكلامهم في الحقيقة كلام مجانين، بل المجانين لا يقولون مثل الكلام هذا، فهذا العقل عندهم، ويفسرون العقل في القرآن والسنة بهذا التفسير الباطل.

وَالعَقْلُ الفَعَّالُ عِنْدَهُمْ عَنْهُ يَصْدُرُ كُلُّ مَا تَحْتَ فَلَكِ القَمَرِ، وَيُعْلَمُ بِالِاضْطِّرَارِ مِنْ دَيْنِ الأَنْبِيَاءِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ المَلَائِكَةِ عِنْدَهُمْ مَنْ هُوَ رَبُّ كُلِّ مَا سِوَى اللهِ، وَلَا رَبُّ كُلِّ مَا تَحْتَ فَلَكِ القَمَرِ، وَلَا مَنْ هُوَ قَدِيمٌ أَزِلِيٌّ أَبَدِيٌّ لَمْ يَزُلْ وَلَا يَزَالُ.

وَيُعْلَمُ أَنَّ الحَدِيثَ الَّذِي يُرْوَى: «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ العَقْلُ» حَدِيثٌ بَاطِلٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ حَقًّا لَكَانَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ لَفْظَهُ «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ العَقْلُ» بِنَصْبِ الأَوَّلِ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ «فَقَالَ لَهُ: أَقْبِلْ، فَأَقْبَلَ. ثُمَّ قَالَ: أَدْبِرْ، فَأَدْبَرَ. فَقَالَ: وَعِزَّتِي مَا خَلَقْتُ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْكَ، فَبِكَ آخُذُ، وَبِكَ أُعْطِي، وَبِكَ الثَّوَابُ، وَبِكَ العِقَابُ»، وَرُوِيَ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ العَقْلَ»[(١)].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/ ٢٣٥)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٣٩٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٥٤) من طريق حفص بن عمر قاضي حلب، عن الفضل بن عيسى الرقاشي، عن أبي عثمان النهدي، عن أبي هريرة، رفعه.
والفضل بن عيسى الرقاشي مجمع على ضعفه، قال ابن معين: (رجل سوء). وقال أبو سلمة التبوذكي: (لم يكن أحد ممن يتكلم في القدر أخبث قولًا من الفضل الرقاشي). والراوي عنه حفص بن عمر قاضي حلب، قال ابن حبان: (يروي عن الثقات الموضوعات لا يحل الاحتجاج به بالإجماع). وقال أبو زرعة: (منكر الحديث)، وقد رواه الدارقطني من وجه آخر، وفي إسناده سيف بن محمد، وهو كذاب بالإجماع.
وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧/ ١٩٠)، والعقيلي في الضعفاء (٣/ ١٧٥) من طريق سعيد بن الفضل القرشي، عن عمر بن أبي صالح العتكي، عن أبي غالب، عن أبي أمامة، رفعه.
وعمر بن أبي صالح حديثه منكر، قال العقيلي: (وعمر هذا وسعيد بن الفضل الراوي عنه مجهولين جميعًا بالنقل، ولا يُتابع على حديثه، ولا يثبت في هذا المتن شيء).
انظر: المجروحين (١/ ٢٥٩)، والجرح والتعديل (٣/ ١٧٩)، والموضوعات لابن الجوزي (١/ ١٢١)، وميزان الاعتدال (٥/ ٤٣٣)، ومجمع الزوائد (٨/ ٢٨).

فَالحَدِيثُ لَوْ كَانَ ثَابِتًا كَانَ مَعْنَاهِ أَنَّهُ خَاطَبَ العَقْلَ فِي أَوَّلِ أَوْقَاتِ خَلْقِهِ، وَأَنَّهُ خَلَقَ قَبْلَهُ غَيْرَهُ، وَأَنَّهُ تَحْصُلُ بِهِ هَذِهِ الأُمُورُ الأَرْبَعَةُ لا كُلَّ المَصْنُوعَاتِ.

الشَّرْح

قوله: (وَالعَقْلُ الفَعَّالُ عِنْدَهُمْ عَنْهُ يَصْدُرُ كُلُّ مَا تَحْتَ فَلَكِ القَمَرِ، وَيُعْلَمُ بِالِاضْطِّرَارِ مِنْ دَيْنِ الأَنْبِيَاءِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ المَلَائِكَةِ عِنْدَهُمْ مَنْ هُوَ رَبَّ كُلِّ مَا سِوَى اللهِ، وَلَا رَبَّ كُلِّ مَا تَحْتَ فَلَكِ القَمَرِ). يفسرون -أيضًا- الملائكة بهذا، يقولون: هي العقل، إنما الملائكة والشياطين ليس لهما وجود مادي جسماني، وإنما هي معان، فالأفكار الطيبة ملائكة، والأفكار السيئة شياطين، وليس معنى الملائكة والشياطين أن هناك مخلوقات تسمى ملائكة، أو تسمى شياطين، إنما هي أشياء معنوية.

هذا قول الفلاسفة في الملائكة، ومن نقل مذهبهم ممن ابتُلي بهم من المسلمين، والله جَلَّوَعَلَا أخبرنا عن الملائكة فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر:١]، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «خُلِقَتِ المَلَائِكَةُ مِنَ النُّورِ، وَخُلِقَ آدَمُ مِنْ تُرَابٍ، وَخُلِقَ الشَّيْطَانُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»(١)، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٥]. وهم يقولون: ليست مخلوقات، إنما هي هواجس وأفكار تطرأ على الإنسان،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فإن كانت خيرًا فهي ملائكة، وإن كانت شرًّا فهي شياطين. وما جاء في القرآن من ذكر الملائكة والشياطين يفسرونه بمصطلحهم الباطل، وهذه مصيبة أصيب بها بنو آدم من هؤلاء.

قوله: (لَيْسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عِنْدَهُمْ مَنْ هُوَ رَبُّ كُلِّ مَا سِوَى اللهِ). بل الملائكة عباد، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٧]، وقال سبحانه: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، فهم عباد لله عَزَّوَجَلَّ، يعبدون الله، ويمتثلون أوامره في الكون، كلٌّ موكل بعمل يعمله بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: (وَلَا رَبُّ كُلِّ مَا تَحْتَ فَلَكِ الْقَمَرِ). لا رب إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكل المخلوقات الله ربها وخالقها؛ الملائكة، والشياطين، وغير ذلك، فالله خالق وما سواه مخلوق.

قوله: (وَلَا مَنْ هُوَ قَدِيمٌ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ لَمْ يَزُلْ وَلَا يَزَالُ). هذا العالم العلوي والسفلي ليس أوليًّا، بل هو مخلوق محدث، خلاف قول الفلاسفة بقدم العالم، فإن الله هو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، هذه هي عقيدة الرسل في الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]، فسره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لا أحد يستر الأشياء عن الله ويحجبها، ليس دونه شيء يعلم كل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو قريب من عباده لا يخفى عليه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا هو ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام.

قوله: (**وَيُعْلَمُ أَنَّ الحَدِيثَ الَّذِي يُرْوَى: «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ العَقْلُ» حَدِيثٌ بَاطِلٌ عَنِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). عندهم أن (**أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ العَقْلُ، فَقَالَ لَهُ: أَقْبِلْ، فَأَقْبَلَ. ثُمَّ قَالَ: أَدْبِرْ، فَأَدْبَرَ. فَقَالَ: وَعِزَّتِي مَا خَلَقْتُ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْكَ**)، وهذا باطل لم يثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله عَزَّوَجَلَّ لا يزال يخلق، فمن الذي يحدد أول المخلوقات؟ هذا لا يعلمه إلا الله جَلَّ وَعَلَا، فهذا يدل على بطلان هذا الحديث.

قوله: (**مَعَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ حَقًّا لَكَانَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ**). لو كان الحديث حقًا، فإنه لم يروَ بالرفع (أولُ)، ولكنهم رووه بالرفع، فيجعلون أول المخلوقات، وإنما الحديث على بطلانه: (أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْعَقْلَ قَالَ لَهُ: ...) إلى آخره، أي: من حين خلقه قال له: قم. فقيامه وإقباله وإدباره عند بداية خلقه، وهذا لا يدل على أن العقل أول شيء.

وقوله: (**فَبِكَ آخُذُ، وَبِكَ أُعْطِي، وَبِكَ الثَّوَابُ، وَبِكَ العِقَابُ**). نعم، إن الله يأخذ بالعقل، ويعطي، ويثيب، ويعاقب، هذا صحيح؛ لأن العقل مناط التكليف، وأما المجنون الذي ليس له عقل، فهذا لا يؤاخذ، ولا يحاسب، ولا يكلف؛ لأنه فاقد للعقل. إنما الكلام في أول الحديث أن العقل أول المخلوقات، ولاشك أن العقل مخلوق فهذا مسلم به، ولاشك أن

الله به يثيب ويعاقب ويؤاخذ ويعطي، أما أنه أول المخلوقات وأن الله لم يخلق شيئًا أعز منه، فهذا باطل.

قوله: (**فَالحَدِيثُ لَوْ كَانَ ثَابِتًا كَانَ مَعْنَاهِ أَنَّهُ خَاطَبَ العَقْلَ فِي أَوَّلِ أَوْقَاتِ خَلْقِهِ**). خاطب العقل حينما خلقه، لا أنه أول المخلوقات.

قوله: (**وَأَنَّهُ خَلَقَ قَبْلَهُ غَيْرَهُ**). ليس هناك شك.

قوله: (**وَأَنَّـهُ تَحْصُلُ بِهِ هَذِهِ الأُمُورُ الأَرْبَعَةُ لَا كُلَّ المَصْنُوعَاتِ**). بلا شك أن هذا تحصل به هذه الأمور الأربعة: به يأخذ، وبه يعطي، وبه يثيب، وبه يعاقب فقط، أما أن العقل يتصرف في المخلوقات، وكل المخلوقات من إيجاده، فهذا كلام باطل وكفر بالله عَزَّوَجَلَّ.

وَالعَقْلُ فِي لُغَةِ المُسْلِمِينَ مَصْدَرُ عَقَلَ يَعْقِلُ عَقْلًا، وَيُرَادُ بِهِ القُوَّةُ الَّتِي بِهَا يَعْقِلُ، وَعُلُومٌ وَأَعْمَالٌ تَحْصُلُ بِذَلِكَ، لَا يُرَادُ بِهَا قَطُّ فِي لُغَةٍ جَوْهَرٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُرَادَ هَذَا المَعْنَى بِلَفْظِ العَقْلِ، مَعَ أَنَّا قَدْ بَيَّنَّا فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ فَسَادَ مَا ذَكَرُوهُ مِنْ جِهَةِ العَقْلِ الصَّرِيحِ، وَأَنَّ مَا ذَكَرُوهُ مِنَ المُجَرَّدَاتِ وَالمُفَارَقَاتِ يَنْتَهِي أَمْرُهُمْ فِيهُ إِلَى إِثْبَاتِ النَّفْسِ الَّتِي تُفَارِقُ البَدَنَ بِالمَوْتِ، وَإِلَى إِثْبَاتِ مَا تُجَرِّدُهُ النَّفْسُ مِنَ المَعْقُولَاتِ القَائِمَةِ بِهَا، فَهَذَا مُنْتَهَى مَا يُثْبِتُونَهُ مِنَ الحَقِّ فِي هَذَا البَابِ.

وَالمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ كَثِيرًا مِنْ كَلَامِ اللهِ وَرَسُولِهِ يَتَكَلَّمُ بِهِ مَنْ يَسْلُكُ مَسْلَكَهُمْ وَيُرِيدُ مُرَادَهُمْ لَا مُرَادَ اللهِ وَرَسُولِهِ، كَمَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ صَاحِبِ الكُتُبِ المَضْنُونِ بِهَا وَغَيْرِهِ، مِثْلُ مَا ذَكَرَهُ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ حَيْثُ جَعَلَهُ النَّفْسَ الفَلَكِيَّةَ، وَلَفَظُ القَلَمِ حَيْثُ جَعَلَهُ العَقْلَ الأَوَّلَ.

وَلَفَظُ المَلَكُوتِ وَالجَبَرُوتِ وَالمُلْكِ حَيْثُ جَعَلَ ذَلِكَ عِبَارَةً عَنِ النَّفْسِ وَالعَقْلِ، وَلَفْظُ الشَّفَاعَةِ حَيْثُ جَعَلَ ذَلِكَ فَيْضًا يَفِيضُ مِنَ الشَّفِيعِ عَلَى المُسْتَشْفَعِ وَإِنْ كَانَ الشَّفِيعُ قَدْ لَا يَدْرِي، وَسَلَكَ فِي هَذِهِ الأُمُورِ وَنَحْوِهَا مَسَالِكَ ابْنِ سِينَا كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

الشَّرح

قوله: (وَالعَقْلُ فِي لُغَةِ المُسْلِمِينَ مَصْدَرُ عَقَلَ يَعْقِلُ عَقْلًا، وَيُرَادُ بِهِ القُوَّةُ الَّتِي بِهَا يَعْقِلُ). القوة التي بها يعقل الإنسان، وليست شيئًا موجودًا مخلوقًا يُرى ويُشاهد، فلا يشاهد أحد عقله، مثل الروح لا أحد يشاهدها، وهي سر

من أسرار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالعقل إنما هو قوة فقط جعلها الله في الإنسان، وخصه بها من بين المخلوقات، فهو لا يقوم ويقعد ويقدم ويدبر كما ذكروا.

قوله: (وَعُلُومٌ وَأَعْمَالٌ تَحْصُلُ بِذَلِكَ). يدرك الإنسان علومًا وأعمالًا بعقله وتفكيره، ويدرك الأشياء الضارة والأشياء النافعة، فالعقل من عجائب مخلوقات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: (لَا يُرَادُ بِهَا قَطُّ فِي لُغَةٍ جَوْهَرٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهُ).

العَرَض: هو ما يقوم بغيره، أي: ما يعرض ويزول.

أما الجوهر: فيسمونه الآن المادة الجسمية. والعقل ليس من هذا القبيل، فالعقل لا يقوم بنفسه ويستقل، وإنما يقوم بالإنسان.

قوله: (مَعَ أَنَّا قَدْ بَيَّنَّا فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ فَسَادَ مَا ذَكَرُوهُ مِنْ جِهَةِ العَقْلِ الصَّرِيحِ). بيّن الشيخ في رده على هؤلاء الفلاسفة في كتبه الأخرى هذا بتوسع.

قوله: (وَأَنَّ مَا ذَكَرُوهُ مِنَ المُجَرَّدَاتِ وَالمُفَارَقَاتِ يَنْتَهِي أَمْرُهُمْ فِيهُ إِلَى إِثْبَاتِ النَّفْسِ الَّتِي تُفَارِقُ البَدَنَ بِالمَوْتِ، وَإِلَى إِثْبَاتِ مَا تَجَرِّدُهُ النَّفْسُ مِنَ المَعْقُولَاتِ القَائِمَةِ بِهَا). العقل مثل النفس التي تحل في الإنسان وتفارق البدن بالموت، فالعقل كذلك صفة من الصفات التي لا يعلمها إلا الله، يأتي ويروح في الإنسان، ويُفقد ويوجد، وبه يتصور الإنسان الأشياء، كما أنه بالروح يتحرك ويمشي، ويأكل ويشرب، ويحس ويرى ويسمع ما دامت الروح في البدن، ومن يعرف حقيقة الروح؟ لا أحد يعرف حقيقتها إلا الله جَلَّ وَعَلَا.

قوله: (فَهَذَا مُنْتَهَى مَا يُثْبِتُونَهُ) أي: الفلاسفة (مِنَ الحَقِّ فِي هَذَا البَابِ).

قوله: (وَالمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ كَثِيرًا مِنْ كَلَامِ اللهِ وَرَسُولِهِ يَتَكَلَّمُ بِهِ مَنْ يَسْلُكُ مَسْلَكَهُمْ وَيُرِيدُ مُرَادَهُمْ لَا مُرَادَ اللهِ وَرَسُولِهِ). أي: كثير ممن ابتُلي وأُعجب بالفلاسفة وعلماء الكلام يسلك هذا المسلك، ويفسر القرآن بهذه الاصطلاحات الباطلة التي تخالف مراد الله ومراد رسوله ﷺ، ويؤولون النصوص حتى تتوافق مع هذه الأباطيل، فيخضعون القرآن والسنة لقواعدهم ومصطلحاتهم، والواجب العكس أن تُخضع المصطلحات والعلوم العقلية لكلام الله وكلام رسوله ﷺ، وألا يُقدَّم العقل على الوحي، وقد ابتُلي كثير من الكتاب المعاصرين الآن الذين يسمون بالعقلانيين بهذه المصيبة، فصاروا يقدسون العقل حتى كذبوا الأحاديث الصحيحة إذا خالفت -بزعمهم- العقل، يكذبونها ولو كانت في البخاري ومسلم، ويقولون: هذه تخالف العقل، ولذلك يسمون بالعقلانيين، وهم نوع من أفراخ المعتزلة.

وقوله: (مَنْ يَسْلُكُ مَسْلَكَهُمْ وَيُرِيدُ مُرَادَهُمْ)، أي: الذين مشوا على طريقة هؤلاء ممن ينتسبون إلى الإسلام، ويجعلون العقل حاكمًا على الدين، وعلى النصوص، ويعكسون مرادها.

قوله: (كَمَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ صَاحِبِ الكُتُبِ المَضْنُونِ بِهَا وَغَيْرِهِ). يعني: الغزالي، وكتابه اسمه «المضنون على غير أهله»[1] أي: المبخول به، فالضن هو البخل، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير:٢٤]، أي: ببخيل،

---

(١) راجع (ص٢٨٦).

يقولون: هذا الكتاب لا يستحقه إلا أهله؛ لجلالته عندهم، وهو كله فلسفة ليس فيه فائدة.

قوله: (**مِثْلُ مَا ذَكَرَهُ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظُ حَيْثُ جَعَلَهُ النَّفْسَ الفَلَكِيَّةَ، وَلَفَظُ القَلَمِ حَيْثُ جَعَلَهُ العَقْلَ الأَوَّلَ، وَلَفَظُ المَلَكُوتِ وَالجَبَرُوتِ وَالمُلْكِ حَيْثُ جَعَلَ ذَلِكَ عِبَارَةً عَنِ النَّفْسِ وَالعَقْلِ**). هذه كلها خرافات ما أنزل الله بها من سلطان.

قوله: (**وَلَفْظُ الشَّفَاعَةِ حَيْثُ جَعَلَ ذَلِكَ فَيْضًا يَفِيضُ مِنَ الشَّفِيعِ عَلَى المُسْتَشْفَعِ**). الشفاعة عند الفلاسفة والملاحدة يقولون: ليس معناها أن يدعو لك الذي تتوسل به، أو يتوسط لك عند الله، وإنما هو فيض، لو وقف الزائر عند القبر ولو لم يقل شيئًا يفيض من روح الميت نور على هذا الزائر، فيستفيد بصيرة من هذا النور الذي يشع عليه من القبر. وهذا أشد من فعل القبوريين، فلزيارة القبور عندهم معنى حتى غير المعنى الذي عند المشركين، يقولون: إنه يزور القبور ليس لأجل أن يطلب منها، أو يطلب الشفاعة منها، بل يزورها لأجل الفيض الذي يفيض منها؛ لأنها أرواح طيبة نورانية، فيفيض منها على الزائر ما يفيض، ويرجع بذلك مستنير البصيرة.

قوله: (**وَإِنْ كَانَ الشَّفِيعُ قَدْ لَا يَدْرِي**). أنت إذا زرته قد لا يدري بك، ولكن يفيض عليك من روحه ومما فيه من النور، ويشع في قلبك.

قوله: (**وَسَلَكَ فِي هَذِهِ الأُمُورِ وَنَحْوِهَا مَسَالِكَ ابْنِ سِينَا**). أي: سلك الكتاب الذي هو للغزالي مسلك ابن سينا الفيلسوف الإسماعيلي الخبيث.

وَالمَقْصُودُ هُنَا ذِكْرُ مَنْ يَقَعُ ذَلِكَ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ تَدَبُّرٍ مِنْهُ لِلُغَةِ الرَّسُولِ ﷺ كَلَفْظِ القَدِيمِ، فَإِنَّهُ فِي لُغَةِ الرَّسُولِ الَّتِي جَاءَ بِهَا القُرْآنُ خِلَافَ الحَدِيثِ وَإِنْ كَانَ مَسْبُوقًا بِغَيْرِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف:٩٥]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء:٧٥-٧٦].

وَهُوَ عِنْدَ أَهْلِ الكَلَامِ عِبَارَةٌ عَمَّا لَمْ يَزَلْ أَوْ عَمَّا لَمْ يَسْبِقْهُ وُجُودُ غَيْرِهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَسْبُوقًا بِعَدَمِ نَفْسِهِ، وَيَجْعَلُونَهُ -إِذَا أُرِيدَ بِهِ هَذَا- مِنْ بَابِ المَجَازِ.

الشرح

قوله: (وَالمَقْصُودُ هُنَا ذِكْرُ مَنْ يَقَعُ ذَلِكَ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ تُدَبُّرٍ مِنْهُ لِلُغَةِ الرَّسُولِ ﷺ). المقصود من هذا الكلام الذي استطرد به الشيخ -وهو مفيد جدًّا- أن يبين بطلان تفاسير هؤلاء الذين يفسرون كلام الله وكلام رسوله بمصطلحاتهم أو مصطلحات مشايخهم، فهم من جنس الفلاسفة الذين يفسرون كلام الأنبياء بمصطلحاتهم الخبيثة.

قوله: (كَلَفْظِ القَدِيمِ، فَإِنَّهُ فِي لُغَةِ الرَّسُولِ الَّتِي جَاءَ بِهَا القُرْآنُ خِلَافَ الحَدِيثِ وَإِنْ كَانَ مَسْبُوقًا بِغَيْرِهِ). من أسماء الله: الأول، والآخر، وليس من أسمائه القديم؛ لأنه ما من قديم إلا وقبله ما هو أقدم منه، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾، فهل هذا العرجون القديم ليس قبله شيء؟ لا، بل

قبله شيء، فالقديم لا يدل على الأزلية مثل الأول، ولذلك لا يُسمى الله بالقديم.

والقديم خلاف الحديث، فيُقال: قديم، وحديث، أي: جديد.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ منازل القمر التي هي تسعة وعشرون منزلًا إن كان الشهر ناقصًا، أو ثلاثون إن كان الشهر وافيًا، فكل ليلة ينزل في منزل حتى يستكملها ويقطعها كلها في شهر، ﴿قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ انتهى إلى أن يشبه العذق من النخلة اليابس، فالعرجون القديم ضد العرجون الحديث، والعرجون القديم مضى عليه وقت حتى يبس وانحنى وصار الهلال يشبهه.

قوله: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾). لما قال يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾، حلفوا وقالوا: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف:٩٤]، لا يمكن تأتي ريح يوسف، من أين تأتي؟ فصار الواقع كما حصل ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ أي: خرجت العير من مصر ومعهم قميص يوسف متوجهين إلى فلسطين أدرك يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ريح يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾، وهذا من معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فلاموه وقالوا: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ﴾ أي: في خطئك، وليس المراد الضلال الكفر، فأنت ترجو يوسف، ويوسف هالك ليس موجودًا، هذا يقوله له الذين عنده الذين ولم يسافروا لمصر، أما الذين سافروا لمصر ورأوا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وأعطاهم القميص لم يقولوا هذا.

قوله: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾). الأقدمون: جمع قديم، فكل جيل بعده جيل، الجيل الأول يسمى قديمًا نسبيًا؛ لأن ما من قديم إلا وقبله ما هو أقدم منه.

قوله: (وَهُوَ عِنْدَ أَهْلِ الكَلَامِ عِبَارَةٌ عَمَّا لَمْ يَزَلْ أَوْ عَمَّا لَمْ يَسْبِقْهُ وُجُودُ غَيْرِهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَسْبُوقًا بِعَدَمِ نَفْسِهِ، وَيَجْعَلُونَهُ إِذَا أُرِيدَ بِهِ هَذَا مِنْ بَابِ المَجَازِ). القديم عند علماء الكلام هو الذي لم يسبقه غيره، وهذا باطل؛ لأنه ما من قديم إلا وقبله قديم.

وَلَفْظُ المُحْدَثِ فِي لُغَةِ القُرْآنِ مُقَابِلٌ لِلَفْظِ القَدِيمِ فِي القُرْآنِ، وَكَذَلِكَ لَفْظُ الكَلِمَةِ فِي لُغَةِ القُرْآنِ وَالحَدِيثِ وَسَائِرِ لُغَاتِ العَرَبِ إِنَّمَا يُرَادُ بِهِ الجُمْلَةُ التَّامَّةُ، كَقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ**»[1]. **وَقَوْلِهِ**: «**إِنَّ أَصْدَقَ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلٌ**»[2].

الشَّرْح

قوله: (**وَلَفْظُ المُحْدَثِ فِي لُغَةِ القُرْآنِ مُقَابِلٌ لِلَفْظِ القَدِيمِ فِي القُرْآنِ**). لفظ الحديث يقابل القديم، والحديث يعني الجديد.

قوله: (**وَكَذَلِكَ لَفْظُ الكَلِمَةِ**). هذا لأنه سبق أنه يقول: إن النحويين اصطلحوا على اصطلاح من عندهم يريدون أن يجعلوه قاعدة، قالوا: إن الكلام عند النحويين عبارة عن الجملة المفيدة، فالكلام يُطلق على الجملة المفيدة؛ كقول ابن مالك[3]:

كَلَامُنَا لَفْظٌ مُفِيدٌ كَاسْتَقِمْ ... وَاسْمٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ حَرْفٌ الكَلِمْ

فالكلام هو: الجملة المفيدة المكونة من مبتدأ، وخبر، أو من فعل، وفاعل.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٣) ألفية ابن مالك (ص٩).

أما الكلمة، فيريدون بها: اللفظ المفرد، مثل: الحرف، والفعل، والاسم، فالكلمة هي اللفظ المفرد الذي لا يفيد إلا إذا رُكب مع غيره، فإذا قلت -مثلًا-: «قد». هي حرف، ولكن لا يُستفاد منها شيء، أو قلت: «جاء». من الذي جاء؟ أو قلت: «محمد» من هو محمد؟ أو قلت: «رجل». ما استفدنا شيئًا حتى تربطه مع غيره، فتقول: جاء محمد. أو محمد قدم، أو ما أشبه ذلك، هذا عند النحويين.

والشيخ يقول: هذا اصطلاح، وإلا فالله جَلَّ وَعَلَا أطلق الكلمة -التي يقولون: إنها لفظ مفرد لا تفيد- على الكلام المفيد، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]، سمى كل كلامه كلمة، فدل على أن هذا اصطلاح، وليس لغة.

قال النحويون: نعم، أحيانًا يُراد بالكلمة الكلام، ولكن الأغلب أنه لا يُراد بالكلام إلا اللفظ المفيد، أما الكلمة فلا تُطلق إلا على اللفظ الذي لا يفيد إلا مع غيره، وقد يُراد بالكلمة الكلام، وذلك من باب القلة، ولهذا يقول الناظم(١):

وَاحِـــدُه كَـلِـمَـةٌ وَالـقَـوْلُ عَم وَكِلْمَةٌ بِهَا كَلَامٌ قَدْ يُؤَمْ الكَلِمْ

وهذا اصطلاح النحويين، ولا فرق بين الكلام والكلمة كل منهما مفيد، تقول: ألقيت كلمة في الحفل الفلاني. هل معناه أنك وقفت، وقلت: «ح» أو

(١) ألفية ابن مالك (ص٩).

«ع»؟ لا، المعنى ألقيت خطبة، أو محاضرة، كلامًا طويلًا يسمى كلمة، هذه لغة العرب.

فالحاصل: أن اصطلاح النحويين لا يُحكم به على اللغة العربية، والقصد من هذا كله الرد على الذين يفسرون القرآن والسنة بمصطلحاتهم الخاصة.

قوله: (**وَكَذَلِكَ لَفْظُ الكَلِمَةِ فِي لُغَةِ القُرْآنِ وَالحَدِيثِ وَسَائِرِ لُغَاتِ العَرَبِ إِنَّمَا يُرَادُ بِهِ الجُمْلَةُ التَّامَّةُ**). النحويون يقولون: لا يراد بها الجملة التامة، وإنما يُراد بها اللفظ المفرد فقط، كما قال ابن مالك:

كَلَامُنَا لَفْظٌ مُفِيدٌ كَاسْتَقِمْ ... وَاسْمٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ حَرْفٌ الكَلِمْ

هذا على اصطلاح النحويين، ولذلك هو يقول: «كَلَامُنَا» أي: كلام النحويين.

قوله ﷺ: «**كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ**». فسمى «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**» كلمة، و«**سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ**» كلمة، مع أنها جملة وليست لفظًا مفردًا، فدل على أن الكلمة تُطلق على الجملة، لا كما يقوله النحويون: الكلمة تُطلق على اللفظ المفرد الذي لا يفيد إلا مع غيره.

وقوله ﷺ: «**إِنَّ أَصْدَقَ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ**». لبيد ابن ربيعة الشاعر الفحل في الجاهلية، أسلم رضي الله عنه وحسن إسلامه، وترك الشعر، واستبدله بالقرآن، وقال وهو في الجاهلية يرثي بعض الملوك، أو بعض الرؤساء، أو الكرام من العرب[(١)]:

(١) ديوان لبيد بن ربيعة العامري (ص٨٥).

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلُ
وكلُّ أُنَاسٍ سوْفَ تَدخُلُ بينَهُمْ دُوَيْهِيَةٌ تَصفَرُّ مِنها الأنَامِلُ
وَكُلُّ امْرِئٍ يَوْمًا سَيَعْرِفُ سَعْيَهُ إِذَا حُصِّلَتْ عِنْدَ الْإِلَهِ الْحَصَائِلُ

إلى آخر ما جاء في القصيدة، وهي من الشعر الجيد الجذل.

فكل شيء ما عدا الله باطل، أي: لا يُراد به وجه الله جَلَّوَعَلَا، أما العمل الصالح فهذا يُراد به الله جَلَّوَعَلَا، وكذلك كل ما سوى الله مخلوق وفان، كل شيء هالك إلا وجهه، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧]، فكل مخلوق فان، ويبقى وجه الله الواحد الأحد.

الشاهد من ذلك: قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَصْدَقَ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ**».

مع أنها ليست بحرف، ولا اسم فقط، ولا فعل فقط، وإنما هي جملة، ومع هذا سماها الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلمة.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية [آل عمران:٦٤]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة:٤٠] وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

وَلَا يُوجَدُ لَفْظُ الكَلَامِ فِي لُغَةِ العَرَبِ إِلَّا بِهَذَا المَعْنَى، والنُّحَاةُ اصْطَلَحُوا عَلَى أَنَّ يُسَمُّوا الِاسْمَ وَحْدَهُ وَالفِعْلَ وَالحَرْفَ كَلِمَةً، ثُمَّ يَقُولُ بَعْضُهُمْ: وَقَدْ يُرَادُ بِالكَلِمَةِ الكَلَامُ. فَيَظُنُّ مَنِ اعْتَادَ هَذَا أَنَّ هَذَا هُوَ لُغَةُ العَرَبِ.

وَكَذَلِكَ لَفْظُ (ذَوِي الأَرْحَامِ) فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يُرَادُ بِهِ الأَقَارِبُ مِنْ جِهَةِ الأَبَوَيْنِ، فَيَدْخُلُ فِيهِمُ العُصْبَةُ وَذَوُو الفُرُوضِ، وَإِنْ شَمِلَ ذَلِكَ مَنْ لَا يَرِثُ بِفَرْضٍ وَلَا تَعْصِيبٍ، ثُمَّ صَارَ ذَلِكَ فِي اصْطِلَاحِ الفُقَهَاءِ اسْمًا لِهَؤُلَاءِ دُونَ غَيْرِهِمْ، فَيَظُنُّ مَنْ لَا يَعْرِفُ إِلَّا ذَلِكَ أَنَّ هَذَا هُوَ المُرَادُ بِهَذَا اللَّفْظِ فِي كَلَامِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَكَلَامِ الصَّحَابَةِ. وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ.

وَلَفَظُ (التَّوَسُّلِ) وَ(الاسْتِشْفَاعِ) وَنَحْوُهُمَا دَخَلَ فِيهَا مِنْ تَغْيِيرِ لُغَةِ الرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ مَا أَوْجَبَ غَلَطَ مَنْ غَلَطَ عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ وَلُغَتِهِمْ.

وَالعِلْمُ يَحْتَاجُ إِلَى نَقْلٍ مُصَدَّقٍ وَنَظَرٍ مُحَقَّقٍ. وَالمَنْقُولُ عَنِ السَّلَفِ وَالعُلَمَاءِ يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةٍ بِثُبُوتِ لَفْظِهِ وَمَعْرِفَةِ دَلَالَتِهِ، كَمَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ المَنْقُولِ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ. فَهَذَا مَا يُتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الحِكَايَةِ.

الشَّرح

قوله تعالى: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ [الكهف:٤].

هذه جملة، ومع هذا سماها الله كلمة، قال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾، مع أنها جملة، فهذا يرد على النحويين أنهم يقولون: الجملة ما أفاد، وأما الكلمة فهي اللفظ الذي لا يفيد إلا مع غيره.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي: اليهود والنصارى، حين طلبهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمناظرة ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ هذه الكلمة هي: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ هذا كلام، وليس حرفًا أو فعلًا أو اسمًا فقط كما يقوله النحويون.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾، وكلمة الله هي دينه كله وشرعه، وكلمة الذين كفروا هي الكفر والشرك، وليست حرفًا ولا اسمًا ولا فعلًا فقط، بل كل ما عليه الكفار.

قوله: (وَلَا يُوجَدُ لَفْظُ الكَلَامِ فِي لُغَةِ العَرَبِ إِلَا بِهَذَا المَعْنَى). فدل على أن تقسيم النحويين اللفظ إلى كلام وكلمة، هذا اصطلاح منهم.

قوله: (والنُّحَاةُ اصْطَلَحُوا عَلَى أَنَّ يُسَمُّوا الِاسْمَ وَحْدَهُ وَالفِعْلَ وَالحَرْفَ كَلِمَةً). كقول ابن مالك: «وَاسْمٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ حَرْفٌ الْكَلِمْ».

قوله: (ثُمَّ يَقُولُ بَعْضُهُمْ وَقَدْ يُرَادُ بِالكَلِمَةِ الكَلَامُ). يعني: على ندرة. وهذا ليس صحيحًا، فليس على ندرة، بل يُراد بالكلمة الكلام كثيرًا، فالكلمة مرادفة للكلام، يقول ابن مالك: «وَكِلْمَةٌ بِهَا كَلَامٌ قَدْ يُؤَمّ».

قوله: (فَيَظُنُّ مَنِ اعْتَادَ هَذَا أَنَّ هَذَا هُوَ لُغَةُ العَرَبِ). وليس هو لغة العرب، وإنما هو اصطلاح.

قوله: (وَكَذَلِكَ لَفْظُ (ذَوِي الأَرْحَامِ) فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ). الشيخ -كما هو معروف عنه- يفيض في الأمور ويستطرد؛ لأجل تأصيل الشيء وتقعيده حتى يرسخ.

قوله: (يُرَادُ بِهِ الأَقَارِبُ مِنْ جِهَةِ الأَبَوَيْنِ فَيَدْخُلُ فِيهِمُ العُصْبَةُ وَذَوُو الفُرُوضِ، وَإِنْ شَمِلَ ذَلِكَ مَنْ لَا يَرِثُ بِفَرْضٍ وَلَا تَعْصِيبٍ). في اصطلاح كثير من الناس أن ذوي الأرحام هم الورثة فقط، مع أن ذوي الأرحام كل من تربطك بهم قرابة من جهة الأب أو الأم، سواء كانوا الوارثين أو غير الوارثين، فالاصطلاحات لا تحكم على الوضع الأصلي.

قوله: (ثُمَّ صَارَ ذَلِكَ فِي اصْطِلَاحِ الفُقَهَاءِ اسْمًا لِهَؤُلَاءِ دُونَ غَيْرِهِمْ). أي: للورثة فقط الذين يرثون بفرض أو تعصيب، يسمونهم ذوي الأرحام، بل إن الآخرين -أيضًا- يسمون ذوي الأرحام، وهم الذين لا يرثون لا بفرض ولا تعصيب، مثل: الخال، والخالة، والجد من قبل الأم، والجدة، وجدة الأم، وما أشبه ذلك.

فيعرفون ذوي الأرحام ويقولون: من لا يرث لا بفرض، ولا تعصيب، بل يرث بالرحم المجردة فقط. وهذا اصطلاح فرضي. وفي لغة العرب: ذوو الأرحام يشمل الورثة وغيرهم، ويشمل القرابة أيضًا.

قوله: (**فَيَظُنُّ مَنْ لَا يَعْرِفُ إِلَّا ذَلِكَ أَنَّ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِهَذَا اللَّفْظِ**). يعني: بذوي الأرحام.

قوله: (**وَلَفَظُ (التَّوَسُّلِ) وَ(الاسْتِشْفَاعِ) وَنَحْوُهُمَا دَخَلَ فِيهَا مِنْ تَغْيِيرِ لُغَةِ الرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ مَا أَوْجَبَ غَلَطَ مَنْ غَلَطَ عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ وَلُغَتِهِمْ**). رجع على الأصل الذي يتكلم فيه: التوسل في كلام الله ورسوله، فالوسيلة في كلام الله ورسوله: الأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥]، وقال: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء:٥٧]، أي: القرب منه سبحانه، تقربوا إليه بالأعمال الصالحة، هذه هي الوسيلة في كتاب الله وسنة رسوله، ولكن عند المخرفين يقولون: الوسيلة أن تجعل بينك وبين الله واسطة من الخلق.

وهذا ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل الوسيلة تُطلق ويُراد بها الأعمال الصالحة التي تقرب إلى الله، وتُطلق -أيضًا- على ما ذكره النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أنها منزلة في الجنة، وقال: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي**

إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»(١). فالوسيلة تأتي بمعنى العمل الصالح، وهذا في لغة القرآن.

وتأتي بمعنى المنزلة في الجنة، وهذا صحيح من كلام الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وتأتي بمعنى اتخاذ المخلوقين وسائط بين السائل وبين الله، وهذا باطل، وهو الاصطلاح الذين يريدونه، يقولون: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾، أي: اجعلوا بينكم وبين الله وسائط. فإذا قلت لهم: هذا شرك. قالوا: لا، هذه وسيلة، والله أمر باتخاذ الوسيلة، فيفسرون كلام الله باصطلاحهم الباطل، وهذه مصيبة جدًّا.

قوله: **(وَالعِلْمُ يَحْتَاجُ إِلَى نَقْلٍ مُصَدَّقٍ وَنَظَرٍ مُحَقَّقٍ)**. العلم يحتاج إلى أمرين:

* إلى نقل ثابت عن الله ورسوله.

* وإلى علم صحيح، وتفسير كلام الله، وكلام رسوله، وبيان الفقه الذي فيهما.

قوله: **(وَالْمَنْقُولُ عَنِ السَّلَفِ وَالعُلَمَاءِ يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةٍ بِثُبُوتِ لَفْظِهِ وَمَعْرِفَةِ دَلَالَتِهِ)**. هذا معنى نقل مصدق، أي: يُعرف ثبوت نقله، ثم يُعرف دلالته، هذا المعنى المحقق.

قوله: **(كَمَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ الْمَنْقُولِ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ. فَهَذَا مَا يُتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الحِكَايَةِ)**. الحكاية التي مرت لمالك مع أبي جعفر المنصور، فإنها جاء فيها

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٤٦).

ألفاظ لم يقلها مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولا تنطبق على مذهبه، وأيضًا: هي باطلة من جهة السند، فهي باطلة لفظًا وسندًا ومتنًا؛ لأنهم يزعمون أن مالكًا قال لأبي جعفر: «فإنه وسيلتك ووسيلة أبيك آدم». الوسيلة: بمعنى الواسطة على اصطلاحهم هم، مع أن المعنى الصحيح للوسيلة هو التقرب إلى الله جَلَّ وَعَلَا بالعمل الصالح، فهم كذبوا على مالك، وأسندوا إليه اصطلاحهم الباطل أن الوسيلة هي واسطة المخلوق عند الخالق.

وَنُصُوصُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مُتَظَاهِرَةٌ بِأَنْ اللهَ أَمَرَنَا أَنَّ نَصْلِيَ عَلَى النَّبِيِّ وَنُسَلِّمَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَهَذَا مِمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ، وَكَذَلِكَ رَغَّبَنَا وَحَضَّنَا فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَلَى أَنْ نَسْأَلَ اللهَ لَهُ الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ، وَأَنْ يَبْعَثَهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدَهُ.

فَهَذِهِ الْوَسِيلَةُ الَّتِي شَرَعَ لَنَا أَنْ نَسْأَلَهَا اللهَ تَعَالَى كَمَا شَرَعَ لَنَا أَنْ نُصَلِّيَ عَلَيْهِ وَنُسَلِّمَ عَلَيْهِ هِيَ حَقٌّ لَهُ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ وَالسَّلَامَ حَقٌّ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَالْوَسِيلَةُ الَّتِي أَمَرَنَا اللهُ أَنْ نَبْتَغِيَهَا إِلَيْهِ هِيَ التَّقَرُّبُ إِلَى اللهِ بِطَاعَتِهِ، وَهَذَا يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ مَا أَمَرَنَا اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَهَذِهِ الْوَسِيلَةُ لَا طَرِيقَ لَنَا إِلَيْهَا إِلَّا بِاتِّبَاعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَطَاعَتِهِ، وَهَذَا التَّوَسُّلُ بِهِ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ.

الشَّرح

قوله: (وَنُصُوصُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مُتَظَاهِرَةٌ بِأَنْ اللهَ أَمَرَنَا أَنَّ نَصْلِيَ عَلَى النَّبِيِّ وَنُسَلِّمَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَهَذَا مِمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ). هذا في معرض الرد على الذين يأتون إلى قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقولون: جئنا لنصلي عليه؛ لأن الله أمرنا أن نصلي ونسلم عليه، ويظنون أن الصلاة والسلام عليه عند القبر لها مزية، وهذا أمر لا أصل له، الله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦]، ولم يقل: ائتوا إليه حيًا، أو ميتًا، واحضروا عنده، أو عند قبره، وصلوا عليه، وسلموا تسليمًا، بل أمر أمرًا مطلقًا؛ لأن التردد عليه عند القبر وسيلة إلى الشرك والغلو، ولو كان

بحجة الصلاة والسلام عليه، والصلاة والسلام عليه يحصلان في أي مكان، فالله قد وسع هذا، ولهذا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ**»(١) في أي مكان، الحمد لله أن هذا واضح، ولا حجة لهم فيه، وهذا أسلم من اللغو واتخاذ قبره عيدًا يُعتاد التردد عليه، فهذه شبهة وضح الله حكمها، ووضحها الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا لما رأى سبطه الحسن بن الحسن بن علي رجلًا يُكثر الاختلاف إلى قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: يَا هَذَا! إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي**»، فَمَا أَنْتَ وَرَجُلٌ بِالأَنْدَلُسِ مِنْهُ إِلَّا سَوَاءٍ(٢). فلا مزية لمن صلى عليه قريبًا من قبره على من كان بعيدًا عن قبره، فكل ذلك يبلغه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما الوسيلة، فقد سبق الكلام عليها، وأنها يُراد بها: التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة والعبادة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة:٣٥]، وقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ [الإسراء:٥٧]، فالوسيلة هي: التقرب إلى الله بالعبادة، وليست الوسيلة ما يقوله الخرافيون أنك تجعل بينك وبين الله واسطة من الخلق في قضاء حوائجك، هذه خرافة لا أصل لها، فلم يشرع الله ولا رسوله أن نجعل بيننا وبين الله واسطة في قبول الدعاء وطلب

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٩٤).

(٢) تقدم تخريجه (ص٧٢٤).

الحوائج، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، فليس بحاجة إلى أن يُبلَّغ الدعاء كالمخلوق الذي لا يدري فيُبلَّغ حاجة الناس، بل الله جَلَّوَعَلَا قريب مجيب ليس في حاجة إلى اتخاذ الوسائط في الدعاء، فهذا شيء مما افتراه المشركون من قبل، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، أي: وسائط، وفي الآية الأخرى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، هذه وسائط، وقد أنكر الله عليهم ذلك ونزه نفسه عنه، وأخبر أنه كذب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣].

إذًا: فالوسيلة بمعنى اتخاذ واسطة من الخلق بين الداعي وربه، هذا أمر باطل لا أصل له.

وتُطلق الوسيلة -أيضًا- ويراد بها: منزلة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلا لعبد صالح من عباد الله، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ**»(١). فإذا أجاب المسلم المؤذن، وقال مثلما يقول، ثم قال: «**اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ**». حلت له شفاعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة. وقد شرع لنا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نطلبها له، وندعو أن الله أن يعطيه إياها؛ لننال بذلك شفاعته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٤٦).

قوله: (هِيَ حَقٌّ لَهُ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ وَالسَّلَامَ حَقٌّ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له حقوق على أمته، منها: محبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واتباعه، وتصديقه فيما أخبر، والصلاة والسلام عليه، وأن نسأل الله له الوسيلة.

قوله: (وَالْوَسِيلَةُ الَّتِي أَمَرَنَا اللهُ أَنْ نَبْتَغِيَهَا إِلَيْهِ هِيَ التَّقَرُّبُ إِلَى اللهِ بِطَاعَتِهِ). التي أمرنا الله أن نبتغيها إليه بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة:٣٥]، أي: الطاعة، لا كما يقول الخرافيون أن نجعل بيننا وبينه واسطة من الخلق. فهذا قول مبتدع، وكذب على الله -سبحانه- وعلى رسوله.

قوله: (وَهَذَا يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ مَا أَمَرَنَا اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ). كل ما أمر الله به ورسوله، فهو وسيلة إلى الله سبحانه.

قوله: (وَهَذِهِ الْوَسِيلَةُ لَا طَرِيقَ لَنَا إِلَيْهَا إِلَّا بِاتِّبَاعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَطَاعَتِهِ). لا باتخاذ وسائط بيننا وبينه، وإنما بطاعته وطاعة رسوله، وعبادته وحده لا شريك له، هذه الوسيلة التي أمر الله أن نتخذها.

قوله: (وَهَذَا التَّوَسُّلُ بِهِ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ). نعم هذه الوسيلة فرض؛ لأن عبادة الله، وفعل ما أوجب الله، وترك ما حرم الله فرض على العباد، فهي وسيلة مفروضة على العباد.

فهرس الموضوعات

تم بحمد الله الجزء الأول